

خِصَامُ الْعَالَمِ الْأَسْلَمِيِّ



دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت

مقدمة

الطبعة الثانية

بقلم الامير شكيب ارسلان

ظهرت ترجمة هذا الكتاب الى العربية مع حواشيتها سنة ١٣٤٣ هجرية وفقى سنة ١٩٢٥ ميلادية ، فانتشرت في جميع العالم العربي انتشاراً عجيبياً ، ولم يمض على طبع الكتاب أربع أو خمس سنوات ، حتى نفدت نسخه بأجمعها ، وصارت تؤدّى على النسخة الواحدة أضعاف قيمتها الأصلية ولا ينزل عنها مالكمها . ولقد سدوا في مصر ألف نسخة برسم المدارس ، فلم يجدوا ولا عشر نسخ . وعليه تقدم أناس يريدوننا على تجديد طبعه ، وتعميم نفعه ، فبادرنا الى الاجابة ووجدنا في ذلك عين الصواب وبعد الأخذ والرد قسم الله للسادة الأماثل عيسى افندي البابي الحلبي وشركائه القيام بهذه النفحة الجديدة للعالم الاسلامي والطرفة النفيسة للحقيقة والعلم

ولما كان قد مضى على الطبعة الأولى سبع سنوات تامات ، جرى خلالها حوادث ومهمات ، ووقائع هامات ، وحصل مايسوء ومايسر ، وطراً ما هو حلو وما هو مرّ ، وبالأجل تجددت قضاياهم التاريخ العام ، فضلاً عن تاريخ الاسلام ، وذلك لأن الحرب العامة كانت أشبه بزلزال جيولوجي عام ، كاد يأتى الأرض من قواعدها ، فكثرت على أثرها الانقلابات والتحولات ، وازدادت قابلية الأمم للتأثرات ، وتمّ في هذه السنين السبع بين طبعي الكتاب الأولى والثانية ما لا يحصل أكثر منه في الحقب الطوال ، كان لا مندوحة لنا عن مراجعة النظر في الحواشي التي علقناها على الكتاب أول مرة ، لنضم اليها ما جدّ من الوقائع التي جرت خلال هذه الأعوام ، الأخيرة ونردف الأول بالآخر ، والأصل بالفرع ، وتكون الحواشي التي توخينا تعليقها على موضوع موضوع من مباحث العلامة ستودارد قد جاءت بتمام البحث ، ووفت بالغرض ، ونقعت الغلّة ، ولم تبق في النفس حاجة ، وأنت بصورة الوقائع متسلسلة من الأول الى هذه الساعة . ثم انه لم ينحصر الأمر في سرد الوقائع ، ولا في تقييد

ما تجد في هذه الاعوام الأخيرة من الحوادث ، بل تعداه الى اكمال مباحث كان ضيق الوقت قد قضى باختصارها ، ومطالب أجباً تخرج السكان دون استنزافها الى أصدارها . فاطلقنا هذه المرة فيها للقلم عنانا ، وأرهفنا للتحقيق سناناً ، وأكملنا ما كان قضى ضيق الوقت بإبقائه ناقصاً ، أو بردّه عن محله ناكساً . ولسنا ندعى مع ذلك ، أننا لم نبقي في القوس منزعا ، ولم ندع الى الموضوع مرجعا ، ولا نقول ان كل مبحث قد استوفى من الاحفاء قسطه الأوفى ، فلا يجد القارئ للزيادة موضعاً . حاشا أن نقول ذلك ونحن ندرى وكل أحد من أرباب العلم يدرى ، أن كتابا يتوخى فيه صاحبه الاحاطة بأخبار العالم الاسلامى على وجهها ، والانيان بالمسائل الاسلامية كلها من فصّها ، لا مناص من أن يملأ بالأقل ثلاثين مجلداً من قطع الجزئين اللذين ظهر بهما الكتاب في طبعته الأولى ، والأجزاء الأربعة التي يظهر بها في طبعته الحاضرة وعند ذلك يصح أن يقال ان في اللغة العربية انسيكولو بيدا اسلامية أشبه بموسوعات العلوم التي عند كل أمة من الأمم الراقية التي يقتدى بها

وهذا الأمر وهو وضع معاملة اسلامية وافية ضافية ، لا يجوز أن يغيب عن نظر الحكومات الاسلامية ، التي تبغى الفلاح ، وتنشد الرقي والطيران الى النجاح بجنّاح ، فانه وان كانت كتب التاريخ في الاسلام أكثر من أن يحصيها العدّ وكان المسعودى ذكر في مقدمة مروج الذهب نحواً من سبعين مؤرخاً مع أنه لم يكن مضى على الاسلام الا ثلاثة قرون ، وان كانت سعة التأليف في الاسلام أعظم من أن يتصورها العقل ^(١) وكان الذين لهم منات من التأليف في الاسلام يحصون بالعشرات ان لم يكن بالمئات وكان الطبرى يعرض التاريخ على تلاميذه في ثمانين ألف ورقة ، وكان ابن عروة الحنبلى يؤلف تفسيراً في ١٤٠ مجلداً كبيراً ، وكان المؤرخ سيدو صاحب الكتاب الافرنسى المشهور عن مدينة العرب يقول : « ان منهم كالسيوطى مثلاً - من صنف من الكتب أكثر مما قدر كثير من الافرنج أن يقرأوا في حياتهم ، وكان صبح الأعشى في عصره كتاباً نادر النظر في بابه ، فلا ندر أن نقول ان للاسلام انسيكولو بيدا متناسبة مع مقامه بين الأمم ، أو مع الدور الذي مثله في التاريخ البشرى محشودة فيها جميع الموضوعات المتعلقة بالاسلام والمسلمين ، بحيث يستغنى بها الباحث عن مراجعة المئات والألوف من المصنفات » . فهذا الذى ينبغى للمسلمين أن يهتموا بإزاحة غلته

(١) سبق لنا مقالة منذ ثلاثين سنة في مجلة « المشرق » اليسوعية في بيروت عنوانها « سعة التأليف في

الاسلام » أتينا فيها بأمثال مدهشة في هذا الباب

وسد حاجته ، وإن يكون إلا بتأليف لجان يكون فيها نخبة من الأفراد المتخصصين كل في فنه والأفذاذ المبرزين كل بين أهل قرنه ، ولا تقدر على ذلك في رقعتنا الشرقية اليوم إلا الحكومات والدول فأما الأفراد فليسوا له بمقرنين . وكذلك ليس في العالم الاسلامي جمعيات خيرية ولا علمية تستطيع أن تبذل البذل الذي يسد هذه الخلة وإن وجد فلا يزال في مهد الطفولية .

أما كتابنا هذا في أجزائه الأربع هذه المرة ، فإنه الى أن يتاح للإسلام حظ هذا العمل الكبير ، يكون من الكتب التي تفي بجانب من هذا العوز ، ويجوز أن يقال انه معاملة اسلامية صغيرة ، بل هو في المباحث الجغرافية والتاريخية والاحصائية عن أقطار الاسلام النائية وبقاعه المجهولة فذ في باب ، وكذلك يمتاز هذا الكتاب بالمباحث السياسية التي قيض لمحررها أن يعلمها من عين صافية ، وأن يقف على الرواية الوثيقة منها بطول خبرته ، وقرب سنده ، واستمرار مزاولته لهذه الأمور من ٤٧ سنة . وفيه بعد تراجم وأخبار ، لم يسجلها كتاب ولا جرى بها قلم ، فلا يجدها الناشد في غيره اذ هي نتيجة مشاهدات الكاتب وما رآه بالعين وما سمعه بالأذن وما كان له فيه أخذ ورد . وعلى كل حال ففي هذا الكتاب من الطريف ما لا يسع انكاره الجاحد ، ولا يضره مرء الحاسد . ولا شك في أن الأمة الاسلامية الناهضة الى تجديد تاريخها ، النازعة الى النماء بجميع فروعها وشماريحها ، ستفطن الى كل ما يعوزها من هذه المقاصد الجليلة ، ومن جللتها تأليف المعلمة الكبرى التي هي من ضرورات رقيتها وأشرط نموها . وبالله التوفيق ومنه نستمد الهداية الى أقوم طريق وصلى الله على النبي العربي العريق وعلى آله وصحبه وسلم ؟

شكيب أرسلان

جنيف في ١٥ ذى القعدة ١٣٥١

مقدمة الطبعة الاولى

للهرب

الجد لولية ، والصلاة على نبيه ، والسلام على كل هادي الى سوية . وبعد فان الاوربيين الذين يغورون في كل أمر ، ويختلون كل سر ، ويوسعون كل قضية درسا ، ولا يسأمون في أطراف الأرض بحثاً ولا خفصاً ، يذهبون الى ان في العالم الاسلامي حركة شديدة ، وغلياناً عظيماً ، وان آسية وإفريقية ماخضتان بحوادث خطيرة يكون من الجهل تجاهلها ، ومن الخرق الاستخفاف بها . ومنهم من يغلو في تقدير هذه الحركة وتوسيع دائرتها ، فيرى الاسلام من أقصاه الى أقصاه متحسحساً للقيام ، والشرق من أوله الى آخره متحفزاً للصراع ، ويجد العالم القديم كله مستوفزاً يريد ان يقتني اثر اليابان ، ليسترد مجداً سالفاً ، ويستجد عزاً آنفاً ، ويشحط عنه كل غريب ، ويكشف كل مغير ، وان الشرقيين لا سيما المسلمين منهم ، يأبون الا استرجاع أملاكهم المغصوبة باصبارها ، واحراز حقوقهم المهضومة بحذافيرها ، كما أن نفراً تراهم بالعكس ، يقولون ان الاسلام جسم متفكك الاجزاء ، متقطع الأوصال ، عاجز عن الصراع ، فاقد لأسباب الدفاع ، ينقصه العلم ، كما يعوزه السلاح ، لا يريش ولا يبرى ، ولا يقدر على ثورة ذات بال ، فمن أحق الحق وأسفه السفه أن تقيم أوروبا للاسلام وزناً ، وأن تحسب للشرق — حاشا اليابان — حساباً ، وأن تمهل الاسلام في استصفاء مايق له على الاستقلال ، الى ان تكون عصت مقادته على الراكب ، وعست قناته على الغامر ، فالأحزم والأحوط هو مضاء أوروبا في سياستها المبنية على الفتح ، غير مبالية بصخب ولا اعتراض ، ولا متحرجة عن تفجير الدماء في قمع ثورة أو منع انتفاض . ولهذا تجد هذه الفئة ممعنة في مطامعها ، مستمرة في غلوائها ، مطيعة في اختلاس الممالك دواعي أهوائها ، لاتنظر الى العواقب ، ولا تتصرف في أمر تصرف مخاذير ولا مراقب . وكان الناس يظنون أن الحرب الكونية بما أتت به من المثلثات والعبر ، وأجرته من جداول الدماء وسيول العبر ، ونزفته من أمواه الحياة ، ونسفته من أركان العمران ، وأنفدته من القناطير المقنطرة ،

وطيرته من المجاهد الموفرة ، ووضعت من الاعباء على كاهل البشرية ؛ وأورثته من الانسراق في كل عضو من أعضاء الهيئة الاجتماعية ، قد تُنبه رجال الدول الى سير القصد ، ومراعاة الحق وإيثار الرفق ، والصدوف عن تُرهات الحيف ، والتكلم بغير نغية السيف ، لأنه من المقرر أن هذه الكائنة العظمى ، والطامة الكبرى ، كانت لها جلة عوامل أهمها التهافت على الاستعمار ، والتسابق على اقتسام الأقطار ، والظن بأن كل ما هو غير أوربي فانما هو آلة للاستغلال وموضوع للاستثمار . نخب أيضاً الأمل بالاتعاظ بهذه الحرب التي لم يُر التاريخ لها مثالا ، وأخطأت الفراسة بأن هذه المصائب والأهوال تلهم ساسة الدول الغربية رشداً واعتدالا . بل رانت المطامع على البصائر ، وغلب الجشع على الحجى ، وطمست الاهواء الالباب . مع أنه كان يكفي هؤلاء مثلة معاهدة « فرساي » التي لو كانت مبنية على قاعدة الانصاف لما احتيج اليوم الى لجنة الخبراء ، ولما وقع ما هو واقع وما سيقع من الخصاص والمرء ، وما سيفضي يوماً الى حرب ثانية ، ومصائب تالية . وكذلك معاهدة « سقر » التي اضطر واضعوها أن يمزقوها ، بعد تلك الدماء التي أراقوها ، والبلدان التي غادروها خرابا وزرعوها أسنة وحراباً . فغ أنهم رأوا خطأهم صراحية ، ومع أن زرعهم لم يثمر إلا شوكة ، ومع أن العداوة قد لقت من ذى أف ، وان دواعى الحرب عادت أكثر مما بدأت ، لا يريدون أن ينتهوا عن ضلالهم القديم ، ولا أن يربعوا على ظلمهم الجديد ؛ ولا أن ينظروا الى ما عليهم من الديون المجهضة الاجال ، ولا يفكرون فيما على ظهورهم من أمثال الجبال ، وانما يعولون في حمية مطامعهم على النيران المحرقة ، والقنابر المصعقة ، وعلى الحرب الجوية ، بأعداد الألوف المؤلفة من الطيارات التي يرونها أخصر طريقاً وأخف مؤونة وأوحى قتلاً . ولا يلاحظون ما في قتل النساء والأطفال من الفظاعة التي لا تليق إلا بالمتوحشين الذين يأكل بعضهم لحم بعض ، وما في تدمير المساكن على رؤوس الأبرياء والودعين من مخالفة دعوى الانسانية التي يزعمون أنهم حمايتها في الأرض .

فالعالم الاسلامى الذى لا يزال محور سياستهم قهره واعناته ، وتجريده من السلاح بكل وسيلة ، والحيولة بينه وبين الاتحاد والتماسك بكل حيلة ، احتياطاً من وراء رسفاته في قيوده الحاضرة ، وأماناً على ديمومة خنوعه لسلطتهم القاهرة ، لا يصح أن يقال انه بلغ من النهضة الدرجة التي تكفل له حطم سلاسله الثقيلة ، واسترداد ممالكه العريضة الطويلة،

واستئناف معاليه الخالصة ، ومصيره مع العالم الأوربي الى حالة متساوية . ولا أدرك بهذه السنين القلائل من اليقظة ما يكفي لتجديد ما أخلق من حاله ، واستشن من شأنه ، بل لا يزال وباللأسف الجهل مخيماً على أكثر آفاه ، وما برحت العصبية الجاهلية عاملة عملها في تفكيك عراه وبعثرة أجزائه ، كما أن الرعب من سطوة الأجانب الا من رحم ربك ملء الجوانح ، واليأس من استطاعة القيام فاش في الأفكار والخواطر . وكأنه الى هذه الحالة بعينها نظر النبي ﷺ حينما قال : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل جانب تداعى الأكلة على قصصها . قالوا : أو من قلة منا يومئذ يارسول الله ؟ قال : لا . ولكنكم غشاء كغشاء السيل يُعمل الوهل في قلوبكم وينزع من قلوب أعدائكم ، من حبكم الدنيا وكرهيتكم الموت » أو كما قال . نعم صار المسلمون ، الا الأقل منهم الى زمان لا تغنى عنهم كثرتهم شيئاً بل صارت الفئة القليلة من غيرهم تتحكم في الفئة الكثيرة منهم ، وتخبطهم بكل عصا ، وهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، وراح الأجنبي يفتح بلدانهم بهم ويسلط بعضهم على بعض ، ويقتل هذا بذاك مستفيداً من قتل الاثنين : الذي يقاتله والذي يقاتل معه . وإذا سالت أحدهم لماذا اعطاء هذه المقادة كلها واقتحام الموت في سبيل الأجنبي الذي تغلب عليه ، أجابك انه انما يساق الى الموت رغماً . والحال أن الموت الذي يخشاه في عصيان الأجنبي ، هو ملاقيه في طاعته ، فهو من خوف الموت في الموت ، ومن حذر العذاب في أشد العذاب . فلا بد لاستقلال الاسلام من زوال هذه الأوهام ، ومن انتشار المعارف التي لا تجتمع مع الذل في مكان ، ولا تبرح دون تلك الغاية مصاعب وقُحَم ، ومصائب وُعُجَم ، وليال مظلمة طوال ، ومعارك تشيب لها ذوائب الأطفال . وانما الذي يخطئ فيه سكارى العز ونشأوى الساعة الحاضرة من الأوربيين ، اعتقادهم أنها حالة ستبقى على الدهر ، وان ثلثائة وأربعين مليوناً من المسلمين سيلبثون الى الأبد رهن اسارهم وفريسة استعمارهم ، ووقود نارهم ، واعتبارهم الشرقيين عَمَلَةً يسمن الغرييون بهزاهم ، ويسعدون بشقائهم ، ويقوون بضعفهم ، ويحيون بحتفهم ، حقاً لقد تجاوزوا الحد ضلالاً وغروراً ، واستكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ، وظنوا أنهم انما كتبت لهم السيادة خالصة من دون الناس وأمنوا جفوات الأيام ، وأخذوا الطريق على الفلك الدوار فلا يدور لهم الا بحسب المرام . كلا هذا منهم خيال زائل ، وهم أرق من شبح باطل ، فلن يبق الشرقيون أبداً الدهر مدّة

هينة عليهم نفوسهم ولن يصبروا أكثر مما صبروا على أن يلي أمورهم من ليس منهم ، ولا بد أن يأتى الزمن الذى يصبح كلٌّ فيه سيداً فى دياره ، مانعاً لذماره ، مساوياً فى الارض لمن ظن سلطانه سرمداً ، ودوره مؤبداً ، وعمل اليوم عمل من لا ينظر ما يكون غداً ، لا سيما المسلم الذى يقرأ كل يوم فى قرآنه ما يجعله بكل جارحة من جوارحه رجلاً ولا يرضى له بالاستقلال بدلاً ، وينفخ فيه من روح الانفة ما يصور الذل كفراً ، ويلقى فى روعه من حب العلم ما يصير الجهل وزراً ، ويحتم عليه من الأخذ بأسباب القوة ما يحيل الضعف شركاً . كلا لن يلبث الشرق لدى دول الاستعمار هو الشحمة الرقعى ، والامم التى لا تملك لأنفسها حقاً ، ولا تنفض عن أعناقها رقاً ، ولا يمكن أن يظل الاوربي سيد الارض غير مدافع وصاحب الحكم غير مزاحم متسلطاً على ما فى الدنيا من الجهات النفيسة ، مستأثراً بما بين المشرق والمغرب من الجنبات الرئيسة ، فلم يرح الدهر قلباً ، والدوام محالاً ، والتاريخ يركب الامم طبقاً عن طبق ، ويلحق من تأخر بمن سبق ، وما من بهشة الا وراءها جهشة ، وقد كذب من طمع فى صفو بلا كبر ، وصعود بلا حذر . ومن أعظم الخطا الظن بأن الشرق لا يلم على شعث ، وان آسية وافريقية لن تنهضا من عثار وهما ثلثا العالم ، ولقد سار الشرق فى مدة وجيزة عقبات جياذاً ، واجتاز أزمات شداداً ، وهو ماض فى سيره الى الامام لا سبيل بعد اليوم الى تعويقه ، ولا حاجز يمكن أن يقف فى طريقه بدسائس تلقى ، ومبالغ سرية تنفق ، وأخلاق تُفسد ، وذمم تُشرى وأشرارك تبث ، وأسياف تُسل . ولا المحلقات فى الجو تقدر على كم الأفواه ، ولا الغازات السامة تقوى على إطفاء نور الله ، وما تزيد هذه الوسائل تلك الأمم المستضعفة الاشوقاً الى الحرية ، ونداء الى الثارات واصراراً على الضغائن ، ومهما يكن من حيل العباد فلا يكون سنن هو سائر ولله أمر هو بالغه .

وقد كتب كثير من المؤلفين الأوربيين على الحركة الاسلامية بعد الحرب ، فمنهم مخطئ ومنهم مصيب ، ومنهم من خلط قولاً سديداً وآخر بعيداً . ومنهم من تكهن بالشئ وأنذر بالويل . ومنهم من أحسن الظن وهُدِى الى الطيب من القول . ولا شك فى كون خيرة ما أُلِف فى هذا الباب ، ونبله ما خيض من هذا العباب ، هو الكتاب المسمى « بالعالم

الاسلامى الجديد ^(١) « تأليف العلامة الحضيف البليغ المستر ستودارد الأمريكى الذى أخرجه كتاباً جامعاً وشهاباً لامعاً ، وحصيلة بحث دقيق ، ونتيجة احفاء عميق ، فهو فى هذا الموضوع أفضل المؤلفات على التحقيق . توخى صاحبه العدل فى الحكم والاعتدال فى الوصف والوقوف عند اعتراض الشك ، وأبى القاء الكلام على رُسَيْلَاتِهِ وازناً الأمور بميزانها غير مقصّر ولا مشطّ ، ولا مفرط ولا مفرط وهو الأمد الذى يكبو دونه جواد غيره من المصنفين ، والغاية التى لا تتاح الا للافذاذ من صميّابة المحققين . وضعه محرره باللغة الانكليزية وترجه بعضهم الى الفرنسية وربما ترجم الى غيرها من اللغات الاوربية ، ونقله أحد ألباء الترك الى التركية ، ولكن أكثر من أعجب بهذا الكتاب هم أدباء العرب ، فقد تبارى عدة من أفاضلهم فى تعريبه خدمة لقومهم ونصحاً ، وانبرت أقلامٌ مرهفة لجلاء عرائسه على منصة هذه اللغة الفصحى ، وانما سبق غيره الى الاتمام ، الشاب الأديب الكاتب الناهض عجاج افندى نويهض ، فأبرزه فى حلة من نسيج الضاد تشد بها نُطق النطق ، وتقرن بها حلاوة العبارة بلسان الصدق . وكان قد كتب الىّ فى العام الماضى وأنا فى أوروبا يلتمس منى تصدير هذا الكتاب بمقدمة تليق بمقامه الخطير ، وتكون فى أوله مقدمة وهى فى الحقيقة من ورائه ظهير ، وكنت قبل ذلك اطلعت على هذا الكتاب ووقفت على ما فيه من جلال مناح ، وسداد آراء ، وسمعت حسن الاحدوثة عنه ممن يعرفون الخمر من الخل من القراء ، فرأيت له لاضطراره الى الاجال ، وعدم تعرضه لكثير من المسائل الاعلى سبيل الايماء ومن قبيل الاستشهاد ، يحتاج فى بعض المظان الى الاكمال أو الايضاح . فعلق عليه مما أملاه الخاطر الفاتر حواشى رجوت أن تكون طرازاً لحبره ، ونظاماً لدرره ، وأوردت فيه من أخبار العالم الاسلامى ما لا يزال مجهولاً عند أكثر المسلمين ، ومعظم الشرقيين ، بعلة تنائى البلاد وتراخى الابعاد ، وضرب الدول المستعمرة بالاسداد فكانت طريقتى فى هذه التعليقات ترك ما استفاد العلم به وتواتر الخبر عنه ، ولو كان فى حد ذاته جللاً الى البحث عما خفى شأنه ، وعمى خبره ولو كان أمره قُرُطاً ، فاعتنيت بقدر الطاقة

(١) هو بالانكليزية The New World Of Islam وقد رأينا أن ترجمته ب « حاضر العالم الاسلامى » أوفى بالمراد فى العربية وأدل على الغرض من العالم الاسلامى الجديد ، أو العالم الاسلامى الحديث ، أو عالم الاسلام الجديد ، أو عالم الاسلام الحديث . (المترجم)

بتحرير المواضيع الغامضة والمسائل الغريبة ، وتحريت أنباء الاصقاع النائية ، دون البلدان القريبة . اذا من فائدة في البحث عن قضايا تساوى الخاص والعام في فهم معناها وسرد أخبار لم يبق قصرى ولا عمى الا رواها أو علم فخواها ، فتحاشيت في هذه الحواشى التواريخ المشهورة المكررة ، والمعلومات التى فى كل يوم منها خبر فى الصحف المنشرة ، فجاءت بأبكار من المواضيع لم تجلها الاقلام لحدائث عهدها وأخرى من أخبار زوايا من بلاد الاسلام عميت أحوالها لانقطاعها وبعدها ، وقد اخترت فيها كلها التلخيص اذ لو أرخى فيها الكاتب عنان القلم لما حوتها اجلاد ، ولا وفى بها جلد ولا اجتهد . هذا وان رأينا الذى نعول عليه أولاً وآخرأ ، ونرجع اليه باطنا وظاهرا ، ان الشرق أجمع سيتنبه من رقده ، وينهض من كبوته ، وانه كما شهد القرن التاسع عشر استقلال أميركا بأسرها ، فسوف تشهد بقية القرن العشرين استقلال آسية بعروتها وزرّها ، وانه لا تمضى الثمانون سنة الباقية لهذا هذا القرن حتى يلى الاسلام بلاده ، ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده ، ليس هناك كهانة ولا عرافة ، ولا هى مقاصد تدرك بالرق أو العيافة ، ولكن يُعرف المستقبل من الحاضر ، ويدل الاول على الآخر . هذا وان نهوض الشرق هو الشرط الاول فى سؤدد السلام ، وراحة الانام ، وحقن الدماء الحرام ، وحفظ موازنة العالم واستواء الاقسام . ومادام الغربيون يرون الشرق لجيوشهم مجالا ، والاستعمار لدول أوربا دليلا تقفوه يمينا وشمالا ، فالحروب بين الدول قائمة متتابعة ، الى قيام الساعة ، والاختراعات التى تفتخر بها المدنية مصروفة الى استئصال البشر وناهيك مافى مدنية كهذه من الشناعة ، وما دامت جمعية الامم مثل العروض بحراً بلا ماء ، ما وجدت الا لتلبس الاعتداء حلة قانونية ، وتسوغ الفتوحات بتغيير الاسماء ، لا يطيعها سوى ضعيف عاجز ، ولا تستطيع أن تحكم على قوى متجاوز ، فكيف يغطى الحق بالثرثرة والحق أبلج ، وكيف يستقيم الظل والعود أعوج ، فلا مندوحة للامم الشرقية عن الاقتداء باليابان فى التماس المنعة ، ومضارعة الدول الغربية فى ارتياد العلم واقتباس الصنعة ، حتى اذا قرع النبع بالنبع ، ووقع النصل على النصل اقنع كل بدياره ، وأمسك الجار عن هضم جاره ، فان المال السائب هو الذى يعلم الناس الحرام . وان الخوان الممدود هو الذى يبعث الاشتها الى الطعام . فليحرص الشرقيون من كل فريق أن يكونوا أولى قوة مانعة ، وان يوحدوا كلمتهم فيجعلوها كلمة جامعة ، فان بقوتهم خلاص الغرب والشرق ، والادالة من الحرب للسلم ومن الباطل للحق ، بحول الله وكرمه .

مقدمة المترجم

« حاضر العالم الاسلامى » كتاب حديث الوضع ، نُقل الى عدة لغات أوروبية وشرقية ، وبعد إخراج طبع غير مرة فى الانجليزية ، فذاع فى أمريكا وأوربة ، ذيو عاً عظيماً ما كان مثله لكتاب غيره فى بابهِ ، فأحلّه كثير من الساسة والمنصفين وأهل البحث والعلم المحل الأرفع ، وأقبلوا عليه ، واهتدوا به فى الاحاطة الحقّة بكثير من طبائع الاسلام ، والانقلاب الاسلامى على اختلافه فى آسنة وافريقية قبل الحرب العامة وبعدها ، واتخذوا منه عوناً على تدبر ما بين العالم الاسلامى وبين الدول الغربية المستعمرة من صلات وعلاقات ، حق التدبر . وقد شهد المحققون للعلامة ستودارد الأمريكى ، بصحة القول ، وإصابة العدل والحق فى الحكم . ومما قالته (مجلة المجلات) الانكليزية عند صدور الكتاب ان صاحبه « ارميا القرن العشرين » لكثرة مؤلفاته .

وقد رأيت فى نقل « حاضر العالم الاسلامى » الى العربية خدمة بارّة ، رجوت اذا وفقت الى القيام بها أن يتقبلها كل قارئ كريم بقبول حسن . فاستأذنت المؤلف فى الترجمة ، فأجبنى الى ذلك طيب الخاطر . وأمدنى باذن خاص منه ومن شركتى الطبع الامريكية والانكليزية فأشكر له هذا شكراً كبيراً

وبعد الفراغ من ترجمته طلبت من حضرة العربى الكبير ، والسياسى الشرقى الضليع الثقة فى الشؤون الاسلامية ، كاتب العصر صاحب السعادة الأمير شكيب أرسلان ، رعاه الله وأطال بقاءه ، أن يتفضل بكتابة مقدمة يُطرّز بها جيد الكتاب ، فتفضّل سعادته ، وهو على أسفار متلاحقة بين الشرق الأدنى وأوروبة ، بتليسة الطلب على النحو الذى مر بك فى المقدمة السابقة التى وضعها سعادته غير قاصر فضله على وشل ما طلبت ، دون فيوض الفصول الممتعة ، والتعاليق الجامعة ، التى منها ما هو تحت المتن ، ومنها ما هو وارد مستقلاً مع سبق الإشارة اليه . فجاء الكتاب بعد ذلك جامعاً للحسنتين : حسنة الوضع للعلامة ستودارد الأمريكى الغربى ، وقد بلغ من التوفيق فى كتابه علماً وتحقيقاً ، مبلغاً عز على غيره من سبق الواضعين . وحسنة المزيد من فرائد الفصول والخواشى والتعاليق ، لصاحب السعادة الأمير شكيب ، الحجة السياسى الشرقى ، جزاه الله عما بذله فى هذا السبيل خير جزاء ونفعنا بعلمه الواسع ، واضطلاعاه الجامع . وكان الكتاب مجلداً واحداً فعدا بعد المزيد أربعة مجلدات

عجاج نوريض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

« رَبَّنَا لَا تَوَاضِعْنَا أَنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ،
« لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ،

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله
الهاشمي القرشي العدناني ، المبعوث رحمةً ، للعالمين ، وعلى أصحابه وأنصار
دينه الأولين ، ما ذرّ شارق ودرّ بارق ، ونودي في العالم الاسلامي في
حاضره ، كما نودي في غابره ، ايام صلاح الدين : يا لثارات المسجد
الاقصى وفلسطين !!

اما بعد ، فهذه الطبعة الثالثة من كتاب « حاضر العالم الاسلامي »
نقدّمها الى القراء الكرام في الآفاق الاسلامية في المشرق والمغرب ،
آسيويا وافريقيا ، وديار مهجر في سائر القارات ، سنة ١٣٩١ هـ -
١٩٧١ م بعد مضيّ ست واربعين سنة على صدور الطبعة الاولى في القاهرة ،

« بالمطبعة السلفية »^(١) ، وبعد مضي ٣٨ سنة على صدور الطبعة الثانية في القاهرة بمطبعة السادة « عيسى الباي الحلبي وشركاه » . وهذه الطبعة الثالثة تصدر في بيروت ، تصدرها مؤسسة « دار الفكر » للطباعة والنشر والتوزيع .

و كنت اتمنى تانياً حاراً ان يكون واضع المقدمة لهذه الطبعة الثالثة ، مَنْ وَضَعَ المَقْدَمَتَيْنِ ، للطبعَتَيْنِ الأولى والثانية ، العَلَمُ الخطّار ، والكوكب السّيار ، أمير البيان الأمير شكيب ارسلان ، المتعمّد بالرحمة والرضوان ، الراقد في مثوى الارسلانيين آبائه وجدوده ، في « الشويفات » قرب بيروت ، وقد مضى على وفاته ربع قرن :

ولله الأمر من قبل ومن بعد .

فاني أستوحي من روحه ، طيب الله ثراه . وشمعتي الضئيلة فيما أكتب الآن تستضيء من مناره ، ولا سَفَرٌ مها يكن قريباً ، دون الاهتداء بنجمه .
ومّا يغني عن شرح هذه المقدمة ، ان الطبعة الثانية تضمنت المقدمات التالية :

(١) لصاحبها الموقظ ، صدر الكتاب الروّاد في النهضة الاسلامية في هذا العصر الاستاذ العلامة محب الدين الخطيب ؛ رحمه الله ، منشئ مجلتي « الزهراء » الشهرية و« الفتح » الاسبوعية ، في القاهرة ، وناشر العدد الوافر من قيّم كتب السلف والتراث العربي الاسلامي ، والمجاهد بقله لا اقل من ستين سنة في دمشق الشام والآستانة والقاهرة ومكة المكرمة . وفاته في القاهرة قبل سنتين تقريباً عليه رضوان الله .

- (١) « مقدمة الطبعة الثانية » لامير البيان في ٣ صفحات يراها القارىء بعد هذا مباشرة . كتبت في جنيف في ١٥ ذي القعدة ١٣٥١ .
- (٢) « مقدمة الطبعة الأولى » لامير البيان في ٦ صفحات . كتبت في مرسين في ٢٥ شعبان سنة ١٣٤٣ - ٢١ مارس سنة ١٩٢٥ .
- (٣) مقدمة المترجم في صفحة واحدة .
- (٤) تمهيد المؤلف في اقل من صفحتين (لا تدخل في هذا مقدمة الكتاب للمؤلف لو ثروب ستودارد وهي في ٢٣ صفحة)

* * *

أسباب صدور هذه الطبعة الثالثة بمادة الطبعة الثانية :

١ - قبيل وقوع الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ كان يُراد إصدار طبعة ثالثة ، فحال دون ذلك القلق والاضطراب والثورات الدامية في فلسطين ، وفلسطين مستوطني الحبيب منذ ١٩٢٠ ، ثم وقوع الحرب واستمرارها ست سنين تقريباً .

٢ - لم يقع في امر هذا الكتاب ان اجتمع المؤلف وأمير البيان ، والمترجم والطابع في بلد واحد للتعاون القريب . فامير البيان دائم المقام في اوروبا مع التنقل والسياحة احياناً في اوروبا نفسها ، وبعض سفرات الى الشرق عندما بتتها الأسباب . ولم يكن من الممكن فنياً اخراج الكتاب في بلد غير مصر . فصلاحي بالأمير الجليل ومصر ، كان معظمها بالبريد . ولذلك حجزت الحرب الثانية بيننا وبين التفرغ للطبعة الثالثة . ولما

انتهت الحرب وعاد امير البيان الى لبنان أواخر ١٩٤٦ ، وكان البريد قد توقف بيننا طول تلك السنين ، كان اقصى مرادي العمل لاصدار طبعة ثالثة ، ولكن الله جلّ وعلا وله البقاء ، اختار عبده المؤمن المجاهد شكيباً الى جواره بعد وصوله الى لبنان بنحو من اربعين يوماً . وكان ذلك الخطب العظيم ، رزئت به العروبة والاسلام . ثم دخلت فلسطين في يومها العصيب الذي انتهى بمآرآه العالم الاسلامي من امرها الجلل سنة ١٩٤٨ ، فانتقلت من القدس الى عمان قهراً وكرهاً ، وطال مقامي في عمان عشر سنين حتى عدت الى لبنان أواخر ١٩٥٩ ، وفي خلال وجودي في عمان روجعت من عدة جهات لاصدار طبعة ثالثة ، فلم تنهيا الأسباب .

٢ - بين ١٩٣٣ و ١٩٧١ مدة ٣٨ سنة ، وفي خلال هذه المدة حدثت الاحداث الكبرى في العالمين العربي والاسلامي ، فحيت مصورات جغرافية واحداث مصورات جديدة ، وما كان في « حاضر العالم الاسلامي » ممشياً للماضي والحاضر امسى في حكم الغابر : ونظرنا في امر يحتمه الزمن ، والتاريخ ، وهو ان نصنع شيئين اذا كان ذلك مستطاعاً :

الاول : ان نسجل لكل بلد اسلامي احداثه منذ ١٩٣٣ فصاعداً حتى اليوم لكي يكون لكل بلد صورة تطوره من الوضع الذي كان عليه قبل ٣٨ سنة ، الى الوضع الذي آل اليه في يومه الحاضر - الحرية والاستقلال .

الثاني : ان نعيد ترتيب مادة الكتاب ، فصولاً للمؤلف

وتعليقات لأمير البيان ، ترتيباً أرعى لمصلحة القارئ ،
تسهيلاً وتيسيراً . وهذا امر ملاحظته بادية لكل قارئ .

فلم يكن ذلك مع الأسف ممكناً . فمن جهة تسجيل الاحداث لكل بلد
اسلامي ، وجدنا ان هذا العمل يحتاج الى اجهزة واسعة تستطيع الاتصال
بحكومات العالم الاسلامي للحصول على المعلومات الضرورية من يبايعها ،
وهذا الاتصال بحكومات العالم الاسلامي لا سبيل اليه الا بواسطة احدى
الدول الاسلامية التي تتبنى معاونة هذا المشروع ، او بواسطة جامعة الدول
العربية . ولما عذمت « دار الفكر » في بيروت على اصدار الطبعة الثالثة ،
ضاق الوقت عن محاولة ذلك .

واما ما يتعلق باعادة ترتيب مادة الكتاب ، فقد كان ذلك ممكناً ،
ولكن هنا ضيق الوقت ايضاً حال دون ذلك كما في السبب الاول .

فلم يكن بدّ ، والحالة هذه من الابقاء على مادة الطبعة الثانية كما هي ،
واخراج هذه الطبعة بطريقة « الاوفست » ، نقيّة ناصعة على ما يرى
القارئ . وتمتاز هذه الطبعة بفهرست للاعلام ، خَلَّتْ مِنْهُ
الطبعة الثانية .

مزايا « حاضر العالم الاسلامي » اليوم :

نستطيع ان نوجز ذلك ، والقارئ الكريم شريكنا في النظر والحكم :

١ - كان المؤلف لو ثروب ستودارد منصفاً عادلاً على الغالب في آرائه واحكامه ، كما شهد له بهذا أمير البيان . صبغة المؤلف في البحث علمية ، لا غير . واخطاؤه قليلة ، اشار اليها أمير البيان في مواضعها . والابحاث تغطي حركات الانتفاض والثورة ، ومجرى التطور في العالم الاسلامي في مدى القرن التاسع عشر الميلادي والعقدين الاولين من هذا القرن .

٢ - كان المؤلف يود أن يخرج بالانكليزية طبعة ثانية منقحة مزيدة ، كما اخبرني هو بنفسه لما جاء فلسطين سنة ١٩٢٤ سائحاً مستطلعاً احوال العالم العربي وكان ينوي أن يضم الى ابحاثه الجديدة ما استفاد من مقابلاته لعدد كبير من رجالات العرب والمسلمين . والمؤلف وافر الحصافة بعيد النظر دقيق الملاحظة . واذكر اني لما سألته في احد مجالسي معه في بيت المقدس ما الذي جعله يكتشف تلك القيم في السيد جمال الدين الأفغاني ، قال : « كنت الاحظ في اثناء جمع مادة ترجمته وسيرته ، ان الرجل ما دخل بلداً الا واشعل النار فيه . ودك العروش عنده كدك الخيام . فجمعت كل ما استطعت جمعه من الاقوال فيه بجميع اللغات الاوربية ونخلته فاذا به اكبر ثائر عقلي في المسلمين في القرن الماضي » . ولكن الله الذي توفى شكيباً أواخر ١٩٤٦ في لبنان ، توفى المؤلف ستودارد بعده بربع سنين ، سنة ١٩٥٠ فحرم العالم الاسلامي المزيد من فضل هذين الرجلين . (ترى ترجمة ستودارد في نهاية هذه المقدمة) .

٣ - كان من مشيئة الله والقضاء والقدر ، ان تقع الاسباب ، واذا اراد الله امرأ هيباً اسبابه ، اتجتمعت في هذا الكتاب العبقريتان : عبقرية

المؤلف المنصف ، وعبقريّة الموسوعي المتفرّد الأمير شكيب أرسلان .
فلما اجتمعت العبقريتان معاً في صعيد واحد ، اكتسب الكتاب ما لم
يكتسب مثله غيره في هذا العصر . اما المؤلف فاني ساوجز ترجمته في
سطور بعد قليل وقد تلقيتها مسهبة من رفيقة حياته في الدنيا منذ خمس
سنوات ، وقد طلبت ذلك منها اذ كنت اعدّ الامور للطبعة الثالثة . اما
امير البيان ، فاني اوجز هذه الناحية المتعلقة « بحاضر العالم الاسلامي » من
جهته ، واحسب ان القارئ يلذّ له سماع هذا : « حديثه أو حديث
عنه يطربني » .

٤ - اني بعون الله تعالى قد هيأتُ تاريخاً لحياة الأمير شكيب ، طويته
على المنار البارز من نضاله وجهاده ، في مراحل حياته كلها ، مع مجمل القول
في ارومته العربية ، كما هو وارد في سجل النسب الارسلاني المنذري
للخمي منذ الفتح . وفي « حاضر العالم الاسلامي » ، دع عنك سائر كتبه
الواسعة العباب ، أرخ الأمير وترجم لعشرات من الرجال : من ملوك
وامراء ورؤساء ، وامراء وقواد ، ومصلحين وثائرين ومحربين ومجاهدين ،
وعلماء وشعراء ومؤلفين وادباء وغيرهم من هذه المعادن والطبقات في العالم
الاسلامي الآسيوي والافريقي ، وهو ، رحمه الله ، اول موقظ مسلم من
هذا الطراز في عصرنا هذا ، عصر الغارة على العالم الاسلامي ، كشف
الستار عما كان يجري في افريقيا خاصة لتنصير المسلمين . وذكر انه لما كان
يعدّ التعليقات المستفيضة على الموضوعات ومسائلها وقضاياها ، كان
مضطراً الى مطالعة عشرات المصنفات بل مئاتها بلغات مختلفة ليستقي من

رأس الينايع . فأقلّ ما يحقّ علينا لهذا الشهاب الثاقب بفكره وعقله ،
المجاهد بقلمه وبدنه ، ستين سنةً ، باطّراد ، ان نحاول بكل تواضع وفاءه
رمزياً بوضع تاريخ حياته ، بحمل ، والله الحمد والمنة .

فالقاريء المستهام بارسلان لا يجد بغيته هذه في هذه المقدمة للطبعة
الثالثة التي تصدر بعد مضيّ ربع قرن على وفاته ، اذ لا مجال لذلك هنا ،
والامر واضح . ولكننا نضع امام القاريء الكريم ، صفوة ما يتعلق من
أمر امير البيان بكتاب «حاضر العالم الاسلامي» من جملة نواح ونعتقد ان
القراء الذين اطلعوا على الكتاب في طبعتيه الاولين يهمهم كشف الحقائق
التي لم تكشف بعد ، ويقيننا ان في أنفسهم كل الشوق الى هذا .

تاريخ حياة الأمير شكيب

اما تاريخ حياة الأمير شكيب ففيه تفصيل لمعظم ما رأى الرجل
المجاهد ، الصابر المؤمن ، من مراحل ايامه من آلام وعبر ، وشدائد كادت
تودي بحياته على يد احمد جمال باشا قائد الجيش الرابع ، وكان هذا القائد
العسكري طوراني الفاية ، طاغيةً في كل ما يمتُّ بصلة الى المخطط
الطوراني العنيف ، وقد استبد الرجل بحكم سوريا ولبنان وفلسطين
والاردن قرابة ثلاث سنوات في الحرب العالمية الاولى . ونحن باذلون
اقصى جهدٍ لاجراء هذا الكتاب باقرب وقت ممكن ان شاء الله .

قصة هذا الكتاب

جئت بيت المقدس من دمشق في خريف ١٩٢٠ ابتغي بلداً عربياً
احلّ فيه ، بعد خروجي من لبنان وسوريا ، وفي هذين البلدين امست
فرنسا البطاشة . وفي دمشق اقامت الفترة العربية كلها من تشرين الاول
١٩١٨ - تموز ١٩٢٠ وكان مرادي ان اذهب الى العراق ، ولكن الوصول
اليه في ذلك الوقت كان صعباً شاقاً ، فلا سيارة ولا طيارة ، ولا استطع
ركوب البحر لطول المسافة وتعقد وسائلها وكثرة نفقاتها . فاشار علي
اخواني في دمشق ان آتي فلسطين ، فلعلّ وسائل الانتقال منها الى العراق
اسهل . ولم اكن اعرف شيئاً من فلسطين عن كثب الى ذلك الوقت ،
سوى ما احفظه في ذاكرتي من المعلومات التاريخية والجغرافية عنها ايام
الدراسة في لبنان . ولكني منذ الصغر والنشأة الاولى كنت اشعر بهواجس
في نفسي نحو فلسطين ولا ادري علة ذلك . وبيتنا في « رأس المتن »
مشرف على ذلك الوادي الذي فتن الشاعر « لامرتين » الفرنسي لما زاره في
القرن الماضي حتى صار يطلق عليه بلغة الشعر « وادي لامرتين » ،
وهو بيننا وبين محمودون وصوفر وبعلشميه ، المصايف المشهورة . وطبيعة
لبنان في هوائه - صيفاً وشتاء - يستطيع اللبناني الصغير ان يفهم معجمها
دون استاذ ومدرسة ، فكانت كل يوم تقريباً تطلع الغيوم البيضاء من
الجنوب ، لا من جهة البحر للغرب ، وتنسحب وتتراكم في الجو ، وتقطع
وتتناثر ، وتتألف منها مناظر خلابة . فلما سالت الاستاذ في مدرسة القرية
عن هذا قال لي تلك الغيوم من البحر الميت . فازددت حباً لفلسطين عن

طريق الغمام اولاً .

ركبت القطار من دمشق الى حيفا ، فلما وصل بنا القطار الى وادي اليرموك اجتازه لأول مرة في حياتي ، ثارت هواجس نفسي من جديد ، ولكن الآن الذكريات محرقة : موقعة اليرموك ، وكانت بوابة الفتح ، كانت هنا ، وفي المساء وصلت حيفا وشاهدت « جبل الكرمل » فوجدته تلة بالنسبة الى جبال لبنان . فبت في حيفا ، وثاني يوم صباحاً ركبت القطار الفلسطيني الى القدس فوصلت بعد الظهر فهالني ان ارى بيت المقدس مدينة ، على كتفها لا اقل من خمسة آلاف سنة ، وهي كلها من الحجر ، وفي دمشق مدينة الدهور والازمنة ، لم يكن فيها اكثر من عدة مبانٍ حكومية من حجر !! وبقيت بضعة الايام الاولى للحولي في بيت المقدس اجتلي حسن تقاسيم وجهها ، ومرابض تلالها واوديتها ، وزرت الحرم القدسي الشريف فدهشت ؟!! قبة الصخرة آية . المسجد الاقصى وتد الله المبارك . ولكنني ذعرت حقاً لما رأيت ما يسمون باليهود وهم بغاث يحاولون ان يستنسروا . فلم يكن في دمشق رائحة للصهيونية ، ويهود دمشق قبضة منكمشة في « حارة اليهود » شأنهم في مدن الشرق قاطبة .

ولما سألت عن الطريق البرية الى العراق ضحك الناس مني ! وكنت آخر ليلة لي في دمشق قد تعرفت مصادفة ، بمظهر (باشا) رسلان^(١)

(١) من رجالات سوريا العاملين في الحركة الوطنية ، وكان من المخضرمين الذين ثقافتهم صبغتها تركية لتخرجه من معاهد الآستانة ، ولما تعرفت به كان ينوي العودة الى الصلط حيث مقره ، ثم عمل في الادوار الاولى من الحكم الاردني ايام حزب الاستقلال العربي وتوفي ١٩٤٨ ابان معترك فلسطين رحمه الله .

(لا ارسلان) في فندق خوآم ، وهو وقتئذٍ حاكم البلقاء العربي مرجعه دمشق ايام فيصل والاردن كان تابعاً لسوريا ، ولكن بعد حوادث تموز ١٩٢٠ ودخول الجنرال غورو دمشق ، تغير الوضع ، اذ معاهدة « سايكس - بيكو » تفصل بين المنطقة العربية السورية التي خرج منها فيصل بن الحسين وبين المنطقة الجنوبية التي هي الاردن - بخط قرب (درعا - حوران) فبعد خروج فيصل من دمشق انقطعت المنطقة الجنوبية - شرق الأردن - عن دمشق ، فالقى الانكليز ظلمهم عليها شيئاً فشيئاً ، وذهب هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني أول مندوب سام بريطاني الى شرق الاردن ليدرس كيف تنشب المخالب فيه . فحار حاكم البلقاء العربي في أمره ، فلا دمشق بقيت كما كانت عربية ، ولا هو مستعد ان يستقبل الانكليز ليحلوا محل دمشق الاً مغامراً ، والفرنسيون امسوا في سوريا ، فجاء مظهر ارسلان الى دمشق ليعلم مسيره ومصيره . فلما تعرفت به آخر ليلة سرنني ذلك جداً ، وأنست ببقائه ، ولم اكن اعرفه من قبل ، ولما اخبرته خطتي ونيتي ، ووقف على صلتني بالامير عادل ارسلان ورشيد طليع ، طلب مني اني اذا بلغت القدس ان ازوره في الصلت لأعمل معه والحق عليّ في ذلك الاحاح كله . وزاد في الفضل انه زودني من تلقاء نفسه بكتاب وصاة بالتركية الى السكرتير المدني « مستر ديدز »^(١) في حكومة

(١) مستر ديدز هذا كان اول سكرتير مدني للمندوب السامي بعد الحكومة العسكرية التي انتهت في اول تموز ١٩٢٠ وانما هو يعرف التركية جيداً لانه كان قبل الحرب في بعثة بريطانية الى تركيا لتنظيم الدرك فأقام في تركيا عدة سنوات .

فلسطين ، وعرفه بي وبنيتي العراقية . ولم اكن الى ذلك الوقت اعلم شيئاً
عن أي 'مستر' من 'المساتر' في فلسطين .

* * *

لا يغيب عني اني لست هنا أدونُ ذكرياتي ولا تسجيل مذكراتي
ولكنني معنيٌ بالخيوط التي منها نسج لي القضاء والقدر ثوباً ألبسني
بخير وبركة حتى اليوم - في فلسطين . من ذلك 'حاضر العالم الاسلامي' ،

* * *

في بيت المقدس ١٩٢٠

وثاني يوم وصولي بيت المقدس ، ذهبت الى 'جبل الطور' حيث
مقر الحكومة ^(١) وقابلت نائب المندوب السامي وكان يقال له 'السكرتير

(١) لما زار الامبراطور غليوم الثاني فلسطين وبירות ودمشق سنة ١٨٩٨
اهداه السلطان عبد الحميد قطعة أرض قرب 'علية صهيون' في القدس فانشأ
الامان اللاتين كنيسة ضخمة في هذا المكان . كما دشّن غليوم في أثناء زيارته
للقدس كنيسة المانية جديدة قرب 'كنيسة القيامة' . وبمناسبة هذه الزيارة
بنى الامان في جبل الطور صرحاً عظيماً مؤلفاً من عدة مباني لاغراض دينية
وغيرها . وهذا الصرح كان يقيم فيه القائد جمال باشا 'السفاح' ايام وجوده
في القدس . والامير شكيب دخل هذا الصرح مراراً في ايام الحرب الأولى .
وبعد ١٩١٧ اقامت السلطة العسكرية البريطانية فيه الى ١٩٢٠ ثم اقامت فيه بعد
ذلك الحكومة المدنية الى ١٩٢٧ فانتقلت منه بسبب الزلزال ، وفي هذا المقر
قابلت مستر ديدز في ايلول ١٩٢٠ .

المدني ، مستر ديدز . ودهشت من لطفه وشدة ترحيبه بي وأنا أت من دمشق ، فقال لي ان ' مظهر باشا ' سيعود الى الصلت بعد مديدة ، وهو سينتظرك هناك واما انت ، فكيف سبيلك الى العراق ؟ فهذا مستحيل اليوم . فابق في القدس ، ريثا يتيسر لك السفر البري الى العراق ، او الوصول الى الصلت ، وفي اثناء مدة بقائك في القدس ، لا بأس ان تتسلى بعمل حكومي مؤقت عندنا ، وهذا كتاب مني الى مدير المالية ، فاذهب اليه فوراً .

وبعد مناقشتي هذا الاقتراح مناقشة واقعية سريعة ، وجدت ان عودة مظهر الى الصلت قد تتراخى الى اسابيع ، وكي لا اقع في ازمة مالية خاصة وانا غريب في بيت المقدس ، اجبت مستر ديدز بالشكر والقبول ، فكتب الكتاب فوراً وسلمنيه وودعني الى الباب . وثاني يوم بدأت عملي في المالية على ' جبل صهيون ' .

* * *

أسال عن الأمير شكيب

قبل خروجي من الشام ، وفي اثناء ١٩٢٠ كنت اسال في ' أي دنيا ' الامير شكيب في اوروبا ، اذ تقطعت الاسباب ، والعالم لم يزل كسفينة تغالب الريح . والحرب قائمة بين مصطفى كمال واليونان في الاناضول ، و ' روسيا البيضاء ' بمدد وعون من ' الحلفاء ' ثارت على روسيا التي كان

يقال لها وتثند « البولشفية ». وإيران كانت تتخبط في أمورها الداخلية . ومصر لم تسكن بعد الاسكون النار تحت الرماد .

و كنت اقرأ في تلك الفضون اخبار مجيء « سير برسي كوكس » الى بغداد ليمهد ليفصل بن الحسين ، وفي الجزيرة العربية ، وبعد قليل نرى عبد العزيز آل سعود يستولي على « حائل » ويصفى ابن الرشيد ، وهذا اول صعود ابن السعود الى المملكة العربية .

اما الامير شكيب فقد كان بلغني من اصدقائي في دمشق ان « المكاتبات الاخوانية » عادت الى مجراها القديم بينه وبين اصحابه ، ولكني بعد قليل في القدس علمت انه في المانيا ، وآخر مرة رأيته فيها في لبنان كان ١٩١٦ في « صوفر » ، وله في صوفر بناية وفيها مقهى وكان يجلس في هذا المقهى لمطالعة الصحف . وغدوت اتنسم اخباره بشوق ، فصار كثير من الناس في القدس اول ما يسألونني ، عندما يعرفون اني من لبنان : اين هو الامير شكيب ؟

اول صلتي بالأمير شكيب

وأوجز قصة صلتي بالامير شكيب في لبنان: فاني نشأت وانا اسمع وارى الناس في المجالس كلما أتوا على ذكره، تهلت منهم الوجوه ولو حوا بالأيدي اكباراً له باعتباره شاعراً لايجارى ، ولم يكن غير المثقفين يدركون انه كان قبل بضع سنين يناغي محمود سامي البارودي في الشعر المنتفض من العصر العباسي . ولم يكن الامير شكيب ينشر من شعره في لبنان كثيراً،

الاف في كبرى المناسبات . وكنت اول تذوقي الشعر اقرأ شعر امين ناصر الدين صاحب جريدة « الصفاء » في لبنان الجبل ، وشعر بشاره عبدالله الخوري الذي عرف فيما بعد « بالاخطل الصغير » .

ولما وقعت الحرب صيف ١٩١٤ لم اكن قد رأيت الأمير شكيباً بالعيان بعد وانا مشتاق الى ذلك ، وانا طالب في المدرسة الداخلية في برمانا^(١) . ولكنني كنت سنة ١٩١٤ قد قرأت ما استطعت من كتابات المنفلوطي وامين الريحاني ، وما قاله الاول عن شعر الامير شكيب وطبقته في « مختارات المنفلوطي »^(٢) .

ولم تدخل الدولة العثمانية الحرب الى جانب المانيا الا في الخريف ، فجاء احمد جمال باشا قائداً عاماً أواخر ١٩١٤ بدلاً من زكي باشا الحلبي الذي نقل « ياوراً عسكرياً » الى بلاط الامبرطور غليوم . وما لبث احمد جمال طويلاً حتى اخذ بالتحريض على مهاجمة « الترعة » - السويس - وانتشرت الدعوة في البلاد الى هذا ، وكان الامير شكيب قد اعلن انه تطوع بكتيبة

(١) الى سنة ١٩١٤ لم يكن في لبنان الا المدارس الخاصة ، ومعظمها « تبشيري » انجليزية أو فرنسية ، وليس للحكومة اللبنانية مدارس تذكر ، وانما الأتراك حاولوا بعد ١٩١٦ انشاء مدارس حكومية على منهج تركي . وكذلك لم يعرف لبنان حتى ١٩١٦ شيئاً من معنى « دائرة الاشغال العامة » او « الصحة العامة » .

(٢) منذ الدستور العثماني ١٩٠٨ فصاعداً عمت سوريا ولبنان موجة الاقبال على الافكار الحديثة والاساليب الكتابية العصرية ، وكانت كتابات المنفلوطي في هذه الناحية في الطليعة .

لبنانية وهو زاحف مع الجيش . وآل ارسلان كان بيتهم وقتها يمثل
« الامير مصطفى » ، ويناديه شكيب ابدأ « ياعمي » ، وبعد الامير
مصطفى ، الامير شكيب ، الاديب ، الشاعر المفلح ، « السياسي العثماني » .
اذا مشى في الناس ، مشى بتؤدة ورزانة ، وعلى عينيه « نظارتان »
(عويثات) ذهبيتا الإطار ، ومن احد الطرفين تتدلى سلسلة ، ذهبية رفيعة
الى صدره ، وقامته كالرمح . سنة ١٩١٤ كان في الخامسة والاربعين .

* * *

واخذ يجول في قرى لبنان داعياً الى التطوع . و « الشوف »
و « المتن » في لبنان هما مسرح النفوذ الارسلاني والجنبلاطي . وقرتي
المسماة « رأس المتن » باتت تنتظر وصول الامير شكيب ، فلما وصل بات
ليلته عند الشيخ حسين تقي ، ودار جدي لوالدي ملاصقة لدار بيت تقي ،
وامام الدارين ساحة . ولا نعلم المدة التي يمكثها الامير في القرية . ولكن في
صباح اليوم التالي قيل ان الامير شكيباً يريد ان يجتمع بالناس في الساحة
فاحتشد الناس من كبار وصغار ، وهمهم ان يروا الامير ابن ارسلان
اكثر من « الترعة » والتطوع . وكان الشيخ حسين ووالدي يعرفان الامير
من قبل ، وكان الشيخ حسين يحفظ حصة من شعر الامير ، يتغنى بها
امام الناس ، ولكنه لا يبالي بقواعد الصرف والنحو .

فذهبت مع والدي الى الساحة ، وحضر الشيوخ والشبان جميعاً من
الحي كله فوق نظري على الامير شكيب لأول مرة ، ولما بدأ يتكلم داعياً

الى نصره « الدولة » احسست كان الكلام يخرج من قلبه لا عن طريق لسانه . فارتعشت . وكان جدي قريباً منه ، وانا واقف قرب جدي . فلما انتهى الأمير من خطبته ، تقدمت خطوة أو خطوتين حتى صرت في مقابلته ، والقيت خطبة (ارتجالية) بين يديه ضارباً على وتر التطوع ، مستمداً من رباطة جاشه كل ما قلت . ولما انتهيت ، وانا احسب نفسي نلت المني برؤيتي الأمير شكيب والخطابة بين يديه ، في اكبر حشدراته القرية في ذلك الصباح ، ما رأيته الا يسال الشيخ حسينا عني فلما علم اني ابن فلان ، واني في مدرسة (برمانا) غرني بابتساماته الحلوة وبشاشاته المشجعة وقرّني منه ، وكرمني بثناء لا يستحقه على مسمع من الناس ، وجعل الناس يهتفون باسمه ، وواقفني في الحلقة الى جانبه مبالغاً في تشجيعي وتكريمي ، فطرت من الفرح ، وها قد مضى على تلك الساعة ما مضى ، وما زلت اشعر بيهجتها وغبطتها . وسالني الى أي مدرسة تذهب بعد ان اقلت مدرسة « برمانا » ابوابها (لأنها انجليزية) فقلت له اني ساذهب الى مدرسة « سوق الغرب » الاميركية . فدعاني بالتوقيع .

انور وجمال والامير شكيب في عاليه

لما جاء انور باشا وزير الحربية الى لبنان وسوريا ، وتابع رحلته الى المدينة المنورة سنة ١٩١٦ ، وانور صديقه الحميم منذ أيام طرابلس الغرب (ليبيا) ١٩١١ - ١٩١٢ اقام الامير شكيب لانور استقبالا حافلا في « صوفر » ، ثم في « عاليه » وكان اخوه الأمير عادل « قائمقام الشوف » وقتئذٍ ومركزه عاليه ، وبين عاليه وسوق الغرب مرمى حجر وكان مع انور

احمد جمال ، وثلة من كبار الضباط الألمان . وجئنا نحن طلاب المدرسة لنشترك في هذا الاستقبال الرسمي الشعبي الرائع ، والناس بأسلحتها تملأ الأرض كلها يقدرّون بأكثر من عشرة آلاف ؛ فلما وصل انور بسيارته المكشوفة ، والآن ارى السيارة في حياتي لأول مرة ، ترجّل وترجل معه احمد جمال وكبار الألمان، فقلت : اغتم هذه الفرصة لارى « انور » واحمد جمال ، والأمير شكيباً معاً . فدنا « انور » من احد الرجال المسلحين الواقفين صفوفاً على جانب الطريق ، يريد محادثته محادثة «تلطيف» وتشجيع ، فجاء الأمير شكيب مع انور للترجمة ، وشاء حسن الحظ ان يكون ذلك الشخص الذي اقترب منه انور هو «عمي» وانا بجانبه ، فلما رأني الأمير بادرته بالتحية ، فهشّ لي وبشّ رغم دقة الثواني في هذه اللحظات ، وكان حديث بين انور و« المسلح » لا يتسع المكان له هنا . ثم اني رأيت الأمير شكيباً في لبنان بعد هذه الحفلة السنوية مرتين في صوفر ، وانا مع صديق والدي الشيخ عباس صالحة من اعيان « المتن » واصدقاء الأمير . ثم بعد ذلك لم اراه الا سنة ١٩٣٤ في بيت المقدس .

* * *

نفوري من اليهود في فلسطين

بعد نحو اسبوعين من مقامي في بيت المقدس ، اعمل موظفاً في دائرة المالية وأنا اسأل عن مظهر باشا رسلان ، وجدت ان النفوذ اليهودي في الحكومة شيء لا يطاق . غطرسية ، وعجرفة وطاوسية يهودية لا نهاية لها . وصارت

ذكريات دمشق العربية تهيب بي الى الانعتاق ، فقدمت استقالتني الى المدير فلم يقبلها ، ثم دعاني الى مكتبه وراح يسألني عما انوي عمله بعد الاستقالة لو قبلت ، فقلت له ، وهو بريطاني لا يهودي ، اني اريد الذهاب الى شرق الاردن ، الى حكومة عربية ، واذا تمكنت فالى العراق . وكان الانجليز على الحملة في حكومة فلسطين الجديدة ويرأسها هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني من اول تموز ١٩٢٠ ، في حيزين : حيز يعطف على العرب عطفاً كامناً لا يستطيع الجهر به ، وحيز المماشة للسياسة الصهيونية . وتُقل كثيرون من الادارة العسكرية الفلسطينية التي كان يشرف عليها الجنرال اللنبي في مصر الى الادارة المدنية ، ومعظم هؤلاء كانوا يكرهون اليهود .

فقال لي المدير : اني لا اقبل استقالتك ، ولكنني احتفظ بها في الدرج وامهلك بضعة ايام تذهب في خلالها الى السلت ، فان عدت الى القدس في خلال اسبوع ، عدت الى عملك ، وان لم تعد ، تقبل استقالتك . ثم زودني بكتاب وصاة الى المعتمد البريطاني الذي في السلت . فشكرته ، وذهبت ثاني يوم الى الصلت ، فبقيت النهار كله مع رفاقي الركاب في سيارة «فورد» من مخلفات الجيش ، حتى وصلت السلت^(١) مساء فوجدت مظهر باشا لم يعد بعد ، وبت في السلت ضيفاً على أحد الكرام ، وثاني ليلة عدت الى القدس ، وصباح اليوم الثالث جئت الى عملي في المالية ، فدخلت على المدير ، فلما وقع نظره عليّ قال مستغرباً : لماذا لم تذهب الى السلت ؟

(١) واليوم تقطع المسافة من عمان الى القدس بساعتين ، ومن السلت باقل .

فقلت له ذهبت وبت هناك ليلة ورجعت ، وسألني السبب فأخبرته ،
فهزّ برأسه وقال : « لم تصدقني ان هنا احسن لك » . وبقيت نحواً من
سنتين اعمل في حكومة فلسطين ، حتى ذقت الأمرين كل يوم عشرين مرة
من تنمر اليهود وثعلبياتهم . في ربيع ١٩٢١ أو بعد حلولي بالقدس بنحو
نصف سنة ، احتشد في عمان رهط من رجالات العرب الذين كانوا في
دمشق . رجال هذا الرهط حاولوا العمل مع الملك عبدالله (الامير وقتئذٍ
وحتى ١٩٤٦) الذي قدم من الحجاز في ذلك الربيع فاستقر في الاردن ،
وكانت أول حكومة تآلفت في الأردن بعد مجيء عبدالله ، هي التي ألفها
رشيد طليع « مدير الداخلية » ، ووالي حلب ، في الحكومة العربية في
سوريا أيام فيصل ، وطليع من نبغاء الأمة العربية ^(١) . فكتبت اليه من
القدس اعرض عليه خدمتي ، شاكياً له اشواك الخاصرة في فلسطين ،
فاجابني بانه يطلبني باول فرصة ، ولكن حكومته الأولى هذه ، وكانت لا
تسلّم للانجليز بما يريدون ، لم تعش الا بضعة اشهر ، فبقي في الأردن بعد
الاستقالة مدة ثم جاء فلسطين ثم ذهب الى مصر ، ولما نشبت الثورة سنة

(١) هو صديق الأمير شكيب وخريج معاهد الآستانة . تولى في عهد
الأتراك مناصب ادارية عديدة ، سنة ١٩١٣ كان « متصرف حوران » ، فلما
ترشح الامير شكيب للنيابة عن حوران قدم له طليع كل مساعدة . وبعد
استيلاء الفرنسيين على سوريا انزوى في جبل العرب حتى دعاه الملك عبدالله
١٩٢١ لتأليف أول حكومة فألفها ولكن الانكليز عارضوه ، توفي وفاة شهيد
في اثناء الثورة في جبل العرب سنة ١٩٢٦ وهو في الأخلاق العالية قليل
النظير ، وفي اتقان الادارة فريد .

١٩٢٥ في جبل العرب جاء من مصر من اجلها ، وهو في الوقت نفسه صديق قديم لقائد الثورة سلطان الاطرش . فذهب الي الجبل وتوفي بعد بضعة أشهر .

القضاء والقدر ساقني الى حاضر العالم الاسلامي

كنت في المطالعة أوثر جريدة «التيمس الاسبوعية» ، «ومجلة المجلات» الانجليزية . ولم أكن استطيع شراء الكتب أول امري في بيت المقدس اذ حالتي المالية لا تساعد على ذلك . فجعلت اتردد على «جمعية الشبان المسيحية»^(١) في القدس لاستفيد من مكتبتها ، ولكنني كنت اخشى سوء المغبة من هذا التردد ، لاني من ايام المدرسة في سوق الغرب لاحظت اني لا استطيع هضم وسائل التبشير لغير المسيحي .

وما كنت قد عرفت من وسائل التبشير حتى خروجي من لبنان الا البرتستانتي ، ومدرستا «برمانا وسوق الغرب» من هذا النوع . وحصلت امور بيني وبين الجماعة في سوق الغرب آلمتني ، فقلت : اظل اتردد على المكتبة ما دام الجو صافياً ، فاذا اعتكر ، فليس لي الا المفر ، وكان مدير الجمعية في بيت المقدس رجلاً محنكاً ، طويل اللقمة ، وفي باطنه غير ما تقرأ في ظاهره ، اسمه «مستر شيفرز» .

(١) سنة ١٩٢١ على ما أذكر جاء أمين الريحاني وخطب في هذه الجمعية فسمعتة خطيباً لأول مرة وكنت ممجياً بكتابة «الريحانيات» اعجابني «بنظرات» المنفلوطي .

و « مجلة المجلات » الانجليزية كانت تعني بتقريظ القيم من الكتب ،
ففي ذات يوم وانا في المكتبة اطالع هذه المجلة ، اتاني « مستر شيفرز »
وكلمني بغاية الالئاس : مستر فلان ، هل لك ان تتفضل باخذ هذه البطاقة
واعادتها موقعة اذا احببت ؟ ولما وقع نظري على البطاقة ادركت ما هي .
ما يسمى « بالعهد » وبالانكليزية Pledge خلاصتها ان الموقع موافق على
ان يكون عضواً مسيحياً في الجمعية ، مراعياً لنظامها ، غيوراً على غاياتها ،
مؤمناً ولما لاحظ مستر شيفرز اني لم ابال بالمسألة كثيراً عاد فسالني :
ومتى يمكنك اعادة البطاقة موقعة ؟ فقلت له : بعد دراستها !! فتركني
ومضى . فعدت الى المجلة اكمل مطالعة ما كنت بسبيله ، وهو كتاب ظهر
حديثاً في بريطانيا واميركا اسمه The New World of Islam وكان التقريظ
يملاً ثلثي الصفحة ، ولفقت نظري عبارة للمجلة في الشاء على المؤلف
فقالته هو « ارميا القرن العشرين » .

فدوت في دفتر الجيب اسم الكتاب وعنوان دار النشر البريطانية
وخرجت دون ان ارى مستر شيفرز . ونظرت في النهاية وقلت : اذا
عدت الى المكتبة ، فان مستر شيفرز سيسالني عن البطاقة ، فبماذا اجيبه ؟
وبعد التفكير ، ابقيت البطاقة على حالها ووقعتها . ولكن بعد ان كتبت
اسم « نبينا محمد صلعم » في المحل الذي ينبغي ان يكون فيه ، وجئت
المكتبة وجلست اطالع حصة كبيرة ، وكدت اتم مطالعة ما اريد ثم
اخرج ، فاذا بمستر شيفرز مقبل علي فقال : أوقعت البطاقة ؟ فقلت :
نعم ، ولكن مع تبديل اسم باسم أو لفظة بلفظة . فاضطرب وقال : ما

الذي بدّله ؟ وكنت جمعت اوراقى تحت ابطى ، فوقفت وقلت له : مستر شيفرز : كم سنة لك في الشرق ؟ فقال كذا وكذا من السنين ؛ فقلت له : انا اقدم منك بكثير في الشرق اوتدري كم عمري بالنسبة الى هذه البطاقة ؟ فبهت واضطرب . فقلت له ان عمري هذه السنة ١٣٤٠ سنة . تفضل هذه هي بطاقتك Good bye Mr. Shivers .

اتفقت مع مكتبة انجليزية في القدس صاحبها اسمه « مستر كانن » على ان يحضر لي الكتاب بالطيارة . لما وصل الكتاب استقلت من عملي في الحكومة صباح اليوم التالي ، ثم جئت « البانسيون » الذي كنت اقيم فيه وقلت للسيدة المسؤولة عنه : اريد مصباحاً (لم تكن الانوار الكهربائية قد عرفت في القدس بعد) يكفيني من المساء حتى الصباح فاني ساصاب بالارق هذه الليلة . فاعدته وأتت به إليّ .

فخلعت ثيابي ، وهيات مصباحي ، واعدت شيئاً لعشائي ، والساعة الثالثة بعد الظهر جلست في سريري اطالع الكتاب مطالعة عامة لاقف على مطوياته ، ، مطالعة المام لا اكثر ، واذا بي اتلفت حولي فاجد النور قد خف والشمس في المغيّب ، فاشعلت المصباح ووصلت بياض النهار بسواد الليل ، وكانني مسافر على بساط ريح ، ثم تلفت ، فاذا بي ارى الصباح قد اطل ، وبعد ساعة كنت قد فرغت من الالمامة التي اردت . فاعجبت بالكتاب .

كيفية الحصول على الاذن بنقله

«حقوق الطبع» محفوظة، كما هي العادة ، ولا سيما في مثل هذه الكتب التي يدرسها الناشرون دراسة وافية قبل اخراجها ، فكتبت الى السيدة البريطانية الرحالة روزيتا فوربس اسألهما ان تكون معرفتي لدى الناشرين الانجليز ، الذين طلبت منهم الاذن بنقل الكتاب الى العربية اذنا واحداً لا يتعدد ويشمل العالم العربي . وكنت قد عرفت السيدة روزيتا في دمشق سنة ١٩٢٠^(١) ، اذ جاءت تدرس الأوضاع السياسية ، من عربية وانجليزية وفرنسية ، وشرح لها (الامير) فيصل الحقائق كلها . كان يترجم لها توفيق مفرج . واما صلتني بها فن قبيل المصادفة اني كنت صاعداً الطابق الثاني من فندق خوام ، فاذا بي ارى شيخاً عربياً نازلاً وكأنه حائر يفتش على شيء . فاستوقفني بعد التحية وسألني أعرف الانجليزية ، ولما اجبته بنعم سألني ببهجة الذي يلقي الفرج بعد شدة ، ان اذهب معه الى الصالون اذ عنده سيدة بريطانية، واخبره الامير فيصل أن يحدثها فجاءت قبل أن يهين من يترجم بينهما . فكان هذا الشيخ هو الامير نوري الشعلان من أمراء البادية . فذهبت . وبعد هذه الجلسة كلفتنني السيدة روزيتا فوربس بان اترجم لها الاناشيد القومية العربية

(١) قامت روزيتا فوربس بعدة رحلات الى اليمن وافغانستان وصحراء ليبيا وغيرها . وفي رحلتها الى صحراء ليبيا كان رفيقها الرحالة المصري احمد حسنين المشهور ثم هو بعد ذلك قام برحلة اخرى وحده وروزيتا فوربس مؤلفة روائية . وبلغني في هذه السنوات الاخيرة انها التوت في ميولها العربية.

التي كانت تنشد في المدارس والمعاهد والتظاهرات والمواكب . ففعلت . ولم تترك هي دمشق آيةً الى بلدها الاً وقد تاكدت الحال بيننا ، واعطتني عنوانها ، ولما جئت فلسطين كانت ترسل رسائلها الى بعض السيدات العربيات اللواتي يعملن في المضمار القومي ، بواسطتي ، الى داخل سوريا . لذلك لما اضطرت من جهتي الى الحصول على الاذن المتعلق بكتاب ستودارد ، كتبت اليها فجلبت لي الاذن موافقاً عليه من الناشرين الانجليز والاميركان جميعاً واخبرتني انه كان لدى الناشرين عدة طلبات من ادباء العرب من مصر والعراق وسوريا ، فكان طلبي هو أول ما وصلهم فلبوه .

لما تسلمت الاذن من الناشرين ، رتبت امري أن اسير بالعمل سيراً منظماً لا يوقفني عنه الا القواهر كالمرض والطوارئ . ولكني كنت لا أملك من المال ما يكفيني بضعة أشهر وأنا لا أجنى شيئاً في أثناء ما انتقطع اليه من الترجمة في غرفتي (البانسيون) . فاستطعت ان أحل هذه العقدة بأن رضيت معي صاحبة البانسيون ، أم جورج الفاضلة ، أن تقدم الي وجبة الصباح فقط . فيحق لها عندي اجارة البانسيون ومقابل هذه الوقعة ، لمدة أربعة أشهر ديناً ، وذهبت الى السيد سليم الحداد ، لبناني الأصل مقيم في فلسطين من قبل الحرب العامة الأولى ، وهو صاحب ' فندق فلسطين ' و ' مطعم فلسطين ' وهو يعرفني جيداً منذ جئت فلسطين ، وعرضت عليه مثل ما عرضت على أم جورج ، ولكن مطلوبي منه أن اتغدى عنده الغداء فقط ولا عشاء ، لمدة أربعة أشهر ديناً ، فرضي

بكل طيبة خاطر . وبهذه الطريقة يمكنني أن أتحمل السير بالعمل ، سواء
تيسر العشاء بطريقة أخرى أم لم يتيسر .

* * *

ترجمته في مئة يوم ،

سلخت في عمل الترجمة مئة يوم^(١) بالتام . وكنت أنهض صباحاً
وارتب شؤوني الخاصة بحيث أكون في الثامنة الى منضدي ، كاني اعمل في
دائرة رسمية . فأبيض ما ترجمته في اليوم السابق ، ثم اشرع في ترجمة
الحصة المعينة لي ، وهي ٣ صفحات لا أكثر ولا أقل ، ولا حدود لوقت
انتهاء عملي بعد الظهر أو العصر ، فقد انتهي في الثالثة ، وعلى أقصى حد
في الرابعة . بعد هذا الوقت اخرج الى لقاء اصدقائي وعلى الغالب في
« قهوة بريستول » عند السور في باب الخليل . وفي المساء أوي الى مخدعي
فأطالع الصفحات الثلاث الجديدة وأنا في السرير ، وأحلّ عقدها اذا كان
هناك من عقد ، ثم أنام فأنهض في الصباح لأستأنف العمل على الوتيرة نفسها .

(١) لاحظت أن الاستاذ الفاضل احمد الشرباصي ذكر في كتابه المحيط
القيم « امير البيان شكيب ارسلان » في الجزء ٢ ص ٥٠١ اني امضيت في
ترجمة حاضر العالم الاسلامي سنتين ، وذكر في الحاشية المصدر وهو جريدة
الشورى عدد ١٦ ابريل ١٩٢٥ . والمدة التي انفقته في الترجمة هي مئة يوم
على ما فصلت هنا ، ولكن الامير شكيباً بقي يفيض على العالم الاسلامي
تعليقات مدة سنتين ، ولعل المقصود هذا بالاصل . رحم الله امير البيان
وأعلى مقامه في الجنان .

وأما أجوبة بريدي فاكتبها ليلاً . وأما وجبات الطعام فقد الفتها على
الترتيب الذي وصفت .

* * *

كنت مدركاً وأنا أترجم الكتاب اني لا استطيع الانفاق على طبعه ،
واذا عرضته على المطابع سخرت منك المطابع اذ تعلم انك خالي الوفاض .
والذين كان يقع لهم ان يطلعوا على الكتاب في اثناء الترجمة ، كانوا يدعشون
من محتوياته ويحاولون تزويدي بأراء خيالية تتعلق بالمال اللازم للطباعة .
وبعد المئة يوم ، وضعت الاوراق مكانها في الغرفة ، وعلى ان اواجه
شيثين : وفاء « المطعم » لسليم الحداد ، واجارة البانسيون لأم جورج ،
ولكن المدة المتفق عليها اربعة اشهر فبقي من الأجل شهر تقريباً . وفي
خلال هذه المدة زارني في فندق فلسطين عضو المجلس الاسلامي الاعلى
عبد اللطيف صلاح ، (وكنت قد عرفته في دمشق سابقاً) وتكلم معي
بشان العمل في المجلس الاسلامي الاعلى ، ورئيسه سماحة الحاج محمد امين
الحسيني . فاتفقنا وشرعت اعمل في المجلس ، وكتاب « حاضر العالم
الاسلامي » حبر على ورق في غرفتي الخاصة . فاذا ما جئت ليلاً وراجعت
بعض الفصول ، اقفلتها ثم قلت : ومتى يحل وثاقتك ايتها الاوراق ! متى
تجدن سبيلك الى المطبعة ؟

* * *

شرعت اتصل بالمطابع . في القدس ، مطبعة « دير الروم » وهي مطبعة كبيرة قديمة الطراز غير مناسبة . فطبعت فيها نشرة تعريف بالكتاب لاوزع هذه النشرة على الذين يريدون الاشتراك في نسخة يدفع ثمنها مقدماً ، فوجدت هذا الاسلوب عقيماً . والمطابع الاخرى في فلسطين لم اجد فيها بغيتي . فكاتبت « دار الهلال » في مصر ، واظن « المقتطف » ايضاً ، وبينما انا في هذا ، هبط القدس خالد الحكيم احد رجالات سوريا الوطنيين واخبرني ان المطبعة « السلفية » في مصر مستعدة لكل ما اريد وصاحبها الاستاذ محب الدين الخطيب نعم الاخ الصادق في هذا الباب . والاستاذ محب الدين كنت اسمع به في دمشق ايام فيصل ولم اجتمع به بعد .

* * *

ونظرت في النفقات الطباعية فبدأ لي من اهل الخبرة ان مشروع طبع هذا الكتاب لا يكلف اكثر من ١٥٠ - ٢٠٠ جنيه مصري (الجنيه الورق كان كالذهب) ، وتقل هذه التكاليف أو تزيد تبعاً للمقدار المراد طبعه من النسخ .

وقررت اني مستعد بكل طيبة خاطر ان ابقى سنة أو سنتين أو ثلاثاً اعيش عيشة التقشف ، حتى أفي الدين الذي يلزمني من وراء طبع الكتاب . وكنت اذا استرسلت في حسابات التكاليف المالية ملت الى الخوف لعلني اعجز عن الوفاء ، واذا جئت الكتاب وقرأت منه طائفة

من اي فصل من فصوله ، انقلبتُ مستصغراً حساب ارقام التكاليف مهما
تعظم واستسهلت الصعاب .

طلبي من الامير شكيب ان يضع مقدمة :

والامير شكيب قبلتي في تفكيري وأنا في الترجمة . فقلت الآن
(وصارت السنة ١٩٢٣ والكتاب ظهر ١٩٢١ وبقي عندي في غرفتي سنة
مكنوزاً اطلُ عليه ويطلُ علي بصمت) اكتب الى الامير شكيب اطلب
منه مقدمة في عدة صفحات تكون قلادة في جيد الكتاب . فكتبت اليه ،
وأرسلت نسخة من تلك النشرة التي ذكرتها . وكانت هذه المكاتبة مني
اليه الأولى بعد ١٩١٦ . فاذا بالامير على جناح السرعة يقول بعد المقدمة ما
اوجزه في هذه الفقرات وما استمر في بيانه :

١ - بعيد أن وصله كتابي ، جاءه شبلي الجمل ^(١) وقال له : يا امير
شكيب !! صدر كتاب بالانكليزية يبحث في أحوال العالم الاسلامي
لكاتب اميركي عبقرى ، أليس من سبيل الى نقله ؟

٢ - وصادف أن الامير شكيباً كان ماراً في أحد شوارع جنيف
فرأى في الواجهة الكتاب الذي حدثه عنه السيد الجمل ، مترجماً الى
الفرنسية .

(١) شبلي الجمل من أعيان فلسطين في بيت المقدس ، كان عضواً في الوفد
الفلسطيني الأول الى لندن للدفاع عن قضية فلسطين ، وكان في جنيف وقتها
في مهمة الوفد ، وهو يتقن الانكليزية ، مفكّر ، كثير النظر في الكتب ،
واسع الثقافة وكان معظم عمله العناية بفن السياحة وترقيتها .

٣ - فاقترح الأمير - بعد علمه باتفاقي مع السلفية في مصر - ان ارسل اليه الترجمة فيطّلع عليها ويقيّد لديه ما يعنّ له من تعليق أو شرح أو ملاحظة بشكل حواشٍ حول النقاط التي تحتاج الى هذا . ثم يعيد اليّ الترجمة مع الحواشي فارتب ذلك وابعث به الى السلفية . وام المقدمة فامرّها يسير ، تكتب بعد الفراغ من التعليق . ورقصت طرباً ، وحسبت أول الأمر ان التعليقات مهما تغزّر وتتسع ، فرحباً بها اذ لا يعقل أن تزيد على ٤٠ - ٥٠ صفحة . واعلمت الاستاذ محب الدين بهذا الترتيد . وشرعنا في العمل .

٤ - وبقي تقدير النفقات في نظري لا يحتاج الى تعديل يذكر حتى مع اضافة التعليقات . وليس بيدي شيء من فضلة المال . ومررتي الذي اتقاضاه من المجلس الاسلامي الأعلى لم يكن فوق ' المتواضع ' ومع هذا لم يضعف من العزم . فسالت سماحة رئيس المجلس أن يمدي بقرض ٧٠-٧٥ جنيهاً لكي اقدمه عند ابتداء المشروع الطباعي الى السلفية ، فتفضل به ولم استطع أن افيه هذا القرض الاّ بعد سنتين أو أكثر ، ولا أنسى هذه اليد في سبيل ' حاضر العالم الاسلامي ' فذهبت الى مصر وقرأنا بسم الله الرحمن الرحيم .

٥ - ولما جعلت التعليقات تطرّد ، وتستطرد ، بقيت السنة الأولى غير هيّابٍ حساب المطبعة . ولكن في السنة الثانية صرت أعجز من أن أستطيع جعل مدفوعاتي توازي المطلوبات مني ، فبت أخشى الانهيار قبل أن ينجز طبع الكتاب ، وأحياناً كان الأستاذ محب الدين يستعجزني

التعليقات ، ويسألني أيمكنني أن أنجده بشيء من الدراهم ، مهما تكن
قليلات ، وعندما تشتد في الأنواء ، ويحف من جراري الماء ، أجيبه بأن
ليس عندي غير صلاة الاستسقاء . وسلخنا في هذا سنتين من ١٩٢٣ -
١٩٢٥ وغير المبلغ الأول الذي اقترضته من سماحة رئيس المجلس ، لم
استطع أن أرسل الى الأخ محب الدين إلا ما هو في حدود العشرة جنيهاً
أو الخمسة عشر وأحياناً كنت أرسل اليه تتمة المبلغ طوابع بريد دولية .
وفي مرتين أو ثلاث لا أكثر استطعت أن أرسل اليه كل مرة فوق الثلاثين
جنيهاً .. وفي أثناء السنتين لم يسألني الأمير شيئاً يتعلق بمسيري المالي ،
ولا أنا شكوت اليه شيئاً من مصير يضعض احوالى ، وبقيت الوقت كله
استعذب الشدة الخرساء الصامتة ، وأجد لذة ، في تحملها في سبيل الفيض
الذي كان يفيضه الأمير .

لما انتهى طبع الكتاب في ربيع ١٩٢٥ كان حساب السلفية قد بلغ
ما يزيد على سبع مئة جنيه مصري وخمسين جنيهاً . وعجزت عن
التسديد ، فرضي الاستاذ محب الدين أن نسدد الباقي من المبيع . وقد كان
ذلك . وقد طبع من الكتاب ثلاثة آلاف نسخة ^(١) ، (النسخة جزء آن)
وكانت ، التعليقات كلها من حرف صغير . عكس ما هو الحال في الطبعة
الثانية ، وكنت أحياناً استقرض من الاصدقاء ما أرسله الى « السلفية »
في أثناء الطباعة ، ومن هؤلاء الاصدقاء الشيخ عبد القادر المظفر
والاستاذ عوني عبد الهادي رحمهما الله تعالى ، ولم استطع أن أفيها
(١) كانت الطبعة ، الأولى تباع مجلدة ، وثمان النسخة ٧٥ قرشاً مصرياً .

القرضين الا بعد مدة ليست بالقصيرة جزاها الله في الجنان خيراً . ولما انتهى طبع الكتاب سألت الامير كم يريد منه لنفسه فقال خمس مئة نسخة ، فتسلمها في القاهرة الامير عادل رحمها الله . هذه قصة « حاضر العالم الاسلامي » وكيف خرج هذا الكتاب من القوة الى الفعل ، احببنا بسطها بحقاقتها على هذا الوجه لننتقل بعد ذلك الى الرد على من قال من الفضلاء انه لو فصلت التعليقات التي وضعها الامير عن المتن الاصيلي الذي وصفه المؤلف الاميركي ، لكان ذلك اجدى على القارىء ، من حيث التيسير عليه أن يطالع كتاباً منسّق الجهاز ، ليست موضوعاته تفارق في مواضع شتى ، وأجدى على الامير إذ كان ينطلق بعبقريته الفياضة الموسوعية الى أفق مستقل في بموكبه الوهاج الذي يكون منه هنا ، كما كان منه هناك في امهات كتبه الأخرى « كالحلل السنوسية » أو التعليق على ابن خلدون .

* * *

اسباب فوضى التعليقات على « حاضر العالم الاسلامي »

ونقول :

١ - هناك اسباب دعت الامير شكيباً أن يطلق لفوضى تعليقاته العنان في « حاضر العالم الاسلامي » وكان ذلك خيراً وبركة فاني في كتابي المخطوط لتاريخ حياته الذي وصفته ، وسيطبع قريباً ان شاء الله ، بينت هذا ، وانما هنا أوجز هذه الناحية ايجازاً إذ المقصود بيانها

لا تفصيلها. فان الامير بعد اصدار كتبه الأدبية الاولى^(١) وآخرها سنة ١٨٩٨، وكان قد بلغ الثلاثين أو اجتازها، عند صدور الكتاب الرابع^(٢)، صارت « السياسة اللبنانية » « اليزبككية الجنبلاطية » تشغل باله اكثر فاكثر،

(١) وهي « الباكورة » او ديوان شعره ١٨٨٧ سنة وفاة والده الامير حمود - « الدرة اليتيمة » لابن المقفع ١٨٩٣ - « رواية آخر بني سراج » ١٨٩٧ - « رسائل ابي اسحق الصابي » ١٨٩٨ - ونعتبر في أمر هذه الكتب طبعاتها الاولى وان تجدد طبع بعضها بعد الحرب العالمية الاولى .

(٢) سنة ١٩٠٢ اتفق الامير شكيب وصديقه نجيب سرسق الثري اللبناني على القيام بمشروع انشاء جريدة عربية في القاهرة يتولى تحريرها الامير شكيب ، ويعاونه فيها صديقه امين ناصر الدين صاحب « الصفاء » في « عبيه - لبنان » وناصر الدين من أئمة الأدب والشعر وتخرج اول أمره في الصحافة على شكيب ويعدّه استاذة . وتم كل شيء . ولكن حدث بعد ايام فلائل أن الأمير مصطفى ارسلان قائم مقام « الشوف » اعتزل المنصب ، فعين المتصرف نعموم باشا ، صديق الأمير مصطفى ، الامير شكيباً للقائمقامية ، وذلك لأول مرة ، محل عمه الامير مصطفى ، فوقف مشروع انشاء الجريدة في مصر . ولم يطل وجود شكيب في القائمقامية ، اذ بعد قليل انتهت مدة نعموم باشا ، وجاء المتصرف الجديد مظفر باشا (١٩٠٢ - ١٩٠٧) فتنكر لشكيب وما زال يضايقه حتى اضطره الى ترك المنصب غير آسف عليه . ويبدو ان المهاز الاول في هذه الفكرة ، انشاء جريدة بمصر ، كان رغبة شكيب في ان يكون في ملاذ استاذة الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في الدعوة والاصلاح والايقاظ ، على نحو ما صنع صديق شكيب السيد محمد رشيد رضا من الهجرة الى مصر من طرابلس الشام وانشاء « المنار » سنة ١٨٩٨ ولو تم مشروع شكيب لكان للاستاذ الامام لسانان يترجمان افكاره : « المنار » ، « الشهري » ، والجريدة اليومية . انتقل الاستاذ الامام إلى رحمة ربه سنة ١٩٠٥ .

مسانداً لعمه الامبر مصطفى (ت ١٩١٤) كما تشغل باله في الوقت نفسه « السياسة العثمانية » بوجه الحصر والخلافة قائمة ، و « السياسة الاسلامية العامة » المراد تقويتها لصد المطامع الغربية . فكان الامير شكيب في لبنان يدور في فلك وحده تقريباً ، في متابعة هذه الاتجاهات ومناصرتها . نعم كان له اعوان وانصار ، ولكنه هو الحادي واليعسوب . ولما اعلن الدستور العثماني ١٩٠٨ انفتحت آفاق جديدة امام الامير ، وطلعت الحركة الطورانية فدعت الى خلق الحركة العربية . وامتد هذا التيار ست سنين الى الحرب العامة ، ثم جاءت الحرب بويلاتها وكوارثها ، وكان هو قد اصبح نائب حوران في البرلمان العثماني منذ ١٩١٣ وشغله فتكات « السفاح » احمد جمال باشا بالعرب فانتقل الى الآستانة اواخر ١٩١٦ وبقي هناك وفي اوروبا الى نهاية الحرب وما بعدها ، وسدت عليه طريق الرجوع الى سوريا ولبنان ، وحتى الى العالم العربي كله لتقسام امر الاستعمار فيه بين الدولتين الكبيرتين فرنسا وبريطانيا .

فهذه مدة لا تقل عن ٢٤ سنة انقطع فيها الامير عن التأليف ^(١) ، ولكنه بقي من حيث المراقبة لسير الأحوال في اوروبا والعالم الاسلامي ، عيناً ساهرة وقلباً تارة يثن وطوراً يطرب ، ونبضه أبداً كقطعة من

(١) الا ما كان من أشياء لا تعد تأليفاً ككتابه « مظفر باشا » الذي ينسب اليه قطعاً ، ووضعه سنة ١٩٠٧ وطبعه في الاسكندرية طواه على نقد عهد هذا « المتصرف » الذي حكم لبنان سبع سنين هوجاء ونال هذا المتصرف من الارسلانيين كثيراً فانتقم منه الامير شكيب بهذا الكتاب .

نور الشمس . فأصبح صدره شديد الامتلاء بالمعلومات الاسلامية خاصة ، ولم تواته الفرصة بعد ، لينقل شيئاً من ذلك الى التسجيل أو التدوين أو التأليف . وأمسى كاساً دهاقاً ولم تكن لتفرّج عنه المقالات الصحفية مهما تطل وتتنوع .

٢ - ان الاحتلال الأجنبية المستعمرة لبلاد العرب الآسيوية باسم « انتدابات »^(١) مزيفة ، بعد ١٩٢٠ زادت الأمير مشاغل ومشاده ابتلغته ابتلاءاً ، ولكنه لا يستطيع الانصراف الى التأليف لسببين : ضيق الوقت ، ولا فضلة مال لديه للانفاق على الطبع وما اليه . ولنلاحظ ما يتعلق برودده المفحمة بعد الحرب على النفر العاق الشارد الذين راحوا يتهمونونه بأنه كان عوناً « للسفاح » احمد جمال باشا ايام الحرب من سوريا ولبنان في أعمال التنكيل والنفي . فان « السفاح » طلب من الاستانة بعد أن رأى شكيباً مجاهراً بجوره ، أن يبطش بالارسلانيين شكيب وأخيه عادل كما بطش بغيرهما ، فلم توافقه الاستانة . واستطاع شكيب النجاة من الطاغية إذ أتاه خبر من صديقه عبد العزيز جاويز ان اخرج من سوريا فخرج وسليماً ، ولا عبرة انه بعدئذ اجتمع بالسفاح في فروق ، فاحترق الأمير شوقاً الى الرد على اولئك المتترّين عليه ، وبقي هكذا حتى لقي صديقه وأخاه القديم السيد محمد رشيد رضا في جنيف في المؤتمر السوري

(١) ان فكرة خلق طريق جديدة بعد الحرب الأولى للاستعمار ، وهي « الانتداب » هي من صنع الصهاينة ليتدرج مشروع التهويد تحت اسم « انتداب » .

الفلسطيني سنة ١٩٢١ وكانت التيارات السياسية قد فرقت بينها تسع
سنين ، فاتفق الاثنان على أن تنشر مجلة « المنار » في مصر للأمير ما عنده
من الكشف والبيان حول مآسي الحرب . وبقيت « المنار » تنشر هذا سنة
١٩٢٢ تحت عنوان « كوارث سورية في سنوات الحرب من تقطيل
وتصليب ومخمصة ونفي - مشاهدات ومجاهدات شاهد عيان ، هو الامير
شكيب ارسلان » لمدة لا تقل عن سبعة أشهر . وكان أولى لو أن ما نشر
في « المنار » عاد فطبع في كتاب على حدة ليعم انتشاره ، فلم يكن على ما
يظهر من سبيل الى هذا ، واما فكرة هذا الكتاب فلا يعقل انها غابت عن
الأمير . ولعل السبب الحقيقي عدم توفر المال .

٣ - فلما كتبتُ اليه أرجو منه مقدمة للكتاب ، وبيّنت له اني
مهاجر الى الله فيه ، واطلع على ما قال ستودارد في فصوله ، فكاني قد
قدّمت الى الأمير ندّي الله ثراه ، وجعل الجنان مثواه ، « مفتاحا »
للسدّ العظيم الذي يحمله في صدره ، وارجو من القارئ ألا ينسى ما قلته
من غبطتي بذلك .

نضيف الى هذا « المفتاح » :

١ - حصافة المؤلف وعدله في الاحكام مما يغري القارئ المنصف
بالسير في قافلته الى غاية الشوط ، فكيف اذا كان هذا القارئ
هو الامير شكيب الصائم عن التأليف ٢٢ سنة وأكثر .

٢ - ستودارد ليس بمسلم ليحيط بكل الدقائق ، مع اجادته

التقرير والوصف . والأمير شكيب ميزان العالم الاسلامي
فع ارتياحه الى ستودارد احب تصحيح النقاط التي تحتاج الى
تصحيح .

٣ - من فطرة الامير شكيب انه اذا لبس ، لبس من الالف الى
الياء .

٤ - فاندفق يكتب سنتين ، وهنا اخلت معه عقدة الوقت لانه
أي عمل أقدر من هذا العمل ؟

٥ - وأما نفقات الطبع ، فما كانت من وقتها من جهتي تصطك
لها الركب في السنة الاولى كما ذكرت .

٦ - فعاد الى الكتابة وأي كتابة ؟ أحب الكتابات اليه - جاء
موعداها

٤ - لولا ان يسوق القضاء والقدر الى هذا كله ، لما كان هناك شيء
من « حاضر العالم الاسلامي » سوى ستودارد ، ومهما علا في بابه وأثنى
عليه الناس ، فانه يبقى ستودارد . ولكن لما اقترن الغرب بالشرق كان
هذا الكتاب .

فكرة الفصل بين المتن والتعليقات

هندسة بعد البناء

أودّ من القارئ ان يتذكر ما قلته بشأن « المقدمة » التي طلبتها من الامير ، وجوابه ، رحمه الله .

لما راح الامير يفيض ، كانت امانينا ان يفيض ما شاء . والمهراز ، هو ستودارد ، فالصلة بين المتن والتعليق غير قابلة القطع أو العزل ، وليست هي هنا الاولى من نوعها في عالم الكتابة والتأليف . الا شيئاً واحداً كان بالامكان عمله لو كان الاطلاع على الغيب مستطاعاً : وهو ان نطبع كل تعليقات الامير ، بعد طبع الاصل لستودارد ، في اجزاء متتابعة ، مبتدئين بجزء حاضر العالم الاسلامي للمؤلف . ولكن الامير نفسه لم يكن يعلم اين يقف او اين ينتهي . ولا حصر قلمه في نطاق ستودارد . بل كان اما ان يحمل ستودارد على منكبيه ويطوف به من الصين الى غرب افريقيا ، واما ان يدعه مستريحاً في عشه ، ويطير الامير وحده كل مطار . مهاميز ستودارد عادت لا تكفي ، ولكن هذا العالم الاسلامي الذي يتغنى به شكيب منذ اكثر من ٤٢ سنة ، اصبح بين يديه « دار الاسلام » في رقعة متماسكة ، تتطلع الى غد واحد .

ولكن بعد ان انتهى الفيض ، وجاء الكتاب في طبعته الاولى والثانية على ما رأينا ، ابتدأت « الفكرة » الهندسية تقترح ، واول من اقترحها

السيد محمد رشيد رضا طيب الله ثراه وعرض هذه الفكرة على الامير مراراً وتكراراً ، غير ان الامير لم يأخذ بهذه الفكرة . وقد وردت هذه المسألة في عدة مواضع من رسائل الامير الى السيد رشيد في كتاب « السيد رشيد رضا و اخاء اربعين سنة »^(١)

واما طبع المادتين ، الاصل والتعليقات ، على الوجه الذي ذكرته هنا ، فامر ممكن في أي وقت متى ما تيسرت اسبابه المالية .

فكرة تنمية الكتاب الى « موسوعة او معلة اسلامية » .

اني لا اعلم ان هذا الخاطر خطر ببال الامير وقت بدأ يكتب التعليقات ولكن لما جمعت هذه المعلومات القيمة ، من صدر الامير ومن الكتب التي اقتناها من اجل هذه الغاية ، صارت ذات صبغة موسوعية ضمن نطاق اسلامي محدود ، وليس قلب الكتاب كله ، اصلاً وتعليقاً ، الى شكل موسوعي ، امراً سهلاً ، ولكن مما يسهل الاستفادة منه والرجوع اليه هو الفهرست المنظم ، وقد احتوت عليه هذه الطبعة الثالثة ، اما الثانية فقد خلت من أي فهرست ، واما الاولى فقد اشتملت على فهرست كامل .

(١) علمت من الرسائل المتبادلة بين الامير والسيد رشيد بما هو منشور في « كتاب السيد رشيد رضا و اخاء اربعين سنة » للامير ، وفي كتاب « امير البيان شكيب ارسلان » بلاستاذ الشرباصي ، ان السيد رشيد سأل شكيباً لو كنت اطبع الكتاب بمطبعة المنار ، فاجابه شكيب اني اتفقت مع السلفية وانتهى الأمر .

التعليقات كلها كتبت خصيصاً

« لحاضر العالم الاسلامي »

ذكر المؤلف الفاضل الاستاذ احمد الشرباصي حول « حاضر العالم الاسلامي » والتعليقات عليه ، والتوسع والاستطراد ، في الجزء الثاني من كتابه امير البيان شكيب ارسلان :

« وقد حدثني الاستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلة « الفتح » ان اغلب تعليقات شكيب على كتاب « حاضر العالم الاسلامي » لم تكتب خصيصاً للكتاب ، بل كانت عنده من قبل ، والتمس لها المناسبات في الكتاب ووضعها »^(١) .

ولما كانت هذه النقطة ذات بال ، وهي في نظرنا ضرب من الوهم ، فاننا مطالبون بحكم امانة التاريخ ان نزيل هذا الوهم بما لدينا من علم بالموضوع كله ، ولما كان لنا من صلة مباشرة بوضع التعليقات رحمه الله ، فنقول :

١ - بينت الطريقة التي كانت بها تقدم الفصول والتعليقات الى المطبعة السلفية ، فكل ما خطه قلم امير البيان من تعلق كان يرسله إليّ أولاً (في بيت المقدس) فانسقه ثم أبعث به الى الأخ محب الدين . لم يرسل الامير كلمة واحدة ، منه الى المطبعة توأ . والكتابة كلها بخط يده ، وأما التصحيح فقد كان يتولاه الاخ محب الدين .

(١) كتاب « امير البيان - شكيب ارسلان » تأليف الاستاذ احمد الشرباصي

الجزء الثاني ص ٥٠٣

٢ - والكتابة كلها بكر ، ونسجٌ جديدٌ إلا ما كان سبق لأمير البيان الكتابة في موضوعه طول حياته الماضية ، فقد يشير إشارة إلى سبق علاجه الموضوع ، وهذا يكون واضحاً ، وعلاجه الجديد بكلام جديد

٣ - الآ مرة واحدة ، وهو يكتب عن « الاسلام في الصين » أرسل إلى بضع صفحات من « المقتطف » تحتوي على بحث له في هذا الموضوع نشر في أول هذا القرن . وغير هذا لا أذكر شيئاً آخر من قبيل تقديم تعليق مهيباً من قبل . هذا في الطبعة الأولى ، أما في الطبعة الثانية ١٣٥٢ فقد ازدادت أبحاث الاسلام و المسلمين في الصين زيادة كبيرة ، حتى بلغت على تنوع موضوعاتها ٨٩ صفحة . وقال الأمير في حاشيته في ص ٢٢٩ من الجزء الثاني ان هذا البحث كان قد نشره في المقتطف سنة ١٩٠١ ثم اُضاف اليه معلومات مستجدة .

٤ - لم يسألني الأخ محب الدين شيئاً يتعلق بهذه النقطة ، ولو سألني لأجبت بما لا يزيد علماً إذ كان هو رحمه الله ، يصحح الملازم ولو كان معظم التعليقات مهيباً من قبل ، لما احتاج الأمير إلى سنتين وهو يكتب ، ولكان الكتاب أنجز طبعه قبل ربيع ١٩٢٥ بوقت طويل . رحم الله من علّق وصحّح . وكنت قد استعدت من « السلفية » جميع الاصول أو معظمها بعد الفراغ من الطبع لأبقيها من ذكريات الأمير عندي ، وسنة ١٩٤٨ ذهب كل هذا مع مكتبتي وبيتي في القدس إلى اليهود . حمى الله فلسطين من القوم الباغين .

وهذه الطبعة الثالثة نرجو أن يتقبلها العالم الاسلامي بقبول حسن

كما تقبل الطبعيتين الأوليين ، فقد أمسى هذا الكتاب من كتب التراث الاسلامي ، وإذا لم يبلغ بحسن التنسيق في فصوله وتعليقاته المبلغ الذي يرضي فن التأليف ، فإن مادته العلمية وهي التبر احيانا ، والذهب المصفى احيانا أخرى ، باقية على جوهرها . وكلما طال الزمن وامتدت الايام ، كثر البحث عن هذه الناحية أو تلك من نواحي الأمير شكيب . فالاحتفاء بكتبه ودراستها وتقدها ^(١) ، عسى أن يتسع حتى يشمل دراسة حياته في آماله وآلامه .

شكر « دار الفكر » في بيروت :

واني أشكر « لأصحاب دار الفكر » في بيروت ، مزيد عنايتهم باخراج هذه الطبعة الثالثة على ما يرى القارىء من الاتقان . وما هو فوق هذا قيمة ، تجنّدهم الروحي لخدمة العالم الاسلامي عن طريق نشر هذا الكتاب ، وبنشره يضاف سفر خالد الى مكتبة التراث الاسلامي .

(١) المحبّون « لحاضر العالم الاسلامي » خاصة ، ولكتب الأمير شكيب عامة ، وهم موزعون في العالم الاسلامي ، والقارات كلها ، يحدون طلبتهم على خير وجه في ثلاثة كتب تمشي في الطليعة :

١- « محاضرات عن الأمير شكيب ارسلان » القاها الدكتور سامي الدهان في معهد الدراسات العربية العالية في جامعة الدول العربية ١٩٥٨ .

٢- « أمير البيان شكيب ارسلان » تأليف الأستاذ أحمد الشرباصي في جزءين مجموع صفحاتها ٩٣٣ صفحة ١٩٦٣ .

٣- « ذكرني الأمير شكيب » صنفها ووقف على طبعتها الأستاذ محمد علي الطاهر - ١٩٤٧ وفي هذا الكتاب اكبر مجموعة للأقوال والآراء في الأمير شكيب من عارفه في العالم بعيد وفاته رحمه الله .

صفوة ترجمة لوثرروب ستودارد Lothrop Stoddard

مؤلف « حاضر العالم الاسلامي »

ولد سنة ١٨٨٣ في بروكلين ، في اميركا ، وكان ابوه خطيباً واعظاً جوالاً ، وبعد قليل وقع الفراق بين ابيه وامه ، فاحتضنته امه وهو صغير . وكانت تحب الرحلات وتضطحب وليدها معها ، وهي كانت علية فغلبت على الولد محبة العزلة والمطالعة الهادئة ؛ ولما ترعرع صار يميل الى دراسة البيئة وملاحظة حياة الناس ، وظهر منه ميل شديد الى تحصيل اللغات ولا سيما الالمانية في داخل جامعة هارفرد ١٩٠١ وامتاز بالآداب .

وكان ابوه يريد ان يكون محامياً ، فشاء الله ان يجعله كاتباً اجتماعياً ومؤرخاً لكثير من الثورات وحركات التطور في العالم . وتخرج من هارفرد سنة ١٩٠٥ واضطر ان يتابع رغبة ابيه فدخل جامعة بوستن ونال شهادة دكتور في الحقوق سنة ١٩٠٨ وقبل ان يشرع في ممارسة المحاماة قام برحلة الى اوروبا دارساً مدققاً ، فهاله اذ رأى ان اوروبا تقترب من فوهة بركان ، وبعد قليل كانت الحرب الاولى .

ورغم دفع ابيه له نحو ممارسة المحاماة فانه عاد الى ما هياه الله له ، وبدأ الكتابة ، فالف بين ١٩١٤ و ١٩٤٠ سبعة عشر كتاباً ، فكان « حاضر العالم الاسلامي » الخامس من كتبه سنة ١٩٢١ .

من كتبه هذه وقد اشتهرت :

« الثورة الفرنسية في سانتو دومنجو » (١٩١٤)

« نهضة الشعوب الملونة » (١٩٢٠)

« الثورة على الحضارة » (١٩٢٢)

« الطبقات الاجتماعية في اوروبا بعد الحرب » (١٩٢٥)

« الانسانية تحت سيطرة العلم » (١٩٢٦)

« الحظ : شريكك الصامت » (١٩٢٩)

وسنة ١٩٢٤ قام بسياحة الى الشرق الأوسط وزار فلسطين والاردن ومصر وتركيا وغيرها . واجتمعنا به في بيت المقدس وكانت بيننا احاديث مفيدة ، ودعاه سماحة رئيس المجلس الاسلامي الاعلى الحاج محمد امين الحسيني الى وليمة فاخرة تكريماً له في بيت المقدس ، وصحبته الى الاردن ضيوفاً على الملك عبدالله اربعة ايام ، فعرفت فيه علو تهذيبه وبعد نظره وسعة علمه . ولما قفل راجعاً بطريق اوربا ، زودته بكتاب الى الامير شكيب في سويسرة ، ولكنه لم يلقيه اذ كان الامير خارج البلاد ، فاجتمع به بعد ثلاث سنوات في اميركا لما لبى الامير دعوة الجالية العربية لحضور مؤتمرها هناك سنة ١٩٢٧ وكان لقاؤهما لقاء الصديقين العالمين جمعها الله في كتاب واحد .

وكانت المكتبة بيني وبين ستودارد كل فترة واخرى تنبثني عن المزيد من الفضل فيه . وكان يهديني كتبه مما ذكرت هنا وغيرها ويرسل الى نسخة من كل مقالاته الفريدة في « سترداي ايفن بوسط » المشهورة . ولكن انقطعت الكتابة بيني وبينه في خلال الحرب الثانية ، فلما وضعت الحرب اوزارها ، عدت الى مراسلته ، وكان ذا صلة حسنة برجال التمثيل الدبلوماسي العربي في اميركا .

تزوج مرتين . وسنة ١٩٥٠ انتهت حياته فرثاه كثيرون في الصحف والمجلات . اوسع كتبه انتشاراً هو « حاضر العالم الاسلامي » اذ ترجم الى التركية والالمانية والفرنسية ، فضلاً عن العربية .

وكان يريد اخراج طبعة جديدة منه ، مستوعبة صفوة التطور الاسلامي الى منتصف القرن ، اذ مساقه في علاج القضايا والمسائل يقف عند ١٩٢١ ، فعاجلته المنية ، جزاه الله خيراً .

عجاج نويض

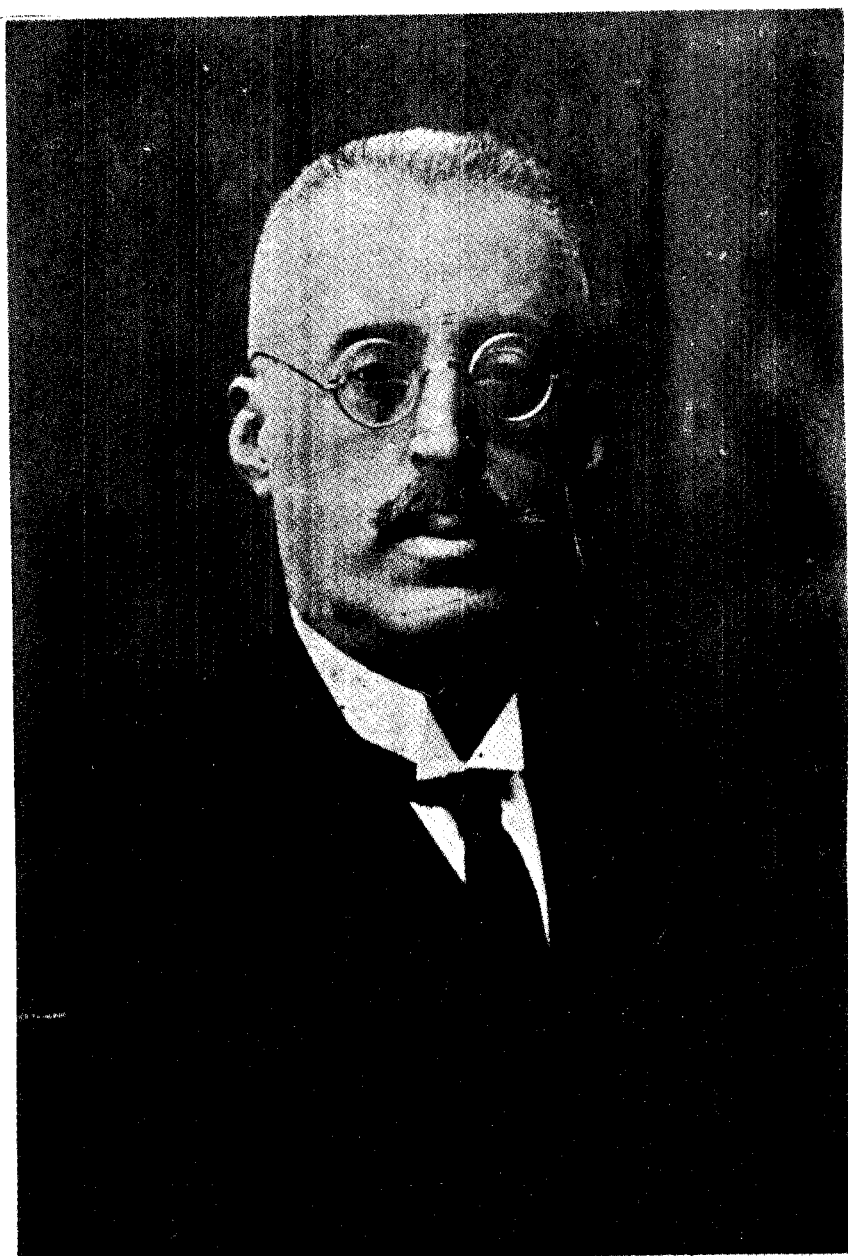
ربيع الثاني ١٣٩١

(رأس المتن - لبنان)

حزيران (يونيو) ١٩٧١



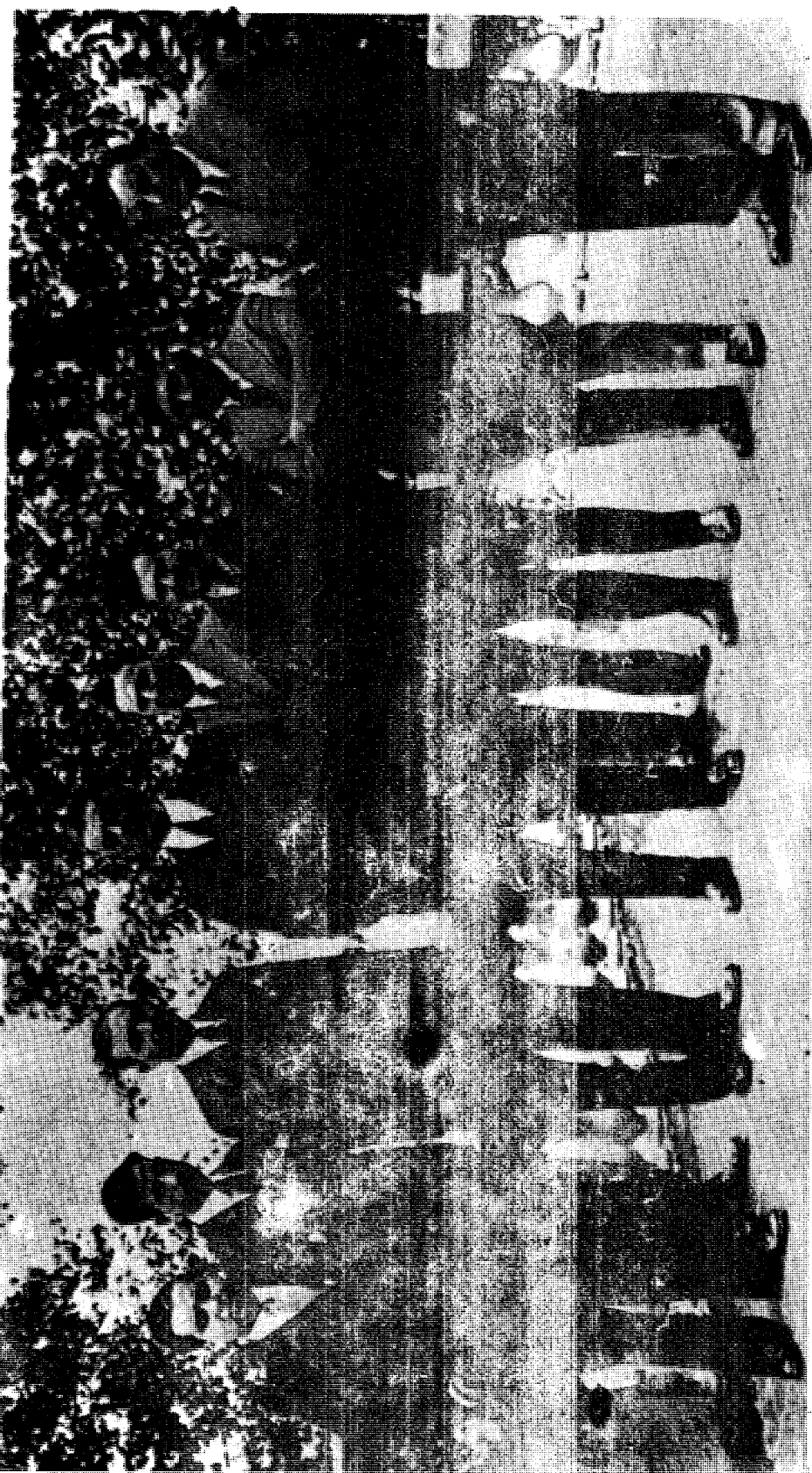
الامير شكيب في الخامسة والعشرين من عمره - كانون الثاني ١٨٩٥



صاحب المظوفة الامير شكيب أرسلان



المؤلف ليروب متودارد



في سنة ١٩٢٩ ، وقعت الثورة العربية الفلسطينية الكيرة المعروفة بثورة « البراق الشريف » أرسل رئيس « اللجنة المركزية لاغاثة منكوبي سورية ، سماحة الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين ورئيس « المجلس الاسلامي الاعلى » وفدا عربيا الى امركة للعمل من اجل قضيت فلسطين واستنهاض همم المهاجرين العرب والمسلمين وكان الوفد مؤلفا من المجاهد بالقلم والسيوف والامير عادل ارسلان شقيق الامير شكيب « في الوسط فارغ الطول » ومن يساره الاستاذ البندك وبقيّة الوفد .

تمهيد للمؤلف

ان العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، قد تغلغت فيه عوامل الانقلاب أبعد منغلغل ، وانبثت في عروقه فواعل التبدل أوسع مُنبث ، حتى كمل اختباره وتم استعداده ، فراح يجتاز هذا الدور الخطير في التحول ، ثوار القوى الى مالا حد له . فاذا ما سرحت ببصرك نحو العالم الاسلامي رقعة رقعة ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان الى الكونغو رأيت ال ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ من المسلمين ، قد ثارت نفوسهم مشددة الحركة والانفعال ، نازعة الى كل ضرب جديد من ضروب الآراء والافكار ، والمطامح والآمال . وان عقبي هذا الانقلاب الشامل لعظيمة جداً ، وستأثر بنتائجها العميمة أمم الارض جمعاء ، والله الامر من قبل ومن بعد .

على ان العامل الاكبر في هذا الانقلاب هو الحرب العامة . ولكن منشؤه ليراه المستقصى اقدم عهداً وأبعد أصلاً ، اذ ان بذوره قد القيت في تراب العالم الاسلامي قبل الحرب الكبرى بمئة سنة بل أكثر ، ومنذ ذلك الحين درجت هذه البذور تنمو مزدادة الاستعداد والقوة الحيوية ، نمواً مستسراً المنهج ، بطيء الحركة في أول العهد ، ثم على التوالي أوضح سبيلاً وأوسع انتشاراً ، وما زال الانقلاب الاسلامي على مسراه هذا حتى أدركته الحرب العامة التي قد تضعع منها الكيان ، فكانت عامل الثورة خفاة في العمور الاسلامي ، فطفق يشور ويهتاج منتقلاً من حال الى حال ، مربداً الجو بقاتم السحب ، لا يسمع فيه السامع الا القواصف .

وان وصف هذا الانقلاب العجيب ، ودور التحول العظيم ، وما اليهما من مختلف الاسباب والعلل والنتائج ، هو غرضنا الذي قد ابتغيناه من اخراج هذا الكتاب للناس . وقد كنا في ذلك من الذين يصورون الشيء كاملاً تاماً فأتينا على بيان كل صور الانقلاب من دينية ، وتهذيبية ، وسياسية ، واقتصادية واجتماعية وفي كل من هذه تناولنا الكلام على سببها وتكونها ، ونشوءها وترقيتها ، وعمومها وانتشارها ، وصفاتها وحالاتها ، وما فيها من قوة انسياق وعامل . أضف الى هذا أننا لم نغفل ايضاح ما في بعض المواضع من الاختلاف

دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر مشدود ، وعلى شدة هذه المكاره فقد نُصر الاسلام نصراً مبيناً عجيباً ، اذ لم يكد يمضى على ظهوره أكثر من قرنين ، حتى باتت راية الاسلام خفاقة من ﴿ البرانس ﴾ حتى ﴿ حلايا ﴾ ، ومن صحارى أواسط أسية حتى صحارى أواسط أفريقية .

كان لنصر الاسلام هذا النصر الخارق ، عوامل ساعدت عليه ؛ أكبرها أخلاق العرب ، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته ، والحالة العامة التي كان عليها المشرق المعاصر في ذلك العهد . ان العرب ، وان كان ماضيهم مابرح منذ عهد متناول في القدم حتى عصر الرسالة ماضياً غير مشرق باهر ، فقد كانوا أمةً استودعت فيها قوة عجيبة ، تلك القوة الكامنة التي بدأت منذ نشوء الاسلام تظهر جليلةً الى عالم الوجود . فقد ظلت بلاد العرب أجيالاً طوالاً من قبل محمد صلوات الله عليه وآله مباءة يشد فيها زخار القوى الحيوية ، وجيشان العوامل الروحانية . كيف لا وكان العرب قد فاقوا آباءهم وأجدادهم ايغلاً في الشرك والوثنية . وانقضى عليهم وهم على هذه الحالة عهد ليس بالقليل حتى استحات عناصر أمرجتهم من شدة ذلك كله فصاروا تواقين بفعل غرائزهم وأخلاقهم الى تبديل حالهم وتحسين شأنهم . هكذا كانت حالهم العقلية والنفسانية ، حالة الاستحالة الكبرى ، والانقلاب العظيم ، والاستجداد الكبير ، لما صاح فيهم نفير الاسلام . ان محمد وهو عربي من العرب ، الا روح قومه متجسدة ، ونفسهم متجسمة ، استطاع محمد ، وهو يبشر بالوحدانية تبشيراً عالياً عن زخارف الطقوس والأباطيل ، أن يستثير حق الاستشارة من نفوس العرب الغيرة الدينية ، وهي الغيرة الكامنة متمكنة على الدوام في كل شعب من الشعوب السامية . واذهب العرب انصرة دعوة ابن عبدالله ، من بعد ما ذهبت من صدورهم الاحن المزمنة ، والعداوات الشديدة التي كان من شأنها من قبل الذهاب بحولهم وقوتهم ، وانضم بعضهم الى بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرسالة في رأسه نور للناس وهدى للعالمين ، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحاريهم في شبه الجزيرة ، ليفتحوا بلاد الاله الأحد الفرد الصمد .

أجل ، هب الاسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزعزع ، فلاقى في سبيله جواً روحانياً خالياً ، في ذلك العهد كانت كلتا مملكتي فارس وبوزنطيه باديتين للعيان كأنهما اللحاء الجاف فارق عوده ، لانمو فيه ولا حياة ، وكان الدين في كل من هاتين المملكتين صار

ذنباً يزرى عليه ويسخر منه . أما في فارس فقد كان دين « المزدكية » القديم قد انحط انحطاطاً كبيراً حتى أصبح مجوسية باطلة وصناعة خداعة بين أيدي الموابذة يظلمون به الخلق ويضطهدونهم بكل قسوة ، فكره الناس ذلك الدين في الباطن كرها شديداً ومقتوه مقتاً عظيماً .

وأما في القسم الشرقى من المملكة الرومانية، وهو مملكة بيزنطية فقد ألبس الدين فيها لباساً غير لباسه الأول فاستحال الى الأباطيل الشركية وانتشرت فيه الأوهام والخزعبلات التي كان يقوم بها علماء الدين اليونانيون ذوو العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، فعدت النصرانية عبثاً وسخرية . وعلى الجملة فقد كانت البدع والضلالات قد مزقت « المزدكية » الفارسية والنصرانية البيزنطية شرمزق ، وبذرت في كل منها بذور الاضطهادات الهمجية والعداوات الوحشية ، فتمت تلك البذور نمواً هائلاً . ولا يغربن عن البال انه كان على رأس كل من بوزنطية وفارس سلطان مستبد قاهر ، وملك عاتٍ أرقق الرعية ارهاقاً لا قبل لأمة باحتمال مثله ، فأتت كل عاطفة من عواطف حب الوطن والاخلاص للدولة . زد على جميع ذلك ان هاتين المملكتين كانتا على حال من الضعف شديدة بعيد حرب طاحنة التظت نيرانها بينهما خرجت كلاهما منها مفتوتاً في عضدها ، منهوكة قواها .

هكذا كانت حالة العالم لما غشيهِ طوفان الاسلام ، وعلى هذا الاعتبار ترى أن العاقبة التي رآها العالم بعيد ذلك كانت مما لا بد منه ولا منتدح عنه ، وجميع ما في الأمر ان كتائب المملكة الرومانية الشرقية، ومتدربة فارس ، كانت من قبل خوضاً حروب فتاكاً ، لم تقو الآن على صد حملة الحاملين عليهما من أمة الصحراء المتعصبة ، فسقطت أمام الفاتحين العرب سقوط التلاشي والاعياء ، فلهذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم جسداً أبطلاً ، بل ان هذه الأمم التي كانت حتى الفتح الاسلامي مدقوقة العنق من جانب ملوكها ، قبلت الفاتحين مستسلمة ، فقام عديد أرباب البدع يتהלلون فرحاً وسروراً لنجاتهم من نير المضطهدين الممقوتين . ولم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل في دين النبي العربي أفواجاً ، ايثاراً له بجدته وسداجته على ذينك الدينين اللذين صارا غاية في الانحطاط والتدنّي . وقد عرف العرب بدورهم كيف يستدنى الحكم ويوثق لسلطان . انت له أمور الملك واستقرت نقطة دائرتها في أيديهم . فالعرب لم يكونوا

قط أمة تحب اراقة الدماء وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا ، على الضد من ذلك ، أمةً موهوبة جليل الاخلاق والسجيا ، توافقة الى ارتشاف العلوم ، محسنة في اعتبار رعم التهذيب ، تلك النعم التي قد انتهت اليها من الحضارات السالفة . واذ شاع بين الغالين والمغلو بين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة - الحضارة العربية ، وهي جاع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والفارسي ، ذلك الجاع الذي نفخ فيه العرب روحاً جديدةً ، فنصر وأزهر ، وألقوا بين عناصره ومواده بالعبقريّة العربيّة والروح الاسلاميّة ، فاتحد وتماسك بعضه ببعض ، فأشرق وعلا علواً كبيراً . وقد سارت الممالك الاسلاميّة القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ — ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارةً ورقياً ، وتقدماً وعمراً ، مرصعة الأفطار بجواهر المدن الزاهرة ، والجواضر العامرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العامية المنظمة ، وفيها مجموع حكمه القدماء ومختزن علومهم ، يشعان اشعاعاً باهراً . طول هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الاسلامي يضيء على الغرب النصراني نوراً ، ثم غابت كواكبه ، وأفلت أنجمه ، حتى أدركته ليايه السوداء وأجياله المظلمة .

لم يكد يستهل القرن العاشر حتى تبدت الظواهر الواضحة تدل على حينونة العهد الذي أخذت فيه الحضارة العربيّة في الانحطاط ، وما كانت تلك الظواهر انكذب فيما دلت عليه ، غير ان تلك الحضارة انما كانت في أوائل عهد الانحطاط تهبط دركةً دركةً ، وعلى هذه الحال المستمرة ، وانقضاء العصر العربي منذ القرن العاشر ، فقد دامت الحضارة العربيّة جلدة تنزع حياتها من مخالب الفناء انتزاعاً ، وسابقة للغرب النصراني ، حتى حاول النازلة الكبرى التي حلت بساحتها في القرن الثالث عشر . وكانت الأسباب في انحطاط الحضارة الاسلاميّة جمةً ، أشدها أن روح الشقاق القديمة الأصل ، تلك الروح التي كانت على الدوام آفة سياسيةً تنخر في جسم الدولة ، عادت فظهرت اذ نشأ التنزع على امارة المؤمنين ، وهذا التنزع قد أفضى الى قن دموية ، وهذه القن وما فيها من حوادث الاغتيال وسلب الأرواح قد أفنت تلك الحرارة التي عرفت في صدر الاسلام ؛ فقام مقام الأبطال الأول ، مثل أبي بكر وعمر حاملي لواء الاسلام الأولين ؛ أمراء دنيويون اتخذوا الخلافة وسيلة للجهور والظلم ، والتباهي بمتاع الدنيا وأعراضها . وكانت الخلافة في المدينة في الحجاز ؛ ثم نقلت الى دمشق في سورية ،

ثم الى بغداد في العراق . أما في الحجاز فلم يكن البغي ولا الاستبداد هناك مستطاعاً ، لأن
عرب الصحراء الأشداء ، أهل الاستقلال والحرية ليس من شأنهم الخضوع لحاكم قاهر ولا
الانقياد لأمر مرهق ، وقد أوصاهم النبي بالحرية والشورى ؛ فقال لهم قولاً مبيناً : (انما
المؤمنون اخوة)^(١) وقد كانت الخلافة في الحجاز شوروية قائمة على قواعد الاسلام الصحيحة
وأركانها . فالأمة هي التي اختارت أبا بكر وعمر وولت كلا منهما عليها خليفة ؛ وكلاهما كان
ينزل على رأى الأمة وحكمها ، وذلك على مقتضى الشريعة التي أوحى الله بها الى نبيه محمد
وهي القرآن الكريم

وأما في دمشق ؛ ولا سيما في بغداد، فقد تحولت الأحوال وتبدلت الأمور، ولا يعجب
من ذلك والعرب الصرخاء الاقحاح، الجارى في عروقهم الدم العربى البحت، الدم المتحدّر
اليهم من أصلاب أبناء الجزيرة ، انما كانوا فئة قليلة في أفواج الناس وطوائف الخلق الذين
لا عداد لهم من أهل الشام وفارس وغيرهم من سائر المغلوبين المنتحلين الاسلام حديثاً ؛
فامتزج دم الغالب بدم المغلوب ؛ وجع الاسلام بين الأجناس المختلفة والنحل المتنوعة . ولما
كانت هذه الشعوب المغلوبة قد سئمت كلّها الذلّ من ملوكها السابقين فعادت بسبب ذلك
لا تقوى على احتمال الارهاق والصبر على المحنة ، لحدثان مادانت خاضعة مضافية للخلفاء
المسامين الذين أخذوا على التوالى يصطنعون ويستكفون من هذه الرعايا عمالاً وحاشية ؛
وبالتالى جنداً لحراسة سياج الملك والذب عن حياض الدولة . وما زال الأمر هكذا حتى عرا
الملك العربى ماعراه من النوائب ، فأخذ ظل سلطان العرب ، وقد ولت غرر أيامهم، يتقاص
الى الصحراء ، وأنشأت حكومتهم تنقلب الى مطية من مطايا الاستبداد الشرقى . ولما نقلت
الخلافة الى بغداد بقيام دولة بنى العباس (٧٥٠ م) ازدادت كلمة الفرس نفوذاً وامتد شأنهم
وسلطانهم الى كل زاوية من زوايا الدولة ، وما الخليفة الأعظم هرون الرشيد^(٢) ، بطل « الف

(١) هذه آية قرآنية وليست حديثاً نبوياً — العرب

(٢) نعم كان هارون الرشيد جباراً سفاكاً للدماء على نعط غيره من ملوك الشرق المستبدين . وقد كاد
يبطش بالامام الشافعى لتهمة أنه يميل الى أولاد علي . كما ان ولده المتصم أمر بضرب الامام احمد بن حنبل
لانكاره القول بخاق القرآن . وكما ان مالك بن انس امام دار الهجرة ضرب في أيام المنصور لقوله ليس لمكره
عين . فاذا كان هذا هو العمل مع مثل اولئك الأئمة العظام ؛ مصايح الاسلام الذين أناروا براهينه وشرعوا
قوانينه ، وكانوا من العلم والزهّد والتقوى بالمكان الذى لا يخفى ؛ ففاظنك بحالة غيرهم من الامة . والحقيقة

لية ولية»^(١) الا الملك العربي على شاكلة ملوك الفرس مثل قياكسرو وكسرى أنوشروان، خلافاً كل اختلاف لما كان عليه أبو بكر وعمر. وفي بغداد كما في غيرها من سائر حواضر المملكة الاسلامية كان الاستبداد مقوضاً لأركان الدولة أيما تقويض، فغدا خلفاء النبي وهم على هذه الحال طغاة موسوسين، وألاعيب بين أيدي الحظايا، لا يستطيعون القيام بعد بعبء من أعباء السلطان ولا القيادة بزمام من أزمة المملكة الاسلامية

ما انفكت المملكة تهبط وتتقهقر حتى تقطعت أوصالها، وتفككت أجزاؤها، وسلبت منتها، فصارت الوحدة السياسية مما لا استطاع دوامه لافتقار الدولة الى قواد محنكين، ولعفاء ذلك المزاج الاسلامي الصافي الجامع لسجاياء عرب الصحراء الأول. وقبيل ظهور الاسلام كان أهل كل مصر من الأمصار التي انتشر فيها ظلم أكلسة الفرس وقياصرة الروم، ينزعون منزعاً قومياً ويحاولون نهضة وطنية، فجاء الفتح الاسلامي طامياً، قاضياً على جميع هذه المنازع، أما الآن، والمملكة الاسلامية محتضرة في النزاع، فأني استطاع المجيء بمثل ما جئ به في صدر الاسلام؟ استطاع الاسلام أن يجعل الملايين من الخلق على اختلاف عناصرهم وأمزجتهم ومعتقداتهم، ينتحلون الرسالة المحمدية ديناً، ولكنه لم استطع أن يحيل هذه الملايين الى صورة اسلامية متماسكة البنیان ثابتة الصبغة، فاعترض الازدراء شجاً، وساء الهضم فسادت نتيجته. دعا محمد العرب فلبوا دعوته حقاً، لأنه أناهم بكتاب وآيات وآراء بما كانت عقولهم وطبائعهم مستعدة بالفطرة لقبوله أحسن قبول، وناداهم مستغزاً نهرتهم وحميتهم، وهم اخوان نحوه سجيةً وخلقاً، فاستجابوا نداءه طائعين. فلما دخلت شعوب مختلفة غير عربية في الاسلام، أخذ كل شعب من هذه الشعوب يفسر بمحوى غريزته رسالة النبي، على ما يلائم منازعه الشعبية وميوله التقليدية الخاصة، ويوافق روح التهذيب الذي كان عليه، فنتج عن جميع ذلك ان الاسلام الحقيقي الذي شاهده العالم في أول منشأه قد

ان الخلافة لم يستقم أمرها على مراد الشارع إلا مدة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ثم عادت بعد أن صارت بالارث ملكاً عضواً «ش»

(١) كتاب «الف ليلة وليلة» الوارد فيه ذكر هرون الرشيد مراراً عديدة قد ترجع الى أكثر اللغات الفرية وله عند الفريين مقام أدبي رفيع لما حواه من وصف العيشة العريية وعادات العرب الصرفة أيام العصر الذهبي في بغداد، ورجال الأدب من الفرنجة على الجملة يصدونه ذخراً من علم الأدب الخالد في العالم.

«العرب»

اعوج والتوى . ولنا أجلى دليل على هذا ماحدث فى بلاد فارس حيث استتحات الوجدانية التى نادى بها محمد ، الى مذهب الشيعة ، فبات أهل فارس الشيعة على صلات واهية تكاد لا تربطهم بعالم السنة الاسلامى واستتحات الوجدانية أيضاً عند البربر سكان البلاد المغربية الأفريقية وغيرهم الى حال عبت معها الأولياء ، وحدث مثل هذا عند المسلمين فى الهند . على ان جميع ذلك لما شدد النبي فى تحريمه والنهى عنه نهياً قاطعاً .

وما كفى ماحدث من الاختلافات الدينية، وما أصاب صورة الرسالة النبوية، حتى عمت البلوى بان مئى الاسلام بتمزق الوحدة السياسية والانشقاقات الزمنية. فأول ماحدث من هذا النوع كان فى أوائل عهد الدولة اذ فرّ أحد المضطهدين من بنى أمية الى الاندلس حيث انشأ فى قرطبة خلافة (١) منافسة لتلك التى فى بغداد ، فأعترف مسلمو الاندلس قاطبة بهذه الخلافة حتى وبرابرة شمال افريقية . ومن بعد ذلك بعهد أنشئت خلافة أخرى فى مصر؛ هى الخلافة الفاطمية، وخلفاؤها منحرون على مازعموا من فاطمة بنت الرسول. أما الخلفاء العباسيون فى بغداد فما برحوا يهبطون دركات الانحطاط ، ويفقدون من دولتهم وسلطانهم حتى صاروا بعد مدة من الزمن عبيداً مطاوع بين أيدي الترك — العنصر الغريب الداخلى عليهم .

وقبل أن نشرع فى بيان كيفية انتقال الدولة من أيدي العرب المهجناء، ذوى الدم المزيج ، الى أيدي الترك ، وخطورة ذلك عظيمة فى تاريخ الاسلام ؛ نؤثر أن نقول كلمة فى أسباب انحطاط التهذيب والمدارك العقلية عند العرب ، ذلك الانحطاط الذى افقه تمزق الوحدة السياسية فى جميع الأدوار الأخيرة من العصر العربى .

كان العرب فى عصر صاحب الرسالة أمة كريمة الأخلاق ، سليمة الطباع ، نيرة السجاياء ، مقاديرهم يركبون كل صعب ، تحركهم روح الرسالة بغاية غاياتها ، وتبعث فيهم عزماً شديداً

(١) الحقيقة هي ان عبد الرحمن الأموى الذى فر من وجه بنى العباس الى الغرب ، ولحق بالاندلس وأسس ملكاً ودولة مستقلاً بهما عن بنى العباس ولقبه المنصور العباسى بصقر قریش ؛ اقتصر فى دولته على الامارة ولم ينافس العباسيين فى الخلافة العامة بل كانت تتلى الخطبة فى مساجد الاندلس باسم خلفاء بغداد امام الملوك من بنى أمية الى أيام عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر الذى استفحل شأنه ، واتسع سلطانه ، واستولى على بدوتى الاندلس وأفريقية؛ واوغلت جهوشه فى بلاد الافرنجة ، وصار أعظم ملوك زمانه؛ فهو أول من تلقب من الأمويين فى الاندلس بالخليفة وبابيه مسلمو المغرب بالخلافة

« ش »

وغيره متوقدة . كانوا أشداء العصبية الدينية ، وهي العصبية المعروفة في كل جيل من الأجيال السامية ، وعلى شدة هذه العصبية ، فانهم لم يكونوا فيها على غير هدى ، بل كانوا مستبصرين يستنيرون بنور العقل وهدايته ، و متمسكين تمسكاً شديداً بمعتقدات دينهم وأركانهم وأصوله ، غير ان دينهم هذا انما كان ديناً سهلاً الاكتناء والمأخذ ، واضحاً جلياً ، كان جوهر تعاليم محمد الوحداية مع السنة المعلومة . فالاعتقاد كل الاعتقاد بأن لا الله الا الله ، وبأن محمداً رسوله ^(١) من لدنه كما أنزل في القرآن ، والقيام بالفرائض المسنونة المعينة ، كالصلاة ، والصوم ، والحج ، انما هذا فحسب هو جلة الأركان التي تألف منها الاسلام الذي كان عليه العرب يوم أصدعوا في الأرض يفتحون العالم الشرق

فلاسلام، وهو هذا الدين البين الصريح ما كان ليقيد عقل العربي ويلقي عليه سجوفاً فوق سجوف . والعربي كان قد أدرك حالاً ثار فيه جده ، واشتعلت غيرته ، فبات تواقاً الى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها ، والتبسط في شؤون الحياة وتوفير أحوالها ، والتكيف على حديث مقتضياتها ، والخروج بها عما ألفه أزماناً في فيافي الصحراء وكشبانها . لهذا لما نشر العرب فتوحهم ومدتوا سلطانهم على الاقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التمتع بالنعم المادية واستلذاذ الترف ورخاء العيش فحسب ، بل عكفوا جادين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة . فنشأ عن جميع هذا الجد والترقيات ان أخرج للناس تهذيب عربي سام . فاضاءت العقول وازدهرت ازدهاراً كان نغز الحضارة العربية ، وواسطة قلاذتها ودرة تاجها . وكان ربح من الزمن كانت فيه هذه الحضارة مشرقة الشمس ، يانعة الثمار ، وارقة الظلال . فسادت الحرية العقلية ، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية ، ووضعت القواعد والأصول ، واستنبطت الأحكام . بيد ان هذا لم يكن من صنيع العرب وحدهم ، بل شاركهم فيه كثير ممن كانوا متظللين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا في عهد ملوكهم قبل الفتح الاسلامي ينوقون الأمريين ، ويسامون خسفاً شديداً في سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التي كانوا يخالفون فيها النصرانية البوزنطية والمجوسية الفارسية

(١) الرسالة النبوية هي من عند الله . وهي غير الالهية إذ لم يقل محمد انه إله نفسه بل كان يتحاشى قولاً مثل هذا ؛ فقال انه آخر الانبياء والمرسلين ؛ أولهم آدم ثم قبي على أثره بموسى ثم عيسى ؛ ثم بمحمد خاتم المرسلين كافة .

على أنه كان لهذا العصر الزاهر حد وقف عنده، ثم عرا شمس كسوف فظلام مطبق، فظهرت فرق رجعية، فابرحت تستقوى وتناهض غيرها من الفرق الحرة حتى تغلبت عليها، ثم أنشأت تسود سيادة شديدة ممتدة . وانقضت الأيام التي قامت فيها الفرق الحرة المعروفة على العموم بالمعتزلة^(١) مستمسكة بلباب الاسلام وجوهره الصحيح ، وذاهبة الى أن العقل انما هو مقياس كل شيء . وقامت الآن الفرق الخلافية المحافظة من بعدها ذاهبة الى ان النقل والسنة انما هما مقياس كل شيء . وأخذ من هم على هذا المذهب ، وفيهم كثير من النصارى الذين دخلوا فى الاسلام وكانت أمزجتهم مابرحت مشربة . روح دينهم البزنطى القديم ، يفسرون القرآن الكريم ويؤولونه ، ثم يؤولفون بين هذا التفسير والتأويل وبين السنة التي نقلتها الصحابة عن النبي ، وأوغلوا فى ذلك ايغالا بعيداً . فنتج عن ذلك أن أصيب الاسلام بمثل ما أصيبت به النصرانية فى الأجيال المظامة ، من تلبس الدين عقائد غير عقائده ، ونسبة الآراء الدينية الجافة اليه وهو براء منها . فلا غرو اذا اشتد الخلاف واتسعت شقته وطال عهده بين الذين اغتصموا بالسنة والنقل فقاوسوا عليهما ، وبين الذين جعلوا العقل نفسه مقياساً لكل^(٢) شيء . واذا قد انتهى الحال بالاسلام الى مثل هذا ، فالغلبة الأخيرة انما باتت متوقعة وهى غلبة عقيدة السنة والنقل على العقل . وفى الواقع ان تاريخ السنة والتقاليد^(٣) فى كل بلد من بلاد الشرق انما هو تاريخ السير نحو أدوار الاستبداد وعواقبه المشؤومة . كانت قد تلبت فى سماء الشرق سحب سوداء قائمة ، فلما أشرقت عليها شمس الاسلام الأولى من الصحراء حقبة من الزمن ، مزقتها وبددتها ، وكيف لا تضمحل تلك

(١) يقصد المؤلف بالمعتزلة جميع الفرق الحرة التي نشأت فى الاسلام — « العرب »

(٢) لا شك فى ان الكثيرين من علماء السنة غالوا فى التقليد والمحافظة على النقل ، ولكن مما لا شبهة فيه أن مرجع الايمان عند الجميع هو العقل ، وهو مشرق الدين ؛ ومناطق اليقين ؛ وبدونه لا يقوم اسلام ولا يعتد بايمان ، والقرآن العظيم من أوله الى آخره يناشد بالعقل ، ويحكم الى العقل ؛ ويهيب بالخلق الى التأمل والنظر ؛ وقد رأينا كثيرين من الأئمة مثل حجة الاسلام الغزالي وغيره ممن ليسوا بمعتزلة يقولون اذا تعارض العقل والنقل أول النقل حتى يطابق العقل « ش »

(٣) ان لعقائد البنية والنقل والتقليد عوامل وراثية عنصرية ؛ ومكانية اقليمية ، والبيئة والوراثة تأثير شديد فى نشوء الانسان وتحوله فى الشرق على الخصوص . وليس هنا موضع الاتيان على بيان هذه العوامل انما يمكن مريد الاطلاع أن يقف على ذلك حق الوقوف فى مؤلفات العلامة (ألبسورث هنتنغتون)

السحب وقد سادت الحرية العقلية والفكرية ، غير أنه بعد انقضاء هذا الدور دور النور والحرية ، عادت الغباوة والعقائد والأوهام تملأ فضاء الشرق وتستولى على عقول أبنائه . ومما ساعد على ذلك استحالة الخلافة الاسلامية من الشورى السياسية الصحيحة الى الاستئثار فلاستبداد .

فلما رسخ الاستبداد في الدولة ، وجاوز أفقها بعيداً ، أخذت آثار ذلك تبدو جلية في موضع موضع ، والاستبداد بطبائعه هو عدو الحرية وقتلها أينما وجدت ، سواء كانت حرية العقل والفكر أم حرية العمل . وكان بعض الخلفاء من بنى أمية في دمشق ، وقد استهواهم مذهب المعتزلة في بدء الأمر ، يوسعون في حرية الفكر ويرتاحون اليها ، ولكن لما أخذت روح المعتزلة تظهر بمظاهر السياسة ، اجفلوا منها أيما اجفال وأضرموا لها القضاء عليها فالمعتزلة حقاً لم تقصر أمرها على الآراء الفلسفية فحسب بل تخطت ذلك فأنشأت ترفع عقيرتها منادية بالرجوع الى حكم مثل حكم الخلفاء الراشدين ، يوم كان أمير المؤمنين يُنتخب للإمارة انتخاباً ولا يرثها وراثته وهو منقاد لرأي الأمة ونازل على حكمها وشوراها . وقام الخوارج وهم من قلب شبه الجزيرة ومن أشد العرب عصبية يؤيدون تراثهم من حرية الصحراء ويذودون عنه وينادون بتوسيع نطاقه ، غير معترفين بسلطة الخليفة ، ولما بالين بهيبة أمير المؤمنين^(١) وذاهبين في السلطة الى أبعد من الحكم الجمهوري نفسه

(١) أول من خرج على الامام بل على الأمامة من حيث هي؛ فائين لا حكم إلا لله ولا لزوم لنصب الخليفة هم الفرقة التي قاتلت سيدنا علياً رضى الله عنه ، ومن هناك بدأ تاريخ الخوارج الذين لعبوا دوراً عظيماً في الاسلام وكانوا فرقا متعددة ، يختلف بعضها عن بعض بمبادئ معلومة ، ولما طال النزاع بين علي ومعاوية على الخلافة ، نهض من هؤلاء الخوارج من قالوا قد تبادت هذه الفتنة التي جرت جداول من الدماء بين المسلمين وما السبب فيها سوى علي ومعاوية ، ثم هناك عمرو بن العاص الذي هو من موقدي نارها ، فلنقتل هؤلاء الثلاثة ولنزع الاسلام منهم . فانتدب لذلك منهم ثلاثة قصدوا اغتيال الثلاثة أما معاوية فنجا بكونه يوم أريد قتله لم يأت الى المسجد للصلاة وبعد ذلك جعل لنفسه مقصورة ليكون بمنجاة من المكيدة ، وأما عمرو فاشتبه على القاتل برجل اسمه خارجة فقتل خارجة خطأ بدلا عنه ؛ وأما أمير المؤمنين فاصابه القاتل وفدحت به المصيبة كما هو معلوم وقال الشاعر :

وليتها إذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بمن شاءت من البشر

وكان قد رسخت روح الفوضوية في الخوارج الى أن صاروا يغتالون الملوك وأرباب السلطة مفادين

فنشأ عن ذلك ان الخلفاء أخذوا يستندون اتباع الفرق المحافظة ويقرّبونهم منهم ، ويعتقدون بهم ، ويقصون عنهم الفرق الحرة كالمعتزلة ويشددون عليها النكير ، ويستعينون بالمشايخين لهم من العرب الهجناء ويشدون بهم أزرهم ، مؤثرينهم على العرب الصّرخاء من شبه الجزيرة ، حتى باتت الحكومة فى الدولة العباسية حكومة دينية مستبدة ، فرسخت عقائد الدين ملبسة لباس التقاليد وقُرّرت حدودها ، واضطهد أتباع مذاهب المعتزلة وقتلوا تقتبلا . وما كاد يكون القرن الثانى عشر من التاريخ المسيحى حتى ااحت كل معالم الحضارة العربية ، وقوّضت أركانها ، وجف كل عنصر من عناصر الحياة فيها ، وقضى على كل فكر مبتكر ، ورأى مبتدع . وعاد لا يسمع صوت من أصوات المعتزلة ، ولا يرى لأحد منهم أثر ، وهجم العقل الاسلامى هجمته الطويلة ، وما زال مغرقاً فيها حتى استفاق اليوم استفاقته الكبرى منعوراً .

فى أوائل القرن الحادى عشر م . تجسم انحطاط الحضارة العربية تجسماً تاماً . وبعد ان اختفت الروح العربية الأولى التى هبت من الصحراء هبوبها العجيب ، أخذ العرب الهجناء يرون ملكهم السياسى يذهب من أيديهم الى أيدي غيرهم من الدخلاء ، وكان هؤلاء الدخلاء الوارثون للدولة العربية هم الترك . والترك هم العرق الغربى من الجبل الطوراني ، جيل القبائل الرحالة التى كانت منذ عهد لا يعرف أوله تجوب أنجاد أواسط آسية وشرقيها ، ولما كان العرب يفتحون فارس ، تحاكّت قوادهم وجنودهم بالترك الرحالة ، وهؤلاء عهدئذ يعوجون المفاوز محاولين جواز حدود فارس الشبالية الشرقية ، غير أن العرب وهم فى ابان سلطنتهم ، ويخشع غالب قطين الأرض لذكر خلفائهم ، ما كانوا يرهبوا الترك أو يحسبوا

بأنفسهم متباهين بنبيلتهم مترقيين الأجر على عملهم حتى قال بعضهم فى عبيد الرحمن بن ملجم قاتل على كرم الله وجهه :

لله در المرادى الذى اخترمت يدها مهجة شر الحلق النساء
ياضربة من مريد ما أراد بها إلا ليبلغ من فخر العرش رضوانا

ولا أحسب هذا القول إلا من شدة ولهم بمناهضة السلطة ، ولجورد علوم فى السكك الأمانة الى كان على مثالها ، والا فقل ان وجد فى التاريخ البصرى مثل على بن أبى طالب فى كمال صفاته ، وكثرة فضائله ، وعلو مزاياه ، ومن كان يقدر أن يقول فى أعلى شيئاً ، فأنت ترى ان هذه المنازع الفوضوية وروح مغالبة السلطة التى نراها فى الغرب الاوروبى اليوم قد عرفها الفرق أيضاً (ش)

لهم حساباً ، بل رأوا في الترك نفعاً لهم ، والترك قوم عرفوا بالجفاء والقسوة ، لا يحسنون شيئاً أكثر من طاعة أمرهم والقتال كالمجانين ، فلماذا ما كان الخلفاء لينفروا منهم في أول الأمر بل أخذوا يستأجرون منهم جنداً من الطراز الأول لاعزاز الجيش والذود عن دمار الدولة ، ويستكثرون منهم بطانة وحرساً .

قلنا ان العرب ما كانوا يرهبوا الترك في أول الأمر ، ولكن لما وهن عظم الخلافة وذهبت ريحها تحولت الحال فآلت غير مال ، اذ تمكن الترك المستأجرون من الحلول في كل موضع قوى من مواضع الدولة ، ولا سيما في الجيش العربي ، فانشأوا يتصرفون تصرف السيد الأمر والحاكم المطاع ، ففتحوا أبواب التخوم العربية الشرقية ، ومهدوا السبيل تمهيداً لآبناء جنسهم ، فأخذ هؤلاء يتدفقون كاللوج وعلى رؤس طوائفهم قواد أمراء ، وطفقوا يعيشون في البلاد أحراراً أنى شاءوا ، و يقيمون حيث طاب لهم المقام ، ويجوسون خلال الديار ، ويسلبون وينهبون ، ويفجعون ويفتككون .

ولما شرع الترك يدخلون في الدولة كانوا يقبلون سريعاً على الدخول في الاسلام أيضاً ، بيد أن الاسلام لم يدمث من جفائهم ولم يقوّم من أودهم كثيراً ، ومتى ماجئنا نعتبر شأن هؤلاء الترك الدخلاء يجب علينا أن نفرق بينهم وبين الترك العثمانيين المعاصرين ، سكان القسطنطينية وآسية الصغرى . فان الترك العثمانيين اليوم ، انما يجري في عروقهم دم مزيج ، بعضه أوروبى وبعضه الآخر اسيوى غربى ، ويخالط مزاجهم عنصر غربى ، وعنصر شرقى عربى ، فهم والحالة هذه ، يختلفون اختلافاً كبيراً ، تهذيباً وخلقاً ، عن آبائهم وأجدادهم الأولين . وعلى هذا كله فان العثمانيين المتأخرين مازحت فيهم السيم الطورانية الخشنه التي يتميز بها ترك قفقاسيا المعروفين بالتركان عمن سواهم من الترك المقيمين في غربى آسية

فكيف كان التركي القديم بطباعه وسجاياه ياترى ؟ انما كان في المقام الأول جندياً مجرباً ومقاتلاً باسلاً ، وهو لم يكن في ذلك العهد ذا فكر ثاقب وعقل مبتكر ، بل كان فيه شيء من حب الاطلاع والاستشفاف ، فلم يقتبس غير القليل من الآراء العسكرية في شؤون القتال ، فالطاعة العمياء ثم الطاعة العمياء . وقاتل الاستبسال خصب ، هما جميع ما كان عليه التركي يوم تقدم ليتناول قيادة الاسلام من الخليفة العربى الضعضع ، الواهن العظم .

حقاً ، مآدهى الاسلام وسائر العالم معاً ، مثل هذه الداهية ، وما نزل بالحضارة العربية

مثل هذه النازلة ، وكفى الاسلام انه دان لحكم أمة متعصبة مغالية جافة جاسية، لم يكن الرقى مستطاباً في ظن دوانها^(١)، فبات ضرباً من ضروب المستحيل . أجل ، لا ينكر أن الاسلام قد اعتز بقوة حربية ، كبيرة جديدة ، ولكن قد ساء التصرف بهذه القوة حتى جنت على الاسلام جنائيات هائلة ، وجرحته جروحاً كبيرة فبات نزيهاً يتقهقر سريعاً . وأول عمل قام به الترك الزاحفون هو اكتساحهم آسية الصغرى ، واستيلائهم على بيت المقدس في أواخر القرن الحادى عشر م^(٢) . غير أن جانباً من آسية الصغرى مابرح حتى اليوم قسماً من العالم النصرانى . ولما أخذ سيل الفتح العربى يتدفق فى القرن السابع م من شبه الجزيرة ، فما يزال يطمو على سورية حتى بلغ جبال طوروس ، فصدمه الروم هناك ، اذاستجمعت الامبراطورية الرومانية الشرقية من قواها ما استجمعت واستطاعت أن تقف الفتح العربى عند حد ، عند تلك الجبال ، على عناء وتعب شديدين . أما الآن فاجتاز الترك الحدود البوزنطية ودوخوا آسية الصغرى تدويحاً ، وأخذوا يهددون القسطنطينية وهى الحصن الشرقى الحريز للنصرانية^(٣) . وكانت بيت المقدس فى أيدي المسلمين منذ الفتح العربى (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر يرمى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيامارعاية^(٤) ، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره ، فلا ضيقوا على النصرى ولا نالوا بمساء طوائف الحجاج

(١) كما أن المؤلف وغيره من كتاب الافرنجة يجعلون انحطاط الاسلام نتيجة استيلاء الاتراك عليه ، كذلك بعض الاتراك الجدد يجعلون سبب انحطاط تركيا هو صبغتها الاسلامية ، وعلى الاخص صبغتها الاسلامية العربية ، ويقولون اذا وجب أن نبى مسلمين وجب أن ننزع من اسلامنا ديباجته العربية . وعلى هذا بدأوا في هذه الايام بقراءة الخطب فى صلوات الجمع بالتركية . ولسنا الآن فى مقام تفنيد مزاعم هذه الفئة .

(٢) اكتسح الترك آسية الصغرى بعد انتصارهم على الجيش البوزنطى ، فسحقوه سحقاً فى معركة « منزيكرت » سنة ١٠٧١ م . واستولى الترك السلجوقيون على بيت المقدس سنة ١٠٧٦ .

(٣) وقد كان العرب حصروا القسطنطينية ست مرات ، واستشهد أبو أيوب الانصارى فى حصارها . ومقامه معروف فيها « سلطان أيوب » وأسس لعهده العرب جامع غلطة « ش »

(٤) لما فتح المسلمون القدس جاءها عمر رضى الله عنه وطاف فى معاهدها المقدسة . ولما كان فى كنيسة القيامة جاء وقت الصلاة ، فابتغى محلاً ليصلى فدعاه البطريرك صفرونيوس الى مكان يصلى فيه داخل الكنيسة فقال له : لا ، يأتى المسلمون بعدى فيقولون هنا صلى عمر فيدعون بالكنيسة وخرج عمر من كنيسة وصلى فى مكان بنى فيه جامع فيما بعد . « ش »

الوافدين كل عام الى بيت المقدس من كل فج من أجاج العالم النصراني ، بيد أن الترك بعد فتحهم البلاد ، لم يجروا على مثل ما جرى عليه العرب من قبلهم ، فأنترك لما كانوا لا يرون لذة في غير السلب وكره غير المسلمين ، أخذوا يستلبون الأماكن المقدسة ، ويمتنعون حرمة النصرى ، ويحولون دون الحج ، فبات الحج مستحيلاً

فاكتساح آسية الصغرى والاستيلاء على بيت المقدس معاً ، انما نزلا نزول الصاعقة على النصرانية ، فقامت لهذا الخطب وقعت ، وطفقت أوربة تمد من أقصاها الى أقصاها مشتعلة بغضا دينياً ومخدمة غضباً وحنفاً ، وقام ألوف مؤلفة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور ناراً دينية ويحضون على حاية بيت المقدس وقبر المسيح ، حتى جن الغرب النصراني جنونه الكبير ، والتهبت الغيرة الدينية في كل جارحة من جوارحه وعرق من عروقه ، وغشى التعصب على أبصاره ، فهب يبعث البعوث الصليبية ، والجحافل الجاررة داركاً ، لقتال الشرق الاسلامى في سبيل الصليب .

فداهية الترك ، ونازلة الحروب المقدسة الصليبية ، كاتنا شر طعنة طعن بها صدر العالم ، وسبباً دائماً في سوء العلاقات بين الشرق والغرب ^(١) . ففي سنة ١٠٠٠ م . كانت العلاقات النصرانية الاسلامية أخذت تستقيم وتسير سيراً منبثاً بالكف عن العداء ، ومبشراً بازدياد تحسن الحال وخير المصير . وكانت الأحقاد ، التي نارت على أثر تدفق الاسلام ، على حال التلاشى والاضمحلال ، وظهر عهدئذ ان الحدود الجغرافية بين عالم الاسلام وعالم النصرانية كادت تستقر ، فليس أى الفريقين يطمع بعد في الخروج على الآخر ، ولم يبق ثمة أمر من أمور النزاع شأنه خطير وكبير غير الاندلس ، حيث كان هناك مصطدم الاسلام والنصرانية المصطدم الأخير ، بل على كل كانت الاندلس اذ ذاك قد باتت تعدّ حداثاً فاصلاً بين العالمين ، وعلى الجملة فقد كانت علائم ازدياد الوئام والطمأنينة بين الاسلام والنصرانية متجلية واضحة ، وناحية منحي جيداً ، فلو قدر هذه الحال أن تستمر وتسير بحيث يسكن كل عالم الى أخيه ، لكانت أتت بنعمة من النعم الكبرى الباقية على الحضارة والانسانية . فالعالم الاسلامى كان مابرح حتى ذلك الأوان سابقاً لاوربة الغربية سبقاً بعيداً ، وفائقاً عليها علماً وتهذيباً ،

(١) لم تكن أوروبا في وقت من الاوقات أقل تعصباً من الترك وان ، ظن بعضهم خلاف ذلك (ش)

بيد أن الحضارة العربية كان قد أخذ الكمد والكلف يبدوان عليها ، فى الحين الذى طفت فيه نفس الغرب النصرانى تحيش ، ونهمته تشتد ، للافلات من ربق جهله ، والخروج من ظلمته وبربريته . فأى خير كان أعظم من ذلك الخير الذى كان يرجى من الود الوائد الذى ظهر فى القرن الحادى عشرم . بين الشرق والغرب فيما لوقيض له النمو أمدأ بعيداً ؟ بل ياترى أى نفع كان أجل من تقارض العالمين بعضهما البعض العون واقتسام السراء والضراء ؟

أجل ، لو كان ذلك لكان به نجاة كبيرة ، ولكانت الحضارة العربية الاندلسية ، وفيها علوم اليونان والرومان ، قد أيقظت نهضتنا من مرقدها قبل استيقاظها بعهد طويل ، ولكانت روح الغرب التى تمشت فى جوارحه فى الأجيال الوسطى ، تلك الروح الجبارة ، هبت فتناوات الشرق وتغلغلت فى أحشائه متغلغلها فى الغرب ، فنجت الحضارة الاسلامية من متخبطها ومتعثرها فى ذلك الحلك الداجى الذى طال عهده .

غير ان القدر جرى بغير ذلك . فقد اختفى العربى الدمث الخلق ، اللين العريكة ، وجاء من بعده التركى المتعصب الخشن القاسى ، فعاد الاسلام يئب ويهتاج ، ولكن شتان بين اهتياجه الأول بالأمس ، واهتياجه اليوم ! أما بالأمس فقد كانت تحرك العرب روح الرسالة وفضائلها ومثلها العليا ، وأما اليوم فما يحرك الترك انما هو روح الطمع والفتك وحافز الاستيلاء والغصب . ومن ذلك الحين بدأ العراق يشتد ، وناره تنقد بين الدولة التركية ، والحضارة الغربية التى كان نشوءها مرجواً لها عهدئذ ، ودام هذا العراق قروناً . وما كانت الحروب الصليبية سوى رد الغارة على الترك الذين أخذوا منذ ذلك العهد يوالون غاراتهم على النصرانية برهة ستمائة سنة ، حتى صدموا الصدمة الكبرى عند أسوار « فينا » سنة ١٦٨٣ م وقد كان من الطبيعى أن تأصل العداء ، واستحكمت الشنأة ، واستقر التعصب بين الاسلام والنصرانية ، مما مابرحت جرائمه حية ، وسوموم ثماره نامية حتى الآن . وهذا النضال الذى تتلو أنباءه فى صحف الأخبار اليوم ، النضال القائم بين مصطفى كمال ومقاتلته الوطنيين ، وبين اليونان فى آسية الصغرى ، انما هو حلقة من سلسلة حروب بين الاسلام والنصرانية ، حلقتها الاولى كانت فى فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة ، وحلقتها الأخيرة الى اليوم هى هذه الحروب بين الترك واليونان فى أغوار الاناضول وانجادهما .

وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نبحث في تاريخ الحروب التي قامت بين الترك والنصرانية ، ولكن ما يجب حفظه في البال هو أن تلك الحروب ظلت الى اليوم عداً زمنياً ، وعلة دائمة بين الشرق والغرب

أما الشرق الاسلامي فقد قدر له بعد أن دارت الأيام بحضارته العربية ، وحناءه عنقه للنير التركي الثقيل ، أن يلاقى فوق ذلك أهوالاً أشد وأفدح ، منهلةً عليه كغيرها من الجيل الطوراني . ففي أواخر القرن الثاني عشر ، هبت العروق الشرقية من الجيل الطوراني ، ملتفة ملتزمة حول بعضها بعضاً ، مكونة وحدة دامت مدةً ، وعلى رأسها زعيم جبار عات هو جنكيز خان . اتخذ هذا الطاغية « الطاغية الذي لا يغلب » لقباً له ، وطفق يزحف ناهباً العالم نهباً . فاكتمح في أول أمره الصين الشمالية وأنزل بها هولاً شديداً ، ثم اتجه غرباً ، زاحقاً مدمراً ، وناهباً مخرباً ، فرأى العالم من بلائه ما لم ير مثله من عات قبله . هذا هو النهوض الذي نهضه المغول في ذلك العهد ، وهذا اسمهم ما برح حتى اليوم إذا ماجرى على الألسنة ، وجفت له القلوب واقشعرت منه الأبدان .

زحف جنكيز خان بكتائب من الجند لا تحصى ، مستصحباً مهرة المهندسين الصينيين لصنع البارود في تخريب المدن والحصون فكان وفرسانه سيلاً جرفاً وناراً آكلةً ، وأعظم بلاء حل بالبشرية لم تكن غاية المغول الفتح والاستيطان ، حتى لا النغم ولا الاستلاب حسب ، بل هراقة الدماء ، وتعذيب الأرواح ، ودرس البلاد وملاشاة العمران . فذبخوا الشعوب تذيبحاً ودكوا المدن دكاً بحيث لم تنج بلاد حل فيها المغول من الهول ، وكان شأنهم في قطر شأنهم في سائر الأقطار .

ومات جنكيز خان بعد بضع سنوات من زحفه هذا ، فقام خلفاؤه من بعده واتتهجوا نهجه في الزحف وتعميم النازلة . فالمغول حقاً طعنوا الاسلام والنصرانية معاً طعنة خارقة ، إذ حاق بأقطار شرقي أوربة مثل ملاحق بغيرها من الأقطار الآسيوية ، وتلك آثار الهول المغولي في روسية بابرحت شاهدة على بربرية المغول وهمجيتهم . غير أن الهول الذي نزل بالعالم الاسلامي كان أشد منه في العالم النصراني ، فالمغول بزحفهم على روسية لم يجاوزوا تخوم بولندية قط ، فنجت بذلك أوربة الغربية ؛ لكن ما أريد لأوربة الغربية من النجاة لم يرد مثله لجانب من العالم الاسلامي . ان العاصفة المغولية بهبوبها من الشمال الشرقي في آسية

استطاعت أن تطبق العالم طراً ، من الهند حتى مصر ، مقتلعة جارقة كل شيء في سبيلها . وقد كانت فارس ، وهي اذ ذاك مابرحت منهب الكتائب التركية ، تحاول النجاة بمحضارتها الوليدة فدهمتها الجوارف المغولية غاشية ماحقة ، فتلاشت قوة فارس وتضعف كيائها أيما تضعف ، ثم تقدم المغول نحو العراق ليعطوا بغداد ، مدينة الحضارة والتهذيب ، نصيبها من الهول . وكانت بغداد عهدئذ قد ذهب الكثير الزاهر من عزها ومجدها ، فذوت نضارتها من بعد هارون الرشيد ، وتنكر الدهر لذلك المليون من السكان ، بيد أن بغداد ، على كل هذا ، كانت مابرحت مدينة عظيمة وعاصمة كبيرة ، فيها كرسى الخلافة ومركز الحضارة العربية ، فانقض عليها المغول سنة ١٢٥٨ م وأعملوا فيها أيدي التخريب والتدمير فذبخوا أهلها تذييحاً . وكادوا يحسونها محواً من على وجه الأرض . على أن هذا لم يكن جميع البلاء . كانت بغداد عاصمة العراق ، وكانت مابرحت في العراق سدود الري العجيبة من فجر التاريخ ^(١) ، تمثل مهارة بناتها الأولين وقدرتهم ، وتقي البلاد من مهابت أعاصير الصحراء . فكان العراق على الدوام وفيه هذه السدود الكبرى جنة الأرض وهوى العالم . وقد تعاقب الفاتحون الكثار في البلاد دوراً بعد دور وعصراً بعد عصر فكان من شأن كل فاتح أن يبقى على هذه السدود ، لا بل يعظم شأنها وشأن بناتها ، ويعتبر كل الاعتبار قدر نفعها وخيرها للبلاد . فلما غشى المغول العراق سرعان ما قوضوا هذه السدود تقويضاً بحيث لم يبقوا منها حجراً على آخر . ففقت أقدم حضارة عرفها العالم ، وخرب مهد التهذيب البشري ، ومحييت آثار أعمال جدت في سبيلها البشرية ثمانية آلاف سنة على الأقل ، فحوى العراق خواءه هذا المشهود حتى اليوم ، وبات مرتدياً حلة من الجفاف المحرق ومنشأ لأوبئة الحمى المنتشرة متى ما كان فيضان ، يسكن قراه الحقيرة أقوام من الفلاحين ، ويجوب رحابه رحالة من البدو ، يرعون ماشيتهم أرضاً كانت من قبل منابت الحضارة والتهذيب .

فالنزلة التي حلت ببغداد إنما كانت ضربة قاضية على الحضارة العربية ولا سيما في الشرق . وكانت هذه الحضارة قد أصيبت ، من قبل نازلة المغول ، بضربة أخرى في الغرب

(١) يوجد في العراق ترعة دارسة منسوبة الى الرشيد . حدثنا بعض مهندسي الالمان الذين زاروا تلك البقاع أيام الحرب أنها مما تعجز الحكومات الحديثة عن القيام بعمل مثله في العمق والطول والعرض «ش»

وهي نازلة الاندلس العربية. وموجز ذلك أن الاسلام بعد انتشاره في جميع افريقية الشمالية، جاز البحر وطبق اسبانية من أقصاها الى أقصاها، خففت فيها أعلامه وأشرقت شموسه وازدهرت الحضارة العربية الاسلامية الاندلسية ازدهاراً كاد لا يرى مثله في أى قطر آخر من الأقطار الاسلامية الشرقية. وكانت قرطبة عاصمة الاندلس. وفيها كرسى الخلافة الغربية. فبلغت هذه العاصمة من العظمة والمجد مبلغاً كبيراً، حتى لعلها كانت تفوق بغداد عيناها رقياً وحضارة. وقد عاش مُلك العرب في الاندلس قروناً عديدة ملكاً زاهراً آمناً، والعرب حاصرون للنصارى في الكور الجبلية الشمالية من البلاد. فلما بدأ سلطان العرب يضعف ويونى، وقوتهم تهين، أخذ النصارى يدفعون المسلمين جنوباً مستتردين منهم البلاد كورة فكورة. وكانت معركة « تولوز » سنة ١٢١٣ م خضدت فيها شوكة العرب، وفَت في عضدهم فتناً كبيراً. ثم من بعد ذلك صارت تتوالى انتصارات النصارى على غير عياء حتى سقطت قرطبة في أيدي المستردين من نصارى اسبانية المتعصبين، فبادر هؤلاء الى استئصال شأفة الحضارة العربية الاندلسية، على نحو ما كان يقوم به المغول عندئذ في الشرق. فذهبت الاندلس من أيدي المسلمين، فلم يبق لهم من جميع ذلك الملك الذى كان زاهراً سوى رقعة صغيرة واقعة في الطرف الجنوبى من البلاد وهي غرناطة، التى بقيت في حوزة المسلمين حتى استكشاف كولب بلاد اماركة، ثم بعيد ذلك طردوا منها، فاخفتت على الأثر معالم الحضارة العربية في الغرب.

وكان الشرق الاسلامى مازال يشقى وتتوالى عليه فجائع المغول وأهوالهم وأماننا الآن آخر داهية من دواهيهم، وهى زحف تيمورلنك في أوائل القرن الخامس عشر م. ففي هذا العهد كان المغول الأول الغربيون قد صاروا مسلمين، غير أن الاسلام لم يذهب بالكثير من وحشيتهم وبربريتهم واقتنى تيمورلنك آثار جنكيزخان في تذيبح الخلائق وتدمير البلاد، فما كانت نفسه تغتبط بشيء اغتباطها بمنظر الاهرام من جاجم البشر، وأى هرم أكبر من ذلك الذى شيده تيمورلنك من سبعين الف ججمة بعد تخريبه مدينة أصبهان في بلاد فارس وانقضى عهد المغول الهائل في الشرق الاسلامى، ثم جاء الترك بدورهم زاحفين. الترك العثمانيون هم من أصل القبائل التركية العديدة التى جاءت آسية الصغرى من بعد سقوط المملكة الرومانية البونظية. وغالب الفضل في تشييد المجد الذى شيده وعزهم الذى

بنوه إنما هو عائد الى عديد سلاطينهم الذين كانت لهم الغلبة على سائر القبائل المجاورة ، فاستطاعوا بذلك أن يوحّدوا جميع القوى التركية العظيمة ، ثم طفقت فتوحاتهم تمتد شرقاً وغرباً . وفي سنة ١٤٥٣ م . ذلك الترك صرح الامبراطورية البوزنطية دكاً ، وفتحوا القسطنطينية ، وخلال قرن نال فتحوا الشرق الاسلامي من فارس حتى مرا كاش (١) ، ودوخوا شبه جزيرة البلقان من أقصاها الى أقصاها ، وتغلغلوا في أحشاء هنغارية (٢) حتى بلغوا أسوار « فينا » . واستطاع الترك العثمانيون ما لم يستطعه أبناء عمهم المغول من قبلهم فبنوا مملكة منيعة الأركان ، غير أن ملكهم هذا كان فيه جلف وبربرية وذلك لبعدهم عن روح التهذيب والتشقيف ، فانهم لم يبرعوا في شيء براعتهم في فنون القتال ، بل كانوا فيها من أشهر الأمم وأشدّها قوة وبأساً ومراساً ، ولما كانوا في ابان مجدهم وسلطانهم كانت خيالتهم ورجالتهم من أفضل طراز الجيوش التي شهدتها العالم ، فارعبوا بها أوروبا رعباً شديداً .

وفي هذا العهد كانت أوروبا قد بدأت تستيقظ وتسير سير التقدم الصحيح ، وتنشئ حضارةً متدرجة مدارج الرقي والنبات ، وبينما كان الشرق الاسلامي يشن من الأهوال المغولية والفتوح التركية ، كان الغرب النصراني يشعل مصاييح النهضة ، ويعد أسباب استكشاف أماركة وطريق الهند ، ذلك الاستكشاف الخطير الشأن ، العظيم النتائج مما لا يخفى على أحد ومما يزيده خطورة هي الحالة التي كانت عليها أوروبا في ذلك العهد ، فانه لما كان كولب وفاسكود وغاما يقومان بأسفارهما البحرية قبيل ختام القرن الخامس عشر ، كانت الحضارة الغربية محاصرة في نطاق ضيق لا تجوز دائرته القسم الغربي من أوروبا الوسطى ، وهي اذ ذاك في أكره يوم من أيام نضالها وجلادها مع البربرية الطورانية . كانت روسية تمزقها سنابك خيول التتر المغول (٣) وكان الترك ، وهم ثملون بشوكتهم الحربية يغيرون منتصرين

(١) استولت الدولة العثمانية علي جميع شمالي أفريقية من بوغاز السويس الذي صار اليوم ترعة الى آخر حدود ولاية وهران من الغرب الأوسط ولكن المغرب الاقصى بقي في حوزة أصحابه «ش»

(٢) بقيت بلاد الحجار في حوزتهم ١٥٠ سنة وفيها حمامات معدنية من بنائهم الى يومنا هذا وقبور بعض المجاهدين «ش»

(٣) كانت الروسيا هذه التي صارت فيما بعد أعظم دول الأرض تدفع الجزية للمغول وملوكها يذهبون صاغرين الى حضرة ملوك المغول لأجل تقديم ملكهم . وقد أوغل المغول بعد اسلامهم في بلاد الروسية

من الجنوب الشرقى مهددين قلب أوروبا شر تهديد^(١). هكذا كانت البربرية الطورانية مطبقة آسية وشمالى أفريقيا وشرق أوروبا يوم كانت الحضارة الغربية وهى طفلة فى المهد تستقبل حكم القضاء النازل فيما لها وأما عليها. وعلى الجلة فقد كانت الحضارة الغربية تنازع فى سبيل بقائها أشد منازعة، مولية ظهرها السور العظيم - سور الاقيانوس. فلذلك لانكاد نستطيع أن نتصور حق التصور كيف واجه أجدادنا الاقيانوس، وشرعوا بمخرون عبا به فى تلك الليلة الظاماء والفترة العصبية من الأجيال الوسطى. لا جرم، كانت أوروبا فى تلك الحقبة انما تذود عن بقائها بجميع ما كان فيها من قوة وبأس، وترد عنها غاشية البربرية الاسيوية، وما هى الا ليلة وضحاها، فاذا بليل الخطر الاسيوى وقد انجلى، وبالاقيانوس بات طريقاً آمنة، فصارت أوروبا من بعد ذلك سيدة البحار، ثم سيدة العالم بأسره.

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان، فبعد أن ركبت أوروبا متن البحار، سارت تستهزئ بجبابرة آسية وعُتاتها، وكانت من قبل برح من الزمن ترى النصر عليهم أبعد منالا من الجوزاء. ثم أخذت موارد الثروة تفيض على أوروبا من وراء البحار، فاتقد نشاط القارة واشتعلت قوتها. ولا يعجب من ذلك وأوروبا قد كشفت القناع عن أبكار بلدان فأخذت تستورد منها خيرات لا نفاذ لها، غذاء طيباً لحياتها وصناعاتها، فباتت والشرق شتان ماهما. فأى موارد كانت للشرق الاسلامى الحرب المهشم، ازاء أماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند؟ هكذا دبت الحياة ديبها الهائل فى الحضارة الغربية، فاتفضت وهبت من مرقدتها، وأخذت تخطو الى الأمام خطوات الجبابرة، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطياً، وقابضة على طلاسـم العلوم، جادة نحو العصور الحديثة وعلى كل هذا، فقد ظل الشرق الاسلامى جامداً ساكناً، ملتفاً بخلقان الحضارة

الى الغرب حتى وصلوا الى بولونيا وليتوانيا، ولا يزال الى يومنا هذا بضع عشرة قرية فى ليتوانيا أهلها مسلمون يبلغون بضعة عشر ألف نسمة، وأكثر منهم باق فى بولونيا، وقد سألت بعض أدبائهم عن أصلهم فقالوا انهم من بقايا الفارات المغولية

(١) لما نزلت بحرية الترك فى طولون ونيس نجدة لفرنسيس الأول ملك فرنسا الذى دخل فى ذمة سليمان القانوني، أمسك أهل تلك الديار عن قرع أجراس كنائسهم احتراماً للترك وبقيت القوة البحرية العثمانية أعظم قوة فى البحر المتوسط متصرفه بزماد هذا البحر وأوروبا كلها ترعد منها فرقا الى واقعة ليبانت فى زمان سليم الثاني، وهى الواقعة التى اجتمعت فيها أساطيل النصرانية على الأسطول العثمانى فدمرته. ولم ينج منه إلا القليل مع أنه كان أقوى منها بأجمعها وكان النصر متوقفاً له لا لها

«ش»

العربية التي طال على خوائها الأمد، ومتسكعاً في ديجور الظلام ، ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضعفت قوته الحربية وبلغت حد التلاشي ، فوهن عظم الترك بعد الشدة ، واستغرقوا في انخطاطهم ، فصاروا لا يستطيعون مجارة أوروبا اختراعاً وارتقاء ، ولا تحسين فن من فنون القتال . وقد كرت حقب كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضاً قتالاً عنيفاً فلم يستطع الحلة على الشرق ، فعلت منزلة اسم العثمانيين علواً كبيراً ، بيد أنه لما أغار الترك على أسوار « فينا » سنة ١٦٨٣ م . ردوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنت أوروبا حينئذ أن هناك كان منقلب قوة المملكة العثمانية ، فأخذ جند العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل . ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكرث على المملكة العثمانية الكرة بعد الأخرى ، منتاشاً منها ما استطاع ، ولولم تشب نار الحسد بين الدول الغربية ، فتطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أعنى لو لم تختلف هذه الدول في اقتسام الغنيمة ، لمزقت الامبراطورية العثمانية شرمزق ، منذ عهد عهيد .

ثم توات الأيام على العالم الاسلامي وهو هاجع لا يستيقظ ، حتى كان القرن التاسع عشر فتامل في مهجعه مستقلا وطأة الغرب ، وفي خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامي ، وتخضع لها الأقطار ، في شرق أوروبا وجزائر الهند ، وأما جل العالم الاسلامي ومعظمه ، من مرا كش حتى أواسط آسية ، فقد ترك شأنه ، فما كان ليعتبر قدر هذه الفترة السانحة ، بل ظل مستغرقاً في هجعته ، مستهزئاً « بكفرة » أوروبا ، راضياً مساماً أن شقائه إنما هو بمشيئة من الله ، لا يقيم لرق أوروبا وزناً ولا يحسب لمستبطلاتها حساباً (١) .

هكذا كانت حالة العالم الاسلامي لما استيقظ استيقاظه في مطلع القرن التاسع عشر فاذا بأوروبا تقف بازائه مجنونة بشورتها الصناعية ، مدججة بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع ، وبين يديها الغاشمتين الطبيعة مسخرة ، مفضوحة أسرارها ، وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلها من قبل .

فكانت النتيجة المتوقعة ، اذ لما شرعت جلات أوروبا تغشى الشرق الاسلامي ، أخذت

(١) نعم كانوا يعللون انخطاطهم الذي هو نتيجة كسلهم وفساد أخلاقهم بكونه قدراً مقدوراً لا حيلة فيه اعتذاراً عما هم فيه من التهاون والغفلة وسوء الادارة (ش)

أقطاره يسقط الواحد منها تلو الآخر في أيدي الحاملين عليه ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبة الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامي ، فاستولت بريطانيا على الهند ومصر ، وعبرت روسيا القوقاس وبسطت سلطانها على أواسط آسية ، وفتحت فرنسا شمالى أفريقية ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الاسلامية ، وما زالت الحالة هكذا ، حتى جاءت الحرب الكونية العظمى فكان شاهداً على آخر دور من أدوار اذلال الشرق الغرب . ولما وضعت شروط المعاهدات بعد أن وضعت الحرب العامة أوزارها ، قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم تبقى من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالاً صحيحاً ، فتم إخضاع العالم الاسلامي - ولكن على القرطاس !!

اجل ، تم ذلك على القرطاس لحسب . والسبب في ذلك أنه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر ، لسرعان ما هبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمثلهما من قبل . كان الشرق الاسلامي طول هذه المئات من السنين التي كرت عليه وهو حان عنقه للغرب ، تتطور قواه الباطنية تطوراً عظيماً وينفعل بعضها ببعض انفعالا كبيراً ، حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلاً .

وهذا المد ، مد بحر المطامع الغربية الطامى ، قد غالى في ايلام الشرق مغالاة شديدة ، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيراً !! ودار الشرق الاسلامي حول نفسه فرأى تعاسة حاله وما هو حال بساحته . فاخذت نفسه تيجش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه تشور ثوراناً عجباً بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي ، فهب الـ ٢٥٠.٠٠٠.٠٠٠ من اتباع النبي محمد ﷺ^(١) من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان حتى الكونغو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها .

(١) المسلمون اليوم عددهم يزيد على ٣٠٠ مليون . والسبب في كون صاحب هذا الكتاب اعتبرهم ٢٥٠ مليوناً هو متابعتة لغيره من المؤلفين الاوربيين الذين لا يزالون يحسبون المسلمين اليوم على معدل احصاءات جرت منذ عشرات من السنين مع أن عدد المسلمين ازداد بهذه الانتاء كثيراً فالعلامة نانسن الالماني كان يحزر مسلمي أفريقية وحدهم بنحو ٧٦ مليوناً ، وهذا منذ ٣٠ سنة ثم كثيرون من الجغرافيين لا يزالون ينصون مسلمي الجاوى وسومطرة ٢٥ مليوناً والحال أنهم ٣٥ مليوناً وكذلك مسلمو الصين هم من ١٠ الى ٢٠ مليوناً ومسلمو الروسية هم ٣٥ مليوناً وكثيراً ما يحصونهم ٢٠ مليوناً وهلم جراً . «ش»

قدح الزناد فى صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ، ثم أخذ الشرر يتطاير الى كل جانب من جوانب العالم الاسلامى ، اذ فى الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية فى مطلع القرن التاسع عشر ، وهى دعوة الاصلاح الاسلامى ، ثم كان من أمرها ان ترقى واتسعت حتى بلغت فى نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالى بالجامعة الاسلامية .

ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحويلات فى العالم الاسلامى مقصورة على تلك العوامل الداخلية المنبعثة عنه فحسب ، بل ان هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تتدفق من الغرب على الشرق ، وجميعها يث فى الشرق الاسلامى روح الاستيقاظ والثوران ، من ذلك عقائد الحكومة النيابية ، والعصبية الجنسية ، والعلوم العملية ، وحقوق العمال ، حتى وأكثر من ذلك كحقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

فثوران العالم الاسلامى هذا الثوران ، وشدة التضيق الاوروبى الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولا حد ، يزيدان فى هيجانه فيشعلان فيه روح الحركة والعمل . ان الحرب الكونية العظمى قد أتت بعجائب عظيمة ، وأرت مالم ير من قبل ؛ فانشأ الاسلام يئيد ويضطرب ، ويتمخض تمخضاً شديداً منتقلا من حال حاضر الى آخر مقبل ، ومجتازاً دوراً غاية تجدد عالم اسلامى حديث .

ولبيان كيفية هذا الانتقال والتجدد اللذين سترى ثمارهما فى عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب .

الفتح العربي

للامير شكيب

حدث الفتح الاسلامي بهذه السرعة التي اتسق بها ، لم يسبق له مثيل في التاريخ ، حتى قال الكثيرون ان العرب فتحوا في ثمانين سنة أكثر مما فتح الرومان في ثمانمائة سنة . وكان نابليون يقول : ان العرب فتحوا نصف الدنيا في نصف قرن . وقد تحير المؤرخون والاجتماعيون الاوربيون في تعليل سرعة هذه الفتوحات ، فذهبوا فيها مذاهب شتى وأخطأوا وأصابوا ، وليس من الممكن حصر تعليلاتهم في هذا الشأن نظراً لكثرتها ، وانما يمكننا أن نشير ولو بطريق الايماء الى بعضها . فنابليون الذي كان ينظر الى الحوادث من الوجهة العسكرية التي هو عبقرئها الأكبر ، كان يذهب الى ان العرب قبل الاسلام كانوا ذوى بصائر بالحرب ، أكثر مما يظن الناس ، وان حروب القبائل العربية بعضها مع بعض كانت قد نجذتها^(١) في القتال الى الحد الذي صيرها أمة محاربة من الدرجة الاولى ، كما انه كان يظن ان الامم التي تغلب عليها العرب بهذه السرعة العجيبة ، كانت مصابة بعلل اجتماعية كثيرة ، لم يحققها جميعها المؤرخون ، وان ثمة أسراراً لاتزال خافية عنهم . على ان نابليون كان يوفر القسط الأعظم من الحرمة الشخصية لمحمد ﷺ وعمر رضي الله عنه ويرى انه ما انتشر الاسلام الا بفضلهما ولقد بلغ من اعجابه بمحمد ﷺ ان نوى وهو في مصر ان يدين بالاسلام ، وان يحمل عليه جيشه . ولقد سأله عن ذلك المؤرخ « لاكاز » الذي رافقه الى جزيرة « سنت هيلانه » وقيد جميع ماسمعه من أحاديثه ، فاعترف له بأنه كان عزم على الدخول في الاسلام ، وحمل جيشه عليه ، ولكنه لم يكن يريد أن يفعل ذلك الا بعد أن يصل بجيشه الى الفرات ، بحيث يتمكن باسلامه من الاستيلاء على الشرق . ثم ان

المسيو « اتيان دينه » المسلم الفرنسى الذى له المقامات العالية فى النضال عن الاسلام، والذى أددى فريضة الحج رحمه الله سنة ١٣٤٧ هو وتلميذه الحاج سليمان بن ابراهيم باعمر ، قد نقل فى كتابه الذى ألفه عن الحج ، ووصف به الحرمين ، وثنائق رسمية عن قضية اسلام نابليون ، منها وثيقة مؤرخة فى ٩ فروكيتدور سنة ٧ أى ٢٦ اغسطس سنة ١٧٩٨ وهى مكتوب نصه : انى أشكرك على ماقت به من تعظيم نبينا . الامضاء : بونابرت . نقلها دينه عن كريستيان شرقيلد : Bonaparte et l'Islam ونقل عنه خطاباً الى الشيخ المسيرى عن المقر العام فى القاهرة تاريخه وفق ٢٨ اغسطس سنة ١٧٩٨ ونصه : « انى أرجوأن لايطول الوقت حتى أجمع جميع عقلاء البلاد ومهذبىها واطرر معهم نظام حكم مبنياً على مبادئ القرآن التى هى وحدها المبادئ الحقيقة والتى هى وحدها الكفيلة بسعادة البشر . الامضاء : بونابرت »

ونقل مجلة عن كتاب « جورنال غيرمطبوع » Journal inédit . الجزء الاول الصفحة ٣٤٨ وهى « كان المشايخ يقولون لى دائماً انى ان أردت أن أكون اماماً فلا بد من أن يدخل الجيش فى الاسلام وأن يلبسوا العمام . ولقد كانت هذه نيتى . الامضاء : بونابرت » ونقل عن نقولا من الصفحة ١٢٢ من كتابه النسخة العربية وذلك قول نابليون : « حقاً قد قلت لكم مراراً وأعلنت مراراً فى خطبى انى أنا مسلم موحداً مجّدينى محمداً وأحب المسلمين . الامضاء : بونابرت »

فالذى يعلم تاريخ بونابرت حق العلم يفهم ان رجلاً كهذا أوتى من القدرة العقلية ، ومن العزيمة أقصى ما قدر لابطال العالم ، لا يعجب بالاسلام هذا الاعجاب كله الا بعد اقتناعه بأن هذه الفتوحات المادية والمعنوية التى قام بها الاسلام فى ذلك الوقت القصير ، كانت حادثاً غير مسبوق المثال فى التاريخ العام ، وبأن فضائل الاسلام ونبىه وأصحابه كانت باهرة . ولننقل لك الآن بعض ما قيل فى هذا الموضوع فى التأليف التى ظهرت حديثاً لأنها نخلت المسئلة نخلأً دقيقاً فمنها كتاب « مدنيت الشرق » للمسيو غروسه الفرنسى

Les civilisation de l'Orient par René Grousset

جاء فيه فى القسم المتعلق بمدنية العرب ما يلى :

« معركتان فى أجنادين واليرموك فتحتا للعرب سورية وفلسطين من مملكة البيزنطيين

ثم تبعتهما مصر. ومعركتان أخريان في القادسية ونهاوند مهدتا لهم فارس بأسرها. فالسلطنة الرومانية بعد أن انتزعت منها سورية ومصر وأفريقية، بقيت لها لذلك العهد آسية الصغرى (الأناضول) بالأقل، ولكن السلطنة الفارسية الساسانية سقطت في أيدي الفاتحين بتمامها. وهكذا امتد سلطان العرب في بضعة سنوات من أفريقية ومن جبال طوروس إلى سيجون وجيحون، ولم يلبث أن قطع بعد قليل إلى ما وراء النهر، وفتح بلاد الدول التركية الإيرانية التي كانت تابعة للصين. وقد كان الخلفاء الأربعة الذين في أيامهم اتسقت هذه الفتوحات المدهشة، متمسكين بمبدأ محمد وباوابع قومهم. كانوا عرباً وبقوا عرباً شيوعاً في الصحراء بدون ترف، ولا زخرف، ولا قصور ملوكية، ولا احتياجات. بل كانوا أشداء على أنفسهم كما على الآخرين عائشين في المضارب كسائر القبائل الخ.»

وظهر تاريخ في هذه السنة اسمه «تاريخ العالم» Histoire du monde للعلامة غودفروا دموفين Gaudefroy Demombynes الاستاذ بمدرسة اللسان الشرقية بباريز، والعلامة بلاتونوف من أعضاء أكاديمية العلوم الروسية، تحرى فيه مؤلفاه إلى أقصى آحاد التحرى، وذهبوا إلى أن تاريخ الفتوحات الإسلامية لم يبدأ بالاشراق على ناشديه إلا في هذه السنين الأخيرة، فقد كان مهّد طريق معرفته المستشرقون الذين سبقوا مثل دساي De Sacy وكاترمار Quatremère وكوسين دوبرسفال Caussing de Perceval ورينو Reinaud ودوسلان De Slane الخ واقفني أثرهم علماء مشتغلون، وفوا التمهيص حقه منهم من جاء بأراء خاصة وجبهة استقلّوا بها، ومنهم من تقدم كثيراً لكن في الطريق التي كانت مفتوحة أمامه، وربما أدّى جزمه بما اعتقده، وغلوّه فيما ذهب إليه إلى مناقشات ممتعة. وقد عدّ المؤلفان المذكوران من هذه الحلبة دوزي Dozy ونولدكه Noldke وفيلهاوزن Wellhausen ودوغويه De Goeje وغولدسيهر Goldziher وسنوك هركرونيه Snouck Hurgronje الخ

وبما ذهب إليه أصحاب هذا التأليف الجديد أنه يجب العدول عن فكرة كون انتشار الإسلام حصل على أيدي الأعراب أو البدو الدافقين من الصحارى لأجل الغزو. قالوا: إن الأولى بأن يقال هو أن الحركة حركة مدرّ لا حركة وبر. وذلك أن طائفة من الناس اجتمعت حول النبي في المدينة من بعد الهجرة وتشبعت بمبادئه، وصرفت جميع همها إلى الدين،

وعاهدت الله ورسوله على نشر عقيدة الاسلام . وهؤلاء هم المسلمون . ثم انضمت اليهم طبقات أخرى في زمان الخلفاء الراشدين ، وتقوت بهم عصاة هؤلاء المتدينين العاكفين على تلاوة القرآن ، الذين بثبتهم المتواصل بنوا الاسلام الاول الذي لم تطرأ عليه المؤثرات الخارجية ، والمجاذلات الكلامية ، وهو الاسلام القرآني الصرف »

(انظر صفحة ١٤٠ من الجزء السابع من هذا التاريخ القيم) ثم قالوا :

فهذه العصاة المتدينة التي نشأت في المدينة ، جعلت من المسجد النبوي في المدينة مركز حياةٍ « دينيةٍ » ، أخذ ينمو ويتسع الى أن انبثقت منه أنوار المعارف الكلامية والفقهية في القرن الثامن (القرن الثامن للمسيح هو مبدأ القرن الثاني للهجرة) . وظهر اولئك الأئمة في علم الشريعة . فالمدينة كانت في القرن السابع (للمسيح) هي قاب الاسلام ومنها كان مبدأ نموه

ولكن كانت خلية الاسلام تعسل أيضاً في أثناء الفتوحات بين الجيوش وفي الحيات وذلك ان من الجند من كانوا حفاظاً للقرآن فاهمين لمعانيه فتألفت منهم في وسط الجهاد حلقات عبادة وعصابات زهد وتقوى ، محضت الاسلام خلوصاً لا حداً له ، وصرفت معظم حياتها الى العمل لاستحقاق الثواب الاخرى . فكانت هذه العصابات تبث العقيدة ، وتحث على التقوى وتجاهد في طلب سعادة العقبى . وكانت مواعيد الله تتأييد بالانفعل في هذه الدار الدنيا قبل الآخرة ، فكان المسلمون يعلون في الأرض ويعزّون ، وكان غير المؤمنين يسفلون ويذلّون ، وانقلبت غزاة البدوى حرباً مقدسة قد أمر بها الله لاعلاء كلمته . وقد كانت تلك النفوس الممتلئة بالحياة الدينية لا تتبع الاما معتقده ، وما يختلج في صدورهما من فهم القرآن الى حد أن عمر ثم عثمان كانا يخشيان الخلاف بين المؤمنين من أجل القراءة (هذا صحيح فقد روى عن ابن عباس انه نهى عن أن يتسارع الناس في القرآن فساء كلامه هذا الخليفة عمر فسأله : لماذا قلت هذا ؟ فاجابه ابن عباس : يا أمير المؤمنين متى سارعوا اختلفوا ومتى اختلفوا اقتتلوا . فقال له عمر : لله أبوك لقد كنت اكتمها للناس) . فقد كان اذا رأى عامٌ دينيٌ يدير حياة المجتمع الاسلامي ، بل سياسة الأمة الاسلامية . ولقد رأينا في وقعة صفين كيف اتفق أناس من جيش على مع آخرين من جيش معاوية على طلب التحكيم . ثم لما هدأت ريح الفتوحات وسكن الناس عادت حلقات قراء القرآن الى مساكنها وعاداتها

الحضرية ، وتألف منها حول الخليفة وحول ولاية الأمصار مجالس الشورى التى يعتمد عليها الامام ، والتى كانت مركز الرأى العام » انتهى

وهذا الرأى هو ما نراه نحن . وهو أن الاسلام لم ينتشر الا بالفرآن وعمارة الصدور به الى أن بلغ قراؤه من القوة المعنوية الدرجة القصوى التى مكنتهم من نواصى الامم . وهذه القوة المعنوية هى الأصل ، وهى التى بدونها لا تنهض أمة . وما القوة المادية ، مهما دقت أو غلظت ، الا تبع لها ، وهى بالنسبة لها كالبدن بالنسبة الى الروح . فكل ما يقال من أن سبب الفتوحات الاسلامية الباهرة هو مراس العرب للقتال أو حب البدو للغزو ، وغرامهم بالغنائم ، أو ملل الأمم المجاورة من ملكة حكامها ، وغير ذلك ، فهذا تضييع للمعنى الحقيقى ، وزيف عن شاكلة الرميّة ، وانما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل هو خارق للعادة ، وبقوة معنوية أحدثها فى النفوس ، خارقة للعادة . ولقد كان العرب أهل حرب من قديم الزمان ، وكان الأعراب مغرمين بالنهب والكسب من أعلى أيام الجاهلية ، فلماذا لم يفتحوا البلدان الا بعد بعثة محمد ؟ ولقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يرى فتوحات أمته من بعده ، ورؤى عنه حديث : « زويت لى مشارق الأرض ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها » .

وقد قال امام المستشرقين غولد سيهر فى كتابه « عقيدة الاسلام وشريعته » فى الفصل الأوّل منه ، قولاً فصلًا فى قضية : هل كان النّبى نبياً قاصراً دعوته على العرب كما يذهب اليه بعض من يريدون تنقّض الاسلام ، أو كان معتقداً برسائنه الى العالمين كافة من الأحر والأسود وأورد الأدلة التى تفحّم كل مجادل ، على كون محمد رأى نفسه مبعوثاً الى البشر عامة ، وأنه فى آخر حياته جعل يرأسل الملوك الذين خارج الجزيرة مما لا يبق معه شك فى نيته دعوة جميع الخلق الى الاسلام . قال : ولقد لحظ « نولدكه » أن محمداً كان قد رسم خططاً لم يكن يرتاب فى أن يجد الرومان على طريقه فيها أعداء محاربين ، فان آخر غزاة أغزاها كانت الى أراضي الدولة البيزنطية . ثم ان الغزوات التى غزاها من بعده خلفاؤه وأدرى الناس بمقاصده تنبى بكونهم علموا أن بعثته كانت عامة لا محصورة فى الجزيرة

ولقد قرأت فى تواريخ كثيرة ما يدل على حيرة المؤلفين فى هذا الحادث العجيب ، الا وهو سرعة نمو الاسلام وتبسطه ، ومنها تأليف حديث العهد اسمه « العالم الاسلامى » لكتاب

اسمه «ماكس مايرهوف» قال فيه :

« يكاد يكون مستحيلاً أن نفهم كيف ان أعراباً منقسمين الى عشائر، ليست عندهم العدد والاعتدة اللازمة ، يهزمون في مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً في الاعداد والعتاد ، وكانوا يقاتلونهم وهم كتاب منظمة »

والجواب ان هذا المستحيل بزعمه ليس في الحقيقة بمستحيل اذا نظر الى القوة المعنوية التي أوجدها القرآن في اتباعه .

وقد جاء في الفصل الرابع من الجزء السابع من « تاريخ العالم » المتقدم الذكر للاستاذين «غودفروا دموني» و « بلاتونوف » أن العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الأمصار، لم يكونوا عصاب لا تحصى ولا تعد تدفقت على الشرق المتمدن. فقد أحصى مؤرخو العرب الجيش الأول المسلمين في اليرموك بثلاثة آلاف ، ثم أرسل اليهم الخليفة بنجدة أبلقهم ٧٥٠٠ مقاتل ، وأخيراً تمام عددهم ٢٤ ألفاً . وأما عدد الروم فقال العرب انه كان مائة الف وقيل ١٢٠ ألفاً ، وقيل ٢٠٠ الف مقاتل . ولم يزد مؤرخو بيزنطية على ٤٠ ألفاً . وعلى كل حال كان العدد الاكبر لأعداء العرب . وهكذا في حروب فارس . فالسبب في ظفر العرب برغم قلة عدد جيوشهم ، بالقياس الى أعدائهم ، هو ما جاء في الفصل الثالث من ذلك الجزء . وهو أن قوة الايمان ونهضة التحمس الديني كانتا متصلتين بحب الغنائم الذي يحبب الى هؤلاء القوم الغزوات والغارات . ولكن العرب في هذه الفتوحات التي علمتهم أشياء جديدة لا تحصى ، أنبتوا لأنفسهم مزايا ناشئة عن طبيعة حياتهم الاجتماعية ، من الصبر والقناعة والحق وحسن التخلص وشدة الحاسة في حال النصر الى أن يعلوا على درجات أنفسهم . ولئن لم يكن زال من بينهم حب المنافسات الشخصية التي هي معروفة بشدتها بينهم ، فقد كان دخل بينهم عنصر وحدة لم يكن معهوداً من قبل ، ألا وهو عامل الوحدة الدينية ، وطاعة الرسول ، فأصبح البدو الذين لم يعرفوا الطاعة لخلق يمتثلون أوامر قوادهم . وكان العرب بطبيعتهم أهل بأو وخيلاء ، يبدلون النفوس والنفائس لأجل الفخر ، فانضم الى خلقهم هذا اعتقادهم الجديد بانهم شعب الله الخاص الذي بعث الله منه خاتم رسله انتهى

وقال « ولز » الفيلسوف الكاتب الانكليزي الشهير الذي لا يزال حيا وذلك في الصفحة ٣٠٣ من كتابه « مختصر التاريخ العام » :

«إذا كان القارئ يتخيّل أن موجة الاسلام قد غمرت بهذا الفيض الذي فاضته بعض مدنيّات شريفة فارسية أو رومانية أو يونانية أو مصرية ، فيجب أن يرجع عن خياله هذا حالاً . فإنّ الاسلام قد ساد لانه كان أفضل نظام اجتماعي وسياسي تمخّضت به الأعصر . وأنّ الاسلام قد ساد لانه في كل مكان وجد أمماً استولى عليها الخول ، وكان فاشياً فيها الظلم والنهب والعسف ، وكانت بدون تهذيب ولا ترتيب ، فأمماً جاءها الاسلام لم يجد الاّ حكومات مستبدّة مستأثرة ، منقطعة الرابطة بينها وبين رعاياها . فأدخل الاسلام في أعمال الخلق أوسع فكرة سياسية وأحيى فكرة سياسية عرفها البشر ، ومدّ الى البشرية يد المعونة . وقد كان لدن ظهور الاسلام نظام رأس المال في السلطنة الرومانية مبنياً على الاسترقاق ، وكانت الآداب والثقافة والأوابد الاجتماعية آخذة بالانحلال . ولم يبدأ الاسلام بالانحطاط الا عند مبادأت البشرية تشكّ في صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة »

يريد ولز أن يقول أن الاسلام يرى لا ممّا عمله المسلمون الذين لم يحسنوا تمثيله .
ففي هذا القدر مقنع لمن أراد أن يخوض هذا البحث بقطع النظر عن العقيدة الاسلامية ، بل بالوقوف موقفاً متحيّداً لا للاسلام ولا عليه . فاذا وقف القارئ هذا الموقف من الحيدة كان لا بدّ له من أن يحكم للاسلام وأن يحكم بتحامل أعدائه عليه بغضا وعدواناً .

البعثة المحمدية

وأقوال جبهة من العلماء والفلاسفة والمؤرخين الاوربيين

فى النبى صلى الله عليه وسلم

المنصف منهم والمعرض

للشيخ

منهم : —

Grousset	غروسه
Montet	موتته
Dinet	اتيان دينه الفرنسى المسلم
Dozy	دوزى
Noldeke	نولدكه
De Goeje	دوغويه
Sprenger	شبرنغر
Snouck- Hurgronje	سنوك هركرونه
Grimme	غريم
Margoliouth	مارجليوث
Huart	هوار
Goldziher	غولد سيهر
Gaudefroy Demombynes	غودفروا دمومبين
Wells	ولز
Voltaire	فولتير
	وسواهم : —

قال غروسه صاحب «مدينت الشرق» : «كان محمد لمّا قام بهذه الدعوة شاباً كريماً نجداً ، ملائحاً حساساً لكل قضية شريفة ، وكان أرفع جداً من الوسط الذين كان يعيش فيه . وقد كان العرب يوم دعاهم الى الله منغمسين في الوثنية وعبادة الحجارة ، فعزم على نقلهم من تلك الوثنية الى التوحيد الخالص البحت ، وكانوا يقفون في الفوضى وقتال بعضهم بعضاً ، فاراد أن يؤسس لهم حكومة ديمقراطية موحدة . وكانت لهم عادات وأبداً وحشية تقرب من الهمجية ، فاراد أن يلطّف أخلاقهم ويهذب من خشوتهم الخ »

وقال الاستاذ « مونت » Montel استاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف في كتابه « محمد والقرآن » مايلى : « أمّا محمد فكان كريم الاخلاق حسن العشرة ، عذب الحديث ، صحيح الحكم صادق اللفظ ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صحة الحكم وصرامة اللفظ ، والاعتناء التام بما يعمل به ويقول »

وقال الاستاذ مونت في كتابه المذكور صفحة ١٨ مايلى بالحرف : —

« ان طبيعة محمد الدينية تدّش كل باحث مدقّق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الاخلاص . فقد كان محمد مصلحاً دينياً ذا عقيدة راسخة ، ولم يقدّر الا بعد أن تأمل كثيراً وبلغ سن الكمال بهاتيك الدعوة العظيمة التي جعلته من أسطع أنوار الانسانية في الدين وهو في قتاله الشرك والعادات القبيحة التي كانت عند أبناء زمنه كان في بلاد العرب أشبه بنبي من أنبياء بني اسرائيل الذين نراهم كباراً جداً في تاريخ قومهم .

ولقد جهل كثير من الناس محمداً ونحسوه حقّه وذلك لانه من المصلحين النادرين الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها »

وقال في صفحة ٢٢ مايلى :

« ان الديانة الاسلامية كعقيدة توحيد ، ليس فيها شيء مجهول في ديانات التوحيد الاخرى الا ان ظهورها في جزيرة العرب بروح عربية عالية جعل لها طابعاً جديداً باهراً وقد سهاها محمد « الاسلام » اشارة الى تمام الانقياد لارادة الباري تعالى وهي في هذه العقيدة مشابهة للمسيحية الا ان عقيدة هذا الانقياد لارادة الله تتجلى من القرآن بقوة لا تعرفها النصرانية .

وقد بقي في الاسلام من عادات العرب القديمة تعدد الزوجات والرق الا ان الاسلام جعل

للاولى حداً ، ولثانية شروطاً من حسن المعاملة ، وقد بلغ من محمد التزام هذا التلطيف من معاملة الرقيقين ان قال : ما خلق الله شيئاً أحب اليه من تحرير الرقيق ولا حلل شيئاً أكره اليه من الطلاق

ولقد منع القرآن الذبائح البشرية ، ووأد البنات والجر والميسر ، وكان لهذه الاصلاحات تأثير غير متناه في الخلق بحيث ينبغي أن يعدّ محمد في صف أعظم المحسنين للبشرية . ثم ذكر موته أركان الاسلام كاصلاة والزكاة والصيام والحج وقال ان حكمة الصلاة خمس مرات في اليوم هي ابقاء الانسان من الصباح الى المساء تحت تأثير الديانة — ليكون دائماً بعيداً عن الشر — وحكمة الصيام تعويد المؤمن غلبة شهوات الجسم وزيادة القوة الروحية في الانسان ، وحكمة الحج هي توطيد الاخاء بين المؤمنين وتمكين الوحدة العربية . قال موته : « فهذا هو البناء العظيم الذي وضع محمد أساسه ، وثبت ولا يزال ثابتاً بازاء عواصف الدهور الدهاري »

ولا يزال الاساذ موته حياً يرزق وهو من علماء جنيف ومن كبار أساتيد جامعتها ومن أكابر المستشرقين وله ترجمة بديعة للقرآن . ومن أطف الكتب في السيرة النبوية كتاب للمسيو « اتيان دينه » الافرنسي الذي أسلم وحج وألف كتاباً عن حجته الى البيت الحرام من أبداع ما كتب في هذا العصر كما ان كتابه عن حياة النبي ﷺ لا يقل عن كتابه في الحج في سلاسة عبارته ، ودقة معانيه ، وقوة حجته ، مع التزام خطة الاعتدال والجدال بالتي هي أحسن . ومن بدائع تأليف « دينه » Dient كتابه في الرد على لامنس اليسوعي ومؤلفين آخرين ممن تنقصوا الاسلام والرسول عليه السلام وهو المسمى « انك لفي واد وانا لفي واد »

فالمسيو دينه يبين فساد طريقة هؤلاء الاوربيين الذين حاولوا أن يحلوا السيرة المحمدية ، وتلدخ ظهور الاسلام بحسب العقلية الاوربية ، فضلوا بذلك ضللاً بعيداً لان هذا غير هذا ولأن المنطق الاوربي لا يمكن أن يأتي بنتائج صحيحة في تاريخ الانبياء الشرقيين قال « دينه » ان هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي بهذا الاسلوب الاوربي البحت لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويمحصون بزعمهم ، حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المساميين من سيرة نبهم وكان ينبغي لهم بعد هذه التدقيقات الطويلة العريضة العميقة أن يتمكنوا من

هدم الآراء المقررة ، والروايات المشهورة من السيرة النبوية ، فهل تسنى لهم شيء من ذلك ؟
الجواب : لم يتمكنوا من اثبات أقل شيء جديد .

بل اذا أمعنا النظر في الآراء الجديدة التي أتى بها هؤلاء المستشرقون ، من فرنسيس وانكلز وألمان وبلجيكيين وهولنديين الخ . لانجد الا خطأ وخطأ ، وانك لترى كل واحد منهم يقرر ما نقضه غيره من هؤلاء المدققين بزعمهم أو ينقض ما قرره .

ثم أخذ « دينه » يورد الأمثال على هذه التناقضات فنها أن المستشرق دوزي الهولاندي قال ان محمداً لم يكن يشبه قومه ، فقد كان ذا تصور قوى ولم يكن عند العرب مثل هذا التصور ، وكان ديناً بطبيعته ولم يكن العرب دينيين .

وان لامنس قال بازاء ذلك ان محمداً كان شبيهاً بقومه وان هذه المشابهة هي التي كانت سر نجاحه بينهم .

وقال دوزي ان محمداً كان ميالاً الى الصمت والكآبة يحب العزلة والهيام في الأودية البعيدة ، ويطيل التأمل في الليالي .

وعارض لامنس في هذا الرأي وقال انه لا ينطبق على المعهود من كراهية محمد للعزلة ومن شهرة نفوره من النسك .

وقال « نولدكه » ان سبب الوحي النازل على محمد والدعوة التي قام بها هو ما كان ينتابه من داء الصرع .

• وقال الاستاذ « غويه » De Coeje ان هذا الافتراض ليس بصحيح لأن الذاكرة عند المصابين بالصرع تكون معطلة ، والحال هي بالعكس عند محمد الذي كان يتذكر كل ما يسمعه ، في أثناء هذه النوبات .

ويقول الاستاذ « شبرنغر » Sprenger انها نوبات هستيرية . ويرد عليه الاستاذ سنوك هركرونه Snouck Hurgronje بقوله انها ليست من هذا النوع .

ويقول الاستاذ غريم Grimme ان مبادئ محمد اشتراكية لادينية . وانما جعل لها صبغة دينية لأجل تمكينها .

ويرد عليه سنوك هركرونه قائلاً بان مدار نبوة محمد هو البعث واليوم الآخر .
ويزعم « مارغليوث » Margoliouht وهو أخص المستشرقين وأشدهم بغضا لمحمد وهو

الذى اعتمد عليه الدكتور طه حسين فى النظرية الساقطة بان شعر الجاهلية موضوع بعد الاسلام - ان محمداً كان يمارس الشعوذة وكانت له مجالس سرية أشبه بمحافل الماسونية وعلامات يتعارف بها مع أصحابه وكانوا يرخون عذبة العامة فوق مناكبهم الخ وقد رد على مرغليوث هذا جون باركنسون Parkinson فى المجلة الاسلامية Islamic review سنة ١٩١٥

ونسب لامنس اليسوعى الى محمد الاكل من الطعام ، والشره ، والاسترسال فى اللذات البدنية وقال انه مات بالبطنة . وزعم « بينه سانغله » Binet Sanglé انه كان سيء الغذاء صابراً على الجوع متقشفاً ومات من الضعف . كتب هذا فى كتابه المسمى « بنجون يسوع » فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (هذا الكتاب أربعة أجزاء) وقال « هوار » Huart انه توفى بذات الجنب . وقال الأب دى زعيم مبشرى الصحراء انه مات مسموماً سمته امرأة يهودية .

قال « اتيان دنيه » وان أردنا استقصاء هذه التناقضات التى نجدها بين تمحيصات هؤلاء المحصنين بزعمهم يطول بنا الأمر ولا نقدر أن نعرف أية حقيقة ولا يبقى أماننا الا أن نرجع الى السير النبوية التى كتبها العرب . نعم انهم كتبوها بأسلوب شرقى ساذج . وأودعوها تفاصيل قد تكون من أثر الحب والتحمس الا أن الذى يفهم أسلوبها يعلم ما بها من الحقائق المدهشة . فأما المؤلفون الذين زعموا أنهم يريدون ترجمة محمد بصورة علمية ، شديدة التدقيق ، فلم يتفققوا منها ولا على نقطة مهمة ، ورغم جميع ما نقبوه ونقروه ، وحاولوا كشفه بزعمهم ، فلم يصلوا وان يصلوا الا الى تمثيل أشخاص فى تلك السيرة ليسوا أعرق فى الحقيقة الواقعية من أبطال أقاصيص فالترسكوت واسكندر دوماس . فهؤلاء القصاصون تخيلوا أشخاصاً من أبناء جنسهم يقدر أن يفهمهم ولم يلاحظوا الاختلاف الأدوار بينهم . أما أولئك المستشرقون ففسوا أنه كان عليهم قبل كل شئ أن يبدوا الهوة السحيقة التى تفصل بين عقليتهم الغربية والأشخاص الشرقيين الذين يترجمونهم وانهم بدون هذه الملاحظة جديرون بأن يقعوا فى الوهم فى كل نقطة .

هل يتوقفون عند هذه الملاحظة ويعلمون أن طريقتهم هذه لا تنفذ الى حقيقة ؟
الجواب : لا نظن ذلك . وهو لأنهم مولعون بحب الطريف يحاولون اتيان بديع غير مسبوق .

ثم نقل « دينه » قول « سنوك هركرونه » عن كتاب « غريم » في ترجمة الرسول وهو أن غريم أراد الابداع والاطراف فجاء بصورة غير صحيحة .

ثم ذكر « دينه » كيف ان الأب لامنس اليسوعي في أول كتابه عن محمد صاحب متأوها من كون القرآن جاء وصرف العرب عن حلاوة الانجيل التي كانوا بدأوا يذوقونها ، ولم يقدر أن يغفر للقرآن ذنب ادخاله في الاسلام ثلاثمائة مليون نسمة من جميع أجناس البشر واستتبابه الى يوم الناس هذا ينمو وينتشر في افريقية وآسية بمرأى ومسمع من المبشرين المسيحيين . فلذلك زعم الأب لامنس أن يشنّها على الاسلام غارة شعواء ويحمل عليه حجة صليبية يكون هو بطرسها الناسك على أمل أن يصرع الاسلام ! الا أن حالة عقلية كهذه يقول « دينه » انها لا تلتئم مع بحث علمي مبني على تجرد محض من الهوى وتنزه عن البغض . ثم جاء « دينه » رحمه الله بالأدلة القاطعة على سفسطات لامنس وسردها مع ردها واحدة واحدة مما لا يتسع له هذا المكان الذي لا تتوخى فيه الا الاشارة والدلالة محملين من شاء التوسع في هذا البحث على الكتب نفسها .

ان الكتابات في أوروبا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ودينه ، وشرعه ، والملة الاسلامية ببحر لا ساحل له وفيها الغث والسمين ، والحالي والعاقل ، والحق والباطل ، ومن مؤلفيها الحب والقالى ، والمنصف والمتعسف ، والناصح والكاشح كما هو الشأن في كل أمر . ولكن العصر الأخير في أوربة أنصف الرسول ﷺ كثيراً بالقياس الى الأعصر التي سبقت كما يظهر من الشواهد التي أتينا بها من قبيل انمودجات . ولو كان المسلمون استيقظوا من سباتهم وتعلموا من الاوربيين روح « التضحية » كما يقال ونشروا للاسلام دعاية منظمة وأنفقوا عليها عن سعة لأمكنهم أن يصححوا أباويل كثيرة وبدّدوا أوهاماً كثيفة تتعلق بهم وبدينهم وبنبيهم ، ولاهتدى في أوربة الى الاسلام خلق كثير أثروا تأثيراً محسوساً في مجرى السياسة العلة

والكننا مع الأسف لا نزال بعيدين عن درجة هذا الانتباه ولا يزال أعداء الاسلام يناصبونه القتال في كل سهل وجبل وفي كل بر وبحر ولا تبرح مكافخة الاسلام لهم هي في نسبة الخردل الى الجنادل . فحتى ينشط الاسلام من عقالة ويستأنف همته الأولى ؟ هذا مالا يجابوب عليه غير المستقبل . انتهى

وقال المؤرخ الفرنسى الشهير « لافيس » « انه كان مشهوراً بالصدق منذ صباه حتى كان يلقب بالأمين الخ » .

وقال « غولد سيهر » سيد المدققين ، وحجة المستشرقين ، فى كتابه « عقيدة الاسلام وشريعته » فى الصفحة الثالثة من هذا الكتاب الجليل ما يلى :

« ان دعوة النبي العربى كان فيها نخبة مبادئ دينية اعتقدها هو بالاختلاط مع اليهود والنصارى وغيرهم ، واقتنع بها ، ورآها جديرة باحياء الشعور الدينى بين قومه . ولقد كانت هذه المبادئ المقتبسة من الأديان الأخرى فى نظره ضرورة لثبوت سير الانسان بحسب الارادة الالهية ، فتلقّاها هو بصدق وأمانة ، وبمقتضى الهام أيدته فيه المؤثرات الخارجية وجاءه وحياً الهياً كان هو مقتنعاً بكونه وحياً الهياً نازلاً على لسانه »

اننا ننبة قراء هذا الكتاب الى أن هؤلاء الذين نحن نستشهد بكلامهم فى حق محمد ﷺ ليس فيهم واحد مسلم ، وذلك اننا لانرى حاجة الى الاستشهاد على صدق الرسول عليه السلام بكلام المسامحين المؤمنين بالله ورسوله . وانما نريد أن نقيم الأدلة من أقوال علماء الأوربيين الذين ليسوا بمسلمين ليقل فيهم انهم قالوا ما قالوه متأثرين بعقيدتهم التى نشأوا عليها ، وانما هم من العلماء المنصفين الذين نشدوا الحق ، وبغوا التحرر جهد طاقتهم . وقد كانت خلاصة آرائهم وزبدة أقولهم أن محمداً كان صادقاً ، وكان أميناً ، وكان معتقداً بأن الله ابتعنه لهداية قومه ، وارشاد سائر البشر الى الدين القيم ، وكان مقتنعاً بأن الله تعالى يوحى اليه ، وأنه لم يقل شيئاً الا وهو مقتنع به . وهذا هو رأى السائد الآن بين العلماء المحققين من أهل أوربة ، ولم يبق فيهم من يقيم وزناً لتلك المطاعن التى كان أحبارهم ورهبانهم وأعداء الدين الاسلامى منهم يوجهونها الى شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، ويطبعون بها ناشئتهم ويجعلونها مداراً لدعايتهم .

وأما قول « غولد سيهر » ان الاسلام فيه نخبة مبادئ أصلها من اليهودية والمسيحية فليس فيه شئ يدعو الى الانكار ، وما جاء القرآن الا مصداقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل ، والاسلام انما هو ملة ابراهيم حنيفاً ، وقد جاء محمد بتأييد تلك الملة لا بنقضها كما لا يخفى .

وقال « ماكس مايرهوف » فى كتابه « العالم الاسلامى » الصفحة العاشرة : « ان محمداً فى سنة ٦١٠ للمسيح كان كثير التفكير ، والانفراد ، وكان يقصد الى البادية ويخلو بنفسه فى

جبل حراء بقرب مكة . فرأى ذات يوم رؤيا ، هي أن الملك جبريل تجلى له وناوله كتاباً ،
 وقرأ عليه هذه الآيات التي هي السورة السادسة والتسعون من القرآن : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ
 الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
 مَا لَمْ يَعْلَمْ) فنزل عليه هذا الكلام وحياً وجاء فأخبر امرأته بما وقع له . ثم جاءه وحى آخر
 فيما بعد ، فلما شعر به تغطى بثوب وسمع هذه الكلمات : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ
 وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَتَوَسَّلْ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)
 ومنذ ذاك الوقت اقتنع بأن الله اختاره مبشراً بعقيدة جديدة ، وتسمى برسول الله ، ليدعو
 الى الله بلسان عربى مبين . الى أن يقول : « أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلاً مصاباً
 بمرض عصبي ، أو بدء الصرع ، ولكن تاريخ حياته من أوله الى آخره ليس فيه شئ يدل
 على هذا ، كما ان ما قام به فيما بعد من التشريع والادارة يناقض هذا القول »

وأما « غودفروا دمبومين » و« بلاتونوف » في « تاريخ العالم » فقد وصلا من التدقيق
 والتمحيص الى حد لا أعرفه لمؤرخ وبلغ منهما ذلك أن قالا : « ان النصرانية لا يزال أصلها
 مجهولاً » كما انى رأيتهما في كثير من الأمور المجمع عليها في الاسلام لا يرحان متوقفين في
 الصفحة ١٣٢ من الجزء السابع من تاريخهما نجدهما يقولان : « انه غير ممكن الجزم بصورة
 حقيقية لمحمد ، ولا بصورة حقيقية لأحد من كبار رجال العالم . وكل ما هناك انما هو الروح
 التي تتجلى لهم في تواريخهم التقليدية وفي كيفية تمثيل الخلف لصورهم . ولا شك في أنه
 يكون من باب الفلسفة العليا أن تميز الحقائق الراهنة عن الاعتقادات ولكننا نجد أنفسنا
 عاجزين عن ذلك هنا . وغاية ما نقدر أن نجزم به هنا هو تبرئة محمد من الكذب ومن المرض .
 وانما كان محمد رجلاً ذا مواهب الهية عليا ، ساد بها أبناء عصره ، وهي رابطة الجأش ، وطهارة
 القلب ، وجاذبية الشبائل ، ونفوذ الكلمة . وأنه كان عبداً عظيماً ، وأنه نظير جميع العباد العظام
 كان يجمع بين حرارة الاعتقاد بالرسالة التي هو مأمور بها من جانب الحق تعالى ، وبين
 ملكة الأعمال الدنيوية ومعرفة استخدام الوسائل اللازمة لنجاح تلك الرسالة »

وجميع هؤلاء - تقريباً ، وولز الانكليزي أيضاً ، وهو ممن تناول النبي ﷺ بشئ

من النقد ، قد أجمعوا على أن من أنصع الأدلة على صدقه كون أهله وأقرب الناس اليه هم أول من آمنوا به . فقد كانوا مطلعين على جميع سرائره ، ولو ارتابوا في صدقه ما آمنوا .

وبرغم انتقادات « ولز » التي حادفيها عن الصواب ، لم يستطع أن ينكر كثيراً من الحقائق مثل قوله : « ان ديانة محمد كان فيها روح حقيقية من العطف ، والكرم ، والاخاء ، وكانت بسيطة ، مفهومة ، سائغة ، وكانت ملائى بكارم الأخلاق ، وعلو النفس ، والمعالى التي يشغف بها أهل البادية »

وقال العلامة هوار « Huort » أستاذ الألسن الشرقية بباريز وصاحب « تاريخ العرب » المتداول بين الأيدى وذلك فى الصفحة ٩٤ من الجزء الأول :

« كيف تعرف محمد الى خديجة وكيف أمكنه أن يحصل على نفقتها ويتزوج بها ؟ الجواب على الشق الأول لا يزال غير معروف عندنا . وأما على الثانى فقد انفقت الأخبار على أن محمداً كان فى الدرجة العليا من شرف النفس ، وكان يلقب بالأمين ، أى بالرجل الثقة المعتمد عليه الى أقصى درجة ، أى كان المثل الأعلى فى الاستقامة » ثم انك لا تجد فى « تاريخ العرب » للاستاذ « هوار » كلمة واحدة تدل على أن محمداً كان مرآئياً أو مداجياً ، أو كان يقول مالا يعتقد أو يعتقد مالا يقول .

وقد ذكر « كارادوفو » المستشرق الفرنسى الفاضل صاحب كتاب « مفكرى الاسلام » les penseurs de l'islam فى الجزء الثالث من هذا الكتاب حياة صاحب الرسالة ﷺ وتحريى فيها مزيد التحرى ، ودقق أشد التدقيق ، وانتهى الى القول « بان محمداً من سن الخامسة والعشرين الى الأربعين . كان كثير التفكير ، هادئاً ، ساكناً ، وكان حليماً ، تقياً ، حسن الأخلاق ، وأنه عند ما بلغ الأربعين توجهت جميع قواه العقلية الى جهة التأمل فى جوهر الألوهية ، والبحث عن الحقيقة الدينية ، ومنذ ذاك الوقت أخذ يعتزل الناس ويخلو بنفسه فى غار بقرب مكة اسمه حراء . وكان محمداً أميناً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يكن فيلسوفاً ولكنه لم يزل يفكر فى هذا الأمر الى أن تكونت فى نفسه بطريق الكشف التدريجى المستمر عقيدة كان يراها الكفيلة بالفضاء على الوثنية »

فهذا أيضاً من المستشرقين المتبحرين الذين لم يدينوا بالاسلام ، ولم يعتقدوا بالوحى

المتنزل على محمد ﷺ لكنه ذهب الى أنه عرف الحق بطريق التأمل ، والقنف في الروح ، مما لا يبعد كثيراً عن العقيدة التي عليها المسلمون .

ولقد تعرض « كارادوفو » الى خرافة الراهب بحيرا التي يزعم بعض المسيحيين أنه هو الذي كان علم مجدداً العقيدة وهو الذي ألف القرآن ، وقال ان هذه الأسطورة موجودة ، وأنها مكتوبة بالعربي ، وأنه كان نشر عنها فصلاً في مجلة « الشرق المسيحي » ولم يرف فيها شيئاً يستحق الاعتبار ، ولكنه لا يزال في سورية قسيسون من الفئة التابعة لرومة يعتقدون بأن بحيرا كان معلماً لمحمد ، وأنه هو الذي ألفه القرآن وقد ذكر « كارادوفو » ما قيل عن بحيرا انه كان راهباً من انطاكية ، ذهب سائحاً الى جنوبي سورية ، وتوغل في صحراء سينا ، ثم ذهب الى بلاد العرب يعلمهم دين جدهم اسماعيل الخ الا أنه ينعت هذه القصة كلها بقوله « خرافة » .

وكيف لا تكون خرافة القصة التي تجعل مثل بحيرا الراهب الاعجمي ينطق بمثل القرآن الذي عجزت عنه مصاقع خطباء العرب ، وغفل شعرائهم أفصح وأبلغ ما كانوا ، ولعل أصل هذه الخرافة التي لا ينجح بعض الناس من روايتها أو الإشارة اليها ، ما يرويّه المؤرخون من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد ذهب مع عمه أبي طالب الى الشام في قافلة ، وكان في الثانية عشرة من العمر ، وأنه لما مرّ أبو طالب والقافلة ببصرى دعاهم الى الطعام راهب اسمه بحيرا . فلما صاروا حول الخوان قال الراهب انه معكم صبي لا يزال غائباً فلماذا لا يحضر ؟ فاستدعوه فحضر . وطفق الراهب يسأله أسئلة ويستحلفه بالللات والعزى أن يجابو عليها فأجاب الصبي بما يشعر اقشعرار بدنه من ذكر اللات والعزى ، ووجد الراهب من أجوابه ومن سمائه أنه هو النبي الذي رأى صفته في الكتب ، والذي سيكون خاتم الرسل . وأوصى الراهب أبا طالب بان يحضر على ابن أخيه من اليهود .

قد نقل هذا الخبر ابن هشام في السيرة النبوية . ونقلها أصحاب « الانسيكلو بديا » الاسلامية عن ابن هشام . وقالوا ان بعضهم يزعم أن أبا بكر كان في هذه الواقعة . ثم قالوا ان المسعودي ذكر ان اسم الراهب كان سرجيوس وأنه كان من عبد القيس . وذكر الحلبي أن اسمه كان سرجيوس أو جرجيوس .

وقرأت في تاريخ أبي الفرج الملمطي . الأسقف المسيحي ، ان الراهب لما رأى محمد ﷺ مع عمه تفرّس فيه وقال : سيكون لهذا الصبي شأن عظيم ويذيع شكره في المشرق والمغرب

وجاء في « الانسيكلو بيديا الاسلامية » أن اسم « بحيرا » الذى كان الراهب يعرف به هو اسم آراى معناه « المنتخب » وقد تواردت هذه القصة فى السير الاسلامية لاثبات ان رهبان النصرى كانت عندهم علامات على ظهور النبى ﷺ قال أصحاب « الانسيكلو بيديا » المذكورة فى ترجمة الراهب بحيراً ان مؤرخى بيزنطية قد ذكروا هذا الراهب من قديم وقالوا ان بحيراً كان اسمه سرجيوس وفقاً لما ورد فى كتب المسلمين .

الا ان هناك اختلافاً فى سرد الخبر :

وذلك ان تيوفانس وجيورجىوس فرانتس ، يقولان فى تاريخيهما انه لما خيل لمحمد ظهور الملك جبريل لأول مرة ، وأصابته تلك الرعدة ، خافت عليه زوجته خديجة ، وذهبت الى راهب مبتدع كانت قد طردته الكنيسة اسمه سرجيوس ، فروت له ما حصل لزوجها ، فقال لها انه لا يظهر الملك جبريل الا للانباء .

وأما قصة بحيرا التى ينعته « كارادوثو » وجميع المحققين بلفظة « خرافة » ويقول أصحاب « الانسيكلو بيديا الاسلامية » أنفسهم — وهم غير مسلمين ولا مدافعين عن الاسلام — ان مقصد من كتبوها هو اثبات عدم صحة النبوة المحمدية لاغير فهى قد ظهرت فى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر للمسيح ، ولها نسخة بالعربى ونسخة بالسرائى ، وقد ذكر أصحاب « الانسيكلو بيديا » ان اسم مؤلفها « ايشوياب » وانها تنقسم الى ثلاثة أقسام : الاول ذكر الدول الممالك الاسلامية التى كوشف بها الراهب بحيرا وهو على جبل سيناء . الثانى ملاقة سرجيوس مع محمد فى بادية يثرب وتعليمه اياه العقائد والشريعة ، والقسم الذى أُلغى له من القرآن . الثالث كهانات سرجيوس وما حكاه من أمور الغيب التى تحققت على نحو ما جاء فى القسم الأول .

وبالاختصار اخترعوا هذه الكاذب اختراعاً على أمل ادخال الريب والشبهات فى نبوة محمد ﷺ ، وفى نزول الوحى عليه ، وفى كيفية دعوته الى الاسلام ، وفى نشوء ملته وشريعته ، ولكنه لم يخف افتراءهم هذا على قومهم ، فردّوه بالاجاع تقريباً ، وسلموا ان أصل القصة قد يكون هذه الكلمة التى قالها هذا الراهب عن محمد لما جاء صديقاً مع عمه الى الشام ، وراهما الراهب فى بصرى . وهى كلمة تزيد الدلالة على صحة رسالته ﷺ

(وَيَأْتِيُ اللَّهُ الْآلَانَ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

ولو أردنا أن نورد كل ما جاء في كتب المحققين من الاوربيين من الشهادات بصدق محمد ﷺ لما أمكننا أن ننتهي ، وإنما أردنا بعض هذه الانموذجات مثلاً نكتفي به عن غيره .
ويقال ان « كارليك » الكاتب الانكليزي الشهير قد كان من الاوربيين الأوائل الذين شددوا التكبر على المطاعن الانيمة والأكاذيب التي كان رجال الكنيسة قد ألصقوها بأذهان الاوربيين في حق الرسول العربي الكريم .

وسأختم هذه الحاشية بنقل مقاله « فولير » رأى ملاحدة اوربة بحق محمد ﷺ وذلك ان « البرنس تسينسندروف » النمسوى الذى تولى حكومة النمسا في أواخر أيامه كان في أيام شبابه جاء الى سويسرة ، وزار كلاً من « فولير » و « جان جاك روسو » ، وذلك في شهرى سبتمبر و اكتوبر سنة ١٧٦٤ ، وله مذكرات عن هذه الزيارات غير مطبوعة ، محفوظة في دار الآثار الوطنية في ثيناً ، قد اطلع عليها المسيو « لوئال » الفرنسى ، وأرسل عنها مقالة الى جريدة الطان مؤرخة في ١٤ اكتوبر ١٩٢٤ . وقد نقلت أنا هذه المقالة تلخيصاً ونشرت ذلك في مجلة « الزهراء » عددها المؤرخ في ١٥ صفر سنة ١٣٤٤ والمهم منها ان فولير في أحد مجالسه مع البرنس « تسينسندروف Zinzendorf » أجرى ذكر « لوتير » و « كلفين » فقال للبرنس : « انهما لا يستحقان أن يكونا صانعى أحذية عند محمد » ومن المعلوم ان الاوربيين لاسيما الامم البروتستانتية منهم ، يعتقدون انه لولا الاصلاح الدينى الذى قام به « لوتير » و « كلفين » لما انشق فجر الحرية في اوربة ، ولكانت القرون الوسطى قد امتدت الى عصرنا هذا . فأما « فولير » فقد رآهم مقصرين رجعيين ناكسين على الاعقاب ، لأنهما لم يتجاسرا على اعلان الحقائق التى أعلنها محمد ، مع انه قد تقدمهما في الزمن . وهذه شهادة ملحد لم يقرن به أحد في ملاحدة الدهر ، ولا تمارى أحد في كونه العامل الأعظم في الثورة الفرنسية .

ولقد ذكرت في مقدمة مقالتي هذه في « الزهراء » أسباب اهتمامي لهذه الجلة التى قالها « فولير » عن مقايضة « لوتير » و « كلفين » الى محمد وهى : ان بعض النشء الجديد لا يعتقدون بشئ ولا يحفلون بأسر مالم ترو لهم فيه كلاماً عن فيلسوف اوربى عظيم ، لاسيما اذا كان من كبار الملاحدة .

وأى فيلسوف لعمري أعظم الخادأ ، وأى ملحد أشهر فلسفةً ، من « فولير » الذى لم يتقدمه ولا تأخر عنه في هذا الباب مثله ، ولقد انطقه الحق بما نطق به كما رأيت .

السيرة النبوية

وكتاب

« حياة محمد » لاميل درمنغهم

Emile Dermenghem

للأمير شكيب

— * —

- الحديث والتحديث .
- تفاوت الأئمة المجتهدين في الأكتار والاقلال منهما .
- درمنغهم يصف أول ما أنزل على النبي ﷺ من الوحي .
- قضية صلب المسيح واختلاف الاسلام والنصرانية في كوفتهما .
- مقارنات بين عقائد اسلامية ومسيحية في عيسى عليه السلام .
- جمع القرآن وكيفية ثبوت مصحف عثمان .

حياة محمد لاميل درمنغهم .

قد أثار الانتباه لهذا الكتاب المؤلف بالفرنسية مانشره الدكتور حسين بك هيكل تحت عنوان « حياة محمد لدرمنجهم نقد وتعليق » في ملاحق جريدة السياسة الغراء الذي يوالى نشر مقالاته في أعدادها الأدبية ورده على درمنغهم مما جعل كل من يقرأ مقالات الدكتور هيكل في اشتياق الى معرفة ما كتبه درمنغهم لأنه لم يأتى بشئ مما قال درمنغهم بل على ونقد بدون أن يترجم مقاله بخلاف الأمير أبقاه الله (الناشر)

ومن كتب في هذه السنين الأخيرة في موضوع السيرة النبوية المحمدية الميوايل درمنغم Emile Dermenghem من كتاب الفرنسيين ومن أقام ببلاد المغرب وخالط المسلمين وهو وان كان مسيحياً كاثوليكياً ، فمن المسيحيين ذوى الوجدان والميل الى الانصاف . ولما أقدمت الحكومة الفرنسية في المغرب على الغاء الشريعة الاسلامية ، من بين البربر ، وأخذت تنشب بالوسائل المتعددة لأجل اخراجهم من الاسلام وتربيتهم في النصرانية ، كان هذا الكاتب ممن أقاموا التكبر على هذه السياسة ورأها مخالفة لمصلحة فرنسا وماسة بكرامتها في العالم ، وقد نشر رأيه هذا بدون محاباة في الجرائد .

فأما كتابه في السيرة النبوية فقد أسماه « حياة محمد » وهو من أهم الكتب وقد صدره بمقدمة يقول فيها : « انه لا يوجد واحد في الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد ، ولكن وجد من ينكرون بعض ما جاء في ترجمة محمد في الكتب العربية . ومن الناس من يتجاوز الحد في النقد والاعتراض حتى يقع في الظلم ، أما أنا فقد جعلت كتابي سيرة حقيقية مبنية على منابع العربية الأصلية بدون ايهال جميع ما وصلت اليه تدقيقات المتخصصين في هذا الموضوع في الأزمنة الأخيرة . وقد أردت أن أمثل لمحمد صورة مطابقة له بقدر الاستطاعة كما فهمته من الكتب التي قرأتها وأنعمت النظر فيها ومن مشافهة الأحياء من المؤمنين به . فاذا كانت كل حياة بشرية تنطوي على تعليم ، وكانت كل حادثة تشتمل على مشهد يمثل حقيقة من الحقائق ، فكم يكون مؤثراً ومفيداً التلاق مع رجل من الرجال الذين يقتدى بهم جانب عظيم من الانسانية » . وقال : « ان من منابع الاولى لسيرة محمد القرآن والسنة . فالقرآن هو أوثقها سنداً ، ولكنه غير شامل الشمول الكافي في هذا الموضوع ، وأما الحديث فبرغم جميع ماتحراه المحدثون ، لاسيما البخارى ، في جمع أقوال الرسول والاحاطة بأقل اشارة من شاراته وترجمة الرجال الذين روى عنهم الحديث سلسلاً ومفصلاً ، لا يزال فيه كثير مما هو محل للشبهة ، وما هو موضوع ، ومن الجلة انهم نسبوا الى النبي معجزات كانت نسبتها اليه بعد موته . والحال انه معروف كون النبي نفسه ما ادعى المعجزات . وليس بالسهل تمحيص جميع الأحاديث ومعرفة الصحيح فيها من غيره ، ولكنه ليس من المستحيل معرفة ذلك لمن كان قد وقف على علل التحريف والوضع . وما لاشك فيه انه بعد الغربة التامة يبقى عدد كبير من الأحاديث محققاً تحقيقاً رياضياً وذلك بمقارنته بشواهد أخرى

و بتطبيقه على المكان والزمان والبيئة والاضاع التي كانت . كما ان منها ما يرجع صحته .
وقد قال المستشرق سنوك هركرونه Snouck Hurgronje انه ليس من السداد في شيء
انكار حديث لا يمكن تبين السبب الذي يقال انه وضع لاجله ولا توجد علة تاريخية
تنقضه . أمّا السير النبوية كسيرة ابن هشام عن ابن اسحاق وهي أهمها ، وكتاب الواقدي ،
وطبقات ابن سعد ، والسيرة الحلبية ، وتاريخ أبي الفداء ، والطبري ، والمسعودي الخ ففيها
بأجمعها أحاديث ضعيفة . الا انه لا ينكر أصلاً وجود روايات فيها هي غاية في الصراحة
والثقة . وانما كثرت المبالغات في الأعصر الأخيرة . ثم جاء اناس مثل ابن خلدون فأتوا
بآراء خاصة بهم . ثم جاء المحدثون مثل الشيخ عبده في مصر ، وتلاميذه والسيد أمير على
الهندي ، وأصحاب مجلة « اسلاميك ريفيو » فجعلوا للنبي صورة اجتهدوا في تقريبها من
ذوق هذا العصر . وربما تكلموا عن عيسى بما لا يرضاه محمد نفسه . أما من الجهة الاوربية
فقد كانت الأوهام والعداوات الدينية تحول دون درس حقيق علمي لفضية منشأ الاسلام
الى أن نبغ في القرن التاسع عشر رجال أراحوا هذه العلة مثل كوسين دو برسيغال
Coussin de Perceval وموير Muir وفيل Weil ومرجوليرث Margoliouth
ونولدكه Noldcke وشبرنجر Sprenger وسنوك هركرونه Snouck Hurgronje ودوزي
Dozy ومن بعدهم كاتاني Catani ولامنس Lamens وماسينيون Massignon ومونتيه
Montet وكازانوفا Casanova وبييل Bell وهوارت Huart وهوداس Houdas ولارسييه
Marçais وارنولد Arnold وغريم Grimme وغولدرزهر Goldziher وغود فروا
دمومبين Gaudefroy Demombynes وغيرهم .

الا أن بعضهم تجاوز الحد في التمهيص الى أن سقط في النفي المطلق ، فانقلب الأمر الى
ضده وصار هدماً بدلاً من أن يكون بناء . أما أنا فقد جئت وسطاً بين الروايات العربية
المأثورة التي يمثلها المسيو دينيه Dinet وسليمان بن ابراهيم ، والطريقة العصرية التي جرى
عليها بعض المستشرقين المحدثين ، فكنت دائماً أنظر الى هذه الجهة والى هذه الجهة . وقد
وجدت مع الأسف نتائج تدقيقات المحدثين ناقصة الى الآن . وكثيراً ما وجدت سلبية محضة
ومتناقضة بعضها مع بعض . فالمستشرق الفلاني يحكم بأن محمداً كان أعلى من أبناء عصره ،
والآخر يقول انه كان شبيهاً بهم من كل وجه . وهذا يقول انه توفي على أثر تخمة ، وآخر

يقول انه أصابته حمى منشؤها كثرة الصوم ، وقال « لمارتين » انه لم يكن الهاول لكنه كان أكثر من رجل أى كان نبياً . وزعم « سبرنغر » هناك وجود هستيريا شديدة . ولكن « باينسكى » هدم هذه النظرية تماماً . و « ماسينيون » نفسه صرح بأن محمداً كان على تمام الاعتدال في مزاجه . وأما الاب لامنس وهو وان كان من أحدث المستشرقين العصرين وأكثرهم اطلاعاً فلا ينكر أنه من أشدهم تعصباً . وقد ذهبت بهجة كثير من تحقيقاته بشدة تحامله على الاسلام ونبية . وقد استعمل لامنس في تاريخه للاسلام عين التعتن والطرق الاتقادية التي استعملها كثير من النقاد العصرين للنصرانية . فلامنس اذا مرَّ بحديث مطابق لما في القرآن . يزعم انه انما هو نسخة عن الآية التي في القرآن ، ومن الغريب أن يكون تطابق شهادتين ، موجباً لتساقطهما بدلا من أن يكون موجباً لزيادة الثقة فيهما ، ولنضرب مثالا على ذلك : يقولون ان الحديث المنسوب للنبي في فضل العسل انما وضعه المحدثون تأييداً للقرآن الذي فيه كلام على فوائد العسل فنجيب لماذا ياليت شعري لا يجوز أن يكون القرآن قد نوّه بفوائد العسل وأن يكون محمداً أيضاً أحب العسل ووجده صحياً وأوصى به ؟ وهو في الحقيقة شراب صحى لاشبهة فيه وما يجب أن يوصى به . فهل تكون رواية شيء كهذا عن النبي ، مع عدم وجود أى شيء منطقي أو تاريخي أو مختص بالموضوع نفسه يمنع صدوره عنه ، من الروايات التي تتضمن ما يوجب الشبهة ؟ اتنا لانفهم هذا وان كنا لاننكر الفوائد الكثيرة التي في كتب لامنس لاسيما كتابه « مهد الاسلام » الذي فيه معلومات كثيرة عن حالة مكة زمان البعثة . فلذلك قد حذفت كل ما رأيته غير ثابت من الروايات وكذلك المعجزات التي وُضعت أخبارها بعد الرسول بقرنين . وبقيت أشياء لم أستطع الجزم بصحتها ولا بعدمها فأشرت الى ما فيها من احتمال أحد الامرين » انتهى

قد نقلنا كلام هذا الكاتب الكاثوليكي على علاته ، حتى لا ينسب الينا الاستشهاد باقوال رجل ذى ضلع مع الاسلام ، فها نحن أولاء نتقل عنه ما ذكره في الصفحة ٥٢ عن النبي ﷺ من أنه كان بعد أن تزوج بخديجة ، قد أصبح معروفاً في قومه وكان الناس يجلبون أوصافه ، ويحمدون سيرته ، ويلقبونه بالأمين أى الصادق الذي يُعتمد عليه ، وتنتقل في صفحة ٥٦ أنه لما اختلفت قريش في قضية بناء الكعبة وأى فخذ منها يجب أن يعهد اليه

بوضع الحجر الاسود في مكانه وكادوا يقتتلون . اتفق الجميع على أن يعهدوا بذلك الى محمد ابن عبد الله الهاشمي قائلين : هذا هو الأمين . ثم ذكر مبدأ البعثة ولم يقل شيئاً يشتم منه أدنى شبهة في صدق محمد ﷺ . ففي صفحة ٦٢ يقول هكذا : « كان محمد في حالة بخران فكان ينشد السكون في تلك الجبال التي كان يذهب فيخلو فيها بنفسه متأملاً في السماء ذات الكواكب مُنصتاً الى ما كان يسمعه من أعماق قلبه وهو الرجل الامي الفطري الصادق وذلك الصوت هو صوت الحقيقة الأبدية الخارج من قلب الأشياء نفسها . انه كان يرى تلك الأشياء الجارية في عصره على غير استقامة وقد كان هو لا يطيق غير الحق والحق الذي لا جدال فيه . وكان لا يقدر أن يعيش الا في علم الحقيقة وكان يرى أن كل ما حوله من الأحوال لم يكن بحق . فالحياة التي عليها قريش لم تكن حياة صحيحة : متمولون يبعثون بقوافل للتجارة ويربحون أرباحاً فاحشة ، وبوادٍ يشنون الغارات ولا يعرفون الا الفوضى ، وأفأقون يفعلون كل ما يخطر ببالهم ، وكل هؤلاء لا يحيون حياة صحيحة ، وينسون أن الأصنام المصنوفة في الكعبة ليست الا معبودات باطلة وان الهبل ذا اللحية الكبيرة لم يكن الا باطلا » .

ثم قال في صفحة ٨٠ : « لم يكن محمد من لا يعرف العالم الباطني نعم لم يكن متصوفا بالمعنى المعروف ، الا أنه كان ممن يرى أن الأمور التي في الغيب أعظم من الأمور التي تحت الحس وان المشهود أدنى درجة من المحجوب . فالنظام الروحي في نظره هو الأهم وهو الوجود الحقيقي ، فمحمد قد قبض على هذه الحقيقة بيده ونادى الخلق ليمسكوا بها . جاء بقلب خالٍ من كل كذب ، ومن كل ثقافة باطلة ، ومن كل خفخة فارغة وأمسك بكلمات يديه بالعروة الوثقى ، ولا يمنع هذا من أنه كان عملياً تاماً المعرفة بأحوال العالم المادي بل كان ذلك التجرد الروحي أعون له على ادارة أمور الدنيا وهكذا كان كبار الروحيين في العالم يتغلبون على العالم المشهود بالعالم غير المشهود . » اهـ

فأنت ترى أن هذا الرجل الكاثوليكي لم يتهم محمداً بريبة ، ولا حل دعايته الى الله على مارب دنيوى ، ولا رماء بشيء من الأكاذيب التي طلما رماء بها كثير من الاوربيين عن بغض وعماية قلب أو جهل ونقص اطلاع . نعم هو غير معتقد بصحة كثير من الأحاديث حتى الوارد منها في الصحيحين . وهذا مشرب من المثارب الفكرية لا نقدر أن نؤاخذه.

عليه لا سيما ان كثيرين من المسلمين ومن ذوى الحمية الاسلامية ومن لا ينقصهم شئ من الايمان والايقان يشاركون المسيو « درمنغم » فى هذا رأى ، ولا يجعلون المعجزات شرطاً فى التصديق بنبوته محمد ﷺ الذى معجزته الكبرى القرآن . وكذلك لا يرون من الواجب الدينى الايمان بكل ما جاء فى الصحيحين وغيرهما من الأحاديث لاحتمال أن يكون تطرق اليها التبديل والتغيير أو دخلها الزيادة والنقصان ، اذ من المعلوم أنهم كانوا يروون الأحاديث بالمعنى . واذا روى الحديث بالمعنى لم يخل الأمر من أن تتطرق اليه زيادات كثيرة قد يتغير بها المعنى أو يبعد عن أصله . واذا قلنا ان رجال الحديث الذى يروى عنهم البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، كانوا بمن يوثق بروايتهم ومن لا يخالج الناس الشك فى صدقهم وان المحدثين غربلوا الأحاديث كلها وليتوا منها ما رآوه ضعيفاً ، وقووا ما رآوا أساسيده مستوفية لشروط الصحة ، وعولوا على هذا الضرب من الحديث ، وجاء الفقهاء فأخذوا منه الشريعة ، وجعلوه مرجعاً للاجتهاد ، وانهم كانوا أبصر بأحاديث الرسول من أن يبنوا على غير أساس متين . فالجواب على ذلك أنه ليس كلام هذه الفئة هو اطلاق القول على جميع الأحاديث ولا مقصدهم الاستنباه فيها بأسرها بل هناك أحاديث متواترة يستحيل التواطؤ على وضعها وأحاديث مشهورة وصلت من توثيق الرواة وتصحيح العلماء وقيام الأدلة والقرائن من الأحاديث الأخرى والأحوال الجارية يومئذ على صحة وقوعها الى حد أن أصبحت كالحقائق الرياضية مما لا خلاف فيه . ولكن الأدلة التى تستظهر بها هذه الفئة على وجوب عدم القطع بأكثر الأحاديث ولزوم التوقف فى كثير مما يسارع الناس فيه ، هى ما يلى :

أولاً — عدم امكان رواية الأحاديث الا النادر الأندر بدون زيادة أو نقصان مما يعرفه كل انسان من نفسه وذلك أنه ان أراد أن يعيد كلاماً سمعه ولو بعد سماعه اياه بساعة من الزمن تعثر عليه سرده بحرفه .

ثانياً — كونهم يقولون ان ما لا يكاد يحصى من الأحاديث مروى بالمعنى . فيتغير فيه كثير من اللفظ .

ثالثاً — جواز السهو والنسيان مما لا يخلو منه انسان ولا يمكن الجدل فيه أصلاً .

رابعاً — كون النبي ﷺ نفسه أشار الى وضع الأحاديث عليه فى أيامه وانه من أوثق

الأحاديث قوله : لقد كثرت على الكذابة ، فمن كذب على فليتبوأ مقعده من النار .

خامساً — مما رواه عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : قلت للزبير مالك لا تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان قال : أما انى لم أفارقه منذ أسامت ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : من كذب على فليتبوأ مقعده من النار . والقرينة قائمة على صحة رواية عبد الله بن الزبير هذه لأن الزبير كان من أكابر الصحابة ومن العشرة ولم يحدث . وعن السائب بن يزيد أنه صحب سعد بن أبي وقاص من المدينة الى مكة قال : فما سمعته يحدث عن النبي ﷺ حديثاً حتى رجع . وجاء فى الطبقات الكبرى لابن سعد : أنهم دخلوا على سعد بن أبي وقاص فسئل عن شيء فاستعجم فقال : انى أخاف أن أحدثكم واحداً فزيدوا عليه المائة . وسعد أيضاً من العشرة ومن أكابر الصحابة ولم يحدث . فالقرينة اذاً تؤيد هذه الرواية عنه . وروى عمرو بن ميمون قال : اختلفت الى عبد الله بن مسعود سنة ما سمعته يحدث فيها عن رسول الله ﷺ ولا يقول فيها : قال رسول الله ﷺ . الا أنه حدث ذات يوم بحديث جفرى على لسانه : قال رسول الله ﷺ فعلاه الكرب حتى رأيت العرق يتحدر عن جبهته ثم قال : ان شاء الله اما فوق ذلك واما قريب من ذلك واما دون ذلك . وعن علقمة بن قيس : أن عبد الله بن مسعود كان يقوم قائماً كل عشيّة خيس فما سمعته فى عشيّة منها يقول : قال رسول الله غير مرة واحدة قال : فنظرت اليه وهو معتمد على عصا فنظرت الى العصا تزعزع . وجاء فى طبقات ابن سعد رواية عن مسروق : أنه حدث يوماً حديثاً فقال سمعت رسول الله ﷺ ثم أرعد وأرعدت ثيابه ثم قال : أو نحو ذا أو شبه ذا . قلت وكل هذا ناشئ عما يعلمونه من كثرة طرق التغير الى الأحاديث وعن تورعهم عن الزيادة فيها أو النقصان منها مهما كان الزائد أو الناقص قليلاً .

سادساً — جاء فى طبقات ابن سعد عن معمر عن الزهرى : أراد عمر أن يكتب السنن فاستخار الله شهراً ثم أصبح وقد عزم له فقال : ذكرت قوماً كتبوا كتاباً فأقبلوا عليه وتركوا كتاب الله . وورد فى الطبقات خبر آخر : سئل عمر عن شيء فقال : لولا أنى أكره أن أزيد فى الحديث أو أتقص منه لحديثكم به .

ورى الامام السيوطى فى تاريخ الخلفاء نقلاً عن الامام النووى أن كل مارواه أبو بكر

الصديق عن رسول الله ﷺ من الأحاديث مائة حديث واثنتان وأربعون حديثاً . قال وقد روى عن أبي بكر أكبر الصحابة عمر وعثمان وعلى وابن عوف وابن مسعود وحذيفة وابن عمر وابن الزبير وابن عمرو وابن عباس وأنس وزيد بن ثابت والبراء بن عازب وأبو هريرة وعقبة بن الحارث وعبد الرحمن ابنه وزيد بن أرقم وعبد الله بن مغفل وعقبة ابن عامر الجبني وعمران بن حصين وأبو برزة الأسلمي وأبو سعيد الخدري وأبو موسى الأشعري الخ

قلت وهو شيخ أصحاب رسول الله وأكثرهم له ملازمة وليس فيهم من يفوته في الثقة والأمانة وكان رضى الله عنه نسابة عصره وأخبر الناس بأمر القبائل وكل هذا يقتضى قوة الحفظ . فان كان الصديق لم يحدث كثيراً فلا شك في أن ذلك لم يكن الا من خوفه من الزيادة والنقصان . ثم نقل السيوطي في تاريخ الخلفاء الأحاديث المائة والاثنتين والأربعين التي رواها أبو بكر بعينها .

وقال ابن خلدون في المقدمة ان الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الاكثار والاقلال من الحديث فأبو حنيفة رضى الله تعالى عنه يقال بلغت روايته الى سبعة عشر حديثاً أو نحوها ومالك رحمه الله انما صح عنده ما في الموطأ وغايتها ثلاثمائة حديث أو نحوها وأحمد بن حنبل رحمه الله في مسنده خمسون ألف حديث ولكل ما أدّاه اليه اجتهاده في ذلك . قال : وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين أن منهم كان قليل البضاعة في الحديث فلماذا قلّت روايته . قال : ولا سبيل الى هذا المعتقد في كبار الأئمة لأن الشريعة انما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتلقى الأحكام عن صاحبها المبلغ لها وانما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التي تعترض فيها والعلل التي تعرض في طرقها سيما والجرح مقدم في الأكثر فيؤديه الاجتهاد الى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد ويكثر ذلك فتقلّ روايته (الى أن قال) : والامام أبو حنيفة انما قلّت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقيني اذا عارضها الفعل النفسى وقلّت من أجلها روايته فقل حديثه لا أنه ترك رواية الحديث متعمداً لخاشاه من ذلك ويدل على أنه

من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره رداً وقبولاً. اهـ

وبعض الجهلاء أو المتعنتين من غير الجهلاء يعيبون على علماء الاسلام كثرة الاعتناء بأسانيد حديث الرسول وغيره ، والاستقصاء في العنونة والعزو الى فلان عن فلان والمبالغة في البحث عن رجال الحديث الذين وصل الى الناس من طرقهم وغير ذلك مما يمل منه القارئ بزعمهم وكان بعضه يجزى عن كله . وهذا القول مردود بتمامه لما في الحديث من الأهمية من حيث انه منسوب الى النبي ﷺ أو الى أصحابه الكرام ، ومن حيث انه هو مناط التشريع والمرجع بعد القرآن في الأحكام ، ومعرفة الحلال من الحرام ، فهما بالغ العلماء في التحري للوصول الى الحقيقة من جهة صحة صدور الحديث عن صاحب الرسالة عليه السلام فلا يكون كثيراً . بل قد رأينا أن العلماء قالوا في الحديث انه « علم انطبخ ، حتى احترق » وانه لم يشغل طلبة العلم في الاسلام بشيء أكثر من اشتغالهم بالحديث وان التحري واستيفاء شروط الثقة قد بلغا فيه الدرجة التي ليس وراءها مطمع لمزيد ، ولا يزال مع ذلك الشك يحوم حول أحاديث كثيرة واردة في الصحاح . وهذا الشك ليس من جهة عدم الأمانة في النقل . وقد احتاط لها أصحاب هذه الكتب لا سيما البخاري ومسلم ، بما ينفي كل شبهة ، وانما من جهة عدم استطاعة البشر الا ما ندر من رواية كل يسمعون بحرفه أو من وصف كل حادثة كانوا فيها كما وقعت بلا زيادة ولا نقصان . وقد يكون اثنان في حادثة من الحوادث ويرويها كل واحد منهما بشكل يختلف قليلاً أو كثيراً عن الآخر .

ولما كان التحري معروفاً أيضاً عند الاوربيين ، وكانوا مولعين بما يسمونه « التمهيص » critique وكانوا يذهبون من هذا التمهيص كل مذهب حتى في المسائل التي لا تتعاقبها عقائد ولا أحكام ولا معرفة حلال ولا حرام كان من العجب أن يعترض المعترضون وأكثرتهم من المتفرنجة على مبالغة المسلمين في نخل الأحاديث .

واقعد اطلعنا منذ سنتين على مبحث لعالم أوربي في جريدة « جورنال دو جنيف » يذكر فيه كتاباً اسمه « شهود » Témoins من تأليف عالم افرنسي اسمه المسيو « جان نورتون كرو » Jean Norton Cru ألفه على وقائع الحرب العامة وتحري فيه الى أقصى درجات التحري

وانتهى بعد التنقيب الطويل الى تقسيم الروايات الى ما قسمها علماء المسلمين من ثابت وحسن وضعيف وساقط وكان تأليف هذا الرجل نتيحة نخله ثلاثمائة مجلد لمائتين وخسين مؤلفاً من أمم وطبقات مختلفة . وفي هذه المؤلفات جرائد وكتب تذكارية وكتب ملاحظات ورسائل وأقاصيص وكلها من أقلام أناس شهدوا بالعيان من جنود وضباط وقواد

فالمسيو « كرو » لم يحكم على هذه التأليف بمجرد الاطلاع عليها بل راجع تراجم أصحابها وسيرهم الشخصية واجتهد أن يعرف مقدار مدة إقامتهم بساحة الحرب وأن يعلم صفتهم المدنية أو العسكرية . وهذا فيه شبه من علم الرجال الذي هو من العلوم اللازمة للحديث في الاسلام . ثم لم يقتصر على هذا بل قارن بين الروايات وتحركى في معرفة المواقع يرى هل تنطبق عليها أم لا ؟ وما درجة انطباقها ؟ وهل هذه المقارنات والمعارضات بكل ما فيها من التدقيق تنتهى الى القول بنفي الحوادث المستثناة التي جاءت على خلاف القاعدة . وعد كل ما لم ينخل بهذا المنخل غير واقع ؟ فالجواب على ذلك ان هذا أيضاً محل للسؤال

ولغد عن المسيو « كرو » فى مقدمة كتابه بنى الأخبار الواهية والتصورات الباطلة التى

انتشرت عن حوادث كثيرة من الحرب

وبعد ان نخل جميع الروايات نخلاً دقيقاً استخلص قواعد مقررة طبّقها على الحوادث تطبيقاً جازماً — أشبه بالشروط التى يضعها رجال الحديث للحديث فاذا استكملت فيه جزموا بصحته — وكانت خلاصة تدقيقاته أن قسم المائتين والخسين مؤلفاً الى ست درجات . فالدرجة السادسة هى التى ليست لها أدنى قيمة تاريخية — أشبه بدرجة الحديث الموضوع — والدرجة الخامسة هى التى لها قيمة ضئيلة جداً — أشبه بالحديث الواهى المتناهى فى اللين والدرجة الرابعة هى الضعيفة . ومن هذه الدرجة أكثر الواصفين لحوادث الحرب وهم نحو ٢٦ فى المائة من اولئك الذين غر بل المسيو كرو كتاباتهم . أما الدرجة الثالثة فهى التى يقال انها حسنة — كالحديث الحسن — وأما الدرجة الثانية فهى التى تضاهى درجة الصحيح فى علم الحديث . وأما الدرجة الأولى فهى التى تقابل الحديث المشهور . والثانية منها ١٩ فى المائة والأولى ١٢ فى المائة . وهو يعبر بالفرنسية عن الدرجة السادسة بقوله aucune valeur وعن documentaire وعن الدرجة الخامسة Très faible وعن الدرجة الرابعة Médiocre وعن الدرجة الثالثة Assez bon وعن الدرجة الثانية bon وعن الدرجة الأولى excellent

ولا يوجد مانع من أن يكون اطلع «كرو» على تقسيم المسامين للحديث فنسج على منوالهم وان كان هو لم يذكر ذلك .

قال «كرو» ان رواج الكتاب وشهرته وبراعة كتابته لادمخل لها في درجة صحته . ولهذا عنده كتاب مشاهير كتبوا عن الحرب مثل «رينه بنيامين» في الدرجة السادسة لانه ليس المقصود هو سحر البيان بل صحة الرواية . وقد وضع «باربوس» و«دوهاميل» و«دورجليس» في الدرجة الرابعة . وبعكس ذلك عنده من الدرجة الأولى ٢٩ مؤلفاً أسماؤهم مجهولة عند الجمهور بل مجهولة عند المتخصصين . وكلام كرو هذا صحيح لا غبار عليه

قال صاحب مقالة «جورنال دو جنيف» على هذا الكتاب : انه وان كان المسيو كرو قد استخلص من تدقيقاته وجوب الحذر ومزيد التثبت في نقل الأخبار فقد دلنا على الطريقة الوحيدة الموثوق بها في الأخبار

قلت : وهذه الطريقة هي الطريقة الاسلامية ليس في أحاديث الرسول والصحابة فقط بل في جميع أحاديثهم ، وأخبارهم ، وتواريخهم وانما أتقنها المسامون الى حد أن أصبح الناس يملونها ملهم من العمليات الحسابية ولم يبلغ منها الا فرنج شيئاً من درجة الاتقان التي عند المسامين فيها .

وربما كان تأليف المسيو كرو هذا فذاً في بابه .

فن هذا لا يكون عجباً أن لا يتلقى رجلٌ أجنبى عن الاسلام جميع ماورد في الصحاح بالقبول . ولنعد الى سيرة الرسول عليه السلام حسبما وصفها هذا المفكر المسيحي الذي مذهبه التقريب بين الاسلام والنصرانية ، واثبات ما بينهما من الصلات الكثيرة . وهو مذهب حسن ومشرب محمود ، وان كان هو فيه يركب بعض الأوقات مركباً صعباً . قال في صفحة ٦٥ ماملخصه : —

«في نواحي سنة ٦١٠ للمسيح بلغ البهران النفسى بمحمد أشده ، فكان لا يقدر أن يتصور بدون أن يتألم حالة قومه وكان يرى ان أمراً ضرورياً جداً ينقذه وينقص قومه . وكان يرى العرب كل قبيلة منهم عاكفة على صنمها وكانوا يقولون بالجن ، والاشباح ، والغيلان ، ولكنهم يبن عن الحقيقة الواحدة وهي الحقيقة الالهية . ربما لم يكونوا ينكرون هذه الحقيقة وهم كانوا في غفلة عنها ، وكانت هذه الغفلة هي الموت الروحي .

فكان قلب محمد قد خلا من كل فكر غير الفكر في الله . وكان قد تجرد من كل قوة غير هذه القوة . وكان قد نفّض جميع الكائنات التي ليست في نظره بظل للواجب الوجود الأحـد الصمد . وكان هو قد عرف الله وعرف العقيدة بالله عند نصارى سورية أو مكة ، وعرف ان هناك كتباً سماوية وأن رسلاً موحى اليهم كانوا يكلمون أقوامهم بلسان الحق تعالى ، وأنه كلما ضل الناس عن الصراط المستقيم كانت تأتي رسل فتهدى بهم اليه وتذكرهم بالحقيقة السرمدية . فالديانة التي كان يبعث الله بها الرسل لم تزل واحدة وإنما كان البشر يحرفونها عن مواضعها فيعود المرسلون ويردونها الى أصلها . فالأمة العربية كانت لذلك العهد في أبان ضلالها أفلم يكن هذا هو الوقت الذي حانت فيه رحمة البارئ تعالى أن تتدارك هذه الأمة ؟

وأحب محمد في تلك الفترة العزلة ، فكان يشعر في خلوته بجبل حراء بسرور عميق يتزايد يوماً فيوماً ، فكان يقضى هناك الأسابيع وإيس معه الاقليل من الغذاء لأن نفسه كانت تلتذ بالصوم والتهجد ، وترتاح الى التأمل والتبخر ، وأصبح سوءاً عند الليل والنهار والحلم واليقظة . وكان يقضى ساعات طوالاً جاثياً على ركبته في جوف الليل أو مضطجعا في عين الشمس ، وأحياناً يمشي في شعاب تلك الجبال وبينما كان يسير كان يسمع أصواتاً خارجة من تلك الصخور وكانت تلك الصخور تناديه « يا رسول الله »

وعندما كان يعود الى بيته كانت خديجة تغمّ لما تراه عليه من حالة الاضطراب والصمت . وكان يغيب أحياناً عن حسه ويصيبه سكات وينقطع نفسه ولا يزال حتى يأخذه الوسن فيهجع ثم يعود وقد تصاعلت أنفاسه فيرى فيها يرى النائم شخصاً ملاً الأفق فوق رأسه ، ودنا منه وفتح له ذراعيه يريد أن يمسكه فيستيقظ محمد مذعوراً والعرق يتصب منه . فتأخذ خديجة بمسح جبينه وتسأله عن حاله بصوت هادئ ثلاثاً تذعده فلا يجيبها أو يجيبها بكلمات لا تفهمها

وبقي نحو من ستة أشهر على هذه الحالة الى أن ضنى جسمه ، وصار يتخلّج في مشيه ، وانتشر شعره ، وتغير نظره ومنظره ، فاستولى عليه الجزع . وخشى أن يكون أصابه مس ، وصارت تجرى على لسانه كلمات بدون اختيار كان يخشى أن تكون من الشعر الذي يوسوس به الجن وكان هو بفطرته يكره الشعراء الذين في كل واد يهيمون

ويقولون مالا يفعلون. وأخيراً قال لخديجة : انى أخاف أن يكون بى مس ، وقد صرت لا أقدر أن أحمل هذا العبء ، وانى أرى نفسى كأن بى لما ومن كان يظن انى سأصبح شاعراً أو يستولى على الجن . لا تقولى هذا لأحد أصلاً .

وكانت خديجة تنتظر هذه النجوى بأمل وبوجل . وما كانت تقدر أن تطمئن قلقه وهى نفسها فى قلق عليه . ولكن هذه المرأة كانت كأنها قد خلقت لتؤيده ، ولتسرى عنه من همومه ، وكانت فيها متانة الحلائل الفاضلات والأمهات الملائى بالحنان ، فقد كان هذا الرجل أفتى منها سناً فعطفت عليه بكل مافى قلبها من الحب والرحمة ، وازداد حنوها عليه لأنها رآته بهذه الحالة من الضعف والهزال ، بعد أن كان ذلك الرجل القوى وذلك الزوج الحبيب . فكيف يمكنها أن تتأخر عن تثبيت فواده بكل مايمكنها فقالت له :

يا أبا القاسم ! أأنت أنت الأمين كما سماك الناس ؟ أأنت بالرجل الصادق المخلص المعتمد عليه . انك أنت الذى لم تغش أحداً فلا يمكن ان الله يتخلى عنك . أفلم تكن أنت الرجل الصالح الصابر البرّ الكريم . أفلم تكن رءوفاً بأهلك ؟ أفلم تطعم المسكين ؟ وتكس العريان وتعن ابن السبيل وتحم الضعيف ؟ انه لن يدعك الله عرضة لوساوس الشياطين الكاذبين ولا للجن اللعين . فقال لها : اذن من هذا المخلوق الذى جاءنى ولا يزال يظهر لى ، من ذا الذى لا يقول لى اسمه ولا أقدر أن أتوارى منه ؟

وبينا كان يقول لها هذه الكلمات اشتد به البحران وارتجف ، وعلت وجهه الحرة ، ثم عقبته الصفرة وسمع بأذانه دويًا واتسعت أحداقه وقال : هذا هو قد جاء وكان حينئذ مستيقظاً ولم يكن نائماً ليقال ان ذلك حلم من الأحلام . فجاءت خديجة وغطته بكساءها وضمتها اليها وسألتة أفلا تزال ترى ؟ فقال لها : لم أعد أرى اذن هو ليس هذا من الجن الخبيث ولا من الشياطين . أفلا تراه احتشم طهارة النساء وذهب . اذن ليس الا ملكاً من ملائكة الله

ثم جاء شهر رمضان وتكامل اللال وتأتى ثم أخذ يتراجع . فى احدى الليالى بينا كان نحمد نائماً فى أحد كهوف حراء ، عاد فتجلى عليه ذلك الشبح وفى يده قطعة من الحرير عليها كتابية ، وقال له ذلك الشخص : اقرأ . فأجابه : لست بقارى فأتى الشبح نفسه عليه ووضع له قطعة الحرير حول عنقه ثم أعاد عليه القول : اقرأ . فأجابه لست بقارى ، فأعادها

عليه ثلاثة أقرأ : « أقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علقٍ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » .

فردد محمد هذه الكلمات وأحس بالنور قد أشرق على قلبه ورأى قطعة الحرير المغطاة بالاشارات أمام عينيه ، وبرغم أنه كان أمياً رأى نفسه يفهم تلك الكتابة وقذف في روعه مجموع كتاب ملآن بالأسرار الالهية . وكان هذا الملك قد نبأ كل ما كان يحول في أفكاره منذ أشهر فأنه تعالى قد خلق الانسان وأوحى اليه حقائق تتجاوز مسافة عقله الطبيعي . لذلك الله قد علم الانسان بالقلم وعلمه ما لم يعلم . هذا هو سرّ الوحي وهذا هو سرّ الكلمة المكتوبة الذي كان شديد التأثير في الرجل الأعمى ، لا سيما وقد كانت الكلمة المكتوبة وحياً إلهياً اذن العرب سيكون لهم بعد اليهود والنصارى كتاب مقدس يقرأونه ، ترتيلاً وشرعية الالهية تهديهم الى طريق النجاح

ثم ذهب ذلك الشبح الذي تجلى على محمد فاستيقظ وهو موقن بان كتابا قد كُتب في قلبه فخرج من الغار يجرى بين الشعب ، ووصل الى ذروة الجبل فسمع صوتاً من السماء يقول له : « أنت رسول الله » فرفع محمد عينيه فاذا الملك في الأفق بصورة بشرية وهو يتلأأ نوراً فخول وجهه فبقى يرى المنظر نفسه وكان كيف توجه يرى الملك أمامه مائلاً مُتلاًئناً الى حد أنه أصبح يرى الملك أمامه دائماً ينظر اليه ويحدّق فيه ببصره . فوقع الرعب في قلب محمد وجثا على الأرض ووضع يديه على رأسه وغاب عن حواسه . وكانت خديجة قد استبطأت رجوع زوجها الذي كان ذهب وما معه الا زاد قليل فأرسلت في أثره أحد عبيدها فبحث في الجبل ونادى هنا وهناك ولم يجد أحداً وعاد فأخبرها فازدادت قلقاً . وبينما هي على تلك الحالة اذ دخل محمد وعلى وجهه علامة الاعياء ، ونظره غريب وأثوابه متشعته ، وبدون أن يتكلم بكلمة واحدة رمى نفسه في حجر خديجة واضطجع على ركبتيها أشبه بالولد الذي يمسّه الجهد فسأته خديجة : أين كنت يا أبا القاسم فقد أرسلت في أثرك ووصلوا الى الجبل فلم يجدوك . فأخبرها بكل ما وقع معه وأفضى اليها برُعبه واضطرابه وشكوكه . فقالت له : قسماً بمن نفس خديجة بيده انى لأرجو ان تكون أنت رسول الله . فأنه لا يسمح بان تكون أنت على ضلال . أفلم تكن برأ وفياً صادقاً تقياً واصلاً للرحم ، مؤثلاً للضعفاء ، محسناً للفقراء ، قارياً للضيوف ؟ كلا ان الله لن يخذلك . فأصاب محمد رعدة وعأوده

العرب . وقال لها : بادري بتغطيتي وكرري عليها القول فألقت عليه كساء من الصوف غطى جميع جسمه . وما زالت بجانبه الى أن أخذه النوم . فعند ذلك ذهبت خديجة الى ابن عمها ورقة ، وكان يعرف كتب اليهود والنصارى ويعلم الحكمة ويمكنه أن يزيل من حيرتها . وكانت خديجة تحب بعلمها حباً جماً وتؤمن به : ولكنها شاهدت هذه المرة شيئاً عجباً حير عقلها . فلما أخبرت ورقة هتف قائلاً : ان كان ما قلته صدقاً فحمد سيكون نبي هذه الأمة . وهو لا شك الرسول المنتظر ، وان الملك الذي تجلى عليه هو الناموس الأكبر ، وهو الذي كان يبعثه الله الى موسى وهو الذي بواسطته يوحى الله الى الأنبياء . ثم قال ورقة لخديجة : ثم ماذا قال الملك لمحمد ؟ أمره بان يبلغ دعوته ، أشار اليه بتبليغ رسالة مبيّنة ؟ ألقى اليه أن يدعوا الناس الى الله ؟ فاني أود أن أعرف ذلك حتى أكون أول من آمن بمحمد . اذهبي الى زوجك وسكني فؤاده وأزيلي مخاوفه .

فرجعت خديجة الى بيتها فرأت محمداً لا يزال هاجعاً فتركته على حاله واذا به يرتجف عوداً على بدء والعرق يتصبب منه ثم جلس وهو يضطرب ، وكان الملك قد جاءه ثانية فقال له : قم . فقال محمد : قت فأصنع ماذا ؟ قال الملك : « يَا أَيُّهَا الْمَذْذَرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَتُبَايِكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

فقات له خديجة لماذا لاتطجع وتستريح ؟ فقال لها محمد : قد ذهب النوم وذهبت الراحة وقد عاد الملك وهو يأمرني أن أدعو البشر الى الله وأن أعبد . فن أدعو ياترى ومن يؤمن بي ؟ ثم حنى رأسه حزينا وسكت . فقات له خديجة : ان لم يؤمن بك أحد آمنت بك وحدي

وبعد ذلك بمدة ذهب محمد الى السكبة فصادف ورقة يطوف فسأله ورقة عما جرى معه فأخبره بالقصة كلها فما أتمها حتى هتف ورقة قائلاً : « والذي نفسى بيده أنت رسول هذه الامة وما جاءك الا الناموس الذي جاء من قبل الى موسى ، انتي سأكون معك وأخذ بيدك فيما سيحل بك من النوائب وسأنصرك على قومك »

فقال له محمد : وماذا تريد أن تقول بهذا ؟ فقال له ورقة : نعم لم يأت أحد بما أتيت به الا عؤدى ، فيقاتلونك قتلاً شديداً ، وسيغربونك ، ويقولون انك مجنون وانك

كذاب . آه لو كنت في ذلك الوقت شاباً أو لو كنت أحمياً الى ذلك الحين ! ثم أخذ برأس محمد وقبّله وسكّن من روعه .

وكان محمد محتاجاً الى جع قواه ، وكان يجاهد نفسه قبل أن يحتاج الى مجاهدة الناس . وكان الوحي قد انقطع ولم تتجدّد معه تلك الرؤية التي رآها فوقع في حيرة عظيمة ، وصار يحدث نفسه : أفتراني كنت في حلم ! وثقلت عليه هذه الحالة جداً فرجع الى جبل حراء يريد أن يعلم هل تعاوده تلك الرؤية التي رآها قبلاً أم لا ! واشتد عليه الأمر جداً وصار يرى نفسه خلاء بعد أن كانت ملاء . فأخذ يهيم في الجبال وجعلت تتقاذفه أمواج الريب وهو لا يرى منفذاً مما كان فيه الى أن تمنى الموت . ولكن بينما هو في أقصى درجات الشدة يكاد يقذف بنفسه في مهاوى الجبل ، اذ سمع صوتاً يقول له : أنت رسول الله حقاً ، فالنفت فاذا بالملك يمسكه أن يقع وقد تكرر عليه هذا الصوت مراراً فعاد الى بيته فأخبر خديجة بما رآه وسمعه . فأخنت خديجة ثبّت فؤاده . ثم بعد ذلك بمدة جاءه الملك فتلاً عليه « وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » فما كان أعظم تلك البشرية لتلك النفس التي لم تكن تستطيع أن تعيش الا في اليقين . فلم تكن حلاوة تلك التعزية بما نزل عليه من لطف الوحي هي المؤثر الأكبر فيه وانما كان زوال الحيرة وتحقيق المصير . لقد أمر بأن يحدث بالنعمة فهو سيحدث بها . ولقد أوحى اليه الملك الصلاة والعبادة وأفهمه أن الانسان لأجل أن يصلي لله تعالى يجب أن يكون طاهراً الخ

وأكمل « درمنغم » قصة مبدأ الاسلام على الوجه الذي يعلم منه القارئ أنه لم يشك في أن محمداً كان صادقاً وانه لم يخالجه عارض من شك في آخر الأمر بنزول الملك عليه والوحي اليه .

ولنقابل مقاله بروايات أصحاب السير ، فنجد ابن سعد في الطبقات الكبرى يذكر أنه نزل الملك على رسول الله عليه السلام بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان

ورسول الله يومئذ ابن أربعين سنة . وكان أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح . فكث على ذلك ما شاء الله وحبب اليه الخلوة فلم يكن شيء أحب اليه منها . وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى يجاءه الحق وهو في غار حراء . وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان باجساد اذ رأى ملكاً واضعاً إحدى رجله على الأخرى في أفق السماء يصيح يا محمد أنا جبريل يا محمد أنا جبريل . فذعر رسول الله من ذلك وجعل يراه كلما رفع رأسه الى السماء ، فزجع الى خديجة فأخبرها خبره وقال : يا خديجة والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيء قط ولا الكهّان ، واني لأخشى أن أكون كاهناً . قالت : كلا يا ابن عم لا تقل ذلك فان الله لا يفعل ذلك بك أبداً انك تصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وان خلقت لكريم . ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل وهي أول مرة أتته فأخبرته ما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة : والله ان ابن عمك صادق وان هذا لبداء نبوة وانه ليا نبيه الناموس الأكبر فر به أن لا يجعل في نفسه الا خيراً . وقالوا ان رسول الله قال : يا خديجة اني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً لقد خشيت أن أكون كاهناً . فقالت : ان الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله انك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم . وبسند آخر عن ابن عباس : يا خديجة اني أسمع صوتاً وأرى ضوءاً واني أخشى أن يكون في جن . فقالت : لم يكن الله يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله . ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك فقال : ان يك صادقاً فهذا ناموس مثل ناموس موسى . فان يبعث وأنا حي فسأعززه وأنصره وأومن به .

وقالوا ان أول ما أنزل على النبي عليه السلام : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . قالوا : وانه لما نزل عليه الوحي بحراء مكث أياماً لا يرى جبريل فحزن حزناً شديداً حتى كان يغدو الى ثبير مرة والى حراء أخرى ، يريد أن يلقي نفسه منه ، فبينما رسول الله كذلك عامداً لبعض تلك الجبال اذ سمع صوتاً من السماء فوقه صمقاً للصوت ، ثم رفع رأسه فاذا جبريل على كرسي بين السماء والأرض متربعا عليه يقول : يا محمد أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل . فانصرف رسول الله وقد أقر الله عينه وربط جاشه ثم تنابع الوحي وحى . وقالوا انه سمع :

يا محمد لَتَمَّ عَيْنُكَ وَلَتَسْمَعَ أُذُنُكَ وَلَتَعِ قَلْبُكَ . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : فَنَامَتَا عَيْنِي وَوَعَى قَلْبِي وَسَمِعْتُ أُذُنِي . وَكَانَ النَّبِيُّ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ كَرَبَ لَهُ وَتَرَبَّدَ وَجْهَهُ . وَقِيلَ : كَانَ إِذَا أَوْحِيَ إِلَيْهِ وَفَدَّ لَذَلِكَ سَاعَةً كَهَيْئَةِ السَّكَرَانِ وَرَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : كَانَ الْوَحْيُ يَأْتِينِي عَلَى نَحْوَيْنِ يَأْتِينِي بِهِ جَبْرِيلُ فَيُلْقِيهِ عَلَيَّ كَمَا يُلْقِي الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ فَذَلِكَ يَتَفَلَّتُ مِنِّي وَيَأْتِينِي فِي شَيْءٍ مِثْلِ صَوْتِ الْجَرَسِ حَتَّى يَخَالُطَ قَلْبِي فَذَلِكَ الَّذِي لَا يَتَفَلَّتُ مِنِّي . وَسَأَلَهُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ ؟ فَقَالَ : أحياناً يَأْتِينِي فِي مِثْلِ صَلَافَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأحياناً يَتِمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ فَيَكَلِّمُنِي فَأَعْيَ مَا يَقُولُ . قَالَتْ عَائِشَةُ : لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينُهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرْقاً . وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَ أَوَّلُ مَا ابْتَدَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ كَانَتْ تَجِيءُ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبِبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ فَكَانَ بَغَارَ حَرٍّ يَتَعَبَّدُ فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَمِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى يَجَاهُ الْحَقُّ فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : جُنُوتٌ لِرَكْبَتِي ثُمَّ رَجَعْتُ تَرْجِفُ بُوَادِرِي فَدَخَلْتُ عَلَى خَدِيجَةَ فَقُلْتُ : زَمَلُونِي زَمَلُونِي . ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي الرُّوعُ . ثُمَّ أَتَانِي فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَطْرَحَ نَفْسِي مِنْ حَاقِقِ قَتَبَدَى لِي حِينَ هَمَمْتُ بِذَلِكَ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَنَا جَبْرِيلُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ . قَالَ : اقْرَأْ . قُلْتُ : وَمَا أَقْرَأُ . قَالَ : فَأَخَذَنِي فَغَتَّنِي ^(١) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ قَالَ : اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . فَقَرَأْتُ فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ : لَقَدْ أَشْفَقْتُ عَلَى نَفْسِي وَأَخْبَرْتُهَا خَبْرِي فَقَالَتْ : أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يَخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَنْصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتُؤَدِّي الْأَمَانَةَ وَتَحْمِلُ الْكُلَّ وَتَقْرَى الضَّيْفَ وَتَعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . ثُمَّ انْطَلَقْتُ بِي إِلَى وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّهَا وَكَانَ قَدْ تَنَصَّرَ وَقَرَأَ الْكِتَابَ وَسَمِعَ مِنْ أَهْلِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ فَقَالَتْ : اسْمِعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ . فَسَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ خَبْرِي فَقَالَ : هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى ابْنِ عِمْرَانَ لَيْتَنِي كُنْتُ حَيًّا حِينَ يَخْرُجُكَ قَوْمُكَ قُلْتُ : أَخْرَجَنِي هُمْ ؟ قَالَ : نَعَمْ إِنَّهُ لَمْ يَجِئْ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ الْإِعْوَدِي وَلَئِنْ أَذْرَكْنِي يَوْمَكَ لِأَنْصُرَنَّكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا . ثُمَّ إِنْ أَوَّلَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ بَعْدَ اقْرَأْ ، ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ، وَيَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، وَالضُّحَى . وَقَالَتْ خَدِيجَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ نُبُوته : يَا ابْنَ عَمِّ أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْبِرَنِي

(١) غَتَّه مِنْهُ شَدِيدًا حَتَّى يَكَادُ يَخْتَفِقُهُ

بصاحبك هذا الذى يأتيك اذا جاءك؟ قال: نعم. فجاءه جبريل فأعلمها. فقالت: قم فاجلس على نخدي اليسرى فقام ﷺ. فجلس عليها فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحوّل فاقعد على نخدي اليمنى. فجلس عليها فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. فتحسرت فأثمت خارها ورسول الله ﷺ فى حجرها. قالت: هل تراه؟ قال: لا. قالت: يا ابن عم ائبت وأبشر فوالله انه ملك وما هو بشيطان اه

ايتأمل القارئ فى شهادة خديجة لرسول الله بصدق الحديث وتأدية الامانة وسائر مكارم الأخلاق وتواتر ذلك عنها وهى أعلم الناس به وأقربهم اليه وطلما اعترف مؤرخوا الافرنج المنصفون بأن هذا من أوضح الدلائل على صدق محمد وأمانته.

ثم نعود الى كلام « درمنهم » فهو يقول ان محمداً لم يعتمد فى نبوته على المعجزات وكانوا يقولون له: ان كنت نبياً فاعمل لنا من خوارق العادات ما هو كذا وكذا، فكان يجيبهم ان رسلا كثيرين جاءوا بالمعجزات وكذبهم البشر، وأنامهما جئتكم بالمعجزات فلن تؤمنوا مادامت قلوبكم قاسية، وما معجزتى الا القرآن الذى هو موسى الى رجل أمى وما تقدر الانس ولا الجن أن تأتى بمثله.

ثم هاجم محمد الأصنام التى كان يعبدها العرب كاهلبل، ومناة، واللات والعزى، وهزأ بها وبمن يعتقد بها وبضم العجين التى كانت تعبد به بنو حنيفة وتأكله اذا جاعت، وبالأنصاب والأزلام، ونهى عنها وعن الفسق والفجور والقسوة والطمع والربا وأحدث انقلاباً فى المجتمع الجاهلى الى آخر ما ذكره عن مبادئ الاسلام.

وانا لذا كرون بعض ما جاء به هذا الكاتب المسيحى الكاثولىكى من الملاحظات التى تستحق الاعتبار وتدل على انصاف صاحبها للاسلام. فقد ذكر ما جاء فى القرآن من وصف النعيم وما فى الجنة من الأشجار والمياه الصافية والفاكهة، وأنهار العسل واللبن، والخور العين قاصرات الطرف اللائى لم يطمسهن انس ولا جان الى غير ذلك فعقب على هذا بقوله: ان الناس يأخذون هذه الأوصاف على ظاهرها وعلماء الاسلام، عدا بعض المتصوفة، لا يفرقون بين جنة آدم والجنة التى وعد الله بها الأبرار. ولا يزال هذا الأمر أيضاً غير موضح فى المسيحية نفسها. ولا يجب أن يؤخذ من هذا أنه لا يوجد فى الاسلام من يعتقد بكون هذه

الأوصاف إنما هي اشارات ورموز ، وكذلك لا يؤخذ منه أن جميع ملاذ الآخرة هي حسيّة فقد جاء في القرآن ما يفيد أن أفضل النعيم هو مغفرة الله لآثام البشر ثم سلام الله وصالواته على المتقين والوجود في الحضرة الالهية . وقد قال محمد كما قال القديس بولس : ان الله قد أعدّ لعباده ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقد جاء في القرآن :

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا)

ذكرنا هذه الملاحظة من ملاحظات هذا الرجل المسيحي لأن كثيراً من قومه يعيرون القرآن في الوعد الذي فيه للمتقين باللذات الحسية ، وينسون أن الخلق لا يفهمون غيرها وان أمور الآخرة مع ذلك ليست من أمور هذه الدنيا . وينسون ما في القرآن من الآيات الدالة على أن أعظم النعيم هو رضا الله (ورضوان من الله أكبر) وان رؤية الحق تعالى هي مما وعد به أهل الجنة .

وقد ذكر ملاحظة أخرى وهي أن القرآن أذن المسلمين في الزواج بالمسيحيات وان هذا كما قال الشيخ عبده من علامات الإخاء ، وان في الاسلام مبادئ كثيرة قد اعتقدت بها النصرانية منها خروج آدم من الجنة لكونه عصى أمر ربه في الأكل من الثمرة الممنوعة . وكذلك قضية سقوط ابليس الذي استكبر أن يسجد لآدم في عقيدة الاسلام يماثلها في النصرانية سقوط الشيطان الذي أبى أن يعتقد بالكلمة المتجسدة . وما اتفقت فيه العقيدتان رسالة نوح و ابراهيم وموسى والأنبياء والكتب المقدسة والملائكة والمسيح والدجال واليوم الآخر والبعث والحشر والحساب . وترى الاسلام في هذه كلها أقرب الى النصرانية منه الى اليهودية .

قال وبين المسلمين الأولين والمسيحيين الأولين مشابهة شديدة في تحمّل الاضطهاد وفي حب الموت لاجل الدين أى الاستشهاد .

قال : أما القول بأن الاسلام يتضمن كالنصرانية عقيدة التجسّد والفداء والحبل بلا دنس الخ . فهذا فيه نظر . الا أنه مما لامشاحة فيه أن القرآن يقول بمسيحية عيسى وولادة من بطن عذراء بدون أب ورسالاته ومعجزاته وصعوده الى السماء والانفراستيا أى سر القربان المقدس اذ فيه سورة المائدة .

قلنا ليس التشابه واقعاً بين ما يقوله النصارى — الا البروتستانت — في سر القربان

المقدس واستحالة الخبز بمجرد التقديس الذى يقده القسيس الى جسد الرب ، واستحالة
الخر الى دمه فعلاً لا رمزاً ، وبين قول القرآن فى المائدة . والذى قاله تعالى فى المائدة هو
هذا : « إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا
مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ
قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ
رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا
وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ
عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » فأنت ترى أن استحالة الخبز والخر الى جسد الرب
ودمه ليس لها أثر هنا . وان كان المقام مقام مائدة . ولعل بعض الصوفية ينظرون الى هذه
المائدة لا بمعناها الظاهر بل بالمعنى المجازى .

ثم يقول « درمنغهم » ان القرآن يطهر مريم تطهيراً عظيماً من كل دنس . قلت : نعم قال
الله تعالى « وَاذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ » .
ويقول ان لعيسى عليه السلام مكاناً مستثنى فى القرآن ذلك بأنه مولود على غير الأحوال
البشرية المعتادة ، وانه رسول الله الوحيد الذى فى القرآن يخاطب الحق ويجاوبه ، وانه
كلمة الله الحية وليس بمجرد واسطة للرسالة . قلنا : ان حكم عيسى بن مريم عليه السلام
فى القرآن ظاهر لا يحتمل التأويل ، وهو أنه خلقه الله مباشرة على غير المعتاد من ولادة
البشر ولكنه رسول الله وعبد من عبيد الله لا يزيد على ذلك وكونه كلمة الله وروحاً من
الله غير نافى لعبوديته لله الواحد الذى لا اله غيره قال الله تعالى « يَا هَلْ السِّكِّتَابِ
لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا
خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا لَنْ يَسْنَنَكَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ
الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْنَنَكَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا »

ثم يقول « در منغم » ان تأييد روح القدس لعيسى عليه السلام ليس مجرد تأييد ظاهر قاصر على تبليغ الشريعة مؤيدة بالمعجزات كما جرى لموسى عليه السلام ، ولا بالتجليات العليا والعلوم الدنيّة كما جرى لمحمد عليه السلام ، وانما هو تأييد تام تنزّه به عيسى عن الخطأ على حين ان محمداً لم يدّع لنفسه العصمة

والذى نعلمه ان الاسلام يعصم الأنبياء جميعاً عن الكبرائر وهذا لا يمنعهم من ان يستغفروا الله بكرة وأصيلا . وقد كان محمد ﷺ من أكثرهم عبادة واستغفاراً وكان يصلى حتى ترم رجلاه .

ثم يقول « در منغم » ان القرآن يقول في المسيح ماتقول الكنيسة ، أى انه كلمة الله وروح الله نزل في بطن مريم كما أنه بشر تام البشرية . وانما ينتقد التجسد والتثليث على ما كانوا يعتقدون يومئذ بهما ! وبحسبنا كان يقول المبتدعة — وفي الأصل الهرطقة — ولا يستطيع المسيحي الا أن يوافق على ما يقول القرآن من أنه كبر مقتاً عند الله القول بثلاثة مؤلف منها الاله ، مريم والمسيح والله : (واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله) فلقد كانت في الشرق تحلّ لعبادة مريم عبادة حقيقية وقد روى القديس ابيفانوس ان الكولوريديين Collyridiennes كانوا يقدمون خبزاً لمريم على سبيل العبادة ثم يأكلونه

اتنا ذكرنا قول « در منغم » هذا لا لنوافق فيه جميعه بل لنبين ان القرآن لم يخطئ فيما جاء فيه من الاشارة الى عبادة مريم بل الذين خطأوا القرآن في ذلك مخطئون . فقد وجبت نحلّ لعبدها في القديم ولا تزال في أيامنا هذه يصلى لها بصلوات خاصة بها وكيف تكون العبادة غير هذا ؟ والاله هو المعبود . هذا معناه بالعربية . فقوله تعالى : (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين) معناه : أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي معبودين

ثم يزعم « در منغم » أن قول المسامين بان القرآن غير مخلوق هو كقول المسيحيين ان المسيح كلمة الله موجود من الأزل ، قال وقد كان القديس يوحنا الدمشقي يقول : اذا قلتم ان الكلمة وروح الله هما غير مخلوقين فنحن معكم على وفاق . وان قلتم انهما مخلوقان أفتريدان أن تقولوا انه كان وقت من الأوقات كان الله فيه بدون كلمة وبدون روح ؟ وهنا بدون أن ندخل في هذا البحث الطويل العريض الذى ربما لا ينتهى وبدون

أن نذكر قول المساميين ما خلا المعتزلة بعدم خلق القرآن ، وقول النصارى بكون الكلمة هي من الأزل وأنها هي المسيح ، نكتفى بأن نقول ان قوله تعالى ان عيسى عليه السلام هو من روح الله معناه أنه آية من آيات الله وان الله أوجده رأساً بلا أب وان قوله « كلمة الله » معناه انه وجد بكلمة التكوين « كن » وفي هذا فرق كبير عما يعتقده المسيحيون من أزلية الكلمة ومن ثمة بأزلية المسيح ^(١) وكيف نطبق أزلية المسيح على قوله تعالى : « قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا » وقوله تعالى : « إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وقد حاول « در منغم » أن يوفق بين الدياتين في عقائد كثيرة الى أن وصل الى قضية الصلب فقال انها أشدها اشكالا ، وذلك أن الاسلام التاريخي لا يعرف سر الفداء . وربما لم يجد حاجة للكلام على الفداء لانه موجود في الانجيل والانجيل مصدق بالقرآن .

وعلى كل حال لا ينظر الاسلام الى المسيح كخخلص للبشر بدمه ولا يعرف قضية الحب الالهى خلقه الى حد أن يبعث الله ابنه الوحيد خلاصهم فان الاسلام يريد أن ينزه الالهية تنزيهاً عظيماً ويجعل الله بائناً عن خلقه الا أنه بهذا وقع في التجريد التام وفاته ذلك المبدأ العظيم في النصرانية وهو « ان الله محبة »

فالمساميون لا يقدرّون أن يعتقدوا ان الله الذي يحب المسيح يتركه يُصلب ، كما ان اليهود لا يقدرّون ان يفهموا المسيح الا ملكاً أرضياً فاتحاً . على ان القرآن يقول ان من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً وهذا فيه ما يشير الى قول بولس الرسول وهو « انه بخطيئة واحد قد عمّ الذنب الجميع كذلك بكفارة واحد يتطهر الجميع وتحصل الطهارة التي هي مصدر الحياة »

نقول ان كل هذه المباحث اذا أخذ بها الانسان لا تنتهى وكتابتنا هذا كتاب تاريخ لا مشار جدل وحسبنا أن نسرد أقوال الفرق المختلفة مع الملاحظات الضرورية فقط فلا نستطيع هنا أن نستخرج من قوله تعالى : « أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا » الدليل

(١) راجع في هذا المبحث كتب التكميلين والمفسرين ولا سيما تفسير المنار لحجة الاسلام وأستاذ العصر السيد رشيد رضا

الذى حاول «درمنغهم» استخراجه . بل معنى هذه الآية صريح وهو مبدأ العدل التام الشامل فقتل نفس بغير حق هو قتل لجميع العالم بغير حق . وهذا امرٌ بديهي لا جدال فيه لأن النفس هنا تمثل النوع الانساني . وكذلك من أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً لأنه يكون قرر الحياة لا للفرد بل للجمع ، وهذا الاحياء هو باجراء العدل التام الشامل وهو من باب (ولكم في القصاص حياة) وليست هذه المسئلة في شيء مما قاله بولس الرسول الذى يقول بما يسميه المسيحيون بالخطيئة الأصلية أى معصية آدم الشامل وزرها لجميع أبنائه ، مما استلزم ارسال الله ابنه الى الأرض وصلبه فداء لأبناء آدم ، وتخليصاً لهم من تبعة معصية ارتكبتها أبوهم . نعم هذان ركن العقيدة المسيحية ، لكنه لا يلتزم أصلاً مع عقيدة الاسلام التى لا يؤاخذ فيها انسان الا بذنبه ، ولا يسرى وزره لا من والد الى ولد ولا من ولد الى والد ولا من أخ الى أخ (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فالعقيدتان متباينتان أشد التباين

ثم يقول «درمنغهم» ان الاسلام ينفي موت المسيح مصلوباً مهيناً بل يقول ان الله قد رفعه اليه ولم يبق في أيدي اليهود الا شبحاً أو شخصاً آخر شبه بالمسيح . يقول : فهذه العقيدة التى هي مستغربة عقلاً وتاريخاً ، وهادمة لأجل قصة معروفة في العالم ، والتي بحسبها تكون النصرانية مبنية على وهم من الأوهام ، مستفادة من آية قرآنية متشابهة هي هذه :

« وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »

قال : فالمعنى الحقيقى الوحيد لهذه الآية التى تثبت قيامة المسيح أكثر مما تنكر موته ، وتعنى برفعه اليه ، وفاته هو ان الله قد ضلّل كيد اليهود وان عيسى لم يقع في أيديهم بل خرج منها مؤيداً منصوراً . وهذا هو عين ماتقوله النصرانية فان اليهود بحسب قول النصارى ، قد أرادوا قتل المسيح وهدم عمله ، وينا يظنون أنفسهم قضا عليه اذا به قد عاد فعاش ، وما كان عملهم الا انفاذاً لمشينة الله وما قصدوا الا الشر فكان من عملهم هذا نجاة العالم .

قال «درمنغهم» : فقول القرآن «ولكن شبه لهم» يذكّرنا بأقوال العهد الجديد

وبولس الرسول عن حمل الله المكفر عن سيآت البشر وعن آدم الجديد الذي جاء بدل القديم . فاذا فكرنا في أن المصحف الحالي تاريخه من زمن عثمان والحجاج ، وان سائر المصاحف قد أبطلت ، وان المصحف نفسه لم يكن فيه شكل ولا نقط ، فيقرأ منه كثير على وجهين أمكننا أن نتساءل هل هذه الآية القرآنية المنقوضة بآيات أخرى والتي تؤكد موت المسيح وقيامته وصعوده الى السماء بدون تصريح بعدم وقوع الموت والقيامة الى الآن ومع تعليق ذلك باليوم الآخر هي كافية لحفر هذه الهوة العميقة بين ملتين كل شيء ما عدا هذه العقيدة جامع موحد بينهما ؟ ان « درمنغهم » لا يراها كافية

ثم قال : بل اتنا لو فرضنا وجوب أخذ هذه الآية على ظاهرها ، فلا مانع من ذلك بحسب عقيدة الكنيسة نفسها ، لأن آباء الكنيسة ما زالوا يقولون انه ليس ابن الله هو الذي صلبه اليهود وأما تود على الصليب ، وانما الطبيعة البشرية التي في المسيح . وهكذا لا يكون اليهود قتلوا كلمة الله الأبدية ، ولكن يكونون قتلوا الرجل الذي يشبهها واللحم والدم المتجسدين في بطن مريم .

قال فلا يكون القرآن فيما قاله بشأن الصلب الا مؤيداً عقيدة الكنيسة الكبرى ، وهي أن في المسيح طبيعتين اهيّة وبشرية ، وان القتل وقع على الطبيعة البشرية فقط وان المسيح سينزل عند قرب الساعة وغير ذلك ، وما كان رد القرآن هذا الاعلى أقوال الهراطقة مبتدعة النصارى الذين كانت مذاهبهم منتشرة وأقوالهم شائعة حتى في جزيرة العرب ، الى (أن يقول) : ان أحد آباء الكنيسة من أهل القرن الخامس قال : ان جزيرة العرب كانت مجمعا للبدع المسيحية فكان فيها السابليون Sabelliens والدوسيتيون Docètes الذين كانوا ينكرون الطبيعة البشرية في المسيح ويقولون ان جسده لم يكن الا شبحاً محضاً ، والاروسيون الذين كانوا ينكرون ألوهيته ، والايثوخيون واليعاقبة الذين كانوا ينكرون وجود الطبيعتين فيه ، والنساطرة الذين كانوا يرون فيه شخصين ، والمريميون والكوليريديون Collyridiesn الذين كانوا يعبدون مريم العذراء وأضداد المريميين الذين كانوا ينكرون بكارتها الدائمة الخ . وكانت جميع هذه الفرق في نزاع دائم وكما يقول المثل الحبشي : « لم يتفق النصارى على شيء الا على ولادة المسيح » .

ولا نريد أن نفرغ من هذه المسئلة بدون أن نعلق بعض الملاحظات على ما قاله « درمنغهم » فيها فأماً ذهابه الى أن مراد القرآن بالآية الكريمة (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) انما هو وقوع القتل على الجسد فقط ، وان الله بعد ذلك رفعه اليه ، فان له وجهاً وجيهاً لا سيما وان آية أخرى (اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك الى ومطهرتك من الذين كفروا) تعزّز هذا الرأي وان كان جمهور أهل الاسلام على أن القتل لم يقع لا على الروح ولا على الجسد وان الذي قتل انما هو رجل آخر وان قوله تعالى (اني متوفيك) هو من توفاه الله أى استوفى مدة أجله في الدنيا .

ومن الناس من يرى أن الصلب وقع ، ولكن الموت على الصليب لم يقع ، وان المسيح قد أُنزل عن الصليب وهو حي ودفن في المغارة ، على أنه مات وهو لم يكن مات ، فلذلك عند ما جن الليل خرج من المغارة وذهب ، ثم بعد أيام جاء وتلاقى مع الحواريين . ولكن الذين يرون هذا الرأي يخالفون الاسلام والنصرانية معاً . أما الاسلام فلكون القرآن لم ينف القتل فقط بل نفى الصلب أيضاً ، ولأن الاسلام يثبت أن الله رفع المسيح اليه ونجّاه من اليهود . وأما النصرانية فلائن مدارها كلها على موت المسيح مصلوباً فداءً عن البشر . فان لم يكن مات مصلوباً انهدمت العقيدة المسيحية كلها . وجواب من يرى هذا الرأي أن آية (وما قتلوه وما صلبوه) لا تنفي الصلب نفسه بل تنفي الموت على الصليب ، وان قوله تعالى (وما صلبوه) أشبه بأن تكون تأكيداً لقوله تعالى (وما قتلوه) لأن المقصود ليس نفي رفعه على الخشبة وانما نفي موته عليها ، وان الأظهر أن يكون رفع على الخشبة ساعات ، ثم أُنزل عنها وهو حي ، وأخذ الى المغارة ووضع فيها ، وذلك على هيئة أنه مات وانه دفن . والحقيقة أنه لما أُنزل عن الخشبة لم يكن مات وانما شبه الموت لليهود وشبه لهم الدفن وان المسيح بعد أن جن الليل خرج في جوف الليل ومضى الى حيث توارى مدة من الزمن ثم عاد فظهر للتلاميذ وتعثّى معهم العشاء السرى .

والذين يرجحون هذا الرأي يخالفون عقيدة النصرانية ورواية الأنجيل لكنهم لا يرون رأيهم مخالفاً للاسلام . وذلك لأنهم يقولون ان قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه) معناه وما قتلوه مصلوباً . وليس بنافٍ أن يكون رفع على الصليب مؤقتاً تشبيهاً على اليهود

الذين كانوا يطلبون جزماً قتل المسيح . وكذلك خروجه من المغارة ليلاً واختفاؤه عن العيان ليسا مما ينبغي رفعه الى السماء بعد ذلك .

وأدلة هؤلاء على هذا الرأي هي :

أولاً ان ييلاطس البنطى كان قد حاول انقاذ المسيح بكل جهده هو وامراته وانه أخذتهما عليه شفقة زائدة ، ولكن لما اشتد صخب اليهود طالبين قتله اضطر أن يأمر بصلبه وهو مكروه ، فيجوز أن يكون أوصى قائد المائة بأن يعلق عيسى عليه السلام على الصليب الى أن يكون أظلم الوقت فينزله ويجعله في المغارة على أنه ميت ويشير اليه بأن يفر من المغارة ليلاً ، ويذهب الى حيث لا يعلم به اليهود . وهكذا يكون أنقذه من الموت ولكن مع إيهام اليهود أنه قتله .

ثانياً — ان الصلب وقع نهار الجمعة بحيث انه في مساء ذلك النهار يدخل السبت ويقرر اليهود في بيوتهم فيسهل على الذى تولى قضية الصلب أن يوارى عيسى في المغارة ويسهل له النجاة بدون أن يشعر اليهود .

ثالثاً — ان من العادة فى المصلوبين أن تكسّر أرجلهم تعجيلاً لموتهم اذا طال نزاعهم وقد ثبت أن القائد الذى عهد اليه بصلب عيسى لم يكسر له رجله مع أنه كسر أرجل المصلوبين الآخرين الذين صلب عيسى عليه السلام بينهما . فعدم تكسير رجل عيسى عليه السلام دليل على نية استحياائه .

رابعاً — ان الصلب كان سبة كبيرة عند اليهود يفدون بها بكل ممكن ولذلك جاء أناس من محبي عيسى وبذلوا كل جهدهم لدى ييلاطس لمنع صلبه مثل يوسف حارميتحايم ومثل نيقوديموس ومن هؤلاء من رافقوه الى مكان الصلب وهم الذين أنزلوا الجثة بحسب رواية الصلب فلو لم يكن لهم أمل فى انقاذه لم يرافقوه الى هناك .

خامساً — انهم لما جاءوا الى المغارة نهار الأحد وجدوا الحجر مدحرجاً ولم يجدوا جثة المسيح بل وجدوا ثيابه . فان قيل ان تدحرج الحجر وخروج المسيح من القبر لا ينفيان كون المسيح قد مات لأن المسيح عليه الصلاة والسلام قد قام من الموت بعد أن صلب ومات ودفن وهذه هي العقيدة المسيحية وعند ما قام فى اليوم الثالث خرج من القبر ودحرج

الخجر، فيرد على هذا أن الذي يقوم من الموت بمعجزة يمكنه أن يخرج من القبر بدون فتح القبر ولا دحرجة الحجر، ولا سيما إذا كان قد صعد إلى السماء، والصعود هنا بالروح لا بالجسد.

سادساً — إن وجود الثياب في القبر دليل على أنه قد نزع ثياب الدم التي كانت عليه عند الصلب، وأنه جئ إليه بثياب نظيفة وخرج بها عندما خرج، والا فما معنى وجود الثياب الملتصقة بالدم في القبر بعد فقد الجثة، فإن قيل يصعد بها إلى السماء فيجلب بأن الصعود إلى السماء إنما هو بالروح فليس يحتاج إلى تبديل ثياب وما وجود الثياب إلا علامة على تبديلها، وما تبديلها إلا علامة على أن المسيح خرج من القبر ليلاً بجسده وتوارى عن أعين اليهود، وذلك بصورة ليس فيها معجزات ولا خوارق عادات

سابعاً — إن وضع المسيح عليه السلام في مغارة، بدلاً من دفنه في ضريح تحت الأرض، وهيل التراب عليه هو من جملة الأدلة على إرادة بيلاطس عدم قتله لأنهم لو كانوا دفنوه في لحد تحت الأرض لما أمكن بقاؤه في الحياة، وأما دفنه في غار فليس إلا تحبئة إلى أن يكون أظلم الليل

ثامناً — إن اجتماعه بالتلاميذ بعد الصلب دليل على أنه لم يكن مات وإن قيل إنه مات ثم عاش كما هي العقيدة المسيحية فنحن إنما نتكلم الآن عن رأى فئة لا تريد أن تتابع العقيدة بما يصحبها من المعجزات وإنما تنظر في الحادثة إلى المعقول والطبيعي بدون معجزات ولا خوارق عادات. فهذه الفئة ترى أن المسيح صلوات الله عليه قد اجتمع بالتلاميذ بعد حادثة الصلب وأنه أكل معهم وإن توما اشتبه فيه وطلب منه علامة على كونه هو المسيح الذي صلب ولما كان يعلم أنه كانت في صدره طعنة حربة سأله عنها فأطلعه المسيح عليها ووضع توما فيها أصبعه حتى تحققها. وهذه الفئة ترى من هذا الاجتماع أن الموت على الصليب لم يقع وإن «التنبيه» الذي في القرآن في آية (ولكن شبه لهم) لم يكن بقتل شخص آخر يشبه المسيح وإنما هو تشبيه الصلب الذي جرى بالموت بحيث يسكت اليهود الذين حكم مجلسهم الروماني على عيسى بالقتل صلباً وكانوا يابون إلا إنفاذ هذا الحكم. فغفل لهم الرومانيون أنهم قتلوه والحقيقة أنهم لم يقتلوه بل رفعوه على الخشبة وعند الساعة الرابعة بعد الظهر أنزلوه عنها وأدخلوه المغارة حياً. وكان اليهود دخلوا في السبت فلم يعلموا بشيء

وبعد أن بدّل المسيح في المغارة ثيابه خرج منها ليلاً وذهب متوارياً ويوم الأحد وجد الناس المغارة خالية وجسد المسيح عليه السلام مفقوداً ، والحجر متدحرجاً ، وليس هناك غير الثياب الملطخة بالدم . فذهب جماعة من اليهود الى بيلاطس وشكوا اليه الاهمال الذي وقع في هذا الأمر وقالوا له ان الشائع هو كون النصارى جماعة عيسى قد أخذوا جسده ليلاً ومنهم من قال له : بل الشائع كون قصة موته على الصليب غير صحيحة وانه أُنزل عن الصليب حياً^(١) ووضع في القبر على صورة مدفون ، ثم في جوف الليل فرّ من المغارة . ومن جملة الروايات أنه بعد أن ظهر للتلاميذ وأكل معهم فارقهم الى حيث لم يرجع الى فلسطين ، وذلك خوفاً من أن تقبض عليه السلطة مرة ثانية وتصلبه وتقتله هذه المرة فعلاً لا تشبيهاً ومن فلسطين ذهب الى الهند أبعد ما يمكنه أن يبعد وانتهت حياته في الهند ودفن في شمالي الهند حيث له الآن هناك قبر يزار . وهذا القبر معروف من قديم الزمان وهذه الروايات هي مجرد حدس وتخمين يعززه قرائن وأدلة في نظر من لا يعتقد بالمعجزات أو من يظن أن هذه الحادثة جرت مجرّي طبيعياً لا معجزة فيه . فأما الذين يعتقدون بالمعجزات فانهم يحلون اشكالات هذه القصة كلها بالقدرة الالهية . والنصارى يقولون انها حادثة مقدرة مقررة منذ الأزل وان النصرانية مبنية عليها .

وأما الذين كتبوا حياة يسوع مثل « رنان » وأمثاله ولم يكونوا يقولون بالوهيته ولا بمعجزاته ولا بتقرّر الفداء من الأزل فقد ذهبوا الى أن الصلب والموت على الصليب وقعا فعلاً ولكن القيامة من القبر لم تقع ووجود شاب لابس ملابس بيضاء في القبر يقول ان المسيح قام من الموت هذا لم يقع وانما زعم التلاميذ ذلك من شدة تخيلهم وهيامهم في حب المسيح الى حد أنهم ظنوه نزل عليهم . وأكل معهم ، وان كل ما ورد من ذلك في الأناجيل لم يقع وانما هو خيال في خيال حلمهم عليه الحب . وبالاختصار النصارى يقولون ان المسيح مات مصلوباً ودفن في المغارة وفي اليوم الثالث قام وصعد الى السماء ، وانه بعد قيامه . تجلّى للتلاميذ وتعلّش معهم وأمرهم بنشر دينه وودّعهم والمسامون يقولون انه لم يكن هو المصابوب وانما ضلب شخص آخر عوضاً عنه ، وان الله رفعه اليه . وهناك رأي من الآراء هو أنه في قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه) لا يقصد نفى القتل والصلب عن الجسد وانما يقصد انهم ان

(١) اقرأ عن هذه المسئلة كتاب اميل لودفيغ الألماني المشهور في علم تراجم الرجال وذلك في آخر كتابه عن المسيح

كانوا قتلوا الجسد فلم يقدروا أن يقتلوا الروح وان الله رفع ذلك الروح اليه . ورأى آخر انه رُفِع . على الصليب الى أن أقبل الظلام فأنزل الى القبر حيا ولكن بصورة ميت . وبعد أن أدخل المغارة جئ اليه بثياب فلبسها وترك الثياب الملطخة بالدم . وكانت مريم أم عيسى ومريم المجدية وبعض نساء وبعض رجال لم يفارقوا يسوع منذ صلب الى أن خرج من المغارة فالأرجح أنهم هم الذين أتوه بالثياب لبيدها ثم ان عيسى بعد ذلك بمدة قصيرة جاء واجتمع بتلاميذه وتعشى معهم ثم فارقهم وأبعد في الأرض خوفاً من الوقوع في يد الحكومة مرة ثانية وقيل انه ذهب الى الهند وتوفاه الله هناك. وهذا الرأي الأخير مخالف لرواية الاسلام والنصرانية معاً كما أن الرأي الذي قبله وهو الذي معناه أن قول القرآن (وما قتلوه وما صلبوه) لا ينفي موت جسد المسيح على الصليب وانما يعنى روحه ويعنى عمله في الأرض هو الرأي الوحيد الذي يمكن به التوفيق بين غفديتي الاسلام والمسيحية . وهو الرأي الذي يحاول تأييده « درمنغم » لأنه رأى فيه التوفيق بين الديانتين في أهم ما اختلفتا فيه . وأحسن ما كتبه المسلمون في مسألة الصلب رسالة للعلامة السيد رشيد رضا صاحب المنار فن شاء فليرجع اليها .

وقد ظهر في السنة الماضية كتاب عنوانه « لأجل فهم حياة يسوع » وفيه بحث تحليلي لانجيل مرقس ألّفه الاستاذ بروسبر الفاريك Prosper Alfariق المدرس بجامعة استراسبورغ ذهب فيه الاستاذ المذكور مذهب من يرى ان أكثر ما ورد في الانجيل المذكور مطبّق عمداً على نبوءات سابقة في العهد القديم ، سواء كانت الحوادث المروية صحيحة أو غير صحيحة ، وذلك من قبيل الدعاية لا التاريخ . وقد اجتهد هذا المؤلف أن يظهر كل ما هناك من التناقضات تارةً ومن الأخبار المخالفة للطبيعة طوراً وذلك مثل ان الدنيا كلها أظلمت من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة أثناء احتضار السيد المسيح على الصليب . وانه انشق حجاب الهيكل وغير ذلك من الاخبار . ولكن هذا المؤلف هو ممن لا يشتبهون في موت المسيح على الصليب

وفي هذه السنة ظهر كتاب جديد اسمه « حياة يسوع » لـ لسيو موريس غوغويل Goguel من علماء فرنسة توخى فيه الرد على الدكتور كوشو Couchoud الافرني

وغيره من العامة الامان والانكليز والهولانديين الذين لم يجدوا في الاناجيل حقائق تاريخية قابلة للتحقيق ، بل وجدوا فيها دعاية دينية محضة ، وانتهوا الى القول بان المسيح لم يوجد أصلاً وانما كان رمزاً . فالمسيو غوغويل يبين في كتابه مافى هذه الاقاويل من المبالغات ، ويذهب الى أن وجود عيسى محقق ، وان الأخبار الواردة في الاناجيل يمكن ربط بعضها ببعض وأخذ نتيجة تاريخية صحيحة منها . وهو يرى ان ادعاء ان المسيح رمز فيه من المشكلات التاريخية أكثر من القول بأنه وجد بالفعل . نعم المسيو موريس غوغويل يعتقد ان كثيراً من روايات الاناجيل غير واقعية بل هي مطبقة على التقاليد النصرانية تطبيقاً لمجرد الدعاية أو بحسب الاعتقاد وان هذا في واد والتاريخ في واد . ورنان في كتابه الشهير « حياة يسوع » يعترف بتطبيق بعض الروايات عمداً على النبوات السابقة الا أنه يعتقد موت المسيح على الصليب كما يموت سائر الناس .

ثم لنا ملاحظة أخرى على قول « درمنهم » بشأن المصحف . وظننته ان هناك مصاحف غير المصحف العثماني قد أبطلت ! فان كلاماً كهذا يدور كثيراً في كتب الأوربيين ومنهم من يزعم ان المصحف تعاورد الحذف والتبديل ، وأن الخلفاء الراشدين زادوا فيه ونقصوا كما أرادوا . وهم مطلقون العنان لخيالاتهم في هذا الموضوع بحسب عاداتهم ويحبطون خبطاً كثيراً كما هو دأبهم اذا تكلموا عن الشرق والاسلام . وإيس بشي* مما يظنونه بصحيح . وكل هذا أمّا جهل بتاريخ القرآن وأمّا تجاهل مقصود منهم فالقرآن كان محفوظاً في صدور ألوف من الرجال وفي صدور عدد كبير جداً من الصحابة ممن يستحيل تواطؤهم على الكذب . ولما جرت حرب الردة في اليمامة استحرّ القتل في الصحابة ، رضوان الله عليهم ، فجاء عمر الى أبي بكر وقال له ، ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، واني لأخشى أن يستحر بالفراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن الا أن يجمعوه واني لأرى ان يجمع القرآن . فقال أبو بكر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ فقال عمر : هو والله خير . قال أبو بكر : فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ، فرأيت الذي رأى عمر . قال زيد بن ثابت : وعمر عنده جالس لا يتكلم ، فقال أبو بكر : انك شاب عاقل ، ولا تهملك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتنبّع القرآن فاجعه ، قال

زيد : فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن
فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي ﷺ . فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل
أراجعه حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتبعت القرآن اجمعه من
الرقاع ، والاكتاف ، والعُسْبُ وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع
خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الى آخرها فكانت
الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند
حفصة بنت عمر رضى الله عنها ، نقل هذا جلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء ثم أردف
ذلك بقوله : واخرج أبو يعلى عن عليّ قال : أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ان
أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين
وذكر أبو الفداء هذه القصة كما يأتي :

« ثم دخلت سنة ثلاثين وفيها بلغ عثمان ما وقع في أمر القرآن من أهل العراق ، فانهم
يقولون قرأنا أصح من قرآن أهل الشام ، لانا قرأنا على أبي موسى الأشعري وأهل الشام
يقولون قرأنا أصح لانا قرأنا على المقداد بن الأسود ، وكذلك غيرهم من الأنصار . فأجمع
رأيه ورأى الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذي كتب في خلافة أبي بكر رضى
الله عنه . وكان مودعاً عند حفصة زوج النبي ﷺ ، وتحرق ماسواه من المصاحف التي
بأيدى الناس ، ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف وجل كلاً منها الى مصر من
الأمصار ، وكان الذي تولى نسخ المصاحف العثمانية بأمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله
ابن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ، وقال عثمان :
ان اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلسانهم »

ولقد رأينا أجمع ما كتب في هذا المقام كلام الاستاذ الكبير مفخرة العرب ، وحجة
الأواخر على الأوائل في علو طبقة الانشاء ووفرة الأدب ، السيد مصطفى صادق الرافعي في
كتابه « اعجاز القرآن » فانه جمع فأوعى وأصاب الحز وطبق المفصل وهاهوذا مقال
بجاحظي بيانه نأثره بحرفه قال :

« وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداءً من أنفسهم أو بأمر من
النبي ﷺ ، فيخطونه على ما اتفق لهم يومئذ من العسب ^(١) والكرانيف ^(٢) والالحاف ^(٣) »

(١) جمع عسب جريدة النخل كانوا يكشطون الخوص عنه ويكتبون في الطرف العريض

(٢) جمع كرانفة بالكسر وبالضم وهي أصول السعف الغلاظ (٣) جمع لحفة وهي صفائح الحجارة

والرقاع ، وقطع الاديم ، وعظام الاكتاف والاضلاع من الشاة والابل ، وكل ما أصابوا من مثلها مما يصلح لغرضهم يكتب كل منهم ما يسر له أو يسرته أحواله . ولكن مما ليس فيه ريب ان منهم قوماً جمعوا القرآن كله لذلك العهد، وقد اختلفوا في تعيينهم بيد انهم أجمعوا على نفر : منهم على بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود . وهؤلاء كانوا مادة هذا الأمر من بعد . فان المصاحف التي اختصت بالثقة كانت ثلاثة : مصحف ابن مسعود ، ومصحف أبي ، ومصحف زيد ، وكلهم قرأ القرآن وعرضه على النبي ﷺ . فأما ابن مسعود فقرأ بمكة وعرض هناك . وأما أبي فانه قرأ بعد الهجرة وعرض في ذلك الوقت . وأما زيد فقرأ بعدهما وكان عرضه متأخراً عن الجميع وهو آخر العرض اذا كان في سنة وفاته ﷺ ، وبقراءته كان يقرأ عليه الصلاة والسلام وكان يصلى الى أن لحق بربه . ولذلك اختار المسلمون ما كان آخراً كما ستعرفه .

وأما على بن أبي طالب ، فقد ذكروا ان له مصحفاً جمعه لما رأى من الناس طيرة عند وفاة النبي ﷺ . وفي الفهرست لابن النديم انه رأى عند أبي يعلى حزة الحسيني مصحفاً بخط على يتوارثه بنو حسن . ونحن نحسب ذلك خبراً شيعياً لأنه غير شائع . . .

وقبض رسول الله ﷺ والقرآن في الصدور وفيما كرمه عليه ، ثم نهض أبو بكر بأمر الاسلام وكانت في مدته حروب أهل الردة ، ومنها لهوة أهل اليمامة ، والمحاربون أكثرهم من الصحابة ومن القراء . فقتل في هذه الغزوة وحدها سبعون قارئاً من الصحابة (ويقال سبعمائة) وكان قد قتل منهم مثل هذا العدد بئر معونة (موضع قرب المدينة) في عهد النبي ﷺ فهال ذلك عمر بن الخطاب ، فدخل على أبي بكر رحمه الله فقال : ان أصحاب رسول الله ﷺ باليمامة يتهافتون تهافت الفرائش في النار ، وانى أخشى أن لا يشهدوا موطناً الا فعلوا ذلك حتى يقتلوا وهم حلة القرآن ، فيضيع القرآن ويُنسى ولو جعلته وكتبته . فنفر منها أبو بكر ، وقال أفعَلُ ما لم يفعل رسول الله ﷺ ، فتراجعا في ذلك . ثم أرسل أبو بكر الى زيد بن ثابت . قال زيد : فدخلت عليه وعمر مسر بل فقال لي أبو بكر : ان هذا قد دعاني الى أمر فأبيت عليه وأنت كاتب الوحي فان تكن معه اتبعكما وان توافقني لا أفعَل . فقال أبو بكر قول عمر وعمر ساكت ، فنفرت من ذلك وقلت يفعل

مالم يفعل رسول الله ﷺ الى أن قال عمر كلة : وما عليكما لو فعلتما ذلك . فذهبنا ننظر فقلنا : لاشئ والله ما علينا في ذلك شئ . قال زيد : فأمرني أبو بكر فكتبته في قطع الأدم وكسر الاكتاف والعُصْب .

وهذا الذي فعله أبو بكر كأنما استحميا به طائفة من القراء الذين استحروا بهم القتل بعد ذلك في المواطن التي شهدوها لم يعد به ماوصفنا . ولذا بقي ما اكتتبه زيد نسخة واحدة وهو قد تتبع ما فيها من الرقاع والعصب واللخاف ومن صدور الرجال وإنما ائتمنه أبو بكر لأنه حافظ ، ولأنه من كتبة الوحي ، ثم لأنه صاحب العرصة الأخيرة ، وربما كان قد أعانه بغيره في الجمع والتتبع ، فإن في بعض الروايات أن سالم مولى أبي حذيفة كان أحد الجامعين بأمر أبي بكر . أما السكتابة فهي لزيد بالاجماع .

وبقيت تلك الصحف عند أبي بكر ينتظر بها وقتها أن يحين حتى اذا توفى سنة ١٣ صارت بعده الى عمر فكانت عنده حتى مات ، ثم كانت عند حفصة ابنته صدراتاً من ولاية عثمان . ويومئذ اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر فأخذ أهل مصر عن رجل من بقية القراء

فأهل دمشق وحصص أخذوا عن المقداد بن الاسود . وأهل الكوفة عن ابن مسعود . وأهل البصرة عن أبي موسى الاشعري — وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب — وقرأ كثير من أهل الشام بقراءة أبي بن كعب ، وكانت وجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الاحرف التي نزل عليها كما سيمر بك ، فكان الذي يسمع هذا الاختلاف من أهل تلك الامصار اذا احتوتهم المجامع أو التقوا في المواطن على جهاد أعدائهم يعجب من ذلك أن تكون هذه الوجوه كلها على اختلاف ما بينها في كلام واحد . فاذا علم ان جميع القرآت مسندة الى رسول الله ﷺ وانه أجازها ، لا يمتنع أن يحيك في صدره بعض الشك ، وان ينطوى منها على شئ اذا هو كان قد نشأ بعد زمن الدعوة وبعد أن اجتمع العرب على كلة واحدة ، فلا يلبث أن يجري ذلك الاختلاف مجرى مثله من سائر الكلام فيرى بعضه خيراً من بعضه ويظن منه الصريح ، والمدخول ، والعالي ، والنازل ، والافصح

والفصيح ، وأشبه ذلك ويعتد ما راد في القرآن من القرآن . وهذا أمرٌ ان هو استفاض فيهم ثم مردوا عليه خرجوا منه ولا ريب الى المناقضة والملاحاة والى أن يرد بعضهم على بعض هذا يقول : قراءتى وما أخذت به . وذلك يقول : بل قراءتى وما أنا عليه . وليس من وراء هذا اللجاج الالتفكير والتأيم ولا جرم انها الفتنة لاتفتأ بعد ذلك من دم .

ولقد نجمت هذه الناشئة يومئذٍ فاما كانت غزوة ارمينية وغزوة أذر بيجان ، كان فيمن غزاها مع أهل العراق حذيفة بن اليمان فرأى كثرة اختلاف المسلمين في وجوه القراءة وانهم لايجرون من ذلك على أصل في الفطرة اللغوية كما كان العرب يقرأون بلحونهم ورأى ما يبدر على ألسنتهم حين يأتى كل فريق منهم بما لم يسمع من غيره اذ يتأرون فيه حتى يكفر بعضهم بعضاً ، ولم ير عندهم نكيراً لذلك ولا اكباراً له بل كانوا قد ألفوه بين أنفسهم ، وصار من عادتهم وأمرهم . ففرغ الى عثمان (بن عفان رضى الله عنه) فأخبره بالذى رأى . وكان عثمان قد رفع اليه ان شيئاً من ذلك يكون بين المسلمين الذين يقرئون الصبئية يأخذونهم بحفظ القرآن ، فينشأون وبهم من الخلاف بعضهم على بعض . فأعظم ، رجه الله ، أمر هذه الفتنة وأكبره الصحابة جينعاً ، لأن الاختلاف في كتاب الله مدرجة الى مخالفة مافيه ، ومتى اهملوا بعض معانيه لم يكن بد أن يتصرفوا ببعض ألفاظه ، وانما هو اجترأ واحد فيوشك أن يكون من ذلك مساغ للتحريف والتبديل . فاجعوا أمرهم أن ينتسخوا الصحف الاولى التى كانت عند أبى بكر وان يأخذوا الناس بها ويجمعوهم عليها حذار تلك الردة المشتبهة ، واشفاقاً على الناس أن يصيروا كهاردوا الى الفتنة أركسوا فيها . فأرسل عثمان الى حفصة فبعثت اليه بتلك الصحف ، ثم ارسل الى زيد بن ثابت ، والى عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . فأمرهم أن ينسخوها فى المصاحف . ثم قال للرهط القرشيين الثلاثة : ما اختلفتم فيه أتم وزيد فاكتبوه بلسان قرش فانه نزل بلسانهم .

وفى رواية أخرى عن زيد بن ثابت ان عثمان أمره أن يكتب له مصحفاً بعد أن رفع اليه أمر الاختلاف وقال : انى مدخل معك رجلاً ليبياً فصيحاً فاكتباه وما اختلفتما فيه فارفعاه الى جعل مع ابان بن سعيد بن العاص . فلما بلغا فى الكتابة قوله تعالى : (ان آية ملكه أن يأتىكم التابوت) قال زيد : فقلت : التابوه . وقال ابان بن سعيد : التابوت .

فرفعنا ذلك الى عثمان فكتب : التابوت .

وفى رواية ثالثة لابن عساكر ان عثمان خطب فى الناس يومئذٍ وعزم على كل رجل عنده شئ من كتاب الله لما جاء به فكان الرجل يجيء بالورقة والاديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ثم دعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم : أسمعت رسول الله ﷺ وهو أملاء عليك فيقول : نعم . فلما فرغ من ذلك عثمان قال : من أكتب الناس ؟ قالوا : كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت . قال : فأئى الناس أعرب ؟ قالوا : سعيد بن العاص . قال : فليمل سعيد . وليكتب زيد .

ونحسب أن اختلاف هذه الرواية وما جاء بمعناها من وجوه أخرى انما بعث عليه تصور الرواة لابلغ ما يكون من صور الثقة فى هذا الأمر حتى يحكموه من نواحيه كلها فانك لا ترى منها رواية الا وفيها مبالغة فى التحرى ليست فى الاخرى . والذي يخبر بمثل ذلك الخبر عن القرآن انما يخبر بأمر شديد اذا هو لم يمكن فيه لموضع الثقة ولم يحصنه أشد التحصين حتى لاتجد الشبهة اليه سبيلاً . وظاهر انه من المحال أن تكون كل هذه الروايات هى الواقع قال زيد (فى بعض الروايات عنه) : فلما فرغت عرضته عرضة فلم أجد فيه هذه الآية « **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا** » قال فاستعرضت المهاجرين أسألم عنها فلم أجد لها عند أحدٍ منهم ، ثم استعرضت الأنصار أسألم عنها فلم أجد لها عند أحدٍ منهم حتى وجدت لها عند خزيمه يعنى ابن ثابت فكتبتها . ثم عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه هاتين الآيتين : « **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ** » الى آخر السورة فاستعرضت المهاجرين فلم أجد لها عند أحدٍ منهم ثم استعرضت الأنصار أسألم عنها فلم أجد لها عند أحدٍ منهم حتى وجدت لها مع رجل آخر يدعى خزيمه أيضاً فأثبتتها فى آخر « **براءة** » . ولو تمت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة . ثم عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه شيئاً . ثم أرسل عثمان الى حفصة يسأها أن تعطيه الصحيفة وحلف لها ليزدنها اليها فأعطته فعرض المصحف عليها فلم يختلف فى شئ فردها اليها وطابت نفسه وأمر الناس أن يكتبوا مصاحف فلما ماتت حفصة أرسل الى عبد الله بن عمر فى الصحيفة بعزمه فأعطاهم اياها فغسلت غسلًا .

قلنا وكلام زيد نص قاطع في أنه كان يحفظ القرآن كله لم يذهب عنه شيء منه اذ كان يعرض ما في المصحف على ما ربط في صدره وثبت في حفظه ، ثم هو نص كذلك على أن زيدا كان لا يكتفي في نفسه بل يذهب يستعرض الناس حتى يجد من يؤدي اليه كيلا ينفرد هو بالحفظ خشية أن يكون موضع ظنة وان كان الصحابة رضي الله عنهم قد اجتمعوا على الثقة به فلم يثبت ما أثبتته الا بشاهدين أحدهما من حفظ غيره والآخر من حفظه

ثم بعث عثمان في كل أفق بمصحف من تلك المصاحف، وكانت سبعة في قول مشهور ، فأرسل منها الى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة ، وجلس بالمدينة واحداً وهو مصحفه الذي يسمى الأمام — الأصل في هذه التسمية ما جاء في بعض الروايات من أن عثمان لما بلغه اختلاف المعلمين في القرآن كما أوردناه آنفاً قال : عندي تكذبون به وتلحنون فيه فن نأى عني كان أشد تكديباً وأكثر لحناً . يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس اماماً — ثم أمر بما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف أن يحرق ولم يجعل في عزيته تلك رخصة سائغة لأحد وكان جمع عثمان في سنة ٢٥ للهجرة ، وانما أراد عثمان بذلك حسم مادة الاختلاف لأنه أمر يمد مع الزمن وتنشعب الأيام به وهو ان أمن في عصره لم يدر ما يكون بعد عصره . وقد أدرك ان العرب لا يستمرون عربا على الاختلاط والفتوح وان الألسنة تنتقل واللغات تختلف ثم هو رأى ما وقع في الشعر وروايته وان الاختلاف كان باباً الى الزيادة والابتداع فلم يفعل شيئاً أكثر من أنه حصن القرآن وأحكم الأسوار حوله ومنع الزمن أن يتطرق اليه بشيء وجعله بذلك فوق الزمن .

ولم تكن المصاحف التي كتبت قبل مصحف عثمان على هذا الترتيب المعروف في السور الى اليوم فانما هو ترتيب عثمان — وكان تقسيم المصحف ثلاثين جزءاً زمن الحجاج — أما في ما وراء ذلك فقد رووا أن رسول الله ﷺ كان اذا نزلت سورة دعا بعض من يكتب فقال ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا ، فكان القرآن مرتب الآيات غير أنه لم يكن مجموعاً بين دفتين ، فلا يؤمن أن يضطرب نسق مجموعه في أيدي الناس باضطراب القطع التي كتب فيها تقديماً وتأخيراً . ولم يلزم الناس القراءة يومئذ بتوالي السور وذلك ان الواحد منهم اذا حفظ سورة أو كتبها ثم خرج في سريته — هي عندهم من حصة أنفس الى ثلاثمئة — أو أربعمئة — فزلت سورة أخرى فانه كان اذا رجع ياخذ في حفظ ما ينزل بعد

رجوعه وكتابته ويتتبع مافاته على حسب ما تسهل له أ كثره أو أقله فمن ثم يقع في ما يكتبه تأخير المقدم وتقديم المؤخر . فلما جمعه أبو بكر برأى غمركتبه على ما وقفهم عليه رسول الله ﷺ ثم كانوا في أيام عمر يكتبون بعض المصاحف منتسقة السور على ترتيب ابن مسعود وترتيب أبي بن كعب وكلاهما قد سرده ابن النديم في كتابه الفهرست . وقال ابن فارس ان السور في مصحف علي كانت مرتبة على النزول فكان أوله سورة اقرأ باسم ربك ثم المدثر ثم نون ثم المتذمر ثم تبت ثم التكوير وهكذا الى آخر المكي والمدني ولا حاجة بنا أن نتسع في استقصاء هذا الخلاف

أما ترتيب مصحف عثمان فهو نسق زيد بن ثابت وهو صاحب العرضة الأخيرة ولعله كان ترتيب مصحف أبي بكر أيضاً لما مر في الرواية عن زيد من أنه قابل بين الاثنين معارضته والله أعلم . ويرجح أن ترتيب زيد الذي نقرأ به اليوم هو ما رضيه رسول الله ﷺ ما روى عن عوف بن مالك وعن حذيفة من أنه عليه الصلاة والسلام تهجد ذات ليلة فاستفتح فقرأ في نافذته البقرة وآل عمران والنساء والمائدة في أربع ركعات سورة سورة على هذا النسق وهو الذي عليه ترتيب زيد . وهذا الخبر يظهر ما ورد في معناه وانعقد به التصديق من أن ترتيب الآي إنما كان توقيفاً منه صلى الله عليه وسلم ومن قصص زيد عن نفسه في تلك الرواية تعلم انه كان يحفظ القرآن على ترتيبه آية فآية وسورة فسورة — ولم يكن بعد انتشار المصاحف العثمانية وانتساخها على هيئتها الا أن استوثقت الأمة على ذلك بالطاعة وأحرق كل امرئ ما كان عنده مما يخالفها ترتيباً أو قراءة وأطبق المسلمون على ذلك النسق وذلك الحرف ثم أقبلوا يجدون في اخراجها وانتساخها . ولقد روى المسعودي انه رفع من عسكر معاوية في واقعة صفين نحو من خمسمائة مصحف وهي الخدعة المشهورة التي أشار بها عمرو بن العاص في تلك الواقعة ولم يكن بين جمع عثمان الى يوم صفين الا سبع سنوات

وهنا أمر لا مذهب لنا دون التنبيه عليه وذلك أن جمع القرآن كان استقصاء لما كتب واستيعاباً لما في الصدور فكانوا لا يقبلون الا بشهادة قد امتحنوها أو حلف قد وثقوا من صاحبه والا بعد العرض على من جمعوا وعرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الصحابة كانوا لا يحسنون التهجي ، وقد يكتبون غير ما يقرأون على وجه من وجوه الكتابة أو يكتبون بحرف من القراءات كالذي رواه ابن فارس بسنده عن هاني قال : كنت عند

عثمان رضى الله تعالى عنه وهم يعرضون المصاحف فأرسلنى بكتف شاة الى أبى بن كعب فيها « لم يتثن » و « أمهل الكافرين » و « لا تبديل فى الخلق » قال فدعى بالدواة فمضى احدى اللامين وكتب « خلق الله » ومضى فأمهل وكتب « فهل » وكتب « لم يتسنه » ألحق فيها هاء والقراءة على هذا الرسم

فذهب بعض أهل الكلام من لا صناعة لهم الا الظن والتأويل واستخراج الأساليب الجدلية من كل حكم وكل قول الى جواز أن يكون قد سقط عنهم من القرآن شئٌ جلاً على ماوصفوا من كيفية جمعه وهو باطل من الظن لما علمته من أنباء حفظته الذين جمعوه وعرضوه ثم لما رأيت من تثبتهم فى ذلك حتى جعت لهم الصحة من أطرافها ثم لاجماع الجم الغفير من الصحابة على أن ما بين دفتي المصحف هو الذى تلقوه عن رسول الله ﷺ لم يأت به الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا اقتطع منه الباطل شيئاً

ونحن بما رأينا روايات تختلف فى شئ من الأشياء فضل اختلاف وتنسجم فى الرد والتأويل كل طريق وعركا رأينا من أمرها فيما عدا نصوص الفاظ القرآن فان هذه الألفاظ متواترة اجماعاً لا يتدارأ فيها الرواة من علا منهم ومن نزل وانما كان ذلك لأن القرآن أصل هذا الدين وما اختلفوا فيه الا من بعد اتساع الفتن وتألب الأحداث وحين رجع بعض الناس من النفاق الى أشد من الأعرابية الأولى وراغ أكثرهم عن موقع اليقين بن نفسه فاجترأوا على حدود الله وضربتهم الفتن والشبهات مقبلاً بمدبر ومدبراً بمقبل فصار كل من نزع الى الخلاف يريد أن يجد من القرآن ما يختلف معه أو يختلف به وهيهات ذلك الا أن يتدسس فى الرواية بمكروه يكون معه التأويل والأباطيل والا أن يفتح الكلمة السيئة ويبالغ فى الحل على ذمته والعنف بها فى أشياء لا ترد الى الله ولا الى الرسول ولا يعرفها الذين يستنبطون من الحق بل لا يعرفون لها فى الحق وجهاً . ونحسب ان أكثر ذلك مما افترته الملحدة وتزيدت به الفئة الغالية وهم فرق كثيرة يختلفون فيه بغياً بينهم وكلهم يرجع الى القرآن بزعمه ويرى فيه حجته على مذهبه وينته على دعواه . ثم أهل الزيغ والعصبية لآرائهم فى الحق والباطل . ثم ضعاف الرواة ممن لا يميزون أو ممن تعارضهم الغفلة فى التمييز وذلك سواد كله ظلمات بعضها فوق بعض ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور . وقد وردت روايات قليلة فى أشياء زعموا أنها كانت قرآناً ورفعت على أن رسول الله ﷺ كان

يقرر الأحكام عن ربه اذا لم ينزل بها قرآن لأن السنة كانت تأتي متأهة ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « أوتيت الكتاب ومثله معه » يعنى السنن

وعلى هذا الحديث يخرج في رأينا كل ما روه مما حسبه كان قرآناً فرجع وبطلت تلاوته على قلة ذلك ان صح لانه يكون حياً وإيس كل وحى بقرآن . على أن ما ورد من ذلك ورد معه اضطرابهم فيه وضعف وزنه فى الرواية وأكبر ظننا أنها روايات متأخرة من محدثات الأمور وان فى هذه المحدثات لما هو أشد منها وأجدى بشأنه . ولو كان من تلك شئ فى العهد الأول لرويت معها أقوال أخرى للأئمة الأئبات الذين كان اليهم المفرع من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا يومئذ متوافرين وكلهم مُقرن لذلك قوى عليه وكانوا يعامون أن المراء فى القرآن كفر وردة وانكار بعضه انكاره بالجملة . وقد أجمعوا على ما فى مصحف عثمان وأعطوه بذل السنتهم فى الشهادة أى قوتها وما استطاعت من تصديق . ونحن من جهتنا نمنع كل المنع ولا نعبأ أن يقال انه ذهب من القرآن شئ وان تأولوا لذلك وتمحلوا وان أسندوا الرواية الى جبريل وميكائيل ونعتد ذلك من السوء الصلعاء التى لا يرحضها من جاء بها ولا يغسلها عن رأسه بعد قول الله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ولا يتوهم أحد أن نسبة بعض القول الى الصحابة نص فى أن ذلك المقول صحيح البتة فان الصحابة غير معصومين وقد جاءت روايات صحيحة بما اخطأ فيه بعضهم من فهم أشياء من القرآن على عهد رسول الله ﷺ وذلك العهد هو ما هو ثم بما وهل عنه بعضهم مما تحدثوه من أحاديثه الشريفة فاخطأوا فى فهم ماسمعوا ونقلنا فى باب الرواية من تاريخ آداب العرب (١) أن بعضهم كان يرد على بعض فيما يشبه لهم انه الصواب خوف أن يكونوا قد وهموا . وثبت أن عمر رضى الله عنه شك فى حديث فاطمة بنت قيس بل شك فى حديث عمار بن ياسر فى التميم لخوف الوهم مع أن عماراً ممن لا يهتم بتعمد الكذب ولا بالكذب وهلة امحبته وسابقتهم مع رسول الله ﷺ ولذلك أذن له عمر فى رواية هذا الحديث مع شكه هو فى صحته .

على أن تلك الروايات القليلة فى ما زعموه كان قرآناً وبطلت تلاوته ان صحت أسانيدها

(١) هو كتاب لم يصنف فى باب نظيره من تأليف الاستاذ الرافعى الذى تنقل عنه هذا الفصل

أو لم تصح فهي على ضعفها وقتلها مما لا حفل به مادام الى جانبها اجماع الأمة وتظاهر الروايات الصحيحة وتواتر النقل والأداء على التوثيق . انتهى

وخلاصة القول انهم جمعوا القرآن من الادم والعسب والكرانيف واللخاف وعرضوه على مافي صدور الرجال لا عرضة واحدة بل عرضات متعددة وكان ذلك بين مئات وألوف يستحيل تواطئهم على الكذب أو على زيادة أو على نقصان ولذلك اطمأنت النفوس وثلجت القلوب واقتنعت العقول بان هذا هو القرآن كما أنزل وأصبح ما يروى خلاف ذلك لا يعباً به وأما الاختلاف في وجود القراءات فهو شيء آخر لا يتعلق بالكلام الالهي نفسه بل بكيفية قراءته وقد كانت لهجات العرب تختلف بعض الشيء كما لا يخفى

ثم نعود الى «درمنغم» الذي يحاول في جميع كتابه التألف بين الاسلام والمسيحية فهو يقول في صفحة ١٣٤ : « ان نفساً قوية طاهرة نظير نفس محمد في اتصال مع الحقائق التي وجدها هذا الرجل في نفسه في أثناء خلواته العظيمة في الصحراء والجبال كانت تشعر بأن الديانة ليست عبارة عن تأمل مجرد وعن محاضرة ملقاة بل هي حقيقة يراها الانسان من نفسه وكل من البشري يمثل الله تعالى كما يقدر ولكن المهم أن يكون ملائ شعوراً بالحقيقة الالهية وأن يسلم نفسه لله وهذا هو الاسلام»

ثم قال : ان الهوة التي قد احتفرها المسيحيون والمسلمون فيما بينهم لم تكن في الحقيقة بين الاسلام والنصرانية وانما كانت نتيجة المنازعات المبنية على سوء التفاهم . فأهل الكتاب كانوا بادي ذي بدء أنصاراً لمحمد ثم لم يفتنوا أن أبوا الاعتراف بنبوته وأن هزأوا به كما أن المسامين هم أيضاً من جهتهم تباعدوا ما أمكنهم عن النصرانية . مفسري القرآن بدلاً من أن يظهروا ما بين الديانتين من الموافقات اجتهدوا في اثبات ما بينهما من المفارقات . فالقرآن اقرب كثيراً الى النصرانية من السنة المروية وعلى كل حال الأحاديث المنسوبة الى الرسول هي التي حفرت هذه الهوة بين الديانتين وفي هذه الأحاديث من الروايات المدخولة والموضوعات ما هو معلوم (هكذا زعم درمنغم)

ثم قال : ولما نشبت الحروب مدة قرون متطاولة بين المسامين والمسيحيين ازداد بينهم سوء التفاهم واشتدت البغضاء كثيراً ، ومما يجب أن نعترف به أن أكثر البغضاء كان من

جهة المسيحيين فقد كان البيزنطيون يحترقون الاسلام بلا تأمل ولا بحث وجميعهم ما عدا
يُوحناَ الدمشقي لم يحملوا أنفسهم على درس عقيدة الاسلام وانما جلاوا عليه بالطعن والقذف
بلا فحص وأخذوا يصوّرون محمداً بصور غريبة جداً ويشوهون من هذه الصورة ما أمكنهم.
(وذكر هنا المطاعن التي كانوا يُوجهونها الى النبي ﷺ بما أئبنا نقله نظراً لسُخفه وسفاهته
وسقوطه من نفسه حتى ان درمنغهم نفسه هزأ كثيراً بهذه المطاعن بالرغم من كونه
مسيحياً معتقداً) فالتناقض الذي بين الملتين كانت قواعده الأساسية أخباراً واهية مثل أن
محمداً كان صنماً من ذهب وأن مساجد المسلمين هي هياكل ملاءى بالتمثيل ! وقد ورد في
أغنية اسمها « أغنية أنطاكية » ما يفيد أن ناظم تلك الأغنية قد رأى في تلك الهياكل
محمداً بشكل صنم من ذهب وفضة ، راكباً على فيل ، وهذا الفيل على قاعدة من
الفُسْفُيساء ، ثم ان الأغنية المسماة بأغنية « رولان » والتي تمثل فرسان شرلمان وهم
يحطمون أصنام المسلمين فيها ان المسلمين يعبدون ثلاثاً مؤلفاً من ترفاغانت Tervagant
ومحمد وأبولون (كل شيء خطر في البال الا نسبة عبادة الثلاث الى المسلمين) ثم ان
قصصاً يسمى قصص محمد Roman du Mohamet ورد فيه ما يفيد أن الاسلام يحبز اشتراك
جلة رجال في زوجة واحدة !

وافقد طال أمد هذه البغضاء وهذه الأباطيل كثيراً منذ أيام «رودلف دولودهم»

Rudolph de Ludheim الى أيامنا هذه أيام « نيقولا دو كوز Nicolas de Cuse
و « فيفيس » Vives و « مراشي » Maracci و « هوتنجر » Hottinger و « بيبليندر »
Bibliander و « بریدو » Prideaux فقد مثل هؤلاء محمداً كرجل كاذب ، والاسلام
كعمل من أعمال الشيطان ، والمسلمين كقوم همج ، والقرآن ككتاب منسوج من أوله
الى آخره بالمحالات . وكانوا يزعمهم لا يجدون حاجة الى الأخذ والرد في هراء كهذا . ثم ان
« بيير لوفنيير ابل » Pierre Le Vénérable مؤلف أول كتاب في أوربا ضد الاسلام ترجم
مع ذلك في القرن الثاني عشر القرآن الى اللاتينية . ثم في القرن الرابع عشر ظهر
« بيير باشكال » فعلم عن الاسلام أكثر من غيره . ثم ان « البابا اينوشانيوس الثالث »
قال عن محمد انه المسيح الدجال . ولكن في القرون الوسطى بدأوا ينظرون اليه كرجل مبتدع
من يقال لهم الهرطقة . ثم ظهر « ريموند لول » Raymond Lulle في القرن الرابع عشر

و«غليوم بوستل» Postel في القرن السادس عشر و«رولان» و«غانيه» Roland & Ganier في القرن الثامن عشر والأب «دوبروغلي» de Brogli و«رنان» Renan في القرن التاسع عشر وكانت أحكامهم في هذا الموضوع متفاوتة ليست على وتيرة واحدة . أما فولتير فقد كان كتب الرواية المسماة برواية محمد وبنائها على غير تحقيق . ثم عاد فصحح قسماً كثيراً مما وهن فيه ، وقد ارتكب «مونتسكيو» Montesquieu بعد «باسكال» و«مابرائش» أغلاطاً كثيرة فيما يتعلق بالاسلام نفسه الا أنه كانت له آراء سديدة وأحياناً عادلة فيما يتعلق بعبادات المسلمين ثم ظهر الكونت «دوبالانفيليه» De Boulainvilliers و«شول» Scholl و«كوسين دوبرسفال» Caussin de Perceval و«دوزي» Dozy و«سبرنجر» Sprenger و«بارتلمي سانتيلير» Barthelemy Saint-Hilaire^(١) و«دوكاستري» de Castries و«كارليل» Carlyle وهؤلاء كانوا على وجه الاجمال موافقين للاسلام وانبى الاسلام ، وربما أثنوا عليهما غير أن «دروتي» Droughtly في سنة ١٨٧٦ و«فoster» Foster سنة ١٨٢٢ قد أخفنا في الطعن في الاسلام وفي محمد . ولا يزال للاسلام الى يومنا هذا أعداء شديداً والعصية

أما المسلمون فانهم وان كانوا من جهتهم قد درسوا في دور ازدهار المعارف عندهم الديانة النصرانية درساً أشبه بدرس فولتير معتمداً على الأدلة السطحية فقد كانوا هم أيضاً يرمون الى التباعد لا الى التقارب . وكانوا لا يريدون أن يبحثوا في النصرانية من شدة ازدرائهم بها . وقد صاروا يلقبون «بالكافرين» أهل الكتاب وتلاميذ عيسى الذين جاء في القرآن أنهم أقرب الناس مودة الى الذين آمنوا . وحتى هذه الساعة يفضل المسلمون أن يروا أولادهم أمواتاً على أن يروهم مسيحيين

فهذه الحواجز الصنعية غير الطبيعية كان علينا نحن أن نهدمها بأيدينا بازالة الأوهام لأن النور يكفى لازالة الأشباح . ويجب علينا أن نفهم أن العبرة انما هي بروح الموضوع فقط . فالعلاقات النسبية لا تزال الحقيقة المطلقة ، والوحى الالهى يخرج من الأفواه البشرية على حسب الأمكنة والأزمنة . فلا يمكن أن تأتينا الحقيقة دفعة واحدة أو أن تهبط علينا كلها كاملة وانما يحجبها ويكمّلها فينا استعدادنا النفسى . قال : ولكل من الديانات المتزلة

(١) هذا الرجل قال ان محمداً من أعظم العبقريين الذين أنجبتهم البشرية

خاصة تمتاز بها . فالاسلام مظهره التوحيد وهيمنة الخالق ، وجبروته ورحمته ، والمسيحية خاصتها المحبة ، والوثنية نفسها لا تنكر الالهية ولكنها تراها تحت أشكال أخرى مبعدة مشوهة ، منحرفة عن الصراط المستقيم ، وبالجملة فالنصرانية تتضمن الاسلام وتزيد عليه بعض أشياء ولكن كلتا الديانتين غير منافضة الاخرى كما يُظن . وكان يجب على أتباعهما بدلاً من أن يتصارعوا ويتقاتلوا أن يتنافسوا في العبادة والفضيلة ونحن نراهم على العكس من ذلك ، لا يشتغلون بتمجيد البارئ تعالى ، كما يشتغلون بمعاداة بعضهم بعضاً

وقد جاء في القرآن شيء من التساؤل عما اذا كان الله نفسه لم يشأ تقسيم البشر مللاً ونحلاً الى حد محدود لكن بدون تعصب وشأن . فقد قال : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً . وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ) ثم يقول : (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) . وقال : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْذِبُ) . والناس حتى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

ثم أخذ درمنغهم يذكر ما في الاختلاف أحياناً من الفائدة وقال ان المبادئ قد تختلف بالضرورة بحسب الزمان والمكان فيكون اختلافها موافقاً للرقى البشرى . وقد كان الأنبياء بحسب التوراة يتزوجون بزوجات متعدّدات . وكان المسيحيون الأولون يقتاتلون الوثنية والأوثان أشد قتال الا أنهم بعد أن زال خطر الوثنية رجعوا يقدمون للقديسين شيئاً من العبادة وهذا ان بقي ضمن حدود الاعتدال ، لا يخلو مما يفيد الحياة الروحية . ولقد منع الاسلام التماثيل والتصاوير فامتدّت صناعة الاسلام في النقش الى ما لا نهاية له في تمثيل المخلوقات غير الحيّة كما أن النصرانية أخذت بالصناعة اليونانية في تمثيل الأجسام البشرية . وكل من الفريقين أتقن الصناعة التي اعتمد عليها ، فكان من ذلك نتيجة سعيدة جداً في باب المدنية ولم تكن كذلك لو بقيت الصناعة منحصرة في طرز واحد

ثم قال درمنغهم ان الفتوحات الاسلامية كانت جزاء وفاقاً للمسيحية الشرقية التي استرسلت الى المجادلات الدينية وطالما كان في العقاب فوائد ، فان ظهور المسلمين في الشرق أهاب بالمسيحيين في أوروبا الى الاتحاد لأنهم وجدوا أنفسهم تحت الخطر ان لم يصلحوا أنفسهم وان لم ينهضوا عن المستوى الذي كانوا فيه

ثم قال ان القرآن يؤيد دائماً التوراة والانجيل فلا يمكنه أن يناقضهما وقد جاء فيه

خطاباً للنبي : (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك
لقد جاءك الحق فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون
من الخاسرين) ثم ذكر درمنغهم قول القرآن في ابراهيم : (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا
وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وعلل ذلك بقوله ،
ان ملة ابراهيم هي ملة جميع المؤمنين بالله

ولقد أثرنا تلخيص هذا الفصل من كلام درمنغهم وان كنا لا نوافق على كل ما فيه بتمامه
وذلك لأن فيه معلومات كثيرة جليلة يجدر بالمسامين أن يطلعوا عليها ومن جللتها الأ كاذب
التي بقى الافرنج قروناً متطاولة يروجونها في حق محمد ﷺ ليصرفوا أنظار شعوبهم عن الاسلام
ومن جللتها اعتراف المؤلف المذكور برغم كونه مسيحياً كاثوليكياً مؤمناً بدينه ان أ كثر
العداوة بين المسيحيين والمسامين انما جاء من قبل المسيحيين . وكأنه يرى ذلك غريباً جداً
من قوم ، يأمرهم متبوعهم الديني بأن يحبوا أعداءهم . ولم يكن درمنغهم الفرنسي هو
الأوربي الوحيد الذي اعترف بأن المسيحيين هم أشد الفريقين عداوةً وشنائاً وان
المسامين أقرب الى التسامح . فقد قرأت هذا في مواضع كثيرة من تأليف الاوربيين ومن
جللتها تأليف اسمه « مائة مشروع تقسيم لتركيا من سنة ١٢٨١ الى سنة ١٩١٣ » للسيو
« دجوفارا » Cent projets de partage de la Turquie (1281-1913) Djuvara
من وزراء دولة رومانيا مصدر بمقدمة بقلم المسيو لويس رينول Renault من علماء
الحقوق بفرنسة . وقد جاءت في المقدمة وفي الكتاب معلومات هي في الدرجة
القصوى من الأهمية قد نلّم ببعضها في المظان اللازمة . وانما نذكر الآن قول « دجوفارا »
في الصفحة الثالثة من كتابه وهو : « ان أردنا أن نعدل ونقول الحق وجب علينا أن نعرف
بأن هناك عداوة قد نزل بها القضاء بين المسيحيين والمسامين وأثقلت دائماً العلاقات التي بين
الفريقين وانه برغم روح التسامح الديني في العصر الحديث لا يزال خبير هذه العداوة بين
هذه الأمم ولا سيما من جهة المسيحيين » وهذا يخالف ما لا يزال يردده بعضهم من ذكر
« التعصب الاسلامي » وضربهم به المثل .

ومن أحسن ما في كلام درمنغهم حسن النية وخلوص الطوية وكون هذا الرجل

عمل بكل ما في قدرته لازالة شدة هذا التنافر الذى بين المسلمين والمسيحيين . ومن يقدر أن لا يحمّد عملاً كهذا لأن عداوات الأديان بما خالطها من مفاصد السياسة ومن مطامع الرئاسة كانت من أعظم المصائب على البشرية . وقد نقل درمنغهم السيرة النبوية عن كتب المسلمين بدون أدنى تحامل ولا تحريف ولا مكابرة ولا محاولة تعمية أو تغطية للحقائق وكان يستنتج ما يريد استنتاجه بحسب ما يؤديه اليه اجتهاده ولكن بدون غرض ولا خبث وفي صفحة ١٨٣ ذكر أنه وان كان بعضهم يعيب محمداً بشدة ميله الى النساء فانه مما لا مشاحة فيه ان محمداً لم يكن شرهاً ولا غوراً ولا متعصباً ولا منقاداً للطامع ، بل كان حليماً رقيق القلب عظيم الانسانية وأحياناً متردداً اذا لم يكن ثمة عنده ما يعتقدّه وحياً ألياً اليه . وكان بشوشاً دمث الأخلاق حسن العشرة ساذج المعيشة يكنس غرفته بيده ويصلح ثيابه ، ويخفف نعله ، ويحلب شياهه ويضطجع في أرض المسجد وينهض ويفتح الباب لأجل هرّه تريد أن تدخل ، ويعالج ديكاً مريضاً ، ويمسح ببردته عرق جواده ويوزع الصدقات بمجرد ما يدخل في يده شيء من المال ويتجنب كل شيء يظهر فيه بمظهر ملك دنيوى . وكان يمنع الناس أن يجعلوه سيداً ولم يكن عنده لا بلاط ولا وزراء ولا شيء من أهبة الملوك وانما كان عنده بعض أعوان يستشيرهم وبعض كتبة يكتبون له وخاتم من فضة منقوش عليه محمد رسول الله

وقال أيضاً ان محمداً كان يقضى أكثر أوقاته في الصلاة سواء في الخلوات أو الجلوات وفي الوعظ وفي الشغل ويقضى نصيباً من وقته مع نسائه ولم يكن يكره التسلّي والتفريح عن القلب ، وفي ذات يوم عرض على عائشة أن تذهب وتشاهد أناساً من السودان يلعبون بالسيف والترس فذهبت عائشة بجانبه وتسلت بهذا المشهد وكان عمر أراد أن يطرد هؤلاء اللاعبين فانتهره محمد وقال له : دعهم فلكل أمة أعياد وملاهي وهذا هو عيدنا اليوم . وكان أبو بكر أراد منع جاريّتين من جواري المدينة من الغناء أمام عائشة لقصائد فيها ذكر الحروب الماضية الا أن محمداً خالفه في ذلك وسمح بالغناء . وكان محمد يحب الأطفال كثيراً ويلعب معهم ويترك أولاد بنته يركبون على ظهره حتى في الصلاة ويلعبون على المنبر وهو يخطب . وكانت مرة فتاة صغيرة لابسة قميصاً أصفر تلعب بين يديه وهو يداعبها ويمدح لها ذلك القميص ويستحسنه فالت اصبعها الى ما بين منكبيه ولمست الشامة

التي يقال لها خاتم النبوة قاتهرتها والدتها فقال لها محمد دعيتها . وكذلك كان يحب أن يضع الحلى للبنات الصغار وقد وضع مرة عقوداً وأسورة ليتيمين من المدينة وتأسف أن لا يكون أسامة بن زيد الحب فتاة فكان يغطيه في الحلى من رأسه الى قدمه وكان يعجب من كون أهل البادية لا يقبلون أولادهم وكان يقول ان البنات يقين والدهن من نيران جهنم . وكان أنس خادم محمد مدة عشر سنوت ملازماً له وكان يذكر عجيب صبره ويقول انه ما وبخه ولا مرة وكان حسن العشرة مع الجميع حتى مع الذين لم يكن رأيهم فيه حسناً ولم يكن ينطق بكلمة غليظة أصلاً . وكان بابه مفتوحاً للجميع الا أنه كان يحب أن يحافظ على خلواته وقد نهى القرآن عن الدخول على الرسول بدون اذن وعن مناداته من وراء الجدران . (يشير

درمنهم الى ماورد في سورة الحجرات : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْعُضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَعْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

ومما قاله وهو بحث جليل أشار اليه ابن خلدون في مقدمته وهو ان سلطة النبي برغم علو منزلته عند العرب لم يكن من السهل اجراؤها دائماً على تلك الأقوام التي هي بفطرتها صعبة القيادة . قال انه قل أن يوجد في البشر رجل مطاع كما كان مطاعاً محمد . ولكن العرب المعتادين الفوضى لم يكونوا يعلمون شيئاً من النظام وكان يصعب عليهم جداً الانقياد فكان من معجزات محمد أن جمعهم جميعاً في دائرة الاسلام . وكان في المدينة المنافقون الذين كانوا في الباطن أعداء للرسول وكان الأنصار الذين لم يكونوا يتفقون دائماً مع المهاجرين وسواء كان الأنصار أو المهاجرون فكان الجميع لا يأتلفون مع الأعراب أهل الوبر وكانت المنافسات والمفاخرات والنخوة سبباً للمخاصمات المستمرة وكذلك كانت تقع المخاصمات من أجل الدعاوى المالية ومن أجل تقسيم الغنائم وكان محمد يصلح جميع هذه الأمور اما بالوحي واما بحسن السياسة . وكانت نزاهته الشخصية مثلاً يقتدون به . وكان محمد شديد الاهتمام بالأعراب وكثيراً ما غنى بايطانهم المدينة وكان يطالبهم بأن يسكنوا في المدينة ولا يعودوا للبادية واقتنى أثره في ذلك الخلفاء الراشدون فكانوا يشددون على البوادي واذا سكن

أحدهم في المدينة لم يسمحوا له أن يبرحها حتى قيل ان بدوياً انتحر من شدة حنينه الى نجبته . وكان النبي يخشى على امته ما يقال له « اللبن » أى عيشة الرعاة وبعبارة أخرى البداوة . فأنت ترى كم ظلم بعضهم الاسلام في اتهمهم اياه بالميل الى البداوة . وطالما أطرى الرسول معيشة المدينة برغم الحنى التي كانت فيها والتي اشتكى منها المهاجرون كثيراً . وطالما تحمل النبي من غلظة البدوى وصبر عليها وقيل ان أحد البدو بال في المسجد فأرادوا أن يضربوه فنهاهم الرسول وقال لهم دعوه وصبوا سطل ماء حيث بال . وجذبه مرة اعرابى^١ جذبة شديدة آذاه بها قائلاً له قل لهم يعطوني نصيباً من مال الله الذي بيدك فالتفت نحوه الرسول باسماً وقال لهم ليعطوه نصيباً . ولا شك في أن البوادي من أبعد الناس عن الديانة وقد ورد هذا المعنى في القرآن كثيراً ولذلك سكان الحواضر أقرب الى الاسلام من سكان البوادي .

ومما قاله درمنغهم : قال محمد ان الشهيد هو الذى يبذل نفسه في غير امور الدنيا وقال أيضاً : الجنة تحت ظلال السيوف . وقال بولس ان الموت هو العدو الأخير الذى سيهدم ولا شك ان الأديان انما تزكو وتنمو بدماء الشهداء فالاسلام في آخر الأمر اختار الجهاد بالسيف لأجل نشر دعوة الحق ولم يكن محمد من الكويكر^(١) بل كان يرى ان من الأشياء مالا مناص فيه عن الجهاد والقتال وانه في هذه الدنيا الملائى بالشرور لا يكون استعمال القوة القاهرة غير جائز الا اذا كان مبنياً على الظلم والبغضاء وليس من الممكن أن يقف الانسان مكتوف الأيدي أمام الشر الصائل . وقد بقى المسلمون مدة عشر سنوات يتحملون ألوان الانتقام في مكة وأخيراً اضطروا الى هجرة وطنهم وسكنوا المدينة . وكانت قريش تأتمر بمحمد لتقتله وتتحدث بمهاجة المدينة للقضاء عليه وعلى الاسلام فمن ذلك الوقت وجب على المساميين أن يقتلوا ويقتلوا وصار القتال في سبيل الله من أفضل القربات ومن طرق الشهادة (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فيقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) ولا يخلو الأمر من مشابهة بين المسلمين الأولين والمسيحيين الأولين في الاستباق الى الشهادة ولا شك في ان الشهيد المسيحى الأول القديس اتيانوس الذى كان يدعو لغاتليه يستحق من الاعجاب أكثر من الشهيد المسلم الأول خييب

(١) طائفة انكليزية تريد الوصول الى الحق بسلام

الذى كان يدعو على أعدائه (ان الرسول طلبادعا أيضاً لأعدائه أن يهديهم ويردهم الى الصواب) ولكن الفريقين كانوا يموتون في سبيل ايمانهم معتقدين بأنهم سيكونون شهداء فالمبدأ واحد ولكن الأحوال مختلفة . ففي السلطنة الرومانية كان المسيحيون الأوائل في بلاد متمدنة ذات ادارة منتظمة رعايا لقيصر الذى أوصاهم المسيح بأن يعطوه ماله فكان لابد لهم من أن ينقادوا لأحكام الدولة كما انقاد سقراط نفسه لحكم دولته . فأما في بلاد العرب التى كانت فوضى وكانت كلها قبائل فى قتال دائم ولم يكن الواحد يخرج الا متقلداً سيفه أو متكباً قوسه فكان لابد بضرورة الحال من أن يلجأ المسلمون الى القتال اذ لم يكن أمامهم غير الأسنة مركباً . وهنا نقل درمنغهم كلاماً عن الميسو ماريتين Maritain فى كتابه « أولية التأثير الروحى » وهو ان المسيحيين فى القرون الأولى من النصرانية لم يكونوا يفكرون فى هدم السلطنة الرومانية لأنهم كانوا عاجزين عن اقامة سلطنة مسيحية مكانها . فلذلك لم يكونوا يفكرون الا فى الحياة الأبدية وفى مصالح الآخرة فكانت ثورتهم عقيمة لاثمرة لها الا مجرد الاضطراب الداخلى فلم يبق أمامهم الا نيل الشهادة وهو فى الواقع أحسن حل للسألة فى مثل تلك الحال التى كانوا فيها .

وكان محمد يقول يجب أن يتم هذا الأمر حتى يقدر الفارس أن يسير من صنعاء الى حضرموت بدون أن يخشى شيئاً سوى الله على نفسه والذئب على غنمه . ولم تكن قضية الجهاد ترمى الى هداية البشر تحت التهديد بالسيف كلا بل جاء فى القرآن : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) . وجاء فى القرآن النهى عن الاعتداء . وكل ماورد فيه مما يتعلق بالجهاد فى آيات متعددة متفرقة هو موقوف على حوادث خاصة معينة وقعت مع النبى وأصحابه . ولا يكون موافقاً للواقع أن يتخذ منها قاعدة عامة يجب تطبيق أحكامها على جميع الأحوال . وما لا ينكر أن الجهاد قد دخل فيه مطامع فى غير الجهة الروحية واتخذ بعض المسلمين وسيلة لكسب حظوظ الدنيا ولكن القرآن يقيم التنكير على هذه الأمور وان كان يسمح بمقابلة الشدة بمنها . وكثيراً ما حلم محمد وعطف وتجاوز عن السيئات . وفى ظفره الأخير قد أظهر من علو النفس ما يندر نظيره فى التاريخ وكان يأمر جنده بأن يتجنبوا الضعفاء والأطفال والشيخ والنساء ويحظر عليهم أن يهدموا البيوت أو أن ينتهبوا الغلات أو ان يقطعوا الأشجار المثمرة وكان يأمرهم بأن لا يسالوا السيوف الا عند الضرورة المطلقة

وكثيراً ما أنكر أعمال بعض أتباعه وجبر مما كسروه وكان يقول لأن يهدي الله نفساً واحداً خير من جميع مكاسب الدنيا (لأن يهدي بك الله رجلاً واحداً أحبُّ إليَّ من حمر النعم). وكانت الغنائم في ذلك الوقت هي نتيجة الحرب الطبيعية وكانت هي والتجارة ورعاية المواشي جميع منابع رزق العرب فبديهي أن يكون محمد أباح الغنائم للمسلمين في حال ضعفهم ولكنه قد جعل للغنائم قواعد وخصص جانباً عظيماً منها بالصدقات وبميرة الجيش وحظر في تقسيم السبي فصل الأولاد عن امهاتهم ولم يكن في وسعه أن ينقل العرب عن طباعهم التي فطروا عليها دفعة واحدة وإنما كان يهذب منها بقدر امكانه وثيراً ما كان يحض على العفو عند المقدرة وقد روى عنه حديث ان الذي يغفر السيئات يقرب من درجة النبوة . ولا ينكر أن كثيراً من الصحابة أصبحوا أغنياء وافرين مما غنموه من كنوز الاكاسرة وفتح مصر وغيرها وكان أناس من البدو قد أصبحوا بتلك الفتوحات يلعبون بحلى الملوك الساسانيين وقيل ان الزبير بن العوام مات عن تركة تبلغ نحواً من خمسين مليوناً^(١) وكان الرسول يقول لأصحابه وهو يفكر في المستقبل ما أخشى عليكم من شيء مثل مكاسب الدنيا الفانية . ولما قتل مصعب بن عمير في وقعة أحد كان من الفقر بحيث لم يجدوا ما يكفونونه به الا خرقه قصيرة لم تكن لتوازي من بدنه الا القسم الأعلى فغطوا سائر بدنه بالعشب . وذكر عند عبد الرحمن بن عوف فقال ، كان خيراً منا نحن الذين أقاض الله علينا من خيرات هذه الدنيا افتراه تعالى اكتفى لنا بها عن الآخرة ؟ وأخذ يبيكي

ثم ذكر درمنغهم في صفحة ٢٧٣ قول « غوته » أكبر شعراء الالمان وهو « ان كان هذا هو الاسلام أفلسنا كلنا مسلمين ؟ »

(١) الصحيح أن الزبير رضى الله عنه لم يترك الا أراضى أمر ولده عبد الله بأن يطرحها للبيع لايفاء ديونه وكان عبد الله ابن الزبير يظن أن ثمن هذه الأراضى لا يكفي لايفاء الديون التي كانت علي أبيه الا أنه عند بيع الأراضى كانت آثانها قد ارتفعت كثيراً فتمكنوا من ايفاء جميع الديون وبقي شيء من الأراضى لورثة الزبير . وكان عثمان ابن عفان وطلحة وعبد الرحمن ابن عوف وغيرهم من الصحابة أصحاب يسار تام وكانت لهم عقارات وأموال ومواش تجعلهم في صف الأغنياء حتى في هذا العصر ولكنهم برغم هذه الثروة كلها لم يكونوا يعيشون معيشة التمتع المعروفة للمتزين بل كانوا ينفقون أموالهم في الدين والبروة والرصد وقضاء مغارم الضعفاء

ثم قال : لا جرم ان محمداً قد نهض داعياً العرب الى الدين الوحيد اللائق بالاله الواحد ليوقظ بدينه هذا جانبا من آسية وافريقية وليحطم قيود التقليد ولينبّه فارس التي كانت نائمة ونصرانية الشرق التي كانت ممزقة بالمجادلات الدينية . ولا جدال في ان الأنبياء في العالم هم أشبه بالقوى الطبيعية العظيمة المحسنة الهائلة التي هي من قبيل الشمس والمطر والزوابع التي تهز الأرض ثم تعطيها خضرة ونضرة . فيجب على الناس أن يعرفوهم بثمرات أعمالهم وأصدق الشهود عليها هي الصدور الناجحة باليقين والقلوب المطمئنة والعزائم الناهضة والنفوس الصابرة على البلاء والاسقام الأدبية الزائلة والصلوات الطاهرة الصاعدة الى السماء .

وهؤلاء الأنبياء منفردين بدون قوة مادة وبدون أيدٍ — سوى الأيدِ الالهى — وبرغم مقاومة الكبر البشري لهم تجدهم يأتون بكشف سر الحرية في أسمى معانيها يقولون بطاعة الخالق لا المخلوق وبالمساواة التامة امام الخالق تعالى وبتقديم المعنى على اللفظ . وهكذا ظهر محمد لا يعرف شيئاً من العلوم غير العلم الأعلى أمياً طاهراً ساذج الطبيعة طليقاً من قيود الأوهام ، فدعا العلماء أن يفهموا ما يقولون ونبه الذين يقال انهم حكماء الى سلوك السبل المستقيمة وكان الناس اذا سمعوا ما ينطق به مثل : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) يعودون فيلمسون سر الحياة الذي يحيط بهم متواضعين لله تعالى متوجهين اليه ويعلمون هناك قاعدة تفرق بين الطاعة والمعصية مما يعجز عن الأتيان بمثله الفلاسفة ومدبرو الممالك .

قال درمنغهم : ان محمداً جاء في أشد الأعصر ظلمات حينما كانت المدينيات باجتماعها قد تداعت الى الخراب من بلاد الغال الميروفنجية الى بلاد الهند وكان الاضطراب شاملاً قسمي محمداً^(١) وتلقب بالنبي الأمي . وكان يرى نفسه أداة للوحى ومبلغاً واعياً يسمع ما يلقي اليه من فم الشخص النوراني الذي يشاهده ومن الصوت الذي يسمعه فيلقيه الى الناس (ما على الرسول الا البلاغ) وهذا الوحى هو الكلمة الالهية القديمة التي هي « أم الكتاب » المحفوظة في السماء السابعة تحرسها الملائكة المسبحون وانما اتخنت بالقرآن قالباً أرضياً — الى أن يقول : اتنا نرى القرآن نازلًا بحسب الوقائع موحى به يوماً فيوماً وشيئاً فشيئاً وفقاً

(١) اشارة الى ما ورد في التوراة من مجيء البارقليط الذي اسمه أحد

للضرورات المتجددة ولمصلحة الأمة وكثيراً ما نسخ منه الآخر الأول بحسب ضعف البشر واجابةً لرغائبهم وعلى كل حال فكانت الرسالة في نظر محمد أسمى من الرسول وكانت سورة واحدة من كلام الله أفضل من النبي وعترته . ولما كان لكل نبي معجزة كانت معجزة محمد القرآن .

ومما لا يقبل المراء ان في القرآن من سحر البيان مالا يوجد في كلام غيره على الاطلاق وان فيه من قوة التأثير والعمل في القلوب مالا يبرح الى اليوم سرّاً مغلقاً حتى انه يقنف بالخشوع في قلب أقل الناس خشية وأبعدهم عن التقوى . وكان محمد يتحدى عبقرية العرب أن يأتوا بسورةٍ من مثله . ولم يكن اعجاز القرآن في مزيته اللغوية من جهة ما يسمى اليوم بالأدب بل كان هذا الضرب مما يحتقره محمد وكان يكره الشعراء ويبرأ أن يكون منهم وانما كان اعجاز القرآن في شدة التأثير وعجز الناس عن الاتيان بمثله

قال درمنغهم : انه لم يبق أدنى شك في صدق محمد . فان جميع حياته برغم بعض أغلاط قد اعترف هو بها تدل على كونه معتقداً بكلية الرسالة التي عهد بها اليه وأنه وجد من الواجب عليه أن يقوم بهذه الرسالة مهما آده من حلقها . وأن جميع ماظهر من هذا الرجل من قوة ايجاد وتناهي عبقرية وحدة ذكاء ومواجهة تامة للحقائق وضبط نفس وشدة ارادة وحسن تدبير واتقان عمل وبالجملة جميع حياته تمنع من أن ينظر الى هذا الملهم الصافي الذهن كرجل مصاب بصرع . اهـ

يشير درمنغهم بهذا الى مايزعمه أعداء الاسلام من كون حركة الوحى التي كانت تحصل للنبي ﷺ انما هي من علة جسمانية فيه قال بعضهم انها مرض الصرع . ولكن أكثر الاور بين اليوم رجعوا عن هذه الفكرة وعلموا أن ﷺ لم يكن مصاباً بمرض الصرع ولا بمرض عصبي آخر وأنه كان معتدل المزاج كامل الخلقة لاشائبة فيه ومن جملة من صرح بهذا القول المستشرق ماسينيون الافرنسي الذي هو كاثوليكي النزعة مثل درمنغهم . أما ما ذكره درمنغهم من أن للنبي أغلاطاً كان هو يعترف بها فالمسلمون يقررون العصمة للنبي ولجميع الانبياء صلوات الله عليهم وذلك في الامور الدينية وهم ينزهونهم عن الكبائر . فوجب ايضاح العقيدة الاسلامية في هذا الشأن . وأما الكاثوليك فيجعلون العصمة للبابا في الامور الدينية شرطاً من شروط دياتهم

ثم قال درمنهم : ان محمداً لم يكن يلتزم أن يجذب قومه الى عقيدته بجميع الطرق ولم يكن همه أن يسهل عليهم الامور ليتبعوا دعوته وانما كان يبلغهم رسالته لامة كالسيف القاطع وكان يفرق بينها وبين آرائه الشخصية . ويقول بعضهم انه لم يكن في المدينة النبي الخاشع الصابر الذي كان بمكة . وجواب هذا ان الاحوال قد تتغير وانه كان حتماً عليه أن يغير من خطته لاجل تثبيت دعوته . وربما يكون أخطأ في بعض أعماله لأن العمل غير النظر ولكنه على كل حال بقي صادقاً في دعوته ثابتاً متيناً وان كان قد أخطأ فانه لم يكذب قط . وكيف يكون قد كذب ورسالاته كانت تتأيد كل يوم وتثمر ثمرات لا تكون الا للحقائق .

قال وكانت عظمة محمد الحقيقية هي العظمة الآتية له من الله بالالهام الالهي الذي كان يقذف في روعه . وأما فيما عدا ذلك فكان يشعر بضغفه وعجزه . وكان يتجهّد الليل ويستغيث بالله ويسأله تعالى دائماً أن لا يخله . وقالت له زوجته أم سامة مرة : لماذا لا تقف تقول هذا والله قد غفر لك ما تقدم وما تأخر من ذنبك . فاجابها : كيف لأخشى الله وقد تخلى مرة عن يونس . وكان يدعو الله قائلاً : اغفر لي ذنوبي الحاضرة والماضية والظاهرة والباطنة وطهرني من آثمي تطهر النجس واغسل قلبي كما يغسل الثوب واجعل بيني وبين الأم مسافة ما بين المشرق والمغرب .

وكان يلقي الى الناس ما يوحى اليه من القرآن من التوبيخ في مثل قصه الاعمي (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنْ اسْتَفْنَى فَآَنَتْ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَحْشَى فَآَنَتْ عَنْهُ تَلَهَّى) وفي مواضع أخرى مثل حديثه في خطاب أعدائه وغير ذلك .

ولقد تفنن بعض علماء النفس من الاوربيين في تفسير حالة محمد والوحي الذي كان يلقي اليه فذهب بعضهم الى أنه صرع وذهب آخرون الى أنه شدة تخيل وكلهم غفلوا عن الوسط الذي كان فيه وعن معيشة الحميم في البادية ونسوا مقتضى البيئة التي كان فيها وما من شك في أن محمداً كان الى وقت بعثته كسائر الناس ليس فيه شذوذ في شيء وكان مزاجه بغاية الاعتدال وكذلك كان بعد البعثة في غاية التوازن الا ما كان يحصل له من التغير عند نزول الوحي .

وهذا شيء غير خاص به بل معهود في جميع الالهيين الحقيقيين وفي أنبياء بني اسرائيل . وقد كان ارمينا يقول : أرى قلبي قد تدسّر وجميع عظامي مضطربة وأراني كالسكران وذلك بسبب الاله والكلمات المقدسة . وكذلك كان عمّوس وهو مدّ نير كما كان محمد مدثراً يقول الكلمات نفسها . ولم يكن يرى محمد تلك المرائي لأنه كان مريضاً بل كانت تحصل له تلك الحالة العصبية من بعد تلك المرائي . ولا شك أنه يوجد تشابه بين المرضى بالامراض العصبية وبين أصحاب المكاشفات من الالهيين الحقيقيين . ويمكن أن يقال ان البنية الضعيفة هي أكثر استعداداً للأحوال الروحية كما أن هذه الأحوال تزيدها ضعفاً . ولكن لم يكن يوجد أثر من هذا الضعف في محمد وبقى الى أن بلغ الكهولة من أكل الناس صحة وأقواهم جسماً . فلم يكن يشعر بشيء الا ما كان يحصل له من التغير في حالة نزول الوحي ، نعم حصل له مرتين أو ثلاثاً شيء من ضربة الشمس على أثر السفر في الضحى وكان هذا يزول بالحجامة أو بالعلق . أما الوحي فكان يحدث له ألماً شديداً كثيراً ما كان يتجلّد له ويخفيه عن الناس بقدر امكانه فلحظ أبو بكر مرة الشيب قد بدأ في لحيته فقال له محمد : انما هي هود والحاقة والقارعة وأخواتها هي التي شيبتنى . وكان يحصل له بعد الوحي ثقل في رأسه يعالجه بالذقات والمراهم ، وكان اذا أحسّ بدنو الوحي يغطّي نفسه ويتنفس تنفساً شديداً ويسمع له غطيظ وتحصل له شدة . واذا كان حتى في الشتاء يتصب منه العرق . وطلب يعلى بن أمية من عمر أن يريه النبي في حال نزول الوحي فجاءه الوحي وهو في الطريق الى مكة وكان أحدهم ألقى سؤالاً عن مناسك الحج فلم يُحر محمد جواباً ثم لم يلبث أن جاءه الوحي وتغطى بغطاء فدعا عمر يعلى بن أمية ورفع الغطاء عن النبي فاذا به يتنفس تنفساً شديداً ووجهه شديد الحرارة . ولما فصح عنه نهض وقال : أين الرجل الذي ألقى على السؤال ؟ ثم أخذ يتلو الآيات النازلة عليه حينئذ وكان نزول الوحي عليه يختلف في الشكل فكان يسمع أحياناً كصلصلة الجرس أو كحفيف الأجنحة أو كدوى غير مفهوم تماماً ولم يكن يعي كل ما يسمع الا بعد انقطاع تلك الجلمية وكان هذا أشده عليه وأغربه مظهراً ، وأحياناً كان الملك يأتيه بصورة بشرية ، كصورة دحية الخلبي وكان من أجل أهل زمانه أو كصورته هو ، وكان يلقي عليه القول فيفهمه بدون عناء ، فكان الوحي بالاجال على شكلين وقد نهى محمد في القرآن عن أن يُحرّك به لسانه ويُجهد نفسه ليعي تماماً الآي التي كانت تلقى عليه

ولم يكن محمد هو الذى صنع القرآن ، ولا كان مُختاراً فى تنزيل الوحي بل كان يطول عهده به ولا يرى شيئاً . وطالما تمنى أن يأتيه الملك فلم يأتيه

الا أن درمنغهم يعتقد ما يعتقد غيره من الاوروبيين من أن القرآن كسائر الكتب المنزلة لم يحرر الا بعد نزوله بكثير وانهم حلوا الناس على نسخة واحدة من المصحف وأحرقوا ما عداها وان كثيرا من الآيات لم يقع فيها الترتيب اللازم وانه لا يعلم بالتمام هل أدخل فى القرآن شئ من الحديث النبوى الذى قاله الرسول من نفسه لا على أنه وحى . وروى أن جعفر قال : انه كان فى القرآن أسماء سبعة رجال من قريش فلم يبق منها الا اسم أبى هب . ثم ان الشيعة يتهمون أهل السنة بأنهم حذفوا من القرآن كل ما كان فيه من الآيات الموافقة لعلى ثم أنهى درمنغهم كلامه فى هذا الموضوع قائلاً انه لا يقدر أن يجزم فى هذه المسئلة وانه على وجه الاجال يرى المصحف الحاضر صحيحاً لا شائبة فيه الا ما يتعلق بترتيب الآيات والسور . ولكنه لا يرى الأحاديث النبوية كلها صحيحة ويجزم بأن قسماً كبيراً منها موضوع وهذا يوافقه فيه كثير من المسلمين

ثم انه يقول ما يلى : ان محمداً لم يكن يقول فى الصفات الالهية ما يقوله المتكلمون أو اللاهوتيون من التعليقات الطويلة بل كان محمداً تملأ بالاله لا يرى حقيقة غير الله فالله عنده هو الحقيقة وهو واجب الوجود . ولم يكن العرب ينكرون وجود الله وانما كانوا يتخيلونه بعيداً عنهم ويتخذون له وسائل من هؤلاء الأصنام فجاء محمد وقلب ذلك الاسلوب فى العبادة وجعل الله حاضراً أمام العقول بدون واسطة وردت تلك الوسائل من أصنام وجنّة وملائكة الى الوزراء وعلم الناس أن الله أقرب الى المرء من حبل الوريد . وكانت عقيدته أنه لا بد من وجود ثابت فى وسط تقلبات الحوادث وكأن خالد يهيم على جميع ما يقع فى هذا العالم ولا حول ولا قوة الى باله وانا لله وانا اليه راجعون والله أكبر والله الأول والآخى والباطن والظاهر والأحد والحقى القيوم ، القادر الخالق ، العلى الكبير ، المالك المجيد ، ذو الجلال والاكرام ، العظيم القوى الصمد ، الحكيم القدوس ، أحكم الحاكمين ، المنعم ، الأبدى ، الوارث ، الشاهد ، المدبر ، الهادى ، الأمين ، الحافظ ، الناصر ، المعطى ، الرزاق ، سميع الدعاء الحاسب ، القابض ، الباسط ، العفو ، الغفار ، الرحمن الرحيم . وكان من عقيدة محمد أن الانسان عاجز عجزاً تاماً أمام الله تعالى وانه لا عذر له بين يديه ولكن الله تعالى يعفو

عن كثير وقد كتب على عرشه أن رجته غلبت نغمته وهو يغفر لمن يغفر ويسر رجوع آثم واحد الى الهدى كسرور اعرابي فقد بعيره في الفلاة وما زال في أثره الى أن وجده أمامه . ومن عقيدة محمد أن الانسان لا يوجد في هذه الدنيا الا لعبادة الله تعالى وأن الله غني عنه وأنه يجب عليه أن يطلب وجه الله تعالى في كل شيء وان كل شيء هالك الا وجهه تعالى وان في اشراق النور الالهى على الانسان سلام النفس الداخلى ورضاها ورضى الله تعالى وأن أصل ذلك كله الايمان وان الوصول الى هذه الحالة يكون بالصلاة وبالايتار أى باعطاء ما يعز على الانسان ولو كان به خصاصة

وأن لم يكن القرآن يقول ما قال يوحنا : ان الله كله محبة فلم يكن محمد يهمل قاعدة أن الله تعالى يحب مخلوقاته كما تحب الأم ولدها . وكان يقول ان الله يُضاعف الحسنات مائة مرة وقد جاء في القرآن : « اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » وكان عنده أن الايمان بدون المحبة وبدون الأعمال يكون ايماناً ميتاً . وكان ينهى عن الغضب والبغضاء والحسد والكبر والغيبة وكان يقول ان أحسن الناس أكرمهم لغيظه « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » وكان يقول ان المسلم من سلم الناس من لسانه ويده . وكان يقول ان المهاجر هو من يفر بما حرم الله ؛ وكان يقول احبوا بعضهم بعضاً في ذات الله ؛ وكان يقول ان العبد ينال رضا الله بالمحبة وانه تعالى قريب من الداعي اذا دعاه وانه رءوف رحيم . وكان يدعو ربه ويقول في دعائه : انى أُلجأت اليك من ضعفى وعجزى أنت يا أرحم الراحمين وملجأ الضعفاء الى من تكفى ان أنت خذلتنى . وكان عنده أن الدين الحق هو العبادة بالعقل وأن الأعمال انما هي بالنيات وان الذى لا يريد أن يترك الكذب ولا يظهر نفسه فأنه في غنى عن صيامه وجاء في القرآن : « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » وجاء في القرآن بشأن الضحايا والقرايين « ان ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » . وكان محمد يقول : انصر أخاك ظالماً أو مظلوما قيل له

يارسول الله فكيف تنصره اذا كان ظالماً . قال : نَزَدَعُهُ عَنْ ظَلَمِهِ . وكان مرة عائداً من غزاة جاهد فيها المشركين فقال رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر في أنفسنا . وقال : يجب أن يحب الانسان جميع الناس وجميع المخلوقات فان أصغر الطير يسبح باري السماوات والأرض يبسط جناحيه

وقد أثرت مواعظ محمد هذه في العرب تأثيراً عظيماً وأحدثت انقلاباً كبيراً في المجتمع العربي وفي البيئة الصحبية وارتفع شأن المرأة عما كانوا عليه وأبطل البغاء وأبطلت المخادعة ولم يبطل الرق ولكن وضعت له شروط . وجعل محمد عتق الرقاب من أعظم الفضائل وقال من أعتق رقبة فان الله يعتق من النار جميع أعضائه . وكان يقول عبيدكم اخوانكم فاطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تحملوهم فوق طاقتهم . وكان ينهى عن أن يقال عبيد وكان يقول لا مؤلى غير الله . وسأله سائل : هل عند الله ثواب على الرافة بالحيوانات ؟ فقال له : نعم ، يثيب الله كل من يروى ظمأ مخلوق ذى قلب ومن حفر بئراً فله ثواب لكل بعر يشرب منها . وطالما نهى محمد عن العنف في سوق الدواب وعن قتل الحيوانات الا لموجب . وذكر ابن عمر من أقواله أن الحيوانات يحضرن يوم القيامة للشكوى من ظلمهن وان امرأة تحدشها هرة في النار بلا انقطاع لأنها أغلقت عليها الباب حتى ماتت جوعاً وان مومساً تدخل الجنة لكونها سقت على حافة بئر كلباً كان سيموت عطشاً .

وقد أقبل المتكلمون والأخلاقون والمتصوفة والفقهاء على أقوال الرسول ومواعظه فأخذوا منها أسس تعاليمهم كل فريق في الجهة التي سار فيها ولكنهم بقوا واضعين القواعد العامة نصب أعينهم . واذا كان وقع بينهم اختلافات فلأنهم قد اعتمدوا على أحاديث مختلفة وكل فريق صحح الحديث الذي يرويه . مثال ذلك القدرية والجبرية في اختلافهم كل فريق يجتهد أن يتوكل على شيء من القرآن والسنة . وهذا بعينه قد حصل بين المسيحيين فتجد في هذه المسئلة الاختلاف بين اللاهوتيين مثل توما الاكويني وبوسويت والجانسينيين والمولنيين (١)

(١) الجانسينيون Jansinistes نسبة الى جانسين رجل هولاندى كان أستاذاً ليلم اللاهوت في باريز في أوائل القرن السابع عشر وله كتاب اسمه « اوغسطينوس » اشتغل في تأليفه نحواً من ٢٠ سنة وشرح فيه مذهب القديس اوغسطينوس في النعمة (اللطف المخزون) والاختيار وعقيدة القضاء والقدر وكان

فالفَرَّان يقول ان كل شيء من الله ولكنه ينسب الشر الى ضلال الانسان وقد تجد فيه ما يقوى حرية الانسان وتجد فيه ما يخالفها . فهنا طرفا السلسلة التي لم يقدر الناس الى اليوم أن يعرفوا الحلقات المتوسطة بينهما . ولأن كان المسمون لا سيما في عصر الانحطاط أخذوا يميلون الى القول بأنه لا خيرة للانسان في أعماله فالحقيقة أن القرآن لا يقول بالجبرية وسأل اعرابي محمداً هل يعقل نفاقه أم يفلتها متوكلاً على الله فقال له : اعقل وتوكل وكان اذا قيل له : اذا كان كل شيء مقدراً عند الله من الأزل فما فائدة السعي ؟ يكون جوابه : اسئروا فيسهل الله لكم الأمور . وبعبارة أخرى : أعن نفسك يعنك خالقك

ومن المأثور عن النبي ﷺ اعْمَلْ لِلْآخِرَةِ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا وَاَعْمَلْ لِلدُّنْيَا كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا . فهذه في الحقيقة هي الحكمة وهي جاع الفضائل كلها . ومن أقوال النبي ما معناه ان أفطن المسمين هو من فكر في أمر الآخرة واستعد لها لما وراءها .

ومن الناس من يقابل الآداب الاسلامية بالآداب المسيحية ويجد هذه أروع من تلك ولا شك أن الاسلام أسمح من المسيحية فيما يتعلق بميول الجسد . وهو لا يطالب الانسان بالمبالغة في قهر نفسه وهو يرى الصلاة أحسن وصولاً الى الله اذا صدرت عن رجل متمتع بلبذاته المشروعة . الا أن هؤلاء الذين يرون الطهارة المسيحية أعلى درجة من الطهارة الاسلامية ينسون تقسم زهاد المسلمين في الطهارة وانهم لا يقولون في هذا الأمر عن أحد من نساك الملل الاخرى . وكذلك ينسون تحريم الاسلام للخمر وفرضه صياماً أشد من كل صيام آخر وتشديده على النساء في صيانة عفتهم وفي ملابسهن ما لا يشدده دين غيره . وفي هذه المقاييس بين الأديان لا يجوز الاكتفاء بالنظر الى المبادئ نفسها بل يجب النظر أيضاً الى أحوال الزمان والمكان . فلما كان المسيحيون في أواخر الدولة الرومانية المنغسة في الترف كانوا يتجنبون الشهوات التي ابتلى بها غيرهم . ولما ظهر الاسلام على يد أولئك الأعراب البداءة الذين كانوا في شدة من العيش أسرعوا في اللذات بقدر سذاجتهم الا أنه

مذهبه هذا موافقاً لمذهب المصلح البروتستانتي كلفين وغير مطابق لحرية المرء في الاختيار وقد تبعه في ذلك علماء مشاهير منهم باسكال من أعظم المبشرين الذين ظهروا في فرنسا . وكان مولين اليسوعي يقول بخلاف قول جانسين فاقسم اللاهوتيون الى قسمين واشتد الخلاف وطال ودخل في أدوار مختلفة ولكن الكنيسة قصت على العقيدة الجنسية)

لما تكون المجتمع الاسلامي وتأنطد مست الحاجة الى كبح عنان الشهوات البدنية وظهرت
الزعة الصوفية وعلا مقام الزهد

ثم قال درمنغهم : ان القرآن ردد كثيراً معنى كون الدنيا زائلة ومتاعاً قليلاً وانها لم
تكن الا ممراً للآخرة . وكان سامان الفارسي يقول ما قاله باسكال وهو أن المؤمن أشبه
بالمريض الذي يمنعه الطبيب من أن يأكل ما يلذه لأنه يضره . وكان النبي يقول : لو علمتم
ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً . وعاد النبي اعريباً مريضاً فقال له : هذا تطهير لك . فقال
له الاعرابي : بل هذه حجة ستأخذني الى القبر . فقال له النبي : هذا الذي أردته . وكان النبي
يتعبد كثيراً ويقنت ويجمع نساءه ويعظهن . وكان أصحابه كثيراً ما يتعبدون ويتقشفون
وقد بالغ بعضهم في العبادة والزهادة والصوم الى أن نهاهم النبي عن هذا الغلو في العبادة وفي
قهر الأنفس .

ولم يكن محمد يرى خيرات هذه الدنيا علامة على المحبة الالهية وكان يقول لأصحابه :
ما أخشى عليكم شيئاً أكثر من خيرات الحياة العاجلة (وما عند الله خير وأبقى) . فقال
له أحد أصحابه أيمن أن يأتي من الخير شر فتوقف محمد في الجواب وكأنما جاءه الوحي وأخذ
العرق يتصب منه ثم سأل قائلاً : أين السائل ؟ ثم قال له : أترى شيئاً من خيرات هذا العالم
يستحق هذا الاسم . وكان يقول ان خيرات هذا العالم ليست بخيرات ان لم تكن آتية
بطريق حلال ولم تكن تُنفق في سبيل البر فان لم تكن كذلك فهي باب للشر وان أغناكم
في هذه الدنيا سيكونون أفقركم في الآخرة ان لم يكونوا أنفقوا أموالهم في سبيل الله . وكان
يقول : ان جهنم تقول بملء فيها : اني أنا أضمر المتكبرين والأغنياء والجبارين . وكثيراً
ما كان محمد ينهي أصحابه عن الطمع في الدنيا ويدمر على الذين يجمعون الأموال ويحرصون
عليها وعلى المرايين وعلى التجار الذين لا يراعون وجه الله في مكاسبهم وعلى الحكام الذين
يميلون مع الأغنياء في أحكامهم . وكانوا في صدر الاسلام يكرهون الترف والتنعيم في الدنيا
وربما وصلوا الى تحريم كل ثروة تزيد على اللازم الضروري في حياة الانسان . نعم انهم
فيما بعد لم يتقيدوا بهذه القاعدة ولكن روح الاسلام الأصلية كانت هي هذه وكانت عظمت
محمد شديدة التأثير في أصحابه حتى انه وصف عذاب القبر مرة فكاد الحاضرون يضعقون من
هول الوصف . وكان يجد أيضاً في وصفه صوراً في غاية الرقة تدخل الى أعماق القلوب اذا

وصف رحمة الله التي لا تنهاه وما أعد من النعيم للمتقين

وقد أشار درمنغهم في آخر كتابه عن النبي ﷺ الى تعدد أزواجه وأورد هنا ما يعترضه المعارضون لينقصوا من قدره ﷺ فقال انه كسائر سادات العرب استكثر من النساء فتزوج ببعضهن عن مجرد عاطفة ، وتزوج ببعضهن ليتألف بزواجه قلوب القبائل وتكلم عن زواجه بزینب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة الذي كان النبي قد تبناه وكان مراده بذلك أن لا يجعل من يتبناه الانسان في حكم ابنه الحقيقي ولا يحرم عليه التزوج بمطلقة . وقال درمنغهم ان محمداً وان كان وسع دائرة الحلال فقد ضيق دائرة الحرام . ثم استوفى درمنغهم سيرة النبي ﷺ بدون أدنى تحامل وان كنا لا نتفق معه في جميع الأفكار . ولم نكن الآن لنستوفي ترجمة كتابه كله وانما نريد أن نختار منه بعض مواضع على سبيل الاستشهاد لأن الكاتب المذكور لم يكن مسامحا لنقول انه كان ينتصر للإسلام حمية على دينه ولم يكن من الكتاب الاوربيين المعروفين ببغض النصرانية ليقول انه انما امتدح الاسلام بسائق بغضائه للدين المسيحي . وانما كان درمنغهم هو من الكتاب المسيحيين المعتقدين بدينهم ولذلك نقلنا كلماته على ما هي عليه ، بدون أن نجتهد في تحقيق ما أخذها من السنة ورواية الأحاديث الواردة في المواضيع التي تكلم عليها . فانظر كيف يقول عن قضية النساء في الاسلام : ان الاسلام قد رفع شأن المرأة في بلاد العرب وهذه قضية لا تقبل المراء وكان عمر يقول اننا لم نكن نعدّ نساءنا شيئاً في الجاهلية ولم نزل كذلك حتى نزل كلام الله في حقهن . وكان الرسول يقول ان أفضلكم أحسنكم معاملة لزوجته . وكان يوصي النساء بأن يكنّ طوع ارادة أزواجهن ولكنه كان يشدد جداً على من يغلظ في معاملتهن وينهى عن تزويج البنات بدون ارادتهن وكان يقول : ان أجر الانسان في الاتفاق على زوجته أكثر من أجره في الصدق على الفقراء أو الجهاد في سبيل الله . وكان يقول : اذا وضع الزوج يده في يد زوجته تساقطت الذنوب من بين أصابعهما . وكان يقول الجنة تحت أقدام الأمهات . وكان النسوة في الجاهلية لا يرثن شيئاً فجعل محمد للمرأة نصف حظ الرجل في الارث ، ومنع القرآن وأد البنات . وكان لا يمل من التوصية بالنساء والأيتام وتكلم عما يعدّه الله من الثواب لمن ربّى أمة وحرّرها وتزوجها وقد أجاز محمد تعدد الأزواج ولم يكن يمكنه غير ذلك في بلاد ابراهيم ولكن محمداً لم يأمر بالتزوج بأكثر من واحدة

واشترط القرآن العدل التام بين النساء حتى لو أعطى الزوج لاحدى نسائه ابرة وجب أن يعطى مثلها للآخرى وأجاز الطلاق ولكنه قال انه ما من حلال أكره الى الله تعالى منه (أبغض الحلال الى الله الطلاق) ولا يجوز أن ننسى أن الشريعة الموسوية في العهد القديم لم تكن تمنع تعدد الزوجات فان كان الاكتفاء بزوجة واحدة قد صار هو القاعدة في النصرانية فما ذاك الا لأن الاكتفاء بالزوجة الواحدة كان هو المألوف في البلاد الغربية التي انتشر فيها الدين المسيحي

وتنقل درمنغهم على «دوكا سترى» في كتابه الاسلام صفحة ١٠٩ قال: مما لاشك فيه بحسب قول ريفيل Réville اتنا اذا نظرنا الى الزمان والمكان اللذين وُجد فيهما محمد لم نجد اصلاً أشرف ولا أجراً من الاصلاح الذي قام به محمد بحق النساء فالمرأة في الشرق مديونة كثيراً لمحمد. وأما مونتسكيو في روح الشرائع فقد قال: ان تعدد الزوجات في الشرق واحتجاب النساء والبلوغ قبل الوقت ودخول النساء في الهرم قبل الوقت، كل ذلك من الأمور التي نشأت عن تأثير الاقليم.

ثم قال درمنغهم انه هناك محل نظر في الاعتراض على تعدد الزوجات في الاسلام فهل هذا التعدد الرسمي هو أسوأ من التعدد غير الرسمي^(١) ومن محاسن تعدد الزوجات منع البغاء وتيسير الزواج لجميع النسوة بحيث تصان الأعراض يقول درمنغهم هذا، ولكن يغلب عليه مشربه الغربي فيقول: كنا نود لو ان محمداً لم يجز تعدد الزوجات أصلاً. وينكر درمنغهم أشد الانكار قول بعض الناس بأن المرأة ليس لها مقام في الاسلام ويقول ان هذه التهمة أشبه باتهام النصرانية أنها جعلت المرأة ملعونة وأصلاً ومنبعاً للشروع. قال: ويكفي أن يذهب الانسان الى بلاد الاسلام ليعلم ما هناك من محبة عائلية وحرمة للنساء خلافاً لما يتقوّل به بعض الاوربيين. ثم ذكر درمنغهم في آخر كتابه حجة الوداع وقال ان النبي شعر بدنو أجله فخطب المسلمين في ذلك اليوم خطبة وداع وقال لهم: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» وكأنه علم ان امته ستشرع عقيدته في الخافقين

وقد وقع ذلك بالفعل وخرج العرب ففتحوا الأقطار واختلطوا بالشعوب ولم يكن يخلو عملهم من شدة ولكنهم كانوا على جانب عظيم من الحكمة وكان فيهم استعداد ليرثوا ممالك

(١) يشير الى ما عليه القوم في أوروبا من المخادنة

الفرس والروم المحتضرة ولم يكونوا كالفاندال والجرمان في الميل الى العبث والتدمير فتناولوا مصاييح العلم من أيدي الروم والفرس وساروا بها في فتوحاتهم فكان الاسلام في احدى يديهم والمدنية اليونانية والفارسية في الأخرى. وكانت الخلافتان الأموية والعباسية من أجد أدوار التاريخ. وقد نجح الاسلام في دعوته لأنه كان مستحقاً للنجاح فانه قد أتى الشرق بالعلاج الذي كان هذا يحتاج اليه. وقد تحمل المسلمون قبل الهجرة ما تحملوه من الانتقام حتى اذا ظفروا عاملوا أعداءهم بالتسامح

نعم ان الشرك لم يكن ليعفو الاسلام عنه. ولكن أهل الكتاب أى اليهود والنصارى كانوا أحراراً أن يعيشوا في بلاد الاسلام متمتعين بحقوقهم. وكان محمد يقول من أذى ذمياً كنت خصمه يوم القيامة. وانا نرى القرآن والأحاديث ملاءى بالنهي عن الاكراه في الدين. وقد عمل الفاتحون المسلمون بهذه القاعدة وما دخل الناس في الاسلام أفواجاً الا لما رأوا فيه من التسامح ولما دخل عمر الى القدس لم يسمح بالحاق أذى بالمسيحيين وترك لهم كنائسهم بأيديهم وأحسن معاملة بطريقهم وأبى أن يصلى داخل كنيسة القيامة لئلا يأتي المسلمون فيدعوها قال: فلنقابل بين هذه المعاملة وعمل الصليبيين عندما دخلوا الى القدس وذبحوا المسلمين وغاصت الخيل في الدماء الى صدورها. قال رؤبرتسون: ان أتباع محمد هم الأئمة الوحيدة التي جمعت بين التحمس في الدين والتسامح فيه أى أنها مع تسكها بدينها لم تعرف اكراه غيرها على قبوله. وقال الأب ميشون Michon في كتابه «رحلة دينية الى الشرق»: انه من المؤزن للأمم المسيحية أن يتعلموا التسامح الديني من المسلمين. قال درمنغم 'ن في هذا الكلام مبالغات لان النصرانية أيضاً تأمر بالتسامح الديني وأحياناً تفوق الاسلام في ذلك. ولكن المبالغة أيضاً واقعة في اتهام الاسلام بالتعصب. وقال الشيخ محمد عبده ان التوراة والانجيل والقرآن كتب متطابقة وبها يتم التعليم الالهي وتشرق الديانة الحق. وقال مونتس Montaigne: اتنا نشط كل النشاط ونفعل العجائب عندما تكون أنفسنا متنزعة الى الشرور من البغضاء والقسوة والطمع والشح وحب التدمير وبكس ذلك تفتر همتنا في الخير وحب الاعتدال وقد وجدت دياتنا لمنع الرذائل فكانت النتيجة أن صارت هي التي تحميها وتغذيها

وقد يكلم درمنغم عما كان يفهمه من رسالته الى الخلق فقال انه خلق أمراً ناهياً لكنه لم يكن يتقاضى الناس الطاعة لأوامره الا كواسطة يبلغهم أوامر الله تعالى. وكان يقول

ان الأمر لله وحده وكان ينهى الناس أن يعاملوه معاملة الملوكة . وقد ظن بعض من كانوا من أعدائه في البداية انه لما فتح مكة سنتقلب المسئلة من النبوة الى الملك لكنهم أخطئوا في هذا الزعم وبقى محمد على مشربه الأول من سداجة الحال . وكان يقول : لست ملكاً ولكنني رجل من قريش . ولم يسكره الظفر ، بل عفاً عندما قدر ، ولم يكن المال ولا شيء من غنائم هذه الدنيا ذا قيمة في نظره وكان يفضل عليها كلها اهتداء رجل واحد الى الاسلام . ولم يكن يؤله الا شيء واحد كان يجده في أعماق نفسه وهو عدم فهم الكثيرين للمقصود من رسالته وانضمام كثيرين اليه لاحقاً بها بل التحاقاً بالحزب الغالب . وختم درمنهم كتابه بقول الأب دو بروغلي De Broglie في كتابه « أسرار تاريخ الديانات » وهو : « جاء في التوراة أنه من اسمايل يخرج شعب عظيم هكذا في سفر التكوين » . فانتشار الاسلام هو من جملة ما أنجز الله به وعده لأبي المؤمنين

تعليل المؤرخين الاوربيين لسقوط مملكة فارس

والمملكة الرومانية بيد العرب

أكثر المؤرخين الاوربيين يعالون سقوط مملكة فارس وجانب عظيم من السلطنة الرومانية في أيدي العرب بهذه الأسباب التي ذكرها ستودارد . ثم يذكرون لنجاح العرب السريع أسباباً من شهامة العرب وميلهم الى مكارم الأخلاق ، وسرعة قبولهم للدين ، وحسن جمعهم بين السيف والقلم وبين الخشونة والركة . وبعضهم يعترف بتأثير العقيدة الاسلامية في هذا النجاح ، ويقدر قدر سواغها في العقول السليمة وخلوها من الأسرار غير المفهومة ، الا أن أعداء الاسلام يعيبون عليها هذه المزية ويجعلون خلوها من غير المفهوم « سداجة » ويعبرون عن ذلك بلفظة « Simplisme » وكثيراً ما تقرأ هذا الوصف في انتقادهم للاسلام ويكررونه كثيراً وهم يزعمون ان انتشار الاسلام بين الأقوام الذين لا يزالون على الفطرة الأصلية ، انما سببه هذه السداجة في تعاليمه . وبالجملة أعطوا المنطق السيد اسم « سداجة » وجعلوا السائق في العقل السليم نازلاً عن درجة الاسرار التي تعلو شأن الأديان بكونها غير مفهومة بزعمهم وركبوا بهذا مركباً صعباً أصبح مركزهم فيها حرجاً ، لاسيما في هذا العصر الذي بدأ فيه أتباع الأسرار غير المفهومة يقولون شيئاً فشيئاً ، وصار المطالبون بالدليل والنازعون الى الجلاء هم امة المستقبل

الحضارة الاسلامية ورقى العرب الفكرى فى القرون الوسطى

للشيخ

- العواصم الاسلامية وعمرانها فى آسية وافريقية والأندلس
- العلوم والفنون والصناعات
- أقوال المستشرق ما كس مايرهوف الألمانى فى كتابه « العالم الاسلامى »
- فن العمارة الاسلامية

اتفق المؤرخون العصريون من أهل أوربة ، على أن بغداد فى القرن الثالث للهجرة كانت أرقى مدن ذلك العصر حضارةً ، وأزخر عمراناً ، وأعظم ثروة ورفاهية ، وأن هارون الرشيد كان أكبر سلاطين ذلك الدهر ، وأن عبد الرحمن الناصر فى القرن الرابع كان أرقى ملوك الغرب من مسلمين وافرينج ، وكانت الأندلس فى أيامه أرقى الممالك كلها .
ويحسن أن أنقل هنا جملة مختصرة حررتها فى رسالتى : « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ » وهى هذه :

« قد بلغت بغداد فى دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال الحضارة ، واستبحار العمارة وتناهى الترف والثروة ، ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها الى هذا العصر ، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان ^(١) وكانت البصرة فى الدرجة الثانية عنها وكان أهلها نحواً من نصف مليون .

وكانت دمشق ، والقاهرة ، وحلب ، وسمرقند ، واصفهان ، وحواضر أخرى كثيرة

(١) وهو عدد يندر اليوم فى سكان كبريات العواصم

من بلاد الاسلام ، أمثلة تامة وأقيسة بعيدة في استبحار العمران .

وكانت القيروان ، وفاس ، وتلمسان ، ومرا بكش في المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول أو يناظرها مناظر أو أن يكثرها مكاثر في أوربة حتى هذه القرون الأخيرة . وكانت قرطبة مدينة فذة في أوربة لا يدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف نسمة . وكان فيها نحو من ألف وسبعمائة جامع ، عدا المسجد الأعظم الذي لما زرته في هذا الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قبل الحكومة الاسبانيولية ، انه يسع بحسب القياس المضبوط خمسين ألف مصلى في الداخل ، وثلاثين ألفاً في الصحن ، جملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين !

ولما ذهبنا الى قصر الزهراء ، رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلما أنها تمتد على مسافة تسعمائة متر طولاً ، في ثمانمائة متر عرضاً . والأسبانيول يقولون لها : مدينة الزهراء . وقال لي المهندسون الموكلون بالحفر في آثارها ، انهم يرجون الاتيان على كشفها كلها من الآن الى خمسين سنة . وحسبك أن غرناطة التي كانت حاضرة مملكة صغيرة ، في آخر أمر المسامين بالأندلس لم يكن في أوربة في القرن الخامس عشر المسيحي بلدة تضاهيها ولا تدانيها ، وكان فيها عندما سقطت في أيدي الأسبانيول نصف مليون نسمة ، ولم يكن وقتئذ في أوربة عاصمة تحتوي نصف هذا العدد . وجراء غرناطة لا تزال يتيمة الدهر الى اليوم . هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الاسلام وغرر أيامه . والا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلود الكثيرة المرصوفة طبقاً فوق طبق .

وأنا أضيف الى ذلك هنا أن المهندسين الأسبانيول الذين أشرت اليهم ، ذكروا لي أنهم كانوا قد ألّفوا لجنة مهندسين طافت في جميع أسبانية للتنقيب عن آثارها القديمة ومبانيها ، فأحصت عدد القلاع التي فيها سبعة آلاف قلعة وحصن ، ثلاثة أرباعها من بناء العرب ، وأنهم لحظوا حصون العرب كلها مبنية على خطوط واحدة يحمي بعضها ظهر بعض يمتد كل خط من الحاضرة من احدى جهاتها ويليه خط آخر من جهة أخرى ، وخط آخر من جهة أخرى وهم جرا وكل خط تجد الحصن فيه على مساواة الحصن سلسلة متصلة الى ثغور الافرنجة .

وتأمل فيما قاله « كلود فارير » الكاتب الفرنسى المعروف فى مقدمة مجموعة اسمها « افريقية الشمالية » جعت فيها صور أبدع مبانى العرب فى تونس والمغربين الأوسط والأقصى وهو هذا :

« قصور وجوامع وأبراج وحواضر مألثة جميع هذه الأرض التى انتزعها نبيّ الاسلام من ذرية سيبين الرومانى . لعمرى أن المسلم هو خلافاً لما يزعمه كثير من الجاهلين ليس بالرجل المدمر . بل انك تجد من تونس الى طنجة وفى فاس وفى مكناس ومراكش ، كما فى القاهرة والقيروان ، بدائع آثار عربية مألثة فى كل محل بجانب بدائع آثار رومانية تزيدها ولا تنقصها » .

ثم وصف من جلة ما وصف من آثار العرب فى المغرب ، مدرسة دخلها من مدارس فاس ، فقال انها كأجل ما وجد من هياكل يونان القديمة ، لأن جميع قوانين منطق البناء مرعية فيها أشد الرعاية . وقال الكاتبان الفرنسيان المعروفان جيروم وجان تارو : « من لم يشاهد مقبرة الملوك السعديين فى مراكش لم يدرك الى أى أمد وصلت مدنية الاسلام من البداعة » .

واقرأ فى « الاستقصا فى تاريخ المغرب الأقصى » عن آثار الموحدين ثم آثار المنصور السعيدى فى مراكش تجد فيه ما تقرُّ به الأعين .

وأهمُّ من هذا فى هذا الباب « كتاب اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس » تأليف المؤرخ العلامة الفطريف الشريف ابن الشريف أمير العلماء وعالم الأمراء مولاي عبد الرحمن بن زيدان رئيس العائلة السلطانية فى المغرب الذى فيه أوسع وصف لمباني جده مولاي اسماعيل الكبير ، سلطان المغرب الذى استمرت سلطنته نحواً من خمس وستين سنة ، وبنى فى مكناس وغيرها من القصور والابرار والحصون ، ونسق من الجنان والحدائق ، ما ندر أن سمى الى مثله همة ملك من ملوك العالم .

ومن أجادوا فى وصف العمارة الاسلامية الفيلسوف الفرنسى « غستاف لوبون » المشهور فى تأليفه المتعددة وفى الأيام الأخيرة « رينه غروسه » الذى اشتهر فى علم المدينة الشرقية .

وقد ظهر حديثاً عن المدينة الاسلامية في المغرب كتاب تمتع اسمه « مرا كش ومدن الفن » Le Maroc et les villes d'art طنجة ، وفاس ، ومكناس ، ومراكش ، والرباط ، مؤلفه « پيار شامبيون » Pierre Champion قد حوى من هذا الباب خلاصة ما يلزم وتضمن ٢٢٧ صورة من صور المباني الممتازة برونقها ، وبداعة انشائها في بلاد المغرب الاقصى ويظهر ان المؤلف اطلعاً على العربية لنقله كثيراً من الفصول عن تواريخ المغرب ، « كلاستقفا » و « روض القرطاس » وغيرها ، فضلاً عما نقله عن ابن خلدون الذي لقبه بارسطو القرن الرابع عشر . ولقد كان أكثر ما حدث عنه مباني المرينيين في فاس ، والموحدين والسعديين في مراكش ، والانديلسيين في الرباط

« ومما ذهب اليه أن صناعة البناء في المغرب ترجع الى أصول غربية بيزنطية ، وقوطية وسورية ، جاءت من الشرق الى القيروان ، فتلسان ، فالاندلس ، ثم عادت أدراجها من الاندلس الى افريقية . قال وان ما عليه الناس اليوم في المغرب هو أن صناعة البناء وزخرف المساكن انما هي صناعة أندلسية في أصلها وان أحسن قصور المغرب وأبهائه هو ما بناه الصناع الاندلسيون . قال وقد كان هذا هو الرأي من زمان ابن خلدون الذي ذكر من جملة كلامه أن فن البناء انما يبقى محفوظاً في الخواضر الكبيرة ، التي يزخر عمرانها ، وأنه في زمانه انما هو محفوظ في الاندلس . فالصناع الاندلسيون لا يعملون في بلادهم فقط بل تجدهم يعملون في تونس ، والقاهرة ، وغيرها وانك لتعرفهم من سائر أهالي البلدان الأخرى »

ولعل الفقرة التي لخصها « شامبيون » هذا عن ابن خلدون هي ما يلي نقلاً عن المقدمة :

« وأما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من الحضارة ، واستحكمت به عوائدها بما كان لمولتهم من الاستيلاء على بلاد الاندلس ، وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعاً وكرهاً ، وكانت من اتساع النطاق ماعلمت ، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ، ومعظمها من أهل الاندلس ، ثم انتقل أهل شرق الاندلس عند جالية النصارى الى افريقية ، فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثاراً ، ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر ، وما ينقله المسافرون من عوائدها ، فكان بذلك للمغرب وافريقية حظ صالح من الحضارة الخ »

أو هو قد استخلصها من هذه الفقرة الثانية من كلام سيد فلاسفة الاجتماع وهي :

« وهذا كالحال في الاندلس لهذا العهد ، ، فاننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ماتدعو اليه عوائد أمصارها ، كالمباني ، والطبخ ، وأصناف الغناء واللهو ، ومن الآلات ، والأوتار ، والرقص ، وتنضيد الفرش ، في القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء ، وصوغ الآنية من المعادن ، والخزف ، وجميع المواعين ، واقامة الولائم ، والأعراس ، وسائر الصنائع التي يدعو اليها الترف وعوائده ، فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها ، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم ، فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار وما ذاك الا لرسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط ، وما بعدها من دولة الطوائف وهلم جراً . فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر الا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضاً لطول آماد الدول فيها ، فاستحكمت فيها الصنائع ، وكملت جميع أصنافها على الاستجداء والتنميق ، وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران ، لا تفارقه ، وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال ، وان كان ذلك دون الاندلس ، الا انه متضاعف برسوم منها تُنقل اليها من مصر ، لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من قطرهما الى قطر مصر في كل سنة ، فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الاندلس ، لما ان أكثر ساكنيها من شرق الاندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة الح »

وبعد أن نقل المسيو شامبيون ما نقله عن ابن خلدون في هذا الباب قال ان الصناعة المغربية والصناعة الاندلسية هما من أصل واحد ، وان كثيراً من القصور والبنائات في العدوتين هي شقائق وأخوات مثل مدارس فاس ، وفصر اشبيلية ، وجرآء غرناطة ، لكنه عاد فقال ماملخصه : ان مباني فاس تمتاز بالصلابة عن مباني اسبانية ، فان قصور اسبانية يكثر فيها الحصن والجبصين والقرميد ، وانك تجد جدرانها مغطاة بهذه الأشكال ، وانه يكثر فيها تقليد تعاريج الكهوف ، وتضاريس الفيران ، وخلايا النحل ، وما أشبه ذلك وكله مصنوع في المادة الرخوة التي تجمد فتصير كالحجر ، وليس الأمر كذلك في المغرب ، فان الطريق فيه هي النحت في الحجر رأساً ، وتمتاز صناعة البناء في المغرب بكثرة الخشب الذي يتفننون في تزيينه

وترصيعه وتوشيعه الى النهاية ، ويساعدهم على ذلك وجود خشب الأرز الكثير في جبال الأطلس ، وهو الخشب الذى لا يفنى . وأنهى المسيو شامبيون كلامه فى هذا الموضوع بعدما ذكر بدائع المغرب لاسيما آثار بنى مرين قائلاً ، ان آثار المغرب قد بقيت محفوظة أكثر جداً من آثار الأندلس .

قال ونحن فى المغرب بازاء صناعة مدنية قديمة قد تداعت الى السقوط ، الا أنها لاتزال ماثلة وهى الصناعة الأندلسية . ولقد كانت تمتاز بالصلابة والمتانة فى عصر الجهاد الاسلامى السابق ثم ازدادت ميلاً الى النحافة فى القرن الرابع عشر ، ثم كسبت رونقاً لامعاً فى القرن السادس عشر ، ثم كسبت عظمة وقوة تأثير فى القرن السابع عشر ، ولكنها عادت فانهدرت فى أواخر القرن الماضى . وهذا التقسيم يؤيده المسيو برسيير ريكار Prosper Ricard الذى هو من المتخصصين فى معرفة الصنائع الوطنية فى المغرب . ثم ذكر فى محل آخر أن المغرب القديم لا يزال حياً ، وأن من جال فيه يجد أحيانا من طرائفه القديمة ما يجذبه بل ما يدهشه ، فانه قطر طويل عريض ، تنكسر على سواحه الغربية أمواج الاطلنطيك المتلاطمة وفيه السهول الواسعة الممتدة بحذاء جبال من أعلى جبال الأرض ، تشرق عليه شمس شديدة اللعان الا أنها لطيفة الوقع ، وهناك أمة ذات جبال قديم كما وصفها بهذا الوصف أوجين دولاكروا Eugène de La Croi تلبس أطهاراً بالية الا أنها أطهار شريفة ، وأينا ذهبت فى قراها وأريافها تجد من المناظر ما يؤثر فى النفس ، ويعيد لك ذكرى التوراة . وتجد فى المدن جوعاً وأعياداً ومواسم مستمرة ، تخيل لك تلك البلاد متحفاً دائماً مفتوحاً . وأهم من كل شئ هذه الحواضر الكبيرة المعمورة التى هى كلها تقريباً مدن صناعة وفن ، وكأن المدن كلها أسواق مضت عليها القرون تلو القرون ، وهى مدخر للأرزاق ، والمؤونات والمواعين والأدوات ، تصونها صيانة الكنوز جدران عالية وأسوار شاهقة فكل هذا يؤثر فى النفس ويعلق فى القلب ويجعل هذه الحواضر المغربية شخصية خاصة بها . (انتهى ملخصاً)

ولم يقسم لى الحظ أن أزور بلاد المغرب وأرى آثار الموحدين والسعديين فى مراکش وبنى مرين فى فاس والاندلسيين فى الرباط ومولاي اسماعيل فى مكناسة وهو الذى آثاره تحاكي آثار رومة العظمى ، كما قال بعض الأفرنج ، وانما بعد السياحة الى الأندلس بمكنت من زيارة طنجة وتطوان ، ومكثت فيهما أيام قلائل برغم انقباض الفرنسيين من وجودى .

هناك ، فشاهدت في طنجة من المباني السلطانية ما يستحق التنويه ، ولكن قصر الوزير المنبهي في جبل مرشان من تلك المدينة الفريدة في نحر البحر ، التي هي طنجة ، هو قصر نادر المثال في دقة الصناعة ، ونية الزخرف ، وتمثيل المدينة العربية بأبهى مظاهرها ، وقد شاهدت في تطاون أيضاً من منازل سرات البلدة كآل بنونه ، وآل الطوريس ، وغيرهم ما خيل لي أنني لم أزل في الأندلس بين أبهاء غرناطة أو مقاصر اشبيلية ، وراقني جداً أن الحكومة الأسبانية شادت داراً للعجزة ومدرسة للصنائع وغير ذلك على النسق الأندلسي المغربي المستقبض في أبنية أكابر المغرب ، وما لا ينكر في هذا الباب أن المارشال ليوتي الذي هو أعقل مستعمر أفرنسي ولربما كان أعقل مستعمر أوروبي على الإطلاق ، قد بذل جهده أيام تمثيله الحكومة الفرنسية في المغرب في المحافظة على الآثار العربية القديمة وفي احياء صناعة البناء العربي الأنيق بحيث تجددت فيها الرغبة ووضعت فيها الكتب وتقيدت منها النفائس بالتأليف والتخليد مما يمكننا أن نذكره بالشكر ، لأنه من قبيل الانصاف الذي طبعت الجلبة البشرية على استحسانه وياليت الأوربيين اطرذوا الانصاف في سائر الأمور

ويعجز عن أراد أخذ صورة مجملة في موضوع العمران الاسلامي أن يقرأ « تاريخ التمدن الاسلامي » لزيدان و « حضارة الاسلام في دار السلام » لجليل المنور ، وغيرهما من الكتب الملخصة . وقد أوردت أنا بعض أمثلة في هذا الموضوع في رحلتي الحجازية المسماة « بالارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الموقر مطاف »

ولما كان أعداء الاسلام يريدون أن ينتقصوه بأي شكل من الأشكال ، فقد حاولوا انكار أن يكون له مدينة خاصة به وزعموا أنه مازاد على أن نقل ونسخ ، وما أشبه ذلك من الأقاويل . ولقد رأيت أن أنقل أيضاً الى هذه الحواشي جملة أوردها في رسالة « لماذا تأخر المسلمون » وهي هذه :

« وكما حرر المؤرخون الاوربيون تحت عنوان « مدينة الاسلام » كتباً قيمة وبمجاميع صور تأخذ بالأبصار . وان أشد مؤرخي الافرنجة تحاملاً على الاسلام لا يتعدى أن يحاول التفسير من شأن مدينته ، بانكار كونه هو أبا عنترتها . فقصرى هذه الفئة أن يحبسوا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً ، وسبقوا الى نظريات صارت خاصة بهم ، وغايتهم أن

يقولوا ان المسلمين لم يزيدوا على ان نقلوا وأذاعوا ، وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب ، وهذا القول على اطلاقه مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها ، وحقائق كشفوها ، وآراء سبقوا اليها ، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه ، وما وشوا طرازه ودبحجوه ، وما نشروه من قبره وما نقلوه . ولنفرض انهم أخذوا عن غيرهم فمن استرق شيئاً ، وقد استرقه ، فقد استحقه .

وبعد فلا يعلم الخلق مدنية واحدة من مدنيات الامم الا وهى رشح مدنيات سابقة ، وتراث أقوام درجوا ، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية ، ومجموع نتائج عقول مختلفة الاصول ، ومحصول ثمرات الباب متباينة الأجناس .

وانى لناقل هنا بعض ماقاله المستشرق المحقق « ماكس مايرهوف » الألمانى الذى أتقن هذا الباب فى كتابه « العالم الاسلامى » Le Monde Islamique وهو من نظار المؤرخين ومن كبار الأطباء . فالاستاذ « مايرهوف » يقول ماملخصه : ان العرب لم يحملوا معهم الى العالم لدن الفتوح الا اللسان العربى الذى كان اذ ذاك ، برغم ثروته ، وتعدد مناحى التعبير فيه ، محتاجاً الى الألفاظ العلمية . فبدأ العرب أولاً بخدمة اللغة ، ومن أجل فهم القرآن وضعوا علم النحو . ثم اتقنوا علم الرواية لأجل حفظ أشعارهم من الجاهلية فما بعد . ونبغ منهم بعد الاسلام شعراء كبار مثل عمر بن أبى ربيعة ، والأخطل ، وجبرير ، والفرزدق ، ثم أبو العتاهية ، وابن المعتز ، وأبو تمام ، والمتنبى وغيرهم . قال : وعلى وجه الاجال ، فشعر العرب لا يلائم ذوق أهل الغرب ، فان مبالغت شعرائهم فى أوصاف محاسن الغوانى ، واغراق أبطال البادية فى المفاخرة ، ليس مما تستعذبه أذواقنا . وبكس ذلك الوزن ، وحسن النسق ، وملكة التعبير التى عند العرب فهى عذبة الى الغاية وانه من الممكن للشاعر العربى أن يقول ماشاء من طوال القصائد على روى واحد ، ثم ذكر « مايرهوف » فن التصوير ونحت التماثيل ، وقال : انه لا يوجد فى القرآن منع صريح لهذه الفنون ، الا أنه يوجد فى الأحاديث النبوية ما يمنع تمثيل المخلوقات الحية ، وهو لا يجزم بصحة اسناد هذه الأحاديث ، ويعتقد أن هذا التحريم راسخ الى الاسلام عن شريعة موسى . وعلى كل حال ، فقد تأبى المسلمون أن يمثلوا البشر بالحجر ، وخصروا صناعة التصوير فى المخلوقات غير الحية وفى

« م ٨ - اول »

النباتات . قال : وقد وُجِدتْ أبنية من صدر الاسلام مثل قُصَيْرِ نَحْمَرَة ، الذي يرجع تاريخه الى بنى أمية ، وفيها تماثيل يدل وجودها على أنهم لم يكونوا يتشدّدون في منع التمثيل الى الحد الذي وصلوا اليه فيما بعد . فأما الشيعة ، فقد ذكر « مايرهوف » أنهم لا يتخرجون من قضية التصوير ، واستدل على ذلك بالدول الشيعة التي لم تكن تمنعه أصلاً . قال وقد أفضى منع صناعة التصوير والتمثيل الى حصر جهود مهندسي الاسلام في اتقان صناعة البناء وذكر في هذا الباب أمثلة ، منها قببة الصخرة في المسجد الأقصى ، وبين ما أخذ أسلوب البناء في الاسلام ، وتتبع تاريخ هندسة البناء الاسلامية ، والأطوار التي مرت بها ، وأورد أمثلة من آثار سامراء ، والرقّة ، وجامع ابن طولون بمصر وجامع القيروان بأفريقية ، وجامع قرطبة بالأندلس ، وجامع تلمسان في الجزائر ، وذكر صناعة البناء الاسلامية في بلاد العجم ثم في بلاد الترك ، وأورد أمثلة بارزة كجامع الفاتح في القسطنطينية ، ثم جامع السلطان سليم في أدرنة الذي هو من هندسة سنان المشهور ، وقال : ان لسان هذا ثلاثمائة وثمانية عشر أثراً من أجل الآثار . ولم ينس « مايرهوف » ذكر حراء غرناطة ، وقال : انها من أشهر مباني الدنيا ، وشهد أيضاً بتناهي الذوق في صناعة بناء المساجد الاسلامية الحديثة في شمال افريقيا

قال : وبالرغم من حرمة التصوير في الاسلام فقد ازدهرت هذه الصناعة في القرن الثامن للمسيح في العراق وفي فارس ، وكانوا يخرجون كثيراً من الكتب المصوّرة ، وهذا ناشئ من عدم تشديد الشيعة في منع التصوير . ولكن اعتماد المسامين في النقش والتزيين كان على تمثيل الخلائق غير الحية ، وقد أتقنوا هذا الفن الى الغاية ، سواء في الحجر أو في الخشب أو في النسيج ، وأورد في هذا الموضوع فوائد قلماً توجد في الكتب ، وكنا نود لو فسح المقام لايرادها ، ولكن هذه الحوائث لا تسع كل ما يجب الاطلاع عليه ، الا أننا نتقل عنه ما ذكره بشأن ترصيع النحاس والفولاذ ، وتخريم الذهب والفضة ، فقد قال ان أسواق اصفهان ودمشق والقاهرة آتت في هذا الموضوع ببدايع تفوق الوصف ، ومثلها حفر العاج وتقطيع البلور ، وزخرفة الآنية ، وتطريز جلود الكتب ، فانها بأجمعها صناعات امتاز بها المسلمون ، وقدمهم فيها أهل ايطالية وهكذا دخلت الى أوربة .

قال : ومن الصناعات التي أتت بها الاسلام الى الغرب صناعة الورق ، وقد أخذها

المسلمون عن الصين . وفي سنة ٧٩٤ مسيحية أنشئ في بغداد أول معمل للكاغذ ، وانقطع استعمال الرق والبردى . وقد كانت صنعة تجهيز الطيوب والعقاقير والتجارة بها من خصائص العرب . وأظهر « مايرهوف » اعجاباً شديداً بمهارة العرب في الأخذ والعطاء وبعدهم في التجارة ، وقال انهم كانوا يستجلبون الجلد والفرو من أقاصى البلاد الشمالية كالروسية وبلاد السكنديناف ، يستدل على ذلك بكثرة ما وُجد من النقود العربية في تلك البلاد . قال : وانهم كانوا يركبون البحار ويبلغون أقاصيها . فقد وصلوا الى أقصى جنوبى افريقيا جنوباً ، والى جزائر الخالدات غرباً ، والى الهند والصين شرقاً .

قال : وان العرب وسائر الشعوب الاسلامية من غير العرب بلغوا شأواً بعيداً في علم التاريخ . نعم انه يوصف مؤرخو الاسلام بعدم طلاوة الروايات ، وبضعف ملكة النقد ، ولكنهم حريصون جد الحرص على تقييد جميع ما يسمعون ، وضبط شوارد التاريخ وهم بالاجال ثقات فيما يروونه لا سيما عما شاهدوه في زمانهم ، فتواريخهم عمدة لا يستغنى عنها لأجل معرفة تاريخ القرون الوسطى ، وقد ذكر من مشاهير مؤرخيهم الطبرى ، والمسعودى ، وابن مسكويه ، وابن الأثير ، وأبا الفداء ، والمقرئى ، والسيوطى ، ثم ابن خلدون ، وقال عن هذا انه فيلسوف واجتماعى أكثر مما هو مؤرخ .

ثم ذكر « مايرهوف » تاريخ الفلسفة العربية ، وهو لا يخرج عما رواه سائر المؤرخين من أنهم نقلوا فلسفة يونان ، وترجوا كتب هذه الأمة ، وقال : ان أول فيلسوف عربى هو الكندى وجاء بعده الفارابى وهو تركى الأصل ثم جاء بعدهما ابن سينا وهو فارسى ثم اشتهر من فلاسفة العرب ابن رشد من أسبانيا ، وقد ألف هذا كتباً كثيرة لم يبق أصلها العربى ولكن بقيت تراجمها اللاتينية . قال : وكان لكتب فلاسفة العرب أعظم تأثير فى اللاهوت المسيحى ، وقد كان فلاسفة العرب يرمون الى التوفيق بين الفلسفة اليونانية ومبادئ الدين الاسلامى

ثم ذكر علم الطب فقال ان العرب قلدوا فيه اليونانيين أيضاً ، وذكر مشاهير أطباء العرب كالرازى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن زهر ، وأبى القاسم الزهراوى ، وقال : ان طب العرب كان يعمل به أهل أوربة فى القرون الوسطى ، وأشار الى كتاب طبقات الاطباء لابن أبى أصيبعة الذى ترجم فيه أربعمائة طبيب منهم كثير من اليهود والنصارى .

قال : وان فضل العرب في الكيمياء قد فاق فضلهم في الطب مع بلوغهم في هذا غاية بعيدة : وان معرفة الحوامض المعدنية ، والأمونياك السائل ، وغير ذلك من المواد الكيماوية انما بدأت عندهم : فالعرب في علم الكيمياء كما في علم الطبيعيات كانوا معتمدين على التجارب وهكذا تمكنوا من كشف حقائق كثيرة

قال : وأما في الرياضات فان العرب فاقوا أساتيدهم اليونانيين ، وناهيك ان علم الجبر اسمه عربي ، وان محمد بن موسى هو الذي وضع هذا العلم سنة ٨٣٠ ميلادية ، كما ان البيروني الفارسي وضع علم المثلثات سنة ١٠٠٠ وقد كان للعرب الفضل في وضع ما يسمى : « بالجيب والسهم » و « الخط المماس للدائرة » ، وهم الذين اخترعوا الاسطرلاب ، ووفقوا به الى اقيسة فلكية وأرضية في غاية القيمة . وقد عرفوا أيضاً دائرة الأرض بحسب ما هدتهم اليه تحقيقاتهم هذه ، وهم الذين أدخلوا الأرقام الهندية الى أوربة ولذلك تسمى بالأرقام العربية . ثم ذكر طول باعهم في علم الفلك ومن اشتهر من الفلكيين منهم والامراء والملوك الذين كانوا يُعنون بهذا العلم ويننون المراصد الفلكية وتكتب لهم الأزياج . قال : وقد عرف فلكيو العرب حركة الأرض حول الشمس ولكنهم لم يوفقوا لتبنيها لعدم اطلاعهم على قانون جاذبية مركز الأرض الذي انكشف لغاليله فيما بعد . قال . وقد ألف ابن الهيثم المتوفى في القاهرة سنة ١٠٣٩ ميلادية كتاباً في علم المناظر مفصلاً ، لم يبق منه الا ترجمته اللاتينية ، ولهذا العالم الكبير مؤلفات في المراءى الكروية والعدسية وغيرها ، ثم ذكر اختراعات كثيرة لهم في الميكانيكيات وقال ان كتبهم في هذا الفن كانت مشهورة في القرون الوسطى . قال : وان اتساع العالم الاسلامي قد أوسع معارف العرب الجغرافية فحدوا العروض والاطوال ، واتخذوا ابرة المغناطيس ، وذكر منهم مشاهير الجغرافيين كالادريسي وأبي الفداء ، والقزويني ، والدمشقي ، ثم ذكر أصحاب الرحلات المشهورة كابن جبير وابن بطوطة وأثنى كثيراً على كتاب « معجم البلدان » لياقوت . قال : وكانت للعرب اليد الطولى في زمانهم في علوم المعادن والنباتات والحيوان ، وكانوا يعتمدون في جميعها على التجارب ، وقد تلقى الغرب عنهم معارف وعلوماً كثيرة ، وعرف ما لم يكن يعرفه في ذلك الوقت الى آخر ما قرره الدكتور « مايرهوف » المذكور وهو المائي الجنس ، مشهور بطب العيون ، وله اليد الطولى في الاستشراق ، وقد أثنى لي عليه وعلى معارفه كثيراً المستشرق الاشهر « سنوك هيركرونييه »

الهولاندى ، وعلمت ان الدكتور ملير هوف مقيم اليوم بالقاهرة . وأكثر ما أعجبني من كلامه فى وصف علوم العرب قوله انهم كانوا يعتمدون فى العلم على التجربة وهذا يخالف مذهب بعض الشعوب المتنطعين الذين لا يفتأون يقولون ان العرب كانوا يعتمدون فى علومهم على الأسلوب الغيبي ، وعلى التخيلات ، وما أشبه ذلك من الأقاويل الفارغة .

لماذا الاسلام راق بذاته

والشعوب الاسلامية غير راقية ؟

وأقوال البرنس جيوفانى بورغيز Giovanni Borghese الايطالى والفيلسوف كوندوسه Condocet الفرنسى فى المقارنة بين نظام الاسلام والكشلكة

للامير شكيب

نشر البرنس « جيوفانى بورغيز من مشاهير رجالات ايطاليا منذ بضع عشرة سنة كتاباً جليلاً أسماه « ايطاليا الحديثة » أحاط فيه بجميع الموضوعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والأدبية المتعلقة بايطاليا وذ كر كل ما يهم ايطالياً معرفته وعند ما وصل الى المثل الأعلى الادبى صفحة ٢٧٥ نقل فقرة من كتاب « تقدم العقل البشرى » للفيلسوف الديموقراطى الفرنسى « كوندوسه » جاء فيها ما يلى مترجماً بالحرف :

« سأذكر كيف أن ديانة محمد التى هى أبسط الديانات فى قواعدها وأقلها استحالة فى شعائرها وأكثرها تسامحاً فى مبادئها تظهر كأنها هى السبب فيما عم قطعة كبيرة من الكرة الأرضية من عبودية دائمة وبلادة ملازمة على حين أننا سنرى تألق أنوار العلم وأشعة الحرية تحت ظل أشد انحرافات استحالة وفى محيط التعصب الدينى البربرى » انتهى

قال البرنس بورغيز : ان مراد الفيلسوف كوندوسه بالانحرافات المستحيلة والتعصب الدينى البربرى هو الكشلكة . ولنترك الآن الخوض فى أفكاره هذه الشخصية بحق الكشلكة وهو المعروف بمبادئه الثورية الشديدة ولنكتفى باقراره بالدور الاجتماعى

العظيم الذى ادارته الديانة الكاثوليكية . قال بورغيز : « ان هذا الدور كان من العظمة الى ما لا نهاية له فبينما قواعد الكشلكة تنى بحاجة الخلق الى النظام العام فبإيديها الأدبية قد حررت المدنية الاوربية من الرق ووطدت كرامة العائلة ومقام المرأة بالاكتفاء بالزوجة الواحدة وألجت الاثرة البشرية بدعوة البشر الى مشاطرة المتألمين فى آلامهم » اه
ونحن نترك أيضاً للبرنس بورغيز تقديراته هذه بشأن الكشلكة ولا نعترضه فيما ليس من بحثنا ولكننا تسكلم على هذا اللغز الذى أعيا كثيراً من علماء الاجتماع حله وهو تأخر المسلمين فى الأعصر الأخيرة رغم الوسائل الكثيرة التى يقيضها الدين الاسلامى للترقى . وحقيقة الحال أن لجميع الأمم عثرات ونهضات ان تصفحت التاريخ لا تجد أمة قد خلت منها وقد كانت دياتتها فى دورى التأخر والتقدم واحدة . ولما كنا قد حررنا فى هذا البحث رسالة نشرناها فى العمام الماضى تحت عنوان « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم »^(١) فالتنا نحيل من شاء معرفة جوابنا فى هذا الموضوع عليها . ولا نرى بأساً فى أن ننقل الى « حاضر العالم الاسلامى » فصلاً منها عنوانه « مدينة الاسلام » فان كثيراً من الناس يوردون ذلك الاعتراض على الاسلام ويقولون ان الشجرة تعرف من ثمارها :

مدينة الاسلام

أما زعم من زعم أن الاسلام لم يتمكن من تأسيس مدينة خاصة والاستدلال على ذلك بحالنه الحاضرة ، فهو خرافة يموه بها بعض أعداء الاسلام من الخارج ، وبعض جاحديه من الداخل . أما القسم الأول فلاجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الاوربية ، وأما القسم الثانى فلاجل أن يزرعوا فى العالم الاسلامى بذور الاخلاص ، ونحن لا ننكر تأثير الدين فى المدينة ولكننا لا نسلم بأنه يصح أن يكون لها ميزاناً ، وذلك لأنه كثيراً ما يضعف تأثير الدين فى الأمم فتتفلت من قيوده وتفسد أخلاقها وتنهار أوضاعها ، فيكون فساد الأخلاق هو غلة السقوط ، ولا يكون الدين هو المسؤول : وكثيراً ما تظروا عوامل خارجية غير منتظرة فتتغلب على ما أثلته الشرائع من حضارة وتزلزل أركانها ، وقد تهدمها من بوايها ،

(١) « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم » وهو جواب اقتراح كتب لمجلة المنار خاصة وطبع فى رسالة خاصة سنة ١٣٤٩ وأعيد طبعه للمرة الثانية فى ١٣٥١ وهو من خير ما كتب فى هذا الباب « الناشر »

ولا يكون القصور من الشريعة . فتأخر المسامحين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة بل من الجهل بالشريعة ، أو من عدم إجراء أحكامها كما ينبغي . ولما كانت الشريعة جارية على حقها كان الاسلام عظيماً عزيزاً

ومدنية الاسلام قضية لا تقبل المباحكة اذ ليس من أمة في أوربة سواء الألمان أو الفرنسيين أو الانكليز أو الطليان إلخ الا وعندهم تأليف لا تحصى في « مدنية الاسلام » فلو لم تكن للاسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه ، مبنية على كتابه وسنته ما كان عاماء أوربة حتى الذين عرفوا منهم بالنحامل على الاسلام يكثر من ذكر المدنية الاسلامية ومن سرد تواريخها ، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدينيات ، ومن تبين الخصائص التي انفردت هي بها .

فالمدنية الاسلامية هي من المدينيات الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام ، والتي تنص سجلاتها الخالدة بآثارها الباهرة . وقد بلغت بغداد في دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال العمارة ، واستبحار الحضارة ، وتناهي الترف والثروة ، ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها الى هذا العصر ، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان . وكانت البصرة في الدرجة الثانية عنها ، وكان أهلها نحو نصف مليون .

وكانت دمشق والقاهرة وحلب وسمرقند واصفهان وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الاسلام أمثلة تامة ، وأقيسة بعيدة في استبحار العمران ، وتطاول البنیان ، ورفاهة السكان وانتشار العلم والعرفان ، وتآمل الفنون المتهدلة الأفنان ،

وكانت القيروان وفاس وتلمسان ومراكش في المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول أو يناظرها مناظر ، أو أن يكثرها مكاث في بلدان أوربة حتى هذه القرون الأخيرة . وكانت قرطبة مدينة فذة في أوربة لا يدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف مليون نسمة ، وكان فيها نحو سبعة آلاف جامع عدا المسجد الأعظم الذي لما زرت في هذا الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قبل الحكومة الاسبانيولية : انه يسع بحسب مساحته خمسين ألف مصل في الداخل و ٣٠ ألف مصل في الصحن ، فجملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين .

ولما ذهبنا الى آثار قصر الزهراء رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلمنا أنها

تمتد على مسافة تسعمائة متر طولاً في ثمانمائة متر عرضاً، والاسبانيول يقولون: مدينة الزهراء وقال لى المهندسون الموكلون بالحفر على آثارها: انهم يرجون الاتيان على كشفها كلها من الآن الى خمسين سنة . وحسبك أن غرناطة التى كانت حاضرة مملكة صغيرة فى آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن فى أوربة فى القرن الخامس عشر المسيحى بلدة تضاهيها ولا تدانيها وكان فيها عندما سقطت فى أيدي الأسبانيول نصف مليون نسمة . ولم يكن وقتئذ عاصمة من عواصم أوربة تحتوى نصف هذا العدد ، وجرء غرناطة لا تزال يتيمة الدهر الى اليوم هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الاسلام وغرر أيامه ، والا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون فى الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلود الكثيرة ، المرصوفة طبقاً فوق طبق

وكم حرر المؤرخون الاوربيون تحت عنوان « مدنية الاسلام » كتباً قيمة ومجاميع صور تأخذ بالأبصار . وان أشد مؤرخى الافرنجة تحاملاً على الاسلام لا يتعدى أن يحاول التصغير من شأن مدنيته ، وأن ينكر كونه أبا عذرتها . فقصارى هذه الفتة أن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً وسبقوا الى نظريات صارت خاصة بهم ، وغايتهم أن يقولوا ان المسلمين لم يزيدوا على أن نقلوا وأذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب . وهذا القول مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها وحقائق كشفوها وآراء سبقوا اليها ، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه ، وما نشروه ونقلوه ، ومن استرق شيئاً وقد استرقه فقد استحقه .

وبعد فلم نعلم مدينة واحدة من مدنات الارض الا وهى رشح مدنات سابقة ، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية ، ومجموع نتائج عقول مختلفة الاصول ، ومحصول ثمرات ألباب متباينة الاجناس

الرد على حساد المدينة الاسلامية المكابرين

أينسى حساد الاسلام والمكابرون فى عظمة فضله ، الزاعمون أنه انما نقل وتعلم وقد واقتدى وانه انما صلى وراء غيره : أن المدينة الشرقية يوم ظهر الاسلام كان أخنى عليها الذى أخنى على لبد . وأنه هو الذى جدد لها وأحيا آثارها ، وأقال غناها ؟ وأنها بعد ان كانت

قد اُحت ولحقت بالغابرين، أبرزها من اصدافها، وجلاها من بعد ان كانت ملفوفة بغلافها، ونشرها بالخافقين، وبلغها كفلق الصبح لكل ذى عينين، وأضنى عليها لباس الاسلام الخاص، ودبجها بديباجة القرآن، التي لم تفارقها في شرق ولا غرب، ولا سهل ولا وعرة، حتى حل ذلك كثيراً من علماء الافرنج ممن لم يعمه الهوى، ولم يحد في التحقيق عن مهيع الهدى، على أن اعترفوا بان مدينة الاسلام لم تكن نسخاً ولا نقلاً وانما هي قد نبعت من القرآن، وتفجرت من عقيدة التوحيد؟

فأما ما ترجمته حضارة الاسلام من كتب، وما أخذته عن غيرها من علوم، وما أفادته في فتوحاتها من منازع جيلة، وطرائق سديدة، فلا يقدح ذلك في بكارتها الاسلامية، ومسحتها العربية، لان هذا شأن الحضارات البشرية باجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض، ويكمل بعضها بعضاً، فالعلم الحقيقي ينحصر في هذا الحديث الشريف: « الحكمة ضالة المؤمن ينشدها ولو في الصين »^(١) وهذه من أقدم قواعد الاسلام

وعلى كل حال لا يقدر مكابر أن يكابر ان الاسلام كان له دور عظيم في الدنيا سواء في الفتوحات الروحية أو العقلية أو المادية، وان هذه الفتوحات قد اتسقت له في دور لا يزيد على ثمانين سنة، مما أجمع الناس على أنه لم يتسقى لأمة قبله أصلاً. وكان نابليون الأول لشدة دهشته من تاريخ الاسلام يقول في جزيرة ستيهلانة: ان العرب فتحوا الدنيا في نصف قرن لاغيره

وتأمل أيها القارئ في أن قائل هذا القول هو بونابرت الذي لم تكن تملأ عينه الفتوحات مهما كانت عظيمة:

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

فهذا رجل عظيم جداً استعظم حادث العرب الذي لم يسبق نظيره في التاريخ، وقد بقى دور العرب هو الأول في وقته، ولبشوا وهم المسيطرون في الأرض، لا يضارعهم مضارع، ولا يغالبهم مغالب، مدة ثلاثة قرون أو أربعة. ثم أخذوا بالانحطاط، وجعلت ظلالهم تنقلص

(١) هذا مضمون حديثين أحدهما « الحكمة ضالة المؤمن خيث وجدها فهو أحق بها » رواه الترمذى من حديث أبي هريرة، ورواه غيره بمعناه مع اختلاف في اللفظ. والثاني « اطلبوا العلم ولو بالصين . فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه العقيلي وابن عدى والبيهقي وابن عبد البر عن أنس وفيه عند الأخير زيادة أخرى في فضل العلم وله طرق يقوى بعضها بعضاً

عن البلدان التي كانوا غلبوا عليها شيئاً فشيئاً ، وذلك بفتور الهمم ، وديب الفساد الى الأخلاق ، ونبد عزائم الدين ، واتباع شهوات الأنفس ، وأشد ما ابتلوا به التنافس على الامارات والرياسات ، — ولا سيما بين القيسية واليهانية — مما لولاه لدانت لهم القارة الأوربية بأجمعها ، وكانت الآن عربية كما هو المغرب . فالمصائب التي حلت بالمسلمين انما هي مما صنعتهم أيديهم ، ومما حادوا به عن النهج السوي الذي أوضحه لهم القرآن الذي بلما كانوا عاملين بمحكم آيه علوا وظهروا وكانت لهم الدول والطوائف ، فلما ضعف عملهم به وصاروا يقرأونه بدون عمل ، وانتقادوا الى أهواء أنفسهم من دونه ، ذهبت ريحهم ، وولى السلطان الاكبر الذي كان لهم ، وانتقصت الأعداء أطراف بلادهم ، ثم قصدوا الى أوساطها . ولنضرب الآن بعض أمثلة عن الأمم الأخرى لأجل المقابلة بيننا وبينهم اذ كانت بضدها تتبين الأشياء

— اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها —

كان اليونانيون قبل النصرانية أرقى أمم الأرض أو من أرقى أمم الأرض ، وكانوا واضعي أسس الفلسفة ، وحاملين ألوية الآداب والمعارف ، ونبغ منهم من لا يزالون مصابيح البشرية في العلم والفلسفة الى يوم الناس هذا .

وكان الاسكندر المكدوني أعظم فاتح عرفه التاريخ أو من أعظم الفاتحين الذين عرفهم التاريخ ، حاملاً للأدب اليوناني ، ناشراً لثقافة يونان بين الأمم التي غلب عليها . وما كانت دولة البطالسة التي لمعت في الاسكندرية بعلمها وفلسفتها الا من بقايا فتوح الاسكندر . ثم لم تزل هذه الحالة الى أن تنصرت يونان بعد ظهور الدين المسيحي بقليل ، فزدانت هذه الأمة بالدين الجديد بدأت بالتردى والانحطاط ، وفقد مزايها القديمة ، ولم تزل تنحط قرناً عن قرن ، وتندهور بطناً عن بطن ، الى أن صارت بلاد اليونان ولاية من جلة ولايات السلطنة العثمانية . ولم تعد الى شيء من النهوض والرقى الا في القرن الماضي ، وأين هي مع ذلك الآن بما كانت قبل النصرانية ؟

أفيجب أن نقول ان النصرانية كانت المسؤولة عن انحطاط يونان هذا ؟؟
ان القائلين بان الاسلام قد كان سبب انحطاط الأمم الدائنة به لا مفر لهم من القول بان النصرانية قد أدت أيضاً الى انحطاط يونان التي كانت من قلبها عنوان الرقى

ثم كانت رومية في عصرها الدولة العظمى التي لا يذكر معها دولة ، ولا يؤبه في جانب صوانها لصولة ، ولم تزل هكذا هي المسيطرة على المعمور الى أن تنصرت لعهد قسطنطين . فند ذلك العهد بدأت بالانحطاط مادة ومعنى ، الى أن انقرضت أولاً من الغرب ، وثانياً من الشرق . ولم تسترجع رومية بعد انقراض الدولة الرومانية شيئاً من مكاتها الأولى ، وبقيت على ذلك مدة ١٥ قرناً حتى استأنفت شيئاً من مجدها الغابر . وما هي الى هذه الساعة ببالغة ذلك الشأو الذي بلغته أيام الوثنية

أفنجعل تنصر الرومان هو العامل في انحطاط رومة وتدرجها عن قمة تلك العظمة الشاهقة ؟ لقد قال بهذا علماء كثيرون كما قال آخرون مثل هذه المقالة في الاسلام ، وكلا الفريقين جازئ حائد عن الصواب

فان لسقوط الرومان بعد فشو الدين المسيحي فيهم ولسقوط اليونان من قبلهم بعد أن تقبلوا دعوة بولس الى النصرانية أسباباً وعوامل كثيرة من فساد الأخلاق ، وانحطاط ألهمم ، وانتشار الخنى والخلاعة ، وشيوع الأخلاق والاباحة ، ومن هرم الدول الذي يتكلم عنه ابن خلدون ، وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية منضمة اليها غارات البرابرة من الخارج ، فكانت ثمة أسباب قاسرة مؤدية الى السقوط الذي كان لا بد منه ، فلو فرضنا أن النصرانية لم تكن جاءت وقتئذ لم يكن الرومان ولا اليونان نجوا من عواقب تلك الحوادث ولا تخطتهم نتائج تلك الأسباب

فدعوى بعض المؤرخين الأوربيين أن تغلب المسيحية على اليونان والرومان أخنى على عظمتها ، وذهب بمدنيتها ، ليس فيه من الصحيح الا كون الأوضاع الجديدة تذهب بالأوضاع القديمة ، سنة الله في خلقه ، وانه في هيعة هذا التحول لابد من اضطراب الاحوال وانحلال القواعد واستحكام الفوضى ، والا فلا أحد يقدر أن يقول ان الوثنية أصلح للعمران من النصرانية (١)

(١) علماء المسلمين يعتقدون أن النصرانية على ما طرأ عليها من الوثنية بالتشليل الوثني القديم أصلح لأنفس البشر من الوثنية الخالصة ولكنها ليست أصلح ولا أقبل للعمران المدني الذي تتنافس فيه أوربة وغيرها لأنها ديانة مبنية على المبالغة في الزهد والخضوع لكل حكم دينوي ، والعمران لا يتم ولا يسمو الا بالسيادة والملك والنفى ، ومن قواعد الانجيل أن الجبل اذا دخل في تهب الابرّة فالغنى لا يدخل ملكوت السموات ،

وهذه الدعوى كانت تكون أشبه بدعوى أعداء الاسلام الذين يزعمون ان الشرق كان راتعا في بحاج العمران ، فجاء الاسلام وطمس المدينيات الشرقية القديمة !! لولا أن الحقيقة هي كما قدمنا ان المدينيات الشرقية كانت كلها قد انقرضت أو انحطت قبل ظهور الاسلام بكثير ، وأن الاسلام وحده لا غيره هو الذى جدد مدينة الشرق الدارسة ، واستأنف صواته الزاهية الطامسة ، وبعث تلك الخواضر العظمى الزاخرة بالبشر كبغداد والبصرة وسمرقند وبخارى ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة وهلم جرا ، ولئن كانت قد بقيت للشرق آثار مدينيات قديمة فإن الاسلام هو الذى وطد بوانيها، وطرز حواشيها ، وحل السيف بيد والقلم بيد الى أبعد ماتصوره العقل من حدود الاقطار التي لم يسبق لشرق أن يطأها بقدمه فإذا كان الافرنج الصليبيون من الغرب ، وكان المغول اوائك الجراد المنتشر من الشرق ، قد تبرؤا ماعلا الاسلام في تلك الممالك ، ونسفوا عمران هاتيك الخواضر ، وكانت منافسات ملوك الاسلام الداخلية واتباعهم للشهوات ، وامعانهم في الضلالات ، ومحيدهم عن جادة القرآن القويمة ، وفقدتهم مايزرعه في الصدور من الاخلاق ، العظيمة ، قد قضت في الداخل ، على ماعجز عن تعفيته العدو من الخارج ، فليس الذنب في هذا التقاص ذنب الاسلام ، ولا التبعة في هذا الانقلاب عائدة على القرآن ، وانما الذنب هو ذنب الهمج من الافرنج ، وجناية ذلك الجراد الزحاف من المغول ، وانما هي تبعة المسلمين الذين رغبوا عن أوامر كتابهم واشتروا بآياته ثمناً قليلا ، الا النادر منهم

وأیضا فقد تنصرت الامم الاوربية في القرن الثالث والرابع والخامس والسادس من ميلاد المسيح ، وبقيت امم في شرق أوربة الى القرن العاشر حتى تنصرت . ولم تنهض أوربة نهضتها الحالية التي مكنتها تدريجا من هذه السيادة العظمى بقوة العلم والفن الا من نحو أر بعائة سنة . أى من بعد أن دانت بالانجيل بالف سنة . ومنها بعد أن دانت به

ونعتقد أيضا أن جميع ملجاء به المسيح عليه السلام من الدين فهو حق وكان البشر في أشد الحاجة الى ما فيه من المبالغة في الزهد والتواضع لمقاومة ما كان عليه اليهود وحكامهم الروم (الرومان) من الطمع والكبرياء والتعوتوان هذا كان تمهيدا للاسلام الدين الوسط المعتدل الجامع بين مصالح الدنيا والآخرة كما ذكرناه من اعتقادنا يتضمن اعترافنا بحقيقة دين المسيح في نفسه وبكونه من عند الله تعالى مع التعارض بينه وبين ديننا الناسخ له ومن وظيفتي أن أبين هذا في حاشية مقال كتب للنار باقتراح من أحد تلاميذ النار على أمير البيان

بسبعائة سنة . ومنها بثمانمائة سنة الخ . وهذه هي القرون المسماة في التاريخ بالقرون الوسطى . ولا نقول ان الاوربيين كانوا في هذه القرون بأجمعهم هائمين في ظلمات بعضها فوق بعض . بل نقول ان العرب كانوا أعلى كعباً منهم بكثير في المدنية باقرار مؤرخيهم ، وبرغم أنف لويس برتران واضرا به . ومن الكتب المخرجة حديثاً الشاهدة بذلك التاريخ العام للكاتب الفيلسوف الانكليزي « ولز » و « تاريخ مدينيات الشرق » لمؤلف افرنسي متخصص في التواريخ الشرقية اسمه « غروسه » فالحقيقة التاريخية المجمع عليها هي واحدة في هذا الموضوع لم يظهر ما ينقضها ولن يظهر ، وهي : ان العرب في القرون الوسطى كانوا أساتيد الاوربيين ، وكان الواحد من هؤلاء اذا تخرج على العرب تباهى بذلك بين قومه

— سبب تأخر اوربة الماضي ونهضتها الحاضرة —

أفجعل هذا التأخر الذي كان عليه الاوربيون في القرون الوسطى مدة ألف سنة ناشئاً عن النصرانية التي كانت دينهم الذي يعضون عليه بالنواجذ ؟
نعم ، ان الأمم البروتستانية منهم تجعل مصدر هذا التأخر الكنيسة البابوية لا النصرانية من حيث هي . وتزعم أن نهضة أوربة لم تبدأ الا بخروج (لوثير ، وكلفين) على الكنيسة الرومانية .

وأما فولتير ومن في حزبه من أقطاب الملاحدة فلا يفزقون كثيراً بين الكاثوليك والبروتستانت ، وعندهم ان جميع هذه العقائد واحدة وانها عاتقة عن العلم والرقى ، ولهذا قال فولتير تلك الكلمة عند ما ذكر لديه لوثير ، وكلفين ، قال : « كلاهما لا يصلح أن يكون حذاء لمحمد » يريد أن محمداً ﷺ بلغ من الاصلاح مالم يبلغا أدناه ، مع اعتقاد الكثيرين أن مذهبهما كان جراً أنوار اوربة (١)

(١) ونحن نعتقد هذا وكان شيخنا الاستاذ الامام وأذكىاء مريديه كسعد باشا زغلول يعتقدونه ولكن بمعنى ساي وهو أن هذا المذهب أضعف حجر الكنيسة على العقول البشرية وتقيدها بتعاليمها وفهمها للدين ورأيها في الدنيا ، وكان سبب هذا المذهب ما سرى الى اوربة عقب الحروب الصليبية بمعاشره المسلمين من استقلال العقل في فهم الدين . عدم سيطرة أحد عليهم فيه كما بينه شيخنا في كتاب الاسلام والنصرانية « الناصر »

والحق الذى لا رتاب فيه ان النصرانية نفسها لم تكن هى المسؤولة عن جهالة الافرنج
المسيحيين مدة الف سنة فى القرون الوسطى بل للمسيحية الفضل فى تهذيب برايرة اوربة
وهؤلاء اليابانيون هم وثنيون . ومنهم من هم على مذهب بوذا . ومنهم من يقال
لهم طاويون ، وكثيرون منهم يتبعون الحكيم الصينى كنفوشىوس . ولقد مضى عليهم
نحو الف سنة ولم تكن لهم هذه المدنية الباهرة ولا هذه القوة والمكانة بين الامم . ثم نهض
اليابان من نحو ستين سنة وترقوا وعزوا وغلظ أمرهم ، وعلا قدرهم ، وصاروا الى ماصاروا
اليه ولم يبرحوا وثنيين

فلا كانت الوثنية اذا سبب تأخرهم الماضى ، ولا هى سبب تقدمهم الحاضر ، وقد
تقاوت اليابان والروسية وتصارفتا فتغلبت اليابان على الروسية . مع ان اليابانيين فى العدد
هم نصف الروس ، ولكن مما لاشك فيه ان اليابانيين أرقى من الروس ، والحال ان الروسية
عريقة فى النصرانية واليابان عريقة فى الوثنية

فليترك اذاً بعض الناس جعل الأديان هى المعيار للتأخر والتقدم (١)

أفنقول من أجل هذا المثال : ان الانجيل هو الذى أخر الروسية عن درجة اليابان ،
وان عبادة الآلهة ابنة الشمس هى التى جذبت بضعب اليابان حتى سبقت الروسية ؟

ان لهذه الحوادث أسبابا وعوامل مترابكة ترجع الى أصول شتى . فاذا تراكت هذه
العوامل فى خير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد ، وأصبحت فضائل أقوم الأديان
عاجزة بازاء شرها ، كما أصبحت معائب أسخفها غير مؤثرة فى جانب خيرها

ولسنا هنا فى صدد أسباب تقدم اليابان السريع حتى نبين ان اعتقاد عامتهم « وجود
حصان مقدس يركبه الاله فلان » لم يقف حائلا دون تقدمهم المبني على ماركب فى فطرتهم
من الحاسة ، وما أوتوا من الذكاء ، وما أورثهم نظام الاقطاع القديم من التنافس فى
المجد والقوة

وعندنا أمثلة كثيرة لاتكاد تحصى فى هذا الباب اجتزأنا منها بما ذكرناه . وه نكن

(١) هذا صحيح فى جملة الأديان الا الاسلام فقرأه وتاريخه يثبتان انه هو سبب تقدم أهله حين
اعتدوا به وسبب تأخرهم حين أعرضوا عنه ، كما بين هذا أمير الكتاب فى رساله هذه فأظم الظلم أن
يجعل سبب تأخرهم « الناصر »

لنتعرض لهذا المقام لولا حملات القسوس والمبشرين وكثير من الاوربيين على الاسلام ، وزعمهم انه هو عنوان التأخر : وانه رمز الجود ، وتحديثهم بذلك في الأندية والمجامع ، ونشرهم هذه الافتراءات في المجلات والجرائد ، وقولهم ان الشجرة تعرف من ثمارها ، وان حالة العالم الاسلامي الحاضرة هي نتيجة جود الاسلام ، وتحجر القرآن ! « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا »

وحسبك أن الميسو « سان المقيم الافرنسي السامي » في المغرب ينشر في العدد الأخير من « مجلة الاحياء » الافرنسية مقالة يتكلم فيها عن نقطة المغرب بعد « ليل الاسلام » ! هكذا تعبيره

فان كان تأخر احدى الممالك الاسلامية حقبة من الدهر يجب أن يقال فيه « ليل الاسلام » فكم كان ليل النصرانية طويلا عند ما بقيت أوربة المسيحية زهاء ألف سنة وهي في حالة الهمجية أو ما يقرب من الهمجية

لماذا أيها الناس تدخلون الأديان فيما هي براءة منه ؟ ولماذا تقحمونها في موضوع يكذبكم فيه التاريخ بأمانيله الجمة

ان ادخال الأديان في هذا المعترك وجعلها هي معيار الترقى والتردى ليس من النصفة

في شيء

المدنية العربية

خدمة العرب لعلم الطب

لشكيب

جاء في مجلة المستشفيات الافرنسية Gazette des Hopitaux بعددها المؤرخ بـ ١٩ مارس ١٩٣٢ أى العدد الصادر منذ شهر لتحرير هذه الاسطر نص محاضرة ألقاها الاستاذ الكبير والجراح الشهير البروفسور فورغ Fosgue الذى يُعد من أشهر جراحى فرنسا ان لم يكن أشهرهم وذلك فى تاريخ الطب عند الاسبانيول وما للامة الاسبانيولية من المعارج العالمية فى هذا العلم . وقد بدأ الاستاذ محاضرته بقوله : ان المستشفيات والمستوصفات ومراكز التعليم الطبى فى اسبانية قد أصبحت كلها عصرية بتمام المعنى وملكت من الأدوات والأدوية جميع ما يملكه غيرُها فى سائر أوربة وليس فى برشلونه مثلاً معمل أو مُعْتَمَل يفترق فى شىء عن المعامل والمُعْتَمَلات التى فى فرنسا . ولكن ليس هنا معترك الرأى ولا المقام الذى يمكننا فيه أن نقدر مزية الامة الاسبانيولية قدرها فى الطب والجراحة ، بل يجب علينا أن نرجع الى الوراء فنتصفح الكتب القديمة ونزور المستشفيات على ما كانت عليه فى شكلها السابق ونقرأ تاريخ الجامعات الاسبانيولية القديمة ونستقصى الحركة العلمية عند جيراننا هؤلاء ونخالط نفوسهم ونُدْخُلُ أوساطهم فإذا اطلعنا على ذاك الماضى ازددنا معرفة بهذا الحاضر وعلمنا أن اسبانية هى فى غربى اوربة أرض قائمة بنفسها لها مزاياها وخصائصها وانها تمتاز بميزات لا يشاركها فيها غيرُها وأن فيها قوة حيوية قومية غير معهودة لكثير من الأمم وان لتلك الأدمغة الحارة من سُرعة الفكر والاستعداد للنضال ما يجعل هذه الامة فريدة فى بابها ، ولأجل أن نفهم هذه الحالة النفسية عند الاسبانيول وجب علينا أن نفهم هذه الحقيقة التاريخية وهى استيلاء العرب على اسبانية وسلسلة الوقائع التى لا تحصى بينهم وبين الاسبانيول الى أن تمكن هؤلاء من استرداد بلادهم . فكأن بلاد الغال بقيت

نحواً من خمسة قرون تحت حكم الرومان فقد بقيت اسبانية أيضاً زهاء ثمانية قرون الى أن تخلصت من حكم العرب ، وهكذا يمكن قياس درجة اتصال الامة الاسبانية بالمدينة الاسلامية هذه المدينة التي كانت حلقة الاتصال بين العالم الاسيوى وأوروبا الغربية .

قال ليبرى Libri : احذف العرب من التاريخ يتأخر عصرُ التجدد في أوروبا عدة قرون الى الوراء . في سنة ٧١١ شن العرب الغارة بقوة ضئيلة (سبعة آلاف مقاتل) على اسبانية فزلوا بها وفتحوها بسرعة الصاعقة واستصفوا تلك البلاد في سبع سنوات وابشوا فيها ثمانية قرون وما زالوا الى ١٤ يوليو سنة ١٢١٢ حتى بدأ في التاريخ دور تراجعهم أى ان الجزر لم يبدأ الا بعد خمسة قرون من المدّ وذلك في واقعة لاس نافاس دوطولوزا^(١) Las Navas de Tolosa وقد رأيت بعيني في دير هولغاس Houlgas بقرب برغاش Bergas إحدى الولايات التي وقعت في يد الأسبانيول في تلك المعركة وشعرت بما عند الاسبانيول من الاحترام لتلك الذكري والنخوة بها . وكانت طليطلة قد عادت للاسبانيول سنة ١٠٨٥ فصارت مركز الاتصال بين المدينتين الاسلاميه والمسيحية وسنرى مقدار تأثير هذه البلدة كمركز تبادل للبضائع العقلية وكتب للترجمة يحجج اليه طلاب العلوم من كلّ فج . ثم في القرنين الأخيرين انكفأ العرب من اشبيلية وقرطبة الى غرناطة فصارت معقلاً للانكماش واجتمع فيها فلول العرب . فأصبحت عاصمة ولمعت فيها أنوار شعلة المدينة الاسلامية للمرة الأخيرة . وفي ٢ يناير سنة ١٤٩٢ كان سقوط غرناطة وجلاء العرب الأخير فتركوا كما قال « كلود فرير » من قصر الحمراء بقية باهرة تتأمل فيها القرون والحقب دهرأ طويلا كما ان طليطلة بقيت خزانة كتب تغنت بترجتها الفكرة البشرية أعصرأ مديدة . لا جرم أن هناك تاريخاً نادر المثال لم ينقصه شيء لا من العظمة ولا من طول المدة . ولنتأمل الآن كيف أن هذا العمل المدني أو الحرث الفكري قد تمّ وبأية الوسائل قد تمّ وماذا كان من تأثيره في ترقية المعارف الطبية

لقد كانت هذه المدينة في بدأ نشأتها كما قال الأخوان « طارو » Tarroud مدينةً يونانية لاتينية ، اقتبسها العرب سريعاً وطبعوها بطابعهم الخاص . وبهذا المبدأ الشريف

(١) هذه واقعة العقاب التي ظهر بها ملوك أسبانية المتحدون جميعاً على جيش الموحدين ، ولم تم بعدها المسلمين في الأندلس قائمة تحمد

الذي بدأ به العرب باقتباس تلك المدنية ، تظهر جميع المعالي الأدبية التي في المدنية الاسلامية فانك ترى شعباً من القبائل الرُّحَّل رعاة الابل ، بسائق دعوة دينية يحملون على الأمم فيفتحون نصف العالم في مدة قرن واحد. ثم يكون أعظم مهمهم ، بعد أن وطّدوا هذا الملك الطويل العريض ، أن يضمّوا الى عظمة الفتح عظمة العلم وكما قال لوكلرك Leclerc^(١) الذي تأليفه مثال في النقد الدقيق والاطلاع الواسع : لم يكمل القرن التاسع حتى كان العرب قد ملكوا جميع علم اليونانيين فصارت بغداد مركز الحركة العقلية في الدنيا وتعدت فيها مكاتب الترجمة ، ثم صارت طليطلة في القرن الثاني عشر ما كانت عليه بغداد في القرن التاسع فهما اذاً أهم مراكز الترجمة وانتقال الآراء العلمية . وقد كان في بغداد نحو مائة مترجم ينقلون كتب يونان الى العربية والسريانية فنقلوا تآليف ابقراط وليئوس قوريدوس وجالينوس وروؤفوس وأوريباس وبولوس الأَجِينِي وبعد ذلك بثلاثة قرون صارت طليطلة في أسبانية هي مركز الترجمة ، وصارت المدنية الاسلامية تُعيد للغرب الديون العقلية التي كانت اقترضتها من مسيحي الشرق فعادت الافكار اليونانية الى أوروبا بواسطة العرب على يد مترجى طليطلة لا سيما جرار دوكريمون Gérard de Cremona . أما كيفية هذا النفوذ العلمي الذي اخترق الاقطار الاسلامية واستضاءت به مراكز المدنية الاسلامية في أسبانية بالأشعة الآتية من بغداد فان الاقرب الى العقل في أسبابها أن هذه المملكة كانت متصلة من الهند الى المحيط الاطلانتيكي وكان لها نصف سواحل البحر المتوسط فكان الاتصال دائماً بين افريقية وأسبانية من جهة والشرق و بغداد من جهة أخرى . ولا شك أن الحج كان ذا تأثير شديد في نقل الافكار والآثار ولم تكن الرحلة الى الحج فقط . بل كانوا يُعملون الرحلة في طلب العلم انفسه . وقد عيّن لركرك حوادث من هذا القبيل فقال : ان محمد ابن عبدون ذهب من الأندلس الى مصر وكان يمارس التطبيب في مستشفى القسطنطينية وان ولدني يونس الحراني ذهباً يُحصّلان الطب في بغداد وبقياً عشر سنوات وعمرو بن حفص ذهب الى القيروان للتحصيل وكما كان يذهب أطباء من الغرب الى الشرق كانت الأطباء تأتي من الشرق الى الغرب وتقصد سلاطين الاسلام في أسبانية فكانت الكتب نظير الطنافس الحريرية والحلي والجواهر يأتى بها من الشرق الى الأندلس حتى اجتمع في

(١) طبيب شهير نشأ في جنيف في القرن السابع عشر وله تآليف كثيرة منها تاريخ الطب

خزاة قرطبة زهاء ستائة ألف مجلد في فهرس يقع في أربعة وأربعين مجلداً . وكان القرن العاشر هو القرن الذي بلغت فيه المدينة الإسلامية في الأندلس أوجها فأقبل الناس على العلم في جميع أنحاء المملكة العربية وتعددت مصادر الأشعة ولما انفصلت قرطبة عن بغداد كان ذلك سبباً لزيادة لمعانها باستقلالها وأخذ العرب بالتقدم الى الأمام فلم يكونوا يكتفون بمعرفة علوم يونان فحسب ، بل حرثوا هذه العلوم وكشفوا طرقاً جديدة وازداد عدد علمائهم كثيراً كما ان عدد علماء المسيحيين عاد قليلاً . وظهر علماء من اليهود وأخذ عددهم يتزايد وانتقل المسلمون من دور الترجمة الى دور التوليد ، ومنهم ظهرت نوابغ لذلك العهد مثل الجراح الشهير أبي القاسم خلف بن عباس الزهراوى فان هذا الرجل كان قدماً من الطبقة الأولى به بدئ تاريخ الطب الاسلامى في أسبانية وكان قدماً منقطع النظر في الجراحة العربية واليه انتهت الرياسة في علم الجراحة في القرون الوسطى (١) وكان مولده سنة ٩٣٦ مسيحية في الزهراء المدينة التي شادها عبد الرحمن الناصر وكانت لقرطبة أشبه بقرساي لباريس . وقد بالغ مؤرخو العرب في وصفها وأصاب لويس بيرتران بقوله انها مبالغات خيالية فقالوا ان قصر الزهراء كان يحتوى نحواً من ثلاثة آلاف من الحصيان ونحواً من ستة آلاف من الجوارى وانه وُضع في بنائها أربعة آلاف عمود من المرمر وانه كان فيها حوض ماء مزين بانثى عشر تمثالا من الذهب مرصعة باللالى اه .

اتهى كلام الأستاذ فورغ هنا وقبل أن نكمل ترجمة محاضراته هذه ، نحب أن نذكر ملاحظة على ما كتبه بشأن قصر الزهراء أو مدينة الزهراء كما هو الاخرى فنقول ان لمؤرخى العرب ولغيرهم مبالغات في الوصف لا سيما اذا كان الموصوف خارقاً للعادة مثل قصر

(١) من الغريب أن ترجمة خلف بن عباس الزهراوى قد وردت في طبقات الاطباء لكن بصورة مختصرة جداً فهو يقول : خلف بن عباس الزهراوى كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة ، جيد العلاج وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوى ولخلف بن عباس الزهراوى من الكتب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف وهو أكبر تصانيفه وأشهرها وهو كتاب تام في معناه . اه ولكن قد ترجم ابن أبى أصيبعة صاحب هذا الكلام من أطباء الأندلس عدداً كبيراً جداً يستدل به على درجة رقي الطب في الأندلس لذلك العهد كما قال لوكرك والأستاذ فورغ

الزهراء . ولكن لويس بيرتران المشهور بعداوته للاسلام كاذب فيما يزعم من ان قصر الزهراء لم يكن كما وصفه العرب . نعم ان قضية حوض الماء الذى عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب مرصعة بالثمن لم نجد لها فيما قرأناه من أوصاف مؤرخى العرب للزهراء ولكن مما اتفق عليه المؤرخون ان بناء الزهراء استغرق أربعين سنة من خلافة الناصر وانه كان يشتغل فيها كل يوم عشرة آلاف من العملة وكان يُحمل اليها كل يوم ألف وخمسمائة حِمْل من مواد البناء وأنه كان فى الزهراء عدة آلاف من الخصيان وعدة آلاف من الجوارى وكانت فيها أجناد ووُصفاء لا يأخذهم الاحياء . وبالأجلال كان قصرُ الزهراء مدينة ومن شاء مراجعة ماجاء عن الزهراء فى الكتب فعليه بنفح الطيب وبغيره من الكتب المؤلفة على الاندلس وان أقل المؤرخين مبالغة وأكثرهم تدقيقاً فى الأخبار ابن خلدون قد وصف الزهراء وصفاً مدهشاً لم يكن ليكتبه لولا تيقنه أن الزهراء كانت كما وصفها . ولقد شاهدت أنا بعينى خرائب الزهراء سنة ١٩٣٠ فى سياحتى الى الاندلس وكان معى يومئذ المهندس الأسباني هيرنانديس الموكّل بعمليات الحفر فى الزهراء والدكتور رفائيل كاستيجون من أعضاء أكاديمية قرطبة فشاهدنا مكان الزهراء والآثار التى انكشفت منها بالحفر وعلمنا مابقى منها محجوباً فقال لنا العلملان الاسبانيان ان الذى انكشف من الزهراء فى مدة عشرين سنة أى منذ باثمروا الحفر هو جزء من عشرين من مجموعها وقالوا انهم يُختمون بخمسين سنة الوقت اللازم لكشف جميع أنقاضها على نسبة العمل الذى عملوه الى الآن . وليس بمستغرب أن يكون ذلك كذلك لأن طول مكان الزهراء يبلغ تسعمائة متر وعرضه يبلغ سبعمائة وكله مغطى بالأنقاض كما أنه ليس بمستغرب أن يقال انه كان فيها أربعة آلاف عمود من المرمر وذلك بالنسبة الى سعة المكان مما يشاهده الانسان بعينه فضلا عن مقابلة مايشاهده بما يقرأه . وفى أعلى الزهراء متحف مؤقت مجموع فيه كثير من قطع الحجارة المحرّمة والآثار النفيسة وقد شاهدنا بين الأنقاض، وهى القسم القليل الذى انكشف كثيراً من الرُخام ومن القرميد الأحمر وقال لنا الاسبانيول ان أكثر البلاط النفيس والاساطين الثمينة قد نقلت من الزهراء الى أمكنة أخرى فالدير الذى فى سفح الجبل مبنى أكثره من حجارة الزهراء وعند مارموا جسر قرطبة أخذوا كثيراً من حجارتها ولا تكاد يوجد كنيسة مبنية فى قرطبة الا وفيها من حجارة الزهراء وقد كانوا أخذوا من أنقاض الزهراء الى اشبيلية والى غرناطة . بل كان

الموحدون في أثناء استيلائهم على الاندلس أخذوا من أعمدة الزهراء الى مراکش . وبالأجل فان الزهراء كانت من أعظم مباني العالم وهي أعظم من الأسكوريال وأجل ، على حين أن الاسكوريال هو أيضاً من أعظم مباني الدنيا . ولا يجوز أن يوصف بالمبالغة ماورد من وصف قصر الزهراء الذي يسميه الاسبانيول بمدينة الزهراء والذي أجمع المؤرخون على أنه كان يحتوي على بضعة عشر ألف نسمة من رجال ونساء . ثم نعود الى ترجمة الاستاذ فورغ للجراح العربي الشهير المسمى بأبي القاسم . قال : انه كان بحاجة مشابراً على الشغل ، كتب في حياته مايقع في ثلاثين مجلداً ، وكتابه في الجراحة هو أهم تأليفه وهو يستحق أن يكون في تاريخ الطب المظهر الأول من مظاهر الجراحة كعلم مستقل مبنى على أساس من الحقائق التشريحية . قال أبو القاسم : اذا كان الطبيب يجمل التشريح يقع في الخطأ ويقتل المريض فقد رأيت طبيباً جاهلاً يشرط خراجاً في عنق مريض ففتح له شرايين العنق وما زال الدم يفيض حتى مات لساعته . ومما امتاز به أبو القاسم أنه أول من اخترع الجراحة المصوّرة فقد جاء في كتابه نحو مائتي صورة عملية . ومن هذا أصبح هو العلم المشار اليه بالبنان في هذا الفن . وفي القرن الثاني عشر عند ما ترجم جيرار دوكريموني كتاب أبي القاسم الى اللاتينية صار هو الكتاب المتداول في أيدي الجميع . ومما يدل على قيمته العظمى ان أستاذنا القديم غوي دوشولياك Guy de Chauliac من مدينة مونبيلييه استشهد بكتاب أبي القاسم أكثر من مائتي مرة . فلا شك اذن ان الجراحة العربية التي تنمي الى أصل يوناني قد كانت تمت نمواً عظيماً في الغرب وحسبك شاهداً على رقي الجراحة العربية كلمات الازدراء التي قالها « لانفرانك » Lanfranc في أواخر القرن الثالث عشر فانه كان ذهب الى ايطاليا واطلع فيها على ترجمة تأليف أبي القاسم ورجع الى باريس فقال عن جراحى باريس : انهم جهلاء ولا يكاد يوجد فيهم جراح واحد عالم بصنعتهم .

عند ما نصل الى طليطلة يستولى علينا تأثير المنظر الطبيعي بمكان طليطلة العجيب المشرف على نهر « تاجه » مضافا الى منظر الأبنية الباهرة . ولكننا ننسى طليطلة القرن الثاني عشر والثالث عشر مدينة العلم الأفاضلة ، مستودع الكتب العربية ، مقر الترجمة الذي منذ بدأ الاحتلال الاسلامي يتقلص من هناك أصبح مقصداً لحجاج العلم ووراد المنايع العقلية التي كانت لذلك العهد غير معروفة عند المسيحيين . فقد صارت طليطلة في الطرف

الغربي من المملكة العربية نظيرة لبغداد مركزاً للترجمة والتأليف بعد ثلاثة قرون من عهد ازدهار بغداد

قال لوكلرك مؤرخ الطب : انه في ذلك الوقت كان حصل حادثان عظيمان في قطبي العالم الاسلامي أحدهما الحرب الصليبية التي ساقطت الى الشرق نحواً من مليون مسيحي والثاني زحف الافكار الاسلامية على الغرب بواسطة الاندلس . فقد كان قصد مكاتب المسلمين في أسبانية كثير من طلاب العلم من جميع أنحاء النصرانية عطاشاً الى تلك المناهل فوجدوا في خزائن المسلمين في الاندلس من التأليف والتراجم العربية ما أحيا بينهم الفلسفة القديمة التي كانوا جهلواها . وكان للفرنسيس يد في نشر هذه المعارف البشرية لأن اسقفاً افرنسياً هوريموند داجن Raymond d'agen صار سنة ١١٣٠ رئيساً لأساقفة طليطلة فحق له الفخر بترجمة رسالة الروح لابن سينا اذ بعث في الناس همه الترجمة لكتب العرب فخرج منها ثلاثمائة ترجمة من العربي الى اللاتيني . وهكذا انتشرت بين الأيدي الكتب الحاوية لفلسفة يونان وفلسفة أعظم حكماء العرب . وهكذا انسدت النقص المظلم الذي كان واقعاً في الفكر البشري في القرون الوسطى وتقدمت مدارس الغرب الى الأمام . ولقد ذكر لوكلرك ان من هذه التراجم الثلاثمائة كان يوجد تسعون كتاباً مترجماً من العربية الى اللاتينية في الطب منها أربعة تأليف لأبقراط وخمسة وعشرون لجالينوس والباقي لحكماء الاسلام كالرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن زهر . وكان جبرار دوكريمون وهو أعظم المترجمين همه ومن أذكرى رجال القرون الوسطى قد أكمل في مدة خمسين سنة ثلاثة وسبعين ترجمة أكثرها لكتب طبية ومن جملة هذه الكتب قانون ابن سينا الذي كان كافياً أن يشغل وحده حياة انسان . ومنها كتب أبي القاسم في الجراحة التي عملت في سير هذا الفن في أوربة الى الأمام العمل الا كبر فقد بقيت طليطلة اذن مدة قرنين كاملين معهداً للتأليف والترجمة من اللغة العربية واشترك في ذلك اليهود الذين كانوا يحسنون العربية ومن هذا المركز العالمي الذي هو طليطلة توزع مجموع تأليف وأفكار عامة للمعارف البشرية ، وكان لعلم الطب منه الحصة الكبرى

فاذا ألقينا بنظرنا بصورة مجملة على هذه المدنية الاسلامية في أسبانية يأخذنا العجب كما قال لوكلرك وكما ورد في بحث جري مؤخراً من أن بعض الكتاب المعاصرين أخذوا

ينكرون على العرب العبقريّة العلميّة . والحقيقة أن هذه الملكة العلميّة وأن هذا البحث والتنقيب قد أثبتتها العرب لأنفسهم من البداية في بغداد حيث قرر علماءها من ذلك الوقت تقريراً صريحاً المبادئ التي ينبغي أن يسير عليها العلم وهي السير من المعلوم الى المجهول وعدم قبول شيء على أنه حقيقة الا بعد ثبوته بالتجربة . اذن منذ القرن الحادى عشر أثبت العرب أنهم كانوا قد ملكوا الطريقة العلميّة الصحيحة ، وليس بصحيح القول أنهم ما أتوا بشيء جديد ، ولا أضافوا شيئاً يذكّر على التراث اليونانى اللاتينى ، ولا جرم أنهم بالبداية كان أساس عملهم الترجمة من الكتب القديمة ولكن ليس من العدل أن نقول أنهم لم يكونوا الا وسطاء وأنهم لم يكونوا يعامون ما يترجون ولم يكن عندهم روح التوليد . وعلى هذا أجاب الفيلسوف الألمانى «هومبولد» Homboldt بقوله : « ان العرب لم يقتصروا على حراسة كنز المعارف الذى عثروا عليه بل أضافوا اليه وأوسعوه وفتحوا طرقاً جديدة للبحث فى أسرار الطبيعة »

وكان أطباء العرب أكثرهم من كبار الفلاسفة ومما لا جدال فيه أن أبا القاسم وابن رشد كانا من الدرجة الاولى فى رجال العالم وكانا من العلماء الواضعين وأبو القاسم هو الذى سبق الى سد الشرايين عند العمليات واخترع طريقة تفتيت الحصى فى المثانة وطريقة استخراج الحصى من مثانات النساء . وأشار عند حصول الفساد المسمى بالفنقرينة بالقطع العاجل . وأما ابن رشد الفيلسوف القرطبي الذى كان يشتغل ليلاً ونهاراً وقيل انه لم يتخل من الشغل بالعلم الا ليلة زواجه وليلة وفاة والده ، فقد كان مفسر فلسفة أرسطو . وفى كتابه الكليات فى الطب أشار الى الدورة الدموية . واذا شاء الانسان أن يزن بحق وعدل مقدار تأثير البضائع العربيّة فى معاهد الطب فى أوربة فما عليه الا بمراجعة برنامج مدرستنا الطبيّة فى مونيخ . فالتناجد فى أواخر القرن الثالث عشر من جلة الكتب التدريسيّة جدول تراجم لاتينية لكتب عربيّة جاء بها الأطباء اليهود الذين هاجروا أسبانية الى جنوبى فرنسا وكان فى ذلك الجدول لحكام اليونانيين كتب من تأليف أبقرات وجالينوس ولحكاه العرب كتب من تأليف ابن سينا والرازى وقسطنط واسحاق وحسين . وفى سنة ١٣٤٠ قرر المجمع الطبى الأؤلية لجالينوس وابن سينا وفى سنة ١٥٠٠ حكموا بالسبق لابن سينا فى خمس محاضرات من أصل عشر وجالينوس فى أربع ، ولابقراط فى واحدة وفى سنة ١٥٣٤

كانت تأليف العرب الطبية هي المعتمد عليها في مدارسنا ولم تزل الحالة هي هذه الى القرن السادس عشر حيث أخذوا يترجون ابقراط من اليونانية رأساً ولم تُحذف تأليف العرب من برامج التدريس عندنا الا في أواخر القرن السادس عشر. قال المؤرخ الكبير جرمان German من مونيخية اننا نشهد لكتاب العرب الذين كتبوا في المواضيع العلمية بمزية الايضاح التام والطريقة التعليمية. نعم ان هؤلاء العرب الذين يرجعون الى نصاب قديم من مدنية اليمن كانت فيهم قابلية عظيمة للثقافة العليا ولم يكن فيهم شيء من البربرية

اتسهي كلام الاستاذ فورغ فيما يتعلق بالعرب وبعد ذلك أنهى محاضراته بما يتعلق بحركة علم الطب عند الاسبانيول وقد رأينا مناسبا نشر شهادة هذا الجراح الافرنسي الكبير للعرب في خدمة العلم عموماً والطب والجراحة خصوصاً وفضلهم في ذلك على العالم وقوله ان العلم العربي كان مبنياً على التجربة والاختبار ونظن في شهادات مثل هؤلاء الفحول « لوكلرك » و « همبولد » و « جرمان » و « فورغ » وعبد لا يحصى من أمثالهم مقنعاً لمن يريد أن يتحقق قضية فضل العرب على أوربة ويعرف هذان أولئك الثنائين الذين يحاولون انكار هذه الحقيقة أو يزعمون أن العرب بنوا معارفهم على « الاسلوب النقي » وانهم لم يكن للتجربة نصيب من علومهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا

الحركة العلمية في الحضارة العربية

كما يصفها الفيلسوفان

ولز الانجليزى و درابر الاميركى

للامير شكيب

ومن رأى رأياً عظيماً في الحضارة العربية الفيلسوف الانكليزى الكاتب المشهور ولز الذى يعد في طليعة مفكرى هذا العصر . وقد سبق لنا الاستشهاد ببعض كلامه في شان البعثة النبوية ، وقولنا انه أصاب في بعض الآراء لاني جميعها . وهانحن أولاء نذكر خلاصة رأيه في حضارة العرب . قال في كتابه « تجربة في التاريخ العام » في مبحث الاسلام ما تلى ترجمته :

« قبل أن نأتى على ذكر الأتراك وعلى ذكر الحروب الصليبية الكبرى التى جعلت النصرانية تقف وجها لوجه بازاء الاسلام ، والتى جعلت كلاً من هاتين الملتين تعادى الاخرى الى هذه الساعة عداوة غير معقولة ، يجب علينا أن نلاحظ جيداً الحياة الفكرية التى كانت عليها الأمم الناطقة بالعربية ، والتى كانت قد بدأت تنتشر في الاصقاع التى كانت الثقافة اليونانية تمت عليها رواقها . فنقول : انه في القرون التى سبقت ظهور محمد كان الفكر العربى أشبه بالنار تحت الرماد . فلما انكشف عنه الرماد بالفتح الاسلامى ، لمع لمعانا لم يعهد أن فاقه فيه الا الفكر اليونانى . وهذا في أسنى أدواره . فجاء الفكر العربى بشكل جديد ، وبقوة جديدة ، وعالج علاجاً شريفاً تنمية العلوم الصحيحة نظير ما عالج اليونانيون ولقد كان اليونانى أباً للعلم فجاء العربى وحل محله في هذه الابوة . وكانت طريقة العربى هى أن ينشد الحقيقة بكل استقامة ، وبكل بساطة ، وان يحلّيها بكل وضوح وبكل تدقيق ، غير تارك منها شيئاً في ظل الإهام . فهذه الخاصة التى جاءتنا نحن الأوربيين من اليونانيين

وهي نشدان النور انما جاءتنا عن طريق العرب ولم تسقط الى أهل العصر الحاضر من طريق اللاتين .

فانه لما فتح العرب فتوحاتهم اتصلا بفلسفة يونان ، لا مباشرة بل بواسطة النصارى النسطوريين الذين كانوا في شرق النصرانية ، وكانوا أرقى فكراً من نصارى ييزنطية المشغولين بعلم اللاهوت ، وكان سوى تثقيفهم أعلى جداً من النصارى اللاتينيين في الغرب فهؤلاء النساطرة كانوا لعهد الفرس الساسانيين أحراراً في ثقافتهم ، وجاء الاسلام فلم ينزع منهم هذه الحرية . وكانوا قد أخذوا جانباً عظيماً من طب يونان ، ثم عززوه بتجاربهم . ولما ظهر الاسلام ، صاروا هم الأطباء في قصور الخلفاء . ومما لا شك فيه أن منهم من كانوا يمارسون الشعائر الاسلامية ، ولا يرون فيها حرجاً على أفكارهم . وكانوا قد حفظوا جانباً من مقالات ارسطو مترجمة الى السريانية ، وكانت عندهم معلومات قيمة في الرياضيات . فإذا كانت بجانب علومهم معلومات القديس بنديكتوس مثلاً ؟ فالعرب القادمون من الصحراء بتلك العقول الذكية المولعة بالاطلاع ، اعتمدوا على هؤلاء النساطرة وتعلموا منهم وأضافوا الى ما تعلموه علوماً جديدة .

ولم يكن النساطرة هم المعالين الذين انفرد العرب بالأخذ عنهم . بل كان اليهود في جميع حواضر الشرق منتشرين . وكانت لهم ثقافة خاصة بهم ، وملكة راسخة في العلوم ، فكان كل من الفكر اليهودي والفكر العربي يؤثر في الآخر تأثيراً عائداً للخير العام . ومن المعلوم أن اليهود هم ممتازون بسهولة تعلم اللغات ، فقد كانوا قبل الاسلام بألف سنة يتعلمون اليونانية في الاسكندرية ، ويؤلفون بها الكتب . وهامهم الآن بعد ظهور الاسلام يتقنون العربية ويؤلفون بها . ولقد اختلط العرب باليهود بحيث لا نقدر أن نعرف في الثقافة العربية أين ينتهي اليهودي وأين يبدأ العربي .

وكان للعرب منبع آخر للعلم ، لا سيما ما تعلق منه بالرياضيات وهو الهند ، فما لا شبهة فيه ان الفكر العربي استفاد كثيراً من تلك الجهة .

ولقد بدأت مظاهر الحركة الفكرية العربية في دور بني أمية ، الا أنها في دور بني العباس آتت أشهى ثمارها . ولما كان التاريخ هو مبدأ كل فلسفة صحيحة وكبدها ، وكان الرأس والقلب لكل أدب كبير ، كان أكبر كتاب العرب مؤرخين ، ومحرفي تراجم ،

وشعراء مشتغلين بالتاريخ . ولما صار التعليم عاما ولم يعد خاصاً بطبقة دون طبقة ؟ ظهرت للعرب مؤلفات فى النحو والصرف واللغة لا تحصى .

فكان العالم الاسلامى سابقاً للعالم الاوربى بنحو قرن فى المدنية . وكانت المدارس الجامعة فى البصرة ، والكوفة ، وبغداد ، والقاهرة ، وقرطبة ، وانبثت أنوارها فى العالم كله ، وقصدها الطلاب من المشرق والمغرب . وقد كان كثير من طلبة العلم فى قرطبة من المسيحيين . ودخلت فلسفة العرب الى أوربة من طريق أسبانية ، وظهرت فى جامعات باريز وأكسفورد ، وشمالى ايطالية ، وأثرت كثيراً فى مجرى الفكر الأوربى ولا سيما فلسفة ابن رشد القرطبى (١١٢٦ — ١١٩٨) التى بلغت الذروة العليا من هذا الموضوع . وكانت فلسفة العرب مبنية على مذهب أرسطو وعلى وضع حد فاصل بين الحقيقة العلمية والحقيقة الدينية مما حرر المباحث العامة من رق التحريجات الدينية اللاهوتية التى كانت تعوقها سواء فى النصرانية أو فى الاسلام . ونبع فى الاسلام فيلسوف آخر هو ابن سينا أمير الأطباء (٩٨٠ — ١٠٣٧)

وكانت الوراقة والصحافة من أزهر الصناعات فى حواضر الاسلام ، مثل دمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، والاسكندرية . وفى سنة ٩٧٠ (مسيحية) بلغ عدد المدارس الحرّة التى تأسست لتعليم الفقراء مجاناً فى قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة .

قال « تاتشر » Tatcher و « شفيل » Schwil فى تاريخ أوربة العام : ان العرب انما بنوا فى العلوم الرياضية على أساس اليونانيين ، وأما أصل الأرقام التى يقال لها الأرقام العربية فلا يزال غامضاً . وقد كان « بونتيوس » فى زمان تيودوريك الكبير (ملك القوط الشرقيين الذى كان فى ايطالية) يستعمل بعض اشارات تشبه الأرقام التسعة التى نحن نستعملها الآن . وكان أحد تلاميذ « جربرت » يستعمل أيضاً اشارات أشد مضاهاة لأرقامنا الحاضرة . وأما الصفر فبقى مجهولاً الى القرن الثانى عشر (المسيحى) اذ اخترعه عربى اسمه محمد بن موسى كان أيضاً هو أول من استعمل الاشارات للكسور ، وجعل للأرقام قيمة متعلقة بمواضعها . ولم يزد العرب شيئاً فى الهندسة على ما قرره اقليدس الا أن الجبر علم هم الذين انفردوا بوضعه . وكذلك أوسعوا علم مساحة المثلثات الكروية ، واخترعوا « الجيب » و « الخط المماس للدائرة » وكان لهم فى الطبيعيات اختراع رقاص

الساعة ، وكتبوا في علم المرائي ، وتقدموا كثيراً في علم الفلك ، وبنوا المراصد الفلكية ، وأحدثوا الآلات اللازمة لهذا العلم ، والتي لا تزال معتمد الناس الى اليوم . وهم الذين حسبوا زوايا سمت الشمس ومبادرة نقطة اعتدال الليل والنهار . فكانت معارفهم الفلكية واسعة فعلاً .

وأما في الطب فقد بلغوا شأواً فأتوا فيه اليونانيين بكثير . وقد درسوا الفسيولوجيا وعلم الصحة ، وكانت طرق طبهم العملية نظير طرقنا الحاضرة . ولا تزال نحن الى يوم الناس هذا نستعمل كثيراً من أدويتهم . وكان جراحوهم يعرفون التخدير ويعملون العمليات الجراحية الصعبة ، وبينما كانت الكنيسة في أوربة تمنع ممارسة الطب وتعتمد في شفاء الاسقام على الطقوس الدينية لا غير ، كان العرب ذوى ملكة حقيقية في الطب . وكان لهم نصيب وافر من علم الكيمياء ، فقد كشفوا كثيراً من المواد التي لم تكن معروفة كالكحول ، والبوتاس ، ونيترات الفضة ، والسليمان ، وكثيراً من الحوامض . وأما من جهة الصناعة فكانوا أرقى من وجد الى ذلك الوقت يتفنون في صنع ما يريدونه في الذهب والفضة والنحاس والقصدير والحديد والفولاذ . وكانوا يصنعون الزجاج والخزف الفاخر ويعلمون جميع أسرار الألوان ويتقنون الصباغة ، ويعملون الكاغد للكتابة ويهيئون الجلود بصور متنوعة ، وكانوا يصنعون أنواع الأشربة ، ويستخرجون السكر من القصب . ثم انه كانت لهم القدم الراسخة في الزراعة يجرون فيها على طريقة علمية ، وكانت لهم أساليب راقية في الري^(١) ومعرفة بخواص الأسمدة ، وكانوا يلائمون بين الجبوب وطبيعة الأراضي ، ويعلمون من أصناف التطعيم في الفواكه والأزهار ما لا يعلمه سواهم ، وهم الذين أدخلوا الى أوربة أشجاراً ونباتات لم تكن تعرفها ، وحرروا في علم الزراعة كتباً قيّمة .

ومن أهم ما أتقنه العرب ، وكان له أعظم تأثير في الحركة الفكرية البشرية ، صناعة الكاغد . والذي يظهر أن العرب أخذوها عن الصين وألقوا بها الى الاوربيين . وقد كانت الكتابة الى ذلك الوقت على الرق والبردى . ثم لما فتح العرب مصر انقطع ورود البردى ،

(١) ولا تزال طرق الري العربية هي الحالية في أسبانية الى اليوم لم يزيدوا عليها شيئاً

الى أوربة ولهذا تأخرت المدنية الاوربية قرونا عن سائر المدنيات فانه بدون ورق للكتابة يستحيل أن تنتشر المعارف انتشاراً مذكوراً »

وختم وز فصله عن حضارة الاسلام بجملة نستجلب اليها أنظار القراء ولو كانت الحقيقة التي فيها مؤلة
قال :

« ان كل هذا النشاط الفكرى حقل فى العالم الاسلامى فى وسط الاضطراب السياسى والقلق فان العرب لم يوفقوا فى وقت من الأوقات الى نظام حكومى ثابت آمن غوائل الاضطراب والانقلاب ، بل جميع الحكومات التى أسسوها كانت مطلقة عرضة للزلازل والمكاييد والغيلة والعوارض التى هى من لوازم كل حكومة مطلقة التصرف »
قال :

« الا أنه برغم هذه الهزاهز المستمرة ، وهذا القتل الذى يكاد يكون متصلاً ، وهذه الفتن الطويلة العريضة بين الأحزاب ، كان لروح الاسلام نظام خاص ، مطرد بآدى التأثير فى حياة الأمة ، ماسك بحجزاتها عن التهور . ولقد عجزت السلطنة اليزنطية عن زعزعة أركان المدنية الاسلامية . وطول ما كان التركى غير متصرف بأزمة الاسلام ، كانت حياة الاسلام الفكرية غضة . ولعل الاسلام كان فى ذات نفسه مغتبطاً بأن تكون حياته العقلية مستمرة مطردة برغم ما كانت عليه حياته السياسية من التخبط والتهور »

ولقد ذهب وز الى أن الاسلام كاد يفتح العالم أجمع لو بقى سائراً سيرته الأولى ، ولو لم تنشب فى وسطه من أول الأمر الحرب الداخلية . فقد كان هم عائشة أن تقهر عليا قبل كل شئ . وقد كان هم كل من الفريقين العلوى والأموى أن يستولى على الخلافة قبل همه فى بسطة الاسلام فى الأرض ، الى غير ذلك من الآراء التى نجدها فى أكثر كتب المحققين من علماء التاريخ والتى لا تقدر مع الأسف أن نقول انها غير صحيحة .

ومن أعظم المؤلفين الذين أجادوا فى موضوع اسلام العلامة « درابر » الأميريكى المشهور صاحب كتاب « اختلاف العلم والدين » فقد كتب كتاباً نادر المثال فى تاريخ الحركة الفكرية العالمية فى العالم ، وما كان بازائها من العقائد والأديان وما وقع من

المصارمة بين المبدأ العلمي والمبدأ الديني .

وكنت اطلعت على هذا الكتاب اذ كنت في الثامنة عشرة من العلم وأجعت ترجمته الى العربية ، ثم أنجزت ذلك نقلاً عن نسخته الافرنسية التي كان يسهل على الترجمة عنها أكثر من النسخة الانكليزية . ثم اني لأجل زيادة التدقيق والضبط أطلعت عليها العلامة الشهير أستاذ أساتيد العصر الدكتور فانديك ، الذي كان لي عليه تردد كثير ، وكان له نحوي ميل شديد وكننت ممن يستضيء بأرائه . فالدكتور فانديك والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده طيب الله ثراهما ، هما اللذان صححا عزمي على ترجمة هذا الكتاب ، وباشرت ذلك وصرت آتي من الترجمة الى الدكتور بكراس كراس ، وهو يطالعها ويراجعها ويصحح ما يراه محتاجاً الى التصحيح . وقد كان تصحيحه للألفاظ العلمية والاصطلاحات الفنية التي لم أكن لذلك العهد أركن الى نفسي فيها . ولا تزال تصحيحات الدكتور فانديك بخط يده على حواشي المخطوط . وان يسر الله طبع هذا الكتاب فسأطبع عبارات تصحيحه كما كتبها هو أي منذ ٤٣ سنة . ولقد شهد لي الدكتور يومئذ بصحة الترجمة وقال لمن سأله عنى فيها هكذا : « جاء بالصنعة »

واني لنأقل الآن بالحرف قول العلامة « درابر » من كتابه المذكور تحت عنوان : « الفصل الرابع : في تجدد العلوم في الجنوب » مترجماً بقلمى القاصر منذ ثلاث وأربعين سنة مصححاً بقلم الدكتور العلامة الأشهر فانديك الاميركاني عفا الله عنه وجزاه خيراً : —

« قال الامام على : لاحظت كثيراً في مدة حياتي الطويلة أن الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم . ولعمري ان هذه الملاحظة الفلسفية البعيدة المرمى التي آتى بها صهر محمد ، لمي عين الصواب . فانه مهما كانت ملامح المرء وتقاطيعه دالة على نسبته فان البيئة التي يوجد فيها لمي منشأ طبيعته الفكرية وحد وجهته العقلية . ولما فصح عمرو بن العاص نائب الخليفة عمر ، أرض مصر ، وضمها الى المملكة العربية ، وجد في الاسكندرية نحوياً يونانياً اسمه يوحنا فيلوبونوس ، ومعناه « محب الشغل » فخلت بينهما مودة ، ورغب هذا الرجل الى عمرو أن يتخلّى له عن بقية المكتبة الكبرى ، مما لم يكن أخنى عليه الدهر ، ولا ذهب به التعصب ولا أفتته الحروب . فاستأنن عمرو الخليفة في ذلك فأجابه :

« هذه الكتب اما أن تكون موافقة للقرآن ، أو مخالفة له ، فان كانت موافقة فنحن

في غنى عنها ، وان مخالفة فهي ضارة وواجب احراقها » فوزعت على جامات الاسكندرية وبعد ستة أشهر لم يبق شيء منها ^(١)

ومهما وقع من المراء في هذه المسئلة فما لا شك فيه صدور هذا الأمر عن الخليفة ، لأن عمر لم يكن من الطبقة المشتغلة بالعلوم ، ولم تكن الجامعة التي حوله الا من الرجال المتحمسين في الدين الذين ليس لهم هوس بشئ آخر . فعمل عمر قد حقق ملاحظة على . ولا ينبغي أن يظن أن الكتب التي كان طمع فيها « محب الشغل » كانت كتب الخزائن الكبرى المنسوبة الى البطالسة ، والى أو مانوس ملك برغام ، بل كان قد مضى الف سنة على العهد الذي ابتداء فيه فيلادلفيوس بجمع كتبه . وكان يوليوس قيصر قد أحرق أكثر من نصفها . وكان بطارقة الاسكندرية قد سعوا سعياً حثيثاً في احراقها . وقد روى أوراسيوس أنه كان قد شاهد قطرات المكتبة فارغة ، قبل ان صدر أمر الامبراطور لتأويلوس عم القديس كيرلس ، باحراق الكتب بمدة عشرين سنة . وعلى فرض عدم جريان هذه الأحوال . على هذه المكتبة ، فان طول الاستعمال ، وكثرة الممارسة ، وما هناك من العوارض والحوادث اليومية ، والسرقا على طول مدة عشرة قرون متوالية ، لمن الأسباب التي تخنى على كثير من موجود المكتبة . ولا جرم أن يوحنا النحوى لم يكن له طاقة بنصف مليون مجلد . ولم يكن ليقدّر أن ينفق عليها انفاق البطالسة والقيصرة . هذا وان المدة التي زعموا استغرق الحريق اياها لا ينبغي أن تكون قاعدة للحساب ، فان ورق البردى سهل الوقود ، ولكن الرق لا يتقد بسهولة ، ولهذا لم يكن الجاميون يؤثرونه ما وجدوا غيره . وقد كان القسم الاكبر من كتب مكتبة الاسكندرية من الرق المذكور .

وأصح وأوثق من احراق عمر لمكتبة الاسكندرية ، احراق الصليبيين لمكتبة طرابلس الشام التي قيل انهم وجدوا فيها نحواً من ثلاثة ملايين مجلد . فقد كانت المسئلة دينية من الجانبين . ويقال ان الصليبيين لما دخلوا القاعة الأولى من المكتبة الطرابلسية ، لم يجدوا الا المصاحف ، فظنوا الأمر كذلك في سائر القاعات فاضرموا النار في الجميع . وليعلم ان خبر هاتين الواقعتين لا بد أن يكون وقع فيه شيء من المبالغة . ولكن لا بد أن

(١) كتب الدكتور فاندريك على حاشية هذه الجملة : هذه القصة حكاهما غريغوريوس أبو الفرج وعليها

يكون له أصل من الصحة . وهكذا لا يزال التحمس الديني له هذه الأمثال . أفلم يحرق الأسبانيول في المكسيك قطع الكتابات البروغليفية تلك الخسارة التي لا تعوض . أفلم يحرق الكردينال كسيمينس في ساحة غرناطة ثمانية آلاف كتاب عربي ، قسم كبير منها تراجم للعلماء والمؤلفين^(١)

ولقد رأينا تأثير الحروب في انتشار العلوم لعهد البطالسة وما أيقظته غزوات الاسكندر للفرس من الهمم في طلبها ، وقد كانت النتيجة نفسها لغزوات المسلمين . ومن الصداقة التي انعقدت بين عمرو بن العاص ، ويوحنا النحوي ، يظهر لك مقدار ميل العرب بطبيعتهم الى حرية الفكر . فانهم ماخرجوا من وثنية الجاهلية الى التوحيد المحمدي حتى استعدت قرائح جميعهم للعلوم الفلسفية ، والفنون الأدبية ، وكان نساطرة سورية ، ويهود مصر ، هم الذين ينهجون لهم السبيل لذلك . ولقد كنا أشرنا الى ما أصاب نسطور وأصحابه من الانتقام بسبب قولهم بوحدانية الخالق ، تبارك وتعالى ، وانكارهم وجود سماء ذات آلهة واهلات ، وقولهم نعوذ بالله من الاعتقاد بملكية السموات مريم العنراء .

فهذه العقائد التي كان عليها النساطرة ، سهلت جداً علائقهم مع المسلمين . ولم يكتف هؤلاء من مودتهم بمجرد المجاملة ، بل قلّدوهم المناصب في المملكة . وكان النبي نفسه يوصى بهم خيراً . وكذلك الخليفة عمر . وكانت لهما عهود بحسن معاملتهم . ثم في دور العباسيين وضع هرون الرشيد دور العلم العامة تحت نظارة يوحنا بن ماسويه^(٢) وزد على

(١) الذي قرأته في بعض كتب الاسبانيول ان الذي أحرقوه في غرناطة من الكتب العربية أكثر من هذا العدد بكثير قبل مائة ألف كتاب وقيل أكثر وانهم أحرقوا كل الكتب بدون استثناء ، سوى كتب الطب والطبيعة والحساب

(٢) قال في طبقات الاطباء : كان يوحنا بن ماسويه مسيحي المذهب ، سريانياً ، قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد باهرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباهها المسلمون ووضعه أميناً علي الترجمة وخدم هرون والأمين والمأمون وبنى علي ذلك الى أيام المتوكل . وكانت بنو هاشم لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم الا بمحضته

الفساطرة اليهود ، فان هؤلاء عند ما مالت النصرانية الى الأخذ عن الوثنية ثم دخلت فيها عقيدة التثليث ، ازداد نفورهم من النصرانية ، ولم تزد القرون الطويلة التي مضت عليهم بالمصائب والنكبات الا استمساكا بعقيدتهم التوحيدية ، ومقتناً للبادئ الوثنية التي أشر بواكرايتها أيام أسره في بابل . فترجواهم والفساطرة مؤلفات كثيرة يونانية ولاينية الى السرياني ، ثم نقلت هذه الكتب الى العربي وسار الفساطرة يعلمون أولاد أمراء الاسلام واليهوداء لهم .

وهذا الائتلاف كسر من سورة التعصب الاسلامي ، ودهت من أخلاق المسلمين ، وأعلى من مستواهم الفكري ، فجابوا ممالك الفلسفة والعلم بأسرع مما جابوا ولايات المملكة الرومانية ، وعدلوا عن الافكار العامية الى الحقائق العلمية

والحاصل أنه في ذلك العالم التي أغارت عليه الوثنية ، لم يبق آخذاً بنار الوحدانية الالهية الا سيف المسلمين . وما أعان كثيراً على حصول هذه النتيجة عقيدة القضاء والقدر التي في القرآن « أينا تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة »

وقد قال علي : لا ريب في أن جميع أعمال العباد هي بيد الله وحده . فالمسلمون الحقيقيون هم الذين يخضعون لمشيئة الله فيوفقون بين الاختيار المطلق ، وسبق قضاء الله قائلين : « قدر علينا القضاء وعلينا وضع ألوانه » ويقولون : « اذا شئنا التسلط على قوى الطبيعة لم يلزمنا أن نحاول مقاومتها رأساً ، ولكن تعديل القوة الواحدة بالآخرى » . فهذه العقيدة هيأت ذويها للقيام باكبر الأعمال فتبدلت باليأس الاتكال ، واحتقرت الآمال « اليأس حر والأمل عبد »

على أن خوض الغمرات أظهر للمسلمين أن في الطب مع ذلك تخفيفاً للألام . وفي الجراحة ضماً للجروح . وان الذين أشفوا على الهلاك يمكنهم بواسطة العلم أن يعودوا (باذن الله) الى الحياة . وتقرر أن للاختيار المطلق مدخلاً عظيماً في الحياة الشخصية ، وان الانسان يمكنه الى درجة معلومة أن يصور بأعماله الاختيارية اقدار نفسه ، أما الجماعات فليس لها ضمان شامل ، وانما تحمي في ضمن مملكة النواميس الثابتة

وكان الخلاف بين المسيحية والمحمدية في هذا المقام عظيماً . لأن المسيحي كان مؤمناً بدوام التدخل الالهى ولم يكن يعتقد بناموس أزلى أبدي يدور عليه الكون ، وكان يرجو

بصلواته تغيير سير الأشياء ، وإن لم تكن صلواته مما يستجاب فبصلوات مريم العذراء والقديسين ، وبحرمة النخار المقدسة . وكان اذا رأى صوته ضعيفاً التمس ذلك من الكهنة والاشخاص المشهورين بالتقوى ، وأضاف الى صلواتهم الهدايا والتسود والصدقات . وكانت النصرانية بأسرها تعتقد بإمكان انقلاب العالم بحذافيره بواسطة الخوارق والمعجزات . فاما الاسلام فكان بالعكس ، معتمداً على التسليم الطاهر للارادة الالهية . فكانت صلاة المسلم عبارة عن الشكر لله تعالى على ما قدره للعبد وصلاة المسيحي تضرعاً لأجل الانعام بالخيرات المرتجاة وكلاهما اعتاض بالصلاة عن رياضات الهنود واستغراقتهم في التأمل . فليس الوجود عند المسيحي الاسلسلة حركات فجائية وحوادث قد تجيء متناقضة بتأثير الصلوات والقداسات التي تتعاجلها . وليس الوجود عند المسلم الاسلسلة مفاعيل وعلل آخذ بعضها برقاب بعض . فما حركة جسم من الاجسام عند المسلم الا نتيجة حركة سابقة ، وما الفكر عنده الا وليد فكير آخر . ولكل حادث تاريخي عنده منبع في حادث قبله ولكل عمل بشري أصل في عمل آخر . ولم يحدث في العالم الانساني شيء الا وقد أُعيد من قبل . فهناك تسلسل منطقي مطرد . وان القضاء هو أشبه بسلسلة من حديد كل حادث فيه بمثابة حلقة منها . وهذه الحلقة قد وضعت موضعها منذ الأزل ونحن جئنا الى الدنيا ولا علم لنا ونخرج من الدنيا رغم ارادتنا فلم يبق علينا الا أن نكون منتظرين

وبما عدا هذا الرأي بشأن سير الحياة البشرية ، جدّ عند المسلمين رأى آخر بشأن تكوين العالم العضوي . فقد كانوا في الاول يفهمون من ظاهر القرآن ان الارض رقعة مسطحة مربعة الزوايا ، محاطة بجبال عالية ، وهذه الجبال هي التي تنوط الارض بقبة السماء وتحمل الفلك أيضاً ^(١) فيجب أن تتأمل تأمل الزهاد في هذه القدرة الالهية التي بسطت هذه الرقعة الفسيحة المتلاثلة التي لا نجد فيها خلالاً ولا سقطاً وفوقها السبع الطباق ، وفوق السبع الطباق الله تعالى مستوٍ على عرشه ، تحت صورة رجل عظيم القامة الى النهاية ، عند رجليه ثيران ذات أجنحة نظير ملوك أنور الاقدمين ^(٢)

(١) انما يصدق كلام درابر هذا على أفكار العوام من المسلمين ومن المعلوم ان أفكار العوام لا يصبأ بها .

(٢) وهذا أيضاً كلام عوام بل أكثر العوام لا يقبلونه وقد وجد في الاسلام فرق قليلة بحجة الا أن تجسيمها مقرون بعدم تشبيه صفات الباري تعالى بصفات البشر وبأن الكيف مجهول

وهذه الافكار لم تكن خاصة بالمسلمين بل وجدت عند غيرهم . وهي مما ينشأ عند الانسان في بعض أطوار نموه . ولم يطل أجلها في الاسلام ، بل تبدل بها المسلمون أفكاراً علمية صحيحة . وكما جرى في البلدان المسيحية لم يتم هذا الأمر بدون مقاومة حجة المبادئ الدينية . فان المأمون لما عرف كروية الارض أصدر أمره لمن كان عنده من الرياضيين بقياس درجة من الدائرة الارضية ، فقام بعض علماء الدين وعدوا ذلك فسقاً وخروجاً عن الدين ، وأرادوا أن يثيروا العامة عليه ، لكن المأمون لم يبال ماقلوه وثبت في عمله وأمر بحرى القياس على شواطئ البحر الاحمر وفي سهول سنجار بواسطة الاسطرلاب . وتقرر ارتفاع القطب فوق الافق بمنزتين مسافتهم درجة على دائرة نصف النهار ، ثم قاسوا بعد المسافة بين المنزتين فوجدوها مائتي الف ذراع هاشمى فحصل من ذلك لدائرة الارض أربعة وعشرون الف ميل انكليزى . وهو حساب لم يكن بعيداً كثيراً عن الحقيقة

وأمر الخليفة ، استزادة من العلم واستقصاء في التحقيق ، بأجراء قياس آخر بقرب الكوفة فانقسم الفلكيون المأمورون بهذا الامر الى فرقتين ، كل منهما سارت من نقطة معينة فقاست قوس درجة واحدة ، احدهما في نحو الشمال والاخرى في نحو اليمين ، ومن ثمة اتصلوا الى نتيجة معلومة . فان كان الذراع الذى جعلوه مقياساً هو الذراع السلطاني فيكون طول الدرجة ثلث ميل . ومن هنا استدل الخليفة على كروية الارض

وما ينبغي التنبيه عليه ان التعصب الدينى في الاسلام لم يلبث أن أذعن لحرارة البحث العلمى ، وبعد ان كان القرآن في ظاهر الحال حاجزاً دون تقدم العلوم صار هو الكتاب الكفيل بأعظم الاعمال الممكنة ، وأصبح دليلاً على صحة الدعوة المحمدية^(١)

(١) انه مما تفضى به أمانة النقل ان أثبت هنا ما كتبه الدكتور فاندك بخطه في حاشية هذه العبارة فقد قال : ان القرآن يوافق الترفض مع المترفضين وفيه مهرب أو مهابر لمن طلب العلوم . ولا تقدر أن نوافق الدكتور فاندك مع جلالة قدره علي كون القرآن وافق في شئ من الأشياء علي رفض العلم . كما اتنا لا تقدر أن نوافقه علي كون الأماكن الكثيرة الصريحة التي حث فيها القرآن علي طاب العلم وعظم فيها الحكمة هي مما يقال له مهرب أو مهابر ينفذ منها طالب العلم . اتنا لا تقدر أن نؤول هذا القول من العلامة فاندك الا اذا تذكرنا انه كان قسيساً بروستانتياً ، وان الشهادة الصريحة للقرآن لا تسهل علي ذي مقام رسمي في الكنيسة الا انه ما يجب التنبيه عليه أيضاً ان العلامة فاندك مر بجميع مقالة دواير بحق الكنيسة بدون أن يعلق أدنى اعتراض

انه بعد انتقال النبي الى ربه بنحو من عشرين سنة . تنبّهت الأفكار واتسعت الاختبارات بما جرى من فتح سوريا وآسيا الصغرى ومصر ، وشرع الخليفة علىّ ينشط العلوم ، ويروج سوق المعارف الأدبية ، كما ان معاوية رأس الأمويين قلب صورة الحكم ، فصّيره اراثياً بعد أن كان انتخائياً . ونقل كرسى الخلافة من المدينة الى دمشق وهو موقع أحسن توسطاً وأمكن مركزاً وأدخل في موكبه الزينة والابهة وكسر قيود التعصب الشديد وأحب العلم وأهله . وكان أحد مرازمة الفرس قد جاء لينظر عمر بن الخطاب في المدينة فبصر به مضطجعا أمام جامع المدينة ، بين المساكين ، ولو دخل على معاوية كما كان يدخل سفراء الملوك لراه في قصر فاخر باهر الرياش مزخرف النقوش العربية بين الحياض والأزاهر ولم يمض نصف قرن على وفاة محمد حتى نقلت الكتب اليونانية المشهورة الى اللسان العربى ، كما انها ترجمت المنظومات الشعرية كالإلياذة ، والأوديسا الى اللغة السريانية وخُصّت هذه باستعمال العلماء دون غيرهم لما كان فيها من الأخبار الميتولوجية المنافية للعقائد الاسلامية . ثم نقل الخليفة المنصور (٧٥٣ - ٧٧٥) قاعدة ملكه الى بغداد وصيّرها عاصمة زاهية زاهرة ، وقضى كثيراً من أوقاته في درس علم الفلك ، وشاد مدارس طبية وفقهية . واحتذى على مثاله حفيده هارون الرشيد (٧٨٦) فأصدر أمره بإضافة المدارس الى المساجد في كل أقطار المملكة ، لكن عصر العلم السعيد انما كان في خلافة المأمون الذى جعل دار السلام حاضرة العلم الكبرى وجع خزائن كثيرة للكتب وعكف على مدارس العلماء ومثافتة الحكماء . وقد بقى هذا الذوق المكتسب عند خلفاء العرب الى ما بعد انقسام المملكة العربية الى أقسامها الثلاثة فكان العباسية فى آسية والفاطمية فى مصر والأموية فى اسبانية لايتنازعون الرياسة الدنيوية فقط ، بل يتناظرون فى العلوم والمعارف والآداب ويتسابقون فى ميدانها .

وكان العرب فى الأدب عارفين بجميع الفنون التى تشدّد الفكر وتهذب العقل ، وتروض الخاطر : وحق لهم الفخر فيما بعد بأنه نبغ فيهم من الشعراء والأدباء أكثر مما نبغ فى جميع الأمم معاً . وأما تفوقهم فى العلوم فقد كان بالطريقة التى تلقوها عن يونان الاسكندرية ، وليس عن يونان اوربة ، وذلك انهم أدركوا ان مجرد التأمل بعيد عن أن

يبلغ بالانسان الغاية المقصودة ، وأن هذه الغاية لا تنال الا بمراقبة الأمور واختبار الأشياء أى الطريقة التجريبية . وكانوا يرون الجبر والرياضيات آلات للمنطق ، ويلاحظ من تأليفهم الكثيرة فى جر الأثقال (الميكانيك) وعلم موازين السوائل (الهيدروستاتيك) وعلم البصريات ، أن حلهم للمسائل العلمية كان دائماً بطريقة الاختبار المباشر أو بالمراقبة الآلية . وهذا هو السبب فى وضع العرب لعلم الكيمياء ، واختراعهم عدة آلات للتقطير والتصفية والتدوير والتصفية . وكذلك هو السبب فى استعمالهم فى مراقبة الفلك الآلات المدرجة كالربوع المجيئة والأسطرلابات . وقد استخدموا فى الكيمياء الميزان الذى أتقنوا معرفة قاعدته وأنشأوا جداول للثقل النوعى . ولهم الزيجات الفلكية الشهيرة مثل زيجات بغداد ، وقرطبة ، وسمرقند ، وكان ذلك من أعظم وسائل نجاحهم فى الهندسة والمثلثات ، وتوصلهم الى ابتكار علم الجبر ، واتخاذ طريقة الرقم الهندى ^(١) وذلك كله نتيجة اتباع العرب مذهب ارسطو فى الفلسفة دون مذهب أفلاطون لأن الأول تفصيلى والثانى اجالى .

واعتنى العرب كثيراً بجمع الكتب وبنوا لها الخزائن العظيمة ، وقيل ان المأمون استجلب الى بغداد مقدار مائة جل جمل من الكتب . وكان من جملة شروط معاهدة له مع الامبراطور ميخائيل الثالث ، أن يتخلى له عن احدى مكاتب القسطنطينية . وكانت وُجدت فى بعض الخزائن رسالة بطليموس فى الرياضيات السماوية فأمر المأمون بنقلها الى العربية باسم المجسطى . وما زال المأمون يُعنى بأمر المكاتب حتى كانت خزانة كتب القاهرة تشتمل على أزيد من مائة ألف مجلد جيدة النسخ والتجليد . وكان منها ستة آلاف وخمسمائة مجلد فى فنى الطب والفلك لا غير . وكان قانون هذه الخزانة لا يمنع اعارة الكتب للدارسين المقيمين بالقاهرة . وكان فيها كرتان احدهما من الفضة الصلبة ، والأخرى من النوع المسمى بسكب الرمل ، يقال ان الاولى من صنع بطليموس وبلغت قيمتها ثلاثة آلاف دينار . ثم مكتبة خلفاء اسبانية وكانت تشتمل على ستمائة ألف مجلد وكان برنامجها وحده فى أربعة

(١) قد كتب الدكتور فاندك بخطه فى حاشية هذه العبارة ما يلى : هذا خطأ لأن العرب لم يخترعوا الجبر بل أخذوه عن الهنود كما أخذوا منهم الأرقام الهندية . والحقيقة ان هذا رأى من الآراء وقد تقدم لنا نقل كلام عدة من علماء الاوربيين الذين يذهبون الى كون الجبر من اختراع العرب

وأربعين مجلداً ، وكان ماعداها في الأندلس سبعون خزانة عامة للكتب وكثير من الخزائن الخاصة . ويقال ان أحد العلماء رفض يوماً دعوة سلطان بخارى للقامة ببلاطه ، معتذراً بأنه يلزمه لنقل كتبه لا أقل من أربعائة جل (١)

وكان في جميع هذه المكاتب الكبيرة أماكن للنسخة والترجمة بل كان مثل ذلك في المكاتب الخصوصية فإن حنين بن اسحاق الطبيب النسطوري كان اتخذ لنفسه في بغداد مقاما من هذا النوع (٨٥٠) وترجم ارسطو وأفلاطون وابقراط وجالينوس . وأما في التأليف الأصلية فكانت عادة الأساتيد القاء المواضيع على الطلبة ، ثم جمعها رسائل . وكان عند كل خليفة من الخلفاء رواة وقصاصون ، وناهيك بقصصهم التي منها الف ليلة وليلة ، دليلاً على ما أوتي العرب من قوة التصور . وعمّ التصنيف جميع الفنون والمواضيع كال تاريخ والفقه ، والسياسة ، والفلسفة ، وتراجم الرجال ، وأوصاف الخيل والجمال ، وكانت جميعها تنتشر بدون معارضة الدولة . ولم يحدث الأمر بشأن كتب العقائد ومنع بعضها الا بعد ذلك بكثير . وكان العرب يتألقون الى الغاية في الورق وألوانه ، والحبر وأنواعه ، ويزينون فواتح الكتب ، ويموهون منها بالذهب على أنواع وأشكال لا تحصى .

فامتلات المملكة الاسلامية في مدة قصيرة بالمدارس والمكاتب من بلاد المغول شرقاً الى مراكش واسبانيا غرباً ، وارتفع في الطرف الشرقي من هذه المملكة التي كانت تفوق المملكة الرومانية في مساحتها مرصد سمرقند ، وفي الطرف الغربي منها مرصد الخالدة في اسبانية (٢)

قال جيبون في كلامه على ما كان من تنشيط العرب للعارف : ان امراء المقاطعات كانوا يناظرون الخلفاء في محبة العلم ، وبسعيهم انتشر العلم من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . وقد أنفق أحد الوزراء مائتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد ، أجرى عليها خمسة عشر ألف درهم سنوياً ، وكانت هذه المدرسة عمومية يقرأ فيها ستة آلاف طالب ،

(١) هذا هو صاحب بن عباد كان وزيراً لمؤيد الدولة ابن بويه ، ولاخيه نضر الدولة بعد مؤيد الدولة . وكتب اليه الملك نوح بن منصور الساماني يرض عليه الوزارة في مملكته فأجابه معتذراً وكان من جملة أعذاره استلزام نقل كتبه لاربعمائة جل

(٢) هو الذي يسميه الاوربيون بالجيرالده في اشبيلية

يُدرسون معامن ولد السيد الرفيع الى ولد الصانع الوضع وكانوا يُجرون النفقات على التلاميذ الفقراء ، ويؤدون الرواتب الجلة للعامين ^(١) وكنت ترى العلوم والآداب رائجة الأسواق في جميع المدن والأمصار ، وكانوا كثيراً ما يعهدون بإدارة المدارس الى النساطرة واليهود مما يدل على روح التسامح لذلك العهد فلم يكونوا ينظرون الى وطن العالم ، ولا الى دينه بل الى جهة فضله . وكان الخليفة المأمون يقول عن العلماء : انهم صفوة الله في خلقه ، ونخبته من عباده ، صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة ، فكانوا مصاييح الدجى وسادة البشر ، وأوحشت الدنيا لفقدهم .

واقترنت جميع المدارس الطبية العربية بمدرسة القاهرة في تشديد الامتحان على المخرجين منها ، فلم يكونوا يأذنون بممارسة الطب الا لمن أُنقن التحصيل ، وامتنحن امتحانا تاما ، وأول مدرسة طبية في اوربا اقتدت بمدارس المسلمين مدرسة ساليرنا . ولعلنا نخرج عن حدود هذا التأليف لو شئنا تفصيل هذه الحركة العالمية التي وُجبت عند العرب . فانهم وسعوا نطاق العلوم القديمة ووضعوا علوماً جديدة ، وأدخلوا طريقة الهند الحسائية ، وهي من الاختراعات العقلية البديعة لاشارتها الى الأعداد بأرقام عشرة ذات قيمتين ، المستقلة والنسبية ، ولتيسيرها قواعد بسيطة لجميع الحسابات . وأما الجبر أو الحساب المعمم الذي موضوعه الكميات غير المعروفة ، والبحث عن علائق الكميات من أى نوع كان حسابياً كان أو هندسياً فقد أخرجوه من ضمن الحدود التي كان حصره فيها ديوفانتوس . وبسط محمد بن موسى حل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية ، وعمر بن ابراهيم حل المعادلات الجبرية من الدرجة الثالثة . والمسلمون هم الذين أوصلوا علم المثلثات الى صورته الحالية ، واعتاضوا بالجيوب عن الأوتار وجعلوه علماً مستقلاً . ومحمد بن موسى الذي ذكرناه هو بعينه مؤلف رسالة المثلثات الكروية . وللبغدادى رسالة في مساحة الأراضى في غاية الابداع حتى ظن كثيرون انها نسخة من بعض تأليف اقليدس . وأما فى الفلك فلم ينشئ العرب ازياجاً فقط ، بل رسموا صفائح للنجوم المنظورة وسموا النجوم الكبرى التي فى الكرة السماوية بالاسماء التي تعرف بها اليوم ، وقاسوا مساحة الأرض وطول الدرجة كما تقدم الكلام

(١) يشير درابر هنا الى المدرسة النظامية التي شادها الوزير نظام الملك في بغداد وشهرتها غنية عن التعريف

عليه ، وفصلوا مسألة انحراف دائرة البروج عن خط الاستواء ونشروا صفاً مرسومة عليها حركة القمر والشمس وهي صحيحة . وقرروا مدة السنة الشمسية وحققوا حركة مبادرة الاعتدال .

وقد أظن « لابلأس » في ذكر رسالة علم النجوم تأليف البتاني وذكر رسالة أخرى جلية لأبن يونس الذي كان فلكي الحاكم في مصر سنة ألف للمسيح تحتوي على سلسلة اختبارات من زمن المنصور في الكسوف والاعتدال والانقلاب وقران السيارات واحتجاب الكواكب . وهي مراقبات فلكية جلية أضأت الأبواب في مسائل تغييرات الكرة السماوية . وعكف الفلكيون العرب على اتقان الآلات الفلكية وقياس الزمان بالساعات المختلفة منها المائية ومنها الشمسية وهم أول من استعملوا لذلك الساعة الكبيرة ذات الرقاص

وأما في العلوم التجريبية ، فهم الذين وضعوا علم الكيمياء وكشفوا خواص الجواهر التي يتوصل بها الى معرفة طبائع الأجسام ، والحامض الكبريتيك ، والحامض النيتريك ، والكحول ، وجعلوها في الطب . وهم أول من استعملوا الأقرباذين ، وافتتحوا الصيدليات المجانية وجعلوا فيها المستحضرات المعدنية . وأما في الميكانيك ، فعرفوا قاعدة سقوط الأجسام وقليلاً من الجاذبية . وكان لهم علم بالديناميك أى حركة الأجسام وأنشأوا في علم السوائل جداول لبيان الأتقال النوعية . وكتبوا رسائل في الاجرام الطافية والراسبة . وعدلوا في العلم البصري عن القول اليوناني القديم بذهاب النور من العين الى الجسم المنظور ، الى القول بانعكاس الأشعة وانحرافها ، وكشف الخازن انحناء الشعاع المار بالكوة الهوائية ، محققاً اننا نرى الشمس والقمر قبل وجودهما حقيقة فوق الأفق وبعد غيابهما تحته ، وظهرت نتائج هذه الحركة العلمية الكبيرة في الصناعات فاستفادت منها الزراعة في رى الأراضى وتدميلها وتربية المواشى وانتشرت للفلاحة قواعد مضبوطة فنية ، وأدخلت زراعة الارز والسكر والبن ، واتسعت أعمال المعامل فيما يتعلق بنساجة الصوف والحرير والقطن وضع الورق والجلد في قرطبة ومراكش ، وأسيلت الجوامد واستخرجت المناجم وتسلطت الأيدي على أنواع المعادن وكان لمعمل السلاح في طليطلة شهرة طائرة .

ولما كان للعرب ولوع خاص بالغناء وقرض الشعر ، قضوا كثيراً من أوقاتهم بمباشرة هذه الملاذ العقلية ، وهم الذين عرفوا الاوربيين بالشطرنج والهبوا فيهم حب الاقاصيص . وكانت للعرب قدم راسخة في آداب أسمى من هذه كعلم الاخلاق ، والزهد ، والنسك ، ولهم التواليف النفيسة في زوال العظّمات الدنيوية ، واضمحلال المجد الباطل ، وعواقب الكفر وأصل الكون ، وبقائه ، وانتهائه . وانا لنعجب غاية العجب مما نجده أحياناً في كتبهم من التصورات والافكار التي كنا نظنها عصرية محدثة فاذا بهم قد سبقوا اليها . وذلك كذهب النشوء والارتقاء في الكائنات العضوية ، فقد كان هذا المذهب يعلم في مدارسهم وكانوا يذهبون فيه الى أبعد مما نذهب اليوم باطلاقه على الجواهر غير العضوية (١) وكان عندهم مبدأ الكيمياء الأساسي هو التركيب التدريجي في الاجسام المعدنية قال الخازن : « ان الجهلة حينما يسمعون بتحول بعض الاجسام بطريق التكامل الى ذهب يفهمون انه مرّ بصور الاجسام المعدنية الاخرى أى أنه كان رصاصاً ، ثم صار قصديراً ، ثم صار من نوع سكب الرمل ، ثم فضة ، الى أن انتهى ذهباً . ولا يدركون ان الفلاسفة يريدون بما يقولونه الانسان أيضاً . اذ لم يصل الى الحالة التي هو فيها الآن بالانقلاب السريع بل بالتدريج كأن مرّ بصورة العجل ، فالجمل ، فالفرس ، فالقرد ، الى أن انتهى انساناً » . انتهى .

وقد جاء ذكر مدينة العرب أيضاً في كتاب درابر في الفصل السادس المتعلق بطبيعة العالم والمقايضة بين ما كان عليه الاوربيون في القرون الوسطى وما كان عليه العرب قال : « وقد مضى القسم الاكبر من هذه القرون على النصرانية بالمنازعات على الطبيعة الالهية والاختلاف على السلطة الكنسية » . وهذه كانت تجد كل حقيقة داخل الاسفار المقدسة فتثبط الناس عن كل بحث . واذا اتفق لزوم النظر في مسألة فلسفية مثلاً كان يرجع فيها الى فصل للقديس اغسطينوس أو لاكتانسيوس ، ولم يكونوا يجدون حاجة الى مراقبة الاحداث الجوية . وعلى هذه الحال استمر ترجيح العلم الديني على العلم الدنيوي مدة خمس عشرة مائة سنة اذ في كل هذه المدة لم يولد في النصرانية فلكي واحد

أما المسامون فقد كان عملهم في هذا المقام أحسن جداً ، فقد بدأوا يعتنون بالعلوم

منذ افتحوا الاسكندرية (٦٣٨) فلم يمض على ذلك قرنان حتى درسوا جميع علوم يونان وترجوا كتبهم ، وكان المأمون أمر بترجمة كتاب بطليموس الى العربية ومن بعدها قاس العرب قطر الارض ، ووضعوا جدولاً للنجوم المرئية ، وسموا الكبرى منها بالاسماء التي تعرف بها الى الآن . وقرروا مدة السنة الشمسية ، واخترعوا الساعة بالرقاص ، وكشفوا انكسار النور ، وفعله برؤية الاجرام السماوية ، وقاسوا ارتفاع الهواء الكروي ، وقرروا انه يبلغ ثمانية وخمسين ميلاً . وكذلك عرفوا مسألة النور الشفق وتألق الكواكب . وهم الذين بنوا أول مرصد فلكى في أوربة . وقد صح كثير من رصدهم واعتمد عليه أبرع علماء الرياضة المحدثين . ذكر لابلاس في كتابه « نظام العالم » ان ارساد البتاني تقيم الأدلة الساطعة على اهليجية فلك الارض ، وان تحقيقات ابن يونس تثبت تغير ميل دائرة البروج

على خط الاستواء وانحراف سير المشتري وزحل

كل هذا الذي نذكره ليس الا جزءاً يسيراً من الخدمة الجزيلة التي قدمها فلكيو العرب للعلم ، والعناء الذي عانوه لحل المسائل الطبيعية . هذا بينما ظلمات الجهالة مطبقة على النصرانية وأهلها لا يفكر منهم أحد بهذه الأمور ، وانما عنايتهم منصرفة كلها الى المشاجرات الدينية وعبادة الصور وتحول الخبز جسداً ، والخر دماً ، واستحقاقات القديسين والمعجزات والاعاجيب وشفاء الامراض بالذخائر المقدسة . وبقي هذا الجهل مخمياً على أوربة الى غاية القرن الخامس عشر ، ولم يقع التقدم بعد ذلك الى طلب العلم من جهة حب العلم لنفسه والولوع بكشف الحقائق . ولكنه بدأ بمنافسات تجارية وظهر الرحالات الثلاثة كريستوف كولمبوس ، وفاسكو دوغاما ، وفرديناند مجلان ، وبأسفارهم تقرر كروية الارض .

وقد حدث كولمبوس عن نفسه بأنه انبعث الى السفر قاصداً الهند من طريق الاطلانتيك وذلك بمطالعة كتب ابن رشد . ووجد بين أصحابه رجل فلورنتي اسمه « توسكانلي » درس الفلك وجاهر بالقول بكروية الارض . ولما ظهر مشروع كولمبوس قام الاكليروس الاسبانيولى وقعد وحكم عليه مجمع طامنكة Talamanque بالكفر وانما عرضوا مذهبه عند المحاكمة على مقالات القديسين يوحنا فم الذهب ، وأغسطينوس ، وأيرونييموس ، وغريغوريوس ، وباسيليوس ، وامبروسيوس ، ورسائل الرسل والانجيل والنبوءات والمزامير والتوراة الخ .

هذا ما اخترنا نقله من ترجمة كتاب درابر « اختلاف العلم والدين » وهو كتاب شهير مشحون بالفوائد اذا انتدح لنا الوقت قد نعيد النظر عليه ، ونطبعه مع تعليقات العلامة الدكتور فاندريك الذي طالع الترجمة كلها

ومن تكلم على مدنية العرب وأجاد واشتهر كتابه في كل ناد ، الفيلسوف الافرنسي الدكتور غستاف لوبون الذي توفي منذ نحو شهرين أو ثلاثة عن ٩١ سنة جزاه الله عن العرب وعن الاسلام خيراً . ولقد لخصت كتابه في رسالة وجيزة تذكرة لنفسى ، ثم بلغنى ان الكاتب المصرى المعروف السيد محمد مسعود قد ترجم الكتاب الى العربية ترجمة تامة ، فلهذا قضيت طي رسالى هذه على غرّها ، منتظراً ظهور الترجمة الكاملة . ولقد كان غستاف لوبون من الافرنج المنصفين الذين لم يدافعوا عن حضارة الاسلام فحسب ، بل دافعوا عن حقوق المسلمين وانتقدوا سياسة القهر والهضم التى تعسفهم بها الدول الاوربية المستعمرة . وقد كتب كتابات شافية فى انتقاد قومه الفرنسيس بما يعاملون به مسلمى الجزائر من الظلم ، والارهاق ، ونزع الاراضى ، والتشريد الى الصحراء وغير ذلك . ولقد عرفت هذا الرجل بنفسى منذ أربعين سنة ، وذلك فى باريز اذ ذهبت اليه لاشكره على كتابه الذى كان أخرجه حديثاً عن حضارة العرب ، فقال لى وقتئذ انى كنت ثانى رجل مسلم جاءه وحده فى هذا الموضوع ، وشكره على صنيعه . ولم تساعدنى الاقدار على ملاقاته أكثر من تلك المرة ولكنى كنت أتتبع كتاباته وأتمتع بتصانيفه الكثيرة المفيدة وهو من الفلاسفة الاجتماعيين المعدودين فى هذا العصر

العصبية الفارسية والاسلام

مهييار الديلمي وبديع الزمان الهمداني

على ذكر المؤلف استيلاء العرب على فارس

للمؤلف

يذهب بعضهم الى كون استيلاء العرب على فارس وابادتهم ملك كسرى ، معاً كان سابقاً من العداوة بين هاتين الامتين منذ أحقاب متطاولة ، قد كان من نتائجها ايغار صدور العجم على العرب وتربصهم بهم الدوائر حتى يأخذوا منهم بثأرهم . ولما كان دين الفرس المجوسية قد تلاشى أمام الدين العربي المبين ، وعجز عن أن يكون عنصراً للمقاومة ، انتهز الفرس أول فرصة شقاق وقعت في الاسلام نفسه ونصروا الفئة التي وجدوا أكثر العرب ضدها وهي الشيعة ، ولعبوا دوراً عظيماً في توسيع هذه الفتنة بين العرب من طريق الدين فشفوا احتنتهم من العرب لما كان هؤلاء أزالوه من سلطانهم بدون أن يقاوموا نفس الاسلام الذي رأوا برهانه أسطع من أن يكابر ، بل بمقاومة احدى فتيته التي هي السنة والجماعة والتي كان منها جمهور العرب . لهذا تجد الفارسي يكره العرب ويحتقر كل شيء لهم الا الدين . . . وترى مهييار الديلمي يقول (قد جعت المجد من أطرافه : نسب الفرس ودين العرب) ومع كون الدين الاسلامي يمنع العصبية للأجناس ويضع فوقها اخوة المؤمنين خاصة كانت لا تزال ترى آثار العصبية الفارسية في بلاد العجم بالرغم من مزج الاسلام للأجناس حتى قال صاحب بن عباد ، وهو فارسي الأصل خالص العقيدة الاسلامية عند ما جله أحد الفرس وتلا الأبيات التي يفتخر بها على العرب وجاوبه عليها بديع الزمان الهمداني : ما رأيت رجلاً يفضل العجم على العرب الا وفيه عرق من المجوسية ينزع اليه . ولما رسخت قدم الاسلام في العجم وزال كل عرق للمجوسية منهم عشقوا التشيع عشقاً كان أعظم عوامله كره العرب ، الى أن كاد الانسان يراهم شيعة قبل كل شيء . وبما ينسب الى الفيلسوف الفرنسي رنان : ان الفرس هم شيعة أولاً ومسلمون ثانياً . ولا شك أن في هذا القول مبالغة وانما

يصدق على كثير من عامتهم . وبهذه الأيام الأخيرة نجم عندهم كما عند غيرهم من الامم الاسلامية فئة تدّين بالقومية وتحارب الجامعة الاسلامية ، ولكنها لا تزال ضعيفة بالقياس الى السواد الأعظم الذي عمده الاسلام ، بل قد زال من بينهم أكثر النفرة التي كانت عندهم لاهل السنة بما هو نتيجة انحطاط القوة السياسية الاسلامية بأجمعها وشعور العجم بالحاجة الى التضامن مع سائر المسلمين ، سنة الله في المستضعفين ولن تجد لسنة الله تبديلا

نظرية « القومية العثمانية الاسلامية »

و « القومية التركية الطورانية »

على ذكر المؤلف الترك العثمانيين والطورانيين

للامير شكيب

هذه نظرية الفئة الكبرى من علماء الترك العثمانيين الذين درجوا وقد وافقهم عليها كثير من أدباء الترك المعاصرين مثل عبد الحق حامد بك الملقب بالأديب الأعظم ، وسليمان نظيف بك وأخيه فائق على ، وجناب شهاب الدين بك ، وجلال نوري بك ، والشاعر محمد عاكف ، وأتور باشا المؤرخ ^(١) واسماعيل حقي بك الديار بكري ، واسماعيل حقي بك الازميري ، ورضا توفيق الفيلسوف ، ومنهم على كمال الذي قتله الكمايون في أزميد لحياته وجم غفير من كتابهم ومفكرهم ووزرائهم وشيوخهم ، وهي أن الأتراك العثمانيين وإن كانوا من الترك أصلاً ومحتداً فقد أصبحوا باختلاط دمهم بسائر الأمم التي ساكنوها من قرون في غربي آسية وجنوبي أوروبا من فرس وعرب وكرد وجركس وكرج وروم وأرمن وبلغار وأرناووط وبشناق الخ ، أمة قائمة بذاتها قد ابتعدت كثيراً عن الترك الأصليين ولا سيما من المغول الذين يقال لهم ياجوج وماجوج ، والذين قد اشتهروا بقبح المنظر وغلظ الطبع وكره الحضارة والشغف بسفك الدماء وتخريب الديار ونسف العمران ، مما اتفق المؤرخون شرقاً وغرباً على أنه دأبهم ، حال كون الأتراك العثمانيين قد عرفوا بصباحة الوجوه وكرم الأخلاق ودمامة الطباع وحب المدنية والجمع بين شدة البأس ورقة الشمائل ، ويزيدون

(١) هو غير أنور باشا ناظر الحرية وهذا أيضاً ممن يقول بهذه النظرية

على ذلك أن الثقافة التركية العثمانية والأدب التركي العثماني ^(١) هما خاصان بأتراك آل عثمان لأنهما مقتبسان من الآداب العربية والفارسية ، لأن لغة العرب ولغة الفرس كانتا لغتي العلم والشعر عند الأتراك منذ هاجروا الى غربي آسية ، فلذلك قيل للغة الدولة اللغة العثمانية لافتراقها كثيراً عن لهجة أتراك أواسط آسية ، ولكونها لا تشبه في شيء لغة المغول فهذه الفئة وإن كانت لا تبرا من الترك المسلمين سكان التركستان الروسى والتركستان الصينى وشمالى فارس ، فهى تبرا من المغول وتلعن تاريخهم وتقول انهم هم كانوا سبب بوار الشرق وانحطاط الاسلام ، وانهم هم الذين نسفوا عمران البلاد التركية خراسان وما وراء النهر والبلاد الفارسية والبلاد العربية ، فأهلكوا الملايين ودمروا العواصم الكبرى ، ولم تقم للشرق بعد مصيبتهم قائمة . وبعض هذه الفئة مثل أنور باشا المار الذكر يزعم أنه لا يوجد أدنى صلة نسب بين الترك العثمانيين والمغول ويميل الى أن الترك هم أصلا من الجنس الابيض الآرى ، وإنما اختلطوا بسبب الجوار بالجنس الاصفر المغولى ، وقد وصف بعض مؤرخى الترك أعمال جنكيز وهولاكو وقومهما بمثل ما وصفها به مؤرخو العرب والفرس والافرنج والروس ، لا بل ألفت لهذا العهد رجل اسمه طاهر المولوى كتابا خاصاً بفظائع جنكيز وهولاكو وجنائعهما ، وقال ليس للترك أن يفخروا بمثل هؤلاء المفسدين فى الارض العائين المدمرين الذين كانوا علة انحطاط الشرق عن الغرب ، وأعظم بلاء وقع على الانسان ، وإذا أراد الاتراك المسلمون أن يراجعوا صحيفة احسابهم فيراجعوا تاريخ آل طولون بمصر وتاريخ السلاجقة وآل زنكى الاتابكى والدولة العثمانية . وقال جلال نورى ، صاحب التصانيف الاجتماعية العديدة : الترك العثمانيون هم مسلمون أولا وترك ثانياً

وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية ، تخالف الفئة الاولى فى كل هذه النظريات وأشهر دعائها ضيا كوك الب ، وأجد أغايف ، ويوسف آقشورا اللذان قدما من الروسية ، وجلال ساهر ، ويحيى كمال ، وحد الله صبحى رئيس وبقاق « ترك يوردى » ومحمد أمين بك الشاعر الملى ، وكثير من الادباء والمفكرين وأكثروا الطلبة والنشء الجديد . وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة وأعرقها مجداً وأسبقها الى الحضارة ، وانهم هم والجنس المغولى واحد فى الاصل ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ،

(١) وم يسمون ذلك بالحزب

ولم يقتصروا فيها على الترك الذين في سيريا وتركستان الروس وتركستان الصين وفارس والقوقاس والاناطول والروملی ، بل مبدأوهم مد هذه الرابطة الى المغول في الصين والى المجر والفلاندين في أوربا وكل من يقال انه ينمى الى أصل طوراني ، وهم يقولون بخلاف ما يقول الاولون ، فهم ترك أولاً ومسلمون ثانياً . وشعارهم عدم التدين واهمال الجامعة الاسلامية الا اذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية ، فتكون عندئذ واسطة لا غاية ، وقد غلا كثير من هذه الفئة في الطورانية حتى قالوا : نحن أترك فكعبتنا طوران . وهم يتغنون بمدائح جنكيز ، ويعجبون بفتوحات المغول ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم ، وينظمون الاناشيد للأحداث في وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الاعجاب بها ويرقوا مستوى نفوسهم بزعمهم ، وقد سألت صديقي ورفيقي في مجلس الامة محمد أمين بك الشاعر الملى ، وهو من أحسنهم أخلاقاً ومن لا يبلغ بهم نزوع العرق الطوراني أن يشأا العرب وينصب لهم العداوة ، كما هو شأن كثير من رفاقه ، بل بمن سبقت لهم خطب في المجلس ينوه فيها بفضل العرب ، فقلت له : كل شيء فهمته وانكم طورانيون وانه ينبغي لكل أمة أن تتمسك بجامعتها القومية وتحييها في صدور أبنائها وان ذلك لا ينافي الاسلام لأن الجامعة الطورانية باعتبار أن الترك مسلمون تقوى الاسلام ولا توهنه ولكن الذي لم أفهمه الى اليوم هو افتخارهم دائماً بجنكيز مع عيше وتدميره وما جرى من قومه من نفس العمران واكتساح البسائط . فقال لى : « نفتخر به لكون تشكيلاته العسكرية كانت في غاية الانتظام » تشكيلات عسكرية سى مكمل ايدى » وما يعزى الى المغول من العيث والنداعة فلا يزيد على ما جرى في الحرب العامة من التخريب الذى اقتضته الدواعى الحربية أفلا ترى ما فعل الألمان في شمالى فرنسا مع أنهم أرقى أمة متمدنة » هذه هى نظريتهم من جهة ما اشتهر به المغول من العيث والفساد فى الأرض ، وليس هنا محل تبين الفرق بين تخريبات المغول وتخريبات الألمان فى شمالى فرنسا

وقد امتد الخلاف بين هاتين الفئتين فى الترك الى مواضيع أخر من أهمها مسألة الرجوع الى اللغة التركية القديمة ، وعلى رأيهم « تصفية » اللغة التركية الحاضرة من الألفاظ الغريبة والفارسية ، والاعتياض منها بألفاظ تركية مهمة بعدم استعمالها بين الأتراك العثمانيين مع ان استعمال العربى والفارسى هو مما يضعف القومية الطورانية ، وعلى فرض

أن هناك معاني لا توجد بازائها كلمات تركية صرفة فيمكن الأخذ من العربي والفارسي على شرط تتركب هذا المستعار من تينك اللغتين ، وقد دارت على هذه المسئلة الجلى مباحثات ومناقشات طويلة ، ولا تزال دائرة ، وحزب التصفية هذا هو كما لا يخفى هو الحزب الطوراني كما أن حزب العربي والفارسي هو الحزب الاسلامي ، واستعملوا في الاستانة لفظي « تركجي » و « اسلامجي » للدلالة على هذين الحزبين

وبرهان الحزب الاسلامي في مناهضة التصفية هو أولاً ان اللسان التركي وان كانت فيه متوفرة أسماء الامور المادية وأفعال الحركات البدنية ، فهو لسان فقير في الامور العقلية ، قليل الألفاظ المؤدية للعاني المجردة ، ان أمكنه أن يفي بحاجة أمة في حال البداوة وطور السذاجة فلا يمكنه الوفاء باحتياج أمة راقية ودولة عظيمة ، فلا بد له والحال هي هذه ، من الاستعارة من لغة العرب والتوكؤ على لغة الفرس ، لاجل اكمال ما نقصه من تلك الجهة . ثانياً ان الادب التركي الذي نشأ ونما وحررت فيه الكتب الممتعة ، وقصدت القصائد البليغة وصار أدباً معدوداً ، وجال في ميدانه خول من الكتاب ونوابغ من الشعراء هم مفاخر أمة الترك انما هو هذا الأدب المقتبس من الفارسي والعربي والذي صار أدباً قائماً بذاته ، فيحسن أن يغير أسلوبه وتبدل ديباجته ، ويحرم الناس طلاوته ويعدل عنه الى أدب تركي بحث يرجع الى لغة ليس فيها شيء من الاستعداد لتكوين أدب بالغ درجة الرقي كالأدب العثماني الحاضر ، وعلى فرض الحال أنه تيسر ذلك أفلا يلزم حقب متطاولة لتأسيس أدب جديد ؟ أما كون استعمال العربي والفارسي هو مما يضعف القومية التركية والحال أن مقصد الترك الجدد هو ايقاد شعلتها في النفوس فالحزب الاسلامي هذا لا يجد الأدب العثماني هذا حائلاً دون نمو الفكرة التركية بل يجد تقرب التركية من العربية والفارسية ، عدا كونه أزين لها وأزيد في محاسنها ، أنفع للاتراك من الجهة السياسية لانه يؤكد الروابط التي تربط العرب والفرس وسائر المساعين بالامة التركية مما يزيدها قوة ومنعة اذ كان هذا الحزب لا يزال دستوراً في السياسة هو الاتحاد الاسلامي ، ويرى الاسلام فوق كل شيء ، وقد كان أتور باشا ناظر الحرية يقول اذا كان أتراك التركستان مرتبطين بنا فليس ذلك لكوننا أتراكاً مثلهم بل لكوننا مسلمين فحسب

اسلام الفرس ومبدأ التشيع

للامير شكيب

- العرب والعجم
- القومية الفارسية
- قول المسيو دومومبين صاحب كتاب « تاريخ العالم » .
- الشرع الاسلامي والقوانين الرومانية (استطراد) .
- نظرية الحقوق في الاسلام لصاوا باشا الرومي .
- العلاقات بين العرب الفاتحين والامم المغلوبة
- أقوال الكونت دوغو يننو صاحب كتاب « الأديان والفلسفات في أسية الوسطى »
- الفرق الشيعية في فارس الاخبارية والمجتهدة والشيخية .
- مبدأ الشيعة .
- أبو ذر الغفاري ومعاوية في الشام .
- التشيع عند العرب والعجم .
- النزعة الحالية عند الشيعة وأهل السنة الى الوحدة الاسلامية العامة .
- المؤتمر الاسلامي العام في بيت المقدس .
- مع حاشية « المناولة أو الشيعة في جبل عامل »

ومن الغريب أن كثيراً من العجم مع تدينهم بالاسلام ، وشدة استمساكهم بالتشيع لآل البيت ، لا تزال تجد فيهم في الأحياء آثار البغضاء للعرب ، وهم يعلمون أن آل البيت الذين يقدسونهم هذا التقديس كله هم عرب أقحاح ، بل هم سنام العرب . ولقد حدثني من أثق به أنه وجد من الإيرانيين علماء مجتهدون في مذهب الشيعة ، قضوا حياتهم في خدمته والدعوة اليه الى أن حانت وفاتهم ، فينبأهم يلفظون أرواحهم تكلموا بما ينبغي عن شدة بغضائهم للعرب وكان هذا كلامهم الأخير في الدنيا وهذا هو القياس البعيد في الشنآن بين الأقوام . وقد كنت أحداث إحدى المزارر رجلاً من فضلائهم ، ومن ذوي المناصب العالية في الدولة الفارسية ، فوصلنا في البحث الى قضية العرب والعجم ، وكان محدثي على جانب عظيم من الغلو في التشيع الى حد أني رأيت له كتاباً مطبوعاً مصدراً بجملة « هو العليّ الغالب » فقلت في نفسي لا شك أن هذا الرجل لشدة غلوه في آل البيت ، ولعلمه أنهم من العرب ، لا يمكنه أن يكره العرب الذين آل البيت منهم ، لأنه يستحيل الجمع بين البغض والحب في مكان واحد . ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه . ولقد أخطأ ظني في هذه أيضاً ، فانتى عند ما سقت الحديث الى مسألة العريية والعجمية وجدته انقلب عجبياً صرفاً ، ونسى ذلك الغلو كله في عليّ عليه السلام وآله ، بل قال لي هكذا وكان يحدثني بالتركية : « ايران بر حكومت اسلاميه دكلر يالكز دين اسلامي اتخاذايتمش بر حكومتدر » أى ايران ليست بحكومة اسلامية وانما هي حكومة اتخدت لنفسها دين الاسلام » وكنت أتحدث مرة أخرى الى الأمير « فرمان فرما » عبد الحسين ابن عم الشاه مظفر الدين ، ووالد الأمير فيروز ناظر الخارجية الإيرانية لعهد الشاه الأخير من آل قاجار ، وقد كانت بيني وبين الأمير فرمان فرما المشار اليه مودة أكيدة واجتماعات كثيرة ، وكنت أرى فيه أيضاً شيعياً غالباً ، وأحسب أنه لتشييعه الشديد لا يمكنه أن يكون شائناً للعرب ، وقد غلطت في هذه أيضاً ، فقد رأيت أنه يجمع بين الأمرين يحب آل البيت أشد الحب ، ولا يحب العرب الذين آل البيت منهم . وقد صرح لي قائلاً : ان العرب عند ما استولوا على فارس أفسدوا أخلاق العجم ، وبذلك أسقطوا تلك الأمة الفارسية العظيمة التي استولوا عليها وأدخلوها في دينهم ، فلم أستطع على كلامه صبراً ومع أني كنت أيام معرفتي بهذا الأمير شاباً وكان

هو كهلاً ، وكان عندنا ضيفا في جبل لبنان ، لم أملك نفسى من الحدة وقلت له : لا شك أن أخلاقكم كانت فاسدة من قبل ، ولو لا ذلك ما تغلب عليكم العرب وأتم أمة منظّمة ، وهم أمة آتية من الصحراء من تحت الخيام ، وقد اتفق المؤرخون والعلماء الاجتماعيون أن العرب لم يفتحوا تلك الفتوحات السريعة ، ولم يستولوا على ممالك الفرس والرومان والهند والترك والبربر وغيرهم الا بما كانوا عليه في صدر الاسلام من الأخلاق العالية .

فانقطع بعد ذلك عن الحديث . وقضيت مما سمعته من هذين الرجلين من كبار العجم أشد العجب ، لأنى كنت أراها في غاية التمسك بالاسلام ، وهما يعلمان أن الاسلام عربى المنبت ، وكنت أراها في غاية العصبية لعرة على ، وهما يعلمان أنها من بنى هاشم من صميم العرب ، وأراها مع ذلك اذا جرى الكلام في القوميات انقلبا فارسيين متشددين ، لا يريدان أن يعلمنا عن العرب شيئا ، فكأن الواحد من هؤلاء له نفسيتان احداها اسلامية والاخرى فارسية ، وأغرب من هذا أن هذين الرجلين ليسا من الجنس الفارسى الآرى بل من الجنس الفارسى التركى ، لأن فارس كما لا يخفى ترجع الى سلالتين منها السلالة الايرانية الآرية ، ولغتها الفارسية ، ومنها السلالة التركية المغولية ولغتها التركية . ولكن السلالتين اندججتا أمة واحدة تحت ظل الدولة الفارسية وصارت الفارسية هي اللغة الرسمية للجميع كما أن التشيع غالب على الفريقيين . ولا أقدر أن أقول ان هذه الحالة الروحية في العجم هي عامة لهم ، وان جميع مجتهديههم وعلمائهم يضمرون العداوة للعرب برغم معرفتهم أن آل البيت هم من قریش ، وبرغم ذهاب الألوف منهم في كل سنة حجاجاً الى البيت الحرام في مكة ولكنى لا أشك في أمر واحد وهو أن القومية الفارسية لم تندثر بالديانة الاسلامية التي جاءت من العرب ، وان هناك عوامل خاصة تجعل الفرس يميلون الى آل البيت ، منها ما تقدم ذكره من أن استيلاء العرب على فارس أوجد في العجم مناوأة للدولة ، التي استولت على بلادهم ، وأزالت ملكهم ، فلذلك رأيتهم انتصروا لبني العباس والعلوية ، يوم كانوا يداً واحدة في حرب بنى أمية الذين كان مركزهم الشام . وما زالوا حتى حولوا الخلافة الى العراق وصارت الدولة العباسية كما يقول كثير من المؤرخين مطبوعة بطابع المدنية الفارسية

ومن الوسائل التي يمت بها العجم الى الاسلام نسب سلمان الفارسى الذي كان من

أَكابر الصحابة ، وهو منهم وقد جعله النبي ﷺ من آلِه فقال : سامان منا آل البيت . وقد لحظت أنه لما قتل العيين أبو لؤلؤة الفارسي سيدنا عمر رضى الله عنه وقام عبيد الله بن عمر بعد وفاة أبيه فقتل المارزبان ، وهو الأمير العجمي الذي كان أسيراً بالمدينة وأسلم ، وكان قتل عبيد الله إياه بتهمة أنه كان ذا يد خفية في دفع أبي لؤلؤة الى قتل عمر ، كان من على رضى الله عنه أن احتج أشد الاحتجاج على قتل عبيد الله بن عمر للمارزبان ، بدون ثبوت تلك التهمة التي وجهها عبيد الله اليه . فكانت هذه القضية من أسباب انحياز عبيد الله الى معاوية . وهي على كل حال مما يتخذها العجم دليلاً على سابق محبة على لهم

وكان على بن الحسين بن سيدنا على وهو الملقب بزين العابدين يمتُّ الى الفرس بنسب ، لأن أمه هي بنت يزدجرد آخر ملوك فارس . ويقال نقلاً عن أبي القاسم الزمخشري في كتاب « ربيع الأبرار » أنه لما جئ الى المدينة بسبب فارس في خلافة عمر ، كان فيهم ثلاث بنات يزدجرد ، فباعوا السبايا وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد . فقال له على : ان بنات الملوك لا يُعاملن معاملة غيرهن من بنات السوق ، فقال كيف الطريق الى العمل معهن قال : يَقْوَمُنَّ ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن . فقَوِّمُنَّ ، فأخذهن على بن أبي طالب رضى الله عنه ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لمحمد بن أبي بكر وأزواج الثلاثة ولده الحسين فكان له منها ولده زين العابدين .

هذا ولما كان هذا العصر عصر القوميات كما لا يخفى ، اقتداء بالأُمم الأوربية في الزمن الأخير كانت القومية الفارسية قد أخذت تشتدُّ أكثر من ذي قبل ، وذلك نظير ما حصل عند الترك ، وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم ، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم ، وعن الذئب الأبيض الذي كانوا يعبدونه ، حتى صوّروه في بعض كتبهم الحديثة وقال لهم المرحوم موسى كاظم شيخ الاسلام — وهو الذي أخبرني بذلك — ان العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشع منها الأبدان ولكنهم اقتلعوها بالاسلام وافتخروا بان الله لطف بهم ، وأنقذهم منها ورفعهم عن مستوى تلك السفالات . وأما أتم فتريدون أن تتناسوا الاعتقاد بالبارى تعالى ، وتذكروا عبادة الذئب الأبيض . . . فياللاسف

فكما حصل عند الترك حصل عند الفرس وصار ناشئتهم يبحثون عن أديانهم

القديمة التي منها الكيومرنية أى تعظيم النور والتحرز من الظلمة ، ومن هنا جاءتهم عبادة النار . ومنها فرقة زرادشت الذى كان يدعو الى وحدانية الله ، ويقول انه خالق النور والظلمة ، وان الخير والشر انما حصلا بامتزاجهما ، وانهما لو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم ، الى غير ذلك من العقائد والأوايد والآثار التي كانت عند قدماء الفرس كالتنوية ، والزرذشتية ، والمانوية ، ومنهم من يبحث عن المزدكية التي كانت تدعو الى الاتحاد والاباحة .

والذى يظهر ان الميل الى هذه العقائد ليس بجديد في فارس ، بل انه كانت لم تزل له عقايل منذ زمان ابن العباس . وقد دنا التاريخ على ذلك من قيام بابك الخرمي -- نسبة الى خرمة كسكرة بلدة بقرب اصطخر -- الذى ثار في أيام المعتصم العباسي وكان يرى رأى المزدكية من المجوس الذين كانوا خرجوا قبل الاسلام وأباحوا المحرمات ، وقتلهم أنو شروان ، ثم ثاروا بعد الاسلام بالمبادئ نفسها وعليهم بابك هذا ، فقتل جند الخلافة واستولى على الحصون ، فسرح اليه المعتصم جيشاً تحت قيادة أبي سعيد محمد بن يوسف ، فاستخلص منه بعض ما كان أخذه . ثم سیر اليه الافشين حيدر بن كاوس ملك أشروسنة وكان أبوه أسلم في زمان المأمون فهزم بابك في وقعة أرشق ، وفر بابك الى موقان ، ولكن جبرته لم تمح . وفي سنة ٢٢١ ظهر « على بغا » الكبير في وقعة هشداس ولحق الافشين بغا بالامدادات . وفي السنة التالية وجه المعتصم الى الافشين جعفر بن دينار مدداً ، وأتبعه بإيتاخ ، ووجه معه ثلاثين الف فدرهم ، وألح الافشين على بابك بالحصار ، واستنزله من معقله بعد حرب تشيب لها نواصى الاطفال ، واحتوى على معسكره ، وأحرق قصوره بالنفط ، وسبى أولاده وعياله ولكن بابك أفلت من يده بدخوله في غياض قريبة ملتفة الدوح ، لا تسلك فيها الخيل ، ونفذ من هناك الى جبال أرمينية ، فوقع في يد سهل ابن سنباط من رؤساء تلك الناحية فأسلمه الى الافشين وقدم هذا به وبأخيه على المعتصم فأمر بقتلهم ، وكافأ الافشين بتاج من الذهب ، ووشحه بوشاحين من الجوهر ، ووصله بعشرين مليون درهم وعقد له على السند . وكافأ ابن سنباط بالف درهم ومنطقة ذهب مرصعة بالجواهر ، وبتاج البطرقة .

ولابى تمام الطائي في هذه الوقائع القصائد الطنانة التي هي من أجزل شعره بل من

أُجزل الشعر بأسره .

وقيل ان المعتصم أخرج في حرب بابك الخرمي من الدراهم خمسمائة وقر؛ وقيل أخرج مالا يدخل تحت الحصر . وكل هذا يدل على ما كان لتلك النزعة المجوسية من الخطر فضلاً عن ان بابك راسل ملك يزنطية وأغراه بغزو بلاد الاسلام ؛ وسار ملك الروم تيوفيل ابن ميخائيل وأوقع بالمسلمين وأوجف في ديارهم ؛ والمعتصم مشغول بحرب بابك ، فاضطر المعتصم أن يغزو الروم تلك الغزاة الشهيرة التي فتح بها عمورية . ولما انتهى المعتصم من أمر بابك الخرمي ظهر له ان الافشين نفسه كان يكيد سراً للاسلام ؛ ويجتهد في هدم الدولة ونقلت له عنه أشياء فيما يتعلق بعقيدة المجوس . جاء في كتاب « العيون والحدائق في أخبار الحقائق » : انه لما نعى الى الخليفة المعتصم خبر دسائس الافشين وما كان يرسل به أهل أشروسنة ؛ أمر بالقبض عليه وعلى ولده الحسن ؛ ثم أخرجه من حبسه وأحضر جماعة من الاشراف والوجوه لينظروه على أشياء ؛ وأتى بمازيار ؛ فقبل للافشين : هل كاتبت مازيار ؟ قال لا ، فجاوبه مازيار فقال . كتبت اليكما تقول : ان هذا الدين يعني دين الاسلام ان انفقنا أنا وأتم محونا أثره ؛ ونعود الى دين آبائنا العجم ، فانكر ذلك ؛ فاحضر محمد بن عبد الملك الزيات رجلين وكان هو الوزير والمناظر فقال للافشين : لِمَ ضربت هذين ظهراً وبطنا وهذا امام وهذا مؤذن كان في أشروسنة . قال : نعم ضربتهما لانهما اتخذتا بيتاً للاصلين فجعله مسجداً وكان بيني وبين الصفد عهد نخشيت من نقض العهد . قال : فما كتابك عندك قد زيمته بالحرير والجوهر فيه كفر بالله تعالى ؟ قال : هو كتاب ورثته عن أبي فيه آداب الملوك ؛ وهو دين القوم الذي هو اليوم كفر ؛ فكنت أسمع الأدب وأترك سوى ذلك ؛ ووجدته محلى ؛ ولم تكن لي حاجة الى أخذ الحلية التي عليه ؛ فتركته بحاله ككتاب كلية ودمنة ، وكتاب مزدك . وشهد عليه الموبذ وقال انه كان يأكل الخنوقة ، ويحملني على أكلها ، ويقول انها أرطب لحماً من المذبوحة ، وقال : اني قد دخلت لهؤلاء القوم (يعني المسلمين) في كل ما أكرهه ، وقد أكلت الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل ، غير اني الى هذه الغاية لم تسقط مني شعرة يعني أنه لم يختن

ثم وافقه المرزبان بان أهل أشروسنة يكتبون اليه بلسانهم كتاباً معناه : الى الله الالهة من عبده فلان بن فلان . قال : بل كذا كانوا يكتبون الى أبي وجدي . قال محمد بن

عبد الملك الزيات : فما أبقيت لفرعون حين قال لقومه : « أنا ربكم الأعلى » . ونوظر على أشياء مثال هذه تدل على فساد دينه وفساد ديانتته في الاسلام يطول شرحها .

ثم أمر المعتصم باعادته الى محبسه وبقى فيه نحواً من سنة الى أن مات وصلبوه بعد موته على باب العامة ، ثم أحرق هو والخشبة التي صلب عليها ، وحل الرماد فطرح في دجلة ووجد في داره تمثال انسان من خشب عليه حلقة كثيرة من جوهر ، وكتب فيها ديانتته

وقال الذهبي في كتاب « دول الاسلام » : سنة ٢٢٢ التقى الافشين و بابل . فانهزم بابل ولم يزل الافشين يعمل عليه حتى أسره ، وكان بابل بطلاً شجاعاً جباراً عنيداً ملعوناً أراد أن يقيم دين المجوس ، واستولى على توزر ، والمدائن ، وقد أنفق المعتصم بيوت الأموال في حرب هذا . فأنفق في ذلك العام الف الف دينار . وفتح الله مدينة بابل بعد حصار شديد فاختنق بابل وأسرجيع حاشيته وأولاده وبعث اليه المعتصم بالأمان فزقه وشم ثم صعد في الجبل وانفلت الى جبال ارمينية ، فنزل عند بطريق فاغلق عليه البطريق واسلمه للحتف فجاء جماعة فقتلوه . وكان المعتصم جعل لمن أسره حياً مائة الف دينار ، ولمن جاء برأسه نصف ذلك ، فكان يوم دخوله بغداد وهو على جل يوماً مشهوداً . ثم قال الذهبي : سنة ٢٢٦ غضب المعتصم على الافشين وسجنه ثم صلبه الى جانب بابل اتهم بعبادة صنم وكان افلت وخافه أيضاً المعتصم اه . وقد حصلت في فارس ثورات متعددة غير ثورة بابل الخرمي اعربت فيها الفارسية المزدكية عن ذات نفسها

والحاصل ان العجم بعد أن دانوا بالاسلام بمدة طويلة ، بقيت أقوام منهم تحن الى دينها الاصل ، وينزع بها عرق المجوسية . وفي هذا شيء من العداوة التي بين العرب والعجم ومن استكبار العجم الخضوع لدين أصله من العرب . ومثل هذا أيضاً الحنين الذي عند بعض شبان الترك الى ديانتهم القديمة والى عبادة الذئب الأبيض استكباراً لاتباع الأمة التركية ديانة صادرة عن العرب . وقد بلغنا أن بعض ناشئة المسلمين من أمة الجاوي يبحثون كثيراً عن مذهب بودا الذي كان مذهب الجاوي قبل أن أسلموا ، ويدرسونه وكأنهم يريدون أن يحيا آثاره . كذلك في الهند شبان كثيرون من المسلمين يكرهون الجامعة الاسلامية ويفضلون عليها الجامعة الهندية اتباعاً للهنداك .

وعند بعض الناشئة المصرية نزعة محسوسة الى الأوابد المصرية القديمة ، والحضارة

الفرعونية ، وميل الى التفصى من النسبة العربية والحضارة العربية . وكل هذا تعصباً من هؤلاء الأقوام لقومياتهم بزعمهم وشعوراً منهم بشئ من الكبر عن أن يتبعوا ملة ليست من سلالته . والحال أن الاسلام ليس بدين يفرق بين عربي وعجمي وأن مبدأه الاساسى (ان اُكْرِمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ) وأن النبي محمد لم يبعث الى العرب وحدهم بل الى البشر كافة ، فان كانت المساواة تامة في دين من الأديان أمام الخالق تعالى فهي في الاسلام .

وبعد فإنا نرى الأوربيين وهم اليوم أرقى الأمم والغالبون على أكثر الكثرة الارضية وهم يعلمون أنهم جميعاً من الجنس الآرى ، يتبعون ديانة رجل يهودى من الجنس السامى المحض ، ولا يستنكفون عن أن يعبدوه وعن أن يؤطوه . ومنهم من يعبد أمه ولا يجحدون في ذلك غضاة ، ولا تأخذهم العزة في قوميتهم الآرية ، ولا يقولون : مالنا ولعبادات الساميين ! هل سمعنا ان أحداً من الافرنج استكبر ان يتبع سيدنا عيسى عليه السلام كلا . أفلم يكن في ذلك عبرة للعجم والترك وغيرهم ممن يأبى كبر بعضهم أن يتبعوا دين النبي العربى وهم غير مكلفين أن يؤطوه ولا أن يقدسوه تقديس الافرنج للمسيح . ان هذا والله لعجب عجاب . وأعجب منه ان هذه الفئة سواء من الترك أو من العجم تجعل الافرنج قدوتها في كل شئ . فياليتها اقتدت بالافرنج في عدم ادخال العقائد في القوميات .

ولنعد الى قضية العجم وعلاقتهم بالعرب فنقول اننا رأينا فصلاً في هذا الباب للسيو « غودفروا دومومبين » صاحب « تاريخ العالم » الذى سبق لنا ذكره ، وهو فصل فيه تعليقات كثيرة على نسق الافرنج المولعين بهذا الاسلوب في التاريخ ، ولو خبطوا فيه ، الا ان تعليقات « دومومبين » يشبه بعضها أن يكون صحيحاً وفي بعضها نظر . فهو يقول ماملخصه : ان الأمة الاسلامية في أيام الخلفاء الراشدين بعد أن دان الاعاجم بالاسلام ، لم تكن أخنفت شكلاً عاماً ، ولا رست قواعدها على وحدة تامة ، وانما كانت شعوباً متساكنة ، ودخل بنو أمية وهذه هي الحال . وربما أرادوا أن يجعلوا لهذه الأمة نظاماً كافلاً وحدتها . الا أن دولتهم لم تطل كثيراً . وكان العرب مبغثرين في البلدان التي فتحوها

وكانت منهم فئة هنا وفئة هناك ، ولا يمكن حصر عدد العرب الذين خرجوا للفتوحات . وانما يقال نحو ٢٠٠ ألف رجل ، وقد اختلطوا بالاهالى الاصليين بالزواج ، وفاضت عليهم الخيرات من الغنائم وغيرها ، فانغمسوا في الترف . وكان العمل كله من زراعة وصناعة في أيدي الشعوب المغلوبة ، وكان العرب يرون أنفسهم أكرم الشعوب ، وانهم الأمة المختارة لأجل هداية البشر ، وأنه يجب أن يكونوا جميعاً مسلمين . ولهذا ثقل عليهم بقاء قسم من بني نعلب ، وغسان ، وكندة ، على النصرانية ، وأرادوا حملهم على الاسلام ، ولكن الخلفاء لم يشاءوا حملهم عليه بالعنف ، وضربوا عليهم نوعاً من الجزية : لكنهم ميزوهم في ذلك عن الاعاجم ^(١) انتظاراً لاسلامهم

أما الاعاجم أى البرابرة — ومعنى اللفظتين واحد فالاعاجم بالنسبة الى العرب هم البرابرة بالنسبة الى الرومانيين — فان العرب لم يكونوا ينظرون اليهم كقوم مساويين لهم . ولم يكن عليهم الا أن يؤدوا الجزية ، وهكذا يكونون آمنين على دمائهم ، وأموالهم ، وعقائدهم . فأما اشراكهم في شرف الملة الاسلامية ومنافع الاسلام في الدنيا والاخرى فلم يكن في نظر العرب ضرورياً لانهم قوم منحطون عن درجة العرب . وحسب الاعاجم حريتهم الدينية لانهم أهل كتاب . فأماً المساواة مع العرب فغير مطلوبة ، والعدالة انما هي بين المسلمين فقط . اهـ

نقول ان كلام « دومومبين » هنا لا يخلو من الخلط لاسيما عند ظنه ان العرب لم يكونوا مهتمين بادخال العجم في الاسلام ، وانما كان همهم الوحيد اسلام العرب . نعم انه لما كان الخلفاء سائرين على مقتضى الآية الكريمة (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) لم يعترضوا أحداً من الكتائبين في دينه . وهذا في الحقيقة من مفاخر الحكومات الاسلامية لأنه لا يوجد أثره ولا أشرف من الحكومة التي لا تستعمل قوتها القاهرة في سبيل استجلاب الأمم التي تحت حكمها الى دينها . وأماً ان الخلفاء ورجال الأمة العربية ، لم يكونوا يرتاحون الى دخول الاعاجم في الاسلام ، حتى لا يشركوهم في منافع الاسلام الدينيوة والأخروية . فلعمري هذا هو الخلط بعينه . فقد كانت جميع سياسة الخلفاء لاسيما الاتقياء منهم تدور على محور نشر الاسلام . ولما شكأ أحد العمال بمس من نقص

(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري تجد من هذا البحث ما فيه بلاغ

الجباية بسبب اقبال أهل الذمة على الدخول في الاسلام أجابه الخليفة عمر بن عبد العزيز :
ويحك ان محمداً جاء هادياً ولم يجيء جايئاً . وجاء في فتوح البلدان للبلاذري انه : لما
استخلف عمر بن عبد العزيز كتب الى ملوك ماوراء النهر يدعوهم الى الاسلام ، فاسلم
بعضهم . قال : ورفع عمر الخراج على من أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم . ثم بلغه عن عامله
على خراسان ، الجراح الحكمي ، عصبية ، وكتب الى عمرانه لا يصلح خراسان الا السيف
فانكر ذلك وعزله . وجاء أيضاً في فتوح البلدان للبلاذري ان أمير المؤمنين المأمون اغزا
السغد وأشروسنة وفرغانة وكان قد ألح عليهم بالغارات أيام مقامه بخراسان ، وبعد ذلك
وكان مع تسريته الخيول اليهم يكتبهم بالدعاء الى الاسلام والطاعة والترغيب فيهما . ثم قال
ان المأمون كان يكتب الى عماله على خراسان في غزو من لم يكن على الطاعة والاسلام من
أهل ماوراء النهر ، ويوجه رسله فيفرضون لمن رغب في الديوان ، وأراد الفريضة من أهل
تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة فاذا وردوا بابه شرّفهم واسنى صلاتهم
وأرزاقهم . ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من
جند أهل ماوراء النهر من السغد والفرغانة والاشروسنة ، وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه ،
وغلب الاسلام على من هناك .

قال وحدثني العمري عن هيثم بن عدي عن ابن عياش ان قتيبة اسكن العرب ماوراء
النهر حتى اسكنهم أرض فرغانة والشاش . اهـ

قلت : قتيبة بن مسلم الباهلي ولاء الحجاج بن يوسف الثقفي خراسان ، ففتح فيما
وراء النهر الفتوحات الكبار ، فهو العربي الكبير الذي فتح بلاد الترك . وكان ذلك مبدأ
دخول هذه الأمة في الاسلام . وأما اسكانه العرب فيما وراء النهر فقد كانت هناك جماعات
كثيرة من العرب لدن الفتح طال بها العهد فيما بعد وانقطع ما بينها وبين الأمة العربية
فنسيت لغتها واستتركت . وقد حدثني بعض أهالي كاشغر من التركستان الصيني انه من
المعروف عندهم كون كثير من أهالي تلك التلاد يرجعون في نسبهم الى اولئك العرب الذين
فتحوا بلاد الترك . وسمعت مثل هذا من بعض أمراء الطاغستان التي كان العرب يسمونها
باب الأبواب . وقالوا لي ان أكثر العائلات الشريفة والعائلات التي كانت حاکمة في الطاغستان
هي من سلاسل العرب الفاتحين .

ثم نعود الى كلام المسيو « دومومين » في موضوع ثورة العجم على العرب بعد استقرار الاسلام والقائه بجراحه على بلاد الأعاجم ، فهو يقول ما محصله : ان العرب كانوا يرون أنفسهم أعلى درجة من الأمم التي دانت بدينهم ، ولذلك نجد الاسلام نفسه مبرز المسلم في القصاص على الذمي ، كما كان الشأن في رومة بالنسبة الى البرابرة . وأما في القضايا المدنية ، فقد كانت أمور أهل الذمة عائدة للقضاة الذين يوليهم الخلفاء . وهكذا دخلت أمور أهل الذمة في المحاكم الاسلامية ومن هنا كان تأثير القانون الروماني في التشريع الاسلامي دخل شيئاً فشيئاً .

وهذه مسألة مما وهم فيه . « دومومين » كغيره من مؤلفي الأفرنج الذين لم يقدروا أن يتتبعوا سير التشريع الاسلامي وكيفية استنباط الفقهاء للأحكام من الكتب والسنة ، والاجماع والقياس ، فظنوا خطأ ان ماخذ التشريع الاسلامي من القانون الروماني ولقد ألفت في هذه المسئلة صاوا باشا الزوي من علماء الحقوق في أيام العولة العثمانية كتاباً تمتع بالفرنسية اسمه « نظرية الحقوق في الاسلام » Théorie Du Droit Musulman

قال في أوله انه هو أيضاً كان يعتقد هذا الاعتقاد نظير غيره ، ويبنى ذلك على ما يعرف من كون بني أمية لبثوا في الشام مدة طويلة يعملون بالأحكام التي كانت باقية من أيام الرومانيين . فلا عجب في أن يكون هو وغيره قد توهموا أخذ قسم المعاملات في الشريعة الاسلامية من القانون الروماني الذي كان به العمل في سورية ، الا أنه أحب أن يدرس هذا الموضوع درساً دقيقاً ، ويتعرف كيفية نشوء التشريع في الاسلام ، فاستجد بعض علماء أصول الفقه من الأتراك — وسلام — وقرأ الفقه الحنفي جيداً — وذكر الكتب التي طالعها أو راجعها — وتجرد لمعرفة هذا الأمر مدة طويلة ، فوجد هذا الرأي الذي معناه ان التشريع الاسلامي مأخوذ من القانون الروماني رأى ضعيف أشبه بأن يكون خيلاً من أن يكون حقيقة .

قال صاوا باشا في صفحة ١٦ من كتابه :

« ان الصناعة والتجارة ، لم تكونا مهملتين في الحجاز . وكان الأشراف يعنون بهما ، وظلما كانا يعملون الرحلة الى الشام ، ويجلبون منها ما يلزم لبلادهم ، اذ كانت

المدينة السورية وقتئذٍ أكمل من مدينة الجزيرة العربية ، وكان أشرف قريش الذين من عادتهم التردد الى دمشق وسائر مدن سورية ، يطلعون على الأوضاع الرومانية التي بها معاملاتهم . ولهذا كان مما يرد على خواطر الناس ، حتى الذين منهم يعظمون شأن الشريعة المحمدية ، ان الأحكام التي يتألف منها الفقه الاسلامي إنما هي مستعارة من التشريع الذي كان العمل به جاريًا قبل الهجرة . فالخطأ في هذه المسألة له وجه لا يخفى . فالذي لم يطلع حق الاطلاع على منابع الفقه الاسلامي وتاريخ هذه الشريعة هو معذور إذا ، اذا ذهب به الظن هذا المذهب فان الأسباب التي تحمل عليه كثيرة أثرت الى بعضها وسأشير الى البعض الآخر » ثم قال :

« ان الخصومات التي كانت تتولد في الاسلام في السنين الأولى من تبسطه في الشام والعراق ، كانت تنفصل بحسب القانون الروماني تفادياً من وقوف سير العدل ومن الخلل في الأحكام . فالفتاح المسلم رأى أن يوسع القانون الذي جاء به من الحجاز بما استعاره من القانون الذي وجدته في البلدان التي فتحها ، ولهذا ذهب أكثر علماء أوربة الى كون الخلافة الاسلامية أدخلت في فقهها أحكاماً كانت احتاجت الى استمدادها من قانون رومة ، لفصل القضايا بين رعاياها . وبما لامرية فيه ان كثيراً من المعاملات التي كانت معروفة في الشام والعراق لاسيما مما يتعلق بالايجار والرهن لم يكن معروفاً في الحجاز . فامراء الاسلام كانوا معنورين في الأخذ من القانون الروماني الذي كان مكملًا في سورية وكان يدرس في أشهر مدرسة للحقوق في ذلك العصر الاوهمي مدرسة بيروت التي أسسها الامبراطور يوستينيانوس وكان يدرس فيها « دوروقى » مساعد « تريبونين » الفقيه المشهور .

هذه هي المقدمات التي بنى عليها العلماء الاوربيون اعتقادهم بأن تشريع فقهاء الاسلام الذين بدأوا التشريع في أيام الخلفاء العباسيين الأوائل إنما هو مجموعة أحكام تضاهاى ما كان جاريًا به العمل في سورية قبل الفتح الاسلامي . فأنت ترى الأسباب التي حلت على هذا الظن وهي معقولة . الا أن الحقيقة هي غير ما فكروا به في أوربة . ويكفى أن ينظر الانسان الى هذه المسألة نظر المدقق ويتابع سير الشريعة الاسلامية في تقدمها وفي أطوارها حتى يعلم استقلال الشرع الاسلامي واصالة منبعه وان هذا ليس من ذاك .

ولا شك أن لكل تشريع منبعاً مختلفاً عن الآخر . ففقه يوستينيانوس هو عمل

مبنى على العقل السليم البشرى ، وقد اصطبغ بالصبغة المسيحية . وأما فقه الامام الأعظم فهو مبنى على كتاب الله (القرآن) وسنة الرسول ولن ترى في الفقه الاسلامي حكماً واحداً غير مدغم على هذا أو هذه . فاختلاف المنبعين لا يرب فيه يظهر لكل من درس تاريخ فقه يوستينيانوس وفقه أبي حنيفة »

ثم دخل صاوا باشا في الموضوع ، وأورد خلاصة اجتهاد الامام أبي حنيفة وأصحابه أبي يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، وزفر ، ثم من بعدهم من الأئمة ، وخلص تاريخ التشريع الاسلامي وبين ما أخذه كلها ، وأثبت فلسفة الفقه الاسلامي المعبر عنها بعلم الاصول وقال انه لا يقدر انسان أن يعلم مأخذ الشرع الاسلامي ان لم يقرأ أصول الفقه ، وقال اني أدعو من يهمه هذا الموضوع ان لا يحكم فيه قبل أن يطالع هذا التاريخ المتسلسل للفقه الاسلامي مطالعة كافية ثم قال : اني أنا مسيحي معتقد بديني ولكن المسيحي الحقيقي هو الذي يعامل جميع الناس بالحق . ولهذا أنا أخص الشريعة الاسلامية فخص رجل مسيحي وأقدرها قدرها بدون ضلع ولا ميل فأجدها لذلك جديرة بأعظم الاحترام

وكتاب صاوا باشا هو أحسن كتاب قرأته بلغة أوربية في هذا الموضوع . والفرق بينه وبين غيره من المؤلفين انه يبنى حكمه على أدلة وبراهين ووثائق ونصوص وحقائق تاريخية وان أولئك يبنون على ظنون وتخربات . وعلى نظر من جهة واحدة ، وعلى قولهم : لابد أن يكون كذا : وهناك أسباب تدعو الى الظن بأنه كذا وكذا . ومن يدرى فقد يكون كذا وكذا . وهذه أشياء لاتصح أن تكون مداراً للأحكام ، ولا يقال لها تمحيص وانما يقال لها تخمين . وما أصدق الآية الكريمة « إِنَّ الظَّنَّ لَا يُفْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً »

ونعود الى كلام « دومومبين » الذي قاطعناه مرتين للرد عليه نظراً لشهرة مكاتبه في التاريخ ، فهو يقول : ان العلاقات بين العرب الفاتحين وبين الأمم التي غلبوا عليها لم تكن مبنية على قاعدة المساواة ، وانه من زمان بنى أمية كان أهل الذمة مضطرين أن يضيفوا المسلمين ثلاثة أيام ، ويقدموا لهم المؤن وخليهم العلائق ، وانه بعد ذلك في أيام المتوكل

العباسي حصل ضغط على النصارى واليهود ، وانه بالاجال كان موقف أهل الزمة موقف ذلّة ولم يكونوا ليتحملوه الى الآخر فلم يكن لهم مناص من أحد أمرين اما الخروج على الحكومة الاسلامية أو الدخول في الاسلام . وكان الخروج على الاسلام أصعب عليهم لأنهم كانوا متفرقين ، وكانت تعوزهم الأسلحة والأعتدة ، وتعوزهم القوة المعنوية ، أيضاً فاختار أكثرهم الشق الثاني ، وهو الدخول في الاسلام . وبعد أن دخلوا في الاسلام وصار لهم الحق في المساواة شرعوا يخاضمون خلافة أهل السنة والجماعة فكانت كل حركة دينية فيها مناهضة للسنة وللخلافة مرجعا لهم يسارعون اليها ، وكانوا هكذا يأخذون بثأرهم في داخل الاسلام أكثر مما يأخذون بثأرهم في الخارج عنه .

ثم يقول « دومومبين » يظن الناس أن ظفر الاسلام كان ظفراً محتماً وفتيحة منطقية للتوحيد السامي على النصرانية اليونانية التي تناسب طبائع الاوربيين أكثر من الساميين . ولكن لا يجب أخذ هذا القول على إطلاقه . فقد كانت آسية الصغرى من قبل التاريخ المسيحي ميداناً لصراع مديّنات مختلفة ، وآلهة متعددة . ثم ان أفكار هذه الأمم المتعددة التفت في أحد الأيام حول رجل يهودي كان مليئاً من تقاليد قومه صلب العقيدة بدينهم ، الا انه كان ساخطاً على المظالم الاجتماعية التي كانت في أيامه كما انه كان ساخطاً على رجال الدين لما كانوا عليه من الرياء . وكان قلب هذا الرجل مفتوحاً لآلام الشعب ناسياً نفسه كلها لا يرى لنفسه عليه حقاً ، فكانت نفسه من الجهة الأدبية نفساً الالهية . فدانت آسية الصغرى بالمسيحية وعبدت اله هذا الرجل الذي كادت تمزج فيه الطبيعة الانسانية بالطبيعة الالهية . ولم يكن الشعب مهتماً أن يخوض في قضية كنه هذا الامتزاج الآن الكهنة حاولوا أن يفهموا هذا المسيح بحسب أفكارهم وأن يؤسسوا له كنيسة . ومن هناك أخذوا بالخوض في هذه القضية المعقدة مستخدمين لها الفلسفة اليونانية من جهة والفقه اليهودي من جهة أخرى . فدخلوا فيما لانهاية له من تحليل هذه المسألة والتعريف بما كان الالهياً وبما كان انسانياً في طبيعة عيسى وتحديد الفاصل بينهما من الزمان والمكان . وجاءوا في هذه المجادلات الدينية بغلظة وعنف وصلف وتعصب لا يحيط بها الوصف ، ودخل معهم في ذلك الملوك واستخدموا هذه المشاحنات لأغراضهم الدنيوية فانقسم القائلون بالنصرانية الى ملل ونحل مختلفة متعادية . فكان الآراميون في العراق وما بين النهرين نساطرة ، وكان نصارى

سورية يعاقبة ، وكان قبط مصر ملكيين ويعاقبة ، وكانت الشعوب بدون شك تشترك في هذه المباحثات بدون أن تفهم منها شيئاً ، وربما كان كثير من الخلق قد ملوا وسموا من هذا التهادى كله في الجدل على طبيعتي المسيح الالهية والانسانية .

ولقد تقرر ان الاسلام هو عبارة عن كتاب نزل بالعربية على رسول من العرب ، الا أنه من المقرر أيضاً ان عناصر هذه الديانة العربية مشتركة مع عناصر الديانتين اليهودية والمسيحية فهي أخت لهما ، وقد جعل الاسلام عيسى ابن مريم أكبر الأنبياء بعد محمد والذي سيأتي في آخر الزمان ويؤذن بدينونة البشر . وحفظ الاسلام لمريم أم عيسى مكاناً من الطهر علياً لم يتضاءل هذا المكان الا بعد أن أخذ المسيحيون يعبدونها عبادة حقيقية ، وبالجملة فان المسيحيين واليهود الذين كانوا يدخلون في الاسلام لم يكونوا يرون أنفسهم دخلاً في دين جديد . ولا نعلم تاريخ دخول النصارى واليهود في الاسلام ، وغاية ما نعلم ان بنى أمية لم يكونوا معتندين بنشر الاسلام بين أهل الكتاب ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز انه عني بهذا الأمر خاصة ، لكنه لم يلبث في الخلافة أكثر من ثلاث سنوات ، فإذا يقدر أن يصنع في مدة قصيرة كهذه ؟ ولم نعلم كيف كان دخول هذه الأقوام في الاسلام هل بدأ بدخول الرؤساء فانقادت لهم العامة كما حصل بين البرابرة في أوربة ، أم دخلت الجماعات في الاسلام فوراً ؟ وعلى كل حال كان الفتح الاسلامي قد قطع مواصلات الأمم المسيحية في آسية مع القسطنطينية مرجعها الطبيعي . وكانت نار الاسكندرية قد انطفأت أيضاً . فلم يبق ما يأتى من الخارج بما يوطد العقيدة المسيحية .

وأما اسلام الفرس فقد بدأ بالامراء وأصحاب الاقطاعات الذين بدأوا بالعلاقات مع رجال الدولة العربية وصار لهم مقام في الدولة الا ان اسلام الفرس لم يكن كاملاً . بل بقيت بينهم فئات مزدكية تظهر بصور مختلفة . وأما في مصر فبقيت أمة من القبط . كما انه بقي في سورية جماعات من المسيحيين على غير اتصال بمركز الكنيسة العام .

فدخول أهل الذمة في الاسلام قد أحدث انقلاباً عظيماً في الأمة الاسلامية ، لأن المسلمين الجدد تطلبوا المراكز في الدولة وتغيرت بأسلامهم أنظمة الأراضي والجبايات والجيش . وحدث لذلك تأثير كبير في المجتمع الاسلامي . وكثرت الطبقة التي يقال لها « الموالي » . ثم

هناك مسألة أخرى وهي مسألة الرِّق . فالاسلام يعرف الرق الا انه يحث على تحرير الارقاء . وكان الفاتحون المسلمون يفضلون أن يجدوا أمامهم من يؤدون الجزية واذا وجدوا أقواما من الوثنيين يوجب عليهم الدين الاسلامي أن يُجبروهم على الاسلام أو يستأصلوهم فكانوا يتجنبون اجبارهم على الاسلام كما يتجنبون سفك دماهم في أكثر الأحيان . وكانوا يتأولون لهذا الأمر بأن مثل هؤلاء هم « صابئة » فالذين ليسوا بنصارى ولا يهود ولا مزدكيين ، كان يقال لهم الصابئون . وأما الارقاء فلما كثر عتقهم تولدت منهم طبقة جديدة . وكان الموالي أيضا يمتون بالولاء الى رؤساء من العرب . وكل ماجرى من هذه الأمور كان مؤدياً الى المساواة بين طبقات الأمة الاسلامية . وهكذا ضعف العرب تدريجاً ، وبضعفهم ضعفت الدولة الأموية فاتهم بنو العباس فرصة هذا الخلل وهذا الانقلاب اللذين دخلا على المجتمع الاسلامي وأخذوا بالكيده لبنى أمية ودس الدسائس لقلب دولتهم . ولم يكن أبو مسلم الخراساني لينجح في ثورته على الأمويين لولم يوافق ذلك استعداداً عظيماً في نفوس الأمم التي أسلمت من غير العرب .

ثم قال « دوموميين » ان الحياة تكاملت في المملكة العربية في النصف الأول من القرن الثامن المسيحي (أى أوائل القرن الثالث للهجرة) فظهرت المجادلات الكلامية واشتدت وتولدت الفرق . وذكر ان أشرف العرب عادوا فتمسكوا بالدين أكثر من ذي قبل ، وقال ان بنى أمية كانوا اجلاً متدينين . واستند في هذا القول على كلام العلامة غولدهسير المستشرق المجري المشهور الذي كلامه حجة . والحال ان كثيرين من المستشرقين نسبوا اليهم ماعداً واحداً منهم أو اثنين رقة الدين . و « دوموميين » نفسه سبق له ان أشار الى عدم اهتمامهم حاشا عمر بن عبد العزيز بنشر الدين .

ثم قال « دوموميين » انه كان لطائفة قراء القرآن لذلك العهد نفوذ عظيم في المجتمع الاسلامي

وقال ان المركز الديني لعهد بنى أمية كان الحجاز ، لاسيما المدينة ، وان من الغريب كونها جمعت وقتئذ بين التقوى ، والورع ، وطهارة العقيدة ، وبين اللهو والغناء وأسباب السرور ، فان أشهر المغنين كانوا بالمدينة كما كان أشهر الفقهاء فيها . وهذه ملاحظة صحيحة . قال : اما اهتمام غير العرب الى الاسلام فنه ما كان في أصله من باب المصانعة ، الا ان

منه ما كان بحسب رأيه من باب الاقتناع الوجداني . وقد كان لهؤلاء المهتدين تأثير عظيم في تقوية الاسلام وتوطيده . وهو يرى ان علم الحديث وتحرير السيرة النبوية ، قد كانت بدايتهما في زمان بنى أمية . ومن رأيه ان الدين الاسلامي دين حضري Religion Citadine وانه توطد بالمساجد الجامعة وهناك كان يجتمع المسلمون والمهتدون الذين اعتادوا مثل هذا الاجتماع في الكنائس قبل الاسلام

ثم جعل « دوموميين » مقابلة بين تنصر البرابرة الذين دخلوا في السلطنة الرومانية واسلام الأعاجم وغير العرب ، فقال وهو من أكثر كلامه صواباً :

« ان البرابرة الذين هجموا على السلطنة الرومانية في الغرب ، انما كانت غاراتهم لأسباب معاشية أى ان ذلك كان حادثاً اقتصادياً صرفاً ، فكانت هذه الأقوام تدخل الى بلاد الرومان ارتياداً للرزق وحباً براحة المعيشة . وكانت كلها منمحطة في الأفكار والعقائد ، وكانت أديانها وثنية . فعندما احتلت انقاض السلطنة الرومانية وجدت جهازاً حياً هو الكنيسة فانضوت اليهود وانت بالنصرانية عقيدة الأمة الرومانية المغلوبة وصار البرابرة أنفسهم هم حماة النصرانية .

أما العرب فكانت حادثتهم على العكس من هذه . قد جاءوا بعقيدة دينية أتاها بها رجل عظيم منهم فلما غزوا الروم والفرس لقنوا هذه العقيدة أئماً كانت أعلى منهم كعباً في المدنية . فالمغلوب في الشرق اتبع دين الغالب ، حال كون الغالب في الغرب اتبع دين المغلوب .

قال : وان الذين دخلوا في الاسلام من النصارى واليهود أدخلوا فيه ما كان في حقائبهم من المباحث اللاهوتية فتولد منها علم الكلام الاسلامي . فقد كانت قبل الفتح الاسلامي مراكز لاهوتية وفقهية شهيرة مثل انطاكية ، وبيروت واورفة ، واسكندرية ، وغزة ، والذين أسلموا أدخلوا علومها في الاسلام ، وجعلوا تأويل آيات القرآن وفق الحكمة اليونانية وصارت للاسلام فلسفة عالية اشتهرت شرقاً وغرباً الخ

فهنا نظن المصنف استرسل الى الافتراضات ، والتخرصات على عادة الاوربيين ، اذ انه لم يأت بشاهد واحد معين يثبت افتراضه . والافتراض وحده لا يتولد منه حقيقة مقطوع بها . وقصارى ما نقوله نحن ان الأفكار مشتركة بين البشر ولا سيما اذا كان صقع المفكرين

واحدا ، وكان الاتصال كثيراً . وما لاشك فيه ان علم الكلام الاسلامي كان مؤيداً بالمنطق وان علم المنطق هو من العلوم التي تلقاها العرب عن يونان فاستعملوها في أقيستهم العقلية ومباحثهم الدينية ولكن المنطق منه ما هو طبيعي أيضاً يكفي فيه العقل السليم . وما كان المنطق اليوناني الذي يدرس في المدارس الا الأسماء والاصطلاحات التي وضعوها للصور الفكرية القائمة في النفوس . هذا هو الفرق بين المنطق المطبوع والمنطق المسموع

ويعجبني أكثر من كلام « دومومين » في هذا الموضوع كلام الكونت « دوغو بينو » Comte De Gobineau صاحب كتاب « الأديان والفلسفات في آسية الوسطى » فهذا الكتاب هو ثالث ثلاثة لكتابين آخرين أحدهما « ثلاث سنوات في آسية » والآخر « الأخبار الآسيوية » من تأليف « دوغو بينو » المذكور الممدود في مقدمة العلماء الذين أجادوا التأليف في أحوال ايران وأواسط آسية . ولقد ظهر كتاب « دوغو بينو » « الأديان والفلسفات في آسية الوسطى » Les Religions et les philosophies dans L'Asie centrale سنة ١٨٦٥ ثم أعيد طبعه سنة ١٨٦٦ ثم أعيد طبعه سنة ١٩٠٠ ونال شهرة عظيمة في ألمانيا ، ولا سيما أن الاستاذ شيان L.Scheman الألماني صدره بمقدمة اعترف فيها بأن الكونت « دوغو بينو » هو من أكبر مفكرى العصر ، وأنه لما ترجمت تأليفه الى الألمانية ، عدّه كثير من الالمان من أعظم كتّاب القرن التاسع عشر . ونقل عن بعضهم أنه قال : « اننا لا نعرف كاتباً أوربياً فهم حقيقة الشرق الحديث فهم هذا الرجل ولا وصفه بمثل هذا البيان الفصيح » ويقول الاستاذ شيان : اننا لا ندري في كتابه هذا « الاديان والفلسفات في آسية الوسطى » أى شئ نستبدع أكثر من الآخر أسعة أنظاره أم عمق غور أفكاره أم غزارة معلوماته أم متانة رواياته أم سمو بيانه أم لطف أحاديثه الخ وقد بدأ « دوغو بينو » كتابه هذا بقوله :

« ان جميع أفكارنا وجميع الطرق التي نفكر بها كان منشؤها في آسية » والشاهد الذي نحن في صده من كتاب « دوغو بينو » الذي أقام ثلاث سنوات في بلاد فارس ونقّب عن علومها وآثارها وصار صديقاً لا يبارى في معرفة شؤون الامة الفارسية هو تاريخ اسلام العجم وأسباب غلبة التشيع عليهم فهو يقول تحت عنوان « الاسلام الفارسي » ما يلي ملخصاً :

« ان الديانة الاسلامية التي هي مشتملة على عقائد كثيرة سابقة لها هي موافقة الى الغاية لعقل الشرقيين ، ولكل طبيعة فكرية شرقية . وبهذا السبب نجد الاسلام يتقدم هذا التقدم المدهش في افريقية . وليس الأمر كذلك في أوربة حيث هذه العقيدة لا تصادف اقبالاً ولا نعلم أن من الاوروبيين من تقبل الاسلام غير جماعات من الارنوط والبشناق . أما في الهند فان الفاتحين من العرب والغزنويين والمغول والافغان قد لبثوا زمناً طويلاً حتى أدخلوا في دينهم هذا العدد الذي دخل فيه من أهل الهند . وليس جيع مسلمي الهند من أصل هندي كما أنه ليس أكثر مسلمي الصين من أصل صيني بل أكثرهم متحدرون من أصول فارسيين وآباؤهم كانوا عملة في خدمة جنكيز وقويلاي .

واذا أردنا أن نفصل بين العقيدة الدينية والضرورة السياسية التي طالما عملت باسم العقيدة لا نجد ديناً أسمح من الاسلام بل نقدر أن نقول لا نجد ديناً متحيداً فيما يتعلق بأديان الآخرين أكثر من الاسلام . وفيما عدا الاحوال المستثناة التي اضطرت فيها الحكومات الاسلامية الى اتخاذ الوسائل الممكنة لتوحيد عقيدة رعاياها فعلى وجه الاجال كان التسامح وكانت الحرية الدينية هما أساس الشرع الاسلامي ، وذلك بسبب أن القرآن يعلم الناس أن معرفة الحقيقة لا تتعلق بإرادة الانسان بل بإرادة الله .

وما زال المصنف يشرح هذا المعنى الى أن قال : ان الذي يلتزمه الاسلام من الاعتقاد هو وجود اله واحد يوحى ارادته الى خلقه بواسطة الانبياء . فهذا هو الالف وهو الياء في هذا الدين وما اعتقد الانسان بالله ورسله فانه يبقى متمتعاً بتام الحرية في قضايا وجدانه ويجوز له أن يختلف عن سائر المسلمين في آراء كثيرة وجدانية ويبقى مع ذلك محدوداً من المسلمين ما دام معترفاً بالله ورسله لا يحدد هذه العقيدة علناً . فنتيجة هذا المبدأ العظيم قد كانت أن يقبل كثير من أبناء الملل الأخرى على الدخول في الاسلام ، ويشاطروا الأمة الفاتحة منافع الايمان به ، وكذلك ان تدخل تحت هذا الغشاء الرقيق من الاسلام آراء وعقائد ومذاهب قديمة لم تكن من الاسلام في شيء ، ولكن الاسلام وسعها . ومن أجل هذا تعددت المذاهب الاسلامية ولم تكن في العبد أقل من مذاهب النصرانية ومنسوب الى نبي الاسلام القول بأن أمته ستفترق الى فرق كثيرة .

وانه لمن الصعب موافقة القائلين بأن الدين الاسلامي مانع للترقى الفكري بل الذي

يظهر لنا ان القضية هي بالعكس ، فان ديانة جاءت فيها هذه الجلة : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء . وجاء فيها ان الانسان في اليوم الآخر يحاسب بقدر ما أعطى من العقل . وقد مرّت من ظهورها في القرن السابع الى أواخر القرن السادس عشر بادوار سعادة مادية عظيمة مصاحبة لحالة رقى علمي وأدبي لسنا في الحقيقة محيطين بها كلها لا يمكن أن يقال انها ديانة مانعة للترقى الفكرى . واذا قيل انه في العهد الأخير ظهر الاسلام بمظهر انحطاط من هذه الجهة ، فان أسباب هذا الانحطاط لا يؤاخذ بها الاسلام نفسه . فليتأمل الانسان فيما اذا استمرت في قطعة من أوربة ادارة عسكرية ، مستبدة غاشمة متغشمة مدة مائتين وخسين سنة ، كما جرى في تركيا . أو استمر حكم عماليك غرباء من كرج وشركس وترك وأرنووط كما جرى في مصر . أو كما حصل قبل سنة ١٧٣٠ في فارس من غارات الأفغان ومن حكم نادر شاه العسكرى والمظالم التى رافقت تأسيس دولة آل قاجار الحالية ، فلا شك ان هذه القطعة مهما كانت أوروبية فانها لا تثبت أمام هذه الحوادث ، وان ما لها يكون الى الانحطاط . ولهذا لا أجد تعليلاً غير هذا التعليل لما نراه من انحطاط البلدان الشرقية ، ولا أرى من العدل أن نلقى على الاسلام مسئولية حالة كهذه واننى أرد كل الرد نسبة تقييد العقول الى ديانة لمعت في ظلها للعقل البشرى أدوار سنيّة . ولا يقدح في هذا الأمر أن يكون موجوداً في الاسلام عدد من المشايخ الجاهلاء أو الجامدين . أفلم يوجد مثل هؤلاء وأشد منهم تعصباً وأحط فكرياً بين خدمة الدين المسيحى في أوروبا ؟ انه مما لا مشاحة فيه أن روح النقد والبحث والأخذ والرد ، قد رافق الاسلام من بداية أمره وبدأ من محمد نفسه . والآن في فارس نجد الشيعة الذين هم الأكثرية في البلاد منقسمين الى ثلاثة أقسام : الاخبارية والمجتهدية والشيخية . ولكل من هذه الفرق الثلاث آراء جديدة مبنية على مقتضيات الوسط التى تعيش فيه . فالأخبارية يقبلون جميع الأحاديث والآثار المنقولة عن الأنبياء والأئمة ، وبمقتضى هذا المبدأ يمكن هذه الفئة أن تقبل مبادئ وآراء لم يكن أصلها من القرآن ، وذلك بأنه اذا ورد في الأحاديث النبوية ما يوافقها فقد أصبحت مقبولة عند هذه الفرقة . نعم في هذا المذهب سعة لا تنكروا ان كان الاخباريون يرون أنفسهم أخلص الشيعة ، ويخالفون محدثى العرب وترك من أهل السنة في شدة تمحيص الأحاديث ، وتجدد في الاخبار التى يعتمدون عليها ويطبقونها على الاسلام أقوالاً باقية من الديانات الفارسية

القديمة والساسانية ، وتراهم يذهبون في حشر الأجساد مذهباً يخالف الظاهر من الاسلام ، فلا يقولون بأن الاجساد تعود بعد الموت كما هي ، بل يقولون ان البشر بعد الحساب انما يكتسون مظاهر نورانية . وسواء كان الابرار أو الفجار فلا يظهرون في الابدان التي كانت لهم في الحياة الدنيا ، وسواء كان نعيم أولئك أو عذاب هؤلاء ، فكله هناك من طبيعة عقلية محضة لا مادية . وفتة الاخباريين هذه ينتسب اليها كثير من الطبقة الوسطى في الشعب ، فمهما وجد من الأفكار الغريبة عن الاسلام ، وأمكن وضعه تحت اسم واحد من الأئمة تقبلوه بدون مراجعة . ولهذا تجد كبار علماء الدين يردون عليهم ويفندون مزاعمهم لاسيا في طهران .

وأما الشيخية فان لهم صلةً بكثير من مبادئ الاخبارية ، وهم وان كانوا يقولون بحشر الأجساد كما في الاسلام ، فانهم يتابعون الفيلسوف ابن سينا في قضية معراج الرسول الى السماء ، وفي معجزة انشقاق القمر ، ويقولون انه لا يجب تلقي هذه الامور بحسب ظاهرها ، بل يجب حلها على المجاز ، ففي مسألة المعراج يقولون انها كانت رؤيا - وهذا الرأي على ضعفه موجود في الاسلام قال به كثيرون وينسب الى معاوية رضى الله عنه وأما في مسألة انشقاق القمر فيقولون انه كناية لفظية . ومؤسس الطريقة الشيخية هو الشيخ أحمد البحريني ، عربي الأصل . كان يدرس في تبريز وتوفي في كربلاء ، وله تأليف في علم الكلام لم يصرح فيها بشئ من هذه المبادئ ، ولكن يقال انه كان يستعمل الكتان ، وانه كان على جانب عظيم من الجراءة في آرائه . وللعقيدة الشيخية أنصار كثيرون في الطبقة العالية من رجال الدين وهم يناصبون الاخباريين العداوة وينتقدونهم أشد انتقاد في قبولهم جميع الاحاديث والاخبار بدون نقد ولا تمحيص ويحتجون عليهم بالقواعد التي وضعها أئمة الحديث والتي تقتضي مزيد التحري . وهم في هذا المعنى قرييون من أهل السنة . وقولنا قريبون من أهل السنة لا ينبغي أن يؤخذ منه أنهم أميل الى السنة من غيرهم بل هؤلاء أيضا يرون أنفسهم من أخلص الشيعة وأصلبهم عقيدة ، فهم في الحقيقة وسط بين تدقيق أهل السنة الزائد في الحديث ، وتساهل الاخباريين فيه وهم أشبه بفرقة پوزيت Puséytes « الانكليز الذين هم من أشد الفرق كراهية للكتلثة ، وهم في الواقع أقرب من غيرهم اليها .

أما فئة المجتهدة فانهم ينتقدون الاخباريين في سرعة تهافتهم؛ وسهولة تلقيهم للاخبار بدون تمحيص ويقولون ان الخبر يجب ليكون معمولاً بموجبه أن يستوفى شروط التمحيص المنصوص عليها في كتب الأئمة؛ فمن الوجهة النظرية لا تجدهم يتساهلون في هذا الموضوع أصلاً وأما من الجهة العملية فتجدهم بالعكس يقبلون كثيراً من الروايات عن معجزات الرسول والأئمة؛ ولا يحبون أن ينازعوا فيها أو أن يتحروا في أسانيدها؛ وكذلك لا يقبلون كلام الشيخية في جملها على المجاز؛ ويرجحون فهمها بحسب ظاهرها؛ اذ يرون ارخاء العنان في التأويل بالمجاز والكناية مفضياً الى هدم الدين نفسه ويرون تحكيم العقل في كل شيء منافياً للإيمان وهم كأسيويين يؤمنون بالمعجزات. وأكثر المجتهدين والاجتهاديين هم من طبقة القضاة؛ ومأموري الادارة؛ والذين يشتغلون بالعمل أكثر من النظر. وكثيراً ما يتحول الانسان في فارس من مذهب الى مذهب فينما هو من الشيخيين مثلاً اذ تراه تحول اجتهادياً أو اخبارياً. أما مذهب السنة فهو ضئيل في فارس والشعور القومي هناك ضده وقد ازداد بغض الشيعة للسنة من أيام الدولة الصفوية؛ وكان العامل في هذه العداوة سياسياً أكثر مما كان دينياً. وبالأجمال لا توجد ديانة أكثر فرقاً من الاسلام وذلك لسببين الأول: كثرة عدد الفرق، والمعروف بصورة رسمية انها من الاسلام، والثاني: ان الانسان يمكنه أن يقبل في جانب مبادئ القرآن آراء كثيرة لم يكن أصلها منه. فسبب هذه الحرية العظيمة التي تجدها في الاسلام والتي هي منشأ الأخذ من الخارج هي بساطة العقيدة ووجازتها فهي تنحصر في قول الانسان: لا اله الا الله محمد رسول الله. فمن صرح بهاتين الشهادتين فهو مسلم

ثم أخذ المصنف يذكر تاريخ البعثة النبوية وما قام به الرسول ﷺ من تصحيح العقائد السابقة وأطال في هذا المقام وقال ان الرسول كان مصلحاً معتدلاً في اصلاحه. وقال ان الرسول لم يأخذ ماعلمه عن اليهودية من التوراة رأساً وإنما أخذ عن التامود وعما كان دائراً في عصره بين اليهود. وكذلك قال ان محمداً كان مصيباً في قوله ان النصارى حرفوا الانجيل لان النصارى في عصره وجد منهم من حرف الانجيل قال: فنبأ الاسلام في نفسه كان يحترم ملتي موسى وعيسى أشد الاحترام الا أنه كان يشدد التكبر على اتباعهما الذين أفسدوا العقائد التي كانا قد أتيا بها. فالاسلام بالكتب الثلاثة التوراة بدون تبديل والانجيل

بدون تحريف ، والقرآن الموحى الى محمد بواسطة جبريل ليس الا اعادة دين العرب القديم الى نقاوته الأصلية ، واحياء ملة إبراهيم كما كانت ، وقد ذكر « دى غوينو » سيرة الرسول الشخصية في صفحة ٤١ من كتابه فقال : انه كان بين العرب بل بين جميع معاصريه رجلاً متحلياً بثمانى زكية ، رصيناً ، محباً للعدل ، محباً للإنسانية ، حليماً ، نزيهاً ، الى الدرجة القصوى

وأما الفتح الاسلامى وكيف تحولت به فارس مملكة اسلامية وبقيت فارسية في نفسها وهو الموضوع الذى نحوم حوله الآن فقد علّله بالأسباب التى سبق ان أوضحها بصور مختلفة وهو ان الاسلام مبدأ سهل سمح يسهل أن تدخل تحته مبادئ جديدة طارئة عليه من الخارج أو راشحة اليه من السابق . وأعظم دليل على هذا الأمر هو التشيع الذى هو دين فارس اليوم . قال : فالعرب عند ما هدموا ملك كسرى في وقعة القادسية كانوا قد صادفوا أمة فارسية خامرها الفساد في أخلاقها كما خامر الأمة البيزنطية . وليس هذا بقادح فيما ثبت للعرب الفاتحين حينئذٍ من البسالة الفائقة والحاسية المدهشة وجميع الفضائل العسكرية من اخلاص وصبر وقناعة وعلو نفس وبعيد همة وبصيرة بالحرب . وانما نقول انهم لو صادفوا امامهم في الشرق ما صادفوه في الغرب من أمم متعلقة بحكوماتها وأقوام مخلصه لأمرائها لما كانت أمكنتهم تلك الفتوح التى فتحوها في الشرق بهذه السرعة الغريبة ولكان عمرو ابن العاص وخالد بن الوليد وأمثالهما اضطروا الى العودة الى قفارهم . الا أن المملكة البيزنطية كانت قد نخرت بفساد الأخلاق وتمزقت بالمجاذلات الدينية . وكذلك فارس لم تكن أحسن منها حالاً .

ثم ذكر أحوال ديانات العجم يوم ظهور الاسلام فقال ما محصله : ان المجوس كانوا قد أسسوا في ظل الدولة الساسانية ملةً رسمية ، زعموا أنه لا يجوز أن يكون غيرها في المملكة وهو خطأ لم يقع فيه الزاردشتية من قبل . ولم يلحظ المجوس ما كان قد تطرق الى بلادهم من المذاهب الغريبة ، فان العقائد اليونانية والاشورية والمبادئ الافلاطونية الدينية التى تولدت في الاسكندرية كانت قد شاعت في جنوبى فارس وغربها . وأما في شمالى فارس فالقبائل التى هناك كانت لم تخضع للديانة المجوسية الا على شرط حفظ شعائرها القديمة التى من جلستها عدم وجود طبقة كهنوتية خاصة . وكانت هذه القبائل تتمسك بعاداتها من أن رئيس

العائلة هو الكاهن الوحيد لها . وكان قد دخل في فارس أيضاً عقائد مسيحية ويهودية كان لها تبع كثيرون منهم أمراء وقواد ذوو سلطان ، ودخلت أيضاً البوذية والمناوية والبراهمية وهذه الأخيرة كانت منتشرة في كرمان ومقاطعات هرمز . وكانت المجوسية الفارسية توخت ارضاء جميع المذاهب وفتحت صدرها لكثير من العقائد المسيحية واليهودية والكلدانية . ورأت نفسها ديانة سَمحة تريد أن تتفادى المنازعات والمجادلات الدينية ، فاصابها في آخر الأمر ما يصيب كل ملة تقصد التوسُّع فتقع في التضيق ، وذلك انها اضطرت أخيراً الى الاكراه والاضطهاد . ولما كانت هي دين الحكومة صار كل ساخط على الحكومة ناظم عليها سوء الادارة ساططاً على الديانة أيضاً فلما جرت وقعة القادسية وانتصر العرب على العجم جاءت فرجاً لكثير من اليهود والمسيحيين الذين كانت الحكومة الفارسية تضطهدهم ، وكان الدين العربي الجديد يعدُّهم أهل كتاب ولا يكلفهم الا أداء جزية تريحهم من التكاليف العسكرية . وكذلك جاءت القادسية فرجاً لاصحاب المهن والصناعات الذين كانوا يغرمون غرامات فاحشة بحجة أنهم يهينون النار أو الماء أو التراب وهو مما لم يكونوا يقدرّون أن يتجنبوه لأجل صناعاتهم . فما كان أسرع مثل هؤلاء بطبيعة الحال الى الدخول في الاسلام قال : ولا نريد أن نقول بهذا ان الديانة المجوسية كانت قد فقدت كل حكمها بعد أن وضعت يدها على الدولة مدة أربعة قرون ، بل كانت قد بقيت لها عروق واشجة في البلاد . ولما انهزمت في معركة القادسية كان انهزامها مرافقاً لانهزام الدولة والوطن . ولم يمض على ذلك زمن حتى صارت هي الممثلة للوطن الفارسي . فقد كان بقي للسلطة القديمة بقايا ذات بال ، وكان من أمراء فارس من لم يزل متمتعاً بماله وجاهه ونفوذ كلمته ، ولم يكن المسلمون يضطهدونهم كما يظن بعض المؤرخين ، فبقيت شوكتهم قوية . فلما جاء بعض أمراء الترك ينازعون خلفاء العرب الملك ويستقلّون عنهم بامارات لهم خاصة ، وجدوا من استعداد زعماء العجم موافق سياستهم حتى ان أشد هؤلاء الأمراء اسلاماً مثل محمود الغزنوي مثلاً كان يقوى العجم على العرب وكان الأدب الفارسي لا يزال الا في صور معلومة فارسيّاً في ديباجته فتأيّدت بذلك النزعة الفارسية ، ثم انطلقت الحرية للشعب الفارسي فصاروا يلعنون العرب علناً بلا تكدير حتى دخل في ذلك أحفاد الذين كانوا أول من ابتهجوا بمقدم العرب . وكانت قد تنوسيت الأحقاد القديمة على السلطة السابقة ، بل كان

الشعب الفارسي رجع يتذكرها ويتأوه على ذلك المجد القديم الغابر . ولم يكن بقي لبيت الملك الفارسي الأخير سلالة ليلتفّ الفرس حولها ولكنه كان من الممكن احياء القومية الفارسية نفسها من جديد وتجديد رياسة دينية شبيهة بالتي كانت بفارس قبل الاسلام . وبالجملة شرعت الوطنية الفارسية تظهر في نَشْدان صيغة دينية خاصة بها شبيهة بما كان لها من هذا القبيل قبل ان دخلت في دين العرب

ولم يكن مما يرد على الخاطر أن تنتقض فارس على الاسلام نفسه فان العالم وقتئذ في نظر الشرق كان ينبغي أن يكون مسلماً . فالاسلام كان يمثل القوة السياسية والمجد والحضارة معا . وقد يجوز لهم أن لا يبقوا منه الا الاسم فقط ولكن هذا الاسم كان لا بد منه . فالفلاسفة كانوا يعملون تحت اسم الاسلام بجميع قواهم لبث مبادئهم ولو خالفته . والأمرء الساسانيون والغزنويون والديالة مثل بني بويه كان كل منهم يعمل على شاكلته ولكنهم كانوا جميعا ينطوون ظاهراً تحت لواء الاسلام . فكانت الحالة هناك كما هي الحالة الآن في الغرب : كثير من الناس لا يشهدون المراسم الدينية المسيحية ولا يعتقدون بدين المسيح . ولكنهم في الوقت نفسه لا يرحون يترنمون بذكر « المدينة المسيحية » و « العالم المسيحي »

وكان جل مقصد العجم صدع وحدة الدولة العربية لانهم كادوا يخنقون تحت سلطان هذه الخلافة العربية المنبسطة على البلدان من اسبانية الى الهند . وكانوا يعملون لاستقلال فارس بنفسها استقلالاً داخلياً فأول ما فكروا به هو انكار مشروعية خلافة أهل السنة ، والظهور بمظهر المناصرة لحقوق آل البيت المهضومة ، متمسكين بمبدأ شرعي هو بزعمهم أعظم مشروعية وأغرق في الاسلام من المبدأ العربي نفسه ، فكأنهم صاروا عرباً أكثر من العرب ومسلمين أكثر من خصومهم . قاموا يستظهرون على العرب بمبادئ لا يمكن هؤلاء أن ينكروها بتاتاً ، وهكذا كان منشأ مذهب الشيعة في ايران وقد صحب منشأ معارك وملاحم لا تحصى ولكنه خدم فارس كثيراً في قضيتها القومية وجدّد كثيراً من منازعها القديمة .

كان النزاع في ظاهر الحال دائراً على حق العباسيين في الخلافة وعدمه . ولكن في الحقيقة كانت النهضة نهضة فارسية محضة . وأخذت كل بلدة تؤلف لنفسها طبقة دينية خاصة

ولما كان وجود طبقة دينية خاصة — كما في الدين المسيحي مثلاً — غير متفق مع مبادئ القرآن ولا مع سنة الرسول وكان كلٌّ من المسلمين بحسب الكتاب والسنة غير مقيّد في عقيدته بأوامر رجال الدين نزع هؤلاء المسلمون من العجم الى طريقة جديدة وهو أن يقولوا ان القرآن لا تسوغ تلاوته ولا تفسيره الا لعلماء الدين الذين يقال لهم اليوم « ملأ » وهذا منزع أخذه الايرانيون عن فلاسفتهم القدماء وعن مؤابذتهم المجوس ، وهي حصر الخدمة الدينية في طبقة معينة لا تتعداهم . وهكذا تجددت الديانة الساسانية بشكل اسلامي هو مذهب الشيعة . ولما تأسست الدولة الصفوية فيما بعد لم تكن سوى دولة ساسانية مسلمة . وان تعمقنا في حقائق الأشياء نرى ان التشيع عندهم هو القول باله أزلى أبديّ واحد لا بداية له ولا نهاية . قد خلق الكون على قواعد ثابتة ، وبين خلقه شروط النجاة والهلاك وسيكون الرجوع اليه ، والرسول هو أكمل المخلوقات والقرآن غير مخلوق بل وُجد منذ الأزل بالارادة الالهية ، وبالجملة فآله والرسول والقرآن يذكروننا هنا بالعقيدة الفارسية القديمة المسماة « الزروانه اكرنه » أى الزمان بدون حد . وأما العمل فهو لآئمة آل البيت فهم الذين يحفظون العالم ويهدونه الى صراط مستقيم وليس في الخارج عنهم الا الظلمات . فالاعتداء بهم هو النجاة ، والانحراف عنهم هو الهلاك . وهم اثنا عشر اماماً . واذا تأمل الانسان ، يجد اعتقاد العجم المسلمين في علىّ أشبه باعتقاد العجم القدماء في هرمزد المخلص الحافظ القيوم ، كما أن ذريته أشبه باللائكة الصالحين الذين في ديانة زردشت يقاثلون الأرواح الخبيثة . وأما قضية الشيطان والقتال الدائم بينه وبين الآئمة فهي أشبه بقضية أهرمان في الممسيقية القديمة . ولذلك تجد أهل السنة يكرهون هذه الاعتقادات أشد الكره ويرون فيها الاتقادات المجوسية القديمة ، ولعمري ليسوا بمخطئين . ولكنهم لا يقدرّون أن يلوموا الا أنفسهم نظراً للسعة التي في مذهبهم فانهم قد حاولوا أن يدخلوا في الاسلام من الخلق بقدر استطاعتهم ولم ينظروا الى ما كان المسلمون الجدد يحملون في حقائبهم ويدخلون به على الاسلام . انتهى

هذه خلاصة ما ذكره الكونت « دوغو ينو » وقد يكون اطلع على أحوال العجم أكثر من كل أوربي . ولكننا لا نقدر أن نتلقى جميع قضاياهم بدون فحص وان أصاب في كثير منها : وما لا مشاحة فيه ان أهل فارس يغفلون في على وآل البيت أكثر جداً من

الشيعة العرب ، كالزيدية في اليمن ، والمتاولة في الشام ، والشيعة في العراق ولكننا لا نقدر أن نقول ان هذه الخصائص التي لآل البيت وهذه العصمة للأئمة الاثني عشر غير معروفة أصلاً عند الشيعة من العرب . فان كانت الأسباب السياسية وحدها هي التي حلت أهل فارس على النزوع الى مذهب الشيعة ليقيموا منه خصماً لمذهب السنة ويجددوا الدولة الفارسية التي كان العرب قد قضوا عليها ، فاذا نقول في شيعة العراق وشيعة الشام وشيعة اليمن وكلهم عرب اقحاح ينزع بهم عرق العربية كما ينزع بأهل السنة بدون فرق .

اني لا أخالف هذا المؤات في كون الفرس نقلوا كثيراً من عقائدهم القيمة الى الاسلام ، ولا أخالف أيضاً في كونهم انتقضوا على العرب مراراً ، وخالوا تأسيس ممالك فارسية في وجه الخلافة العباسية ، وأنهم أيضاً احتفظوا باللسان الفارسي في وجه اللسان العربي ، وأن تشيعهم للعولية انما كان أكثره ناشئاً عن أغراض سياسية في أصلها ، المقصد منها مقاومة الحكم العربي . ولقد تقدم لي هذا البحث بعينه في هذه الخواشي ولم أكن اطلعت عندما حررت ذلك البحث على كتاب الكونت دوغوينو فأنا اذن متفق معه في المبدأ ، وانما أخشى أن يكون مبالغاً في بعض الأمور وذاهباً في اطلاق الحكم مذهب الأوربيين بنى جلده ، فيما يتكلمون به عن الشرق . فالتشيع لم يبدأ في فارس بل بدأ في الحجاز نفسه أي في موطن العرب ، وظهر بعد ذلك في الشام بواسطة أبي ذر الغفاري ، وقد سبق لي بحث وافٍ في هذا الموضوع نشرته في مجلة المقتطف سنة ١٩١٠ مسيحية وجاذبني فيه الحبل المجتهد الكبير ثقة الاسلام التبريزي الذي استشهد بيد الروس عند مادخلوا اذربيجان العجم بعد ذلك التاريخ بأشهر قلائل .

وكذلك نشر الاستاذ المحقق الشيخ احمد رضا من علماء جبل عامل مقالات ممتعة في المقتطف عن أصل التشيع في القطر الشامي ذكر فيها أنه لما نفى أبو ذر الغفاري من المدينة الى الشام بأمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، أقام أبو ذر في دمشق ينشر دعوته العلوية ، وآراءه الاستراكية في عدم جواز استئثار الأغنياء بالأموال دون الفقراء ، واستجاب دعوته قوم في دمشق لا تزال أعقابهم الى اليوم . ثم انه كان يخرج الى الساحل فكان له مقام في قرية الصرfond القريبة من صيداء ومقام آخر في قرية ميس المشرقة على غور الاردن وكلتاها من قرى جبل عامل . والمقامان الى الآن معروفان . فكان له من ذلك

الوقت في هذه الديار من استجواب دعوته في التشيع وكان معاوية استغاث بعثمان من أبي ذر وكتب اليه ان أبا ذر أفسد علينا الشام فأمره برده الى المدينة ، فأرسله اليها مهاناً على بعير ضالع بلا غطاء ولا وطاء ، بعد أن شتمه ونال منه ما اشتهى ، كما ذكر ابن الأثير في كامله ، والطبري في تاريخه ، وان كررها أن يذكر أسباب نفية بعد ذلك الى الربطة ، الا مانسباه الى أبي ذر من الآراء الاشتراكية . قال صديقنا الاستاذ الشيخ احمد رضا : ولا يمكن التسليم بان الأمر الذي أخرج معاوية فأخرجه عن حمله حتى فعل بأبي ذر ما فعل هو رأيه هذا وحده ، بل هو أمرٌ أهم من هذا وأعظم ، وهو الدعوة الى العلوية التي كانت تقضى على آمال معاوية كلها . قال : وكان أبو ذر معروفاً بميله الشديد الى الهاشمين عامة والى على خاصة ، وكان ممن تخلف مع على عن البيعة يوم السقيفة ، على مارواه أبو الفداء وغيره ، بل هو أول من أطلق عليهم اسم الشيعة . ورد في كتاب الزينة في تفسير الألفاظ المتداولة بين أرباب العلوم لأبي حاتم الرازي كما نقله عنه صاحب الروضات : « ان أول اسم ظهر في الاسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الشيعة ، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة وهم : أبو ذر وسامان الفارسي والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر ، الى أن آن أوان صفين فاشتهر بين موالى على عليه السلام »

قال الشيخ احمد رضا : « أما الشيعة في ايران والعجم فقد كان مبدأ أمرها في أوائل الدعوة العباسية ولم تكن يومئذ ثابتة الأركان ولا في زمان بنى بويه ، والدولة العلوية هناك الى أن انقضى أمر الخوارزمية في ايران ، وأقام المغول حكومتهم في قلب ايران ، وتعاقبت ملوكهم الى زمان السلطان الجايتو محمد المغولى المنقب بشاه خدا بنده ، فهو الذي أظهر التشيع في ايران ودعا اليه وأمر بان يخطب بأسماء الأئمة الاثني عشر على المنابر . (الى أن قال) : ولكن دولة العجم لم تصبح شيعية محضة قبل زمن الشاه عباس الكبير الصفوى الذي كان في القرن العاشر (للهجرة) وكان صاحب الفتيا لديه بل مرجع ايران في زمانه المحقق الكركي العاملى ، ويقول جودت باشا في تاريخه ان الشاه عباس هو الذى بث مذهب التشيع في ايران وأقام الدولة الصفوية على أساسه . اهـ

أقول ان هذه الروايات التي نقلها الاستاذ الشيخ احمد رضا العاملى من أعضاء مجمعنا العلمى العربى تطابق المشهور والمأثور في التواريخ المعتبرة ، الا انى لا أعلم من أين نقل ان

أبا ذر الغفارى رضى الله عنه كان يختلف الى الساحل والى مشارف الغور هل عثر لذلك على نصوص أم هو من الأخبار المتواترة بين شيعة جبل عامل ؟ لست أعلم .

أما الذى فى طبقات ابن سعد من خبر أبى ذر الغفارى ، فهو أنه جاء الى دمشق وأنه اختلف مع معاوية . قال : أخبرنا هشيم قال أخبرنا حصين عن زيد بن وهب قال : مررت بالربذة ^(١) فإذا أنا بأبى ذر قال : فقلت ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » قال معاوية نزلت فى أهل الكتاب قال : فقلت نزلت فىنا وفيهم . قال فكان بينى وبينه فى ذلك كلام . فكتب يشكونى الى عثمان . قال فكتب الى عثمان : أن أقدم المدينة ، فقدمت المدينة وكثر الناس على كأنهم لم يرونى قبل ذلك . قال : فذكر ذلك لعثمان فقال لى : ان شئت تنحيت فكنت قريباً فذاك أنزلنى هذا المنزل ولو أمر على حبشى لسمعت ولأطعت .

وروى ابن سعد حديثاً آخر قال أخبرنا يزيد بن هارون قال أخبرنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين أن رسول الله ﷺ قال لابی ذر : اذا بلغ النبأ سلماً فاخرج منها ونحا بيده نحو الشام ولا أرى أمراءك يدعونك . قال يارسول الله : أفلا أقاتل من يحول بينى وبين أمرك ؟ قال : لا . قال : فما تأمرنى قال : اسمع وأطع ولو لعبد حبشى . قال : فلما كان ذلك خرج الى الشام فكتب معاوية الى عثمان : ان أبا ذر قد أفسد الناس بالشام . فبعث اليه عثمان فقدم عليه ثم بعثوا أهله من بعده فوجدوا عنده كيساً أو شيئاً فظنوا انها دراهم فقالوا ماشاء الله فإذا هى فلوس (قطع نحاسية صغيرة) فلما قدم المدينة قال له عثمان : كن عندى تغدو عليك وتروح اللقاح . قال : لاجابة لى فى دنياكم . ثم قال : ائذن لى حتى أخرج الى الربذة ، فأذن له فخرج الى الربذة وقد أقيمت الصلاة وعليها عبدٌ لعثمان حبشى فتأخر فقال أبو ذر تقدّم فصل فقد أمرت أن أسمع وأطيع ولو لعبد حبشى فأنت عبد حبشى . قال ابن سعد : أخبرنا يزيد بن هارون قال أخبرنا العوام بن حوشب

(١) الربذة من قرى المدينة على ثلاثة أميال قرية من ذات عرق على طريق الحجاز اذا رحلت من فيند تريد مكة وبهذا الموضع قبر أبى ذر الغفارى رضى الله عنه واسمه جندب بن جنادة وكان قد خرج اليها مغاضباً لعثمان بن عفان رضى الله عنه فأقام بها الى أن مات فى سنة ٣٢ . عن معجم البلدان بحرفه

قال حدثني رجل من أصحاب الآجر عن شيخين من بني ثعلبة رجل وامرأته قالا : نزلنا الربرة فرأينا شيخاً أشعث أبيض الرأس واللحية فقالوا : هذا من أصحاب رسول الله ﷺ . فاستأذناه أن نغسل رأسه فأذن لنا واستأنس بنا فبينما نحن كذلك إذ أتاه نفر من أهل العراق ، حسبته قال من أهل الكوفة فقالوا يا أبا ذر : فعل بك هذا الرجل وفعل ، فهل أنت ناصب لنا راية فلنكمل برجال ماشئت . فقال : يا أهل الاسلام لاتعرضوا عليّ ذاكم ولا تذلووا السلطان فانه من أذل السلطان فلا توبة له ، والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة أو أطول جبل لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ، ورأيت ان ذاك خير لي . ولو سيرني ما بين الافق الى الافق أو قال ما بين المشرق والمغرب ، لسمعت وأطعت ، وصبرت واحتسبت ، ورأيت ان ذاك خير لي ، ولو ردّني الى منزلي لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذاك خيراً لي . قال أخبرنا الفضل بن دكين قال حدثنا جعفر بن برقان عن ثابت بن الحجاج عن عبد الله بن سيدان السلمي قال : تناهى أبو ذر وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما ثم انصرف أبو ذر متبسماً فقال له الناس : مالك ولأمر المؤمنين ؟ قال : سامع مطيع ولو أمرني أن آتي صنعاء أو عدن ثم استطعت أن أفعل لفعلت . وأمره عثمان أن يخرج الى الربرة . هذا وقد نقل ابن سعد بأسانيد متعددة قول رسول الله ﷺ : ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبي ذر . ولهذا الحديث في بعض الروايات تمة وهي : من سرّه أن ينظر الى زهد عيسى بن مريم فليتنظر الى أبي ذر . ونقلوا عن أبي ذر انه قال أوصاني خليلي بسبع : أمرني بحب المساكين والدنوّ منهم ، وأمرني أن أنظر الى من هو دوني ولا أنظر الى من هو فوق ، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أصل الرحم وان أوديت ، وأمرني أن أقول الحق وان كان مرّاً ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من لاحول ولا قوة الا بالله ، فانهن من كنز تحت العرش . وكان ينفق كل ما بيده ويقول : ان خليلي عهد اليّ أيّ مال ذهب أو فضة أو كى عليه ، فهو جر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله . ولقي أبو موسى الأشعري أبا ذر فلزمه ، فجعل الأشعري يقول له : أنت أخي ومرحبا بأخي . وجعل أبو ذر يقول له : اليك عنى لست بأخيك انما كنت أخاك قبل أن تستعمل .

لقد نقلنا هذه الأحاديث مكتفين بها عن غيرها من أخبار أبي ذر لاجل أن نعرف

القارىء بحقيقة حال أبي ذر فقد ثبت انه كان شديداً في الحق لا يخاف فيه لومة لائم ، وانه كان زاهداً في الدنيا ، وكان على منزع اشتراك يميل الى الفقراء والمساكين ، ويكره ادخار الأموال ، لكنه برغم خلقه هذا كان يرى الطاعة للسلطان ، كأنه كان يذكر دائماً ما أوصاه به الرسول ﷺ وهو : اسمع وأطع ولو لعبد حبشي . فأما ذهابه الى الشام فالشائع ان عثمان نفاه اليها وليس في الطبقات الكبرى لابن سعد تصريح بأنه نفاه الى الشام وإنما هناك إيماء بأنه رأى ما لم يعجبه وهو في المدينة فخرج الى الشام ، ثم اختلف في الشام مع معاوية . فكتب معاوية الى عثمان يقول له : ان أبا ذر أفسد الناس علينا . فأمره برده الى المدينة . ولم أقف على أثر في الطبقات لسكنائه بجبل عامل وساحل صيداء ، ولكن قرأت خبراً يدل على أن أبا ذر جاء بيت المقدس .

وعلى كل حال خبر أبي ذر الغفاري بأنه كان من شيعة عليّ خبر شائع بين الناس ، ومن الثابت ان التشيع بدأ عند العرب قبل العجم ولكن الغلو في التشيع بدأ عند العجم . ويجوز أن يكون هذا الغلو في التشيع ، وهذا الاعتقاد في عصمة الأئمة ، والقول بان ادارة الكون هي في يدهم ، من آثار الديانات الفارسية القديمة كما ان الأسباب السياسية التي أشرنا اليها سابقاً من نزوع العجم الى الأخذ بأثرهم من العرب كانت أيضاً عاملة في نشر التشيع في فارس . وأما كون غلبة التشيع الحقيقية على تلك المملكة لم تقع الا في عهد الدولة الصفوية ، فهذا يقع الاجماع عليه ويؤيده الكونت دوغوينو في كتابه الذي ذكرناه ويصرح به الاستاذ الشيخ احمد رضا ومن قبل هذا الدور لم يبلغ التشيع هذه الدرجة من القوة في فارس بل نجد في التواريخ ما يدل على العكس

وفي رسائل أبي بكر الخوارزمي رسالة الى جماعة الشيعة بنيسابور يعدد فيها جميع ماجرى من المحن والمظالم على آل البيت ولو انتدب أحد علماء التواريخ لشرحها لجاء منها كتاب كبير وفيها يقول : « ونسأل الله أن لا يحشرنا على نصب أصفهاني ولا على بفض لأهل البيت طوسي أو شاذلي » وهذا يدل على ان التشيع لم يكن غالباً على تلك البلاد كما هو اليوم . بل كان في العجم نواصب وكان بلد كبير مثل أصفهان معروفاً بشدة العداوة لآل البيت وهذا بشهادة رجل من كبار المتشيعين وأدباء عصره كابي بكر الخوارزمي . أما الدلائل التي يستخلصها الانسان من التواريخ على استعداد العجم للتشيع فهو اتفاق

المؤرخين على كون الخلافة العباسية انما قامت بالأعاجم أيام كانت الدعوة الهاشمية واحدة لم يفترق فيها بنو العباس عن بنى أبى طالب . ولغد قال المسيو هوار المستشرق الفرنسى صاحب « تاريخ العرب » ان العجم فى وقعة الزاب أى الوقعة التى انهزم بها مروان بن محمد آخر بنى أمية ، أخذوا بنأرهم عن يوم القادسية . ثم انه ظهر أن آل برمك برغم كل ما كانوا عليه من الحظوة فى زمان المنصور والرشد كانوا فى الباطن يميلون الى آل البيت ، حتى قيل ان سبب نكبتهم هو اطلاق جعفر بن يحيى البرمكى سبيل يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على رضى الله عنهم بدون اذن الرشيد ، بعد أن دفعه الرشيد اليه وجعل اعتقاله فى داره . وكذلك يعلم الناس أن بنى بويه كانوا شيعة وانهم بعد استيلائهم على بغداد والتزامهم نصره الخلافة العباسية والعمل تحت لوأهم لم يزالوا شيعة .

أما الحالة الراهنة الآن فى فارس وهو الذى يهم التعريف به ، اذ كان من أهم موضوعات حاضر العالم الاسلامى ، فهى ان الدولة الفارسية لاتزال دولة اسلامية وحامية للتشيع فى الاسلام . ولما كان ضعف الأمة الواحدة يزيل ما بين أحزابها المختلفة من الأحقاد فقد كان من نتائج ضعف الأمة الاسلامية فى العصر الحاضر ، زوال كثير من البغضاء التى كانت عند العجم لأهل السنة ، وزوال مثل ذلك من أهل السنة للشيعة ، وقد يورث الخير شراً والشر خيراً ، ولقد لحظ كل من ساح فى بلاد العجم حتى من الاوربيين ان الأمة الفارسية فى العصر الحاضر تشعر بشعور العالم الاسلامى جميعه ، فتهتم لتركيا ، ولبلاد العرب ، ول مصر ، وللغرب ، ولكل بلاد الاسلام اهتماماً أكيداً ، ويكرهها ما يكره المسلمون ، ويسرها ما يسرهم ، وسمعت مرة الأمير العلامة الجليل أرفع الدولة رضاخان ممثل فارس فى جمعية الأمم يقول من خطبة له فى جلسة عمومية : ان فارس تمثل فى عصبة الأمم العالم الاسلامى المؤلف من أربعمائة مليون نسمة . وقد كان من دلائل القرب بين الشيعة والسنة عقد الحكومة الفارسية الحاضرة معاهدات صداقة بينها وبين تركيا ، وبينها وبين العراق ، وبينها وبين الحجاز ونجد ، وبينها وبين مصر ، وكلها حكومات سنية . وفى أواخر السنة الماضية عندما انعقد المؤتمر الاسلامى فى القدس الشريف شهدته جماعة من أعيان الشيعة كالسيد الطباطبائى ، والشيخ الحسين آل كاشف الغطاء ، وجماعة من علماء الشيعة فى العراق ،

وجاعة من علماء الشيعة العاملين منهم الاستاذان الشيخ سليمان ظاهر ، والشيخ احمد رضا وغيرهم ، وقد صلى أعضاء المؤتمر الممثلون لجميع العالم الاسلامي مرتين بإمامة المجتهد الكبير السيد حسين آل كاشف الغطاء ، ولم يخطر ببال أحد الاعتراض على ذلك بل ابتهج به المسلمون جيعاً وصرح رياض بك الصلح مفخر شبان سوريا بأنه اليوم قد انبثق فجر الوحدة الاسلامية .

نعم ان في فارس اليوم نزعة لادينية تبحث في وقت واحد عن الالحاد في الدين ، وعن تاريخ فارس القديم ، وتريد التجدد العصري بزعمها ، وحياء الفارسية التي مرّت عليها ألوف من السنين أى الحديث الأحدث مع القديم الأقدم تحاول الجمع بينهما ولكنها لا تبلغ درجة الفته الماثلة لها في تركيا من جهة الغلو في التجدد مع احياء التركية القديمة . وكاتنا الفئتين لا تقدران على زعزعة الاسلام لافي فارس ولا في تركيا

وهذا ما كنا نشرناه في مجلة المقتطف عن الشيعة تحت عنوان « المتأولة أو الشيعة في جبل عامل ^(١) » :

اطلعت في المقتطف على ما كتبه حضرة الفاضل الشيخ أحمد رضا من أدباء جبل عامل بشأن طائفة الشيعة المعروفة بالمأولة في هذا الجبل وتأملت فيما أورده من تاريخ ظهورها فيه مع سبب اشتهاار الشيعة في بر الشام دون غيرها بامم « المتأولة » الى غير ذلك من التنقيبات الحرية بالاعتبار فآثرت أن أضم الى هذا البحث بعض ما خطر لي فيه اتماماً للفائدة ووفاء بالبلاغ لامن قبيل الاعتراض ولا على جهة المحاجة بل من قبيل اضافة رأى الى الآراء والقاء دلو بين الدلاء فأقول :

ذكر الكاتب أن لقب متأولة مشتق على غير القياس . من تولى أى اتخذ ولياً لانهم تولوا آل البيت النبوى رضوان الله عليهم أى اتخذوهم أولياء أو هو مشتق من توالى أى تتابع نظراً لتواليهم خلفاً عن سلف في موالاة العترة المصطفوية . والذي أراه أن التوجيه الأول هو الأقرب وانه هو الاصل في التسمية فان تولى يأتى في اللغة بمعنى اتبع كما يأتى بمعنى انصرف فكأنه من الاضداد وهذا منزع معروف للعرب وقد جاء منه في الكتاب العزيز بمعنى الاعراض « وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم » وجاء بمعنى الاتباع : « ومن يتولهم منهم

(١) مقتطف أغسطس سنة ٩١٠ ص ٧٣٩

فانه منهم « أى يتبعهم وينصرهم . والشيعه قد تولوا آل البيت أى اتبعوهم ف قيل فى اسم الفاعل متولى وتحرفت الكلمه بطول الزمن على ألسنة العامة ف قيل « متولى » وجعوه متاوله وكان الاولى أن يقال فيه متولية . والوجه الثانى هو من تولى فى حب آل البيت أى تابع فيكون اسم فاعله « متولى » ولا تحريف عندئذ فيه من جهة مفردة لكن يبقى التحريف فى جمعه اذ لا جمع لمتوالى على متاوله بل جمعه الصحيح متوالية وقد سمعت وجهاً ثالثاً من فم استاذنا الامام الشيخ محمد عبده المصرى أكرم الله مشواه وهو أنهم كانوا يقولون للعلوى «مُتَ ولياً لعلّ» وكان يحرض الشيعة بعضهم بعضاً على الثبات فى حب آل البيت بهذا الكلام فصيغت من ذلك كلمه «مُتَوَلَّى» ثم صارت بتوالى الأيام مُتَوَلَّى وكلمها وجوه غير بعيدة والغرابه ليست فيها بل فى كون هذه اللفظه غير معروفة الا لشيعة بر الشام بل لشيعة جبل عامل وجبل لبنان وبعليكم . ففى العراق شيعة لا يقال لهم متاوله وفى اليمن شيعة يقال لهم الزيدية ولا يقال لهم متاوله وفى العجم شيعة أكثر من كل محل ولا يقال لهم متاوله وبين مسامى الهند ملايين من الشيعة ولا يعرفون بلقب متاوله . وأغرب من هذا أن فى نفس دمشق الشام محله يقال لها الخراب سكانها من العلويين ويقال لهم هناك روافض ولا يقال لهم متاوله وبالأجمال فالشيعة فى جميع بلاد الاسلام تحت ألقاب شيعة وعلاوية وامامية وجعفرية وزيدية واثناعشرية وغير ذلك وكلمه متاوله مخصوصه بشيعة بر الشام

على أن المجانسة فى المعنى بين التشيع والموالاة ظاهرة بل المعنى واحد فى اللفظتين والولى أو المتولى هو المشايخ أو المتشيع ورد فى كتاب «غاية الاختصار فى أخبار البويونات العلوية المحفوظة من الغبار» للسيد الشريف تاج الدين بن محمد بن زهرة الحسينى نقيب حلب قوله كل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيعة وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره ويقال شايعه كما يقال والاه من الولى والمشايع

هذا ما حضر لى الآن من جهة كلمه متاوله وأنا موافق لصاحب البحث على كونها حديثه العهد جرت على الألسنة منذ مائتى سنة فقط لأن المؤرخين لم يذكروا هذه اللفظه عند ذكر شيعة بر الشام مع كون هذه الطائفة موجودة فى القطر منذ أوائل الفتح الاسلامى أما ما ذكره من جهة مبدأ التشيع فى الشام فانه من سيدنا أبى ذر الغفارى الذى نفاه الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنهما الى الشام وكان يخرج الى الساحل وله مقام بقرية

الصفند ومقام آخر في مشارق الغور الى غير ذلك فهو قول متواتر بين الناس وربما كان أقرب الأقوال الى الصحة ولكن كنت أحب أن يكون الكاتب أورد النصوص التاريخية من أمهات الكتب أو نقل من الروايات ما فيه زيادة تفصيل وشفاء للغليل فإن التاريخ المعروف لدينا قصير العبارة جداً عن هذا الحادث وهذه الظامة فيه هي التي أضلت كثيراً من المؤرخين في حقيقة أصل الطائفة الشيعية في جبل عامل ، وحملت بعضهم على الظن أنهم قوم أتوا من العجم فلا انكار أن أبا ذر كان موالياً لعل أي كان شيعياً وأنه من المتخلفين عن مبايعة الصديق يوم السقيفة وله في ذلك شركاء من الصحابة نصت على ذلك الأمهات . فأما مقامه بالشام فغاية ما ذكره فيه أنه كان ينكر على معاوية جمع الأموال ويشنع عليه بهذا السبب حتى شكاه معاوية الى عثمان فنفاه الى الربذة . ذكر أبو الفداء في حوادث سنة ٢٥ وفاة أبي ذر الغفاري واسمه جندب بن جنادة قال : « وكان بالشام ينكر على معاوية جمع المال ويتلو « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » الآية فكتب معاوية الى عثمان يشكوه فكتب اليه عثمان أن اقدم المدينة فقدم الى المدينة فاجتمع الناس عليه وصار يذكر ذلك ويكثر الشناعة على من كنز الذهب والفضة فنفاه عثمان الى الربذة » أما تسمية هذا الجبل بجبل عامل أو جبل عاملة فلم أجد الكاتب تعرض لها مع أن فيها ما يثبت كون سكان هذا الجبل عرباً لا عجماء وذلك لأن مؤرخي العرب اتفقوا على كون حير وكهلان وأشعر وعمر و عاملة هم ولد قحطان وان أباهم هو يشجب ابن يعرب بن قحطان وان من حير التابعة وبنى شعبان وقضاة ومن كهلان الازد وطى ومذحج وهمدان وكندة ومراد وانمار . ومن كل من هؤلاء بطون وأغاذ كثيرة . وأما أشعر فهي القبيلة التي ينسب اليها أبو موسى الأشعري وأما عمرو فبنوهم وبنوهم وأما عاملة فخرجوا الى الشام ونزلوا بالقرب من دمشق بجبل عرف بجبل عاملة ، ومنهم عدى بن الرقاع الشاعر وعلى هذا يكون أصل مكان هذا الجبل من عرب اليمن وربما يكون نزل فيهم أيضاً قوم من السكاسك وهي قبيلتان على ما حققه ابن الجوزي في النسابة. الاولى من كندة والثانية من حير وهم بنو زيد بن وائلة بن حير ويلقب بزيد السكاسك وكلاهما باليمن والذي حملني على هذا الظن وجود أرض يقال لها السكسية الى الجنوب من الصفند على سيف البحر

وقد ورد ذكر جبل عامل في مواضع كثيرة . قال ياقوت في معجم البلدان عند ذكر هونين :
بلد في جبال عاملة . وقال عند ذكر تبينين : بلدة في جبال بني عامل المطلة على بلد بانياس
بين دمشق وصور . وورد في تاريخ ابن الأثير عند ذكر حصن الافرنج تنين : ان الملك
العزیز خرج من مصر لنجدة المسامين في الشام ورحل هو والعساكر الى جبل الخليل
(الخليل) ويعرف بجبل عاملة

ومن الغريب أنه لم يرد في الكتب القديمة ذكر هذا الجبل باسم بلاد بشارة كما هو
معروف به اليوم والشيخ احمد رضا يقول ان نسبة هذه البلاد هي الى أحد حكامها في
العصور الوسطى قيل انه من الأمراء بنى معن وقيل هو بشارة بن مقبل القحطاني وان كل
ذلك لم يقم عليه برهان وقوله هذا هو الصحيح أما الأمراء بنو معن فلم نجد في تاريخهم
من اسمه بشارة . وأما بشارة بن مقبل القحطاني فبدا لو ورد شيء من تاريخه لنعلم أين
كان مقره ومن كان صاحب هذا الاسم اذ لو عرفنا شيئاً من أمره لكان يمكن ترجيح
هذه الرواية على غيرها وما دام صاحب هذا الاسم مجهولاً فالأولى أن تكون هذه البلاد
منسوبة الى حسام الدين بشارة من أمراء الدولة الأيوبية قال ابن شداد في سيرة صلاح الدين
يوسف انه أتى عكا فأقام بها معظم سنة ٨٥٠ ورتب بها بهاء الدين قراقوش والياً وأمره بعمارة
السور ومعه حسام الدين بشارة وقال أيضاً انه في سادس عشر جادى سنة ثمان وثمانين وصل
كتاب من حسام الدين بشارة يذكر أنه تخلف في صور مائة راكب وانضم اليهم من عكا
خمسون وخرجوا لشن الغارات في البلاد الاسلامية فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد
من ذلك الطرف وجرى بينهم قتال شديد

وقد ورد ذكر حسام الدين بشارة مرة ثالثة في تاريخ ابن شداد عند حلف اليمين
للافضل بن صلاح الدين بعد وفاة والده وظهر من كلامه أنه كان من أكابر أمراء تلك الدولة
فلا يمنع أن يكون تولى هذه البلاد ونسبت اليه وهو أقرب وجه في هذه النسبة حتى يقوم
ما يدل على رجحان خلافه

أما كون التشيع في جبل عامل هو أقدم من العجم بل في كل قطر حاشا الحجاز فن
الحقائق التي لا خلاف فيها بل التشيع في العجم أحدث منه في سائر بلاد الاسلام . فجودت
باشا في تاريخه يقول ان الساء عباس هو الذي بث مذهب التشيع في ايران وأقام الدولة

الصفوية على أساسه . والمحجى يقول ان الشاه عباس بن السلطان محمد خدابنده بن طهماسب ابن الشاه اسماعيل بن سلطان حيدر ينتهى نسبه الى الامام على وان أول من بالغ في التشيع وأظهره هو السلطان حيدر وكان ذلك سنة ست وتسعمائة وهذا مخالف نوعاً لما قاله جودت باشا وعلى كلا القولين فالتشيع في العجم غير قديم كما أنه في العرب وفي بر الشام لم يكن ظاهراً بل كانت الشيعة تتمسك بحبال التقية خوفاً على أنفسهم . ولذلك نجد المؤرخين يتجانفون عن نسبة علماء الشيعة الى التشيع الا اضطراراً فقد ترجم المحجى محمد بن علي بن محمود الشامي العاملي المعروف بالمشغري ونقل عنه ما قاله ابن معصوم في السلافة من الثناء والاطراء وذكر أنه خرج من الشام الى العجم ولم يذكروه بتشيع ولا رفض وكذلك ترجم حسناً ابن زين الدين الشهيد العاملي الشهير بالشامي ولم ينسبه الى التشيع وذكر حفيده زين الدين ابن محمد بن حسن كذلك . انما في ترجمة محمد بن علي بن احمد المعروف بالحريري وبالحرفوشي العاملي الأديب الشاعر ذكر اخراجه من دمشق وسعى يوسف بن أبي الفتح عند الحكام بقتله بنسبة الرفض اليه وانه سار الى بلاد العجم وان سلطانها الشاه عباس صيره رئيس العلماء في بلاده . كذلك عند ما ترجم محمد الخ العاملي الشامي نقل عن ابن معصوم صاحب السلافة أنه قدم من مكة في سنة سبع أو ثمان وثمانين وألف وفي الثانية منهما قتلت الأتراك جماعة من العجم لما اتهموهم به من تلويث البيت الشريف وان المترجم خاف على نفسه فالتجأ الى السيد موسى بن سليمان ونجا . وذكر المحجى أن ممن قتلوا بتلك التهمة السيد محمد مؤمن وكان رجلاً متعبداً الا أنه معروف بالتشيع

ولما وصل الى ترجمة فريد عصره بهاء الدين العاملي صاحب الكشكول ذكر أنه ولد ببعلبك غروب شمس الأربعاء لثلاث عشرة بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وخسين وتسعمائة وانتقل أبوه الى بلاد العجم وما زال يتدرج في سلم الفضل الى أن ولى مشيخة الاسلام في تلك الديار . وقال « وغالت تلك الدولة في قيمته واستمرت غيث الفضل من ديمته فوضعت على مفرقها تاجاً وأطلعت في مشرقها سراجاً وهاجاً وتبسمت به دولة سلطانها شاه عباس واستنارت بشمس رأيه عند اعتكار حنادس الباس فكان لا يفارقه حضراً ولا سفراً الخ » ثم نقل عبارة الطالولي في حقه التي أطراه فيها بما لم يسمح به لأحد وقال ان شاه عباس طلبه لرياسة علماء بلاده لكنه لم يكن على مذهب الشاه في الزندقة لانتشار صيته في

سداد دينه الا أنه غالى في خب آل البيت . وذ كر المحبي أنه لما نزل الشام نزل بمحلة الخراب وهي الآن محلة الشيعة . ونقل في حقه عبارة للشيخ أبي الوفاء العرضي وهي أنه لما قدم حلب في زمان السلطان مراد بن سليم حضر دروس الوالد أي الشيخ عمر وهو لا يظهر أنه طالب علم حتى فرغ من الدرس فسأله أدلة تفضيل الصديق على المرتضى فذكر حديث ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين أفضل من أبي بكر فرد عليه وأخذ يذ كر أشياء كثيرة تقتضي تفضيل المرتضى فشمته الوالد وقال له (رافضي شيعي) وسبه فسكت ثم ان صاحب الترجمة أمر بعض تجار العجم أن يصنع وليمة يجمع فيها بين الوالد وبينه فصنعها ودعاها فأخبره أن هذا هو المنلا بهاء الدين عالم بلاد العجم وقال للوالد : شتمونا فقال له : ما علمت أنك المنلا بهاء الدين . ثم قال : أنا سني أحب الصحابة ولكن كيف أفعل سلطانتا شيعي ويقتل العالم السني . قال المحبي ولما سمع بقدمه أهل جبل عامل تواردوا عليه أفواجا أفواجا فخاف أن يظهر أمره فخرج من حلب

ومن هنا يظهر أن الشيعة كانوا لا يزالون معتصمين بالنقية مكتمين لأمرهم مئين من السنين لأنه لا جدال في كونهم موجودين في الشام من أوائل الفتح الاسلامي ومع هذا فالمؤرخون لا يذكرون هذا الأمر الا عَرَضاً وربما لم يذكروه أصلاً . ومما يدل على القدم والتكتم كون الاسماعيلية والدروز قد خرجوا من الشيعة ويقال انهم خرجوا من الشيعة السبعية أي القائلين بالأئمة السبعة وقع ذلك في أواخر القرن الرابع للهجرة وأوائل القرن الخامس في أيام الدولة الفاطمية الغالية في التشيع . فالشيعة كانوا في هذه الجبال قبل هذه الطوائف التي خرجت منهم ومنازل الفريقين لا تزال متناوذة مما يستدل على وحدة الجاثومة فضلا عما بين كثير من عشائر الفريقين من القرابات والكلالات والانساب المتحدة في الأصل متواتراً ذلك خلفاً عن سلف يؤيد كون هذه الطوائف راجعة في أصلها الى العرب والله تعالى من وراء العلم

التشيع

ايهما فيه أقدم الشام أم العجم^(١)

طالعت ما ورد في المقتطف من أحد فضلاء تبريز جواباً على ما سبق لى ولأجد افندى رضا من أدباء جبل عامل بان التشيع هو في الشام أقدم منه في كل قطر حاشا الحجاز فالفاضل التبريزي يريد أن مجرد الاستدلال العقلي على أقدمية التشيع في الشام باقامة أبي ذر الغفاري في نواحيه ومخالفته لخليفة عصره هو غير سديد. إذ أهالي مصر حينئذ يجب أن لا يتأخروا عن أهل الشام في التشيع لأن محمد بن أبي بكر كان عندهم وهو من ألد الخصوم لعثمان (رضي الله عنه) ويقول أيضاً ان مبدأ التشيع في العجم هو في أيام الدعوة العباسية إذ معلوم ما ظهر من ميل أهل خراسان الى تأييد أمر العلوية وان ذلك البلاد كانت منذ ذاك الوقت مركزاً لعلماء الامامية. وانه اذا ورد في تاريخ المحبي وتاريخ جودت باشا ظهور التشيع في فارس في أيام السلطان حيدر أو الشاه اسماعيل فربما كان مقصدهما عموم التشيع جميع ايران وجعله مذهباً رسمياً

والجواب على ذلك أن التشيع بدأ منذ أيام سيدنا على كرم الله وجهه فلما وقعت الحرب بينه وبين سيدنا معاوية انقسم المسلمون حتى الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) قسمين قسم كان مع على وقسم كان مع معاوية ووقع هذا الانقسام نفسه في الحجاز ثم في الشام التي لم يطبق جميع أهلها على مناوأة على يومئذ فكان منهم من بقى على موالاته فلهذا قلنا ان الشام في التشيع أقدم من فارس

ولم يكن الاسلام نفسه لذلك العهد قد تبسط في فارس حتى ينبسط فيها مذهب من مذاهبه فان لم يكن ثبت الأصل فكيف يثبت الفرع؟

نعم ظهرت الدعوة العباسية في خراسان ومرو في أواخر الدولة الأموية حينما هب بنو هاشم لاستعادة الخلافة من بني أمية فوجدوه في ذلك السواد وهو خراسان ملبياً لدعوتهم وناصراً لكلمتهم ، وتم الخروج على الأمويين ، ودالت الدولة للهاشميين فأخذها منهم أبناء

العباس وكانوا في الأول يداً واحدة مع أبناء عمهم العلوية ، ولكن لا يصح أن يقال ان الدعوة العباسية هي نفس الدعوة العلوية ، بل يقال هما شعبتان من أصل واحد ، وان الدعوة العباسية هي غير التشيع . وعلى فرض كان ذلك كذلك فأين الأيام التي يقول عنها مناظرنا الفاضل وهي أيام اجابة العجم لدعوة بني العباس من ايام انقسام أهل الحجاز والشام بين علي ومعاوية . فان بين العهدين نحواً من قرن واحد فقد كانت خلافة الامام على سنة ٣٥ وكانت خلافة أبي العباس السفاح العباسي سنة ١٣٢

فاذا ثبت ان أهل الشام انقسموا بين علي ومعاوية في أثناء حرب صفين فقد ثبت ان التشيع ظهر بينهم لذلك العهد ، وأما التشيع في بلاد العجم فلو عدنا القيام بأمر بني العباس تشيعاً علوياً محضاً وهو ليس كذلك فلم يظهر الا في أواخر دولة بني أمية أيام مروان ابن محمد . ولهذا حكمنا بسبق الشام للعجم في تاريخ الشيعة . وهناك دليل آخر . وهو انه لو كان أهل فارس مشايعين لآل علي في قيامهم بدعوة بني العباس لما قاموا بمبايعة رجل عباسي حين كان يوجد من العلوية من يطلب هذا الأمر لنفسه وانما كان القاءون يومئذ بنصرة العلوية هم من العرب لا من العجم

فما وقع الانقسام بين العلوية والعباسية وخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين (الحسن) بن علي بن أبي طالب وهو الملقب بالنفس الزكية وبالمهدي على أبي جعفر المنصور أخى السفاح تبعه أهل المدينة وقتلوا من دونه حتى قتل ولم يكن خروجه في العجم ولا قاتل معه أحد من فارس ثم خرج أخوه ابراهيم في البصرة طالباً البيعة له قبل أن يبلغه خبر قتله وأجاب دعوته خلق وانهزم من أمامه سفيان بن معاوية أميرها واستولى على الاهواز وواسط وسار الى الكوفة وقد أحصى ديوانه مائة ألف وكاد يتم له الفوز لولا ما قضى الله من هزيمته أخيراً وقتله وذلك سنة ١٤٥ ولم نقرأ انه قام بنصرته أحد من خراسان ولا في مرو ولا في جميع فارس

ثم خرج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضوان الله عليهم أجمعين) وذلك في خلافة الهادي بن المهدي العباسي ، وكان ظهوره في المدينة والتف عليه جماعة من آل البيت ومن أهل المدينة وبايعوه وخرج الى مكة فالتقى بجماعة من بني العباس ومعهم من حج من رجالهم وقوادهم فاقتتلوا ووقعت الهزيمة على الحسين وقتل

وانهزم أصحابه وأفلت منهم ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأتى مصر ، فارسله واضح عامل البريد وكان شيعيا على البريد الى المغرب . وبلغ ذلك الهادي فغضب عنق واضح . ومات ادريس بالمغرب وولده ادريس الأصغر الذي أسس دولة الأدارسة بالمغرب مما ليس هنا محل تفصيله . ولم يكن لفارس أقل نصيب من هذه المظاهرات لآل البيت يومئذ بل انحصرت في الحجاز والعراق والمغرب

وسنة ٢٠١ عندما أوصى المأمون بولاية عهده الى الامام علي بن موسى الرضا بن موسى السكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ولقبه الرضا من آل محمد وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس الخضره شعار العلويين وكتب بذلك الى الآفاق صعب ذلك على بني العباس وامتنع بعض أهل بغداد عن البيعة وأدى الأمر الى فتنة وبويع ابراهيم بن المهدي بالخلافة وكان المأمون في مرو فسار الى العراق وجرت حروب وانهمز الثأرون على المأمون فلم يسمع ان عرقاً في العجم نبض لهذه الحادثة مع ان المأمون دخل بغداد ولبسه الخضره وطاوعه الأكثرون وصار أهل العراق يدخلون عليه في الثياب الخضرة ويحرقون كل ملبوس يروونه من السواد . ولولا وفاة الامام علي الرضا سنة ٢٠٣ لربما بقي المأمون على عزمه في التخلي عن الأمر للعلوية . فلو كان التشيع يومئذ واشج العروق في أرض العجم لما سبقهم أحد الى الموالاته والمظاهرة ولتقدموا فيه على العراقيين الذين هم أولى بنصرة بني العباس

ولما ظهرت الدولة العلوية الفاطمية وهي أول دولة علوية حقيقية استوثق لها الأمر . ولم تكن أيامها نزع نائر ولا فتنة خارج بل دولة راسخة متأثلة زاجت دولة بني العباس بالناكب ابتدأت سنة ٢٩٦ واستمرت الى سنة ٥٦٧ كان أول ظهورها في افريقية وامتدت منها الى مصر والشام والحجاز ، حتى خطب بدعوتها الأمير الساسيري في العراق وعلى منابر بغداد مدة غير قصيرة فكان العرب هم القائمين بالدعوة الفاطمية يومئذ ولم يكن العجم القائمين بها

ثم ان عبد الله القداح الذي كان من كبار دعاة هذه الدولة سار من نواحي اصفهان الى الأهواز والبصرة ثم الى سامية من أرض حص داعياً فكان قصده بلاد العرب . وبديهي انه لو وجد في بلاد العجم يومئذ مثاراً لدعوة أو مستورى لزند لما رحل عنها الى

غيرها ثم خلفه ابنه احمد فصاحبه رستم بن حوشب من أهل الكوفة فاختر ابنته دعوته اليمن وهناك التقى ابن حوشب بأبي عبد الله الشيعي فاصطحبا واتفقا على بث الدعوة في افريقية فسار أبو عبد الله الشيعي اليها وأجابت دعوته قبائل كتامة وقاتل بنى الأغلب فقهرهم فكانت هذه البلاد منبتاً لأكبر دولة علوية شيعية وذلك قبل الدولة الشيعية الصفوية القائمة ببلاد العجم بستائة سنة .

وفي سنة ٢٥٠ عند مظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالكوفة واستولى عليها ولكن خاتنه السعد فظفرت به جيوش العباسيين وقتل وحمل رأسه الى الخليفة المستعين ولا نعلم فيما يحضرنا من التاريخ وان يكن ما نعلمه فيه أقصر من أن يسمى علماً ، ان دولة علوية قامت في العجم فعلا الى زمان الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي قام بطبرستان وكثر جمعه واستولى على طبرستان وجرجان وسمى بالداعي الى الحق وذلك سنة ٢٥٠ وقتل سنة ٢٨٧ وقام بعده الناصر الحسن بن علي المعروف بالاطروش وتوفي سنة ٣٠٤ وقام من بعده الحسين بن القاسم العلوي ويلقب بالداعي وقتل سنة ٣١٦ وانقرض بموته ملك العلويين في هاتيك الديار

ولا أريد أن أقول بهذا ان التشيع لم يعرف في العجم الا في هذا العهد بل انما أقصد كونه عرف هناك بعد الشام كما قدمنا وانه أيضاً لم يكن في العجم شائعاً كما هو اليوم يشهد بذلك التاريخ وظهور الجمل الغفير من أئمة أهل السنة من بلاد العجم . أما ابتداءه في العجم فيرجع الى أواخر القرن الأول قال ياقوت الحموي عند ذكر قم " ما يأتي : ذكر بعضهم ان قم بين اصبهان وساهو وهي كبيرة حسنة طيبة وأهلها كلهم شيعة امامية ، وكان بدء تمصيرها في أيام الحجاج بن يوسف سنة ٨٣ وذلك ان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس كان أمير سجستان من جهة الحجاج ثم خرج عليه وكان في عسكره سبعة عشر نفساً من علماء التابعين من العراقيين فلما انهزم أتى الأشعث ورجع الى كابل منهزماً كان في جملة اخوة يقال لهم عبد الله والأحوص وعبد الرحمن واسحق ونعيم وهم بنو سعد بن مالك بن عامر الأشعري وقعوا الى ناحية قم وكان هناك سبع قرى اسم احداها كندات فنزل هؤلاء الاخوة على هذه القرى حتى فتحوها وقتلوا أهلها واستولوا عليها وانتقلوا اليها واستوطنوها

واجتمع اليهم بنو عمهم وصارت السبع قرى سبعة محال بها وسميت باسم احدهما كندات فاستقطوا بعض حروفها فسميت بتعريبهم قُمًا : وكان مُقدّم هؤلاء الاخوة عبد الله بن سعد وكان له ولد قد ربي بالكوفة فانتقل منها الى قم وكان اماميا وهو الذي نقل التشيع الى أهلها فلا يوجد سني قط . ومن ظريف ما يحكى انه ولي عليهم وال وكان سنياً متشدداً فبلغه انهم لبغضهم الصحابة الكرام لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر قط ولا عمر فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم بلغني انكم تبغضون صحابة رسول الله ﷺ وانكم لبغضكم اياهم لاتسمون اولادكم بأسمائهم وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئونني برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ويثبت عندي انه اسمه لأفعلن بكم ولأصنعن . فاستمهلوه ثلاثة أيام وقتشوا مدينتهم واجتهدوا فلم يروا الا رجلاً صعلوكاً حافياً عارياً أقبح خلق الله منظراً اسمه أبو بكر لأن أباه كان غريباً استوطنها فسماه بذلك فجاءوا به فشتهم وقال : جثمتوني بأقبح خلق الله تتنادرون عليه وأمر بصفعهم فقال له بعض ظرفائهم : أيها الأمير اصنع ماشئت فان هواء قم لا يجيء منه من اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا . فغلبه الضحك وعفا عنهم اه .

وقد سمعت هذه النادرة نفسها من فم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رواية عن استاذ الامام الكبير الشيخ جلال الدين الافغانى أكرم الله مثواهما

وعلى هذا فيكون التشيع في بلاد العجم مخصوصاً بقم وبعض أماكن وكانت تقع بين الشيعة وأهل السنة هناك الحروب والفتن كما يستدل عليه من التاريخ . وفي الثلث الأول من القرن الرابع غلب بنو بويه على العراق واستبدوا بأمر الخلافة وصار الخليفة آلة في يدهم وكانوا شيعة وأصلهم من الديلم وبقيت دولتهم الى سنة ٤٤٧ هـ ولكن لم يغلب بواسطتهم التشيع على بلاد العجم ولا على بلاد العراق . وما غلب التشيع على الأقطار الايرانية وصار مذهب الدولة الرسمي الا في أيام الملوكة الصفوية في أواخر القرن التاسع كما ذكر المحي وجودت باشا وغيرهما من المؤرخين

أما التشيع في جبل عامل وأطراف جبل لبنان من بلاد الشام فلا تزال الأدلة تقوم على كونه فيها من لدن الفتح . وقد يأتي التاريخ في أثناء سرد الحوادث وتأتي كتب السير والتراجم بما يفي عن استتبابه فيها منذ ظهوره الى الآن . من ذلك ماورد في طبقات الشافعية للعلامة السبكي في ترجمة الفقيه أبي الفتح نصر بن ابراهيم المقدسى المعروف بابن أبي

حافظ وهو قوله تفقه على الفقيه سليم^(١) ثم دخل الى ديار بكر وتفقه على محمد بن بيان الكازروني ودرس العلم ببيت المقدس مدة ثم انتقل الى صور وأقام بها عشر سنين ينشر العلم مع كثرة المخالفين له من الرافضة . ثم ذكر وفاته في سنة ٤٩٠ بدمشق .

وقال ياقوت الحموي عند ذكر الكرك : قرية في أصل جبل لبنان وليس هو القلعة التي يقال لها الكرك بفتح الراء ونسب اليها أبا الرضا الكركي . وقال كان ثقة في الحديث ، متقناً لما يكتبه الا أنه كان رافضياً مات سادس عشر ذى الحجة سنة ٥٦٢

كذلك في رحلة ابن بطوطة في القرن الثامن ما يدل على وجود الشيعة في هذه الأماكن^(٢) ومن هنا استدللنا على كون التشيع معروفاً في جبال الشام من أيام أمير المؤمنين على كرم الله وجهه الى يومنا هذا فلا يسبق الشام في هذا المعنى قطر الا الحجاز ولا يساويها فيه الا الكوفة

وكتب الاستاذ الشيخ احمد رضا في خطط الشام المجلد ٦ ص ٢٥١ بعنوان (الشيعة) (بلا توقيع) نفى به مقاله بعض الكتاب من أصل مذهبهم من بدعة عبد الله بن سبا وتبسط قليلا في الدليل على وجودهم في زمن علي عليه السلام في جبل عامل وما جاء به ماورد في كتاب الروضة والفضائل لشاذان بن جبرائيل القمي رواية مسندة الى عمار بن ياسر وزيد بن ارقم تدل على أنه كان زمن خلافة علي عليه السلام قرية في الشام عند جبل الثلج تسمى « أسعار » أهلها من الشيعة . وأسعار هذه خرابة بين مجدل شمس وجبانا الزيت . وهناك نهر يعرف بنهر أسعار وهي على طريق القادم من الشام الى جبل عامل . وذكرت منازل الشيعة في بر الشام . ثم معتقدات الشيعة وما خالفوا فيه أهل السنة أو خالفهم فيه أهل السنة .

(١) يريد سليما الرازي الشهير بصور

(٢) (المقتطف) وقد ورد ذكر الشيعة في رحلة ابن جبير وكان في دمشق سنة ٥٨٠ للهجرة قال : « وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السذجين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى منهم الرافضة وهم السبابون ومنهم الامامية والزيدية وهم يقولون بالفضل خاصة ومنهم الاسماعيلية والنصيرية وهم كفرة فانهم يزعمون الالهية لعل رضى الله عنه ومنهم الغرايسة وهم يقولون ان علياً رضى الله عنه كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب »

ترجمة القرآن الى غير العربية

على ذر المؤلف الترك وعلاقتهم بالاسلام والحضارة الاسلامية

للأمير شكيب

- الترجمة الى التركية
- قصة محمود بن سبكتكين .
- فتوى الشيخ محمد بنحيت مفتى الديار المصرية .
- مقال الشيخ مصطفى المراعى شيخ الجامع الأزهر سابقا .
- ما لجواز الصلاة بالترجمة من التأثير فى الأمم الاسلامية غير العربية .
- مقابلة بين العربية للمسلمين واللاتينية للامم الكاثوليكية

ثم فى سنة تجديد طبع هذا الكتاب أى سنة ١٩٣٢ مسيحية بدأوا يجربون اقامة الصلاة نفسها باللغة التركية ، ويقراءون القرآن بالتركية مترجماً وقد أحدثت هذه المسئلة ضوضاء فى تركيا وفى العالم الاسلامى كما لا يخفى . ورأى الأتراك الجسد هو أن الأتراك لا يقدرّون أن يفهموا القرآن بالعربية فما صلاة انسان لا يفهم ما يتلو؟ ورأى الأتراك المحافظين وسائر المسلمين هو أنه لا بأس فى ترجمة القرآن الى التركية ، وتفسيره بالتركية ، ليفهمه الترك الا أنه لا بد من الصلاة به فى أصله العربى ، وذلك لأن الترجمة قد تنحرف بالكلام الالهى عن معناه الأصلى ، ولأن الترجمة تفقد الأصل كثيراً من فصاحته وبلاغته ، وعلى كل حال يرى هؤلاء أن الصلاة بالقرآن مترجماً الى التركية بدعة سيئة . وأنصار الصلاة بالقرآن المترجم يحتجون على جوازها برأى الامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه . ومن الناس من يقول : ان أباً حنيفة كان أجاز الصلاة بقرآن مترجم ، الا أنه رجع عن رأيه هذا فيما بعد .

ولقد نقل ابن خلكان في وفيات الأعيان قصة جرت أمام السلطان محمود بن سبكتكين وهو أنه جمع العلماء بين يديه في مدينة مرو وانتدبهم للمقابلة بين مذهبي أبي حنيفة والشافعي فقرروا أن يصلي أحدهم ركعتين على مذهب أبي حنيفة ، وآخر ركعتين على مذهب الشافعي لينظر السلطان فيهما ويختار فصلّى القفال المروزي صلاة الشافعي بالطهارة المسبغة ، وأتى بالأركان والهيئات والسنن والآداب الخ وقال : هذه صلاة لا يجوز الشافعي غيرها . ثم صلى صلاة الحنفية وتساهل في الطهارة واللبس والنية والأتیان بالاركان والهيئات الى غير ذلك مما حكاه ابن خلكان ، نقلاً عن امام الحرمين أبي المعالي الجويني ، ومن جملة ذلك أنه قرأ آية من القرآن بالفارسية « دوبركك سبز » ثم قال : هذه صلاة أبي حنيفة . فأنكر علماء الحنفية أن تكون هذه صلاة أبي حنيفة ، فطلب القفال احضار كتب أبي حنيفة فأحضرت وقرئ ما يتعلق منها بالصلاة فوجد طبق ما فعل القفال فأعرض السلطان عن مذهب أبي حنيفة وتمسك بمذهب الشافعي رضى الله عنهما . وهذه الرواية التي رواها ابن خلكان فيها نظر من جملة وجوه ، الاول ان كل من قرأ « وفيات الأعيان » من أوله الى آخره يلحظ عند ابن خلكان تحاملاً ظاهراً على أبي حنيفة ، والحنفية ، وتعصباً شديداً للشافعية الثاني أن امام الحرمين ، والقفال المروزي ، كلاهما أيضاً شافعي يريد اظهار مزية مذهبه ، الثالث أننا لا نعتقد جواز صلاة الحنفية على الوجه الذي زعمه القفال إلا في حال الضرورة . وليس هذا بقادح في المذهب الحنفي اذ كان الاسلام كله يراعى الضرورات ويقدرها بقدرها ، ولذلك جاء في الحديث « انما بعثت بالحنيفية السمحة » . بقى أن ترجمة القرآن الى الألسن الأخرى لا خلاف في جوازها عند الحنفية . أما الصلاة بالترجمة فلو كان هذا الرأي هو المعول عليه في المذهب الحنفي لكان الأتراك منذ ألف سنة أى منذ اسلامهم يصلون بالتركية وليس الحال كذلك ولقد بلغنا أن مشيخة الأزهر بمصر ألفت لجنة خاصة بموضوع ترجمة القرآن للبحث فيه واصدار القرار الذي تطمئن به خواطر المسلمين في هذا الشأن وسنرى ما يكون من هذه اللجنة . أما « دوبركك سبز » فهي ترجمة ورقتين خضراوين أى قوله تعالى (مدهامتان)

وأما الترجمة التي أخرجوها بالتركية للقرآن الكريم فلا يكاد التركي نفسه يقرأها لا لركا كتبها في نفسها بل لركا كتبها في جانب الأصل

ولما كانت مسألة ترجمة القرآن قد أخذت دوراً عظيماً في هذه الأيام ، وكان الامر جداً ليس بهزل ، أحيينا أن لا يخلو هذا الكتاب من خلاصة أثيرة في هذا الموضوع . فإباحة ترجمة القرآن والصلاة بالترجمة يتولد عنها محاذير كثيرة ، لان القرآن ينبغى أشد المحافظة على أصله ، وهو قد نزل بلسان عربي مبين ، ولا يمكن فهم حقيقة اعجازه وخوارق فصاحته وبلاغته الا باللسان العربي الذي نزل به ، فاذا تجاوزت الايدي كتاب الله بالترجمة مع ما فيها من الوعورة ومن تعذر تطبيقها على الأصل ومن اختلاف مناهج البيان بين اللغات لم يخل الأمر من وقوع تحريف في كتاب الله . كما أن تحريم الترجمة البتة ومنع الصلاة بها حتى للعاجز ، يكونان من العقبات في وجه انتشار الاسلام الذي أربعة أخماس أتباعه وربما أكثر من ذلك هم من الأمم الأعجمية ، فكانت الحكمة تقضى بالتوسط بين الأمرين ، وهذا ما فعله الامام الاعظم أبو حنيفة رضى الله عنه . نعم انه في أول الامر قد أفرط في التوسيع والرخصة وعلى ما يظهر أجاز الصلاة بالترجمة حتى لغير العاجز ولكنه عاد فيما بعد الى رأى صاحبيه أبي يوسف ومحمد ، وهو منع الصلاة بالترجمة على القادر الذي يمكنه أن يتلو ما تيسر من القرآن نفسه وإجازة ذلك للعاجز .

ومن حيث انه قد سبق هذا البحث منذ بضع سنوات وصدرت فيه فتوى للاستاذ العلامة الشيخ محمد بنحيت مفتي الديار المصرية فلا بأس من أن نورد هنا خلاصة هذه الفتوى فقد نقل الاستاذ بنحيت ما قيل في قضية ارشاد المسلمين لاهل الكتاب ، وتعليمهم القرآن ، فقال ان أبا حنيفة يرى جواز تعليم الحربى والذمى القرآن والفقه رجاء أن يرغبوا في الاسلام . وقد أخذ أبو حنيفة هذا من قوله تعالى « **وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** » ومن أنه روى كون النبي ﷺ مر على ابن أبي ، قبل أن يسلم ، وفي المجلس أخلاط من المسلمين والمشركون فقرأ عليهم القرآن . وأما الامام مالك فمنع تعليم القرآن غير المسلمين . وأما الامام الشافعى فله في المسئلة قولان . ويظهر أن الشافعى يجيز تعليم القرآن لمن يربح منه الرغبة في الاسلام ويمنعه اذا حصل الظن بأن المقصود منه هو الطعن في الدين

والذى يظهر من كلام الشيخ بنحيت لا مجرد ترجيح الجواز لترجمة القرآن فقط بل

الحث على ترجمة كتاب الله ترجمة صحيحة ، تفاديا من التحريف والتشويه اللذين يتعمدهما أعداء الاسلام ، وعلماء بأن كثيرين من الملل الأخرى يتشوقون الى الاطلاع على حقيقة القرآن ، وهذه التراجم الفاسدة المنتشرة في أوروبا تضل عليهم الطريق التي بها يتصلون الى الحق . ويقول الشيخ بخيت ان ترجمة القرآن للتعليم والتفهيم والتعلم والتفهيم والانذار والتبليغ قد أجازته الحنفية والحنابلة وأجازها الشافعي في قول بلا تفصيل ولكن منعه مالك . وأما اعتياد قراءة القرآن بغير العربية التي نزل بها ، أو كتابة المصحف بلغة أخرى غير العربية ، أو بالعربية مخالفة لخط المصحف العثماني ، فهذا ممنوع أشد المنع اتفق الأئمة في ذلك . وقضية ألفاظ القرآن وكتابته وترتيب سورة وآياته انما تؤخذ بطريق النقل عن الشارع ، أما الصلاة بترجمة القرآن ، فان كان قادراً على أن يتلو شيئاً منه لم يجز له أن يقرأ بالترجمة ، وأما ان كان عاجزاً عن قراءة أى شيء منه بأصله جازت الصلاة بالترجمة . وهذا الجواز للعاجز في قول الحنفية فقط . أما عند غيرهم فلا يجوز مطلقاً . ولا يسقط فرض الصلاة عن المكلف اذا أقامها بالدرجة

أما الاستاذ الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الازهر سابقاً فقد نشر في هذه الايام مقالا طويلاً استقصى فيه هذه القضية ، ونقل عن شمس الأئمة السرخسى هذه العبارة : وأصل هذه المسئلة اذا قرأ في صلاته بالفارسية جاز عند أبي حنيفة رحمه الله ويكرهه ، عندهما أى عند صاحبين لا يجوز اذا كان يحسن العربية . واذا كان لا يحسنها يجوز . وأبو يوسف ومحمد رحمه الله قالا : القرآن معجز والاعجاز في النظم والمعنى . فاذا قرر عليهما فلا يتأدى الواجب الا بهما ، واذا عجز عن النظم أتى بما قدر عليه ، كمن عجز عن الركوع والسجود يصلّى بالاياء ، وأبو حنيفة رحمه الله استدل بما روى أن الفرس كتبوا الى سلمان الفارسي رضى الله عنه أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية ، فكانوا يقرأون ذلك في صلاتهم حتى لانت ألسنتهم للعربية

ونقل الشيخ المراغى عن شرح الكنز للزيلعي هذه العبارة : وأما القراءة بالفارسية فبأثرة في قول أبي حنيفة . وقال أبو يوسف ومحمد لا تجوز اذا كان يحسن العربية لان القرآن اسم لمنظوم عربي لقوله تعالى : (اِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) . وقال تعالى : (اِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) والمراد نظمه ، ولأبي حنيفة قوله تعالى : (اِنْ هَذَا لَقِيَ الصَّحُفِ

الأولى صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) وصُحُفَ إِبْرَاهِيمَ كانت بالسريانية ، وصُحُفَ مُوسَى كانت بالعبرانية فدلّ على كون ذلك قرآناً : الى أن يقول : ويجوز بأى لسان كان وهو الصحيح لأن المنزل وهو المعنى عنده لا يختلف باختلاف اللغات . والصحيح ان القرآن هو النظم والمعنى جميعاً لانه معجزة للنبي ﷺ ، والاعجاز وقع بهما جميعاً الا أنه لم يجعل النظم رُكناً لازماً في حق جواز الصلاة خاصة رُخصة ، لأنها ليست بحالة الاعجاز . وسُئِلَ عمر النسفي عن لا يحسن الفاتحة بالعربية ويقدر على التكلم بالفارسية أو لغة أخرى يتأدى بها معنى القرآن ، هل يكلف تعلم تلك اللغة غير العربية فقال نعم ، لان تعلم القرآن فرض لا قامة الصلاة . ومذهب أبي حنيفة أن القرآن لا يختص بالنظم العربي في قوله الأول الذي رجع عنه فيفرض عليه تحصيل ذلك كما يفرض عليه تعلم القرآن بالنظم العربي لمن قدر عليه . وعندهما (أى عند الصحابين) تجوز قراءة القرآن بغير العربية اذا كان لا يحسن العربية فقد وافقاه أى ان الصحابين وافقوا أبا حنيفة في أنه يصير قرآناً عند العجز عن أدائه فيفرض ذلك عليه بالاجماع في هذه الحال

نقل المراغى أن الحبيب العجمي صاحب الحسن البصري قدس الله سرهما كان في الصلاة يقرأ القرآن بالفارسية لعدم انطلاق لسانه بالعربية . ونقل أيضاً عن أبي حنيفة في الرجل يفتش الصلاة بالفارسية أو يقرأ بالفارسية أو يذبح ويُسمى بالفارسية وهو يحسن العربية قال الامام : يجزئه في ذلك كله .

وقال أبو يوسف ومحمد : لا يجزئه في ذلك كله الا في الذبيحة ، وان كان لا يحسن العربية أجزأه . قال الصدر الشهيد في شرحه على الجامع الصغير لمحمد بن الحسن . وهذا تنصيص على أن من يقرأ القرآن بالفارسية لا تفسد الصلاة بالاجماع ، ونقل عن معراج الدراية ان ترجمة القرآن تسمى قرآناً مجازاً ، فيقال ليس ذلك بقرآن وانما هو ترجمة . قال : وانما جوازناه للعاجز اذا لم يُخل بالمعنى لانه قرآن من وجه ، باعتبار اشتاله على المعنى فالتيان به أولى من الترك اذ التكليف بحسب الوسع وهو نظير الايماء .

والشيخ مصطفى المراغى يرى فيما يظهر في هذه المسئلة رأى الصحابين أى جواز الصلاة بترجمة القرآن للعاجز قياساً على جوازها بالايماء لمن عجز عن القيام . ولكن الشيخ المراغى لا يقطع بكون أبي حنيفة رجع عن رأيه الأول اذ يقول ان رواية الرجوع رواها أبو

بكر الرازي مرة ، ورواها نوح بن مريم وعلى بن الجعد ، وقد أغفلت مرة واحدة في كتاب الامام محمد . وأغفلت أيضاً في شرح المبسوط للسرخسي وفي كتب قاضيخان

والشيخ المراغي لا يريد بهذا ترجيح عدم رجوع أبي حنيفة ولكنه يقصد أن رجوع أبي حنيفة الى رأى صاحبيه لم تتفق فيه الروايات . قال : فاذا نظرنا الى ذلك نراهم ، أى علماء الحنفية ، متفقين على أن التكليف بالوسع ، وأن الترجة للعاجز هي التي في وسعه ، وانها خلف عن النص العربي يقام مقامه عند العجز كما يقام الايماء عند العجز مقام الركوع والسجود ، ولم نعهد في التشريع ان المكلف مؤخراً في الخلف . بل الذي عهدناه أن الخلف يأخذ حكم الأصل ويحل محله . واذا تأملت قولهم : ان المعنى لا يختلف باختلاف اللغات نراهم يريدون أن لا تخلو الصلاة من القرآن اما بلفظه ومعناه واما بمعناه فقط فهم حريصون على أن تكون المناجاة لله بكلامه أو بمعنى كلامه وهم حريصون على تحصيل المقاصد ، وجعل الصلاة صورة حية مملوءة بالشعور بجلال الخالق وعظمته ، وفي معاني القرآن الكريم من العظات والعبر ما يملأ القلب روعة ورهبة وخشية ، وبركتها لا يمكن أن تذهب بنقلها الى لغة أخرى والمناجاة بالمعاني خير وأبقى من وقوف المكلف صامتاً .

ثم أورد الاستاذ المراغي عدداً من الآي الكريمة وقال انه لا يتردد لحظة واحدة عن القول بان جلال معاني هذه الآيات لا يمكن أن يفارقها في اللغات الاخرى ، نعم قد تضعيع روعة هذه الألفاظ ، ولكن تبقى روعة المعاني والمناجاة محتاجة الى هذه الروعة ، ولا يسع مُنصفاً الا الاعجاب بأراء فقهاء الحنفية في هذه المسئلة والله هم حيث قالوا : ان الصلاة حالة مناجاة لا حالة اعجاز وللعالم الاسلامي الحق في أن يفخر باولئك العلماء الذين استنبطوا هذه القواعد وهذه المدارك الدقيقة . وفي الحق ان فقهاء الحنفية هم الملجأ دائماً في حل المضلات الاجتماعية ولا نستطيع أن نفهم حقهم من الثناء

واعترض الاستاذ المراغي على من قال بعدم جواز الصلاة بالترجمة بناء على أن الترجمة ليست قرآناً وان ما كان كذلك كان من كلام الناس . قال المراغي : وهو غير صحيح ، لان الترجمة وان كانت غير قرآن بالاتفاق ، تحمل معاني كلام الله ، ومعاني كلام الله ليست كلام الناس ، وعجيب أن تُسلب من معاني القرآن صفاتها ، وجاها ، وتوصف بأنها من جنس كلام الناس بمجرد أن تلبس ثوباً آخر غير الثوب العربي كأن هذا الثوب هو كل شيء .

ونحن نوافق الشيخ المراغى فى أن الصلاة بالترجمة للعاجز خير من السكوت ، ومن عدم تلاوة شئ لا من الأصل ولا من المعنى . ولكننا نخشى من أنه اذا فُتِح هذا الباب على مصراعيه ، كثر العدول عن أصل القرآن الى الترجمة لما فى ذلك من السهولة على الأعاجم . ويؤيد ذلك الشعوبية ممن يكرهون العرب لما رُب سياسية ، فينتهى الأمر أخيراً بعدول مئات ملايين من المسلمين عن الصلاة بالقرآن الأصل الى الصلاة بتراجم مهما بالغ المترجمون فى تحريرها والتدقيق بها ، فلن تكون شيئاً بالنسبة الى الأصل .

وقول الاستاذ المراغى ان للعانى روعة لا يسلبها اياها اختلاف الالفاظ ، نُجيب عليه بأن روعة المعانى لا يبقى منها الا القليل اذا لم تُلبس القوالب اللاتقة بها . وقد أجمع أرباب البيان فى الشرق والغرب على أن النقل من لغة الى أخرى يذهب بأكثر فصاحة اللغة المنقول منها لا سيما اذا كانت الترجمة حرفية . فاصرار القائلين بعدم جواز ترجمة القرآن مبنى على خوفهم من تعدد القرآن وعلى ما يلاحظون من دخول السياسة فى هذا الموضوع أى ان أقواماً أرادوا الابتعاد عن الاسلام من أصله ، فعجزوا عن ذلك لتمكن الاسلام فى صدور الأمم التى يديرون هم شئونها ، فرجعوا الى أسلوب آخر وهو ترجمة القرآن والصلاة بالترجمة لتكون لهم الخطوة الأولى فى الابتعاد عن العرب وعن الاسلام معاً .

وربما كان الاستاذ المراغى لا يعلم من هذا الأمر كل ما نعلمه نحن ، فهذه المسئلة ليست بجدثة ، ولقد بدأت المناقشة فيها بين رجالات الأتراك فى أيام الحرب العامة . وكان منهم نفرٌ جاهر بوجوب التفصى من الاسلام من أصله ، فاقام الآخرون عليهم التكبر ، و بينوا لهم استحالة هذا الأمر وأن التثبت به يفضى الى ثورة تأتى على الحرث والنسل ، لان الأتراك لا يرضون بالاسلام بدلاً . فعند ذلك قال اولئك الملاحدة الذين كانوا يريدون القضاء على الاسلام : اذا كان لا بد من أن نبقى مسلمين . فليكنْ اسلامنا تركياً . وليرفع منه كل ما فيه رائحة عربية

وكان رأس القائلين بهذه المقالة الفاسدة ضياء كوكب أنب المفكر المشهور عندهم الذى توفى بعد الحرب والله المستعان ، وقد بقيت هذه الافكار تعمل فى تركيا الى أن انتهت الحرب ، ثم الى أن تأسست أنقرة وأخذت بالسياسة اللادينية المحضة التى يكون من العبث محاولة تغطيتها والمكابرة فيها — كما يفعل بعضهم — فكان من جملة ما قامت به الفئة الكمالية من الأعمال الرامية الى ابعاد الترك عن الدين الاسلامى والثقافة العربية ، السعى

بترجمة القرآن الى التركية واجازة الصلاة بها . وهم لا يقيدون هذا الجواز بالعجز ، بل يريدون أن يجعلوه علماً للقادر والعاجز معاً حتى يصير هو القاعدة ، وربما ينقلب الى الضد اذا طالت أيام الملاحدة في أنقرة فتصير الصلاة بالقرآن الاصلى ممنوعة ، وربما يعاقب حينئذ عليها كما يمنعون الآن عرب ولاية اطنه من التكلم بالعربية والكتابة بها . ولنا شواهد على ذلك منع حكومة أنقرة الحجج ، وهو من أركان الاسلام ، والغاؤه الشريعة الاسلامية بأسرها في المعاملات ، واقامتهم الأمة التركية على القانون السويسرى المدنى . فمن يفعل هذه يفعل تلك ولا يبعد عنه شئ . واذا جازت عادة الصلاة بالتركية فى الاناضول عمت جميع الأمم التى لا تتكلم بالعربية ، كسلى أوربا من أرناؤوط وبشناق وأتراك وتتر ، ثم صارت الى العجم والى الهند والصين والجواهر . ولو كانت قضية الصلاة بالترجة هى بتلك الدرجة من السهولة عند علماء الحنفية الذين لم يكونوا يجهلون رأى الامام الاعظم وصاحبيه ، لكانوا أجازوا الصلاة بالتركية من قديم الزمان ، والحال انهم لم يكونوا يصلون الا بأصل القرآن ولا يزالون كذلك . وكانوا يرون أن الانسان مهما بلغت به الأمية والسذاجة فلا يعجز عن حفظ بعض آيات يلقيه اياها والداه أو شيخ محله أو رجل من اخوانه .

وبالاختصار فنحن على رأى أبى يوسف ومحمد الذى رجع اليه أبو حنيفة من جواز الصلاة بالترجة للعاجز ، لكن بعد أن يتحقق عجزه التام عن حفظ شئ من القرآن وهو مع ذلك مكلف أن يتعلم شيئاً منه يقيم به صلاته ولكننا لانرى التوسع فى الجواز لما نخشى فيه من انقلاب المسئلة الى دسيسة سياسية قومية يتسع خرقها باسم المذهب الحنفى ، ونرى أن الأولى باخواننا الترك أن يستمروا على ما كانوا عليه الى الآن من أمر الصلاة بالعربية ، وأما اذا كانوا يريدون فهم معانى القرآن وهو أمر لازم فيقدرون أن يترجوه وأن يترجوا تفاسيره الكثيرة فيفهموا من معانيه ما يستعجم عليهم . وهانحن أولاء نرى الأمم الكاثوليكية ومنها أمم راقية فى سلم المدنية ، وراقية جداً ، مثل الفرنسيس والبلجيك والنموسيين ، وما يزيد على الثلث من الألمان ، ونحو من الربع من الهولانديين ، ثم امة المجر ، وأمة التشيك ، والبولونيين ، ثم الايرلانديين ، ثم الامة الايطالية ، والامة الاسبانيولية ، والامة البرتغالية ، وجميع سكان أميركا الجنوبية ، وأهل أميركا الوسطى ، وخمسة وعشرين مليوناً من أميركا الشمالية ، وجميع هذه الأمم تقيم شعائرها الدينية الكاثوليكية باللغة اللاتينية ، بدون أن تفهمها ولا يفهمها من كل أمة منها الا نزر لا يذكرك ، وانما يفسرون لهم ما يريدون

فهمه من الشعيرة الدينية من اللاتينية الى ألسنتهم ، اذن هذه سبيل ليس الاسلام فيه بأوحد ، فكما ان اللغة اللاتينية هي لغة دينية لثلاثمائة وخسين الى أر بعامة مليون مسيحي كاثوليكي فاللغة العربية هي اللغة الدينية ويجب أن تبقى اللغة الدينية لثلاثمائة وخسين الى أر بعامة مليون مسلم . بل العربية أولى بهذا التخصص لأن كتاب الاسلام السماوى انما نزل بها ، ولم يكن كتاب النصارى السماوى قد كُتب باللاتينية من أصله ، بل اللاتينية هي لغة الكنيسة الرومانية ، قد ترجوا الانجيل اليها من اللغات السامية . ثم ان العربية هي لغة حية يتكلم بها نحو سبعين مليوناً من البشر ، واللاتينية لم يبق واحد فى الدنيا يتكلم بها بل صارت من قبيل الآثار التاريخية .

ثم أورد الاستاذ المراغى أقوالاً عن الصدر الشهيد ، وعن شارح الهداية وعن الزيلعى ، وعن أبى يوسف ما يُستظهر به على جواز قراءة شيء من ترجمة القرآن بعد تلاوة الفرض من النص العربى ، وقال ان هذه النصوص صريحة ، لاتحتمل التأويل ، دالة على جواز ضمّ الترجمة الى النص العربى ، المفروض للقادر على العربية ، ولكنه أورد نصوصاً أخرى على عدم جواز قراءة الترجمة مع الأصل ، ويظهر أنه وقع خلاف بين الفقهاء فى ذلك ، وقد رجّح صاحب الفتح فساد الصلاة التى تكون بهذه الصفة اذا كان المقروء من الترجمة قصة أو أمراً أو نهياً وقال بالجواز اذا كان المقروء ذكراً أو تنزيهاً ، والاستاذ المراغى يرى رأى صاحب الفتح هذا اذا لم يكن هناك عذر من عدم احسان النطق بالعربية .

وأما الترجمة من حيث هي فانتا نوافق الشيخ المراغى والشيخ بخيت وغيرهما ممن أجازوها استناداً على أقوال العلماء والأئمة والسلف الى سامان الفارسى ، ونقول مع الشيخ المراغى انه قد استفاد من ترجمة القرآن كثيرون من العلماء الذين لم يكونوا يدينون بالدين الاسلامى ، فبعضهم آمن به وخرج من الظلمات الى النور ، وبعضهم لم يصل الى تلك الدرجة لكنه غير رأيه فى الدين الاسلامى وفى النبى ﷺ ، ووضع الاسلام موضع الكرامة وبحث فيه البحث اللائق بجلاله . قال : وأظننى أعبت اذا شرعت أئين الفوائد التى تعود على الاسلام نفسه من اظهاره ونشره على الأمم المحتضرة ، بلغاتها ، ولكن يجب أن تُراقب تلك التراجم . قلنا : فى عصر كالعصر الذى نحن فيه لايختلف فى هذه المسئلة اثنتان .

محاصرات العرب للقسطنطينية

على ذكر المؤلف تهديد الترك للقسطنطينية قبل فتحها

للمؤلف

ان العرب منذ فتحوا الشام فكروا في فتح القسطنطينية لأنها كانت لذلك العهد عاصمة النصرانية ، وكان الاسلام لو فتحها تغلب على شامى اورية بلا نزاع . ومن الأحاديث النبوية المروية : « لنفتحن القسطنطينية وانعم الأمير أميرها وانعم الجيش ذلك الجيش » وهذا الحديث على ضعفه متداول بين الناس . ويقال انه مذكور في الجامع الصغير للسيوطي . وهو منقوش على الحجر في جامع آيا صوفيا باسطامبول . وكيف كان الأمر فالمسلمون تنهبوا من بدء الاسلام لأهمية القسطنطينية ، وسنة ٦٥٣ هجرى جهز العرب اسطولا عظيما في ميناء طرابلس الشام ، عقدوا له لبسرين أبى أرطاة لأجل غزو القسطنطينية . فتلاقى هذا الأسطول بأسطول الروم وهزمه . الا أن الاسطول العربى في هذه الغزاة لم يبلغ القسطنطينية . وفي سنة ٤٤٤ للهجرة وفق ٦٦٤ للمسيح غزا الاسطول العربى القسطنطينية بقيادة بسرين أبى أرطاة المذكور ، ووصل اليها كما رواه الطبرى . ثم ان فضالة بن عبيد غزا خلقيدونية — ماجاور البوسفور من آسيا الصغرى — حيث وافاه يزيد بن معاوية ، وقد جعل المؤرخ تيوفان هذه الغزاة في سنة ٦٦٦ للمسيح ولكن الياس النربى قال : ان السنة التى حاصر فيها يزيد بن معاوية القسطنطينية كانت سنة ٥١ للهجرة وفق سنة ٦٧٢ مسيحية . وقد جاءها يزيد برّاء ، وكان بسرين أبى أرطاة ماسكاً البحر ، وقد انتشرت السفن الحربية العربية على طول ساحل بحر مرمرة ، وهاجم العرب القسطنطينية بين شهرى ابريل وسبتمبر ، ولم يتمكنوا من فتحها فلما جاء الشتاء انكمشوا الى جهة « قيزيقيا » في الشمال الغربى من آسيا الصغرى . وفي الربيع عاودوا حصار تلك العاصمة ، ويقال انهم لم ينصرفوا عن القسطنطينية الا بعد خروب استمرت سبع سنوات ، وكان أعظم عامل في فشلهم النار الاغريقية التى أحرقت جانباً من الاسطول كما ان جانباً آخر منه غرق في أثناء الرجوع .

وليس عندنا كل التفاصيل اللازمة عما جرى من الوقائع في هذه السنوات السبع. والمرجح ان الجيش العربي الذي جاء من البر بدأ بالحصار سنة ٦٦٧ وأن الاسطول أقلع عن القسطنطينية سنة ٦٧٣ ومؤرخو العرب يجعلون غزاة القسطنطينية هذه من سنة ٤٨ الى سنة ٥٢ للهجرة ومنهم من يمد ذلك الى سنة ٥٥ ويقولون ان أبا أيوب الأنصاري رضى الله عنه توفي في حصار القسطنطينية سنة ٥٠ ومنهم من يقول سنة ٥١ ومنهم من يقول ٥٢ والذي في الطبقات الكبرى لابن سعد انه توفي سنة ٥٢ وهو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد ابن عوف من بلمحارث بن الخزرج شهد بدرأ ، وأحداً ، والخندق ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وخرج غازياً في زمان معاوية . قال في الطبقات : فرض فلما ثقل قال لأصحابه ان أنا مت فاجلوني ، فإذا صافتم العدو فادفنوني تحت أقدامكم ، وسأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لولا ما حضرني لم أحدثكم سمعت رسول الله ﷺ يقول : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . قال ابن سعد : ولما مرض أتابه يزيد بن معاوية يعوده فقال : حاجتك ؟ قال : نعم ، حاجتي اذا أنا مت فاركب بي ثم سئع بي في أرض العدو ما وجدت مساعاً ، فإذا لم تجد مساعاً فادفني ثم ارجع . فلما مات ركب به ثم سار به في أرض العدو وما وجد مساعاً ثم دفنه ثم رجع . قال ابن سعد أخبرنا عمرو بن عاصم قال أخبرنا همام عن عاصم بن بهدلة عن رجل من أهل مكة ، ان أبا أيوب قال ليزيد بن معاوية حين دخل عليه : أقرئ الناس مني السلام ولينطلقوا بي فليبعدوا ما استطاعوا . قال حدث يزيد الناس بما قال أبو أيوب ، فاستسلم الناس فانطلقوا بجنائزته ما استطاعوا قال محمد بن عمر : وتوفي أبو أيوب عام غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية في خلافة أبيه معاوية سنة ٥٢ وصلى عليه يزيد بن معاوية ، وقبره بأصل حصن القسطنطينية بأرض الروم فلقد بلغني ان الروم يتعاهدون قبره ويرمونه ويستسقون به اذا قحطوا انتهى ما جاء في الطبقات .

ثم ان الآثارك عند ما فتحو القسطنطينية سنة ١٤٥٣ بقيادة السلطان محمد الفاتح عثروا على قبر أبي أيوب الأنصاري وبنوا عليه قبة وجعلوا عنده جامعاً وجاء في الانسيكلوبيديا الاسلامية ان ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبي أيوب . قلت كانت وفاة ابن قتيبة في ذي القعدة سنة سبعين ومائتين وقيل ست وسبعين ومائتين على مافي وفيات الأعيان . والحال ان وفاة محمد بن سعد صاحب الطبقات كانت يوم الأحد لأربع خلون من جادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين أى قبل وفاة ابن قتيبة كما في وفيات الأعيان أيضا . فيكون جزم أصحاب

الانيسكلوبيدية الاسلامية بأن ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبي أيوب الانصارى هو بغير محله ، لأن ابن سعد سابق لابن قتيبة وأنت ترى انه قد ذكره ، وأما قضية كون الروم حفظوا قبره وكانوا يستسقون به في الفحط فقد جاء في الانيسكلوبيدية المذكورة نقلها عن الطبرى وابن الأثير وابن الجوزى والقزوينى والحال انها مذكورة في طبقات ابن سعد الذى تقدم فى الزمن هؤلاء جميعاً . وقد جاءت هذه القصة مع ترجمة أبي أيوب فى كتاب تركى للحاج عبد الله اسمه « الآثار الماجدية فى المناقب الخالدية » طبع استانبول سنة ١٢٥٧

وجاء فى الانيسكلوبيدية الاسلامية ان الهدنة بقيت بين العرب والروم نحواً من أربعين سنة الى أن تولى سليمان بن عبد الملك فاعمل فى غزو القسطنطينية وجرد لها جيشاً كثيفاً عقد عليه لأخيه مسامة فجاءها من البر وجاء الأسطول العربى من البحر وكان الخليجسمى بقرن الذهب مسدوداً بسلسلة حديدية ، فاستمر هذا الحصار سنة كاملة وكان ابتداءه فى ٢٥ اغسطس سنة ٧١٦ وهذه المرة خاب العرب أيضاً فيما قصدوا اليه وذلك بفقد القوات وبزحف البلغار من جهة الشمال مناصرين للروم . وقد جاء ذكر هذه الغزاة فى تاريخ الطبرى وتاريخ ابن الأثير واستوفاهما ابن مسكويه ويقال انه وجدت عين ماء اسمها عين مسامة عند الدردنيل حيث كان الأمير مسامة قد خيم بعسكره ذكر ذلك المسعودى وابن خردادبه وقيل ان مسامة بنى جامعاً فى ذلك المكان . وذكر ابن قتيبة ان رجلاً اسمه عبدالله بن الطيب سل سيفه وأثبتته فى باب القسطنطينية . وهذا الرجل كان من أصحاب مسامة . ولم ينصرف مسامة من حصار القسطنطينية حتى اجبر امبراطور الروم على التعهد ببناء بيت لأسرى العرب بجوار قصر الأمبراطور . وكذلك كان مسامة هو البانى لأول جامع فى القسطنطينية نقل ذلك المقدسى وابن الأثير ويقال انه هو الذى بنى برج غلطة ، وروى « حاجى خليفة » فى تقويم التواريخ انه هو الذى بناه سنة ٩٧ للهجرة انتهى

قلت ذكر المسعودى فى مروج الذهب خليج القسطنطينية فقال انه يضيق عند المدينة فيصير عرضه نحواً من أربعة أميال وعليه العمارت وينتهى فى ضيقه الى الموضع المعروف بالاندلس^(١) وهناك جبال ، وعين ماء كثير ماؤها موصوف تعرف بعين مسامة بن عبد الملك . وكان نزوله عليها حين حاصر القسطنطينية وأنته مراكب المساميين فى فم هذا

(١) هذا تحريف للفظه الدردنيل فيما يظهر لنا أو غلط طبع فى النسخة المطبوعة بالطبعة الازهرية

الخليج مما يلي بحر الشام . ومنتهى مصبة مضيق (هو الدردنيل) وهناك برج يمنع من فيه من يرد من مراكب المسلمين في الوقت الذي للمسلمين فيه مراكب تغزو الروم وأما الآن فمراكب الروم تغزو بلاد الاسلام ولله الأمر من قبل ومن بعد . انتهى كلام المسعودي وهو مما حرره سنة ٣٣٠ للهجرة . فكيف كان يقول لو عاش لهذا العصر ؟

ثم جاء في الانسيكلوبيديّة الاسلاميّة ان العرب حاصروا القسطنطينية في زمن هرون الرشيد ووصل الجيش العربي الى اسكدار ، أى القسم الاسيوى من المدينة فاضطرت الامبراطورة « ايرانه » — والمسعودي يقول لها اريين — التي كانت كافلة ابنها قسطنطين السادس لصغر سنه ان تطلب الصلح وتؤدى للخليفة الجزية . روى ذلك تيوفاتوس ، والبلاذرى ، والطبرى ، وابن الأثير . وقال هؤلاء ان هذه الغزاة جرت سنة ١٦٥ للهجرة . قلت ان البلاذرى يذكر ان المهدي أغزا ابنه هرون الرشيد الروم سنة ١٦٥ فنزل على الخليج . ثم نقلت الانسيكلوبيديّة عن « اوليا » عن محي الدين الجالى ان العرب حاصروا في أيام المهدي والرشيد القسطنطينية أربع مرّات .

وأما الجامع المنسوب الى مسلمة بن عبد الملك في القسطنطينية فلم يعرف مكانه . وقيل انه هدم في أثناء فتنة ، وذلك سنة ١٢٠٠ مسيحية . وقيل ان الصليبيين اتهبوه سنة ١٢٠٣ وذكر ابن الأثير ان الأمبراطور قسطنطين « مونوماك » كان قد رمّم هذا الجامع بناءً على رغبة طغرل بك السلجوقي وذلك سنة ٤٤١ ، وقال أبو الفداء انه سنة احدى وأربعين وأربعمائة أرسل ملك الروم الى السلطان طغرل بك هدية عظيمة وطلب منه المعاهدة فأجابها اليها وعمر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرل بك . اهـ .

وقال ابن خلكان في الوفيات في ترجمة السلطان طغرل بك : « ومن محاسنه المستورة انه سير الشريف ناصر الدين بن اسمعيل رسولاً الى ملكة الروم وكانت على الروم اذ ذاك امرأة فاستأذنها في الصلوات الخمس بجامع القسطنطينية وبالجماعة يوم الجمعة فأذنت له في ذلك فصلّى وخطب للإمام القائم (العباسي) وكان رسول المستنصر العبيدي صاحب مصر حاضراً فأنكر ذلك وكان من أكبر الأسباب في فساد الأحوال بين المصريين والروم »

وجاء في الانسيكلوبيديّة الاسلاميّة نقلاً عن المقرئى ان الأمبراطور ميخائيل « باليولوغ الثامن » بنى سنة ٦٦٠ للهجرة في القسطنطينية جامعاً أهدى اليه الملك الظاهر بيبرس مغروشات نفيسة

فتح الترك للقسطنطينية

و خلاصة خططها

للتركيب

ومضى على حصار العرب للقسطنطينية واحتلالهم لاضفاف البوسفور ستائة سنة قبل أن حاصرها الاتراك لأول مرة لعهد بايزيد الأول العثماني ، وذلك سنة ١٣٩٦ . وبينما كان بايزيد الاول ماسكا بخناقها بلغه قدوم جيش افرنسي مجرى تحت قيادة سيجسموند الاول ملك المجر لاجدة القسطنطينية فنهد اليهم بجيشه والتقى الجمعان في نيقوبوليس من بلاد البلغار الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٣٩٦ فكانت الدبرة على الفرنسيس والمجر . واستؤصل جيشهم قتلا وأسرأ . وقرأت في بعض تواريخ الفرنسيس انه حصلت في تلك البلدة معركتان احدهما سنة ١٣٩٣ انهزم فيها سيجسموند ملك المجر . والثانية سنة ١٣٩٦ انهزم فيها المجر والافرنسيس معاً . وعاد بايزيد الى التضييق على القسطنطينية الى أن ارتضى امبراطور الروم بشروط ابن عثمان ، وذلك سنة ١٤٠٠ وكان من جملة تلك الشروط التخلي عن حارة في تلك العاصمة لتكون مسكناً للمسلمين ، والاذن في بناء مسجد جامع ، ونصب قاض شرعى لفصل دعاوى المسلمين . ولما جاء تمرلك وتغلب على السلطان يلدرم بايزيد وأخذه أسيراً نشقت فروق نسيم الفرج الا أن ذلك لم يستمر الى الآخر بل سنة ١٤٢٢ جاء السلطان مراد الثاني وحاصر القسطنطينية وضيق عليها فلم يقدر له فتحها فارتضى بالصلح مع الامبراطور . وخلفه ابنه محمد الثاني فزحف اليها سنة ١٤٥٢ وبنى بجانبها حصن « روملى حصار » وبدأ الحصر في ٩ ابريل سنة ١٤٥٣ وافتتحها في ٢٩ مايو وكان أكثر الخاح الأتراك في الهجوم من جهة البر بين باب طوبقو وباب أدرنة

فان مدافعهم الثقيلة فتحت ثلماً تعذر على الروم سدّها . وكان خليج قرن الذهب مسدوداً بسلسلة حديدية فنقل الترك أسطولهم من جهة طوله بغجه وأصعدوه في البر الى أكمة بك أوغلي وأنزلوه الى الساحل المسمى بقاسم باشا وأزلقوه على الشحم الى الخليج واستولوا عليه وكشف المولى آق شمس الدين قبر أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه . وانهب الأتراك البلدة ثلاثة أيام ثم دخلها السلطان محمد الفاتح في اليوم الرابع ، وارتفع النهب وعم السكون ، ونودي بالأمان ، وصلى السلطان الجمعة في كنيسة أياصوفيا بعد أن حوّلها جامعاً . وكان الجنويون في غلطة ولهم فيها محلة خاصة بهم فتسلمها الأتراك منهم . وجاء تاريخ فتحها مصادفاً بحساب الجبل لآية « بلدة طيبة » أى (٨٥٣) وهى سنة فتحها بالحساب الهجرى . ولم يملك الاسلام فى الحقيقة بلدة أجل منها ، ولا خطة أهم موقعاً ، ولا مدينة أطيب نجعة . وقيل ان أجل مدن العالم منظراً اذا أقبل المسافر عليها ثلاث نابولى فى ايطالية ، وأشبونة عاصمة البرتغال ، والاستانة وهذه أجل الثلاث . وأما أهميتها الجغرافية والسياسية فلم تكن لبلدة أخرى فى المعمور واقعة بين البحرين الاسود والأبيض ، وواصله بين البرتين آسية وأوربة أمامها بوغاز ووراءها بوغاز ومن ملكها فقد تبوأ ملكاً كبيراً وكروسيا عالياً منيفاً ومن شرقها البوسفور ومن غربها بحر مرمره المنتهى بمضيق الدردنيل ، واذا تحصن كل منهما كما يجب أصبح العبور منهما فى حكم المستحيل تقريباً . ولقد تمكن الأدميرال الانكليزى^(١) دو كهورت من اجتياز الدردنيل بغتة ووصل الى الاستانة ولم يجرأ أن يهاجها وقفل راجعاً ولكن حصون الدردنيل لم تكن وقتئذ فى المنعة التى صارت اليها فيما بعد . وقد ظهر أن فرنسا وانكلترة وجهتا فى الحرب العامة الى الدردنيل جيوشاً جرارة وأساطيل قلما اجتمعت فى حرب بحرية وانهما بذلنا لاختراق هذا المضيق من الجهود ما ندر مثله فى تاريخ الحروب وانتهى الأمر بأن الجيوش العثمانية دحرتها الى الورا واضطرتها الى الرجوع والانقلاع أخيب ما كاتنا ، بعد أن فقدتا بين قتيل وجريح وضائع ثلاثمائة وخمسة وعشرين ألف مقاتل^(٢)

(١) فى ٢٠ فبراير سنة ١٨٠٨

(٢) راجع الكتاب المؤلف على حرب الدردنيل التابع لسلسلة وثائق الحرب العامة بالفرنسية

فالعرب في صدر الاسلام لم تخف عنهم أهمية هذه المواقع ولذلك زحفوا اليها عن أبعد شاسعة ، وأعملوا في غزوها قوات هائلة . ولما ملك آل عثمان بلاد الأناضول ثم اجتازوا البحر الى الروملى حصروها من البرين ، ولم يزالوا يعملون في استخلاصها لأنفسهم الى أن قيض الله ذلك الفتح العظيم لمحمد الثانى ابن مراد ، وكان من أعظم السلاطين تولى الملك في حداثة سنه في عهد أبيه وأصلى الأعداء المعارك الكبرى ، مثل معركة قوصوه التى هزم بها المجر والامم البلقانية ، ثم انه جلس على كرسي السلطنة بعد وفاة أبيه وهو ابن ٢٢ سنة وفتح القسطنطينية العظمى وهو ابن ٢٤ سنة .

قال البارون « كارادوفو » Baron Carra de vauخ في كتابه « مفكرو الاسلام » في الجزء الاول منه عند ترجمة محمد الفاتح : ان هذا الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقاً ، ولا تيسر بمجرد ضعف دولة بيزنطية ، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم له كل ما كان في عصره من قوة العلم . فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهد بالايجاد ، فأعمل في تركيب أضخم المدافع التى يمكن تركيبها يومئذ وانتدب مهندساً مجرباً ركب له مدفعاً كان وزن الكرة التى يرمى بها ٣٠٠ كيلو ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل ، وقيل انه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليمكنوا من سحبه وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه ، ولما زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثمائة ألف مقاتل ومعه مدفعية هائلة وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر ١٢٠ سفينة حربية . وهو الذى من قريحته تصور سحب جانب من الاسطول من البر الى الخليج وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم ٧٠ سفينة أنزلها في البحر من جهة قاسم باشا . وبعد حصار ٥٠ يوما هدمت مدافعه أربعة أبراج ، وفتحت ثلثة عظيمة من جهة باب سان رومان وقام السلطان بالقحمة الأخيرة بنفسه وسار على رأس جيشه ويده قضيب من حديد الى أن دخل قصر امبراطور الروم فأنشد قول الشاعر الفارسى : العنكبوت تنسج خيوطها في القصر الملوكى واليوم يسمع صده على أبراج افراسياب ولما دخل كنيسة أياصوفيا لم يسمح بمحو الفسيفساء التى بها صور أشخاص وانما أمر بأن تغطى بالجص الخ »

وازدادت عمارة فروق في زمان آل عثمان ، وأسكن فيها محمد الفاتح أقواماً من أطراف مملكته لا سيما من بلاد القرمان ومن الجزر وعاد اليها كثير من الروم الذين كانوا غادروها ، وبعد وفاة الفاتح جاءها اليهود المطرودون من أسبانية ومعهم جماعة من العرب . وما زالت هذه البلدة تنمو وتعتظم حتى صارت عاصمة العالم الاسلامي ومن عظميات عواصم العالم كله وبلغ عدد سكانها في هذا العصر مليوناً ومائتي ألف نسمة. الا أنه من المؤسف كون حكومة تركيا الجمهورية الحاضرة قد أهملت هذه البلدة الطيبة التي لا نظير لها اهمالاً زائداً ونقلت مقر الحكم الى أنقرة فرجعت الاستانة القهقري ونزل عدد سكانها من مليون ومائتي ألف الى سبعمائة ألف وقيل الى ستمائة ألف وان اهمال الحكومة التركية لمثل الاستانة لمن الأغلاط السياسية التي لا جدال فيها .

ولقد شاد بنو عثمان في الاستانة أو اسطنبول من الجوامع والقصور والأبراج والحصون والمدارس والشكن والمعاهد الخيرية ما يليق بعاصمة فريدة نظيرها ، وأهم ما فيها من المباني الجوامع التي لا توجد في سواها والتي تجده منائرُها العديدة سامقة في الفضاء من كل جانب فتكسب بها اسطنبول منظراً لا يجده ناظر في غيرها لا شرقاً ولا غرباً . ومن أهم هذه الجوامع جامع الفاتح الذي أتم بناءه هو رجه الله سنة ٨٧٥ للهجرة وبنى بجانبه ثمانى مدارس وعنده القبة التي دفن فيها الفاتح ومدافن أخرى لآله يقال ان منها مدفن الاميرة الصربية ماري ابنة جورج برانكوفيه التي كان تزوج بها مراد الثانى وماتت وهي باقية على دينها .

ثم جامع بايزيد بقرب باب السرعسكرية وفيه مدفن السلطان بايزيد بن محمد الفاتح وبعض عائلته .

ثم جامع السليمية بناه السلطان سليم الأول مشرف على محلة الفنار وفيه تربة السلطان المذكور ، وتربة السلطان عبد المجيد ، والد السلاطين مراد وعبد الجيد ومحمد الخامس ومحمد السادس .

ثم جامع الشاهزاده بناه السلطان سليمان سنة ٩٥٥ للهجرة وهندسه المعمار سنان المشهور وفيه مدفن الأمير محمد بن السلطان ومدفن أخيه جها نكير .

ثم جامع السليمانية ، وهو من أجل وأشهى وأنخم جوامع الدنيا بناه السلطان سليمان القانوني وكان المهندس له المعمار سنان ، وانتخب له أعلى قمة من الجبال التي عليها الاستانة وبني حوله أربع مدارس وعمارات أخرى وفيه مدفن سليمان الأول القانوني وسليمان الثاني وأجد الثاني . وهذا الجامع فيه من الصنعة الهندسية في بناءه ما لا يوجد في أياصوفيا

ثم جامع السلطان أحمد بناه أحمد الأول وهو قريب من أياصوفيا وله ست منائر وفيه مدفن السلطان أحمد الأول وولديه عثمان الثاني ومراد الرابع

ثم جامع « بني جامع » بقرب الجسر الواصل بين اسطنبول والغلطة وقد بدأت به السلطنة كوسم ثم أكملته السلطنة خديجة والدة محمد الرابع وذلك سنة ١٠٧٤ للهجرة وفي هذا الجامع مدافن السلاطين محمد الرابع ومصطفى الثاني وأحمد الثالث وعثمان الثالث . ولا تزدحم الجماعات في مسجد ما تزدحمه في هذا الجامع نظراً لقربه للجسر ومركز حركة الخلق .

ثم جامع النور العثماني بدأ ببناءه محمود الأول وأكمله عثمان الثالث .

ثم جامع لاله وفيه مدفن سليم الثالث

ثم زيرك جامع وأصله كنيسة حوله الفاتح الى جامع .

ثم جامع محمود باشا بقرب النور العثماني بناه أحد الصدور العظام سنة ٨٦٨ للهجرة

ثم جامع مراد باشا بناه أحد وزراء الفاتح سنة ٨٧٠

ثم جامع وفا بناه بايزيد الثاني سنة ٨٨١ للشيخ مصطفى وفا .

ثم جامع داود باشا على بحر مرمره تاريخ بناءه سنة ٨٩٠

ثم جامع خوجه مصطفى باشا في سباهيه أصله كنيسة يزنطية تحولت جامعاً سنة ٨٩٥

ثم جامع عتيق على باشا في شميرلى طاش بني سنة ٩٠٢

ثم جامع مهرماه ابنة السلطان سليمان في أعلى نقطة من المدينة بقرب باب ادرنة

سنة ٩٦٥ وهندسه المعمار سنان

ثم جامع رستم باشا عند الخليج بناه رستم باشا الصدر الأعظم في زمن سليمان الاول وهذا الجامع هو من بناء سنان ايضاً وفيه من صنعة الخرف القاشاني نفائس لا توجد في غيره .

ثم جامع الصدر الأعظم « الصوقولى » كمل بناؤه سنة ٩٦٩ .

ثم جامع فتحية أصله كنيسة تحول جامعاً في زمان مراد الثالث سنة ١٥٨٧

ثم جامع جراح باشا كان بناؤه سنة ١٠٠٢ للهجرة .

وفي اسطنبول القديمة نحو من خمسمائة جامع وبديهي أنه غير داخل في هذا العدد الجوامع التي في غلطة و بك اوغلى وبشكطاش ونشان طاش والقرى التي على البوسفور من الجانبين فهناك جوامع أيضاً تحصى بالآلاف . ومنها جوامع في الغاية من الاتقان والبداعة وكلها لها المنائر الرفيعة المستديرة الضاربة في الهواء البالغة الحد في البهاء والتي هي زينة هذه العاصمة . ومن أشهر هذه الجوامع « النصرية » في الطوبخانه وجامع « جهانكير » في « الفندقلى » وجامع « بشكطاش » وجامع « يلديز » وغيرها .

ولنتكلم الآن على جامع أيا صوفيا وهو الدرة الدهماء واليتيمة الطائر ذكرها في الغبراء فنقول :

ان هذا الجامع لا يزال أعظم جامع في القسطنطينية ، كما أنه كان أعظم وأجل كنيسة في الشرق ، ومن أعظم وأجل كنائس العالم . والأصل في هندسة قبة المشهورة بعظمتها مأخوذ من الهندسة التي كانت معروفة قديماً في العراق أى انها هندسة آسيوية لا أوربية كان أتى بها البنّاؤون من العراق الى بلاد الروم وغلبت على كنائسهم ، وعدلوا بعدها عن طرز البناء اليونانى القديم . أما حلية أيا صوفيا الداخلية فهي من الصناعة السورية . فهي اذاً من جميع الوجوه تضرب في بنائها الى عرق آسيوى . ولقد صار طرزها هو المعول عليه في بناء الكنائس الارثوذكسية كلها ولا سيما في الروسية . ولم يحدث في الهندسة طرز يفوقه وجاء في الانسيكلوبيديّة الاسلاميّة ان بعض كنائس الغرب أيضاً مثل كنيسة مار مرقس في

البندقية مبنية أيضاً على طرز أيا صوفيا . قالت : وان أجل جوامع الأتراك في الروملى — كجوامع أدرنة مثلاً — لاتخرج عن طرز أيا صوفيا الا قليلاً .

وأول من أسس أياصوفيا هو الامبراطور قسطنس ابن الامبراطور قسطنطين الكبير وذلك سنة ٣٦٠ مسيحية ، وكانت تسمى حينئذ بالكنيسة الكبرى . ثم أصابها جوائح من حريق وزلزال ثم أعيد بناؤها سنة ٤١٥ ثم احترقت في أثناء فتنة احترق بها جانب كبير من المدينة . وعندها قرر الامبراطور يوستينيانوس تجديد بنائها والسخاء عليها بالأموال الطائلة وحشد لها الصنائع وجمع مواد البناء من أطراف المملكة لاسيما من انقاض الهياكل القديمة التي كان النصارى قد دمروها بعد تنصر الدولة . واستجداد يوستينيانوس لهندسة الكنيسة مهندسين من أشهر بنائى ذلك العصر وكل عصر وهما « ايتيموس تراليس » و « ايزدوروس ميله » فتوخيا فيها الطريقة التي تقيها الحريق وتأثير الزلازل التي تكثر في القسطنطينية وعقدا لها هذه القبة العجيبة . وتم بناء أياصوفيا سنة ٥٣٧ واحتفل يوستينيانوس بافتتاحها في يوم عظيم أبلغ فيه الأبهة منتهاها وهتف يومئذ : سليمان قد غلبتك . ولم يكن في قوله هذا مبالغا . ثم حصلت زلزة سقط بها جانب من القبة وذلك في زمن يوستينيانوس نفسه ، جددوا بناءها ورفعوها نحو ٢٠ قدماً واحتفلوا بافتتاح البناء سنة ٥٦٣ . ويقدر داخل أياصوفيا بخمسة وسبعين متراً طوالاً وسبعين متراً عرضاً ويقدر علو القبة بستة وخمسين متراً ، ولما كانت الجدران لا تكفي لتوطيد القبة الى الدرجة المطلوبة فقد أرسلوها أيضاً على أساطين أربع مرتبطة بعضها ببعض بأعمدة أصغر منها وبقوى شديدة وعدد أعمدة الكنيسة التي يتوكأ عليها البنيان ١٠٧ أعمدة كلها من ذوات الألوان النادرة والرخام المجزع . وكانت القبة والحيطان مزينة كلها بالفسيفساء المذهبة الآخذة بالأبصار وعلى الحيطان صور عيسى ومريم عليهما السلام والأنبياء والرسل والملائكة وان القلم ليعجز عن اعطاء تلك المناظر حقها من الوصف . وكان القسوس والوفهة^(١) الذين يخدمون في أياصوفيا لعهد يوستينيانوس ٤٢٥ شخصاً وكان لها مائة بواب . وقيل انه لما فتح الأتراك القسطنطينية كان وفهة أياصوفيا ٨٠٠ شخص

وسنة ٩٨٩ مسيحية حصل زلزال أضر بقبة أياصوفيا ثم ترممت . وسنة ١٢٠٤ انتهب

اللاتين الصليبيون هذه الكنيسة وجردوها من حلالها وذلك في أثناء مقامهم بالقسطنطينية وأكثر ترميمات أيا صوفيا للعهد البيزنطي وقعت في القرن الرابع عشر اذ بنيت حول الكنيسة جدران وأجنحة جديدة لتوطيد الجدران القديمة .

وجاء في الانسيكلو بيديا الاسلامية أن أول مسلم كتب عن أيا صوفيا هو أحد ابن رست من رجال القرن الثالث للهجرة وذلك في كتابه « كتاب الأعلاق النفيسة » وكان يسمى أيا صوفيا بالكنيسة العظمى ويصف كيفية ذهاب امبراطور بيزانطية الى الكنيسة أيام الآحاد والاعياد بذلك الاحتفال العظيم وكيف كان الاسرى المسامون يؤتى بهم الى تلك الحفلة ليهتفوا للملك قائلين : « أطال الله حياة الملك » وذكر هذا الكاتب شيئاً في غاية من الدقة فقال انه يوجد في مدخل الكنيسة الغربي مجلس وأربعة وعشرون باباً صغيراً فكلما مضت ساعة من الأربع والعشرين ساعة يفتح باب من هذه الابواب من نفسه ثم ينغلق لنفسه . ولم يذكر هذه النادرة أحد غير أحمد المذكور . ولم نجد بعد ذلك لأحد من مؤلفي الاسلام كتابة عن ايا صوفيا حتى القرن السابع للهجرة فقد جاء لشمس الدين محمد الدمشقي كلام وجيز على أيا صوفيا . ثم جاء ذكر أيا صوفيا في رحلة ابن بطوطة الذي زار الاستانة لكن ابن بطوطة يقول انه لم يدخل الى داخل الكنيسة لأنه كان من العادات المرعية عندهم ان كل من دخل اليها لا بد له من أن يسجد للصليب وهو أي أن يفعل ذلك .

ولما دخل الاتراك القسطنطينية في ٢٩ مايس ١٤٥٣ التجأ جميع الاهالى الذين لا يحملون السلاح والنساء والأولاد الى أيا صوفيا وهم يعتقدون أنه متى وصل الترك الى عمود قسطنطين الكبير يظهر ملك في السماء فينهمزمون نكوصاً على الأعقاب ويعودون من حيث أتوا . ولكن الترك دخلوا الكنيسة وأخذوا جميع تلك الخلائق أسرى . وليس بصحيح ما يزعمه بعضهم من أنهم ذبحوهم . فالترك لم يذبحوا هناك أحداً وما لبثوا أن أطلقوا سبيل أولئك الأسرى . ولما جاء محمد الفاتح ترجل عن جواده ودخل أيا صوفيا وارتفع صوت الأذان في داخل الكنيسة وسجد السلطان ومن معه للاله الواحد وتحول هيكل قنسطنس ويوستنيانوس مسجداً للإسلام .

أما ما أدخله المسلمون من التغييرات على أيا صوفيا فهو أنهم غطوا الصور التي كانت على الحيطان والفسيفساء البديعة الباهرة المشوثة على الجدر والاقبية وذلك بالحص الذي يمنع

من ظهورها للعيان لما في دين الاسلام من تحريم الصور في أما كن العبادة وكذلك رفعوا الحاجز الذي كان بين القسيسين والاهالى . ولما كانت الكنائس البيزنطية موجهة في بنائها الى القدس وكان المسلمون في صلواتهم يولون وجوههم شطر مكة كان لابد للمسلمين في اياصوفيا من أن ينحرفوا قليلا عن الجهة الشرقية الى الجهة الجنوبية . ولقد دعم الماسمون أيا صوفيا بجدران جديدة فبنى محمد الفاتح دعائم لتقوية الحائط الجنوبي الشرقي من المسجد وبنى أيضاً احدى المنائر الأربع الموجودة الآن والتي هي من أجل ما يرى في سماء الاستانة ثم بنى سليم الثاني المنارة الثانية وبنى مراد الثالث المنارتين الأخريين فتتأمت أربع منائر . وكان لمراد الثالث في أيا صوفيا آثار كثيرة فهو الذي جعل عند الباب حوضين يسع كل منهما ١١٥٠ ليتراً من الماء لأجل الوضوء وجعل في الداخل مضطبتين عاليتين يتلى فوق احدهما القرآن طول النهار ويؤذن بالصلاة فوق الأخرى ووضع مراد الثالث محل الصليب الذي بأعلى القبة هلالاً أنفق على ترميمه بالذهب أموالاً طائلة وقطر هذا الهلال خمسون شبراً فهو يرى من مسافات بعيدة.

وقد بنيت الى الجنوب من المسجد قباب لأجل دفن السلاطين أقدمها قبة سليم الثاني وبجانبها مدفن ابنه مراد الثالث وحفيده محمد الثالث . وهناك أيضاً مدفن مصطفى الأول ثم ابن أخيه السلطان ابراهيم . وعن اعتنى أشد الاعتناء بأيا صوفيا السلطان مراد الرابع فنشاد عضائد كثيرة للجدران وفي أيامه كُتبت على الجدران الداخلية من المسجد الآيات القرآنية بتلك الحروف التي لا يوجد أكبر منها وكلها مموّهة بالذهب وهي من خط ذلك الخطاط الشهير يشكجى زاده مصطفى شلبي فمن هذه الأحرف حرف الالف مثلاً طوله عشرة أذرع وهذا عدا بداعة الخط واشتباك حروفه ، وتعليق بعضها على بعض ، مما يدهش الابصار ويتنافس به أدباء الترك ، وقد كتبت أيضاً بهذا الخط نفسه أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة . أما المنبر الذي في أيا صوفيا فهو احدى يتأتم الصنعة وهو أيضاً من آثار مراد الرابع . وقد شيّد أحمد الثالث مقصورة لصلاته مرتفعة مشتبكة من جهة المسجد . ثم ان السلطان محمود الأول جعل بجانب المسجد سبيلا للماء ومدرسة وذلك الى الجنوب منه وجعل أيضاً خزانة للكتب هي في نفس الجامع . ومن بعد مراد الرابع فاتح بغداد تأخرت أحوال أيا صوفيا بالتأخر العام الذي أصاب المملكة وبقيت الحال على ما هي عليه الى أيام السلطان

عبد المجيد الذى سنة ١٨٤٧ عهد الى الاخوان « فوساطى » من البنائين الطليان بترميم مايجب ترميمه من المسجد فلبشوا مدة سنتين يشتغلون ولم يبقوا على الحيطان الا الحص الذى يحجب الصور البشرية وجلّوا الحيطان الممموهة بالذهب والنقوش الساطعة ، وكذلك فى زمان عبد المجيد جرى رفع المنائر الأربع وبالجملة فكان ترميم السلطان المشار اليه لجامع أيا صوفيا من أجل ماثره .

ولقد توالى الزلازل على الاستانة المعروفة بكثرة زلازلها ولم يصب أيا صوفيا من هذه الاهتزازات الارضية منذ القرن الخامس للمسيح الى الآن اذى يذكر وذلك بفضل الدعائم الكثيرة التى أقامها البيزنطيون سابقاً والأتراك لاحقاً وشدوا بها جدران الجامع صفاً وراء صف . وأجل ما يكون مسجد أيا صوفيا فى شهر رمضان اذ تحتشد الألوف من الصلّين لصلاة العصر وكذلك الألوف لصلاة التراويح بعد العشاء وأعظم حفلة تقع فيه فى الليلة السابعة والعشرين من رمضان أى ليلة القدر . وكان السلطان عبد المجيد الثانى يأتى الى أيا صوفيا فى أواسط رمضان بعد الاحتفال المعروف بزيارة البردة الشريفة فى سراى « طوب قيو » .

وقد كتبت على مسجد أيا صوفيا تأليف خاصة به ، منها كتاب ظهر فى زمن الفاتح من تأليف احمد بن احمد الجيلانى مأخوذ منه قسم عن اليونان وقد حرره المؤلف بالفارسى . ثم ترجمه أديب اسمه نعمة الله الى التركى وهذا التأليف تجده فى خزانة أيا صوفيا تحت رقم ٣٠٢٥ ، وروى الكاتب شلى صاحب كشف الظنون أن الفلكى علياً بن محمد الكشجى ألف أيضاً لعهد السلطان الفاتح كتاباً آخر بالفارسى على أيا صوفيا لكننا لم نتحققه . ثم انه يوجد فى خزانة كتب برلين تأليف ثالث عهده ٨٨٨ للهجرة فى الموضوع نفسه هو ملحق بتاريخ الدولة العثمانية الا أن اسم المؤلف غير مذكور فيه

ثم هناك مجلد اسمه « تواريخ قسطنطينية » فيه كتابان فى الموضوع وفيه أقاصيص كثيرة تتعلق بالجامع وأسباب بناء هذا المعبد فى الاصل والاموال التى أنفقت عليه . ثم انه موجود تأليف آخر اسمه « تواريخ قسطنطينية وأيا صوفيا » لعلى العربى الياس بدأ به سنة ٩٧٠ لعهد السلطان سليمان القانونى . ويقول على العربى الياس ان البناء الذى هندس بناية أيا صوفيا يأمر الامبراطور يوستينيانوس كان اسمه اغناطيوس وبالجملة نجد تاريخ هذا الرجل أو فى الكتب بموضوع أيا صوفيا وان كان مقصراً عن الوفاء بتحقيقنا العصرية . اهـ

هذا ما نقلناه عن الانسيكاو بيديّة الاسلاميّة بشأن أياصوفيا أشهر جامع في القسطنطينيّة وذلك على وجه الاختصار . وفي الاستانة غير بعيد عن هذا الجامع جامع آخر اسمه أياصوفيا الصغير بناه أيضاً الامبراطور يوستينيانوس باسم القديسين سرجيوس وباخوس . وقد تحول في زمان محمد الفاتح أيضاً الى مسجد .

ثم ان تاريخ أياصوفيا الذي أشارت اليه الانسيكاو بيديّة من تأليف الجيلاّني قد جاء ذكره في كشف الظنون وجاء ذكر التاريخ الآخر للكشّجي قال : « تاريخ أياصوفيا مختصر نقله احمد بن احمد الجيلاّني حين الفتح من اليونانية الى الفارسيّة وأهداه للفاتح . ثم نقله نعمة الله بن احمد من الفارسيّة الى التركيّة وللولي الفاضل علي بن محمد الكشّجي المتوفى سنة ٨٧٩ تأليف لطيف بالفارسيّة ألفه للفاتح المرحوم »

وفي القسطنطينيّة جوامع أخرى كانت كنائس منها « كليسه جامع » و « كول جامع » أي جامع الورد وغيرهما . ولا يزال فيها خمسون كنيسة منها كنائس باقية من القرن الثالث عشر .

وأما الجامع المسمّى « بسلطان أيوب » في الخليج الذي هو أقدس مكان عند الاتراك فهو الجامع المبني على ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب خالد الانصاري رضي الله عنه . وقد تقدم لنا خبر وفاة أبي أيوب في أثناء حصار القسطنطينيّة . وما أوصى به يزيد بن معاوية من جهة دفنه ، ثم انه لما جاء محمد الفاتح وحصر هذه البلدة الطيبة وفتحها انكشف للمولى آق شمس الدين ضريح أبي أيوب ، وشاد الفاتح رحمه الله سنة ٨٦٣ جامعاً عند ضريح الصحابي المجاهد . ثم في سنة ١٢١٣ الى سنة ١٢١٥ تجدد بناء هذا الجامع على صورته الاصلية ، وكان من عادة سلاطين آل عثمان أنه عندما يتولى أحدهم السلطنة يذهب الى جامع أبي أيوب المشار اليه ويتقلد فيه السيف باحتفال عظيم ، ويكون تقليد السيف من يد الشلبي شيخ الطريقة المولوية التي مركزها قونية .

هذه هي العادة التي أدركناهم عليها الا أنه لما تولى السلطنة السلطان محمد وحيد الدين الملقب بمحمد السادس ابن السلطان عبد المجيد بن محمود وهو الذي أعلنت تركيا الجمهورية

بعد خلعه كان الذى قلده السيف السيد احمد الشريف كبير السادة السنوسية والمجاهد الشهير بهذا العصر.

هذا وبجوار جامع أبى أيوب مقبرة فيها مدافن كثير من أميرات آل عثمان ، وكثير من الوزراء والعلماء والشعراء ورجال الدولة نظراً لكون الناس فى الاستانة يتبركون بهذا المكان المنسوب لصاحب رسول الله ﷺ ويحبون أن يدفنوا فيه . ومن جلة من دفنوا فيه أحد أعمام محرر هذه السطور وهو العالم الكبير المرحوم الأمير محمد الأمين الارسلانى الذى كان عضواً فى مجلس شورى الدولة وتوفى فى الاستانة شاباً عن ٣١ سنة وذلك سنة ١٢٨٨ هجرية (١)

ومن المدافن الشهيرة فى الاستانة مدافن السلاطين مثل « سلطان محمود تر به سى » فى « ديوان يولى » وفيها دفن السلطان محمود الثانى المتوفى سنة ١٨٣٩ مسيحية وولده السلطان عبد العزيز المتوفى سنة ١٨٧٧ ، وتربة السلطان عبد الحميد الأول المتوفى سنة ١٧٨٩ وهى فى « بغجه قبوسى » وفيها دفن السلطان مصطفى الرابع المتوفى سنة ١٨٠٧ ومن الأمكنة الدينية المشهورة فى الاستانة التكايا ، وهى التى يقال لها الزوايا عند العرب . وهذه كان يبلغ عددها ٢٦٠ تكية فى البلدة وقرى البوسفور أشهرها تكية المولوية فى « بنى كوى » وتكية السنبلى فى جوارها ، ثم تكية هذه الطريقة فى « بك أوغلى » وهى من أشهر تكايا تركيا وأقدمها ، بنيت سنة ٨٩٧ للهجرة ثم احترقت منذ مائة وسبع وستين سنة وأعاد بناءها بشكلها الحاضر السلطان سليم الثالث وذلك سنة ١٢١٠ وفيها قبر احمد باشا المهتدى الافرنسى الذى كان اسمه الكونت دوبونفال de Bonneval والذى هو من آل « ليموزين » العائلة العريقة المعروفة بفرنسة من القرن الحادى عشر والثى اشتهر منها عدة من القواد الأبطال ، ومنهم « كلود اسكندر » هذا الذى ولد سنة ١٦٧٥ وتوفى سنة ١٧٤٧ وكان فى الجيش الافرنسى فحرت معه حادثة أوجبت غضبه ففارق فرنسة ودخل فى خدمة أوستريا واشتهر فى محاربة الاتراك ، وبعد مدة من الزمن وقع أسيراً فى أيديهم فى بوسنه ثم أسلم وجعله الاتراك قائداً باسم احمد باشا . ولما مات دفن فى هذه التكية . ومن المدفونين فيها اسماعيل الأنقروى شارح المتنوى

(١) راجع ترجمة الأمير محمد ارسلان عند ذكر الأمراء الارسلانيين فى دائرة المعارف للبستانى

وأما المدارس القديمة التي تعلم فيها العلوم الشرعية والآداب الشرقية فكانت نحو ١٧١ مدرسة أشهرها مدرسة أبيصوفيا وفيها ١٥٠ طالباً ومدرسة السلطان اجد وفيها ٢٠٠ طالب والسليمانية وفيها ٦٥٠ طالباً والمحمدية وفيها ٩٠٠ طالب وكان مجموع طلبة هذه المدارس نحواً من سبعة آلاف

ولما آل الحكم في تركيا بعد الحرب العامة الى مصطفى كمال باشا وانقلب من السلطنة الى الجمهورية والى جمهورية لادينية Laïque أقفلت هذه الجمهورية التكايا وألغت الطرق وأغلقت المدارس الدينية والشرعية ، ورفعت التعليم الديني من مكاتب الحكومة ، وقامت بأعمال وأحداث كثيرة من هذا القبيل مما سيأتي ذكره في محله .

وفي الاستانة مستشفيات ودور للجنانين كانت من القديم تابعة للجوامع ثم جعلتها الحكومة التركية على الطريقة العصرية

أما خزائن الكتب فهي ٤٥ خزانة فيها ٦٤١٦٢ مجلداً كلها كتب اسلامية أكثرها مخطوط بالقلم . وأشهر هذه الخزائن الخزنة التي في سراي السلاطين في طوب قيو . ثم خزانة أبيصوفيا . ثم خزانة الفاتح . ثم خزانة النور العثماني . ثم خزانة أسعد افندي . ثم خزانة الكوبرلي . ثم خزانة راغب باشا . ومن الخزائن المعروفة خزانة بايزيد وفيها كان بعض أجزاء كتاب الاكالييل النادر الوجود للهمداني الباني . وخزانة عاشر افندي بقرب « بني جامع » وفيها وجدت أنا منذ أربعين سنة رسالة « الدرة اليتيمة » لعبد الله بن المقفع ورسائل أبي اسحق الصابي رئيس كتاب ديوان الخلافة لعهد الطائع العباسي ونسخت هذين المخطوطين بخط يدي وطبعتهما وكانت هذه طبعتهما الأولى . ولقد علمنا أن حكومة تركيا الحاضرة جمعت أكثر هذه الكتب في مكتبة واحدة بدار الفنون . وأما مكتبة السراي فمنها قسم في الخزانة الخاصة بها ومنها قسم في « بغداد كوشك » ويقال ان فيها مخطوطات لاتينية ويونانية ذات قيمة عظيمة . ولقد أتبع لي أن أدخل الى هذه المكتبة والى خزانة التحف السلطانية وأن أرى كثيراً من الكتب النفيسة في أجلاها المذهبة وخطوطها التي تحير العقول ، ولا عجب فعن الملوك ولا تسلي . وأى الملوك : سلاطين آل عثمان الذين ملكوا نحواً من سبعمائة سنة مملكة من أكبر ممالك العالم . وكذلك الجواهر والدرر اليتيمة التي في خزانة آل عثمان قاما

يوجد مثلها في خزائن الملوك . ولا شك في أنها تقوم بملايين كثيرة من الجنيهاات . وفي أثناء الحرب العامة نقلت الدولة الجواهر التي كانت في « الحرم النبوي بالمدينة » المنورة الى خزانة طوب قبو . وفي السراي من النفائس مالا يحصى ومن جلتها ١٢ ألف قطعة خزف صيني من النادر الاندر الذي صار مثله كالكبريت الأجر كان المرحوم على الباشهانبه التونسي قد عهد اليه بجمعها وتنفيذها لسعة معرفته بالخزف المذكور وهو الذي قال لي انه لا يظن في الدنيا كلها مجموعة خزف صيني في نفاسة هذه المجموعة لا في الكيفية ولا في الكمية

وأما الخلفات النبوية التي أخذها السلطان سليم العثماني من آخر خلفاء بني العباس عندما فتح مصر ، فلها في سراي طوب قبو كوشك خاص بها وأهمها البردة الشريفة ، التي أعطاها الرسول ﷺ كعباً بن زهير عندما أنشدته « بانت سعاد » وهي في سبط ثمين كان السلطان سليم رتب عندها ١٢ حافظاً يقرأون كتاب الله بالناوبة بحيث لا تنقطع التلاوة لا ليلاً ولا نهاراً . وكان السلاطين يحتفلون بزيارتها في وسط رمضان في يوم مشهود يكون فيه السلطان وأمرآء الأسرة المالكة والوزراء والقواد وأعضاء مجلسي الأعيان والنواب وقد حضرت هذه الحفلة مراراً وكان السلطان يجلس على دكة وأمامه الصندوق الذي فيه السبط الذي فيه البردة وهم يقولون لها « خرقة سعاد » . ثم يتقدم الرجال المدعوون للحفلة واحداً بعد واحد بالترتيب بحسب برنامج معلوم فيرقى الواحد منهم درجة الدكة ويصير أمام الصندوق ، وينحني ، ويقبل الصندوق من أعلاه ويكون السلطان قد تناول منديلاً فسح به على وجه الصندوق فيناوله اياه وينصرف سائراً من غير الجهة التي جاء منها . فيرقى غيره وهم جراً الى أن تنتهي هذه المراسم والسكوت التام والخشوع العظيم سائدان عليها بحيث لا يسمع الانسان فيها الا صوت قارئ يتلو القرآن في وسط البهو الذي فيسه الحفلة . لعل اخواننا الوهابيين يستهجنون هذه المراسم ولا يرون تقبيل الآثار النبوية أو الأصونة التي فيها مما يستحب شرعاً الا أنه ليس شئ من هذه الأمور منوياً به غير مجرد التذكر والتبرك وانما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى .

ثم ان سراي طوب قبو هذه هي في الواقع عبارة عن بلدة كبيرة في طولها وعرضها ومبانيها وحدائقها وميادينها وساحاتها وفيها اكشاك وقصور وصروح بغاية الأبهة اذا

بها الانسان طول النهار لا يأتى على آخرها . وفيها مساكن حرم السلاطين والغرف الخاصة بكل واحد منهم وما أدهشنى وأنا أطوف فيها انى لم أكد أمرّ بغرفة ولا ببهو ولا بأىوان من هذه القصور الملكية الا رأيت على جدران ذلك المكان آيات قرآنية أو أحاديث نبوية بأجل الخطوط المذهبة . وقد رأيت القصيدة المعروفة بالبردة الشريفة منقوشة بأحرف كبيرة مموهة بالذهب من أولها الى آخرها فى ايوان واحد . ومن شاء أن يزور هذا المكان لم يكن له بد من أن يطوف به بمعرفة دليل يعرفه تاريخ كل محل ونسبته ووقت بناءه ومن كان من السلاطين يسكن فى هذا القصر وأية حادثة وقعت فى تلك الساحة وأى اجتماع جرى فى ذلك البهو الى غير ذلك . وقد كان دليلنا يوم طفنا فى سراى طوب قبو المؤرخ العليم بالخطط احمد رفيق بك المشهور الذى كان يشرح لنا كل ما يتعلق بكل محل من الوقائع فشهدنا بواسطته التاريخ مجسماً .

وللسلاطين العثمانيين ، عدا سراى طوب قبو ، سرايات كثيرة متناهية فى الفخامة ، منها سراى « طولمه بغجه » التى كان يسكن فيها المرحوم السلطان محمد رشاد ، وفيها البهو الكبير العديم النظير الذى تجرى فيه مراسم الأعياد وتستقبل به الملوك . ومنها سراى « جراغان » وقد احترق جانب منها . ومنها سراى « يلديز » التى كان يسكنها السلطان عبد الحميد الثانى وهى على رابية من أبدع روابى الاستانة ولها حديقة واصله الى البحر . وكان يصيف فيها السلطان رشاد أيضا . وقد وقعت لنا مقابلة السلطان رشاد مرتين فى سراى يلديز ومرة فى سراى طولمه بغجه هذا عدا المقابلات الرسمية . ومن السرايات الفخمة فى الاستانة سراى « بكربك » فى الشاطىء الاسيوى من البوسفور وهى التى مات فيها السلطان عبد الحميد الثانى بعد خلعه . ومنها كوشك « كوك صو » وغير ذلك من السرايات والقصور والصروح والمقاصف التى تدهش كل من رآها وفى الاستانة ثكنة عسكرية كثيرة لاتكاد تحصى الا أن أعظمها الثكنة السليمية فى اسكدار يقال انها من أعظم ثكن الدنيا .

وفى « الطوبخانه » وهى معمل المدافع والأسلحة وأول من أسس الطوبخانه محمد الفاتح ثم زاد فيها سليمان القانونى . وما زالت السلاطين تهتم بها وتزيد فيها . وستة ١٩١٢ زرتها بنفسى وتفقدت أعمالها وكان مديرها رجل اسمه ناظم باشا فعلمت منه انها تصنع فى كل اسبوع عشرة مدافع و ١٢٠ بندقية ومقداراً من العلف للبنادق ومن القنابر للمدافع ،

ولكن ذلك لم يكن شيئاً بالنسبة الى احتياجات السلطنة فلذلك كانت الدولة العلية توصي على مدافعها وبنادقها في معامل ألمانيا . وقد علمت ان الدولة قد كانت أوسعها في أثناء الحرب العامة وأدخلت فيها زيادات كثيرة .

وفي الخليج « الترسانة » وهي محرفة عن « دار الصنعة » وكان العرب يسمون كل مكان تبني فيه المراكب البحرية بدار الصنعة فأخذ هذه الكلمة الافرنج وحرفوها وقالوا « ارسنال » وأخذها الترك وحرفوها وقالوا « ترسانة » وقد كان مؤسس الترسانة في اسطنبول السلطان سليم الأول سنة ٩٢٢ (١٥١٦) ثم زاد فيها القانوني ثم زاد فيها حسن باشا الجزائري في زمن عبد الحميد الأول ثم زاد فيها حسين باشا في زمن سليم الثالث . وهناك دار نظارة البحرية العثمانية . وأما الآن فقد جعلت حكومة أنقرة دار الصنعة في خليج ازميد .

وفي الاستانة مكاتب ودور علم كثيرة أشهرها دار الفنون في اسطنبول ومكتب « غلطة سراي » في بك اوغلي ، والمكتب العسكري في « شيشلي » ومكتب البحرية في جزيرة « خلقى » في بحر مرمره . وكلها قد نبغ منها الألوف من رجال العلم والأدب والسيف والقلم .

وفي الاستانة أسواق عظيمة شهيرة لا توجد في حاضرة شرقية غيرها . منها السوق الكبيرة التي بدأها محمد الفاتح وسوق مصر التي بناها سليمان القانوني وغيرها . وكذلك فيها خانات شهيرة مثل خان « والده سلطان » و « بيوك نبي جامع » وفيه ٣٥٠ غرفة و « سنبللي خان » و خان محمود باشا وغيرها ، ويقدر عددها فيها من الخانات بمائتين .

ثم ان القسطنطينية من قديم الزمان كانت في حاجة للياه نظراً لوفرة سكانها وضخامة عمراتها . فقياصرة الروم كانوا جلبوا لها المياه من الخارج على الخنايا والقناطر العظيمة أولهم الإمبراطور هادريان ثم فالنس . ولما جاء المسلمون ازداد احتياج الأهالي الى الماء كما هو بديهي فجر إليها الفاتح ميهاً جديدة ثم جر لها القانوني بواسطة مهندس سنان خمسة ينابيع عقد لها خمسة مجار فوق القناطر وجعها في حوض كبير . وبنى عثمان الثاني حوض برغوس سنة ١٦٢٠ وبنى أحمد الثالث السد — والأتراك يقولون بند — الذي في الوادي المسمى بغابة بلغراد . وسنة ١٧٣٢ بنى محمود الأول سد « بفعجه كوي » الذي منه مياه بك اوغلي وغلطة والطوبخانة . وفي طرف بك اوغلي الى جهة شيشلي محل يقال له « تقسيم »

منه تقسيم المياه التي جرّها محمود الأول .

وفي الاستانة حياض مياه قديمة من عهد الروم دثر أكثرها واعتيـض منها بالعيون التي هي من أجل مآرائه العيون والسبل المبنية بالمرمر البالغة الحد في بداعة الصنعة مثل سبيل السلطان أحمد الثالث الذي بقرب « باب هايون » الذي تاريخه سنة ١١٤١ .
ويقدر عدد حمامات الاستانة بنحو من ١٥٠ حماماً عدا حمامات القرى الملحقة بالاستانة .

هذا وكان العرب يقولون للقسطنطينية « فروق » كصبور وقد وردت كذلك في معاجم اللغة وكأنهم أخذوها من قوله تعالى (وَأَذْ فَرَقْنَاهُ بِكُمُ الْبَحْرَ) أى فلقناه فان البحر يفرقها بين آسية وأوربة بمضيق البوسفور ثم يفرق القسم الاوربي منها بالخليج المسمى بقرن الذهب الذي فيه دار الصنعة أو الترسانة وفي آخره قبر خالد الانصارى رضى الله عنه .

وهذا الخليج يفرق بين القسم المسمى باسطنبول الأصلية وغلطه . وكانت غلطة من أيام الروم مسكن الجنوينة وأصناف اللاتين . ولما فتح الترك الاستانة انتقل كثير من الروم والأرمن اليها ، ثم لما بنيت الطوبخانة وهي من قسم الغلطة جاءها كثير من المسلمين وهكذا تحولت كنيسة ماربولس جامعاً منذ سنة ١٥٢٥ وقيل ١٥٣٥ وهي المسجد الذي يقال له اليوم « عرب جامع » ويقول بعضهم انه كان جامعاً في أثناء حصار العرب للقسطنطينية . وتحولت كنيسة مارا فرنسيس الى جامع سنة ١٦٩٧ وهو المسجد المسمى بجامع الوالدة . وللأتراك ١٤ جامعاً في غلطة منها أربعة كانت كنائس .

ولقد ذكر ياقوت الجوى في معجم البلدان هذه العاصمة الشهيرة وقال انها دار ملك الروم ، وان الحكايات عن عظمها وحسنها كثيرة ولكن ياقوت لم يعطها حقها وربما كتب في وصف بلدة لا تبلغ مقدار حارة من حارات القسطنطينية أكثر مما كتب عن القسطنطينية ، ولعله تجنب الأطناب في شأنها خشية أن ينسب اليه التعصب للرومية لأنه رومى وخشى أن يقال انه لا يزال فيه عرق من الرومية ينزع اليه . وقد روى ياقوت ثلاثة أبيات جاء فيها ذكر القسطنطينية قال انها لأبي العيال الهزلى رثى ابن عم له قتل في القسطنطينية وهي هذه :

ذكرت أخى فعاودنى رُداع القلب والوصب
أبو الأضياف والأيتا م ساعة لا يبعد أب
أقام لدى مدينة آ ل قسطنطين وانقلبوا

قال ياقوت وهى اليوم بيد الأفرنج غلبوا عليها الروم وكان ياقوت حيا فى أوائل القرن السابع للهجرة . ولنختم كلامنا على القسطنطينية بذكر قضية يبنى أن تعرف فى العالم الاسلامى وهى انه لما تقرر فى معاهدة لوزان المنعقدة بين تركيا ودول الحلفاء سنة ١٩٢٣ مبادلة السكان بين تركيا واليونان بحيث يخرج المسلمون الذين فى بلاد الروم الى تركيا ويخرج الأروام الذين فى تركيا الى بلاد اليونان ، وجرت المبادلة بالفعل استثنى من ذلك الأروام الذين فى القسطنطينية وهم يناهزون مئى الف نسمة واستثنى بمقابلتهم المسلمون الذين فى تراقيا الغربية لأن الدول الأوربية واليونان أئین إخلاء القسطنطينية من المسيحيين فابت تركيا أن تجعل ذلك بدون عوض ولما كان مسلمو تراقيا يعز عليهم فراق وطنهم جعلوا هؤلاء فى مقابلة هؤلاء .

فهذا ما اكتفينا به من أخبار هذه البلدة الطيبة أدامها الله دار اسلام . ولقد رجعت الحكومة التركية الآن تطلق عليها اسمها القديم استامبول وأعانت انها لاتقبل المكاتبات التى ترد عليها تحت اسم القسطنطينية Constantinople وأوجبت أن يكتب استامبول Stamboul وذلك لأن الأتراك يرون فى اسم القسطنطينية تذكاراً لملك الروم فيها ويرون اسم استامبول هو الاسم الذى يطلقه الأتراك عليها . وحقيقة الحال ان اسم استامبول كان معروفاً للقسطنطينية من عهد الروم وقد نقل ياقوت الحموى عن ابن خرداذبة انه يقال لها اسطنبول ومن المعلوم ان ابن خرداذبة عاش فى أوائل القرن الثالث للهجرة وكان فى أيام الخليفة المعتمد العباسى ويقال انه كتب كتابه المسالك والممالك فى نواحى سنة ٢٣٢ . اذاً يكون اسم استامبول أو اسطنبول قديماً ومن العجيب أن ينفر الأتراك الأنقريون من اسم القسطنطينية بحجة انه اسم غربى وهم يحبون أن يقلدوا الأوربيين فى كل شىء وقد أخذوا يكتبون اللغة التركية بالحروف اللاتينية وأدخلوا فيها كلمات لاتخصى من اللغات الأوربية وهذه الكلمات ليست من الأعلام بل من الكلمات المعتادة التى كان يمكنهم الاستغناء عنها لوجود ألفاظها فى العربية فآثروا الألفاظ الأوربية على الألفاظ العربية حبا بالانفراج لاغير ،

فكيف نسوا هذا كله ورجعوا يحاولون اثبات تركيتهم في احياء لفظة واحدة هي لفظة « استانبول » أو اسطنبول . ان هذا المنطق الانقري لعجيب

هذا ولما كانت ألسن البنيان هي أدل الدلائل على هم الملوك فلا شيء أدل على علو هم السلاطين العثمانيين من هذه الجوامع العظيمة التي شادوها في اسطنبول آيات باهرة للناظرين وآثاراً خالدة في الأولين والآخرين .

فهذه الجوامع عدا فائدتها المعنوية من جهة الصلاة التي هي عمود الدين وكونها مجمعا للآلوف وعشرات الآلوف من جماعات المصلين هي أيضاً الملاجئ الوحيدة في الاستانة عند نزول النوازل سواء كانت من حريق أو زلزال أو حرب أو آفة سبوية أخرى . ومن المعلوم ان القسطنطية في القديم والحديث عرضة للزلازل ولا تزال الزلازل تختلف اليها ، ولذلك اعتمد أهلها على البناء بالخشب لأن خطر الأبنية الخشبية في الزلازل أقل جداً من خطر الأبنية الحجرية . ولكنهم بهذا الأمر تعرضوا لخطر آخر هو الحريق الذي لا تخلو منه الاستانة ليلة واحدة . وكثيراً ما حدث من الحرائق ما أفنى قسماً كبيراً من تلك العاصمة ، ومرة احترق ثلث الاستانة في حريق واحد . وفي أيامنا هذه جرت حرائق كان يبقى بعدها مائة ألف نسمة أو يزيدون بدون مأوى . فعند ماتحصل حرائق كهذه لم يكن للاهالي الباقين بدون مأوى وهم ألوف أو عشرات الألوف ملجأ الا الجوامع والمدارس التي حوطها فانها مبنية كلها بالحجر الأصم المنحوت بناء هو المثل البعيد في الاحكام بحيث مضت عليها القرون ولم تتأثر لا بقدوم ولا بزلزال ولا بحريق فتجدها كالقلاع بل أشد متانة ، ولولا هذه الجوامع وهذه المدارس لكان مصير أصحاب البيوت المحترقة لاسيما في فصل الشتاء من أجمع ما يتصوره العقل فان بيوت الافراد لتعجز عن استيعاب خمسين ألفاً ومائة ألف من النسمات الباقية بدون مأوى . وكذلك في أثناء الحروب كان يهاجر المسامون الذين في نفور المملكة الى الاستانة بعيالهم وهم ألوف مؤلفة فتضيق عليهم الارض بما رحبت ولا يسعهم غير هذه الجوامع . ولقد شهدت أنا بنفسى هذا الأمر في أثناء الحرب البلقانية فقد كانت مصر أرسلت بعثة للهلل الاجر المصرى لأجل مداواة الجرحى العثمانيين على رأسها المرحوم محمد باشا الشريعى وكامل باشا جلال ، وجاءنى أنا أيضاً من الأمير محمد على توفيق رئيس الهلال الاحمر المصرى تفويض بان أكون من المراقبين على أعمال تلك البعثة في الاستانة .

وفي ذلك الوقت تقدمت عساكر الدول البلقانية واخترقت حدود تركيا فاجفل الاهالى
المسامون من امامها والتجأوا من كل صوب الى الاستانة لايالون على شئ ولم يكن فى
أيديهم شئ تقريباً فدخل الاستانة نحو من مائة وثلاثين ألف نسمة مسامة من الروملى
فأنزلهم الحكومة فى هذه الجوامع التى لولاهلها لكان خطبهم لايوصف ولكن كانت
الحكومة أوانئذ باحتياجها لمثونة جيوشها عاجزة عن اعاشة هؤلاء المهاجرين القادمين بغتة
وليس بأيديهم شئ يسد أرقامهم . فعند ذلك توالى برقياتى الى الامير محمد على توفيق
رئيس الهلال الاحمر المصرى والى الامير عمر طوسون رئيس لجنة اعانة الدولة بمصر والذى
نجدته على رأس كل مأثرة فى خدمة الاسلام ، فى الحال أرسلوا مبالغ وافرة من المال وأمكننا
أن نوزع على هؤلاء البؤساء اعانات أصاب النفس الواحدة منها ثلاثة ريالات مجيدية
فكانت العائلة المؤلفة من عشرة أنفس تقبض ثلاثين ريالاً مجيدية ، وكانت بعثة الهلال
الاحمر المصرى بالاشتراك مع لجنة من قبل امانة البلدة توزع هذه الأموال على المهاجرين
بموجب قوائم كانت تعد من قبل بعددهم وبأسمائهم ، ومن حيث انى كنت دائماً حاضراً
تلك التوزيعات أمكننى أن أشاهد أكثر تلك الجوامع وتلك المدارس التى كانت هذه
الألوف المؤلفة من المهاجرين قد أنزلت بها وعامت أى غناء تغنيه هذه المباني الخالدة وتأملت
فى فضل أولئك السلاطين الذين لولم يؤثروا فى الأرض الا هذه الآثار العظيمة وحدها لكفاهم
ذلك نفراً فى هذه الدنيا وأجراً فى الآخرة . فكيف وقد ضموا الى هذه الآثار الباهرة
تلك الفتوحات التى انصت الزمان بذكرها وارتعدت لها الدول الاوربية بأجمعها وعاش الاسلام
زمناً مديداً آمناً فى ظلها فلا ينكر فضائل هذه الاسرة الا المكابر الجاحد الذى يحاول أن
يستر نور الشمس بيده ولكن التاريخ شاهد خالد أمين لا يكذب أهله .

التسامح والتعصب بين الاسلام وأوربة

على ذكر المؤلف بلوغ الترك أسوار فينا سنة ١٦٨٣

للمؤلف

مازلنا نؤكد أن الأوربيين في عهد الحروب الصليبية وفيما بعدها بقرون لم يكونوا أقل من الترك تعصباً ولا جفاء وأن تاريخهم في الحروب الصليبية وما جرى منهم عند فتح القدس من ذبح ٧٠ ألف مسلم في المسجد الأقصى حتى سبحت الخيل الى صدورهم في الدماء ومن استئصلهم شأفة المسلمين من الاندلس ، وصقلية وجنوبي فرنسا وسردانية ؛ مع أنهم كانوا يحصون في هذه البلدان بالملايين تاريخ شاهد بصحة ما نقول ، فقد عفى الأوربيون كل أثر للاسلام في أوربا ولم يرضوا أن يبقى فيها مسلم واحد ، حال كون الترك الذين يقال أنهم برابرة بقي تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقصدون في أوقات عديدة أن يستاصلوهم أو ان يحملوهم على الجلاء ؛ كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب . وقد يقال ان الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الاسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدى الذى يمنع الاكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية وقالوا ان السلطان سليمان القانونى كان فكره في سوء المغبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار والأرمن وغيرهم في الممالك العثمانية ، وأحب اخراجهم ، وقيل بل السلطان سليم ؛ وكان كل مرة يعترض في ذلك شيخ الاسلام ويقول : ليس لنا عليهم الا الجزية . والجواب قد يكون ذلك ويثبت ان الاسلام هو الذى هذب الأتراك وحال بينهم وبين طرد المسيحيين من ديارهم ؛ فلماذا ياليت شعري لم يهذب الانجيل الشريف أقوام أوربا ولم يمنع البابا اسكندر السادس وأساقفة الكنيسة في اسبانية ، والملك فرديناند ، والملكة ايزابلا ، وغيرهم من الملوك المشهورين بالكنيسة من نصب ديوان التفتيش وارتكاب تلك الفظائع في العرب واليهود ممن بقى على ديارته سرّاً الى أن جلاهم باجمعهم عن ذلك القطر الذى اوطنه العرب

رهاء ٨٢٠ سنة ، مع أن الانجيل كما لا يخفى لا يميز شيئاً من هذه الأفعال بل يوصي الناس بحب الأعداء فكيف تتألف مع شريعة الانجيل التي هذا مبلغ وداعتها وتساعها قضية تحريق الناس بالنار لأجل عقائدهم

لا نريد أن نعزو الى هذا المؤلف التحامل أو التعصب فيما جعله نتيجة عمل الترك بل نشهد بكونه من أوفر المؤلفين الأوربيين انصافاً وتحرياً ، ولكن ثمة أمور لا يزال الأوربي مهما بلغ من انصافه وحرية فكره غافلاً عنها أو هو لما يعتقده من علو قومه وكونهم محبولين من طينة هي غير طينة الآخرين ، لا يقدر أن ينظر الى عيوب قومه وآثام بني جلدته بالعين التي يرى بها عورات غيرهم من الأقوم . فقد جرت لنا مباحثات طويلة مع كثير من علماء الافرنجة في موضوع التسامح وعدمه ، فكنا نراهم يعتقدون أنه لا يوجد في الدنيا أقل تسامحاً وسجاجة من أهل الشرق فاذا ذكرناهم بما فعلوه بعرب الاندلس قالوا : ذلك شيء آخر . والى الآن لا نفهم لماذا هو شيء آخر . وبعضهم يقول هذه حوادث جرت في القرون الوسطى . فاذا سألنا بكونها جرت في القرون الوسطى فماذا يقولون في المواقف والفظائع التي جرت من الجنس الأبيض الاوربي في هذا العصر نفسه سواء في القرن التاسع عشر أو القرن العشرين مما فعلوه في مستعمراتهم بأفريقية الوسطى وشمال أفريقيا والسكونغو والسودان المصري وبما فعلوه في الهند وغيرها من آسية ، بل بما وقع بمعرفة منهم في الروملى أثناء الحرب البلقانية بل بما أوقعه بعضهم ببعض في الحرب العامة هذا كله لم يقع في القرون الوسطى ، ولا في الجاهلية الاوربية ، بل جرى في عصر النور وبحبوحة الحضارة وعنجهية التهذيب الاوربي . نعم لا نفهم كيف اذا ذبح الترك الأرمن يكون ذلك توحشاً وبربرية وتمتلى الصحف بألفاظ القسوة والوحشية والهمجية ، وتقوم القيامة ، فاذا ذبح البلقانيون مسلمي الروملى واستباحوا حرمهم ، أو الأروام مسلمي غربي الاناضول ، لم نجد شيئاً من تلك القيامة ولا هاتيك النعرة وان عبر عنها بشيء قيل انها حوادث مؤسفة أو ماجريات لا تخلو منها حرب أو مقابلة بالمثل لاعتداءات سبقته ويحتهد كل الاجتهاد في تغطيتها وجر ذبول النسيان عليها. هذا الذي نعترض عليه وقلمنا نجد عليه جواباً سديداً ولكن ليس صاحب هذا الكتاب بالذي يعتمد تعمية الحقائق

الفرق بين الخوفا والملك

— * —

هذى الخلفاء الراشدين

— * —

سیره عمر بن الخطاب

على ذكر المؤلف الخلافة الراشدية والشورى الاسلاميه

للمر شبيب

الخلافة فى الاسلام ليست بملك ولا سلطنة ، وانما هى رعاية عامة للامة لاقامتها على الشرع الحنيف ، وردع القوى عن الضعيف فى الداخل ، وصيانة الاسلام ودفع المعتدى عليه من الخارج . وهى لا تنعقد الا بارادة الأمة . والسلطان الذى يؤناه صاحب الخلافة هو من الأمة لا سلطان له عليها الا منها . وقد فهم لو ثروب ستودارد هذا الباب حق الفهم وعرف الخلافة التعريف الصحيح بخلاف كثير من الاوربيين الذين يتبجحون بزعمهم أن مبدأ كون السلطان القومى من الأمة انما هو من الأوضاع الغريبة الاوربية قاتلهم الله ما أجهلهم بتاريخ الشرائع ، وما أجراهم على الخلط . ومن أغرب الامور أن كثيراً من الشرقيين ومن المسلمين أنفسهم يتابعون الافرنج فى هذا الوهم ولا يعلمون قاعدة الاسلام فى هذا الموضوع . ولو تأملوا ما كان عليه الخلفاء الراشدون الأربعة ، وهو أشد صور الحكم الاسلامى انطباقاً على الشرع ، لرأوه أمراً شعبياً محضاً وديموقراطياً بحتاً وأبعد شئ عن السلطان المطلق والقرآن صريح فى قوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » وقوله « وأمرهم شورى بينهم »

نعم ان الخلفاء الراشدين لم يقع انتخابهم الى أجل مسمى نظير رؤساء الجمهوريات ولم يكن العرب لذلك العهد بسذاجة البدواة يعرفون هذا الضرب من الحكم ولكنه لا جدال في أن الخليفة أو أمير المؤمنين لم يكن شخصاً مقدساً غير مسئول كما هو عند الاوربيين ولم تكن له مزية شخصية على سائر الامة وكان اذا أخطأ يقيد من نفسه . ولم يخطر ببال أحد من الخلفاء الراشدين أن يورث أولاده الخلافة بل كانوا يلقونها عن ظهورهم القاء من يريد الخلاص من تبعتها فاذا كان الانسان يريد أن يعرف ثمار شجرة الاسلام فليتاأمل في سيرة الخلفاء الراشدين فانها المرآة الحقيقية لروح الاسلام . ويناسب أن نذكر هنا بعض الآثار الواردة فيما كان الخلفاء الراشدون يفهمون من هذا الامر . جاء في الطبقات الكبرى لمحمد ابن سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال حدثني قيس بن الربيع ، عن عطاء بن السائب عن زاذان عن سامان أن عمر قال له : أملك أم خليفة ؟ فقال له سلمان : ان أنت جيت من أرض المسامين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر . ثم قال أخبرنا محمد بن عمر ، قال حدثني عبد الله بن الحارث ، عن أبيه ، عن سفيان بن أبي العوجاء قال : قال عمر بن الخطاب : والله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك ؟ فان كنت ملكا فهذا أمر عظيم ، قال قائل : يا أمير المؤمنين ان بينهما فرقاً ، قال ما هو : قال الخليفة لا يأخذ الا حقاً ولا يضعه الا في حق فأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا . فسكت عمر . ولما بويع أبو بكر قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فاني وليت هذا الأمر وأنا له كاره والله لوددت أن بعضكم كفانيه ، ألا وانكم ان كلفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله ﷺ لم أقم به . كان رسول الله عبداً أكرمه الله بالوحى وعصمه به ألا وانما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم فراعوني فاذا رأيتموني استقمتم فاتبعوني وان رأيتموني زعتم فقوموني » وكان عمر فيما روى قد خطب الناس وقال لهم : « من رأى في اعوجاجاً فليقومه » فقام واحد ممن سمعوه من الجمع وقال له : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا . فقال عمر : « الحمد لله الذي جعل في هذه الامة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه » . ولما بويع أبو بكر كان منزله بالسبخ في ضواحي المدينة فأقام هناك بعد ما بويع له ستة أشهر أحياناً يغدو على رجله الى المدينة ويركب أحياناً

فرسأ له وبقى زمنا بعد الخلافة يغدو الى السوق فيبيع ويتتاع بنفسه وكان قبل الخلافة يحلب أغناماً لجيرانه فلما بويع له بها قالت جارية من الحى : الآن لا تحلب لنا منافع دارنا . فسمعها أبو بكر رضى الله عنه فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم وانى لأرجو أن لا يغيرنى مادخلت فيه عن خلق كنت عليه ، فكان يحلب لهم فرمما قال للجارية : يا جارية أتحبين أن أرغى لك أو أصرح . فرمما قالت أرغى وربما قالت صرّح . فأى ذلك قالت فعل . فكنت كذلك بالسُّنح ستة أشهر ثم نزل الى المدينة فأقام بها ونظر فى أمره فقال : لا والله ما يصلح أمر الناس التجارة وما يصلح لهم الى التفرغ والنظر فى شأنهم واستنشق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم وكان الذى فرضوا له كل سنة ستة آلاف درهم فلما حضرته الوفاة قال : ردّوا ما عندنا من مال المسلمين فانى لا أصيب من هذا المال شيئاً وان أرضى التى بمكان كذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم ، فدفع ذلك الى عمر ولقّوح وعبد صيقل وقطيفة فقال عمر لقد أنعب من بعده .

بمثل هذه العفة وبمثل هذه الطهارة وبمثل هذه البساطة فى المعيشة تولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه قيادة الأمة العربية لأول ظهورها بالاسلام وظهور الاسلام بها . وسار على أثره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان آية الله الكبرى فى العدل والزهد والاغلاظ فى الحق والشدة على الأقوياء والرافقة بالضعفاء وبأخلاقه هذه اتسق للاسلام ما اتسق من الفتوحات كما أنه ثبتت أبى بكر عجزت الردة أن تجرى مجراها فى العرب . وكان عمر من سداجة العيش بالمقام الذى لا يصل اليه أحد . سئل عمر عما يستحله لنفسه من بيت مال المسلمين فقال : يحل لى حلتان حلة فى الشتاء وحلة فى القيظ وما أحجّ عليه وأعتمر من الظهر وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم . وقال عمر مرة : انى أنزلت نفسى من مال الله منزلة مال اليتيم ان استغنيت استعفت وان افتقرت أكلت بالمعروف .

وورد فى الآثار أن عمر مكث زماناً وهو فى الخلافة لا يأكل من المال شيئاً حتى دخلت عليه فى ذلك خصاصة وأرسل الى أصحاب رسول الله فاستشارهم فقال قد شغلت نفسى فى هذا الأمر فما يصلح لى منه فقال عثمان بن عفان : كل وأطعم . وقال مثل ذلك سعيد

ابن زيد . فقال عمر لعلّي : فا تقول أنت في ذلك . قال غداء وعشاء . فأخذ عمر بذلك . وجاء في طبقات ابن سعد أن عمر كان يقوت نفسه وأهله ويكتسى الحلة في الصيف ولربما خرق الأزار حتى يرقعه فما يبدل مكانه حتى يأتى الأبان وما من عام يكثرفيه المال الا كانت كسوته فيه أدنى منها في العام الذي قبله . فكلّمته في ذلك حفصة ابنته فقال لها : انما أكتسى من مال المسلمين . وقالوا ان عمر كان يستنق كل يوم له ولعياله درهمين فقط ، ثم ان عمر حج البيت فأنفق في حجه ستة عشر ديناراً فقال لابنه عبد الله : يا عبد الله ابن عمر أسرفنا في هذا المال ، وكان الدينار باثني عشر درهماً ، ومن الروايات عن زهد عمر أن أبا موسى الأشعري أهدى لعائلة عمر طنفسة نحو ذراع وشبر فدخل عمر الى البيت فقال : أئني لكم هذا فقالت امرأته : أهداها لنا أبو موسى الأشعري . فأخذها عمر ف ضرب بها رأسها ثم قال عليّ بآبي موسى الأشعري وأتعبوه . فأئني به قد أتعب وهو يقول : لا تعجل عليّ يا أمير المؤمنين . فقال عمر : ما يحملك على أن تهدي للنساء . ثم أخذها عمر ف ضرب بها فوق رأسه فقال : خذها فلا حاجة لنا فيها

ومن أخبار عمر في زهده ونقشفه انه لما كان عام الرمادة ، وهو عام المجاعة ، ركب دابة فرأته شعيراً فراها عمر فقال : المسلمون يموتون هزلاً وهذه الدابة تأكل الشعير لا والله لا أركبها حتى يحجي الناس ، وتواترت الروايات على انه ما أكل سمناً ولا زيتاً ولا ذاق لحماً حتى انتهت المجاعة . وروى أنس بن مالك انه حرّم على نفسه السمن عام الرمادة وكان يأكل الزيت وانه تفرق بطن عمر يوماً فنقر بطنه بأصبعه وقال : تفرق انه ليس لك عندنا غير هذا حتى يحجي الناس . وكان في أثناء المجاعة يختلف الى بيوت الفقراء ويحمل لهم الطعام على ظهره ، وجاء حديث عن عياض بن خليفة قال : رأيت عمر عام الرمادة وهو أسود اللون ولقد كان أبيض فنقول ممّ ذا ؟ فقالوا انه كان يأكل السمن واللبن فلما أحل الناس حرّم ذلك على نفسه فأكل بالزيت وأجاع نفسه كثيراً فتغير لونه . وقالوا يومئذ انه لولم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت همّاً بأمر المسلمين . ونظر عمر عام الرمادة الى بطيخة في يد بعض ولده فقال بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين تأكل الفاكهة وامة محمد هزلى نخرج الصبي هارباً وبكى . فسأل عمر كيف حصل الولد على هذه البطيخة فعلم انه

اشتراها بكفّ من نوّى . وكان عمر يُطعم عام الرمادة (فى المدينة) بضعة آلاف كل يوم على سُفرتِهِ ، ويرسل القوت الى المحاوِيج الذين لا يقدرّون أن يأتوا اليه والى المرضى والصبيان ، وكان عدد هؤلاء نحواً من أربعين ألفاً .

وأخبارُهُ فى الزهد والتّشف كثرته متواترة فمن شاء استقصاءها فعليه بكتب السير . وقيل انه دخل مرة على رجل فاستسقاها وهو عطشان فأناه بعسل فقال ما هذا فقال : عسل فأبى أن يشربه وقال لا يكون فيما أحاسب به يوم القيامة . وحدثت يسار بن بُمَيْر قال : ماتحت لعمر الدقيق قط الا وأنا له عاص ، وحدث السائب بن يزيد قال : رأيت على عمر ابن الخطاب ازاراً فى زمن الرمادة فيه ستّ عشرة رقعة . وقال أنس بن مالك : رأيت عمر ابن الخطاب وهو يومئذ أمير المؤمنين وقد رفع بين كتفيه برقع ثلاث لبدّ بعضها فوق بعض . وحدثت على بن زيد عن أبى عثمان النهدي قال : رأيت ازار عمر قد رقعته بقطعة من أدم . وأبطأ عمر جعة بالصلاة فخرج فلما ان صعد المنبر اعتذر الى الناس فقال انما حبسنى قميصى هذا لم يكن لى قميص غيره ، كان يخاطله قميص سُبُلانى لا يجاوز كُفّه رُشغ كفيه . وحدثت عامر بن عبيدة الباهلى قال : سألت أنساً عن الخزّ فقال : وددت ان الله لم يخلقه وما أحد من أصحاب النّبي ﷺ الا وقد لبسه ما خلا عمر وابن عمر . وحقيقة الحال ان مشرب عمر هذا فى التّشف والتّقير على نفسه انما كان مشرباً خاصاً يحمله عليه شدة الورع وتصوره ، وهو أمير المؤمنين ، ان فى أمته أناسا كثيرين يعيشون فى شظف فكان يأبى أن يكون فى رعيته من يجوع وهو يشبع ومن يأتزر بالادم وهو يلبس الخز . والا فان عمر رضى الله عنه لم يكن يجهل ان الله تعالى قد أحل الطيبات من الرزق وانه لو حل نفسه على الرفاهية بدون اسراف لجاز له شرعاً .

وما ذكرنا هذه النّف من أخبار زهد عمر وشظف معيشته وخشونة مأكله وملبسه وتورعه الزائد فيما يستحقه من بيت مال المسلمين الا لنظهر ما بين الخلافة والملك من الفرق ونثبت ان الخلافة فى الاسلام انما هى رعاية لا بد منها لحفظ المجتمع وليس للرعى فيها أدنى مزية على الرعية فى شىء عائد الى شخصه . وقد كان الخلفاء الراشدون بما تلقوه من تربية النّبي ﷺ لهم يفهمون حق هذه الرعاية ويعلمون أنهم انما هم خدّمة للامة ومسؤولون

عن الدقيق والجليل من أمرها . وكان عمر يقول لومات جبل ضياعاً على شط الفرات خشيت أن يسألني الله عنه ، وكان يقول : «أيُّما عاملٍ لي ظلم أحداً فبلغتني مظلمته فلم أعيرها فأنا ظلمته» . وكان يقول : «الرعية مؤدية الى الامام ما أدى الامام الى الله فاذا رجع الامام رجعوا» . وخرج عمر بن الخطاب الى مكة فما ضرب فسطاطاً حتى رجع لأنه كان يستظل بالنطع . وقال عامر بن ربيعة : صحبت عمر بن الخطاب من المدينة الى مكة في الحج ثم رجعنا فما ضرب فسطاطاً ولا كان له بناء يستظل به انما كان يلقي نطعاً أو كساءً على شجرة فيستظل تحته ، وحدث الربيع بن زياد الحارثي قال : شكا عمر طعماً غليظاً أكله فقال الربيع : يا أمير المؤمنين ان أحق الناس بطعام لين ، ومركب لين ، وملبس لين لأنت . فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه وقال : أما والله ما أراك أردت بها الله وما أردت بها الا مقاربتى هل تدري ماملى ومثل هؤلاء ؟ قال : وما مثلك ومثلهم . قال : «مثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم الى رجل منهم فقالوا له : أنفق علينا . فهل يحل له أن يستأثر منها بشيء» قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : «فكذلك مثلى ومثلهم» . ثم قال عمر : «انى لم أستعمل عليكم عمالى ليضربوا أبشاركم ، وليشتمو أعراضكم ، ويأخذوا أموالكم ، ولكنى استعملتهم ليعاموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ، فن ظلمه عامله بمظلمة فلاذن له عليه ، ليرفعها الى حتى أقصه منه» . فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين أرايت ان أدب أمير رجلاً من رعيته انقصه منه فقال عمر : ومالى لأقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه . وحدث الأحنف قال : كنا جلوساً بباب عمر فمرت جارية فقالوا سرية أمير المؤمنين فبلغ ذلك عمر فدعانا فأتيناه فقال : ماذا قلتم . قلنا لم نقل بأساً ، مرتت جارية فقلنا هذه سرية أمير المؤمنين فقال : ماهى لأمر المؤمنين بسرية وما تحل له انها من مال الله . فقلنا فاذا يحل له من مال الله فقال : أنا أخبركم بما أستحل منه : يحل لى حلتان حلة فى الشتاء وحلة فى القيظ وما أحج عليه وأعتمر من الظهر وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا أفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصينى ما أصابهم . وكأهم الناس حفصة أن تكلم أباهما بأن يلين من عيشه شيئاً فقالت : يا أمير المؤمنين ان قومك كلونى أن تلين من عيشك فقال : غششت أباك ونصحت لقومك . وأبى عمر أن

يجعل الخلافة في ابنه وقال : ان أقواماً يأمروني أستخلف وإن الله لم يكن ليضيع دينه وخلافته والذي بعث به نبيه فإن عجل بي أمر فالخلافة شوري بين هؤلاء للرهب الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . وكان من جلة وصايه قبل وفاته : «أوصيكم بكتاب الله فإنكم لن تضلوا ما اتعتموه ، وأوصيكم بالمهاجرين فإن الناس يكثرُونَ ويقولون ، وأوصيكم بالأَنْصار فإنهم شعب الاسلام الذي لجأ اليه ، وأوصيكم بالأعراب فإنهم أصلكم ومادتكم» . وقد جاء في هذا الحديث رواية أخرى وهي أصلكم ومادتكم واخوانكم وعدوكم ، وأوصيكم بأهل الذمة فإنهم ذمة نبيكم وأرزاق عيالكم .

ولما طعن أبو لؤلؤة الفارسي عمر وهو يصلي قال : من قتلني فليل له غلام المغيرة ابن شعبة وكان نجاراً فقال عمر : قاتله الله ، والله لقد كنتُ أمرتُ به معروفاً ثم قال : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعى الى الاسلام . ثم قال لعبد الله بن عباس : لقد كنتُ أنت وأبوك تحبان أن تكثرا العلوج في المدينة . فقال له ابن عباس ما يفيد انهم ان شاء أخرجوهم من المدينة فقال له عمر : أبعد ما تكلموا بكلامكم وصلوا بصلاتكم ونسكوا نسككم . ولما أيقن بالموت قال لابنه : يا عبد الله بن عمر أنظركم على من الدين . فحسبه فوجده ستة وثمانين ألف درهم فقال : يا عبد الله ان وفي لها مال آل عمر فأدّها عني من أموالهم وان لم تف أموالهم فاسأل فيها بني عدى بن كعب^(١) فان لم تف من أموالهم فاسأل فيها قريشاً ولا تعدهم الى غيرهم . وقالوا له حين حضره الموت : استخلف . فقال : لا أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فايهم استخلف فهو الخليفة من بعدي فسمى عليا ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن ، وسعداً . ووردت رواية أخرى في وصاته عند موته في معنى الرواية السالفة ولكنها تختلف ببعض ألفاظ قال عمر : أوصى الخليفة من بعدي بتقوى الله والمهاجرين الأولين أن يحفظ لهم حقهم ، وأن يعرف لهم حرمتهم وأوصيه بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم ردة الاسلام وغيظ العدو وجبة المال أن لا يؤخذ منهم الا فضلهم عن رضئ منهم ، وأوصيه بالأَنْصار الذين تبوأوا الدار والايمان أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم

(١) بنو عدى هم الفخذ الذين من قريش ينسب عمر بن الخطاب اليهم

أصل العرب ومادة الاسلام ، وأن يؤخذ من حواشي أموالهم فيرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم وأن لا يكلفوا الا طاقتهم ، وأن يقاتل من ورائهم ودعا الستة الذين جعل الأمر شورى بينهم فلم يكلم منهم الا عليا وعثمان فقال يا علي لعل هؤلاء القوم يعرفون لك قرابتك من النبي ﷺ وصهرك وما آتاك الله من الفقه والعلم ، فان وليت هذا الأمر فائق الله فيه . ثم دعا عثمان فقال : يا عثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك وشرفك فان وليت هذا الأمر فائق الله ولا تحملن بني أبي معيط على رقاب الناس . ثم قال : ادعوا الى صهيبا فدمعي فقال : صل بالناس ثلاثاً وليخل هؤلاء القوم في بيت فاذا اجتمعوا على رجل فمن خالفهم فاضربوا رأسه .

قلت فمن تأمل في قول عمر : وان يؤخذ من حواشي أموالهم فيرد على فقرائهم رأى فيه منزعاً اشتراكياً لا ريب فيه الا أنه منزع اشتراكى حكومى يصدق عليه ما يعبر عنه الافرنج اليوم بلفظة Étatisme ثم ان الدول الاوربية اليوم قد اضطرت كلها الى سلوك هذه السبيل وما هذه القوانين الاجتماعية التى يسمونها Lois sociales والتي معناها أن يؤخذ من الميزانية المالية العامة لاغاة المعوزين والمرضى منهم والباقيين بدون عمل Chomeurs أو Trbeitslos الا من هذا الضرب

ثم روى ان سعيد بن زيد قال لعمر : لو اشترت برجل من المسلمين ائتمنتك الناس فقال عمر : قد رأيت من أمحبابي حرصاً سيئاً وانى جاعل هذا الأمر الى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . ثم قال : لو أدركنى أحد رجلين فجعلت هذا الأمر اليه لو ثق به سالم مولى أبى حذيفة ، وأبى عبيدة بن الجراح . وقيل انه قال : من أستخلف لو كان أبو عبيدة بن الجراح فقال له رجل : يا أمير المؤمنين فأين أنت من عبد الله بن عمر فقال : قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا أستخلف رجلاً ليس يحسن يطلق امرأته ؟؟

قلت : أما أبو عبيدة عامر بن الجراح فقد صحَّ عن رسول الله ﷺ انه لما قدم عليه أهل اليمن وسألوه أن يبعث معهم رجلاً يعلمهم السنة والاسلام أخذ بيد أبى عبيدة بن الجراح وقال : هذا أمين هذه الأمة . وعن أنس بن مالك ان النبي ﷺ قال : الا أن لكل

أمة أميناً وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وفي حديث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح . وقيل إن عمر قال : جلسائه مرة : تمنوا . فتمنى كل واحد بما حضره فقال عمر : لكنني أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح . وعن شهر بن حوشب أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح فاستخلفته فسألني عنه ربي لقلت : سمعت نبيك يقول : هو أمين هذه الأمة . وعن ثابت بن حجاج أنه قال . لاستخلفته وما شاورت فإن سئلت قلت : استخلفت أمين الله وأمين رسوله . وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد : في ترجمة أبي عبيدة بن الجراح : إن عمر بن الخطاب أرسل اليه بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار : وقال للرسول : أنظر ما يصنع . قال فقسمها أبو عبيدة . قال ثم أرسل إلى معاذ بن جبل بمثلها وقال للرسول مثلاً قال فقسمها معاذ الا شيئاً قالت امرأته نحتاج اليه . فلما أخبر الرسول عمر قال : الحمد لله الذي جعل في الاسلام من يصنع هذا .

وكانت وفاة أبي عبيدة رحمه الله في طاعون عمواس في خلافة عمر سنة ١٨ وكان أمير الجيش الذي فتح الشام ودفن في غور ييسان المنسوب اليه ، وبلغ من بره بأهله أنه قال : وددت اني كبش فذبحنى أهلى فأكلوا لحى وحسوا مرقى

وهو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر أوى من قریش ، ورؤى عنه رضى الله عنه أنه قال وهو أمير على الشام : يا أيها الناس انى امرؤ من قریش وما منكم من أحد أحر ولا اسود يفضلى بتقوى الا وددت انى فى مسلاخه (١) .

وأما سالم مولى أبي حذيفة فعلى احدى الروايات هو ابن عتبة بن ربيعة ، وعلى رواية أخرى سالم بن معقل من أهل اصطخر كان مولى ثُبَيْتَةَ بنت يعار الانصارية ، وهو يذكر فى الانصار لعتق ثبیتة اياه ، ويذكر فى المهاجرين لكونه مولى أبي حذيفة زوجها الذى تبنّاه ورباه حتى صار يقال له سالم بن أبي حذيفة . وعن مالك بن الحارث كما ورد فى الطبقات ان زيد بن حارثة كان معروفاً بنسبه ، وأما سالم مولى أبي حذيفة فلم يكن يعرف نسبه ، فكان يقال سالم من الصالحين . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد آخى بينه وبين أبي

(١) يريد أن يكون فى جلده أى يريد أن يكون ذلك الرجل .

عبيدة بن الجراح

ومرادى بهذا الذى نقلته فى عرض البحث عن حقيقة الخلافة وفى عرض الكلام عن عمر بن الخطاب وعن أبى عبيدة وعن سالم مولى أبى حذيفة رضى الله عنهم انه ليس من أمة على وجه الارض بلغت بها الديموقراطية ما بلغته فى الاسلام، فأنت ترى ان الامام عمر الذى يقول الرسول فيه : « لو كان نبىً بعدى لكان عمر » قد رشح خلافته على المساميين مولى أصله اعجمى وقيل ان نسبه الاصلى غير معروف وهو سالم مولى أبى حذيفة . وأنت ترى ان أمين الامة أبا عبيدة بن الجراح يقول انه قرشى لكنه يتمنى أن يكون فى جلد زنجى اذا كان هذا يفضل فى التقوى . وقد جاء فى الأثر انه لما قدم المهاجرون الأولون من مكة الى المدينة نزلوا بالعصبة الى جنب قباء فأمرهم سالم مولى أبى حذيفة لأنه كان أكثرهم قرآنًا ، وكان بينهم يومئذ مثل عمر بن الخطاب وأبو سامة بن عبد الأسد . فقد ثبت من هنا انهم لم يكونوا يعملون الا بآية (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وان التقوى هى المزية الأولى فى الاسلام لا يعد لها حسب ولا نسب . ومن أقوال عمر المشهورة : والله لو جاءت الاعاجم بالاعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة فلا ينظر رجل الى القرابة وليعمل لما عند الله فمن قصر به عمله لا يسرع به نسبه

ولعمري ان الذين يجزمون بأن الخلافة لا بد أن تكون فى قریش ويذهبون الى أن كل خلافة ادعاها غير قرشى فهى غير صحيحة ، مهما كان من فضله ، وكفايته قد يجدون فى قول عمر (لو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لوليته أو لاستخلفته) مالا ينطبق عليه جزمهم وما يجعلهم يتفكرون

ثم نعود الى حديث الشورى فنقول ان عمر أوصى عثمان بأنه ان ولى هذا الامر لا يحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس ، وأوصى علياً بأنه ان ولى هذا الامر لا يحمل بنى هاشم على رقاب الناس ثم قال للسته : قوموا فتنشاوروا فامروا أحدكم . قال عبد الله بن عمر : فقاموا يتشاورون ، فدعانى عثمان مرة أو مرتين ليدخلنى فى الامر ولا والله ما أحب انى كنت فيه علماً انه سيكون فى أمرهم ما قال أبى والله لقلماً رأيته يحرك شفتيه بشئ الا كان

حقاً^(١)، فلما أكثر عثمان على قتلى : ألا تعقلون أن تؤمروا وأمير المؤمنين حي . فوالله لكأنما أيقظت عمر من مرقد . فقال عمر : امهلوا فان حدث بي حدث فليصل بكم صهيب ثلاث ليال ثم أجمعوا أمركم فن تأمر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه

ولما طعن أبو لؤلؤة عمر ثلاث طعنات وطعن من يليه قال عمر : أدركوا الكلب فقد قتلني . فادركوه فاتتحر أبو لؤلؤة بخنجره الذي طعن به الامام ثم أدرك عمر النصف فقال : قولوا لعبد الرحمن بن عوف ليصل بالناس . فاحتمل الناس عمر الى بيته وفيهم عبد الله بن عباس قال ابن عباس : فلم أزل عند عمر ولم يزل في غشية واحدة حتى أسفر الصبح فلما أسفر أفاق فنظر في وجوهنا فقال : أصلى الناس ؟ فقلت : نعم . فقال : لا اسلام لمن ترك الصلاة . ثم دعا بوضوء فتوضأ ثم صلى ثم قال : أخرج يا عبد الله بن عباس فسل من قتلني ؟ فخرجت حتى فتحت باب الدار فاذا الناس مجتمعون جاهلون بخبر عمر . فقلت : من طعن أمير المؤمنين ؟ فقالوا : طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة . فدخلت فاذا عمر يثد في النظر يستأني خبر ما بعثني اليه فقلت : أرسلني أمير المؤمنين لاسأل من قتله فكلمت الناس فرغموا انه طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ثم طعن معه رهطاً ثم قتل نفسه . فقال عمر : الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط ما كانت العرب لتقتلني

ويقال ان عمر لما طعنه أبو لؤلؤة أول طعنة ظن كلباً قد عقره ولم يعلم أن رجلاً طعنه الا عند الطعنة الثالثة . وكان أبو لؤلؤة من سبي نهاوند أي فارسياً وكان اذا جاء السبي الى المدينة نظر الى الصغار منهم وجعل يمسح رؤوسهم ويبكي ويقول : ان العرب أكلت كبدي . فظاهر أنه ما حله على قتل عمر الا حب الانتقام من العرب الذين كانوا هزموا العجم لا سيما في واقعة نهاوند وأزالوا ملك الأكاسرة وكان كل ذلك في زمان عمر . فهي احنة في صدر فارسي عن زوال ملك قومه وسبي من سبي منهم واستدلال العرب اياهم فتشقى

(١) قلت ومما تحقق من كلامه رضي الله عنه ان أفراب عثمان رضي الله عنه عثوا في أيامه فكانت تلك الفتنة التي أدت الى قتله والى ما عقب ذلك من الفتن والمصائب التي وقعت بسير الاسلام الى الامام ، ولم تزل تفعل في هذه الأمة فعلها الى اليوم

منها بقتل أمير العرب الذين أذلوا قومه . وكان عمر لما دخل عليه أمراء العجم أسرى وفيهم الهرمزان قد قال لهم : الحمد لله الذى أعز الاسلام وخذلكم . فيظهر أنها بقيت هذه الكلمة تعمل فى قلوبهم . وكان عمر لا يأذن لسي قد احتلم فى دخول المدينة حتى كتب اليه المغيرة ابن شعبة وهو على الكوفة يذكر له غلاما عنده صنعا ويستأذنه أن يدخله المدينة ويقول ان عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس انه حداد نقاش نجار فأذن له عمر فى إرساله الى المدينة وضرب عليه المغيرة مائة درهم كل شهر فجاء الى عمر يشكى اليه شدة الخراج فقال له عمر : ما ذا تحسن من العمل فذكر له الاعمال التى يحسن فقال له عمر : ما خراجك بكثير فى كنه عمالك فانصرف ساخطاً يتذمر فلبث عمر ليالى ثم مر به العبد فدعاه فقال له ألم أحدث أنك تقول لو أشاء لصنعت رحى تطحن بالريح ؟ فالتفت العبد ساخطاً عابساً الى عمر ومع عمر رهط فقال : لاصنعن لك رحى يتحدث بها الناس . فاما ولى العبد أقبل عمر على الرهط الذين معه فقال لهم : أوعدنى العبد آنفا . فلبث ليالى ثم اشتمل أبو لؤلؤة على خنجر ذى رأسين نصابه فى وسطه فكمن فى زاوية من زوايا المسجد فى غلس السحر فلم يزل هناك حتى خرج عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر فاما دنا منه عمر وثب عليه فطعنه ثلاث طعنات احداهن تحت السرة خرقت الصفاق وهى التى قتلت ثم انحاز أيضاً على أهل المسجد فطعن من يليه حتى طعن سوى عمر أحد عشر رجلاً ثم انتحرب بخنجره . وعن عمرو بن ميمون قال : شهدت عمر حين طعن ، أتاه أبو لؤلؤة وهو يسوى الصفوف فطعنه وطعن اثنى عشر معه هو ثالث عشر فأنا رأيت عمر باسطاً يده وهو يقول : أدركوا الكلب فقد قتلتى فاج الناس وأتاه رجل من ورائه فأخذه ومات ستة أو سبعة ممن طعنهم فحمل عمر الى منزله فأتاه الطبيب فسقاه نبذاً فخرج من احدى طعناته فسقاه لبناً فخرج فقال له الطبيب : أوص بما كنت موصياً فوالله ما أراك تسمى . وفى رواية أبى الحويرث أن أبا لؤلؤة عندما قال له عمر : لا تجعل لنا رحى ؟ أجابه : بل أجعل لك رحى يتحدث بها أهل الأمصار . ففزع عمر من كلمته وكان على بن أبى طالب معه فقال له عمر : ما تراه أراد ؟ فقال : أوعدك يا أمير المؤمنين . قال عمر : يكفيناه الله قد ظننت أنه يريد بكلمته غوراً .

وقالوا انه لما طعن عمر اجتمع اليه البديرون المهاجرون والأنصار فقال لابن عباس :

أخرج اليهم فسلمهم عن ملاء منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني . فخرج ابن عباس فسألهم فقال القوم : لا والله لوددنا أن الله زاد في عمرك من أعمارنا . ولما طعن عمر كان كلامه : وكان أمر الله قدراً مقدوراً وقال : ألم أقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج أحداً فغلبتموني . ولم يترك عمر صلاة الفجر بعد أن طعن وصلى وجرحه يشع دماً ، وقال عند ذلك : لاحظ في الاسلام لمن ترك الصلاة . ولما أيقن عمر بالموت وارتج البيت بكاء قال : والله لو أن لي ما على الأرض من شيء لافتديت به من هول المطلاع . فقال ابن عباس : والله اني لأرجو أن لا تراها الا مقدار ما قال الله « وان منكم الا واردها » ان كنت ما علمنا لأمر المؤمنين وأمين المؤمنين وسيد المؤمنين تقضى بكتاب الله وتقسم بالسوية فأعجبه قوله واستوى جالساً وقال : أتشهد لي بهذا يا ابن عباس ؟ قال نعم . وفي رواية أخرى أنه لما شرب عمر اللبن وخرج من جرحه بكى وأبكى من حوله فقال : هذا حين لو أن لي ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلاع . قالوا : وما أبكك الا هذا ؟ قال : ما أبكاني غيره فقال له ابن عباس : يا أمير المؤمنين والله ان كان اسلامك لنصراً وان كانت امامتك لفتحاً والله لقد ملأت امارتك الأرض عدلاً ما من اثنين يختصمان اليك الا انتهيا الى قولك . فقال عمر : أجلسوني فلما جلس قال لابن عباس : أعد علي كلامك . فلما أعاد عليه قال : أتشهد لي بذلك عند الله يوم تلقاه ؟ قال ابن عباس : نعم ففرح عمر بذلك وأعجبه . وحق عمر أن يفرح بشهادة مثل عبد الله بن عباس

وروى عن عبد الرحمن بن أبي بكر أنه قال حين طعن عمر : مررت على أبي لؤلؤة ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى فلما بغتتهم ثاروا فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه وسطه فانظروا ما الخنجر الذي قتل به عمر ؟ فوجدوه الخنجر الذي نعته عبد الرحمن بن أبي بكر فانطلق عبيد الله بن عمر حين سمع ذلك من عبد الرحمن ومعه السيف فأتى لهرمزان فقال له امض معي حتى ننظر الى فرس لي فلما مضى بين يديه علاه بالسيف قال عبيد الله بن عمر : فلما وجد حر السيف قال لا اله الا الله . وأما جفينة ، فكان من نصارى الحيرة وكان ظئراً لسعد بن أبي وقاص ، وكان يعلم الكتاب بالمدينة فجاء عبيد الله بن عمر وقتله أيضاً ، ولما علاه بالسيف صلب بين عينيه ثم انطلق فوجد ابنة صغيرة لأبي لؤلؤة تدعى

الاسلام فقتلها فاجتمع عليه المهاجرون والأنصار ونهوه وتوعده فازداد غضباً وعرض
بعض المهاجرين فلم يزل عمرو بن العاص به حتى أخذ منه السيف . ثم أقبل سعد بن أبي
وقاص فتشاجر هو وعبيد الله وتناصيا حتى حجزوا بينهما . ثم أقبل عثمان بن عفان قبل
أن يبيع فتناصيا أيضاً فحجز الناس بينهما . وأظلمت الأرض على الناس ذلك اليوم . ثم
بويع عثمان بالخلافة فدعا المهاجرين والأنصار فقال : أشيروا عليّ في قتل هذا الرجل الذي
فتق في الدين ما فتق . فاجتمع المهاجرون على كلمة واحدة يشايعون عثمان على قتله ، وجلّ
الناس الأعظم مع عبيد الله يقولون عن الهرمزان وجفينة : أبعدهما الله ويقولون : أما كفى
قتل عمر فتريدون أن تتبعوا عمر ابنه . فكثر في ذلك اللغط والاختلاف الى أن جاء عمرو
ابن العاص الى عثمان فقال له : يا أمير المؤمنين ان هذا الأمر قد كان قبل أن يكون لك على
الناس سلطان فأعرض عنهم فسمع عثمان كلامه ووُدّرى الرجلان والجارية وأمسك
عثمان عن قتل عبيد الله بن عمر وتفرق الناس وكان عثمان يقول لعبيد الله بن عمر
وهو يناصيه : قاتلك الله قتلت رجلاً يصلي ^(١) وصبية صغيرة وآخر من ذمة رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما في الحق تركك ^(٢) . وقيل ان عثمان وسعداً كانا يومئذ أشد أصحاب
رسول الله على عبيد الله بن عمر وما كفّ عثمان عن قتله الا بما قاله له عمرو بن العاص .
وأما دفن عمر رضي الله عنه بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق
رضي الله عنه فان عمر استأذن عائشة في ذلك فأذنت له ، ثم دعا ابنه عبد الله بن
عمر فقال له : يا بُنَيَّ اني قد أرسلت الى عائشة أستأذنها أن أدفن مع أخوتي فأذنت لي وأنا
أخشى أن يكون ذلك لمكان السلطان فاذا مت فاعسلني وكفني ثم اجلني حتى تقف بي على
باب عائشة . فنقول هذا عمر يستأذن الخ فان أذنت فادفني معهما والا فادفني بالبقيع . قال
ابن عمر فلما مات أبي فحملناه حتى وقفنا به على باب عائشة فأذنت بدفنه بجانب رسول الله
وبجانب أبيها وكان قد دفن أبو بكر على مساواة منكب رسول الله ﷺ فدفن عمر على
مساواة حقويه . وكانت وفاة عمر عن ثلاث وستين سنة وقيل عن ٦٠ وقيل عن ٥٥ سنة

(١) يعني الهرمزان

(٢) يعني بالآخر جفينة النمراني

وقد طعنه أبو لؤلؤة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ وكانت مدة خلافته ١٠ سنوات وخمسة أشهر واحدى وعشرين ليلة — وأبو الفداء يقول عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام — من متوفى أبى بكر رضى الله عنهما

تولى الأمر عشر سنوات فلاءً بها الأرض فتوحات ونصب للإسلام بضعة عشر ألف منبر، فباليات شعري ماذا كان تم للإسلام من الظهور لو عاش في الامارة ٢٠ سنة أو ٣٠ سنة أو أكثر وقبل أن فاضت روح عمر بساعة قال لأبى طلحة الأنصارى : يا أبا طلحة كن في خسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى فانهم فيما أحسب سيجمعون في بيت أحدهم فقم على ذلك الباب بأصحابك فلا تترك أحداً يدخل عليهم ولا تتركهم يمضى اليوم الثالث حتى يؤمروا أحدهم اللهم أنت خليفتى عليهم . فادفن عمر حتى عمل أبو طلحة بما أوصاه به الى أن بويع عثمان بن عفان . وغسل عمر ثلاثاً بالماء والسدر وكان أوصى بأن لا يغسلوه بمسك وصلى على عمر في مسجد الرسول بين القبر والمنبر، وكان المصلى عليه صهيب ، قيل ان عمر أوصى بأن يصلى عليه صهيب فعملوا بوصيته . ولما صلى عليه جاء عبد الله بن سلام فقال : لئن سبقتموني بالصلاة عليه لا تسبقوني بالثناء عليه فقام عن سريره وقال : نعم أخو الاسلام كنت يا عمر جواداً بالحق بخيلاً بالباطل ترضى حين الرضى وتغضب حين الغضب ، عفيف الطرف ، طيب الظرف ، لم تكن مدحاً ولا مقتاباً ، ثم جلس . وأورد محمد بن سعد في الطبقات حديثاً عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ساقه من ثلاثة عشر طريقاً بأسانيد مختلفة مع اختلاف قليل في لفظ الحديث وهو : أتى على وعمر مسجى فقال : ما على وجه الأرض رجل أحب الى من أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى . وقال عبد الرحمن بن غنم يوم مات عمر : اليوم أصبح الاسلام مولياً ما رجل بأرض فلاة يطلبه العدو فأتاه آت فقال له : خذ حذرَكَ بأشد فراراً من الاسلام اليوم . وعن زيد بن وهب : أتينا عبد الله بن مسعود فذكرنا عمر فبكى حتى ابتل الحصى من دموعه وقال : ان عمر كان حصناً حصيناً للإسلام يدخلون فيه ولا يخرجون منه فلما مات عمر ائتم الحصن فانسأ يخرجون من الاسلام . ومما قال ابن مسعود : لو أعلم عمر يحب مملأً لأحييته والله انى أحسب العضاء قد وجله فقد عمر . وبكى سعيد بن زيد يوم مات عمر

وقال : اليوم يهى أمر الاسلام . وفي رواية قال : على الاسلام أبكى ان موت عمر نل الاسلام ثلثة لا ترتقى الى يوم القيامة . ولأبى عبيدة بن الجراح فى عمر بن الخطاب كلام قد صح كله قال : اذا مات عمر ررق الاسلام ما احب أن لى ما تطلع عليه الشمس أو تغرب وانى أبقى بعد عمر فقال قائل : ولم ؟ قال : سترون ما أقول ان بقيتم اما هو فانه ولى وال بعد عمر فاخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يطع له الناس بذلك ولم يحملوه وان ضعف عنهم قتالوه وعن الحسن بن على : أى أهل بيت لم يجدوا فقد عمر فهم أهل بيت سوء . وعن حذيفة : كان الاسلام فى زمن عمر كالرجل المقبل لا يزداد الا قريباً فلما قتل رحمه الله كان كالرجل المدبر لا يزداد الا بعداً . وقال أنس بن مالك نقلاً عن أبى طلحة وقد رأى أصحاب الشورى وما يصنعون : لأننا كنتم لأن تدافعوها أخوف منى أن تنافسوها فوالله ما من أهل بيت من المسلمين الا وقد دخل عليهم فى موت عمر نقص فى دينهم وفى دنياهم وقيل فى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذا الرثاء :

جزى الله خيراً من أمير وباركت يد الله فى ذاك الأديم الممزق
فمن يسع أو يركب جناحي نعمة ليذكر ما قدمت بالامس يسبق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها بوائق فى أكامها لم تفتق
ولم يعرف قائل هذه الايات . وقيل انها سمعت فى موسم الحج قبل وفاة عمر . وعلى كل حال فهى من الشعر الذى يصح أن يوصف بقوله :

وان أحسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا

فانه قلما وجد امام أجدر بسلام الله من هذا الامام . وانه مهما جد الخلفاء والملوك العادلون فلم يدركوا شأوه . أما البوائق التى أشار اليها صاحب الايات الثلاثة فقد بدأ ظهورها فى زمن عثمان رضى الله عنه بسبب أقاربه بنى أبى معيط وتفتقت فى حرب الجمل وحرب صفين ، وغير ذلك من الفتن التى عقلت الاسلام عن التقدم فى الارض بعد أن كاد يغلب عليها .

وعمر بن الخطاب هو أول من سمي بأمير المؤمنين ، وهو أول من كتب التاريخ فى شهر ربيع الاول سنة ست عشرة كتبه من هجرة النبى ﷺ من مكة الى المدينة وهو أول من جمع القرآن فى المصحف وهو أول من سن قيام شهر رمضان ، وجمع الناس على

ذلك وكتب الى الآفاق في شهر رمضان سنة أربع عشرة وجعل للناس بالمدينة قارئين قارئاً يصلي بالرجال وقارئاً يصلي بالنساء . وهو أول من ضرب في الخمر ثمانين جلدة واشتد على أهل الريب والنهم ، وأحرق بيت رويشيد الثقيف وكان حانوتاً ، وغرب ربيعة بن أمية بن خلف الى خيبر وكان صاحب شراب فلحق ربيعة بأرض الروم وارتد . وكان عمر أول من عس في عمله بالمدينة وكان له عصا اسمها الدرة يؤدب بها ولقد قيل بعده : لدره عمر أهيب من سيفكم . وهو أول من فتح الفتوح وهي الأرضون والكور التي فيها الخراج والني فتح العرق كله السواد والجبال واذر ييجان وكور البصرة وأرضها وكور الأهواز وفارس وكور الشام ما خلا أجنادين فانها فتحت في خلافة أبي بكر الصديق ، وفتح عمر كور الجزيرة والموصل ومصر والاسكندرية وقتل رحمه الله وخيله على الرى بفارس وقد فتحوا عامتها . وهو أول من مسح السواد وأرض الجبل ووضع الخراج على الأرضين والجزية على جاجم أهل الذمة ، فوضع على الغني ٤٨ درهماً وعلى الوسط ٢٤ وعلى الفقير ١٢ درهماً وبلغ خراج السواد والجبل في عهده ١٢٠ مليوناً . وهو أول من مصر الأمصار الكوفة والبصرة والجزيرة والشام ومصر والموصل وأنزلها العرب . وهو أول من استقصى القضاة في الأمصار وهو أول من دوت الديوان وكتب الناس على قبائلهم وفرض لهم الأعطية من الني وقسم القسوم في الناس وفرض لأهل بدر وفضلهم على غيرهم ، وفرض للمسلمين على أقدارهم وتقدمهم في الاسلام . وبدأ بالأقرب للأقرب لرسول الله ﷺ بنى هاشم ثم بنى تيم ثم بنى عدى . فجاء بنو عدى رهط عمر فقالوا أنت خليفة رسول الله فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم قال : بخ بخ بنى عدى أردتم الأكل على ظهري لأن أذهب حسناتي لكم لا والله حتى تأتاكم الدعوة ولو أن تكتبوا آخر الناس والله ما أدركنا الفضل في الدنيا ولا ما نرجو من الآخرة الا بمحمد ﷺ فهو شرفنا وقومه أشرف العرب ثم الأقرب فالأقرب ، وكان القوم اذا استووا في القرابة برسول الله ﷺ قدم عمر أهل السابقة وكان أبو بكر قد سوّى بين الناس في القسم فقبل لعمر في ذلك فقال لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ مكن قاتل معه . فبدأ بمن شهد بدرأ من المهاجرين والأنصار وفرض لمن كان له اسلام كاسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ، ومن شهد أحداً فرضاً واحداً وكان عمر أول من حمل الطعام في السفن من مصر الى الحجاز وكان يخاف على المسلمين

في بادئ الأمر من ركوب البحر فنهاهم عنه اشفاقا عليهم ولكنهم ركبوه فيما بعد عند اتساع الفتوحات وكان اذا بعث عاملا على مدينة كتب ماله واذا عزل عاملا قاسمه ماله وجعل ذلك القسم في بيت المال ومن هؤلاء الذين قاسمهم ماله سعد بن أبي وقاص وأبو هريرة. وكان يستعمل مثل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة ويدع من هو أفضل منهم مثل عثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف وذلك لاشراف عمر على أولئك وهيتهم له وقيل له : مالك لاتولى الأكابر من أصحاب رسول الله عليه السلام فقال : أكره أن ادنسهم بالعمل . واتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه يعين به المنقطع والضيف ينزل بعمر . ووضع في السبيل بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويحمل من ماء الى ماء . وزاد عمر في مسجد رسول الله ﷺ ووسعه لما كثر الناس بالمدينة ووضع نصب عينه أن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان فأجلى اليهود منها الى الشام ، وأخرج نصارى نجران وأزلهم ناحية الكوفة وأعطاهم بدل أملاكهم في نجران . وخرج الى الشام سنة ست عشرة وقسم الغنائم للجالية وحضر فتح بيت المقدس ، وأبقى كل شيء هناك على حاله وأمتع المسيحيين واليهود بحريتهم الدينية ، وأبى أن يصلى في كنيسة القيامة عندما أدرسته الصلاة مع أن البطريك دعاه لذلك بل خرج من الكنيسة وصلى في مكان آخر حتى لا يأتى المسلمون من بعده فيقولوا هنا صلى عمر فآخذوا الكنيسة من أيدي النصارى . وحج عمر بالناس عشرين سنة . ولم يكن عمر يريد اشتغال المسلمين في الزراعة ولم يكن ذلك منه اهمالاً لهذه بل كان أول من يقدرها قدرها ولكنه لم يشأ أن يشغلهم في ذلك الوقت عن الفتوحات ، وكان يعلم أنهم لو اشتغلوا بالزراعة لأحبوا أراضيهم ففترت همهم وتخلفوا عن الجهاد وهو يعلم أنه اذا اتسعت الفتوح وضرب الاسلام بجمرانه في المشارق والمغرب أمكن المسلمين فيما بعد أن يتعاطوا الفلاحة ويحسنوها . وكان عمر يقول عن الامارة انها أمر لا يصلح الا بالشدّة التي لا تجبريّة فيها وباللين الذي لا وهن فيه . وكانت هبة عمر في صدور الناس فوق تصور العقل لما كانوا يعملون من أنه لا يرعى في الحق خليلاً . واجتمع مرة على ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وقالوا لعبد الرحمن بن عوف وكان أجراً الصحابة على عمر . يا عبد الرحمن لو كلمت أمير المؤمنين فانه يأتى الرجل طالب الحاجة فتمنعه هيئته أن يكلمه في

حاجة حتى يرجع ولم يقض حاجته . فدخل عليه فكلمه فقال : يا أمير المؤمنين إن للناس فانه يقدم القادم فتمنعه هيبتك أن يكلمك في حاجته حتى يرجع ولم يكلمك قال : يا عبد الرحمن أنشدك الله أعلى وعثمان وطلحة والزبير وسعد أمروك بهذا قال اللهم نعم قال : يا عبد الرحمن والله لقد لنت لهم حتى خشيت الله في الدين ثم اشتددت عليهم حتى خشيت الله في الشدة . وكان رحمه الله من أشد خلق الله تواضعاً وأخشعهم لله قيل انه رقى المنبر ذات يوم فحمد الله ثم قال أيها الناس لقد رأيته ومالي من اكال يأكله الناس الا أن لي خالات من بنى مخزوم فكنت أستعذب لهن الماء فيقبضن لي القبضات من الزبيب . ثم نزل من على المنبر فقيل له ما أردت بهذا يا أمير المؤمنين فقال : اني وجدت بنفسى شيئاً فأردت أن أطأطي منها . وكان مرة ماراً بضحيان فقال لأصحابه لا اله الا الله المعطى ماشاء من شاء كنت أرى ابل الخطاب في هذا الوادي في مدرعة صوف وكان فظاً يرعبنى اذا عملت ويضربني اذا قصرت وقد أصبحت وليس بيني وبين الله أحد . وقال مرة أحب الناس الى من رفع الى عيوني . ورأى الهرمزان عمر نائماً في المسجد فقال هذا والله الملك الهني .

هذه نبذة من سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أكثرها متواتر أجمعت عليه الرواة وان وقع اختلاف في بعض الروايات من جهة اللفظ فلم يقع من جهة المعنى بحيث لا يخامر الانسان شك في أن سيرة عمر كانت هي هذه كما وصفها الناس بالتواتر خلفاً عن سلف ، ولولم تكن هذه سيرته حقاً لما كانت هيبة الاسلام بلغت تلك الدرجة التي بلغت في أيامه ولولم يكن عمر ذلك الأمير العادل الذي لاتأخذه في الحق لومة لائم لما كان العدل العمري مثلاً سائراً بين الناس الى يوم الناس هذا . ولقد أردنا بنقل هذه الشواهد من سيرته رحمه الله تعريف حقيقة الخلافة في الاسلام واثبات أنها ليست في شيء من الملك العضوض الذي جد بعد الخلفاء الراشدين والذي عليه ملوك الأعاجم فسيرة عمر هي مثال بارز يأخذ منه القارئ صورة حقيقية عن كيفية الاسلام في زمان الخلفاء الراشدين وعن روح الامارة التي أمرهم بها الشارع ﷺ فكانوا كما تمشوا عليها أفلحوا وسادوا وكلما انصرفوا عنها وهنوا وفشلوا (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقْوِمُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

الفصل الاول من الكتاب

في اليقظة الاسلامية

فى القرن الثامن عشر كان العالم الاسلامى قد بلغ من التضعف أعظم مبلغ ، ومن التدنى والانحطاط أعمق دركة ، فارتد جوه وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجا من أرجائه وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربى ، واستغرقت الأمم الاسلامية فى انبعاث الاهواء والشهوات ، وماتت الفضيلة فى الناس ، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الاسلامية الى مطايا استبداد وفوضى واغتياث ، فليس يرى فى العالم الاسلامى ذلك العهد سوى المستبدى العاشمى كسلطان تركية وأواخر ملوك المغول فى الهند ، يحكمون حكماً واهناً فاشى القوة متلاشى الصبغة ، وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التى هم فى حكمها وينشئون حكومات مستقلة ولكن مستبدة كحكومة الدولة التى خرجوا عليها ، فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون اخضاع من فى حكمهم من الزعماء هنا وهناك ، فكثرت السلب والنهب ، وفقد الأمن ، وصارت السماء تمطر ظلاماً وجوراً ، وجاء فوق جمیع ذلك رجال الدين المستبدون يزدون الرعايا ارهاقاً فوق ارهاق ، فغلت الأيدي ، وقعدت عن طلب الرزق ، وكادت العزم يتلاشى فى نفوس المسلمين ، وبارت التجارة بواراً شديداً ، وأهملت الزراعة بما اهمال .

وأما الدين فقد غشيت غاشية سوداء ، فالبتت الوحداية التى علمها صاحب الرسالة الناس سجعاً من الخرافات وقشور الصوفية ، وخلت المساجد من أبواب الصلوات وكثر عديد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان الى مكان يحملون فى أعناقهم التائم والتعاويد والسهجات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم فى الطمع الى قبور الأولياء ، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يشرب الخمر والأفيون فى كل مكان ، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استهياء . ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرها

من سائر مدن الاسلام ؛ فصار الحج المقدس الذي فرضه النبي على من استطاعه ضرباً من المستهزآت ؛ وعلى الجلمة فقد بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطاً بعيد القرار ؛ فلو عاد صاحب الرسالة الى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يدهي الاسلام ؛ لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين ؛ كما يلعن المرتدون وعبداء الأوثان ^(١)

وفيما العالم الاسلامي مستغرق في هجعتة ومدلج في ظلمته ؛ اذا بصوت قد يدوى من قلب صحراء شبه الجزيرة ؛ مهد الاسلام ؛ يوقظ المؤمنين ويدعوهم الى اصلاح والرجوع الى سواء السبيل والصرط المستقيم ؛ فكان الصارخ هذا الصوت انما هو المصلح المشهور محمد بن عبد الوهاب الذي أشعل نار الوهابية فاشتعلت واتقدت ؛ واندلعت ألسنتها الى كل زاوية من زوايا العالم الاسلامي . ثم أخذ هذا الداعي يحض المسلمين على اصلاح النفوس واستعادة المجد الاسلامي القديم والعز التليد ؛ فتبدت تباشير صبح اصلاح ثم بدأت اليقظة الكبرى في عالم الاسلام .

ولد محمد بن عبد الوهاب في نجد الواقعة في قلب الصحراء العربية ؛ حوالي سنة ١٧٠٠ م وكانت نجد في ذلك العصر ، على انحطاط العالم الاسلامي وتدليه ؛ أنقى البلدان اسلاماً وأطهر الأقطار ديناً . وقد عرفنا فيما أسلفنا من الكلام كيف كانت تنتقل الخلافة من دور الشورى الى دور الاستبداد الشرقي وكيف أخذ على أثر ذلك العرب الأحرار أباة الضيم يعودون أدراجهم الى الصحراء حيث امتنعوا بحريتهم في حرز بلادهم وموطنهم ؛ وصدوا عنهم كل حامل عليهم . فلا خليفة ولا سلطان غرر بنفسه يوماً لاختراق تلك الصحاري الرملية المحرقة والتوغل في فيافيها المهلكة حيث الموت الكريه كامن على الدوام لكل طامع غريب دخيل . فالعرب هناك لم يعرفوا قط حاكماً عليهم ؛ بل دأبهم دوماً الحل والترحال وارتياح المنتجعات في مختلف الواحات في قلب الصحراء . وفي هذا الحصن المنيع

(١) لو أن فيلسوفاً قديماً من فلاسفة الاسلام ، أو مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية ، أراد تشخيص حالته في هذه القرون الأخيرة ما أمكنه أن يصيب الخبز وأن يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الأميركي ستودارد . (ش)

استطاع العرب منذ القديم الاحتفاظ بفضائلهم الدينية لا تشوبها شائبة ؛ ورابطتهم السياسية لا تنفخ في بياضها ريح . أما البدو الرحل فالزعامة فيهم لشيخوهم الذين يتولون القيام على أحكامهم وتدير شؤونهم . وأما الحضرة الواحات فالزعامة فيهم على الغالب لشيخ الأسر العليا منزلةً ومكانةً ؛ بيد أن مبلغ ما في أيدي هؤلاء الشيوخ من السلطة المطاعة حق الطاعة إنما هي سلطة صورية واهنة ؛ لا تقوى على الدوام على الوقوف في وجه تيار العادات القومية والعرف . وجل ما استطاع الترك اخضاعه من بلاد العرب هو أنهم بسطوا شيئاً من سلطانهم على الأماكن المقدسة الحجازية وساحل البحر الأحمر . أما نجد ؛ البلاد الداخلية ؛ فقد ظلت حرة مستقلة . وما برح عرب الصحراء فيها يغالون في الاحتفاظ بما يتحدر اليهم من آباءهم وأجدادهم من فضائل الدين ووحدة السياسة وعروة الجامعة ؛ فلذلك ما انفكوا قط ينعون على العالم الاسلامي سقوطه فيما نهت الرسالة عنه وهم يزيدون استمساكاً بالاسلام على أصله وجوهره ولبابه ؛ وذلك حقاً مما يلائم طبائعهم ويتفق مع أمزجتهم .

هكذا كانت حالة نجد لما ولد فيها ابن عبد الوهاب . واذ كان منذ أول شأنه شديد الميل الى الاطلاع والتفقه في الدين ، لسرعان ما اشتهر ذكره وذاع اسمه ، فعرف بعلم وافر قواماً على التقوى . فخرج الى مكة في أوائل عمره وطلب العلم في المدينة المنورة ، وساح الى كثير من البلاد المجاورة حتى فارس ثم عاد الى نجد مشتتلاً غضباً دينياً لما رآه بأمر عينه من سوء حالة الاسلام ، فصحت عزيمته على القيام بدعوة الاصلاح . ففضى سنين عديدة راحلاً من بلاد الى بلاد في شبه الجزيرة ، فبشر بالدعوة ، موقظاً النفوس ، حتى استطاع بعد جهاد طويل أن يجعل محمداً بن السعود ، وهو أكبر أمراء نجد وأعلى زعمائها كعباً وشأناً يقبل الدعوة ويدخل فيها ، فاكسب ابن عبد الوهاب بذلك مكانة أدبية عالية ومنزلة اجتماعية رفيعة وقوة حربية لا يستهان بها ، فاستفاد من ذلك استفادة جليلة قد مكنته من بلوغ غايته وادراك غرضه . فتكونت على التوالي وحدة دينية سياسية في جميع الصحراء العربية شبيهة بتلك الوحدة التي أنشأها صاحب الرسالة ، وفي الواقع فإن المنهج الذي نهجه ابن عبد الوهاب ليشبه شياً كبيراً ذاك الذي نهجه الخلفاء الراشدون كأبي بكر وعمر . ولما مات سنة ١٧٨٧ خلفه ابن السعود فكان خير خليفة للمصلح الاسلامي الكبير ، واقتفى الوهابيون آثار خلافة الراشدين ، وعلى ما كان في يد ابن السعود من القوى الحربية

العظيمة ، فان ذلك ما كان ليصرفه عن أن يكون على الدوام نازلاً على رأى الجماعة وشوراها ، فلم يمتن حرية أتباعه وبنى قومه ، وكانت حكومته على عنفها مكينة عادلة فانقطع التعدى وأمن الناس السرقات وانتشر الأمن وسادت الطمانينة والراحة . وعكف على العلم والتهديب ، فكان فى كل واحة مدرسة ، وفى كل قبيلة بدوية عدد من المعلمين

وبعد أن أخضع ابن السعود نجداً ، وتم له الأمر فى كاملها : أخذ يستعد ليقوم بعمل أكبر ألا وهو اخضاع جميع العالم الاسلامى . ونشر الاصلاح فيه . فجعل نصب عينه فى المقام الأول تحرير الأماكن المقدسة الحجازية . فكرر على الحجاز فى صدر القرن التاسع عشر بمقاتلته الشجعان المشتعلين غيرة « دينية » . وكان له ما أراد من الاستيلاء على الأماكن المقدسة ؛ فلم تستطع قوة الوقوف فى وجه الوهابيين وهم يحملون على الترك ، والترك فى نظرهم أهل الارتداد والجحود ؛ ومغتصبو الخلافة اغتصاباً ؛ وحقها أن تكون أبداً فى العرب . وبينما كان ابن السعود سنة ١٨١٤ يعد العدة لفتح سوريته وهيمته متينة ؛ كان يخيل الى العالم منه أن الوهابيين متدفقون على الشرق تدفقاً ؛ وصانعون ما شاء الله من الاصلاح فى الاسلام

غير أن ذلك ما قدر ليكون . فلما أيقن سلطان تركية أنه لا يستطيع القضاء على الوهابيين استصرخ بطلا من مشاهير الأبطال ، وهو محمد على ، واستكفاه أمر القضاء عليهم وكان هذا المقدام الالبانى سيد مصر وأميرها ، وواقفا حق الوقوف على قدرة أوربة وشدة بأسها وتفوقها ، فدعا اليه ضابطا من أهل الغرب فنظموا له جيشاً قويا ، ودر بوه تدريباً على الطراز الغربى ، وجهزوه بمعدات الاسلحة الغربية . وكان غالب هذا الجيش مؤلفاً من المقاتلة الألبانيين الاشداء ، فسرعان ما أجاب محمد على نداء السلطان فأيقن حينئذ أن الوهابيين على شدة غيرتهم الدينية وحاستهم لن يستطيعوا بعد الوقوف فى وجه البنادق والمدافع الأوروبية يطلق عيارها جنود مجربون . وماهى الامدة قصيرة حتى استردت الأماكن المقدسة الحجازية ، ورد الوهابيون على اعقابهم فانقلبوا الى الصحراء ، فاخفت الامبراطورية الوهابية الوليدة للحال اختفاء السراب ، وأرخت الستار على الدور السياسى

(١) الوهابي.

بيد أن خاتمة هذا الدور السياسي كانت فاتحة الدور الديني ، فقد ظلت نجد يؤرة تشتعل فيها نار الغيرة الدينية ، ومنبثق نور تنبعث منه الاشعة الوهاجة الى كل ناحية من نواحي الأرض ، وما فتئ الوهابيون منذ قضى على قوتهم السياسية يشنون روح الحركة الدينية في مئات الألوف من الحجاج الوافدين كل عام الى مكة والمدينة من كل قطر من أقطار العالم الاسلامي ، فيقتبس هؤلاء ناراً وهاية ثم يعودون الى أوطانهم يشعلون بها ما استطاعوا اشعاله في سبيل الاصلاح . وهكذا قد استطاع الوهابيون أن يبنروا بذوراً تلاها الاخمار الشديد للثورة الدينية في كل فج اسلامي ، حتى بلغت دعوتهم الدينية أقصى المعمور فقام في شمالي الهند الزعيم الوهابي المغالي السيد احمد (٢) مستنقراً مسلمي بنجاب وأنشأ دولة وهاية . فكان هذا الزعيم يعد عدته لفتح سائر شمالي الهند فحالت منيته بينه وبين ذلك ، واضمحلت الدولة الوهاية الهندية سنة ١٨٣٠ غير أنه لما جاء الانكليز يفتحون البلاد عانوا الأمرين من بقايا النار الوهاية الكامنة في الرماد ، وظلت هذه النار مخبوءة الى ما شاء الله فكانت عاملا من عوامل « الثورة الهندية » ، ثم استطار من شررها ما تناول أفغانستان وسائر القبائل الهندية عند الحدود الشمالية الغربية فأشعلها أيما اشعال . وفي تلك الغضون قام السيد محمد بن السنوسي في الجزائر وأتى مكة ورضع أفوايق الوهاية فيها ، ثم أخذ يجاهد في سبيل انشاء الطريقة الدينية المعروفة باسمه تمهيداً للجامعة الاسلامية . وفي ذلك الأوان أيضا نشأت الدعوة البابية (البهائية) في بلاد فارس ، وهذه الدعوة وإن كانت بتعاليمها بعيدة عن تعاليم الوهاية ، غير أنها بلا مشاحة حاملة روحاً كروح الوهاية كأنها منعكس لها . وخلال جيل تلا اتسعت الدعوة الوهاية بأفققها ومضطربها اتساعا كبيرا ، وتطورت تطورا عظيما حتى صارت تعرف باليقظة الاسلامية ، ثم اتسعت دعوة اليقظة الاسلامية بأفققها أيضا حتى تعددت متجهاها ومناحيها ، وأهم هذه المتجهات انما هي الدعوة الكبرى

(١) اقرأ ما يأتي في الدعوة الوهاية وحركتها :

الاسلام بالقرن التاسع عشر A Le Chatelier, l'Islam au XIXe siècle (Paris 1888)

معتقد الوهاية A. Chodzko "Le d'éisme des Wahabis" Journal Asiatique

(٢) هو غير « السر السيد احمد » من عليكرة المسلم الهندي الحر المعدود من رجال منتصف القرن التاسع عشر

المعروفة بالجامعة الاسلامية . وانا سنفرد قسماً مخصوصاً في غير موضع من هذا الكتاب للكلام على هذه الدعوة الكبرى نبين فيه سيرها وخطورتها السياسية ، مكتفين الآن بالكلام على سائر جهات اليقظة الاسلامية ومبلغ مكاتبتها الدينية والتهذيبية ^(١)

فالدعوة الوهابية انما هي دعوة اصلاحية خالصة بحتة. غرضها اصلاح الخرق ، ونسخ الشبهات ، وابطال الأوهام ، ونقض التفاسير المختلفة والتعاليق المتضاربة التي وضعها أربابها في عصور الاسلام الوسطى ، ودحض البدع وعبدادة الأولياء ، وعلى الجملة هي الرجوع الى الاسلام والأخذ به على أوله وأصله ، ولبابه وجوهره، أى انما الاستمسك بالوحدانية التي أوحى الله بها الى صاحب الرسالة ، صافية ساذجة ، والاهتداء بالقرآن المنزل مجرداً وأما ماسوى ذلك فباطل وليس في شئ من الاسلام . ويقتضى ذلك الاعتصام كل الاعتصام بأركان الدين وفروضه وقواعد الآداب ، كالصلاة والصوم وغير ذلك ، والكون على الساذجة التامة في أحوال المعيشة ، وتحريم اتخاذ الملابس الحريرية ، والتأثق في الأطعمة ، وشرب الخمر والقهوة ، والأفيون والتبغ ، وغير ذلك مما بعضه من أسباب السرف وبعضه الآخر من المضار المفسدة لسلامة العقل ، وليس هذا جميع ما في الأمر ، بل عد الوهابيون المباني الدينية المزخرقة من نواهي الاسلام . فهدموا قبة قبر الرسول في المدينة المنورة ، وخرّبوا ما آذن المساجد ، فهم على ايغالهم في الاعتصام بالفروض الدينية وقواعد الآداب ، كانوا على ضعف شديد في المدارك وبعد في التعصب . فلذلك كان من حسن حظ الاسلام أنهم باءوا بخسران سلطتهم السياسية ، فقصرّوا مساعيهم ودعوتهم على التعاليم الدينية الأدبية فحسب

وقام على أثر ذلك عدد من النقدة، اتخذوا الوهابية دليلاً لكلامهم وقالوا انما الاسلام بجوهره وطبائعه غير قابل للتكيف على حسب مقتضيات العصور وعماشة أحوال الترقى والتبدل ، وليس الفأ لتطورات الأزمنة وتغيرات الأيام ، بيد أن نقدهم هذا لفساد باطل ولا

(١) لا ينكر أن الوهابية هي نهضة في الاسلام عظيمة ممتدة في أكثر بلاد العرب وفي الهند والفائون بها أولو تعصب شديد ، وربما أفرطوا في مبادئهم وغلوا في عقائدهم شأن جميع المذاهب التي لا يقف أتباعها عند الحد الذي وضعه أصحابها . ولكن المقرر أنها حركة انابة الى العقيدة الحق وهدى السلف الصالح واقتضاء أثر الرسول (ص) والصحابه ، ونبد الخرافات والبدع ، وحظر الاستغاثه بغير الله ، ومنع التمسح بالقبور والتعبّد عند مقامات الأولياء ، ولذلك يسمونها عقيدة السلف، ويلقب الوهابيون أنفسهم سلفيين ، وأكثر اعتمادهم في الاجتهاد على الامام احمد بن حنبل ، والامام ابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية . (ش)

مسوغ له . اذ قد فاتهم أن الدور الأول لكل إصلاح ديني إنما هو الرجوع الى حالة أصل ذلك الدين المراد اصلاحه ، والاستمسك به على حاله الأولى استمسكاً لا يحتمل نقد نافذ ولا اتهام متهم . فالمصلح الديني لا يرى سبيلاً للقيام بالاصلاح وبلوغ الغاية ، الا بنسخ جميع البع والأوهام اللاصقة بالدين ، دون اعتبار صفاتها وماهيتها . ليعتبرن العاقل اللبيب أنه لما بدأ الاصلاح البروتستنتي عندنا إنما كان مبدؤه على هذه الطريقة ، فقد نبذ المتعصبة المتشددة من البروتستنت المعروفين « بالمتطهرين » المصلح الكبير « أراسيموس »^(١) واتهموه بالباطل ، وشددوا عليه النكير ، متعامين قائلين ان الحركة الاصلاحية إنما هي افتراء على الدين الصحيح ، ولا شأن لها سوى ابدالها « البابا » المعصوم بالتوراة المعصومة وأخذت اليقظة الاسلامية تنتشر انتشاراً مزداً ، ومبادئ التجدد والاصلاح الحقيقي تنمو نمواً مطرداً . وكان مما لاشك فيه وأمره طبيعي أن عادت الحرية العقلية الى الظهور شيئاً فشيئاً ، فلم يجهد المصلحون المسلمون في أوائل القرن التاسع عشر كثيراً حتى أدركوا المعتزلة ، فاستكشفوا دقائنها ونفخوها فيها نسمة روحية فصارت الى الحياة . وقد سبق لنا فأتينا على وصف النزاع الذي قام مستنداً بين أرباب مذهب النقل والسنة والتقليد من جانب وأرباب مذهب العقل أعني المعتزلة من جانب آخر في أوائل عهد الاسلام ، فكانت الغلبة لأتباع المذهب الأول ، فاخفت المعتزلة واحت آثارها احماء حتى عادت فظهرت اليوم الى الوجود بظهور المصلحين الأحرار ، الذين مافتنوا يؤيدون مذاهبهم وآراءهم الاصلاحية يبراهين أولئك الجهابذة السابقين من المعتزلة ، وبأحاديث وآيات من الكتاب . فمن ذلك استشهادهم على قبول الاصلاح في الاسلام بما هو مأثور عن صاحب الرسالة من قوله : « إنما أنا بشر ، اذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشئ من رأيي فأنما أنا بشر » . رواه مسلم بهذا اللفظ عن رافع بن خديج . وقوله أيضاً « انكم في زمان من ترك فيه عشر مأمور به هلك ، ثم يأتي زمان من عمل منهم عشر مأمور به نجا » رواه الترمذي عن أبي هريرة . وروى أحمد في مسنده عن أبي ذر مرفوعاً : « انكم في زمان علمائوه

(١) هو سيدريوس اراسيموس (١٤٦٧ - ١٥٣٦ م) أحد الابطال الثلاثة في الاصلاح الانكليزي على عهد آل تودور . وزميله يوحنا كوكف (١٤٦٦ - ١٥١٩ م) وتوما مور (١٤٧٨ - ١٥٣٦ م) - (المغرب)

كثير وخطباؤه قليل من ترك فيه عشر ما يعلم هوى - أو قال هلك - وسيأتى على الناس زمان يقل علماؤه ويكثر خطباؤه ، من تمسك فيه بعشر ما يعلم نجا ^(١) »

وقبل أن نشرع في الكلام على آراء هؤلاء المصلحين المسلمين وما قاموا به من الأعمال في سبيل الإصلاح ، يجدر بنا أن نبحت بحث المحص الخبير في نقود النقدة الغربيين ، القائلين ان الاسلام بطبائعه غير قابل للإصلاح ، وبماهيته غير مستعد لايلاف روح العصور المتقدمة بترقي الحضارة والعلوم ، اذ لم ينفرد الجدليون النصارى ^(٢) وحدهم في هذه النقود وما يدور حولها أخذاً ورداً بل شاركهم في ذلك غيرهم في أبناء الفرنجة كأتباع مذهب العقلية وفيهم « رينان » الفرنسي ^(٣) ونفر من أعظم الرجال الذين تقلدوا مناصب الأحكام العالية في العالم الاسلامي نظير اللورد كرومر ^(٤) واضرا به . أما هذا الأخير فقد أوجز رأيه بقوله : « الاسلام غير قابل للإصلاح ، أعنى ان الاسلام مجدداً مصلحا انما هو غيره حاضراً بل هو شئ آخر »

وعلى هذا فيجب علينا أن تدبر حق التدبر أقوال هؤلاء النقدة لوقوفهم أكثر من غيرهم على شؤون الاسلام ، ولأن منهم من عرف المسلمين في ديارهم عهداً طويلاً . على أنه بعد اقامة الوزن لهذا كله لا يتردد الباحث المقارن في تاريخ الأديان ، ولا سيما في آراء المصلحين المسلمين الحديثاء ، وما استطاعوا القيام به من الإصلاح من القرن الماضي ، أن يدحض جميع هذه التهمات ادحاضاً ، ويحججه أربابها بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة جبهة يجب ألا يغربن عن البال أن الاسلام في يومه هذا انما يجتاز دوراً كذلك الدور الذي قد اجتازته النصرانية في أوائل عهد الإصلاح في القرن الخامس عشر . فالدوران حقاً

(١) قلنا هذه الاحاديث بنصها الحرفي كما أرشدنا اليها حضرة الاستاذ العلامة السيد محمد رشيد رضا

(٢) اقرأ كتب القس المرسل س . م . زويمر Rev. S. M. Zwemer الآتية : —

« بلاد العرب أو مهد الاسلام » Arabia, The Cadle of Islam (Edinbourg' 1900)

« مفندات الاسلام » Reproach of Islam. (London 1915) و « العالم الاسلامي اليوم »

The Mohemmedan World of To-day وهي مجموعة محاضرات وخطب تليت في جمع المرسلين

البرتسنته المعقود في القاهرة سنة ١٩٠٦

(٣) كتاب « الاسلام والعلم » Renan, l'Islamisme et La Science (Paris 1883)

(٤) كتاب « مصر الحديثة » Cromer, Modern Egypt. Vol 2 (London 1908)

متشابهان من حيث سيادة عقيدة النقل والتقاليد على عقيدة العقل سيادة مطلقة ، ومن حيث العداء المنتشر للحرية الفكرية والعلوم الطبيعية الصحيحة ، لا ينكر أن الواقف على كتب الشريعة الاسلامية والتاريخ الاسلامى للألف الأخير ، يبدو له على الجلة أن الاسلام لم يتفق كل الاتفاق مع الحضارة الحديثة ، والتقدم العصرى ، ولكن نقول أفلم تكن النصرانية على مثل هذه الحالة عينها فى صدر القرن الخامس عشر ؟ فن يقارن بين الشريعتين الاسلامية والنصرانية من جميع وجوههما ، ير أن روح الأولى اليوم : وروح الأخرى بالأمس ، انما هي روح واحدة . فلننظر فى شئ من هذا ، وهو تحريم الربا فى الشريعة الاسلامية تحريماً لو أيسح لكان من شأنه القضاء على التجارة والصناعة باعتبار معنيهما اليوم . وقد كان من أمر غالب هؤلاء النقدة أن يذكروا غير مرة تحريم الربا هذا دليلاً على جود فى الاسلام جودا يمسك به عن مجارة الحضارة العصرية بيد أنه يجب ألا يند عن البال أن الشريعة النصرانية قد حرمت الربا أيضاً تحريماً لا يوصف ، وقد كانت متشددة فى ذلك ما استطاعت ، فكانت نتيجة الأمر أن اليهود انبروا للبدان وظلوا قروناً عديدة محتازين التجارة الأروبية وجناة ثمراتها ، لا يشاركون فى ذلك مشارك ولا يزاحمون مزاحم . وحدث أن « اللبردين » أقدموا حيناً على التداين بعض التداين ، فعدوا هراطقة النصرانى وكفرتهم ، واتهموا بارتكاب النواهي ، واضطهدوا واضطهاد . ولننظر فى شئ آخر يزداد الأمر تحقفاً وانجلاء . يقول متعصب النقدة أن الاسلام يحافى الحرية الفكرية ، وينكر استكناه الحقائق العلمية الطبيعية فلعمرو الحق لو شاء الاسلام أن يحتج على النصرانية ويرد اليها افتراءها ، لكان لديه حجة أدمغ وبرهان أقطع مما هو مدون فى صحف التاريخ النصرانى ان « غاليلو » المشهور قد جلد وعذب ، وأذيق الهول أشكالا ، منذ أقل من ثلثائة سنة ^(١) بحضرة المجلس « البابوى » ، ليرتد عن تعطيله وهرطقته التى جاهر بها يومئذ ان الأرض تدور حول الشمس ؟

أيليق بنا بعد جميع هذا أن نتعamy عما قاله محمد فى شأن العلم ؟ وأن تنكر تكريمه له كل التكريم ، وهذه كلماته البليغة مازالت شاهداً على ذلك خالداً ، وهالك بعضها : —
 « اطلبوا العلم ولو فى الصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » . رواه العقيلي فى

« الضعفاء » ، وابن عدى فى « الكامل » والبيهقى وابن عبد البر عن أنس رضى الله عنه
« اطلب العلم من المهد الى اللحد ^(١) » .

« لأن تغدو فتعلم باباً من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة ^(٢) » .

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء ^(٣) » .

« العلماء ورثة الأنبياء ^(٤) » .

« أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال عزّ

وجلّ : وعزّى وجلالى ما خلقت خلقاً أكرم علىّ منك ، بك آخذ ، وبك أعطى ، وبك
أثيب وبك أعاقب ^(٥) » .

فهذه الأحاديث وكثير غيرها انما هى برهان على ن الأحرار من المصلحين المسلمين
يؤيدون اصلاحهم الحرّ بالنصوص الدينية المأشوية لكلّ عصر ، والصالحة لمقتضيات كل دور
ولست أعنى بهذا أن دور هذا الاصلاح فى عالم الاسلام ، بحق كونه دوراً اصلاحياً حرّاً ،
سائراً سير التقدم والترقى ، فهو لا محالة مدرك غاية الظفر وبالغ محجة النجح التام . فالتاريخ
انما يحوى بين دفتيه كثيراً من أخبار الأمم التى فشلت بعد جهد وحبطت عقب نصب . وقد
علمنا فيما تقدم من الكلام كيف نشأت المعتزلة الحرة فى أوائل الاسلام ، وكيف ذوت فجفت
فذهبت ريحها . بيد أن الحقيقة الكبرى التى ينبثنا بها التاريخ ، وليس باستطاعة أحد
انكارها ، أنه متى ما حان ميقات اليقظة الحقيقية فى أمة ، وأنشأت العصبية الجنسية تدبّ فى
عروق أبناء تلك الأمة ديباً مستمرا ، أصلح الدين لا محالة ، ونفض عنه غبار التقليد
اللصوق به ، وحرّر من عهد رسفانه ، وجل مجلاً يلائم روح اليقظة ، وأخذ به أخذاً متفقاً
مع متجه النهضة . فهل من أمة من أمم الأرض يقظت يوماً هذه اليقظة فهبت فسارت فى
سبيل العلى ثابتة الخطى رابطة الجأش ، فكان الدين حجرة عثرة أو حلة فشل لها ؟ اللهم لا .
قد تبلغ تلك الأمة فترة تقف فيها مذلة صعباً من الصعاب ، أو حالة اربة من الارب ، أو

(١) أفادنا الاستاذ السيد رشيد رضا أنه لم يره حديثاً نبوياً

(٢) رواه ابن عبد البر عن حديث أنس ، وفى بعض ألفاظه « مائتا ركعة » ورواه آخرون بألفاظ أخرى

(٣) رواه ابن عبد البر عن الشيرازى عن أبى الدرداء رضى الله عنه

(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم عن أبى الدرداء .

(٥) وفى رواية « ما خلقت شيئاً أحسن منك » .

مريحة عقبة قائمة في السبيل . ثم ما تزال مستحثة ركابها ومعملة المهاميز في مطيها ، حتى تبلغ الغاية وتقطف ثمرة الجهاد يانعة . وعلى ذلك فليعلم أنه ليس من الممكن بعد أن العالم الاسلامي يوفى عزمه فيتقاعس عن السير الدراك ما دامت روحه نائرة وعزمه متقدأ ، وهو فوق ذلك كله يزداد مساساً مع الحضارة الغربية ، واقبالاً عليها وأخذاً عنها . ان العالم الاسلامي لن يستطيع بعد اليوم البقاء على عزله كما كان فيما مضى ، حتى ولو شاء هذا ، اذ جميع ما فيه اليوم انما يبرهن على انقلاب شديد وانفعال عميق وتطور من حال الى حال . يقول النقدة مثل اللورد كرمز ان الاسلام منقحاً ليس الاسلام حاضراً ، بل شيئاً آخر ، أليس هذا ترى العجب كل العجب ؟ فلماذا لا يظل الاسلام اسلاماً ؟ إذا شاء المسلمون أن يظلوا الى ما شاء الله مسلمين ، وأن يظل دينهم دينهم ، وأن يستنبروا أبداً بروح الرسالة المحمدية ، أنكرنا عليهم اسمهم كأنه شيء لا يجب أن لا يكون ؟ هذه النصرانية الحديثة تختلف اختلافاً بعيداً عما كانت عليه في الأجيال الوسطى ، وأكثرها اليوم يبان أ كثرها بالأس ، وهناك تناف واسع الشقة وتباين شديد بين بعض الكنائس والبعض الآخر ، ناهيك بهما من تناف وتباين بعيدى المضطرب والغور ، وعلى هذا كله لجميع الطوائف النصرانية ما برحت تدعى نصرانية ، فبالله علام هذا التعامى في حق الاسلام ؟

وقد حان لنا الآن بعد الذي تقدم أن نبسط الكلام على قادة الاصلاح من المسلمين ، مدققين النظر في ذلك بتجرد عن الهوى بحيث يجب أن تكون أحكامنا مبنية على ما قاله هؤلاء المصلحون القادة من الأقوال وما قاموا به من الأعمال ، وليس على ما هو مدون عنهم في بطون الكتب والتواريخ التي ذهب واصفوها فيها مذهب الغرض ، فقد قال أحد المصلحين المسلمين وهو جزائري ^(١) قولاً سيديداً : — « لا تقاس حضارة أمة بما في كتبها الدينية من السطور والعبارات ، بل بما تقوم به تلك الأمة من الأعمال . »

أنشأ المسلمون الأحرار المتأخرون مذهبهم الحر على الأسس التي وضعتها المعتزلة منذ ما يقرب من ألف سنة خلت . ومن تدبر تاريخ الاسلام حق التدبر ، أيقن كل الايقان أن الاسلام لم يخل يوماً في جميع ماضيه حتى في أشد عصوره حلكاً من بعض المصلحين الأحرار ذوى العقول النيرة والمدارك الثاقبة والهمم الصادقة ، الذين انما كانوا يتوالون الحقة بعد

الحقبة ، فيصرخون في المسامير صرخات الاصلاح الشديدة ، ويرفعون علما من أعلام الهدى والارشاد ، واليك مثالا من هذا ، فقد كتب الغرائي المشهور ، وهو من رجال القرن السادس عشر : « ليس بعزير على الله عز وجل أن يكشف لعباده المخلصين في المستقبل ما لم يكشف مثله لغيرهم فيما مضى من العصور ، وان ينزل من نعمه الروحانية على مستحقيها من الحكماء في كل دور ، النعم التي تفيض نورا على أبصارهم وبصائرهم فتهدبهم سواء السبيل »

فهذه الصرخات التي تواتت والمصاييح التي أوقدت في فترات مختلفة طيلة جميع الأجيال التي كرت على الاسلام من بعد انحداره عن الأوج ، قد كان من شأنها أن تمهد السبيل بعض التمهيد للمصلحين المتأخرين ، اذ لم ينتصف القرن التاسع عشر ، حتى كان قد قام في كل بلد من بلدان المسلمين في الرقعة الاسلامية عدد من رواد الاصلاح ودعائه ينهبون ويوقظون ، ويحضون ويستحثون ، بيد أن هؤلاء كانوا نزرأ في بدء عهد الاصلاح الحديث فلاقوا في سبيل ذلك مثل ما لاقى غيرهم من الذين ساروا سيرهم ، اذ هب رجال الدين ^(١) وسواد السذج يرمون المصلحين بالمروق من الاسلام ، فكان من طبيعة الأمر ظهور النزاع والمشادة بين المسلمين في سبيل الاصلاح . وقد كانت الهند أول رقعة اسلامية رفعت فيها أعلام الاصلاح ، فقام فيها عصابة من المصلحين ، ذوو عزم شديد وعلى رأسهم « السر » السيد أحمد خان ، وانبروا يجاهدون في سبيل الدعوة الكبرى للاصلاح الحر ، فألفوا الجمعيات ونشروا الكتب والصحف ، وأنشأوا الكلية العلمية الاسلامية في عليكرة وأما « السر » السيد احمد خان فهو خير مثال من المصلحين الأحرار المتأخرين ، وكان مذهبه مذهب المحافظين المتمسكين بفضائل الدين ، فبكى حالة الاسلام ، وأعظم شقاء المسلمين

(١) كره صاحب الرسالة أن يعين وظائف دينية يتولى القيام بها رجال مخصوصون ، فالاسلام من حيث الأصل لم تنص كتبه الشرعية من من المسلمين يتولى القيام بالوظيفة الدينية ، علي حد ما هو الأمر في النصرانية واليهودية والبرهمية وغيرها . فأأي مسلم كان يستطيع أن يقوم في المصلين اماماً ، بيد أنه على توالى الأيام نشأت طائفة من القوم العارفين بالأصول الشرعية والفقه الاسلامي ودرجت تتولى المناصب الدينية حتي عرفت بالتالى رجال الدين ، ثم نشأت طوائف أخرى كطائفة « الدراويش » وأمثالها . على أن الاسلام لم يكن يعرف شيئاً من هذا في أول عهده .

متقدماً غيرة وهائية. وكان يعتبر قدر الحضارة الغربية ، ويحضر أبناء قومه على ورود منهلها ، وأخذ الصالح منها ، فقد كتب سنة ١٨٩٧ في هذا الشأن يقول : « يجب علينا أن ندرس الكتب العالمية الغربية ، وإن كان مؤلفوها ليسوا بمسلمين ، وكان فيها ما يخالف القرآن الكريم ، وأن نأخذ اخذ العرب في أوائل عهد ملكهم ، فانهم لما شرعوا ينشئون حضارتهم الكبرى لم يترددوا ألبتة في دراسة كتب فيثاغورس وكتب غيره من فلاسفة اليونان » .

ثم أخذت دعوة الإصلاح الحر تنمو نمواً سريعاً في الهند وتزداد قوة ورسوخاً ، وقام فيها من القادة المشهورين عدد كبير أعزوا شأنها أعزاً كبيراً مثل مولوى شيراز على والسيد أمير على العبقرين اللذين اشتهرا في العالم كله بما أخرجاه للناس من الكتب القيمة الباحثة في شئون الاسلام وروحه ، وقد كتب هذه الكتب ^(١) باللغة الانكليزية الفصحى فذاغت ذيوها قل أن يعرف له مثيل ، وهذان البطلان وغيرها أمثالهما في الهند لقبوا نفوسهم « بالمعتزلة الجديدة » ، وشرعوا يجاهدون جهاد المصلحين العظماء في سبيل الإصلاح ذائدين عن حياضه ومؤيديه بكل حجة دامغة وبرهان قاطع ، ومنادين بوجوب استقصاء الشريعة الاسلامية واستدراار خيرها واستثمار الأوفق منها لمقتضيات العصر ، لأن لا سبيل لتجديد الاسلام التجدد الصحيح الباقي غير هذا السبيل ، وقد كتب أحد هؤلاء القادة العظام وهو السيد « خدا بخش » في بعض كتبه يقول : « ما كان النبي ﷺ يبغيض شيئاً بغضه للشرائع والقوانين الجامدة التي تقيد العقل فتقوده صاغراً أعمى . ليس القرآن الكريم الا كتاب هدى للمؤمنين . وليس عثرة في سبيل ترقى المجتمع والآداب والشرائع والقوانين والمدارك العقلية » . ثم جاء على كلام نبي فيه حالة الاسلام منه : « لعمرى ان هذا الاسلام اليوم ليس هو الاسلام الذي أتى به صاحب الرسالة ، بل ان الاسلام الذي جاء به النبي لبري من هذه السلاسل المؤلفة من حلقات الوظائف والمناصب الدينية ^(٢) ، وعار عن

(١) لعل خير ما كتب السيد أمير على كتابه « روح الاسلام » (لندن ١٨٩١)

The spirit of Islam » (London 1891)

(٢) كنت مرة في المدينة المنورة فشهدت فيها شيخ الحرم النبوي (وكان يومئذ زبور بك مدير المذاهب في الاستانة سابقاً) وبعض خدمة الحرم في ساعة مخصوصة بعد العصر ، يدخلون الحجرة العريفة

هذا النعصب القاتل والجهل الشديد ، والأوهام والأباطيل الكفرية . ثم أنهى كلامه قائلاً : « هل الاسلام عدو للترقى والتقدم ترى ؟ انى لأعوذ بالله من قاتل نعم ؛ فتى وضع الاسلام فى البونقة وأخرج منه ما علق به من جميع هذه الأباطيل الخداعة ، كان ذلك الدين الساذج الحلو المساغ . فالاسلام على أصله ووصفه انما هو ركنان لاثالث لهما : توحيد الله تعالى ، والايمان بأن محمداً هو رسول الله ، وما عدا ذلك فليس من الاسلام »

وفى ذلك العهد كانت دعوة الإصلاح الحمة قد طفقت تنتشر فى كل من الأقطار الاسلامية ، فهب المصلحون الأحرار فى كل بلاد يبشرون بالدعوة ويجهادون فى سبيلها بجد قوى وعزم أكيد فقد ظهر الأحرار فى تركية وكانوا القابضين على أزمة الدولة خلال غالب المدة بين حرب القريم والعهد الجيدى ^(١) ، ومدبرى شؤون المملكة وساسة أمورها . وقام فى أحرار اترك عظماء مثل الوزيرين رشيد باشا ^(٢) ومدحت باشا ، المجاهدين الكبارين فى سبيل تحرير الدولة العثمانية من ربة ذلها ، وقائديها نحو التجدد والترقى . وظل الدعاة الأحرار فى تركية يغالبون الأهوال مغالبة ويعانون من الاستبداد الجيدى ما لم يعان مثله غيرهم ، فقتلوا تفتيلاً ، وأهبطوا جوف الأرض وقاع البوسفور ، ونفوا وعذبوا حتى كانت

لا يباد الشموخ والقيام ببعض الخدمات المرسومة ، وقبل دخولهم يلبسون جيمهم وشاحاً أبيض شفافاً ، وكانهم يريدون بذلك زيادة التعظيم والتوقير ، فذكرنى ذلك بالأوشحة التى هى من النوع نفسه يلبسها بعض رجال الأديان الأخرى التى فيها ما ليس فى الاسلام من الرتب الدينية والدرجات الكنسية ، وذلك عند ما يدخلون الى معابدهم ، وم لا يلامون على ذلك لأن لخدمة الدين طبقة مخصوصة عندهم بخلاف الاسلام ، وصادف أن كان هناك السيد أبو بكر خان من عطاء الهند أحد أعضاء مجلس الهند الأعلى وهو ليس بمن يحسن التركية ولا العربية ولا يعرف من اللسان الاسلامية الا الفارسية ، وجميع تحصيله كان فى انكلتره ، ولكنه كان يفهم روح الاسلام جيداً . فجاء وكاشفى بما وقع فى نفسه من انكار هذه العادة . ولكن : « لتبتعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » حديث شريف .

(١) ١٨٥٦ الى ١٨٧٨

(٢) مصطفى رشيد باشا أعظم رجال الدولة العثمانية فى القرن الماضى ، تولى الصدارة فى زمان السلطان محمود الى زمان السلطان عبد المجيد ، ونجح له تلامذة فى السياسة لم تعرف الدولة أمثالهم منهم أمين على باشا المشهور ، وندة فؤاد باشا الذى ليس بأقل شهرة منه ، ومنهم مدحت باشا أبو القانون الاساسى أو الحكم الشورى الذى يقال له عند الاتراك « مشروطيت » (ش)

ثورة سنة ١٩٠٨ فذهبت عاصفتها بصرح الاستبداد وقوضت أركانه تفويضاً ، فبرزت « تركية الفتاة » الى الوجود . وفي مصر كان لواء الاصلاح خففاً يحمله أبطال عظماء مثل الشيخ محمد عبده ، مصلح جامعة الأزهر ، وصديق اللورد كرومر الجيم . وفي سائر بلاد المسلمين كبلاد التتر الروسية ، كانت دعوة الاصلاح تنتشر فيها انتشاراً سريعاً ، فكثير عديد الأحرار ورواد الاصلاح ودعاة التجدد (١)

على أن هؤلاء المصلحين الأحرار الذين أتينا على ذكرهم إنما هم على مذهب الاعتقاد بوجوب تنشئة الاصلاح في المسلمين تنشئةً متدرجةً مماشيةً لمقتضى العصر ، وبأن الاسلام لقابلٌ أحسن قبول لكل تحول وتطور ، ومستعد بطبائعه لا يلافت تبدلات العصور والأدوار ، والتكيف على حسب ترقى الحضارات . فهم من هذا النحو محافظون كل المحافظين ، مستمسكون جهدهم واستطاعتهم بالاسلام الصحيح ، وهو عندهم من المجتمع روحه وغذاؤه ومن العمران مادته الحيوية ومنهله العذب

وهناك فريق آخر من المسلمين الذين بلغت منهم مؤثرات الحضارة الغربية مبلغاً عظيماً ، ووغل فيهم تيارها موغلاً كبيراً ، فأقبلوا على كل شيء غربي أغناهم أم سميناً ، وولوا ظهورهم جميع ماضيهم بحيث صاروا لا يحفلون بمفخرة من مفاخر تاريخهم ولا يبالون بذكري من ذكريات سالف أيامهم ، ففي كل من البلاد الاسلامية المتقدمة ، ولا سيما في البلاد التي ما زالت منذ عهد طويل في حكم الغرب كالأندلس ومصر والجزائر ، عدد من أبناء المسلمين الذين طلبوا العلوم في الغرب ونشأوا نشأة الغربيين أخلاقاً وتهذيباً ، فباتوا لا يكتفون لشأن من شؤون الدين الذي ولدوا فيه ، ولا يهابون المصارحة بالتعطيل والاحاد ، فتلاشت في نفوسهم حرارة الاسلام وذهبت منهم عصبية الايمان ، وقد وصف اسماعيل حامد الجزائري حال مثل هؤلاء من أبناء قومه بقوله : « كان للاحاد الغربي مبلغ كبير من التأثير في جمهور ليس بالقليل من مسلمي الجزائر الذين وان كانوا ما برحوا مسلمين في الظاهر ، فهم يحفلون حد ما وصلت اليه روحهم الدينية من التلاشي . ان هؤلاء لا ينكرون الاسلام دينهم

(١) للاطلاع على حركة الاحرار في بلاد التتر الروسية اقرأ كتاب أرمينيوس فباري « التهذيب الغربي

Arminius Vambery. « Western Culture in Eastern Lands » (London 1950)

في الأقطار الشرقية »

ومعتقدهم ، غير أنهم قد أضحوا من فتور الغيرة الدينية في نفوسهم بحيث غدوا لا يبالون ألبتة بنشره في الناس وبال دعوة اليه في غير المسلمين . فالاسلام عندهم انما مقصور على من يأتي من بعدهم من الأولاد والاحفاد فحسب ، وليس يتناول أحداً سواهم من الخلق أجعين فالخلق أن الاسلام لبراء مما هم فاعلون ، وليس ذلك هو الحرية الفكرية على ما يزعمون ، بل انما هو الفتور فالتلاشي ^(١) »

وانه لمن الغرابة بمكان أن نرى فريقاً آخر من المسلمين يختلفون عن الفريق الذي تقدم ذكره اختلافاً بعيداً وفي ذلك من التناقض والتباين ما يقضى بالعجب الشديد ، فان أتباع هذا الفريق الآخر هم من الناشئة الاسلامية ، متشبعون آراء الغلو الغربي كالاحاد والاشتراكية والبلقيشية وغيرها . وغلوهم هذا لا يقل عن مبلغ ما هم عليه من التعصب الديني الكثير ، وهم يسعون جهدهم لعقد عروة اتحاد بينهم وبين فريق الرجعيين ، حتى اذا ما عقدت هذه العروة ، وكانت محكمة موثقة ، وتألفت منها تلك القوة الكبرى ، كانت نتيجتها الهاب صدور المسلمين كرهاً ومقتاً للغرب . ولما كان هؤلاء الغلاة يعدون نفوسهم في كل بلادهم فيها ، انهم انما قادة سواد الأمة بحق ، لذلك تراهم أبدأً نهماً أشد النهم في الظهور الى عالم السياسة والقيام على شؤونها كما يتسنى لهم بلوغ الغرض من ذلك سيطرة الغرب المنتشرة في الشرق الاسلامي دكاً . فهم والحالة هذه من غلاة الوطنيين لا يألون في السعى وراء تحقيق غايتهم ، ولا سيما بأشد الوسائل الرجعية في سبيل الجامعة الاسلامية ، وقد رأينا غير مرة كيف يجد هذا الفريق الملحد في استئثار الروح الاسلامية وهياج النعرة القومية ، فقد كتب السيد بنحس يصف رجلاً من هذا الفريق بقوله : « انى أعرف سيداً مساماً ، يعرف من أين تؤكل الكتف ، موفق الحال كبير النجاح ، انما في يديه أداة يستعين بها على عمله ، ولولاها لما حاز شيئاً مما هو حاز عليه من هذا التوفيق والنجاح ، وما تلك الاداة الا الدين . فهو يبالغ في الظهور في بني قومه مظهر المسلم المتمسك بشعائر الاسلام المتشدد فيها ، وكثيراً ما يقوم في الجوع خطيباً مرشداً حاضاً مستثيراً ، غير أنه على ما أعتقد في نفسى ليشتمل في

(١) كتاب اسماعيل حامد « المسلمون الفرنسيون في شمال افريقية »

نفسه على آراء في الاسلام وصاحب الرسالة مما ينبوعن سماع مثله سمع (فواتير) ولم ينطق بمثله لسان (غبن) »

واننا سنسهب الكلام فى فصلى « الجامعة المصرية » و « العصبية الجنسية » من هذا الكتاب على بيان أعمال هذا الفريق ، بيدأن ما يجب الاشارة اليه فى هذا الموضع اشارة مخصوصة ، انما هو التباين فى المنهج والوسائل لتحقيق الاصلاح العام فى العالم الاسلامى ، بين هذا الفريق ، وبين المصلحين المخلصين الصادقين الذين أثبتنا على ذكرهم من قبل ، ناهيك به من تباين ضار يفسد الاصلاح . فغلاة الوطنيين ، والضرر الذى ينتاب الاصلاح انما ناشئ من جانبهم ، دأبهم استثارة الروح الدينية فى قلوب سواد الأمة ، وحل هذا السواد على مقت كل شئ غربى يروونه فى بلادهم ، وعداء الغرب فى كل أمر سوى ما يؤول الى ترقية القوى العسكرية الاسلامية ، وفى هذه القطعة المقتطفة من مقال لأحد عظماء رجال « تركية الفتاة »^(١) يخاطب اوروبة ، مثال بئين على هذا : —

« أجل ، الدين الاسلامى لم يبرح ولن يبرح على عداء حضارتكم وتقدمكم . فاعلموا يا جهابذة الغرب أن النصرانى ، سواء أرفيعاً كان أم وضعياً دينياً ، فانه بمجرد كونه نصرانياً ، ليس له عندنا منزلة ولو حقرت مهما حقرت من منازل الانسانية . وهذه مقاتنا لكم سهلة واضحة : ان من ضل سبيله فانكر وحدانية الله الواحد الأحد ، واتخذله من دون الله أرباباً ، فقد ضرب بالبله والخبال ، فان رما صلته كان ذلك منا احتقاراً لديننا وانكاراً لبارئ الكائنات : وعلى ذلك فالتخذ الهاً غير الله والجاحد الوحدانية ، لمستحق للعنة الأبدية . وليس ذلك جميع الأمر بل ان أقدس عمل يقوم به المؤمن هو قتاله لهذا المنكر الجاحد ، حتى يحمله على الدخول فى الاسلام ، أو يستأصل شأفته من على وجه الأرض . هذا ما يأمرنا به الهنا الواحد الذى لا اله الا هو . نحن لا نعرف فى هذا العالم سوى المؤمنين أو الكفار ، أما نحن المؤمنين ، فتصل صلات المحبة والاحسان والاخوة بعضنا ببعض ، وأما أنتم الكفار ، فانتا لكم ماقتون ومبغضون ومقاتلون . وشركم انما الذى يقول بوجود الله من حيث يعتقد بولادته من البشر ، فما أشد هذا الضلال ، وما أبعد شقة الخلف بيننا وبينكم ! ان وجود مثل هؤلاء الكفار منكم بين ظهرانينا لآفة فى كياننا ولا غرابة فعتقدكم انما هو

(١) كتبه الشيخ عبد الحق فى جريدة شريف باشا « مشروطية » آب سنة ١٩٢١

غض من دين التوحيد ، ومعاشرتك ليست مما تتطهر به ومعاملتكم عذاب لنفوسنا .
«وعلى هذا كله ، فاننا ننذركم نبذاً من حيث ندرس أنظمتكم السياسية والعسكرية ،
فكأنكم والحالة هذه تدفعون إلينا أسلحتكم لنقاتلكم بها فنشدد قوة بازائكم ونعظم
شوكة ، فوق ما تجود به علينا العناية الأزلية من العون عليكم فى عصر أشعلتم فيه نار
غيرتنا الدينية وهجتم فينا ذكرى شهدائنا وأبطالنا المسلمين الذين استشهدوا فى سبيل الدين
فنحن جميعاً على اختلاف مذاهبنا ومناهجنا متحدون على مقتكم وكرهكم ؟ وبعد هذا
كله أيقودكم الوهم الى الظن أننا صائرون نحو حضارتكم يا أبناء الفرنجة ؟ نعوذ بالله من
ذلك ومنكم !»

ولا شك فى أن مثل هذا المقال يلاقى فى جمهور المسلمين وسوادهم آذاناً صاغية
وقلوباً واعية^(١) . وفى هذا الموضع ينبغى ألا يذهب عن البال أن المصلحين الأحرار
ما برحوا الأقلين عدداً ، وإن كانت قوتهم متوالية الازدياد والاشتداد ، اذ يفوقهم السواد
الجاهل من الأمة ، السواد المجتازون اليوم دوراً من أشد أدوار التمحض والانتقال
والخروج من الظلمة الى النور ، أضف الى هذا أن من أظهر صفات السواد إعجابهم بشأن
بلادهم فيرونها خير البلدان وجنة الدنيا بلا مرأى ، ويعدون كل بلاد سواها مستحقة المقت
والازدراء ، وإن اعترف المسلمون الذين على هذا الطراز بسلطان الغرب وتفوقه على الشرق
فإنما يفعلون ذلك على غل فى القلب واحتدام الحفيظة — لذا تراهم يكرهون كل شئ
جديد ، ويشتعون غيظاً وتأساً من جراء ما يشعرون به ويرونه حولهم من شدة خناق
السيطرة الغربية . وعلى الجلالة فإن هذا السواد الجاهل هم بين أيدي قادة الجامعة الاسلامية
وغلاة الوطنية ، يتصرفون بهم كيفما شاءوا تصرف الخراف فى صنع الطينة بين يديه .

فالاسلام اليوم تتجاذبه قوتان : قوة المصلحين الأحرار ، وقوة الغلاة الرجعيين . أما
الاولى فيها مناط الآمال فى الفوز بالاصلاح على ما تقضيه سنة سير العمران والترقى ، ولها
من الزمن أكبر عون ونصير ما دام العالم الاسلامى لا حيدة له عن قبول مؤثرات الحضارة
الغربية ، لا بل ما دامت هذه الحضارة ثابتة الأركان بعيدة عن الانهيار والانقراض . وعلى
كل حال فالتوقع أن الذين سيرفعون علم الظفر والغلبة بالتالى انما هم المصلحون الأحرار .

(١) فى هذا المقال غلو عظيم لا ينبغي على أحد ، ولكن الغلاة لا تخلو منهم أمة ولا أتباع طريقة (ش)

ولكن من يستطيع الرجم بالغيب والكشف عن مخبآت المستقبل لينبئنا ما لعله ناشئ* في السبيل من عقبات وما يقوم به الرجعيون الغلاة من وضع العثرات؟ وصفوة القول، فلا أدوار الاصلاح في عالم الاسلام اليوم، ولا العلاقات بين الشرق والغرب بمعزل عن الأخطار الحاملة أجنة البلايا، تلك الأخطار التي سنأتى على بيان أدلتها في الفصول التالية من هذا الكتاب.

بقى علينا أن نذكر الحقيقة الكبرى التي يجب ألا تغفل، وهي أن في كل قطر في أقطار العالم الاسلامي جمهوراً من المصلحين الأحرار يزدادون عدداً ويشدون قوة وينضم الى لوائهم رجال من سائر الأحرار الخبراء الراسخين علماء بأسرار نهضات الأمم وتقدمها، والى جانب هذا الفريق فريق المحافظين، وجميعهم، وقد رأوا حالة الاسلام والمسلمين، انما يعملون عضبا متحدة متماسكة الأطراف في سبيل الاصلاح العام في المعمور الاسلامي، منتهجين المناهج القويمة والسبل السديدة، شاعرين حقاً بأن الفترة لعصيبة وعلمين أن الدور دور انتقال شديد وحاسين فوق جميع هذا ان جهادهم هذا الجهاد لهو من أشد الأعمال نبالة والمقاصد مفخرة والواجبات شرفاً. أما ما يتوقع من التطور في الشريعة الاسلامية وقوانينها ازاء هذا الاصلاح، فليس من شأننا البحث فيه في هذا المقام. انما التاريخ ينبئنا أنه متى اقتضت سنة النشوء اصلاً، وأعدت أسبابه وعلله، واجازته دوراً اختمرت فيه عناصره، كان ذلك الاصلاح واقعاً ولا تبدل لسنة العمران البشرى.

ومما لا مرأى فيه أن روح الاصلاح، على اختلاف مظاهرها وصورها، قد تغلغلت في الاسلام ودبت فيه ديباً هائلاً وفشت في كل عرق من عروقه فحركته فتحرك، فأخذ ينفعل انفعالا عظيماً. فعالم الاسلام اليوم هو غيره منذ عشرة عقود. قد استطاعت الوهاية التي ظهرت منذ أكثر من مئتي سنة أن توقف الاسلام فاستيقظ مذعوراً، فما كانت تلك العصيبة الدينية الا الضرم في النار أو الغريسة نمت فجاءت بأطيب الثمار، أضف الى هذا أن روح الحرية والحركة، والمؤثرات الغربية في زائد انتشار وانبثاق في كل رقعة من الرقاع الاسلامية وان كانت المخاوف والمحنورات تقرأ في جبهة المستقبل، ففي جبهة المستقبل أيضاً تقرأ الآمال الحسان.

المبشر زويمر ومفترياته

المبشر زويمر

اشتهر زويمر هذا بعداوة الاسلام ، وحرر كتباً افترى فيها على الرسول ﷺ وعلى المسلمين ما شاء وأودع فيها من التدليس ومن التزوير ومن قلب الحقائق ومن كل ما ينفر الطباع من الاسلام ما حقه أن يكون سمة عار باقية على الدهر في جبهة التبشير بكتاب شريف كالانجيل هو أعلى من أن يتوسل المتوسل الى نشره بالكذب والافتراء . ولقد اطلعت له مؤخراً على كتاب عنوانه « الاسلام . ماضيه . حاضره ومستقبله » فيه معلومات كثيرة عن مساعي المبشرين في أقطار الاسلام كلها قطراً قطراً ، وعن درجة نجاح تلك المساعي وجوبها ، مما هو حري بالاطلاع بل بانتباه العلماء والمفكرين من أهل الاسلام لمقاومة دسائس تلك الجمعيات المنبثة في جميع تلك الأقطار ، تحت أشكال متنوعة ، منها رسالات دينية ، ومنها بعثات جغرافية ، وأكثرها مستشفيات ومصاح وملاجئ للفقراء ، وزويمر هذا من رأيه في طريقة التبشير عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية — حيث يعلم أن قلعته ثم منيعة — بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم ، واستمالة أهوائهم ، وتمريض أجسامهم ، ومؤاسة فقرائهم ، وبالاختصار استثمار أمراضهم وعلاهم وكروبهم وخصائصهم ، ولا ينكر أن هذا الرأي هو رأي مجرب خير ساج في جزيرة العرب وفي كثير من بلاد الاسلام وعلم ما يعوز الاسلام من وسائل التعليم والتمريض ، وما عليه المسلمون من اهمال هذه الجهات بالرغم من كثرة الأوقاف التي يأكلها نظارها ، والمعاهد الخيرية التي درس معظمها ، وصارت أثراً بعد عين .

وقد استوفى زويمر تاريخ التبشير وسيره في البلاد الاسلامية من مشرقها الى مغربها وحمد الله على نجاح الرسالات الدينية المسيحية في كثير من الأصقاع لا سيما في بلاد الجاوى ، حيث معدل من يتنصرون كل سنة من المسلمين هو ٥٠٠ نسمة ، وقد بلغ مجموع المتنصرين بزعمه في الجاوى نحو ١٨ ألفاً ، وزعم أن الهند أيضاً شهدت من نجاح هذه الرسالات شيئاً

كثيراً ، وأن ٢٠٠ مبشر يطوفون اليوم في شمالي الهند هم من متنصرة الاسلام . ومع كون زويمر هو برتستانتيّاً قحاً^(١) فهو لا يفرق بين أحد من رسله ، وهو يغتبط بمساعي الرسالات الارثوذكسية الروسية بين التتر ، ومجاهيد البعثات الكاثوليكية في افريقية ، ويدعو النصرانية كلها الى توحيد العمل وشن الغارة على الاسلام من كل جهة ، ويحث على اغتنام فرصة الضعف العظيم الذي حل بالاسلام على أثر الحرب العامة ، وانهيال قوته السياسية ، لأجل جوب أقطاره ، والجوس خلال دياره ، وتأسيس مرا كز التبشير في البلدان الاسلامية التي كان دخول المبشرين اليها ممنوعاً . ويقول ان أول خطوة جرت لأجل توحيد الأعمال واشراك الحركات بعضها مع بعض هي المؤتمر التبشيري الذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٠٦ واجتمع فيه ٦٢ مبشراً ونحوهم من المدعوين بالنيابة عن تسع وعشرين جمعية من أوربا وأميركا ، غايتها كلها تبشير المسلمين ووضع هذا المؤتمر أوزاره عن نداء عام الى العالم المسيحي بأجه لاستجلاب نظر اهتمامه الى هذه المهمة العظمى وهي حل المسلمين على الانجيل^(٢) وعقب هذا المؤتمر مؤتمران آخران أحدهما في « لوكناو » بالهند والثاني في « اديمبورغ » بانكلترة .

ويقرع زويمر الحكومات المسيحية على تقصيرها من أجل ملاحظات سياسية في عضد رسالات التبشير ، ويعقد مناحة عظيمة على ترك انكلترة ولاية « كافرستان » (شرقي افغانستان) لعبد الرحمن خان أمير الأفغان حتى بعث اليها أحد قواده غلام حيدر حمل أهل تلك الولاية على الاسلام فاسلموا قاطبة . ويقول ان أهالي مقاطعة كيلان في بلوچستان ليسوا مسلمين الا بالاسم فالبدار البدار الى تنصيرهم قبل أن يصيروا مسلمين متعصبين . . . وفي جزيرة بورنيو من البحر المحيط لا يزال جيل اسمهم « الداياكس » على الوثنية ولكن يحيط بهم المسلمون ، فتجب المبادرة الى منع دخول الاسلام بينهم قبل فوات الفرصة لئلا تعظم النغصة .

والطامة الكبرى عند زويمر هي في أواسط افريقية ، فانه يذوب لهماً على انتشار الاسلام في تلك الأرجاء بهذه السرعة الغريبة ، ويتأوه على كونه في السودان كله لا يوجد

(١) أصل نسبه من نورماندية بفرنسا ولما طردوا البرتستانات من فرنسا في زمان لويس الرابع عشر ارتحل سلفه الى هولانده ثم الى أميركا

(٢) مع أنهم يعتقدون بالانجيل بدون حاجة الى عناء زويمر وأمثاله

أكثر من عشرين مبشراً ، وينقل بعض شواهد من مجلة التبشير العالمي (Missionary Reiew of the World) بتاريخ ١٩٠٦ ثم بتاريخ ١٩٠٧ معناها أنه في سنة ١٨٩٨ كان عدد المسلمين قليلاً جداً في اده (Iddah) على النيجر وأنه في سنة ١٩٠٦ كان يوجد منهم في كل مكان الى أبو (Abo) وأنه اذا بقيت الحال على ذلك المنوال فلا يرجى أن تبقى قرية وثنية على طول (النيجر) الى سنة ١٩١٠ (فما ظنك الآن ونحن في سنة ١٩٢٣ ؟) وبالأجل يقول ان نحو ٥٠ مليوناً في أواسط افريقية وأطرافها قد أسلموا بالرغم من مساعي المبشرين الذين لم يعرفوا من أين تؤكل الكتف .

ويتكلم عن مجاهيد الجمعيات التبشيرية في عدن ، والشيخ عثمان منذ سنة ١٨٨٧ . وفي بغداد والبصرة والبحرين ومسقط منذ سنة ١٨٨٩ . ولكن فيما يظهر لم تحصل الجمعيات في البلاد العربية هذه على شيء من النجاح الذي صادفته في الهند والبنجاب وبلاد الجاوى ويقول ان بعثة اسوجية احتلت بخارى وخوقند وكاشغر وباركاند ولا يوجد بعثة بروتستانية غيرها في آسية الوسطى ولكن بعثة الروس الارثوذكسية قامت بأعمال جليلة بين مسلمي الروسية .

ويقول ان الجمعيات التبشيرية لا تزال غير قائمة بواجباتها فيما يتعلق بمسلمي بلاد العرب الداخلية ، والقوقاس ، وجنوبي فارس ، وتركستان ، وأفغانستان ، وبلوچستان ، والصين وجزر الفيلبين . ويشكو من الشكوى من كون بلاد الأفغان لا تزال بكراً لم تطمئن قدم مبشر ، وأن الأفغان يمنعون المبشرين من دخول أرضهم ، الا أنه يمتنى نفسه بأن حكومة أفغانستان لا بد أن تسمح للمبشرين بالدخول ، ويقول ان الجمعية البرسييتيرية الأميركية قد هيأت برنامجاً لذلك وستجعل مشهد على (شمالي أفغانستان) مركزاً للحركات^(١)

وما يروى أنه في مؤتمر « ادنبرغ » قدم أحد الأعضاء الذين جاؤوا الصين تقريراً يتضمن البرنامج اللازم لمشروع تنصير مسلمي الصين الذين هم منتشرون في ١٥ ولاية من أصل ١٨ من هذه المملكة العظيمة .

وهو يرجو أن ثمرات التبشير في السنين المقبلة ستكون أعظم منها فيما مضى ، ولا ينكر أن تنصير السود هو عقبة كأداء نظراً لبغض الزوج للجنس الأبيض الاوربي على

(١) الذي نعلمه أن أفغانستان مصححة أن لا تدع بعثة دينية أجنبية تدخل أرضها .

اطلاقه ، وتضامنهم في وجهه ، ولكنه يوجب على أوربا اجتياز هذه العقبة وعدم المبالاة بالصعوبات التي تلقاها من جانب السود ، وأن تعلم أن هذه الفرصة اذا ضاعت فلا تعود أبداً فينبغي أن تكون هزيمة الاسلام في الحرب العامة انتصاراً للكنيسة المسيحية (هكذا بالحرف) وينتقد طريقة بعض الحكومات المسيحية التي - أحياناً بدون روية - تصلح ادارة الاسلام الدينية ، وتنظم أوقاف المسلمين ، مع أن هذه الأوقاف جسيمة دارّة ، يمكن بها عمارة المساجد وتسهيل العبادة وتعزيز قوة الاسلام الدينية ، وقد شوهد كيف زادت سكة حديد الحجاز عدد زوار المدينة ، وكيف زادت خطوط الترامواي زيارة كربلا ، وصارت شركة كوك تسفر أغنياء المسلمين الى مكة . وأما من جهة التعليم فاذا اتبعت الحكومات الأوربية برنامج التعليم التي هي جارية عليه في السودان والنيجر^(١) . وفي كلية غوردون في الخرطوم فان هذه الخطة هي مما تزيد الحواجز بين الاسلام والنصرانية . . . ثم يقول أما المدارس العليا التي تأسست لمكافأة الصادقين من المسلمين^(٢) فلعمري أكثر الأحيان لم تكن تلك الصداقة حقيقية بل هي مداواة منهم ، ولا يكون لتلك المكافآت ثمرة سوى زيادة تمسك المسلمين باسلامهم بل احتقارهم لسادتهم الاوربيين الذين يرونهم قد أصبحوا يتبصبصون لهم^(٣)

وأخيراً يقول ان الاسلام قد تلاشت قوته ، وانهارت دعائمه ، وسقطت مكائته الأولى ومشت سكة الأجنبي في حقله ، فلا تناسب زيادة قهره واعنائه والظهور بمظهر الشماتة به لثلا يحرك ذلك من عصبية أهله ، ويشير من نخوتهم ، ويؤجج من نيران احقادهم ، فينهضوا ويشوروا للمقاومة ، بل يلزمنا أن نأخذهم بالوداعة والملاطفة وبذرف الدموع لأجل أن نستل سخائم صدورهم ، ونتمكن من حرث ذلك الحقل الذي صار مباحاً أمامنا . . . على أنه لا يؤخذ من ذلك أنه يجب سلوك مسلك الضعف مع الاسلام والعدول الى التهيب ، اذ لا يعقل أنه اذا دعى الانسان الى بيت لم يبق له أبواب ولا نوافذ أن يضع وقته في احتشام أصحاب ذلك البيت ومعاملتهم برقة الأدب والكياسة . . . انه يتحتم سوق الحلة بحكمة ومهارة

(١) يظهر أن الظروف قضت عليها بالترخيص بمحة من التعليم الديني

(٢) أي الصادقين للحكومات الاوربية

(٣) من رأى زويمر اذاً أن الحكومات الاوربية يجب أن تستخدم دماء من تلى عليهم من المسلمين وأموالهم ومجاهداتهم وتحذر من أن تراعى خواطرهم بشئ يشعرون منه أنها تقيم لهم وزناً .

ولكن يتحتم سوقها بشدة ويجب أن الكنيسة تعي جميع قواها من الشرق الى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب ، تحت راية مؤسسها وتشن هذه الغارة على الاسلام الى أن تصل الى غايتها الخ .

هذا مما قطفناه من كلام زويمر مع تلطيف كثير من العبارات وحذف كثير منها . ونحن نجواب المستر زويمر وأمثاله ممن فيهم من هو مقتنع بعمله مبتغ وجه الله في جهده ، انه ان كان المقصود دعوة الاسلام الى الانجيل فالمسلمون يؤمنون بالانجيل الشريف و برسالة المسيح صلوات الله عليه وسلامه وان كانت الدعوة هي الانجيل في الظاهر والسيطرة الاوربية في الباطن فهذا حلم من أحلام المبشرين ، اذ لا بد للاسلام أن يستعصى على هذه الدعوة ويقف في وجهها سداً منيعاً . وان كان مقصد هؤلاء المبشرين هو خلاص النفوس والاشفاق من هويها في النار الحاطمة ، والعياذ بالله ، فالأولى بهم أن يذهبوا الى الوثنيين الذين هم أكثر من المسلمين عدداً في الدنيا ، وأخوج الى الارشاد ، بل أن يهدوا الملايين العديدة من أنفس المسيحيين الذين نبذوا الدين ظهرياً ودانوا بالتعطيل والاحاد وأخذوا يحاربون الكنيسة . فعلى الانسان أن يدبر يته قبل أن يمد يده لتدمير بيت جاره . أما المسلمون فلا حاجة الى تبشيرهم لأنهم يعبدون الاله الحق ولا يشركون به أحداً ، ولأن شريعتهم ملاءم بالفضائل والآداب ومكارم الأخلاق واقامة ميزان العدل حتى مع العدو وتحت على العلم والانسانية والحضارة واغاثة الملهوف وحب القريب ، وعند اللزوم تذرف الدموع أيضاً على البائسين .

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبد الله

للامير شكيب

أستاذنا فريد عصره ، ووحيد عصره ، حجة الاسلام الشيخ محمد عبد الله ، أكرم الله مشواه ، تعرف اليه محرر هذه الحواشي في عهد الطلب ، أيام كان هو منفياً في بيروت على أثر الحادثة العربية وذلك سنة ١٨٨٦ ، ولا زمته وأخذت عنه واستفدت منه بقدر ما وسع فتور خاطري ، واستفقت من بحر حكمته ما أمكن أن يناله قصور عارضي ، ووجدت فيه الضالة التي كنت أنشدها ، والبغية التي كنت أبحث عنها ولا أجدها ، ورأيت في فهمه العقيدة الاسلامية الشكل الوحيد الذي يرجى أن ينهض بالاسلام بعد أن آل الى هذه الحال ، وان يقلل عشاره بعد أن ظن ضعفاء العقول أن عثرته لا تقال . وما زلت بعد أن عاد الى وطنه مصر الى أن أدركته الوفاة رحمه الله أجاذبه جبل المكاتبه ، وأقف على رأيه في أكثر الأمور جزئياً وكليها ، وأستطلع منه طلع الأحوال ، وهويث الى مالا يبثه الى غيرى من سوانح فكره ، وذوات صدره وبينما كان بعض حساده يتهمونه بمباشرة الدولة المحتلة ومواقفة اللورد كرومر كان يكتب الى قائلاً : « الأحوال هي مما يتعاضم له الأثم ، ويعجز عن وصفه القلم » فكنت أعلم أنه ما أراد الاتخفيف الداء ، وتقريب أجل البلاء ، وتمهيد طريق الجلاء وما زال شأنه يعلو ، وحقيقته تظهر ، وجواهره ينجلي بالحك ، وعقيدة فضله تتمحص من الشك ، الى أن اتفق الناس على كونه أحد أفذاذ الشرق الذين قلما جاد بهم الدهر ، وواسطة عقد المصلحين المجددين في هذا العصر ، وظهر أن طريقته الاسلامية العصرية ستزداد مع توالي الأيام انتشاراً ، وتكون هي طريقة المستقبل ومعول الآتي

ولقد كان جامعاً بين العلم والعمل ، فلا تجد ما يساوى فضله وبلاغته وثقوب أفكاره ، وقوة ملكته في الفلسفة ، سوى علو مبادئه ، وبعد همته ، وغزارة مروءته ، وطهارة أخلاقه ، وهيئات أن يأتي الزمان بمثله

ومن حسناته الكبرى ، وأيديه التي ملأ بها طباق العالم الاسلامي براءاً أخذته بيد الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا في نشر مجلة « المنار » التي هي لسان حال ذلك المصلح العظيم وترجان أفكاره . فهي والحق يقال أحسن مجلة ظهرت في باب الإصلاح الديني وتطهير الاسلام من شوائب البدع واعادته سيرته الأولى في عهد السلف . وتأليفه مع المدنية الحاضرة . كما أن الاستاذ السيد رشيداً المشار اليه هو الأولى بأن يخلف الأستاذ الامام الشيخ محمد عبد الله في مشروعه وفقه الله وسدد خطاه .

الاستاذ الاكبر السيد محمد رشيد رضا

لقد كتب

ويطول العهد بعد الأستاذ الأکبر السيد رشيد فصح الله في أجله حتى يقوم في العالم الاسلامي من يد مسده في الاحاطة والرجاحة وسعة الفكر وسعة الرواية معاً والجمع بين العقول والمنقول والفتيا الصحيحة الطالعة كفلق الصبح في النوازل العصرية والتطبيق بين الشرع والأوضاع المحدثه مما لا شك أن الأستاذ الأکبر فيه نسيج وحده انتهت اليه الرئاسة لا يدانيه فيه مدان مع الرسوخ العظيم في اللغة والطبع الريان من العربية والقلم السيال بالفوائد في مثل نسق الفرائد والخبرة بطبائع العمران وأحوال المجتمع الانساني ومناهج المدنية وأساليبها وأنواع الثقافات وضروبها الى المنطق السديد الذي لم يقارع به خصما مهما علا كعبه الا أخمه وألزمه ولا نازل قرنأ كان يستطيل على الأقران الا رماه بسكاته وأجله . وأجدر بمجموعة « المنار » أن تكون المعلمة الاسلامية الكبرى التي لا يستغنى مسلم في هذا العصر عن اقتنائها كما أن التفسير الذي وفقه الله به لكشف أسرار كتابه العزيز هو من آياته الباهرة التي خلدت اسمه في هذه الأمة وقرنته بكبار الأئمة وله من المواقف الشريفة في النضال الديني عن الاسلام والمراماة عن عقيدته الصافية ومن الكتب الجدلية في رد شبهات أعدائه من أبناء الملل الأخرى ومن الملحدة والمعطلة ما لا يقدر أحد في عصرنا هذا أن يدرك فيه شأوه ولا يستطيع جهبذ من جهاذة الاسلام أن يبلغ فيه مداه ولا نصيفه . انه الرجل الذي لودعا كل مسلم باطالة حياته حباً بخدمة الاسلام والمسلمين لكان بذلك جديراً . وليس في كلامنا هذا شيء من الاطراء ولا ثمة ما يدعوننا اليه وانما أمرنا بأن لا نبخس الناس أشياءهم وهو أمر الهى صريح كما أننا لسنا ممن يرى المعاصرة حجاباً عن تقدير الفضائل قدرها بل نرى أن النصف يجب أن يزن أقدار الناس في الحياة وبعد المات بميزان واحد وان كان من ضرائب البشرية أن تقسو على الأحياء وأن تحنو على الأموات وأن لا تعطى الانسان حقه غير منقوص الا اذا فات

ولقد حرّر السيد رشيد تاريخ أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله في مجلدين كبيرين يزيدان على ألفي صفحة وسيعززها بمجلد ثالث فيكون من الفضول أن نقول انه لا تاريخ للشيخ محمد عبده غير هذا التاريخ وهو الذي فيه ترجمة حاله بتفاصيلها وحياته من المهد الى اللحد مع ذكر منازعه بدقائقها وعقائده بحقائقها ومنشأته بنصوصها وأخبار الحوادث التي خاضها والمسائل التي راضها وقد دخل في هذا الكتاب تاريخ السيد جمال الدين الافغانى وسير أعلام آخرين وتلخيص الحوادث العربية في مصر وروايات كثيرة عن الخديوى السابق ووثائق تاريخية لا توجد في كتاب آخر ومباحث عقلية وشرعية وسياسية وأدبية ولغوية لا يعثر القارئ على مثلهافي غير هذا الكتاب . وللفقير اليه تعالى راقم هذه الأسطر في الجزء الأول من هذا السفر الجليل فصل عن حياة الأستاذ الامام ايام كان في بيروت وكنا متصلين به وهو نحوم من ١٤ صفحة ولهذا الفصل تمة وعد الأستاذ الرشيد بنشرها في الجزء الذي لم يظهر بعد

ولما كان الأستاذ السيد رشيد من كبار المحدثين وله في هذا الفن من الطول ما ليس خافياً عن أجنذ فقد امتزج خلق التمهيص بدمه ولجه وأصبح لا ينشرح صدره الى الخبر الى اذا وثق بأسانيده وآمن بامانة رجاله . وقد يسوق الرواية من جملة طرق الى أن يثلج بها الصدر ويطمئن لها الفكر . وهذه طريقة السلف عندنا لا يروون شيئاً لا من الأحاديث النبوية وأخبار الصحابة لحسب بل لا يروون شيئاً من الأشعار والآداب وسير البشر والحكايات الا عنعنوه مسلسلاً وربما أشاروا الى درجة رجاله فقووا وليئذوا كما لا يخفى على من طالع كتبهم وكانت له ألفة بطريقتهم . وهذه الطريقة هي اليوم طريقة الاوربيين أيضاً لا يروون خبراً ولا ينقلون جملة ولا أثراً الا وضعوا في الحاشية مأخذها والكتاب الذي أخذوها عنه مع ذكر الصفحة ومع ذكر طبعة الكتاب وتعيين المطبعة احياناً وكل ذلك توثيقاً للنقل ونصحاً بالتبليغ وتمهيداً للحكم الصحيح الذي لا يتهياً للقارئ الا بعد مقدمات صحيحة ويثبات رجيحة

ومن نفائس تأليفه السفر الذي أخرجه مؤخراً تحت عنوان « نداء الى الجنس اللطيف » فيه بيان حقوق النساء في الاسلام وتحقيق مسائل اجتماعية تدور أكثر من كل المسائل في هذا العصر مثل تعدد الزوجات والتسرى والحجاب والسفور والطلاق وما يتعلق بأزواج النبي ﷺ من الأحكام والحكم وتكريم النساء وبر الوالدين وتربية البنات وغير

ذلك قد جاء الأستاذ في هذا الكتاب بالآيات الينيات على حكمة الشرع الاسلامي وغفلة
المعتزين عليه جهلاً أو تجاهلاً . ولا يسعني الا توصية الخلق بمطالعة هذا الكتاب اذ ذلك
أحسن ما يمكن وصفه به . ان الجواد عينه فراره . ولكني أورد شذرة واحدة من هذا
الكتاب من قبيل التمثيل ليقبس القارئ عليه قال في باب التسري الصحيح في الاسلام :
« كل ما كانت عليه الأمم القديمة وكل ما عليه الامم الحاضرة من التسري واتخاذ
الأخدان فهو في شرع الاسلام من الزنا المحرم قطعاً الذي يستحق فاعله أشد العقاب وكل
من يستبيح هذا الفجور الخفي وما هو شر منه من السفاح الجلي فهو برئ من دين الاسلام
» وأما التسري الشرعي المباح في الاسلام فهو خاص بسبايا الحرب الشرعية اذا أمر امام
المسلمين الأعظم خليفة الرسول ﷺ باسترقاقهن وانما يكون له أن يأمر بذلك اذا ثبت عنده
بمشاورة أهل الحل والعقد أن المصلحة فيه أرجح من المنع عليهن بالعق ومن اقتداء أسرى
المسلمين وسباياهم بهن ان وجد عند الأعداء سبايا وأسرى منا . فليس الاسترقاق واجبا في
الاسلام لكنه يباح اذا كان فيه المصلحة التي لا يعارضها مفسدة راجحة . ولكل حكومة
اسلامية أن تمنعه بل منعه من مقاصد الاسلام العامة والاسترقاق المعهود في هذا العصر للسود
والبيض كله باطل في الاسلام فالتسري بالنساء اللاتي يخطفهن النحاسون أو يبيعهن الآباء
والأقربون أو يغريهن التجار والقوادون كله عصيان لله ولرسوله »

فن مطالعة هذا المثال تعلم أن ما يفهمه السيد رشيد رضا من أسرار الشرع لا يفهمه
غيره . ولو كان أحد الفقهاء الجامدين وسئل عن هذا الأمر لأجاب بلا تأمل : ان
الاسترقاق مباح لا بل حرام منعه وان سبي نساء الكفار جائز بلا نزاع وحرام منعه وهكذا
جاء الاسلام والأمور الشرعية لا تعمل بل يجب أن نقبلها على علاتها . فان قلت له : ان هذه
الطرق غير مألوفة في هذا العصر وان الاستمرار عليها مضر بالامة الاسلامية وما يجر لها
المقت والعداوة قال لك قولاً واحداً : هذا هو ديننا ولا نعلم غير هذا . ولم يفكر فيما وراء
هذه الأحكام بهذا العصر من الضرر بالاسلام والخطر عليه

أما الأستاذ السيد فانه يصرح لك بما يحفظ من النص ويفهم من روح الشرع بأن
الاسترقاق مباح الا اذا عارض ذلك مفسدة راجحة وان لكل حكومة اسلامية أن تمنعه لأن
منعه هو من مقاصد الاسلام العامة . ثم يفتيك بأن السبي في الاسلام لا يجوز الا بأذن
السلطان وهذا الاذن من السلطان لا يصح له بمجرد رأيه بل يجب أن يؤخذ فيه رأي عقلاء
الامة الخ

الفصل الثانى

في

الجامعة الاسلامية

اليقظة الاسلامية شأن كل انقلاب عظيم ، نشأت نشوءاً ملتبساً فاشتبه بعض متجهاتها ببعض اشتباهاً كبيراً. ولا عجب فذلك انما هو من طبيعة كل دور من أدوار اليقظة والتنبه وأطوار الانتقال والتحول . فقد بدأت اليقظة الاسلامية بالدعوة الوهابية الدينية الإصلاحية ، ثم أخذت تحتاز أدواراً عديدة متشعبة المناحي وأحياناً متناقضة الصفات . وقد سبق لنا فبسطنا الكلام فى الفصل السابق من هذا الكتاب على متجه الاسلام اليوم ومسيره . ومنتحاه فى سبيل الإصلاح المترقى على حسب ما تقتضيه طبيعة النشوء ، وأوضحنا أن روح الإصلاح ما فتئت تدب فى كل عرق من عروق العالم الاسلامى ديباً طبيعياً هائلاً ، فتدفعه الى الأمام دفعاً متواصلاً ، ولم نغفل مبلغ ما للحضارة الغربية من التأثير فى ذلك . وقلنا فوق جميع هذا ان المصلحين الأحرار الذين تناط بهم الآمال فى احراز الفوز والغلبة ، مبرحوا الأقلين عدداً ، بينما سواد المسلمين ما انفكوا ينتفضون ممزقين حجب الجهل ، ويستيقظون من هجعتهم استيقاظ المدحور ، يقودهم قادة يختلفون كل الاختلاف عن المصلحين الأحرار قادة هم أميل الى ركوب خطط العنف والمشاكسة ، منهم الى انتهاج مناهج الرفق والمودعة . يؤثرون مجافاة الغرب والاعراض عن الأخذ عنه ، الى مقاومته وايفار الصدور عليه . بيد أن هذا التيار الذى يشيره ويوقد ناره هؤلاء القادة وأمثالهم ، وشأنه شأن كل تيار مرافق لحال الانقلاب مصاحب لدور الانتقال ، لم يستقر على قرار ، ولا عرف لأفقه حد ، ولا وضع مجراه ولا بان متجهه بيباً تاماً بعد ، وهو على اختلاف صفاته ومنقلباته لا يخرج عن وقوعه فى مضطرب « الجامعة الاسلامية » و « العصبية الجنسية » وهاتين باسطون الكلام على :

﴿ الجامعة الاسلامية ﴾

الجامعة الاسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام انما هى الشعور بالوحدة العامة.

والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الاسلامي . وهي قديمة بأصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة ؛ أي منذ شرع الرسول يجاهد فالتف من حوله المهاجرون والأنصار معتصمين معه بعاصمة الاسلام لقتال المشركين . وقد أدرك محمد ﷺ خطورة الجامعة وعلو منزلتها في المسلمين حق الادراك ؛ وعلم كل العلم ما لها من عظم الشأن وجلل المقام في قلوب المؤمنين ؛ فغرس غريستها بيديه في نفوسهم ؛ فتمت وتغلغل ، وامتدت جنورها وبسقت أغصانها وفروعها وينعت ثمارها . فقد كر عليها أكثر من ثلاثة عشر قرناً فما أوهن كروور هذه القرون من الجامعة الاسلامية جانباً ولا ضعضع لها كياناً ؛ بل كلما تقادم عليها العهد وتناسخ الملوان ازدادت الجامعة شدة وقوة ومناعة واعتزازاً . حقاً ان الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصراني والنصراني . ولا ينكر أن المسلمين يتقاتلون بعضهم مع بعض قتالاً شديداً ؛ بيد أن هذا الجدل ليس له من الشأن أكثر مما لأحققر نزاع ينشأ بين أفراد الاسرة الواحدة ؛ المشتبكة الارحام ؛ اذ لا حقد في الاسلام فعند الشدائد تذهب الاحقاد من بين المسلمين ؛ فيصطلحون على الأمر الذي فيه يختلفون ويتألبون جوعاً متراصة متهاسكة لقتال العدو المهاجم ورد الخطر الداهم . ومن أحب أن يقف حق الوقوف على ما أراده الاسلام من غرض الجامعة وغايتها فلينظر الى حال المسلمين اليوم والى تيار هذا التعاطف والتشاكي يعلم سر الجامعة ومكائنها في نفوس المسلمين . وفي الواقع ليس من دين في الدنيا جامع لأبنائه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العامة والاستمسك بعروتها كدين الاسلام . ان المسلمين قد افتتحوا بلاداً عديدة ورقاعاً كبيرة في الأرض منتزعيها من النصرانية والبرهمية^(١) واستأصلوا شأقة المجوسية وعلى امتداد هذه الفتوحات واتساع آفاقها ؛ فلم يسمع قط أن شعباً قليلاً كان أو كثيراً اتحل الاسلام ديناً ثم ارتد عنه . قد حدث أن أجلى المسلمون عن بعض البلاد التي كانوا قد فتحوها وشيدوا فيها ملكاً ودولة كالآندلس غير أن اجلاءهم عن مثل هذه البلاد ليس بالسائع اعتبارهم جعل بعض المسلمين يرتدون عن الاسلام

(١) لم تستقر الفتوحات الاسلامية بعد أن رسخت في الهند استقرت الحدود . بل تجاوزت الهند الى جزيرتي جاوى وصومطرة العظيمتين . فمطل الاسلام دين البرهمية فيهما وجعل أهل الجزيرتين فاطبة مسلمين

ان الوحدة الاسلامية انما هي قائمة على ركنين هما أساساها ولا ثالث لهما : الحج الى بيت الله الحرام في مكة المكرمة ، والخلافة . وقد غلب على رأى الكثيرين من رجال الغرب وهم في هذا الموضوع ، فهم ما برحوا يخالون الخلافة ، لا الحج ، العامل الأكبر والأشد الذي بسببه يتشارك المسلمون ميولا وعواطف تشاركاً مؤدياً الى اعتزاز الوحدة وازدياد منعتها وامتدادها وانتشارها . على أن هذا لمن الوهم الصرف فالأمر حقا على الضد منه . ان محمداً ﷺ قد فرض الحج على من استطاعه فرضاً مقدساً ولذلك ما زالت مكة المكرمة حتى اليوم مجتمعاً يجتمع فيه كل عام أكثر من مائة ألف حاج وافدين من كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي ، وهناك أمام الكعبة المقدسة في مكة المكرمة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنة والأجناس ، ويتباثرون العواطف الدينية ، ويتباحثون في الشؤون الاسلامية ثم ينقلبون الى أوطانهم نائلين لقب « الحاج » ، لقباً يعرف صاحبه بالتقوى فيجمله اخوانه المسلمون ويعلمون منزلته بينهم ما دام حياً .

فالمقاصد والأغراض السياسية التي يناها المسلمون على يد الحج المهد لها السبيل انما هي معلومة لا تحتاج الى كبير ايضاح . بل يكفي أن نقول ان الحج انما هو المؤتمر الاسلامي السنوي العام ، فيه تتباحث الوفود الاسلامية والنواب المسلمون الطارئون من أقطار المعمور الاسلامي كافة في مصالح الاسلام ، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الاسلام والذب عن حياض المسلمين ، ونشر الدعوة في سبيل الرسالة . وفي هذا المؤتمر العظيم ، كانت قلوب قادة اليقظة الاسلامية وأبطالها ، كعبد الوهاب ، ومحمد بن السنوسي ، وجمال الدين الأفغاني ، تشعر بجلالة الواجب الاسلامي المقدس ، وتتقد من خطورة المشهد وروع المحفل غيرة على الاسلام والمسلمين

أما الخلافة فقد كان لها حقاً شأن تاريخي عظيم ، ولا سيما في أوائل عهدها . وقد بسطنا الكلام في موضع سابق على ما كان ينتابها من الخطوب وما أفضت اليه في النهاية ، اذ أطفئ سراجها الوهاج فانقلبت الى صورة وهمية بعد أن نزل هول المغول ببغداد ، ثم ما برحت هكذا حتى جاء السلاطين الترك فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة ، فاعترف عالم السنة الاسلامي لهم بهذه الخلافة (١) الاسمية . بيد أن سلاطين الترك في القسطنطينية ، وما كانوا

(١) لم يعترف الشيعة في فارس بخليفة من خلفاء السنة . واعتاد أهل البلاد الغربية في شمال أفريقيا أن يعترفوا لسلاطينهم بالاشراف بالسيادة الروحانية .

ليحرزوا من المسكاة الدينية في العالم الاسلامي مثل ما أحرزه من قبلهم الخلفاء الراشدون وأكابر خلفاء بني العباس في بغداد .

أضف الى هذا أن العرب ما انفكوا ينظرون الى الخلفاء الترك شزراً ويعدونهم المعتصبين للخلافة اغتصاباً^(١) وقد جهد السلطان عبد الحميد جهداً كبيراً لحياء عظمة الخلافة الدينية واسترداد ما كان لها من الجلالة والهيبة والخطورة في العالم الاسلامي ، فنال ما ناله ليس بسبب من أسباب الخلافة من حيث الاعتبار الديني ، بل بسبب الشعور العام الذي ظهر واشتعل في صدور المسلمين لانشاء الجامعة الاسلامية الكبرى . لهذا كان عظماء قادة الجامعة الاسلامية الحديثة على قسمين : فمنهم من اعترف بالسلطان عبد الحميد خليفة على المسلمين ، ومنهم من ناصبه العدا كالتنوسي^(٢) . هذه حقيقة غابت عن عقول كثير من ساسة أوربة حتى وجأوا من عبد الحميد فحسبوه في الاسلام كالبايا في النصرانية . وما زلنا نرى حتى اليوم

(١) ان الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة الا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن الا ملكاً عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الفاشم ، وما اتفادت الأمة الى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، الا خشية الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج (ش)

(٢) كون التنوسي ناصب السلطان العداوة هو خبر من الأخبار تهافت على تصديقه كثير من الأوربيين من جلهم مؤلف هذا الكتاب . والحقيقة أن سيدى محمد بن علي التنوسي وولده المهدي وجميع السادة السنوسية ، كانوا موالين للسلطان ومؤيدين للدولة العثمانية باعتبار أنها ملجأ للاسلام ، وبأن السلطان هو أكبر ملوك المسلمين . ولأبي النصر مقرب شاعر الحضرة السنوسية قصيدة يمدح بها سيدى المهدي من جملة أبياتها :

ولا بد أن تأتي جيوش بيرقة فتغشى غواشيا العيون الغواشيا
قبائل من سام وحام تجمعت وما جمعت الا الأسود الضواريا
زوية أهل المجد من بات حيم ير العز في نادى زوية باديا

زوية هي القبيلة التي تقطن واحة الكفرة وهي بمثابة الحرس الخاص للسادة السنوسية ، ثم يقول :

وكم بدوى في الفلا خلف نوقه يبول على الأعقاب أشعث حافيا
تلاقاه في وادى الضلالة هاوياً فأصبح نجماً في الهداية عاليا

ثم يقول :

ولو لا انتظار الاذن من سيد الورى وسلطاننا الفازي لأصبح غازيا
أى لا يمنع من أن يغزو ضعف في المنة ولا تنور في العزيمة وانما هو انتظار الاذن من السلطان الأعظم

أكثر ساسة الغرب يهيمون في ذلك فيخالون الجامعة الاسلامية انما كان مستقرها ومنبعها الخلافة ، و نرى أيضاً غالب حملة الأقلام يفيضون في الكلام فيما اذا استبقيت الخلافة في السلطان التركي على ظلمه ، أو نقلت الى شريف مكة ، أو قضى عليها القضاء الأخير ، وأى هذه الوسائل تكون خيراً لحيض جناحى الجامعة الاسلامية ، ان هذا وأيم الحق لغاية ما يرتكب من الخطأ . لا ينكر أن الخلافة ما برحت رفيعة المكانة في عيون المسلمين بلا ريب ، غير أن قادة الجامعة الاسلامية الحديثة ، ذوى العقول الثاقبة والذكاء المتوقد ، ما فتئوا منذ عهد بعيد يجردون في سبيل الجامعة الاسلامية في نطاق أوسع وأفقى أبعد ، وقد أيقنوا كل الايقان أن القوة الكبرى التى تستمدّها الجامعة الاسلامية اليوم ليست من مركز الخلافة ، ولكن من بيت الله الحرام ، حيث الحجاج اذ يأترون كل عام مؤتمراً عظيماً ، ومن انشاء الطرق الدينية المؤدية الى الجامعة الاسلامية كالطريقة التى أنشأها السنوسى ، ونحن شارعون في الكلام عليها ^(١) في موضع قريب .

من شأننا الآن أن نتتبع الأدوار المختلفة التى اجتازتها « الجامعة الاسلامية » الحديثة مبتدئين في الكلام على الدور الأول الذى ظهرت فيه للعالم ظهوراً بيناً ، وهو دور الدعوة الوهابية . أنشأ عبد الوهاب حكومته على أساس الشورى كتلك الشورى التى اشتهرت في عهد الخلفاء الراشدين . ولما تم لسعود خليفة عبد الوهاب الاستيلاء على الأماكن المقدسة في الحجاز ، خال استيلاءه هذا الخطوة الأولى في سبيل فتح العالم الاسلامي قاطبة ، فتحاً اصلاحياً دينياً تتلوه الوحدة السياسية العامة بين جميع الممالك الاسلامية . لكن لما سقطت الوهابية دون مبتغائها العظيم ، أخذ الاضطراب السياسى على أثر ذلك يشتد في العالم الاسلامي اشتداداً واسع المضطرب . وقد سبق لنا فتكلمنا على ما حدث في شمالي الهند وأفغانستان ،

(١) اقرأ البر و . موير — « كتابه نشوء الخلافة وتدهاها وسقوطها » ايدينبرغ ١٩١٥

Sir W. Muir, "The Califate " Its Rise, Decline and Fall."

وهو خير ما كتب في شأن الخلافة

والسر مارك سايكس — كتابه : « تراث الخليفة » لندن ١٩١٥

Sir Mark Sykes, "The Caliph's Last Heritage" (London 1915)

و « وفد الخلافة الهندي » وهو رسالة نشرت ملحقاً لمجلة « الشؤون الاجنبية »

"The Indian Khilafat Deligation.", "Foreign affairs"

Special supplement

ما كان في الواقع منبعثاً عن الروح الوهابية ، ويعد باعتبار الحقيقة والغاية نعيماً على الممالك الإسلامية انحطاطها السياسي ، وعلى الحكام والأمراء المسلمين فقداهم الهيبة والسلطان . فلهذا لم يكن الوجل من الغرب أو العداء له الباعث كل الباعث على انتشار الاضطراب الإسلامي في أول عهده ، لأن أوربة لم تكن حتى ذلك العهد قد حاولت فتحاً كبيراً في العالم الإسلامي ، سوى استخلاصها بعض الأصقاع من تركية الأوربية وجزائر الهند ، وأما هول الفتوح العظمى فلم يكن قد ظهر بعد ، غير أن أشباحه كانت تقترب شيئاً فشيئاً . وما كاد ينتصف القرن التاسع عشر حتى تبدلت الحال تبدلاً تاماً ، ففتح الفرنسيين الجزائر واستولت روسية على عبر القوقاس ، وبسطت انكترا نفوذها على الهند من أقصاها الى أقصاها ، جيع هذا مما جعل قادة المسلمين الحكماء في كل صقع يوقنون كل الايقان أن الإسلام إنما يحيق به خطر عظيم ، وبلاء شامل ، من جراء انتشار سيطرة الغرب عليه ، وفي هذه الغضون أخذت الجامعة الإسلامية تسير في تيار غايته مقاومة الغرب وصدّه وعداؤه ، وهي ما برحت تسير هذا المسير حتى اليوم . وقد كانت المقاومة في بادئ الأمر في موضع موضع ، وغير منظمة تنظيمياً مرتبط بالوسائل كل الارتباط ، فهب أبطال من المسلمين مثل عبيد القادر في الجزائر وشامل في القوقاس وغيرهما ، يقاتلون الفاتحين الغربيين قتالاً شديداً فكان ذلك القتال على استمراره أشبه بمبضع يزيد العالم الإسلامي جروحاً فيزداد تألماً وصراخاً ، بيد أن قتالاً مثل هذا ما كانت الغلبة فيه لابطال المسلمين ، وذلك لو هن قواهم بعد جهاد كبير طويل العهد ، ولعدم تناولهم مدداً ونصراً يستعينون بهما على المضى في القتال

وما انفكت روح العداء للغرب تهيج وتشتد ، حتى بات العالم الإسلامي قاطبة يغلي غليان المرجل على النار ، فشبّت في الجزائر الثورة المعروفة بثورة « الكايل » سنة ١٨٧١ وهب رجال الدين المعروفون بالأولياء في كل بلاد من بلاد افريقية الشمالية يستثيرون المسلمين ويستنفرونهم للحرب والجهاد ، ومن هذا النوع كانت ثورة المهدي في السودان المصري ، وهي الثورة التي دامت طويلاً وقتت في عضد الانكليز فتناً كبيراً ، وأنزلت بهم خسائر فادحة ، وما خمدت نارها حتى قبض « لكشنر » الاستيلاء على الخرطوم ، وذلك قبيل ختام القرن التاسع عشر . وانفجر في أفغانستان بركان حققد وعداء للغرب عظيم ،

فتناولت جمه مسلمى الهند فألهمت صدورهم الهاباً ، فهبوا يشقون عصا الطاعة على الانكليز الذين ما استطاعوا تسكين العاصفة الا بعد شق الأنفس وركوب الهول . وحدث مثل هذا فى أواسط آسية حيث ظهرت « الطريقة النقشبندية الدينية » فأخذت تمتد وتنتشر شرقاً حتى بلغت الأقطار الصينية فنار مسامو الصين ثورتهم الكبرى فى « تركستان الصينية » و « ينان ^(١) » واشتعلت فى جزائر الهند الشرقية الهولندية نار الثورات المتوالية ، وأشهرها ما عرف « بالحرب الاتشية » التى ما برح بعضهم متقدماً حتى اليوم .

فجميع هذه الثورات التى كانت تشب معاً فى هذا الدور فى مواضع مختلفة ، عداء للغرب وسعياً وراء غاية واحدة ، انما كان ينقصها التنظيم والتمشية على خطط مقرر ، وربط حلقاتها المفردة المبعثرة سلسلة واحدة ، وفوق جميع هذا كانت تعوزها القوة المركزية الثابتة للقيام بتدبير الأمور وانشاء الوسائل الدائمة .

وقد كانت الثورة المهدية من البواعث على شبوب هذه الثورات ، والمهدية هذه لم تكن معروفة فى صدر الاسلام ، وما ورد لها ذكر فى القرآن ، غير أنه جاء فى الأثر أن الرسول أنبأ أن رجلا يدعى المهدي سيظهر للناس ليعمل الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً ^(٢) ومنذ عهد بعيد كان ينتظر ظهور هذا المهدي لينصر الاسلام ، ويقتل الكفار ، وينيل المسامين السعادة خالدين فيها . على أن المتدبر المستقصي ليعلم أنه قد كان لهذه العقيدة تأثير ظاهر فى تاريخ الاسلام فقد قام كثيرون فى عصور مختلفة يدعون المهدية فتبعهم عدد كبير ، فلهذا أمر المهدية فى الاسلام يشبه أمر « مسيا » فى اليهودية وقد كان من طبيعة الحال أن المسلمين ، وقد شدد على أعناقهم خناق السيطرة الغربية ، باتوا يعللون نفوسهم بظهور المهدي ، فلما ظهر المهدي ، لم يأت ظهوره بالنتيجة التى تنبيل المسلمين السعادة المنتظرة ، فكان مثل المهدي مثل النار هبت فى الهشيم وسرعان ما خمدت .

ولما وصلت الحال فى العالم الاسلامى الى هذا الحد ، أدرك قادة الجامعة الاسلامية

(١) سيأتى ذكر هذه الثورات فى بحث الاسلام فى الصين (ش)

(٢) أحسن خلاصة لحديث المهدي وما ذا قيل فيه ما تراه فى فصل خاص بذلك من مقدمة ابن خلدون

الحكام جميع هذا وابتوا يوقنون أن الثورات المحدودة المضطرب تشب في موضع تقوم بها أمة من المسلمين دون الأخرى في قطر من الأقطار لا يمكن أن توهن شيئاً من قوة الغرب تلك القوة الحربية المنظمة على أحدث الأصول والفنون ، وأدركوا حق الإدراك أنه اذا رام العالم الاسلامي حقاً تحرير نفسه من اليزر الغربي ، وتحطيم هذه السلاسل الثقيلة التي يرسف فيها منذ عهد بعيد ، ودك هذه السيطرة المذلة دكاً ، وجب عليه أن يعمل عملاً منظماً شاملاً ، ويسعى سعياً أكيداً ثابتاً ، جامعاً للوحدة العامة والرابطة الكبرى . وأيقن هؤلاء أيضاً أنه لا بد للعالم الاسلامي اذا شاء هذا ، من دراسة علوم الغرب ، واكتناه عظمته وقوته وتقديره ، ونهج مناهجه ، وسلوك سبله في جميع ما يؤدي الى النهضة الصحيحة القائمة على أسس العلم وأركانه ، فانما هذا هو السبيل الذي لا سبيل الا هو للافلات من ربة استعمار الغرب والتحرر من حكم الفرنجة . وفوق جميع هذا أيقن قادة الجامعة الاسلامية أن استقلال العالم الاسلامي عن الغرب النصراني الاستقلال السياسي ، يجب على كل حال أن يسبقه التجدد الروحي العقلي العلمي الأدبي ، والتربية النفسانية الصحيحة ، وانه متى صلحت نفوس المسلمين وزكت وطابت واعتزت وباتت تعاف الذل وتأنى الضيم ، سهل اذ ذاك كل عمل في سبيل التحرر والاستقلال .

وعند هذه النقطة من الدائرة ، التقت غاية دعاة الجامعة الاسلامية ، وغاية الأحرار ، اذ أدرك الفريقان كلاهما استفحال الخطب الجلل والشقاء الاكبر في العالم الاسلامي ، وما يعانیه المسلمون من الذل والهوان ، فابتغيا تجدد الروحاني واصلاحه النفساني ، غير أنه نشأ الخلاف بينهم في وسائل هذا التجدد والاصلاح وكيفيتهما ، فقال الاحرار ان المسلمين لا مندوحة لهم عن الأخذ عن الغرب ، واقتباس الأفكار منه ، واتباع طريقته في جميع ما هو لازم وضروري لبلوغ الغاية العليا . وقال أرباب الجامعة الاسلامية ان الاسلام بذاته لصالح كل الصلاحية لكي يستمد منه جميع ما هو لازم لذلك ، فلهذا ينبغي أن يقصر أمر الأخذ عن الغرب على محاكاته في انتهاج مناهجه العملية ، والاستعانة بوسائله المادية

فحسب

وكان مبدأ سير الجامعة الاسلامية السير المنظم على الخطط المقررة ، حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، اذ كان للجامعة أسنان قامت عليهما ، هما الطرق الدينية الحديثة

النظام كالطريقة السنوسية ، والدعوة التى قامت بها فرقة من جلة العظماء وأكابر المفكرين الحكماء ، يرأسها السيد جال الدين الأفغانى ، وانا نبسط الكلام على هذين الأسين ، بادئين بالأول منهما :

ان الطرق الدينية فى الأقطار الاسلامية هى بنت قرون . وجميعها على نوع واحد من حيث انشاء « الزوايا » على رأس كل منها وازع يعرف « بالمقدم » ، ذى سلطة كبيرة على سائر اخوان الزاوية ، وقد كانت هذه الطرق فى عهدها الأول ، قبل انشاء نظام الطرق الحديثة ، منصرفة عن شؤون الدنيا ، الى شؤون الدين والانقطاع للعبادة ، فكان لكل حلقة من الاخوان رئيس يعرف « بالدرويش » . فلذلك لم يكن لهذه الطرق فى دورها الأول شأن سياسى ، ولما كان التباغض والتعادى منتشرأ بين كل طريقة وأختها ، فقد بات العمل المشترك لغاية واحدة متعذراً ، حتى ان طرقاً هذه صفاتها ما برحت حتى اليوم كثيرة ، ولكن ليس لها ولن يكون لها شأن سياسى يذ كر ما دامت على نظامها القديم .

أما النظام الحديث للطرق الدينية فقد أنشئ حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، وأهم الطرق الحديثة هى الطريقة السنوسية بلا مشاحة ، تلك التى أنشأها محمد بن السنوسى ولد السيد محمد فى محل بالقرب من « مستغانم » حوالى سنة ١٨٠٠ فى بيت عريق فى المجد الاسلامى والشرف العربى ، وحسبه مجدأ أنه متحدر من السلالة النبوية الطاهرة . وقد عرف السيد محمد منذ حداثة بشغفه بالعلم وسلوكه مسلك التقوى ، فدرس العلوم الدينية فى جامعة فاس ^(١) ، ثم أخذ يسيح فى أقطار شمأى افريقية ، داعياً الناس الى الاصلاح الدينى ، وبعد ذلك حج بيت الله الحرام فى مكة المكرمة حيث قضى مدة يأخذ عن الأسانذة الوهابيين ، فزاد بذلك علمه فانتقدت روح الاصلاح فيه . فلم يزايل مكة حتى وضع خطة ورسم طريقة للقيام بالاصلاح الذى نواه واستعان الله عليه ، ثم عاد الى شمأى افريقية سنة ١٨٤٣ فأقام بطرابلس الغرب ، وابتنى له زاوية على جبل بالقرب من « درنا » عرفت « بالزاوية البيضاء » . وقد كان السيد محمد رجلاً شديد الهيبة ، بعيد الهمة ، عظيم الاقتدار على التنظيم والاصلاح ، فقصده الناس أفواجأ من كل صقع من الأصقاع الافريقية

(١) يريد جامع القرويين الذى هو فى العالم الاسلامى ثانى الازهر (ش)

الشمالية ، بيد أنه لم يمض غير اليسير من الزمن ، حتى باتت الحكومة التركية في طرابلس تخشى أمره وتقوم وتقعده لشأنه ، فسأت العلاقات والشؤون بينه وبينها ، فنقل مقامه الى واحة « جغبوب » الواقعة للجنوب من صحراء ليبيا ، وجعل مقره هناك . ولما توفي سنة ١٨٥٩ كانت الطريقة التي أنشأها قد انتشرت انتشاراً عاماً في معظم الرقعة الأفريقية الشمالية .

وخلف « سنوسي المهدي » أباه السيد محمد السنوسي ، فأخذ يجاهد في سبيل اعزاز الرابطة وتقوية الاصلاح . وخير مثال تدرك به الروح السنوسية وتتجلى تجلياً بيناً في كيفية صيرورة سنوسي المهدي خليفة لأبيه . فقد كان للسيد محمد ولدان ، المهدي أصغرهما ولما كانا لم يزالا غلامين أراد والدهما بلاءهما وعجم عودهما ليرى أيهما أوثق إيماناً وأشدّ اقداماً ، فدعاهما اليه ذات يوم بحضور جميع أهل الزاوية ، ثم أمرهما بأن يتسلقا نخلة باسقة . فلما بلغا عاليها استحلفهما بالله ورسوله الكريم أن يهويا للحال بنفسيهما الى الأرض ؛ فهوى المهدي بنفسه فأدرك الأرض سالماً ، ولبت الأخرى في أعلى النخلة فقال السيد محمد لجميع من كان حوله : « الخلافة من بعدى انما هي لولدى هذا المهدي الذي لم يتردد في تسليم نفسه لمشية الله عز وجل » ، واقتفى السنوسي المهدي آثار والده جميع حياته فكان حاكماً عادلاً تقياً ، وعاملاً كبيراً في سبيل الطريقة الدينية السنوسية ، وفي أواخر حياته نقل مقره الى واحة « الجوف » للجنوب من « جغبوب » في صحراء « ليبيا » وتوفي سنة ١٩٠٢ خلفه ابن أخيه أحمد الشريف ، وهو سيد الطريقة ورأسها الحالي وهو ذو اقتدار وكفاية .

وقد انقضت مدة أكثر من ثمانين سنة والطريقة السنوسية تزداد انتشاراً ووثاقة ، وما برح الجهاد في سبيلها على غير انقطاع ، حتى غدت اليوم عاملاً كبيراً في تيار الحركة الإسلامية وبات لها أتباع في كل قطر من أقطار العالم الاسلامي ، فالسنوسيون في بلاد العرب كثير عددهم ، وليس هذا جميع ما في الأمر بل ان الطريقة السنوسية قد كانت عاملاً شديد التأثير في الحياة الدينية في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وما زالت أقطار شمالي أفريقيا من أقصاها الى أقصاها مستقر السنوسية ومضطربها ، فنمرا كش حتى الصومال ترى البلاد مرصعة « بالزوايا » ، وهذه « الزوايا » تستمد قوتها من الزاوية المركزية الكبرى

حيث مقام السيد السنوسى فى « الجوف ^(١) » الواقعة فى قلب صحراء « لبيبة ». ولم يستطع أحد من الغربيين الوصول الى هذا المكان ^(٢) سوى رجل واحد ^(٣). وتحيط بالجوف الصحراء ، وعلى بعد عدة فراسخ من الجوف آبار الماء ، وأما طرق الصحراء المؤدية الى مقر السنوسى تلك الطرق المضلة ، فلا يستطيع السير فيها الاكل خريت خير من رجال السنوسى ، أمير البلاد وسيدها المطاع

فسلطان السنوسى حقاً سلطان كبير . والسبب فى ذلك أن هذه « الزوايا » عظيمة وشأنها أكبر مما يبدو للقارئ عند أول وهلة . فعلى رأس كل زاوية « مقدم » وفوق المقدم « وكيل » ووظيفته كوظيفة الحاكم المدينى ، وكلا « المقدم » و « الوكيل » ذو سلطة كبيرة على أهل الزاوية جميعاً والقبيلة كافة ^(٤). فالامر الذى يصدره أحدهما مقر ونا باسم السيد

(١) يريد بها زاوية التاج فى واحة الكفرة التى فى قلب الصحراء الكبرى (ش)

(٢) قامت الرحلة الانكليزية روزيتا فوربس Rosita Forbes برحلة كبيرة الى صحراء لبيبة سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ وكان رفيقها السيد أحمد محمد بك حسنين الرحالة المصري المشهور الذى قام هو لوحده برحلة عظيمة هذه السنة (١٩٢٣) الى صحراء لبيبة . ووضعت الرحالة فوربس كتاباً بالانكليزية وصفت فيه رحلتها مؤيدة بالبرهان ومشاهدة العيان أن القوة السنوسية فى افريقية تقوم لها وتعمد كل دولة مستعمرة هناك ووسمت كتابها هذا ب « أسرار الصحراء » The Secret of the Sahara وقد وضع أحمد محمد بك حسنين كتاباً فيها لرحلته هذه . « المترجم »

(٣) هو المستكشف نختيغال Dr. Nechtigal

(٤) الزاوية فيها مقدم هو القيم عليها ، وهو الذى يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات بينها ، ويبلغ الأوامر الصادرة من السيد السنوسى . وإليه وكيل الدخل والخرج وإليه النظر فى زراعة الأراضى وجميع الأمور الاقتصادية . ومن عادتهم أن على كل فرد من أفراد القبيلة أن يتبرع بخرامة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم فى أرض الزاوية ، فلذلك يسهل عمران الزاوية بدون نفقة كبيرة ، ثم هناك الشيخ الذى يقيم الصلاة فى مسجد الزاوية ويعلم أحداث القبيلة القراءة والكتابة ، ويقعد فى القبيلة عقود النكاح ويصلى على الجنائز الخ . والزوايا السنوسية هى الملاجئ الوحيدة فى الصحراء للمسافرين والتائهين والواردين والشاردين ولا يوجد هناك مساكن مبنية بالحجر غيرها . وقد سرنا - فى طريقنا الى جهاد طرابلس - نحو شهر من ظاهر اسكندرية عند منتهى الخط الحديدى حيث زاوية سيدى هرون الفناشى الى موطن الحرب بسهل الفيض أمام مدينة بنغازى ، فكنا بعد كل مرحلة ثلاث ساعات أو أكثر نجد زاوية سنوسية ، هذا عدا زوايا كثيرة ليست مصابة للطريق السلطاني . فان لكل قبيلة زاوية هى مرجعها فى الدين والدنيا ، واذا تمددت فروع القبيلة كالعبيدات مثلاً ، فكل يخذ منها زاوية ، فلعائلة منصور زاوية ،

السوسى ، انما هو أمر واجب الطاعة على الجميع . وفي الواقع ان وراء الحكومات الغربية الاستعمارية فى شمالى أفريقيا ، من انكليزية وفرنسية وإيطالية ، حكومة سنوسية شديدة المراس قوية الشكيمة ، وهى من عزة الجانب بحيث لا تجسر احدى هذه الحكومات الاستعمارية المذكورة على مس جانبها فى أمر من الأمور . أو اخراجها فى شأن من الشؤون . فلذلك سياسة الحذر واللين متبعة ازاءها على الدوام

والحكومة السنوسية أيضا على حذر من الاصطدام باحدى الدول الغربية ، على أن هذه السياسة سياسة التروى الشديد والاحتراز لتقضى بالعجب العجاب فابرحت الطريقة السنوسية منذ نصف قرن تقوى وتعظم ، وتمتد وتنتشر ، غير أنها ماركت يوماً مركباً خشناً ، أو سلكت مسلكاً وعراً فيه شئ من الخطر على كيانها السياسى ، وفى جميع الثورات التى هبت فى أقطار شمالى افريقية العديدة ، كان السنوسيون المقيمون بنواحي البلاد يشتركون فى القتال ويشدون أزر الثائرين ، كما حدث فى الحرب الايطالية فى طرابلس الغرب وفى الحرب العالمية الكبرى ، ولكن الطريقة السنوسية نفسها كانت تجتنب الحرب جهدها ، اجتناباً رسمياً على أتم قدر .

بيد أن موقف السنوسية هذا الموقف من الاحتراز والاجتناب ، ليس متخذاً تجاه الدول النصرانية وحدها ، بل تجاه الدول الاسلامية أيضاً ، اذ ما انفك السنوسيون طيلة عهد الطريقة يذودون عن حريتهم التامة ، التى هى عندهم أعز شئ لديهم ، فيبذلون جميع ما يستطيع بذله فى سبيل صيانتها وحمايتها سياجها . وعلى ذلك لم تكن العلاقات بين السنوسيين والدولة العثمانية جارية بحرى الود والاخلاص ، بل كثيراً ما جهد السلطان عبد الحميد ، وهو

ولعائلة مريم زاوية ، ولعائلة جازية زاوية ، وللبناين زاوية ، وللعوا كله زاوية وهلم جرا ، وان الغرب أو السابل أو الفقير المترلينزل بزواية من هذه الزوايا فيقيم ما يشاء ويتضيف ما يشاء ولا يسأله أحد عن شئ . وأغلب هذه الزوايا مختار لها أجل البقاع وأخصب الأرضين ، وفيها الآبار التى لا تنزح من كثرة مائها وفى الجبل الأخضر هي بجانب عيون جارية وأنهر صافية ، كزاوية ماره وزاوية مرطوبه وزاوية أم أرزم بقرب درنه وزاوية شحات فى مدينة سيرنا القديمة الخ ، وأينما حل السنوسية عمروا وثمروا ، ووجدت الأرض اهترت وربت وأبنت من كل زوج بهيج ، وقل ان مررت بزواية ليس لها بستان أو بساتين فيها من كل أنواع القواكه والثمار ، وأصناف البقول والخضرة يزيد قيمتها مصادفة الانسان لها فى تلك البقاع القاصية عن العمران المحفوفة بالفلوات ، وقد قيدت فى دفتر عندى يحتوى معلومات كثيرة على برقة اسماء نحو ١٢٠ زاوية سنوسية فى تلك الديار وما جاورها الى السودان وليس ذلك العدد هو كل ما عندهم من الزوايا . (ش)

فى ابان مجده وسطوته ، والبطل الاكبر المجاهد فى سبيل الجامعة الاسلامية ، لاستمالة السنوسى اليه وارضائه ، فاستطاع الى ذلك سبيلا ، بل جميع ماأجابه السنوسى على ذلك هو بعض عبارات تدل على شدة الدهاء . وقد يؤثر عن السنوسى قوله : « الترك والنصارى انى أقاتلهم معا وأضر بنهم ضربة واحدة^(١) » . ولما قام محمد أحمد زعيم المهديّة ، يناهض الانكليز فى السودان المصرى وينتصر عليهم . أنفذر رسولا الى السنوسى يطلب منه نصراً فى الحرب ، فرفض السنوسى ذلك وأجاب مستهزئاً : « من هو هذا الفقير المسكين من « دنقلة » (يعنى محمد أحمد) ألاستطيع ان أكون المهدي اذاشت ذلك^(٢) » ،

فجميع هذا انما يبرهن على أن السنوسى لاينفخ فى غير ضرر ، بل انه البرهان الذى لا يرد على أن السنوسى جاد جدا غير منقطع فى اعداد ما يستطيعه من الوسائل والذرائع الكفية للاصلاح الدينى والتهذيب النفسانى واخلق خطته التى ينوى القيام بها بعد اكتمال العدة التى يجاهد فى سبيلها الآن ، انما هى افتتاح جميع البلاد الافريقية ، ثم سائر الاقطار الاسلامية ، ثم جعل العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه مملكة واحدة ، على رأسها خليفة واحد . وهذه المملكة العظمى يرتبط بعضها ببعض بالجامعة الاسلامية الكبرى ، على أن السنوسى لموقن حق الايقان أن تحرر المسامين التحرر السياسى من ربة السيطرة الغربية النصرانية ، يجب أن يسبقه انتشار التجدد الروحانى والدعوة الاخلاقية فى المسلمين ، فلماذا هو لا يفتأ يجاهد نحو ادراك هذه الغاية بتهذيب اخلاق رعيته وترقيتها ، وايتناء نفوسها التربية الصحيحة ، وتنشئتها على الفضائل الاسلامية العليا ، وهو لم يقصر الأمر على هذا فحسب ، بل يجتهد ايضا جادا اقتصاديا فى سبيل تحسين أسباب المعاش وتوفير وسائل الكسب فكثرت فلاحه الواحات الحصنة ، ونمت الزراعة ، واحتفرت الآبار الحديشة وابتليت الأزال على طريق القوافل ، وشرع فى انشاء وسائل التجارة على نطاق رحب .

جميع هذا يوضح لنا أن الطريقة السنوسية قد بلغت مبلغا من الاعتزاز والمناعة لم يسبق له مثيل من قبل . وهذا هو السبب الذى اقتضى أن تسير السنوسية سير الانتاد ، مزودة القوة مشتدة البأس ، محترزة على الدوام المجازفة بشئ من قوتها الحربية قبل اكتمال العدة اللازمة

(١) هذه الرواية ترجع أنها مدخولة (ش)

(٢) السنوسى أطلق تكذيب المهدي السودانى (ش)

وحيثوة الأجل المرتقب . وبينما تسير السنوسية على هذا الجدد الشديد ، تراها تنشر المدارس وتقيم المآوى والأكنان في جميع البلاد الافريقية الشمالية . وتعلم الناس طاعة « الوكلاء » و « المقدمين » وفوق جميع هذا . فانها قد اتجهت وتغلغلّت جنوباً في القارة الافريقية . مبشرة بالرسالة المحمدية . حيث هناك الملايين من الزنج الوثنيين طفقوا يقبلون أيما اقبال على الدخول في الاسلام أفواجاً^(١)

ولا شيء أدل على هذه النهضة الاسلامية الحديثة الكبرى ، من هذه اليقظة الروحانية الدينية التبشيرية ، الناشئة والمنتشرة خلال مئة السنة الاخيرة ولاغربة في ذلك فقد كان الاسلام على الدوام دين هداية الناس واخراجهم من ظلمات الشرك الى نور التوحيد هذا التاريخ شاهد حق على ما قام به المبشرون المسلمون في أول عهد الاسلام من الأعمال الجليلة التي لم يقم بمثلها غيرهم من المبشرين . ولا ننسى أن روح التبشير ونشر الدعوة في سبيل الرسالة لم تبرح حية على الدوام ، على انحطاط الممالك الاسلامية وتدهورها . فذلك ما انفك الاسلام طيلة القرون الوسطى ينتشر في الهند والصين^(٢) ، وبينما كانت الرسالة المحمدية تنتشر في نأى تلك الأصقاع ، كان الترك ينشرونها ويرفعون أعلامها في شبه جزيرة البلقان.

(١) اقرأ الكتب الآتية في شأن السنوسية وغيرها من الطرق الدينية : —

« الطريقة الدينية الاسلامية لسيدى محمد بن على السنوسى » — باريس ١٨٨٤

“ La Confrérie Musulmane de Sidi Mohammed Ben Es-Sénoussi ”
H. Duveyrier, (Paris 1884)

و « الطرق الدينية الاسلامية » في الحجاز « باريس ١٨٨٧

“ Les Confréries Musulmanes du Hedjaz., A. Le Chatelier, (Paris 1887)

و « العصبية القومية الاسلامية » قسنطينة الجزائر ١٩١٣ „ Le Nationlisme Musulman „

و « السنوسية » (وهو مقال بقلم أحمد عبد الله وهو من أشياع السنوسية) . مجلة ذا فورم

مايو ١٩١٤ “ The Sennussiyeh ” (The Forum) May 1914

و « السنوسى وجهاده المهدي » — مجلة « القرن التاسع عشر » عدد مارس « آذار » ١٩٠٠

T. R. Threlfall, “ Senussi and His Threatened Holy War., (Marsh 1900)

و « الخطر الاسلامى » — مجلة « القرن التاسع عشر وما بعد » سبتمبر « ايلول » ١٩٠٧

H. A. Wilson, “ The Moslem Menace „

(٢) اقرأ الفصل الوارد في هذا الكتاب على الاسلام في الصين — « العرب »

وبين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، كان المبشرون المسلمون يفتحون بلاد غربي أفريقيا^(١)، وجزائر الهند الهولندية، وجزائر الفيلين، فتحاً دينياً مبنياً. غير أنه في القرن الثامن عشر، أمسى العالم الاسلامي مرتدياً رداء الخمول، ففترت وبردت حرارت المبشرين المسلمين، وسكنت تلك الروح النائرة الجوابة.

ولبت الاسلام هكذا، حتى تباشير اليقظة الحديثة، فعادت تلك الشرارات الكامنة في الرماد تستطير، وما هي الا فترة يسيرة حتى اشتعلت نار التبشير ثانياً، فأخذ الاسلام يحوز حدوده وينبث في كل صقع من أصقاع العالم الاسلامي ماعدا أوروبا. وعند اعتبار شأن انتشار الاسلام هذا الانتشار، يجب أن نعلم العلم اليقين أن كل مسلم هو بغريزته وفطرته مبشر بدينه، ناشر له بين الشعوب غير المسلمة ما استطاع الى ذلك سبيلاً، وعلى ذلك ان نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم ولا قصر الأمر عليهم دون سواهم، هكذا، بل شاركهم فيه جماعات، عديد من السياح والتجار والحجاج، على اختلاف الأجناس. ولا يؤخذ من هذا انه لم يقم في المسلمين مبشرون ارتشفوا كؤوس الحام في سبيل الدعوة الاسلامية، فعيد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير، وذلك ظاهر بين في أمر الطرق الدينية مما لا يحتاج الى برهان، بل أي دليل أقطع من المبشرين السنوسيين، الحس الغير، الذين خرّجهم زوايا الصحراء وهم يعدون بالالوف المؤلفة، وما انفكوا يحجوبون كل بلاد وثنية مبشرين بالوحدانية، داعين الى الاسلام. وهذه الاعمال التي قام بها المبشرون المسلمون في غربي افريقية وأوسطها خلال القرن التاسع عشر الى اليوم لعجيبة من العجائب الكبرى، وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر، فقد قال أحد الانكليز في هذا الصدد منذ عشرين سنة: « ان الاسلام ليفوز في أواسط افريقية فوزاً عظيماً، حيث الوثنية تختفي من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات ». وقال مبشر بروتستنتي فرنسي: « مابرح الاسلام يسير اليقدمية منذ نشوئه حتى اليوم، فلم يعثر في سبيله الا القليل، وما زال يسير في جهات الأرض حتى بلغ قلب افريقية مذلاً أشق المصاعب ومجتازاً أشد الصعاب، غير واهن العزم فالاسلام

(١) اقرأ الفصل الوارد في هذا الكتاب على الاسلام في افريقية - « العرب »

حقاً لا يرهب في سبيله شيئاً ، وهو لا ينظر الى النصرانية ، منازعته الشديدة ، نظرة المقت والازدراء ، فلهذا هو حقيق بالظفر والنصر ، اذ بينما كان النصارى يحملون بفتح افريقية في نومهم ، فتح المسامون جميع بقاع القارة في يقظتهم ^(١) »

واما السبيل الذي يسير فيه الاسلام جنوباً في افريقية فهو من الرائع الغريب . منذ عدة سنوات عثرت الحكومة الانكليزية ، على غيرماتوقع ، على أن المبشرين الساميين محترقون « نياسلندة » دعاة الى الرسالة المحمدية ، و بعد البحث والاستقصاء واذكاء العيون ، وجدت تلك الحكومة أن المبشرين انما هم من عرب زنجبار ، قد بدأوا عملهم هذا منذ سنة ١٩٠٠ ، وأنه بعد مضي عقد من السنين على شروعهم في جهاد التبشير ، كانت كل قرية في جنوب « نياسلندة » قد أسلمت وفيها مسجد ومدرسة اسلامية ومعلمون مسامون . ومع أن هذه الدعوة كانت ، كما هو ظاهر من أمرها ، وسيلة شديدة لتضعف سلطة المستعمرين وسيطرتهم ، فلم تجسر الحكومة الانكليزية على مقاومتها خيفة ازدياد انتشارها في الاقطار الأخرى . ويقول بعض المفكرين الغربيين في هذا العصر ، انه لن تمضي مدة طويلة منذ اليوم حتى يرى الإسلام قد اجتاز « زمبازي » وانتشر في جنوب افريقية انتشاراً عاماً ، فيطبق القارة بأسرها .

وليس ظفر الاسلام في افريقية مقصوراً على الوثنية فحسب ، بل على النصرانية الافريقية كذلك ، اذ ترى الآن الذين تنصروا في غرب افريقية على يد المبشرين الفرنجة يتناقصون عدداً تناقصاً فاحشاً ، وذلك لارتداد غالبهم عن النصرانية ودخولهم في الاسلام . زد على ذلك أن النصرانية في الحبشة ، انما باتت في خطر شديد من جراء سيول الاسلام الطامية ، من بعد ما كانت فيامضي سداً منيعاً في وجه الاسلام . والغريب في هذا كل الغرابة أن الأحباش أنفسهم غدوا اليوم يدخلون في الاسلام أفواجا متلاحقة ، لاعلى يد فتوح برية بل فتوح سامية دينية . وقد قال أحد الثقات الغربيين حديثاً : « منذ خمسين سنة خلت كنت ترى قبائل الأحباش العديدة ، لا يكاد يرى فيها مسلم واحد ، أما اليوم فغالبا هذه القبائل هم مسامون مؤمنون بالرسالة المحمدية . »

(١) للاطلاع على مجاهد التبشير الاسلامي في افريقية اقرأ كتاب : —

ج . بونه موري — « الاسلام والنصرانية في افريقية » (باريس ١٩٠٦)

G. Bonet Maury. " L' Islamisme et le christianisme en Afrique. »

وربما كان ظفر الاسلام فى افريقية اليوم أعظم ظفر لاقاد المبشرون المسلمون حديثاً، بيد أن هذا ليس جميع الظفر الاسلامى بل هناك غيره مثله فى سائر أنحاء العالم . وقد أتينا فى الفصل السابق من هذا الكتاب على ذكر حركة الاحرار السياسية فى بلاد التتر الروسية، بحيث بقى علينا الكلام على النهضة الدينية العجيبة التى رافقت تلك اليقظة التترية . كان التتر ما برحوا منذ عهد بعيد فى الحكم الروسى^١ ، وقد جهدت الكنيسة الارثوذكسية الروسية أعظم الجهد لتنصيرهم ، فأدركت فى بعض المواضع بعض النجاح الذى لا يذكر ، غير أنه لما انتشرت اليقظة الاسلامية العامة ، ووصل ما وصل منها الى بلاد التتر فى أوائل القرن التاسع عشر ، هب التتر للحال يستردون اخوانهم المنتصرين الى الاسلام ، فلم يعض غير اليسير من الزمن حتى عاد جميع هؤلاء فانتحلوا دين الرسالة ، على جميع ما بذلته الكنيسة الارثوذكسية من العناية الاشقى ، ولجأت اليه من مختلف الذرائع والوسائل ، لتحول دون ذلك ، فلم تلق شيئاً من النجاح ، بالرغم مما اتخذته الحكومة الروسية من أحكام الجزاء والعقاب ، ووسائل القهر والاكرام^(١) . على أن المبشرين المسلمين التتر لم يقصروا أمرهم على هذا ، بل شرعوا فى نشر الاسلام فى القبائل التركية الفنلندية الأمية ، المقيمة فى الشمال من بلاد التتر ، غير مباينين بمقاومة حكام الروس لهم ولولا قوا من وراء ذلك من الهول مالا قوا .

وكانت النهضة الاسلامية فى الصين عجيبة لامتثل لها ، فيقتضى الحال أن نبسط كلمة فى شأنها . كان بلوغ الاسلام الصين منذ عهد بعيد ، على يد التجار العرب وكتائب جنود عربية مرتزقة . فصار على توالى الايام يختلط العرب الغرباء بالصينيين تزواجاً وتعاوناً فى أمر المعاش وغير ذلك ، بيد أنه على جميع هذه القرون التى كرت حتى اليوم ، لم يرح المسلمون الصينيون يتميزون عن سواهم تميزاً حافظاً لأنسابهم العربية التى يختلفون بها ميولاً و اخلاقاً عن عامة الصينيين اختلافاً بعيداً ، وهم أبداً يدعون لنفوسهم ميزة الشرف والعلو على غيرهم من السكان ، أما موطنهم فى مقاطعات « ينان » الجنوبية وما يليها من المقاطعات الداخلية ، وهناك بلاد مسلمة فى الصين غير هذه ، هى بلاد تركستان الشرقية التى فتحتها الصين فى القرن الثامن عشر ، وأهلها مسلمون متسلسلون نسباً من العروق التركية القديمة . وقد ظل المسلمون الصينيون جميعاً على اختلاف أجناسهم يعاملون معاملة الحسنى والرفق ،

(١) اقرأ الفصل الوارد فى آ هذا الكتاب على المسلمين فى بلاد الروسية فى عهد البلاشفة — « العرب »

حتى العهد الأخير ، اذ طفقوا يشمخون بأنوفهم نغراً وكبرياء ، فأقلق ذلك الحكومة الصينية ، فانقلبت عن الاحسان الى الاساءة اليهم واضطهادهم . لكن لما أخذت اليقظة الاسلامية العامة تجوب آفاق العالم الاسلامي بانتشارها المطبق في القرن التاسع عشر ، فبلغت الصين كما بلغت غيرها ، هب المسلمون الصينيون هبة الذعر فهاجت فيهم النعرة الدينية الاسلامية ، فأخذوا يوقدون الثورة تلو الاخرى ، حتى كانت الثورة الكبرى المشبوبة نارها سنة ١٨٧٠ في «ينان» وتركستان الشرقية ، فأظهر هؤلاء المسلمون من شدة الاستبسال والمغامرة في القتال ما لم يسمع بمثله من قبل . وقام في تركستان زعيم كبير ، وقائد مجرب ، هو يعقوب بك فاستطاع هذا الزعيم المقدم أن يجعل تركستان و «ينان» بلاداً مستقلة استقلالاً محلياً السياج عدة سنوات ، فكان يخيّل الى الكثير من رجال الذهن في الغرب عهدئذ ، ان الثوار لم يتحدثون جميعاً اتحاداً منيعاً وثيقاً ، ومنشئون دولة اسلامية ثابتة الازكان في الصين الغربية ، ثم شارعون يفتحون المملكة الصينية رقعة رقعة . وقد اشتهر يعقوب بك اشتهاراً بعيداً ، فداع اسمه وذكره في جميع العالم الاسلامي . وقد أعجب به السلطان العثماني وعظم بأسه وحنكته ، فأنعم عليه بلقب «أمير المؤمنين» في تلك الديار . وبعد أن طال القتال شديداً عدة سنوات وكثر وقوع المذابح الهائلة ، استطاعت الحكومة الصينية أن تخمد شوكة الثائرين . ولكن بعد أن جلت خسائر المسلمين في النفوس ، اذ ما برحوا حتى اليوم في قوتهم دون ما كانوا عليه من قبل . وأما من حيث حالتهم الروحانية والأدبية فما زالوا يشتملون في نفوسهم على صفات ومزاي من اباء الضيم وغياف النذل ، فلما اشتمل على مثلها سواهم . وأما عددهم اليوم فيبلغ أكثر من ١٠,٠٠٠,٠٠٠ . وعلى هذا يجب ألا يندب عن البال ان المسلمين في الصين بالغون من الشأن في عالم اسلام الغد مبلغاً عظيماً وصارون الى شأن كبير .

ولو شئنا لتوسع في الكلام على النهضة الاسلامية العامة حتى يتناول جميع فروعها في القرن الماضي ، لاستغرق ذلك الأسفار الضخام ، ففي الهند ما برح الاسلام ينتشر انتشاراً متوالياً ، وكذلك في جزائر الهند الهولندية . أما الدول الغربية الاستعمارية فانها لا تستطيع غير أن تدع هذا الانتشار الاسلامي وشأنه ، دون أن تحاول الوقوف في وجهه أو صد تياره ، والسبب في ذلك أن المسلم اليوم قد ألق الاتفاح من المستحدثات الغربية كالقطر الحديدية والبرد والمطابع في سبيل نشر الدعوة الاسلامية ، وفي ذلك من المنافع الاقتصادية التي تجتنيها

هذه الدول مما لا يخفى على أحد .

واذ بلغنا الى هذا الموضع في الكلام على الأس الأول للجامعة الاسلامية ، ننقل للكلام على الأس الآخر ، وهو الدعوة الكبرى التي قام بها جلال الدين الأفغاني وقد عرفته به من بعده .

ولد السيد جلال الدين الأفغاني في مطلع القرن التاسع عشر في « أسد آباد » بالقرب من همدان في بلاد فارس . وهو أفغاني الأرومة لا فارسي ، يتحدر نسباً ، كما يدل لقب سيادته على هذا ، من العترة النبوية الطاهرة ، ويجري في عروقه الدم العربي البحت الكريم .

كان جلال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الدهاة ، دامغ الحجة قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأن في ناسوته أسرار المغنطيسية . فلمـذا كان المنهاج الذي نهجه عظيماً . وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علو المنزلة في المسلمين ما قل أن يبلغ مثله سواه . وكان سائحاً جوّاباً طاف العالم الاسلامي قطراً قطراً ، وجال غربي أوربة بلداً بلداً ، فاكثب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع في سير العالم والأمم ، علماً راسخاً ، واكتنه أسراراً خفية ، واستبطن غوامض كثيرة ، فأعانه ذلك عوناً كبيراً على القيام بجلائل الأعمال التي قام بها . وكان جلال الدين بعامل سجيته وطبعه وخلقه ، داعياً مسلماً كبيراً فكأنه على وفور استعدادده ومواهبه انما خلقه الله في المسلمين لنشر الدعوة فحسب ، فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جلال الدين الا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لا تخبو نارها ولا يتبدد أوارها . وكان يختلف عن السنوسي منهاجاً ، فبال انكب على السياسة وشؤونها ، وذلك على علوم الدين وترقيتها . غير أن السيد جلال الدين الأفغاني كان أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الاسلامي ، وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدها وامتدت حياتها ، ورسخت في تربة الشرق ، وأدرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى ، اذا لبث الشرق الاسلامي على حال مثل حاله التي كان عليها . فهب جلال يضحي نفسه ويفنى حياته في سبيل ايقاظ العالم الاسلامي ، وانذاره

بسوء العقبي ، ويدعوه الى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير ، فلما اشتهر شأن جال خشيت الحكومات الاستعمارية أمره وحسبت له ألف حساب ، فنفته بحجة أنه هائج المسلمين ، ولم تحف دولة جالا وتضطهده مثل ما خافته واضطهده الدولة البريطانية ، فسجنته في الهند مدة ، ثم أطلقت سراحه فجاء الى مصر حوالى سنة ١٨٨٠ وكانت له يد في الثورة العراقية التي أوقدت نارها في وجه الغربيين ، فلما احتل الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ نفوا جالاً للحال ، فزابل مصر وأنشأ يسيع في مختلف البلدان حتى وصل الى القسطنطينية ، فلتقاء عبد الحميد بطل الجامعة الاسلامية بالبرّة والكرامة ، وقر به منه ورفع منزلته ، فسحر جال السلطان الداهية بتوقد ذكائه ونفسه الكبيرة فقلده السلطان رياسة العمل في سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية . ويغلب أن ما ناله السلطان عبد الحميد من النجاح في سياسته في سبيل الجامعة الاسلامية ، إنما كان على يد جال الدين المتوقد الهمة المشتعل العزم ، والتحقيق جال الدين بالرفيق الأعلى سنة ١٨٩٦ شيخاً وعاملاً كبيراً في سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه .

وهاك ملخص تعاليم جال الدين : —

« العالم النصراني ، على اختلاف أئمة وشعوبه عرقاً وجنسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص . فجميع الدول النصرانية متحدة معا على ذلك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

« الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى ككون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت في قلب بطرس الباسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها ، متغلغلا في أحشائها ، و متمشياً في كل عرق من عروقها ، وهي أبداً ناظرة الى الاسلام نظرة العدا ، والحق ، والتعصب الديني الممقوت (١) . وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان في كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى ، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الاسلامية مستوية مع الأمم النصرانية .

(١) اقرأ التمليق الخطير الشأن ، الوارد في هذا الكتاب رداً علي مقالة « الاسلام والجنود السوداء »

لكتابها روجر لوبون في (مجلة باريز) عدد ابريل ١٩٢٣ — (المغرب)

« تنتحل الدول النصرانية أعذاراً لها في كرها وهجومها وعدوانها على الممالك الاسلامية واذ لاهلها واكرهاها ، بقولها ان الممالك الاسلامية هذه انما هي من الانحطاط والتدلى بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شؤون نفسها بنفسها . وفوق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفعل هذا من ناحية ، وتذرع بألوف الذرائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحديد والنار ، للقضاء على كل حركة حاو لها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة

« جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداة الاسلام ، وروح هذا العداة متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسحق الاسلام سحقاً .

« تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم وآماله ورغباته التي تجول في صدره ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء . فان ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق تعصباً مذموماً محرماً ، هو عندهم في بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة ، والوطنية المعبودة ، وان ما يدعونه عندهم في الغرب اباءة النفس ، والشمم ، والشرف الوطني ، والعزة القومية ، يعدونه في الشرق غلوأً مكروهاً ، وافراطاً في حب الوطن ضاراً ، ومقتاً وشناً للاجنبي الغربي .^(١) »

« جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامي يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك الاطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول الى هذه الغاية الكبرى انما يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته^(٢) »

هذه دعوة جمال الدين على الايجاز ، التي أفنى حياته في سبيل نشرها بالبلاغة الساحرة

(١) منقول من مقال بتوقيع « X » موسوم ب (الجامعة الاسلامية والجامعة التركية) نشر في مجلة العالم الاسلامي (مارس ١٩١٣) ويقول كاتبه انه قد استقاه من مسلم تمة كبير المنزلة والثأان .

“Le Pan - Islamisme et la pan - Turquisme” - Revue du Monde musulman .
ومن أراد التوسع في الاطلاع على أعمال جمال الدين فليقف على كتاب (العصبية الجنسية الاسلامية) لسرفيه .

(٢) اقرأ التعليق الوارد في هذا الكتاب على السيد جمال الدين الافغانى حكيم الشرق (العرب)

والحجج الدامغة ، فكانت كالغيث الجود أصاب التربة الجذباء . ولا عجب أن يكون جلال الدين ذلك الرجل الموقظ الكبير ، وتكون كل نسمة نفخها في المسلمين عاصفة زعرعا ، وقد بات اعتداء الدول الفرنجية وعدوانها وبغيها منتشراً في كل قطر من أقطار العالم الاسلامي ، فتفاقم الخطب واشتد البلاء . على أن جلالاً ما كان يقوم بجميع هذا وحده ، بل كان غيره أيضاً من قادة المسلمين لم يبرحوا منذ منتصف القرن التاسع عشر يشنون الدعوة في سبيل الجامعة الاسلامية ، وأحد هؤلاء الدعاة العظام هو على باشا التركي الكبير ، الذي يؤثر عنه قوله : « ما يحتاج اليه المسلمون الاحتياج الأشد انما هو ازدياد النعمة الدينية فيهم ، لاتناقصها فاضمحلالها » . وقد أثر هذا القول عنه ارمينيوس قامييري ، المستشرق الهنغاري الكبير ، والعلامة المشهور ، وذلك بعيد حرب القرم ، وكان هو قد شهد بنفسه مجلساً من مجالس الجامعة الاسلامية في منزل على باشا ، حضره رسل ووفود ونواب من جميع أقطار العالم الاسلامي .

على مثل هذه الأسس بنى السلطان عبد الحميد بناء الجامعة الاسلامية وشيد أركانها وأضاف اليها كل مطعم بعيد وغاية جلية . فعبد الحميد في الواقع داهية من أعظم دهاة العصر الحديث ، وسياسي في منتهى الحصافة ، غير أنه على كل هذا كان ذا أطوار خلقية عجيبة تفضي به وساوسه أحياناً الى حد اللهم

فقد اختط الخطط الكبرى لتحقيق مشروعاته العظمى ، ثم طفق يسعى وراء ذلك بمتنوع الوسائل سعياً وان كان قائماً معظمه على شدة الخلق والدهاء فانه لم يخل في بعض المواضع من ضروب العبث وكان سلطاناً مستبداً طبعاً وسجية ، ظنين السوء بعماله ، مولعاً بأن تكون صفائر الشؤون وعظائمها معلقة على ارادته النافذة . وفوق جميع هذا ، فقد كثر من حوله الوشاة والمداهنون الذين وقفوا على سريرته وعرفوا مشربه ، فجعلوا يحسنون له أهواءه ويجارونه مع محض رغباته

وكان ارتقاؤه الى العرش سنة ١٨٧٦ في ان شديد عصب ، فقد كانت الدولة على أبواب الحرب العثمانية الروسية ، وكانت الحكومة في أيدي عصبة من الساسة يسعون سعي المصلحين في تجديدها على الطراز الحديث ، والنهج بها على المناهج السياسية الدستورية الغربية . فلما أخذ عبد الحميد بأزمة الأمور نقض جميع ذلك نقضاً ، واهتبل ساحة تضعع الدولة عند

الخروج من الحرب الروسية ، فألقى مجلس النواب وجعل نفسه السلطان المطلق لا تعالو يدّه يد ، له الأمر والنهي وحده . ولما استوثق له الأمر ، شرع يقوم بسياسته الخاصة التي نحا بها منذ أول الأمر منحى الجامعة الاسلامية .^(١) فعقد عزمه على أمر لم يعقد عزمه على مثله أحد من أسلافه الأقربين ، وهو التذرع بالخلافة لبلوغ أغراض سياسية عظيمة ، واذ أبان للآلاف كافة ، أنه فوق كونه سلطان الدولة العثمانية ورئيسها السياسي الوحيد ، فهو الخليفة الديني للمسلمين أجمعين ، أخذ يستصرخ الأمم الاسلامية في كل رقعة من رفاق العالم الاسلامي لتمديد العون اليه ، وتشد أزره بالالتفاف من حوله ، قاصداً بذلك قذف الرعب في روع الدول الغربية التي ظاهراً ربما كانت تأتمر فيما بينها وتتشاور ، وتتخذ الوسائل وتقوم باتدبيرات ، للانقضاء على المملكة العثمانية . وكان منذ عهد بعيد يدبر أمر نشر الدعوة للجامعة الاسلامية تديراً نائياً المضطرب واسع النطاق ، غالبه بالوسائل الخفية الهائلة . فعدت القسطنطينية مكة ثانية ، يلوذ بها جميع ذادة الاسلام المشتهرين بأعمال المقاومة للدول الغربية مثل جمال الدين وأنداده^(٢) ، ومن القسطنطينية صارت توفد الوفود وتنفيذ الرسل وجاءت دراكا الى جميع الأقطار الاسلامية ، حاملة رسالة الخليفة ، ألا وهي رسالة الامل المحقق في النجاة من خطر حكم الفرنجة الكافرين .

(١) كان الكاتب الفرنسي المشهور غبريال شارم أول من استشف سياسة عبد الحميد وغايته ومقصده في الدعوة للجامعة الاسلامية ، فجعل ينشر الفصول الممتعة في هذا الصدد منذ سنة ١٨٨١ . وفي سنة ١٨٨٣ وضع كتابه (مستقبل تركيا والجامعة الاسلامية) أودع فيه جميع مارجم بالغيب .

Gabriel Charmes " L'avenir de la Turquie - Le Pan Islamisme . ,

(٢) جمع السلطان اليه كثيرين من مقدمى العرب وزعمائهم ، ومشايخ الطرق فيهم ، من الحجاز ، والشام ، والعراق ، ونجد ، واليمن ، ومصر ، وطرابلس ، وتونس ، والمغرب ؛ وآخرين من زعماء الأكراد وآخرين من زعماء الارناووط ؛ لا لزوم لتسميتهم ، وأقرهم في الاستانة ؛ وأجرى عليهم الأرزاق كما هو معروف . قال لى أثناء الحرب كبير أولاده الأمير محمد سليم افندى : « كان الأارناووط في يد والدى يهدد بهم أوستريا وجميع دول البلقان . كما أنه كان يهدد بخيالة الأكراد الروسية بعظمتها كلها ؛ فتحسب للآليات الحميدية حساباً . وكان يهدد بالعرب الدول الغربية بأسرها ؛ فظن هذه الدول أنه بالعرب يخاف لها مشكلات لا تنتهى . فلا آن أصبحنا ؛ والارناووط قد خرجوا من السلطنة بعد قتال شديد معنا . والاكراد بدل أن يجاهدوا أمام الدولة في الروس ؛ صار يلزمنا أن نسوق العساكر لتطويعهم حينئذ كركنا همى في ملحمة كبرى مع الروس . وأما العرب فبعد أن كانوا عدتنا وسلاحنا لمقاومة الدول الغربية ، اتقلبوا عوناً للدول الغربية علينا . » انتهى . ومراده بذلك انتقاد سياسة تركيا في الستين الاخيرة . (ش)

وظلت دعوة عبد الحميد للجامعة الإسلامية تسير سيراً متوالياً مدة تقرب من ثلاثين سنة . غير أنه لمن الصعب الشديد أن استطاع تحديد المفعول الذي كان لهذه الدعوة الكبرى تحديداً ييناً ، والسبب الأكبر في ذلك هو أنه لما حدثت ثورة « تركية الفتاة » سنة ١٩٠٨ ، وخلع عبد الحميد توقف مجرى الدعوة للجامعة الإسلامية وفتري سيرها في المتجه الذي كانت تسير فيه . زد على ذلك أن تركية على عهد عبد الحميد لم تخض غمار حرب بينها وبين دولة غربية من الدول الكبرى ، لهذا يتعذر الوقوف وقوفاً صحيحاً على مبلغ ما كانت عليه الأمم الإسلامية من الاستعداد والأهبة لاجابة نفي الجهاد . على أن عبد الحميد قد أفلح حقاً في حمل أمراء المسلمين وقادتهم على الاعتراف بسلطته الروحانية ، فولوا وجوههم شطره وحسبوه قبلة آمال العالم الإسلامي ، وفدسوا مقامه تقديساً ، وغدا العظماء والكبراء يتقاطرون الى فروق من كل فج من أفاق العالم الإسلامي لمبايعة الخليفة الأعظم أمير المؤمنين وحامي بيضة الاسلام ، الذي مملكته مملكة حصن الاسلام والمسلمين . ولم يستطع عبد الحميد مع كل هذا أن يستميل اليه قائداً كبيراً من قادة العالم الإسلامي أعنى به السيد السنوسي ، الذي كان يخامر قلبه الريب في مقاصد السلطان وأغراضه البعيدة ، وكذلك كان الأحرار في كل مكان يعرضون عن نصرة السلطان لاستبداده الشديد . وعلى الجملة فانه ليس باليسير أن يثيقن هل كانت الأمم الإسلامية متأهبة لتلبية دعوة السلطان عبد الحميد للقيام بالجهاد الإسلامي المقدس ، فيما لو كان دعاها يوماً الى ذلك .

وفوق جميع هذا فقد استطاع عبد الحميد أن ينشر الدعوة في سبيل الجامعة الإسلامية الكبرى في أوسع آفاقها ، ويحيي الشعور بالوحدة العامة والنضام المستمسك بعضه ببعض ، في جميع الأمم الإسلامية ، احياء نشيطاً . ولم يكن يساعده على ذلك كونه خليفة الاسلام لحسب ، بل ما كان يبسطه ويبينه من جميع مآسكه وتظهره الدول الغربية من أنواع العداء ، والمقت للمسلمين والتحامل عليهم . هذا هو السبب الأكبر في أن الدعوة التي أنشأها ودبرها عبد الحميد في سبيل الجامعة الإسلامية كان لها من التأثير الشديد في نفوس المسلمين ما برح يزداد وينمو .

فلما حدثت ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ تبدلت الحال تبديلاً كبيراً في العالم الإسلامي ، فتلث الثورة الترككية ثورة ايران ، ثم أخذت شرارات الثورات تبدو فيعقبها الانفجار

فى كثير من الأقطار الشرقية ، وعلى أثر ذلك شرع يقبى فى وقت قريب فى كل قطر اسلامى تيار جديد هائل ، وظواهر اجتماعية لم تعهد من قبل ، كطلب الحكومات النيابية ، واحياء روح الجنسية والقومية وما أشبه ذلك ، مما رافقه تطور اجتماعى كبير — تطور كانت عناصره منذ أمد بعيد تزداد اختاراً فى العالم الاسلامى حتى حان أجل ظهوره فظهر رائعاً . وانا سنفصل الكلام على هذا التطور بأنواعه فى الفصول التالية من هذا الكتاب ، غير أن ما يجب تدبره مجلأ فى هذا المقام هو ما كان لهذا التطور الكبير من التأثير فى مجرى حركة الجامعة الاسلامية ، فونيت فى سيرها بعض الونى مدة كان فيها الاضطراب السياسى والقلق الاجتماعى ينتشران انتشاراً عاماً فى جميع بقاع العالم الاسلامى .

ولم تسكن هذه الفترة طويلة . فى سنة ١٩١٢ عادت الجامعة الاسلامية تستأنف سيرها ومجراها ، وكان الباعث على ذلك هو اشتداد اعتداء الدول الغربية . فى سنة ١٩١١ أغارت ايطاليا معتدية على طرابلس الغرب الافريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ماعلة سوى الاستعمار . وفى سنة ١٩١٢ تألبت الدول البلقانية النصرانية وأوقدت نار الحرب على تركيا ، فخرت تركيا فى هذه الحرب جميع أملاكها الأوربية ، فلم يبق من جميع ما كان لها فى أوروبة غير القسطنطينية معرضة لخطر الغارات عليها ، ومهددة شر تهديد^(١) . وفى تلك الفضون اتفقت انكثرة وروسية على خنق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسا على أثر معضلة « أغادير » تحرق الارم ، فعضت على مرا كش بالنواجد وأنفقت فيها المحال ، وهكذا فى خلال سنتين توالى الحملات الأوربية تترى على العالم الاسلامى ، حملات العدوان والاعتداء المحض ، فزقت ما كان باقياً منه حتى ذلك العهد سليماً شرمزق .

فنز ذلك على الأمم الاسلامية قاطبة نزول الصاعقة يصم الآذان دويها . فأخذ العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشتتلاً غضباً وحنقاً . فعادت الجامعة الاسلامية الى سابق حالها تجرى مجرى سريعاً . وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان يبنى به على غير انقطاع دعاة الجامعة الاسلامية منذ حسين سنة — الحرب الصليبية الجديدة لدك الممالك الاسلامية دكاً . وصدق جميع ما كان يذيعه جال الدين الأفغانى ، الحكيم العظيم .

(١) عند ما أعلنت الدول البلقانية الأربع الحرب على تركيا ، نشرت بلاغاً لم يشك قارئه أنه بلاغ ملوك الصليبيين فى القرون الوسطى . . . أى اعلان حرب دينية ولم نجد من الاروبيين من أنكر هذا الامر. (ش)

وأخذت تتأجج الجامعة الإسلامية تنبدي ، ففي طرابلس الغرب انبرى الترك والعرب يقانلون جنباً الى جنب بروح عجيبة تبغثها فيهم دعوة الجامعة الإسلامية ، من بعد ما كانوا قبيل ذلك على حال من الازورار والتنافر شديدة فلقى المعتدون الطليان أمامهم مقاتلة مستبسلين ملء صدورهم ضرم من التعصب لا يطفأ ، ضرم يزيده العالم الاسلامي وقيداً^(١) مما حل ساسة الغرب على الجزع والارتباك شديداً ، فأخذوا يتساءلون في الخطب الكبير ، وفي الذي عساه أن ينفجر انفجاراً عاماً في مشرق العالم الاسلامي ومغربيه . فقال « غبريال هانوتو » وهو وزير فرنسي من وزراء الخارجية السابقين : « بالله لماذا وجدت ايطاليا طرابلس غير المحصنة كوكر الزناير الساعة ؟ أفليس لأنها لا تحارب تركية وحدها بل العالم الاسلامي أجمع . فإيطالية جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومنتهاتها » ولم يكن خنق انكلترة وروسية لثورة ايران ، ومحق فرنسة لاستقلال مرا كاش بأقل استنارة للعالم الاسلامي من حرب طرابلس ، فزادات نار الغضب احتداما .

غير أنه لما نشبت الحرب البلقانية ، طفع الكيل وبلغت الروح التراقي . فبات المسلمون من الصين حتى الكونغو ، يرتقبون أنباء الحرب ونتيجتها ، وقلوبهم على أحر من جمر الغضا ، فلما طير البرق نبأ الكارثة التركية في البلقان أجفل العالم الاسلامي للخطب أيما اجفال ، وبلغت صرخاته عنان السماء . فقال أحد مسلمي الهند في نداء وجهه الى بني قومه : « يوقد ملك اليونان نار حرب صليبية جديدة ، ويستنصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الاسلام ، ويأتمر وزراء الروسية في بطرسبرج لرفع الصليب وشكه على قبة مسجد « آجيا صوفيا » فالיום هم يأتمرون ويتشاورون في هذا الخطب ، وغداً يفعلون مثل ذلك للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب - المسجد الأقصى في بيت المقدس . » أيها المؤمنون الاخوة ! اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . فان

(١) عند ما كنا في معسكر أنور بعين منصور بأعلي درنه ، كنا نهد مجاهدين لا من برقة ، ولا من طرابلس فحسب ، بل من تونس ؛ والجزائر ؛ والمغرب الأقصى ؛ ومن السودان ، ومن مصر ، ومن الشام ، ومن بلاد الترك ؛ وقدم علينا ٥٠ مجاهداً من بلاد الافغان وذكر السنور جيولتي في خاطراته التي نشرها مؤخراً ؛ وكان أيام الحرب الإيطالية رئيس نظار ايطالية ، أن انكلترة ألحت عليه بالاتفاق كيفما كان مع تركية ، إنهاء لهذه الحرب التي أثارت جميع العالم الاسلامي ، حتى وردت على انكلترة الاختناجات ليس من الهند فقط ، بل من كل بقاع العالم الاسلامي حتي الصين : (ش).

الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم الى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ، ويجاهد في سبيل النود عن حياض الاسلام والمسلمين . »

وقال أحد زعماء المسلمين في الهند مخاطباً الدولة البريطانية : « اتنا ننادي الحكومة البريطانية بملء أفواهنا أن تقام عن سياستها العدائية لتركيا ، اتقاء لانفجار بركان المئات من ملايين المسلمين ، انفجاراً يجر البلاء عظيماً »

وأعجب ما بدا ، أن أخذ المسلمون يوجهون النداء تلو النداء لغير المسلمين من شعوب آسية ، يدعونها الى التآزر والاتحاد ازاء الغرب المعتدى ، فكان هذا الأمر وإيم الحق غريباً في بابه لم يسبق له مثيل منذ نشوء الاسلام . فان محمداً ، وقد جاء بالقرآن مصداقاً للتوراة والانجيل ، وقال انه هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، بعث الله من قبله موسى وعيسى ؛ أمر المرسلين باحترام النصارى واليهود وسماهم « أهل الكتاب » ، تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان . وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير ، فما كانوا قط يوماً مبغضين للنصارى بفضهم للوثنيين من البراهمة والبوذيين والكنفوشوسيين أهل الشرق الاقصى (١) .

(١) ان الاسلام ، هو كما هو معلوم من القرآن الكريم ، يرى النصارى أقرب الناس مودة الى الذين آمنوا ، وان القرآن جاء مؤيداً ، للانجيل والتوراة ، وكان ضلع المسلمين في صدر الاسلام هو مع النصارى بالتخصيص ، بدليل انه لما وقت الحرب بين الروم والفرس وتقلب الفرس على الروم ، حزن الصحابة يومئذ حزناً شديداً ، فنزلت الآية الكريمة « غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع سنين » فلما صدق قوله تعالى بتقلب الروم على الفرس بعد بضع سنين ، فرح الصحابة فرحاً شديداً ولم يكن ذلك لكون الروم أقرب اليهم جنساً من الفرس ، بل الروم والفرس بالنسبة الى العرب على السواء ، بل لكون الروم أهل كتاب والفرس يومئذ عبدة نار لم يكن الله شرح صدرهم للاسلام . ولما غزا العرب الشام ، أوصى الخليفة أبو بكر الصديق بالنصارى ورهبانهم خيراً في خطبة مشهورة . ولما حضر الخليفة عمر بن الخطاب الى بيت المقدس كان من حسن معاملته للنصارى ما هو مشهور أيضاً في التواريخ . وروى المؤرخون ان الامام عمر زار كنيسة القيامة وبينما هو فيها أدركته الصلاة فأراد أن يخرج من الكنيسة صلى فدعاه بطريرك صغونيوس الى محل داخل الكنيسة صلى فيه ، فأبى فألج عليه بالرجاء فأجابه : كلا . يأتي المسلمون بمدى فيقولون هنا صلى عمر فيجطلون هناك مسجداً في وسط كنيتكم . وهكذا كان الخليفة الأول والثاني يريعات حرمت النصارى ، ومنسوب الى سيدنا عمر عهد عهده الى النصارى فيه من البر بهم ما ليس فوقه مزيد . ولكن سياسة أوروبا من أيام الصليبيين الى هذه الساعة ، تدكرت هذا الصفاء ، وما زالت تذكره حتى بلغ من حق المسلمين اليوم أن صاروا البواحدة مع البراهمة في الهند ، والبوذيين في الصين ، لابل الفتيشين في أواسط افريقية على الأوربيين . (ش)

بيد أن هذه الحال شرعت تنقلب وتتحول منذ الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ ، اذ ظفرت اليابان ، الدولة الشرقية الوثنية « الكافرة » ، على دولة غربية نصرانية ، ودقت عنقها بقاءً ، فهب غالب المسلمين يتهيجون لانتصار اليابان هذا ، ابتهاجاً ملؤه الفخر الشرق والحجاسة الاسلامية ، وتمنى كثير من رجال الجامعة الاسلامية ودعاتها لو ينتحل أبطال اليابان الاسلام^(١) وشرع في تحقيق هذا الأمر العظيم ، واتمست وسائل التقرب من اليابان ، ثم أنشئت العلاقات معها ، وأنشئت الصحف العديدة لنشر الدعوة ، واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الاسلامي الكبير ، فأوفد السلطان وفداً الى اليابان على بارجة حرية ، وأخذ العالم الاسلامي بسبب ذلك يلهج بحديث اسلام اليابان ، ويتناقل الأنباء في هذا الصدد ، ويتباحث فيه ويحجذه أشد التحجيز . قالت صحيفة مصرية سنة ١٩٠٦ : « ان بريطانيا العظمى ، وفي حكمها ستون مليوناً من المسلمين ، لتخشى كل الخشية أمر اسلام اليابان ، الأمر العظيم الذي اذا كان ، تغير على الأمر مجرى السياسة الاسلامية العامة تغيراً كلياً هائلاً . » وقال شيخ من شيوخ مسلمي الصين : « اذا شئت اليابان أن تدرك منزلة لم تدرك مثلها دولة فيما مضى ، وأرادت أن ترفع شأن آسية على شأن سائر القارات ، فلا يتم لها ذلك بته الا باتحاطها الاسلام ديناً . »

فاستقبلت اليابان وفد المسلمين استقبالا جليلاً ، وأحلته محل الرعاية والاكرام ، بيد أنها لم تكشف عن رغبة في الدخول في دين الرسالة . وكانت النتيجة أن وضع أساس للعلاقات الودية الحبية بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة في آسية . ومما زاد في ذلك التقرب ، فأخذت عرى الولاء تتوثق ، الحرب البلقانية وما تجلى فيها ومن حولها من المطامع الاستعمارية الهائلة . ويمكن العلم بحالة شعور المسلمين ومبلغ ما آلت اليه من الاضطراب

(١) جاء أحد أمراء الأسرة المالكة في اليابان ، في أيام السلطان عبد الحميد الى الاستانة ، فيينا هو في الحديث مع السلطان ، اذ جاء ذكر الأديان فقال له السلطان : « بلغني أنكم تبحثون عن دين ، فان كان الخبر صحيحاً ، فأنا أوصيكم بالاسلام . » فقال له الأمير الياباني : « ليس الخبر كما بلغ جلالكم ، بل نحن متمسكون بديننا . » قد سمعت ذلك من فم العلامة المرحوم منيف باشا ، ناظر اعارف الشهير ، في أيام عبد الحميد ، وكان صدوقاً حراً ، ثقة في كل ما يرويه ، ومع ما كان عليه من شرف الطبع ، لم يكن متظاهراً بالتدين . فليسمع ذلك من يزعمون أن اليابان لم تترك في المدينة الا بعد ان خلعت الدين ، ونبذته ظهرياً . (ش)

والاهتياج يومئذ ، بالوقوف على الصرخات الندائية المتوالية التي أخذ المسلمون بوجهونها نحو الهندويين (الهندوس) . مثال من ذلك نداء عظيم الخطر والشأن ، موسوم : « رسالة الشرق » جاء فيه ما يأتي : —

« يا روح الشرق !! ألا هي من مرقدك وادفنى عن الشرق هذا الطوفان الغربي ، طوفان عدوان الفرنجة وبغيهم واعتدائهم !! »

« ايه ابناء هندستان !! كونوا لنا عوناً ونصراً بحكمتمكم ، شدوا أزرنا بحضارتكم ، وتهذيبكم ، كونوا لنا نصراء بخالد قوتكم ، قوة الهندويين آبائكم وأجدادكم . دعوا قوة الأرواح الكامنة في قم جبال حملايا تنبثق فقد حان لها ، وحق من أوجدناها ، الانبثاق ، املاؤا الجرب بصلواتكم الى الله الحرب لينصر الحق على القوة الغاشمة ، ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً ، وارفعوا أصوات دعواتكم في هيا كل ربوات آلهتكم أن تهلك جيوش الأعداء المعتدين »

فن تدبر هذا المآل الذي آلت اليه حالة المسلمين ، ولا سيما تقربهم من « الكفرة » ، وتوثيق عرى الولاء بينهم وبينهم ، لا يسعه الا تكبير هذا الأمر وتعظيمه ، والتعجب والاستغراب ، ولم يكن هذا التبدل الهائل مقصوراً على مسلمي الهند وحدهم ، بل شمل أيضاً مسلمي الصين . فقد قالت صحيفة اسلامية من صحف تركستان الصينية ، تدعو الى اتحاد الصينيين قاطبة اتحاداً وطنياً منيعاً للوقوف في وجه الغرب المعتدى ، ما يأتي : « ان أوروبا قد بلغت من الطغيان والجور مبلغاً لا حد له ، فهي لا تنفك تنازعنا على حريتنا التي هي أقدس شيء لدينا ، وأوروبا ثم أوروبا ضاربتنا الضربة القاضية اذالم يستنصر بعضنا بعضاً ، ونهب معنا في يوم آت هبة المدافعين عن الأوطان دفاع الابطال » . وفي الدور الأول من الثورة الصينية ، نفذ مسلمو الصين عنهم رداء العزلة ، واصطفوا الى جانب أبناء بلادهم البوذيين والكنفوشوسيين يقاثلون معهم مستبسلين ، في سبيل الوطن ، وقد أثنى الدكتور « صن - بات - سن » الزعيم الجمهوري الكبير على مسلمي الصين بقوله : « ان الصينيين لن ينسوا أبداً نصر اخوانهم المسلمين لهم في سبيل تأييد نظام البلاد واستقلالها وحريتها (١) »

(١) كان المسلمون في حرب البوكسريداً واحدة ، وظهرة واحدة مع أبناء وطنهم البوذيين وكان لهم عمل كبير في تلك الحرب ، حتى التمسّت الدول من السلطان عبد الحميد ارسال وفد من قبله ينصح مسلمي الصين باسم الخلافة أن يمنحوا الى السلم . (ش)

فلما نشبت الحرب الكونية العظمى ، كان العالم الاسلامي أجمع مضطرباً اضطراباً عميقاً ، ومحتدماً حنقاً على الغرب المعتدى ، وشاعراً بضرورة اتحاده اتحاداً مكيناً ، وساعياً جد السعي لعقد المحالفات بينه وبين غيره من الدول الآسية ، ليتسنى له بذلك القيام بجهاده المنوى في سبيل التحرر من ربة الغرب

وربما يرى بعضهم من دواعي الاستغراب ، أنه لما دخلت تركيا في معمعان الحرب العامة في أواخر سنة ١٩١٤ ، وأعلن السلطان دعوته للجهاد لم يهب على أثر ذلك العالم الاسلامي هبته الكبرى المتوقعة . فلا يجب أن يؤخذ من ذلك أن دعوة السلطان هذه للجهاد المقدس انما كانت صرخة في واد ، أو نفخة في رماد ، كما حلت أنباء الحلفاء الغرب على هذا الاعتقاد في ذلك الحين ، فالأمر في الواقع كان على الضد مما شاع ، فقد كان الاضطراب هائجاً شديداً يما شدة في كل بلاد اسلامية في حكم الحلفاء ، ونحن ذاكرون بعضاً من هذه البلاد . فصر باتت تغلي فيها عوامل الثورة غليان المرجل على النار ، وصارت على مقربة من الزوبعة الهائلة^(١) ، فالول تملأ بريطانيا بلاد النيل أجناداً لأعداد لها ، حدثت في مصر الأهوال . وطرابلس ثارت ثورة عمياء ردت بها الطليان على أعقابهم حتى ساحل البحر ، وإيران كانت على وشك الاتحاد مع تركية لولم يحل دون ذلك تدخل روسية وبريطانية وهيهنهما جناحها ، والهند الشمالية الغربية غدت ميدان قتال عنيف لم تقف رجا حتى ساقطت بريطانيا اليه مثنين وخسين الفاً من الجنود البريطانية الهندية . وقد اعترفت الحكومة البريطانية اعترافاً رسمياً بأن جميع البلاد في حكم الحلفاء في آسية وافريقية ، كانت خلال سنة ١٩١٥ قد وقفت من الثورة العامة والبركان الهائل على قيد خطوة .

حقاً لو نطق قادة المسلمين في سائر الاقطار الاسلامية بالكلمة الاخيرة ، لكان بركان العالم الاسلامي قد انفجر وملاً الجو حمماً . بيد أن تلك الكلمة لم ينطق بها ، وقام عدد عديد من زعماء المسلمين خارج البلاد العثمانية يستهجنون دخول تركية في الحرب كل الاستهجان ، ويعدونه خرقاً في السياسة الرشيدة ، ويبذلون غاية ما في طوقهم لتسكين النفوس الثائرة والخواطر الهائجة . وقد دل عمل هؤلاء القادة والزعماء على حصافة في الرأي كبيرة . فانهم أيقنوا

(١) ثورة دارفور التي قتل فيها على بن دينار سلطان دارفور كانت من أثر اعلان الجهاد وثورة الصومال ايضاً . (ش)

أن هذه الآونة ليست بالتي توقد فيها نار الحرب العامة في العالم الاسلامي ، ولا بالسانحة التي نعتهم للدعاء حتى على الجهاد الاكبر لتقويض سيطرة الغرب على الشرق . والسبب في ذلك أن الامم الاسلامية لم تكن قد استوفت جميع الأهب المادية اللازمة لها بعد . ولم تحكم عرى التفاهم الثام بعضها مع بعض من ناحية ، ولا بينها وبين حليفاتها من الأمم الكبرى غير المسلحة من ناحية أخرى . وكانت الصلات المعنوية الادبية في الامم الاسلامية على حال غير مستوفاة الشروط . زد على جميع هذا أن قادة المسلمين أنفسهم أدركوا حق الادراك أن تركية باتت صنعة طيبة بين يدي ألمانية تنزل على أمرها اقبالا وادباراً ، وأن « تركية الفتاة » غدت تدير دفة سفينتها عصبه من الجحدة الغربيين ، غالبهم ليس من المسلمين ، أو ليسوا مسلمين الا اسماً ، بل هم من زنادقة اليهود^(١) وعلى ذلك لم يكن من رأى عقلاء المسلمين الاصطلاء بنار ألمانية ، ولا الموافقة على مارسمته من الخطط وأبدته من المطامح البعيدة للاستيلاء على العالم ، اذلاطائل للمسلمين في ذلك سوى ابدال أنيار بأنيار ، بل عولوا أن يترك الغرب وشأنه ، يقاتل بعضه بعضا فيضعض كيانه وتسلب منته ، ويهن عظمه ، وتجلجلى محبآت مقاصده ومكنوناته نحو المستقبل . بينما يهتبل العالم الاسلامي فرصة نزاع الغرب هذا النزاع الشديد ، فيستجمع من قواه ما كان مبعثراً ، ويشدد من بأسه وحوله وقوته ، ويعد العدة حتى اذا ما حانت الساعة المرتقبة ، وثب وثبة الأسد الهصور ، فانتصف له من عدو عنيد .

وكان مؤتمر « فرسايل » كاشفاً عن مقاصد الدول الغربية ، تلك المقاصد التي كان يتوقع ظهورها دعاة الجامعة الاسلامية . فلما ظهرت واضحة طفقوا يجدون في سبيل اعداد برنامج العمل اعداداً تاماً لاعيب فيه ، وتوثيق الروابط المعنوية ، واحكام الوحدة الأدبية بين الأمم الاسلامية ، وفي مؤتمر « فرسايل » حسرت الدول الغربية الظافرة اللثام عن جبينها ، وبينت غاية التبيين أنها لانزل عن مطمع من مطامعها الاستعمارية ، ولا تروم الرفق ولو أقله بالأمم الشرقية ، ولا التقليل من وطأة السيطرة الشديدة الضاربة في الشرقيين

(١) في سلايك طائفة يقال لها « الدونغه » اى العائدون النبيون ، أصلهم يهود من مهاجري اسبانية ، الذين خرجوا منها مع عرب الأندلس . وقد أسلموا منذ نحو اربعمئة سنة ، ولكن اسلاما مشوباً ببعض عقائد الأصلية . ولما كانوا المثل البعيد في الحصافة والذكاء ، والقيام على الأمور المالية بنوع خاص ، كان الدور الذي يمثلونه في الهيئة الاجتماعية التركية ، أعظم جداً مما يستحقه عددهم . وكان أثرهم في حركة الانقلاب الدستوري مهماً . فكان منهم أناس يعدون أركاناً في جمعية الاتحاد والترقي . (ش)

الأدنى والأوسط . فقد قامت هذه الدول المنصورة واقتسمت بعضها مع بعض المملكة العثمانية ، على مقتضى طائفة من المعاهدات السرية التي كانت قد أبرمتها فيما بينها خلال الحرب العامة ، وكانت تلك المعاهدات السرية في الواقع أساساً بنى عليه الصلح الذي عقد في مؤتمر فرساي . زد على جميع ذلك ، فقد كانت بريطانيا قد أعلنت في أوائل الحرب أن مصر صارت من البلاد البريطانية المحمية ، وقبيل انفضاض مؤتمر فرساي ، ظهرت بغتة معاهدة جديدة بين بريطانيا والعجم ، من مقتضاها أن هذه البلاد الأخيرة باتت في باطن الامر على الأقل ، ان لم يكن في باطنه وظاهره معاً ، معدودة من البلاد البريطانية المحمية أيضا فكان مؤدى هذه النتائج جميعها أن دول الحلفاء قد غلت الشرقيين الأدنى والأوسط بأغلال من السيطرة السياسية الثقيلة غير مسبوقه المثل .

غير أن للأمر وجهاً آخر نقيضاً لما تقدم . ذلك أن قام ساسة الحلفاء خلال الحرب مئات المرات ينشرون التصريحات الرسمية ، ان الغاية الكبرى الوحيدة في هذه الحرب الدموية المخوفة الغمار ، انما هو انشاء نظام عالمي حديث ، قائم البنيان على مكارم الأخلاق ، والأسس الصحيحة والقواعد الشريفة . كراية حقوق الأمم المستضعفة ، واطلاق الحرية لجميع الشعوب والأمم في اختيار حكمها ، وتقرير مصيرها ، وامتلاك مذكراتها . فذاعت هذه التصريحات في الشرق أيما ذبوع ، واختزتها الأمم الشرقية لا بل حفظتها عن ظهر قلبها وأخذت ترتلها ترتيلاً . فلما وجد الشرق أن الصلح لم يبن على شيء من تلك القواعد والأسس الصحيحة ، ولا على مقتضى مئات التصريحات المحفوظة ، بل على المعاهدات المقطوعة بين الدول بعضها مع بعض سراً وخفاء معاهدات الجشع الاستعماري والحكم والفتح ، لخدائن ما احتدم غضباً ، يكبر نوازل الجور والبغي ، ويعظم سوم هذا الخسف والذل ، فأخذت مراحل العداء تشتد غلياناً في كل صقع من أصقاع الشرق ، فاكفهر الجو وقصفت الرعود منكرة بأهول الصواعق . ولم يكن هذا بالحادث المستغرب ، اذ قد سبق للكثير من الخبراء العقلاء الغربيين ، الراسخين علماء بالأمور الشرقية ، فأذنروا الدول الغربية المرة تلو المرة قبل انفضاض مؤتمر « فرساي » بسوء العقبى الواقعة في الشرق ، وبانفجار عظيم لا بد منه ، من هؤلاء المنذرين « ليون كايتاني دوق سربونيت » وهو ثقة من ثقات الطليان في شؤون العالم الاسلامي ، فقد قال في ربيع سنة ١٩١٩ في جلة حديث له

ذكر فيه نتيجة الحرب العامة فى الشرق : « ان الحرب الكونية العظمى ، قد هزت شجرة الحضارة الشرقية فاهتزت اهتزازاً بلغ أقصى الجذور فى التربة ، وبعثت فيها روحاً عجيبة . ان الشرق أجمع ، من الصين حتى أقصى سواحل البحر المتوسط ليميد ميداناً غنياً فى كل رقعة و بلاد ترى نار العداء للغرب مشبوبة فى مرا كس الفتنة ، وفى الجزائر الثورة ، وفى طرابلس الغرب عواصف الاضطراب والهباج ، وفى مصر وبلاد العرب وليبية وسائر الأقطار الاسلامية الحركات الوطنية القومية الكبرى ، جميعها متماثلة الصفة العامة ، وموحدة الغاية : تماسك العالم الشرقى الاسلامى بعضه ببعض ، ومناهضته للحضارة الغربية ما استطاع الى ذلك سبيلا . »

فكانت هذه الكلمات كأنها رؤيا صادقة ، فاخذت تتحقق فى العالم الاسلامى . غير أنه لما كانت الوقائع الأخيرة التى تقوم بها الأمم الاسلامية انما تغلب عليها صفات القومية الوطنية فاننا سنسبط الكلام عليها فى فصل (العصبية الجنسية) من هذا الكتاب . وما يجب رعايته حق الرعاية فى هذا المقام هو أن العصبية الجنسية الاسلامية والجامعة الاسلامية ، ولو كان ما كان بين بعض وجوهها والبعض الآخر من الاختلافات ، فانها بجملتها متحدة متجهة نحو غرض عام واحد : هو القيام فى وجه السيطرة الغربية المرهقة ، وتبديدها وتمزيقها ، وتحرير الأمم الاسلامية من قيود السلطة الأوروبية السياسية . واذ وعينا هذه الحقائق وتدبرناها ، فاننا نأتى للكلام على حاضر الجامعة الاسلامية وواقعها المشهور :

قد هاج تيار الجامعة الاسلامية هياجاً هائلاً ، ونار ثوراناً عجيبة ، فى هذه الآونة الأخيرة والباعث على هذا انما هو الارهاق الغربى ، المتوالى الشدة والزيادة منذ الزمن البعيد . ثم كانت الحرب العظمى فاستثارت من الجامعة الاسلامية ما لم يستتر من قبل ، ثم ولى الصلح الحرب ، وهو الصلح الذى سبق لنا فأبنا قواعده وأركانها الفاسدة وما دهم العالم الاسلامى بسببه من النوازل والفواجع ، ولا يغربن عن البال أن الجامعة الاسلامية على مختلف حالاتها وتطوراتها ، يجب ألا تعتبر أنها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب رداً لاعتدائه ودفعاً لجوره خصب ، بل ان منشأها الأصل هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة ، فى المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، تلك الجامعة التى قلنا فيها

قبلا انها بين المسلم والمسلم لأقوى منها حقاً بين النصراني والنصراني . فان عرى هذه الجامعة ليست دينية فقط ، بل انها بحقيقة المعنى والمراد اجتماعية خلقية تهذيبية . وان القوانين والقواعد التي تتألف منها وتقوم عليها حياة الاسرة الاسلامية ، على مختلف العادات والأقاليم لا تتغير في موضع عنها في موضع آخر في جميع المعمور الاسلامي . قال (السر موريسون) : - « ان الحق الذي لا يمارى فيه أن الاسلام أكثر من معتقد ودين . انما هو نظام اجتماعي تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها . وقد انتقضى ما انتقضى من العهد الذي ما برح فيه الاسلام والنصرانية على نضال وزراع ، فاعرى وهن جانباً من جوانب الاسلام قط ، بل ما انفك على الدوام يشتد بعضه مع بعض متماسكا متعاضداً ، حتى صار وحدة جامعة ، نامية نمو الجسم العضوي ، سائراً سيره بفعل نظامه الذاتي المستقر فيه . »

فالمسلمون تربط بعضهم ببعض روابط هذه الحضارة رباطاً وثيقاً لا انفصام له . وباعتبار هذا المعنى ، فانها الجامعة الاسلامية انما هي عامة ، قائمة البناء في جميع العالم الاسلامي ، حتى ان المسلمين الاحرار ، على ما يحبذون من الآراء الغريبة التي يردون شرعتها ، من حيث لا يرتاحون الى دعوة الجامعة الاسلامية السياسية لتمشيها على الطرق الرجوعية ، يعتقدون كل الاعتقاد في وجوب الوحدة الاسلامية الشاملة المبنية على أصول الحرية وقواعدها . قال امام حر من أئمة زعماء المسلمين في الهند ، وهو أغا خان ، ما يأتي : (ان هناك جامعة اسلامية حققة صريحة ، ينضم الى لوائها الحركل مسلم مؤمن مخلص ، أعني بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية ، والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الاسلامية . فهذه الوحدة ، الاسلامية الروحانية التهذيبية ، يجب أن تتعهد فتنمو أبداً ، لانها عند أتباع النبي أس الحياة وجوهر النفس .)

فاذا كان هذا شعور المسلمين الاحرار الواقفين حق الوقوف على حضارة الغرب ، وتقدمه ، ورقيه ، وعمرانه ، والقائلين بوجوب الاقتباس منه والأخذ عنه ، فأشد شعور سواد المسلمين ، وهم الجاهلون الرجوعيون المتعصبون ؟ أضف الى هذا ما هو معروف في عامة المسلمين من الشنة لاعتداء الغرب وحضارته ، الشنة التي ليس منشأها في كل موضع سيطرة الغرب السياسية ، بل لمجرد الافراط والغلو في التعصب . وقد كان للحوادث السياسية

في العالم الاسلامي خلال العقد الأخير تأثير كبير في هذا الافراط والغلو، فالتهب التعصب التهاوبا بالغاً الحد تدفعه دوافع سياسية خلقية دينية وتجمعه صفة واحدة متائلة متمكنة في نفس كل مسلم، فبات السلم العامة في العمور الانساني مهددة من ناحية العالم لاسلامي. هذا هو الواقع، الذي يجب علينا أن نعترف به، وألا نخدع نفوسنا فنستصغر شأن هذه الحالة العصيبة اليوم وما يحتمل أن ينجم عنها من المخاطر الكبرى في الغد القريب.

وعلى ذلك ليس من اصابة الحقيقة في شيء أن يقال ان تركية قد سبق لها فدعت المسلمين واستصرختهم الى حرب عامة، وحاولت جهدها اقتداح زند الجهاد المقدس سنة ١٩١٤، نزولاً على أمر المانية، فلم يكن هناك الاىراء المرادفذهب الاقتداح باطلا، بل كان دليلاً على أن الجهاد الحقيقي في العالم الاسلامي بات ضرباً من المحال. ان من حله الوهم على هذا فهو على خطل شديد. اذ ان الجهاد لممكن أبداً كل الامكان. قال ضابط الماني كان من أركان الحرب في الجيش التركي خلال الحرب العامة قولاً صريحاً وهو: « ان الجهاد الذي أعلنته تركية قد حبط حبوطاً لانه في الواقع لم يكن جهاداً بحقيقة معنى الجهاد عند المسلمين ». وقد سبق لنا فأبنا كيف هب قادة المسلمين خارج تركية فأخذوا يستهجنون دخولها في الحرب. وبسطنا ماذهب اليه هؤلاء القادة من الخطط والأعمال.

فلسلسلة الاعتداءات الغربية الآخذ بعضها برقاب بعض منذ القديم حتى انتهاء الحرب العامة، وتقرير الصلح على الاسس والاركان التي ذكرنا صفاتها الفاسدة، تقريراً كان من شأنه أن بات العالم الاسلامي أجمع خاضعاً خضوع الذل والخنوع للسيطرة الغربية. جميع هذا أشعل قلوب المسلمين، فهبوا هبوب العاصفة تقتلع كل شيء في سبيلها. أضف الى ما تقدم ان الاهدب المادية ما برحت تزداد وتستوفي. وقد سبق للمستشرق الكبير العلامة ارمينوس فمبارى الخبير حن الخبرة بشؤون العالم الاسلامي، فأندز الغرب انذاراً منذ أكثر من عشرين سنة، قال فيه ان السياسة الاستعمارية النهمة انما هي السبب في نشوء المخاطر العظمى في الشرق، واليك بعض ملأء في مقاله الذي نشره سنة ١٨٩٨ « ان الخطر الباعث على حرب كونية عامة يزداد في الشرق ازدياداً عظيماً على توالى الأيام. ولا يغيب عن البال أن روح العداء والمقاومة قد اشتدت، والصذور وغرت، والحفاظات انقدت، أعني بذلك ان الشعور بالوحدة العامة والجامعة الرابطة قد صار شعوراً عاماً، نامياً،

منتشراً في جميع الشعوب الاسلامية ، وقد كان من المساعد على ذلك الوسائل الحديثة للنقل والتواصل ، فباتت الحالة اليوم غيرها منذ عشر سنين الى عشرين سنة .

« وليس من المستغرب أن نقدم على تنبيه الصليبيين في أواخر القرن التاسع عشر الى المنزلة العالية التي أدركتها الصحافة الاسلامية اليوم من الخطورة والشأن ، والى عام انتشارها في آسية وافريقية ، وما لعظاتها البليغات وانذاراتها الموقظات من التأثير الشديد في نفوس قارئها المسلمين . فالصحف الوطنية ، السيارة والدورية ، في تركيا والهند وفارس وأواسط آسية وجاوة ومصر والجزائر مفعول عظيم ، اذ كل ماتفتكر فيه أورة وتقرره وتقوم على انفاذه على ما ينافي المصلحة الاسلامية ، تنتشر انباؤه في جميع هذه الاقطار بسرعة البرق ، وتحمل القوافل هذه الانباء الى كل جهة شاسعة وصوب سحيق في الرقاع الاسلامية ، حتى الى قلب الصين وخط الاستواء ، حيث يهب المسلمون لتلقي مثل هذه الانباء معظمين مكبرين . فالشرارة التي تستطير من مجمع من مجامعنا ، أو ناد من انديتنا ، أو وليمة من ولائمنا ، فما تزال في مستطارها ومسبحها في الفضاء ، حتى تجوب أفاصى العالم الاسلامي فتقع وقوع الرعد القاصف . وما تنشره صحيفة «ترجان» في القريم مثلاً ، تردده صحيفة «اقدام» في القسطنطينية ، ويرن صدها عظيماً في صحيفة «الحوادث الاسلامية» في كالكتا في الهند

« فالجامعة الاسلامية اليوم مسترخية العرى بعض الاسترخاء ، غير ان اعتداء الغرب على غير انقطاع ، وعسفه المتوالى الذي يزداد اشتداداً على الدوام ، سيحملان على استجماع هذه العرى بعضها الى بعض فتتسك وتربط ، فتصير الجامعة الاسلامية كالبنيان المرصوص منيع الاركان ، فيتوقع حينئذ من وراء ذلك حرب عالمية مشبوبة في انحاء المعمور لاتبقي ولا نذر . »

منذ نشر فامباري انذاره هذا حتى اليوم ، ما برح الأمر يتفاقم والنصرة الاسلامية تثور في وجه السيطرة الغربية ، وقد زاد في هذا زيادة كبيرة النهضات القومية ، والحركات الوطنية الاسلامية التي كانت تسكاد لا تعرف في القرن الماضي ، وهي قد أصبحت اليوم على أتم ما يكون من النظام ، والكفاية من أسباب الذبوع والدعاية . ولنا مثال على هذا وهو صحف الدعوة للجامعة الاسلامية وهي التي أشار اليها فامباري ، فقد تعاضمت تعاضماً غير مسبوق المثل . ففي سنة ١٩٠٠ لم يكن في العالم الاسلامي أكثر من مئتي صحيفة دعوية ، فبلغ هذا

العدد سنة ١٩٠٦ حد الجسامة صحيفة ، وأربى سنة ١٩١٤ على الألف صحيفة ، فانسامون يرحبون فى بلادهم بأسباب النقل والتواصل مثل البرد والبرق والقطر الحديدية ، وغير ذلك مما يساعد على تطير الانباء ونقل الاخبار . وكل بلاد من بلاد المسلمين هى على اتصال دائم مع سائر البلدان الاسلامية ، اما تواء على يد الرسل ، والسعاة ، والحجيج ، والسياح ، والتجار والبرد ، واما على يد الصحف الاسلامية والكتب والنشرات والمجلات . ففى القاهرة ترى صحف بغداد و طهران و بشاور ، وفى البصرة و بمباى ترى صحف القسطنطينية ، وفى المحمرة و كر بلاء و بورت سعيد ترى صحف كلكتا . واما الوسائل الكبرى للدعاية فى سبيل الجامعة الاسلامية فهى الطرق الدينية التى سبق لنا الكلام عليها وهى حقا كالسبيل الطامى فانها ما أدركت أمة مسالمة الاستولت على مشاعرها وقلوبها ، وسيرتها سهلة الانقياد الى تعاليمها . وترى دعاة هذه الطرق يقومون بوظائفهم على أساليب عديدة غريبة ، فهم يجوبون الأقطار بألوف الأزياء المتسكرة تجاراً ووعاظاً ومرشدين وعلماء وطلبة واطباء وعلمة ومتسولين وفقراء ومساكين ، حتى ومشعوذين ودجالين ، وحينما وصلوا ترى المسلمين قد تسارعوا لاستقبالهم على الرحب والسعة ، واخفوهم عن عيون رقباء الحكومات الاستعمارية . »

زد على جميع هذا أن ساد اليوم فى العالم الاسلامى سيادة عامة ، الاعتقاد الذى يؤيده الأحرار والغلاة والمحافظون وسائر الأحزاب معاً ، أن المسلمين اليوم هم فى دور النهضة ، والانتقال ، والتجدد ، يستردون مجدهم الاسلامى الفائق ويستعيدون عزهم التليد . قال السر نيودر موريسون : « ليس من مسلم يعتقد ان الحضارة الاسلامية فانية أو غير متجددة مترقية ، انما يعتقد ان قد عرتها قهقري قصيرة حسب فقصر المسلمون أمرهم على التطوح فى الشهادة بمجد الجدود ، وتعصبوا فى ذلك وغالوا شديداً ، ولكن أمرهم هذا ما كان ليختلف فى صفته عن الحال التى كانت سائدة فى أوربة خلال القرون الوسطى ، يوم كان ديجور الجهل مطبقاً جميع البلاد النصرانية يعتقد المسلم اليوم أن العالم الاسلامى سائر فى طريق استئناف الارتقاء ، يأخذ عن الغرب ما يزيد فى استحشائه ويبعث فيه عزماً واقداً ، ونشاطاً ، فتطورت الحياة تطوراً تبنت دلائله فى كل قطر اسلامى . » (١)

(١) ذكر المؤلف فى هذا الموضع كلاماً مقتبساً من كتاب (بقة الشعوب الاسلامية فى القرن الرابع عشر للهجرة) لمؤلفه يحيى صديق ، اضربنا عن ترجمته — (المترجم)

فاذا كان دعاة الجامعة الاسلامية يجهرون بمثل هذه الآراء ويصرخون تلك الصرخات في مفتتح هذا القرن ، وقد جاءت الحرب العامة مصداقاً لما جهروا به السنين الطوال ، فلا جرم ان قويت شوكة الجامعة واتسع لها المجال فاشتدت قوة واندفاعاً . أضف الى هذا ان الغرب قد انقلب بعد الحرب العظمى ضعيف المنه ، واهن القوة المادية وهناً كبيراً ، ثم جاء الصلح مبنياً على أركانه الباطلة ، وطفق الخلاف ينشب بين الغالبين بعضهم مع بعض نشوباً قوض مكانهم تقويضاً وقضى القضاء الأخير على منزلتهم في عيون الشرقيين . وقد كان من شأن النزاع والمشادة بين كل من بريطانية وفرنسة وإيطاليا في الشرق ، ان ساعد المسلمين مساعدة جليلة على زيادة تساندهم وتماسك بعضهم مع بعض ، فاشتد إيقانهم بأدراك المبتغى ثم ان هذا التعادى الذي قام به الحلفاء في الشرق قد سبب اضطراباً سياسياً عظيماً في الغرب فبعد التباين واتسعت فرجة الخلاف . قال أحد كتاب الفرنسيين في الآونة الحديثة ينذر أوروبا انداراً شديداً : « ان العالم الاسلامي بات لايعترف بحدود أملاكنا الاستعمارية ، والعاقل الذي يريد اعتبار الحقيقة لايعجب من ذلك أقل عجب مادامت الدعوة الكبرى التي نشرها ورفع علمها جال الدين في المسلمين تسير سيراً دراكاً . »

وأى شيء أدل على هياج الاسلام ، وغليان مراحل حقه من ذلك الثوران الهائل الذي يقوم به السبعون مليوناً من المسلمين في الهند ، احتجاجاً على تجزئة المملكة العثمانية؟ والأمر الأخطر ان هذا الثوران الاسلامي ليس مقصوراً على الهند فحسب ، بل انه شامل المعمور الاسلامي ، وعلى ذلك فلم يغال السريثودر موريسون بانذاره : « لقد حان وأيم الحق للأمة البريطانية أن تعتبر وتندبر خطورة ما هو جار في الشرق ، فان العالم الاسلامي أجمع ليعج غضباً ، ويحتدم حنقا ، من جراء تجزئة تركية . وما هذه اللوامع النارية التي تبدو في كابل والقاهرة الا البرق الذي تتلوه الرعود القواصف فالصواعق المزلزلة . اني قد أقت في الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت في خلالها المسلمين حق المعرفة ، وأرى من الواجب على الآن أن أنذر أمتي البريطانية بشرعقي هذا الثوران الاسلامي الناشئ عن تجزئة تركية التجزئة المنوية . فان ساسة مؤتمر فرساي قد خالوا تركية في الأناضول منقطعة عن سائر العالم الاسلامي ، فليس من شعب يغضب لها ، ولا من أمة تغار عليها . فما أسوأ هذا الخيال الباطل والوهم القاتل ! ! فمن شاء البرهان فلينظر الى هذه الوفود الاسلامية

العديدة ، الحالة بين ظهرائنا فى لندن كأنها الذهب لا يصطفى به . فالمسلمون قاطبة فى الهند ، من « بشاور » حتى « أركوت » قائمون قاعدون لما يرونه قد حل بساحة تركية والمسلمين حتى باتت النساء المسلمات يعولن اعوالاً شديداً ، ويكيبن حالة الاسلام بكاء الأمهات أطفالهن ، وترى التجار وهم أبعد طبقات الأمة من مزاوله الشؤون السياسية يفرون من حواينهم ومتاجرهم خفافاً الى حيث ينظمون رفائع الاحتجاج ويطيرونها بالبرق الى أنحاء العالم ، وترى الطوائف العديدة من رجال الدين المتقشفين ، المتشددين ، المضروب بهم المثل فى شدة انقطاعهم عن جارى الحوادث فى العالم ، يخرجون من المساجد مواكب مواكب ليشتركوا فى القيام بالتظاهرات والاحتجاجات . »

وأغرب ما فى الحالة ان الأحرار قد أخذوا ينتظمون أكثر فأكثر فى عداد رجال الجامعة الاسلامية ويؤيدونها بما استطاعوا من القوة والحول ، على اعتقادهم بوجوب الأخذ عن الغرب واقتباس الآراء والأفكار منه ، وذهابهم مذهباً مخالفاً لغلاة الجامعة الاسلامية وأرباب الطرق الرجوعية ، والحامل كل الحامل لهم على ذلك هو اشتداد الضغط والعنف الاوروبى ، فهم ازاء هذا الخطب الكبير يسعون فى رده بموالاته الأحزاب الأخرى والتحالف معها ، ولو الى حين ، مع علمهم ان الأحزاب الوطنية المغالية وأحزاب الجامعة الاسلامية اذا أثارت حرباً عامة باسم الجهاد ، فن شأن هذه الحرب أن تفجج غوراً بعيد المهوى بين الشرق والغرب ، وتقضى على تلك العوامل والمؤثرات السارية من هذا الى ذاك ، وهى التى ترى اليوم دابة فى كل عرق من عروق العالم الاسلامى باعثة فيه القوة والعزم ، ومع علمهم أيضاً أن حرباً كهذه تشعل نار التعصب الرجوعية فى المعمور الاسلامى ذلك التعصب الذى اذا عاد فانتقد أو هن حركة الاصلاح الحديث فى الاسلام ايهاً شديداً فأخرها مدة مديدة .

ولعل الذى عرف حتى اليوم من ثوران الاسلام لا يعد أكثر من مقدمة لما سيحدث فى السنين المقبلة . ولنا دليل على هذا ظهور الدعوتين العظيمتين للاصلاح الدينى فى الاسلام اصلاحاً ضارباً الى التعصب ، أما الأولى فهى دعوة « الاخوان » التى نشأت منذ نحو عشر سنين فى نجد قلب بلاد العرب ، وهى الوهابية عينها التى كانت نشأت منذ مئتين سنة خلت ، وهذه الوهابية الحديثة ما برحت تنتشر انتشاراً سريعاً حتى طبقت كل نجد ، وعلى رأسها زعيم صحراء بلاد العرب الكبير أعنى به ابن السعود ، خليفة سعود الذى كان رأس الدعوة

الوهابية منذ مئة سنة . وأما « الإخوان » الجدد فعلى تعصب شديد منقطع النظير ، وخطتهم هي حلم الوهابية القديم من الإصلاح الديني العام في العالم الاسلامي . وأما الأخرى فهي الدعوة « السلفية » التي نشأت في الهند منشأ يشابه دعوة « الإخوان » في نجد ، غير انها قد انتشرت في هذه السنين الأخيرة انتشاراً عم كل رقعة اسلامية . وغرضها كغرض الوهابية من حيث الإصلاح المزيج بروح التعصب . وغالب اتباعها من حلقات « الدراويش » هذه هي الحالة التي مع ما تنطوي عليه من مختلف العوامل المبسطة الذكر تنخر نخرًا متغلغلا في سلم الشرق .

واذ قد بلغنا في الكلام على الجامعة الاسلامية من وجهتيها الدينية والسياسية الى هذا الحد ، يجدر بنا أن نقول كلمة في الجامعة من حيث وجهتيها التجارية والصناعية ، وذلك ما يعرف بالجامعة الاسلامية الاقتصادية :

ان السبب في انتشار الجامعة الاسلامية الاقتصادية ، هو عوامل الاستنزاف ، واحتياز موارد الثروة في الشرق . فمن قبل خمسين سنة خلت كان العالم الاسلامي يتسكع في « اجياله الوسطى » ، فكانت الشريعة الاسلامية ، وما فيها من تحريم الربا ، مرعية حق الرعاية بحيث لم تكن الحياة الاقتصادية بمعناها الحالي ميسورة ، وما كان هناك من بعض التجارة والصناعة انما كان غالبه في أيدي النصارى واليهود من أهل البلاد . زد على هذا ان التزام الغربى جاء فانتشر فزلازل الحياة الاقتصادية الشرقية زلزالا هائلا ، اذ ان فتح أوروبا للعالم الاسلامي الفتح السياسي كان يماشيه الفتح الاقتصادي جنبا الى جنب ، وربما كان هذا الاخير اتم نظاما وأكمل عدة ، فبات كل صقع شرقي في طوف من البضاعات والحاج البخسة الأثمان ، المنقولة من أوروبا ، ووراء ذلك رؤوس الأموال الغربية متدفقة لاحتصى ، تسرب في البلاد وتنتشر بأخدع الصور وأملق الأساليب ، كالقروض ، والامتيازات التي من شأنها متى ماعقدت أن تكون تمهيدا لاستقرار السيطرة السياسية الغربية .

فنصر أوروبا الذي نالته في فتحها هذا الفتح السياسي الاقتصادي التام كان باعنا للشرقيين على العدا والمقاومة ، فاستيقظ العالم الاسلامي غضبان فهاله ما رآه في دياره من الأسباب والأدوات الغربية المأثى بها لاستنزافه واستنفاد خيراته الطبيعية ، فقدر حوله ازاء حول الغرب الجبار العاني فأدرك شقة البعد ، فطفق للحال يجد في سبيل التحرر الاقتصادي

جده فى سبيل التحرر السياسى من ربق الذل والاستعباد . ثم أنشأ حكماء المسلمين ، وأرباب الدراية فيهم والرأى السديد . يلتمسون الأسباب الغربية الفضلى ، التى من شأنها أن ترقى بالعالم الاسلامى رقىا اقتصاديا جليلا ، فنسخت الأساليب والمناهج الغربية ، ونسج على منوالها ، وما كانت تحريمات الشريعة لتقف سداً فى وجه النهضة ولا لتحول دون مجراها .

فنتج عن ذلك تطور عظيم فى الحياة الاقتصادية أخذ ينمو ويزداد ، ناهجا منهاجا اقتصاديا غربيا . ولكنه حتى اليوم مابرح يجتاز الدور الأول من أدواره ، وهو أظهر وأبين فى البلاد التى هى أشد صلة ومساسا بالسيطرة الغربية كالمند ومصر والجزائر . أما متجهه فواحد فى كل قطر اسلامى ، وسنفصل الكلام على هذا فى فصل التطور الاقتصادى . فما يجب اعتباره فى هذا المقام هو تدبر شأن هذا التطور من حيث صلته بالجامعة الاسلامية ومنزلة فيها . وهذا الشأن هو عظيم جداً . لأن أوثق وحدة ، وأمتن صلة ، ظهرت فى المسلمين حتى اليوم انما هى الوحدة الاقتصادية بلا مرء . ولا يعزب عن البال ان الروابط الدينية والصلات الخلقية التهذيبية التى تجمع بين المسلم والمسلم ، ما انفكت تزيد فى تواتق المسلمين وتآزرهم ، وتعاطفهم وتضامنهم ، كأنهم فى المعمور الاسلامى أمة واحدة بعضها يغار على بعض وجانب يساند آخر . دع ماهو هناك من الأسباب الغربية للنقل والتواصل ، المسهلة على المسلمين القيام بالأسفار الى كل جهة أرادوا ، فازداد بذلك تعارفهم واستمسكت أواصرهم ، فنشأ فيهم نشء جديد ، ابناء ووه مقاديم ، بعداء الهمة ، أشداء العزم ، فيهم التجار وأرباب السفن البحرية والأعمال التجارية ، والصيارفة ، والسامسة حتى وأرباب المصانع والمعامل ، ممن لم ير أمثالهم فى المسلمين من قبل بقرن أو نصف قرن خلا . وأبناء هذا النشء الجديد على غاية من التفاهم والتواتق . تربط بعضهم ببعض الروابط الاسلامية ، ويحملهم التزامهم الغربى المنتشر فى بلادهم على شدة التضامن ، فلم فى الواقع من سعة المجال للعمل المنظم والاتحاد الوثيق ما ليس مثله للساسة المسلمين ، اذ فى الأفق الاقتصادى يتلاقى الأحرار ودعاة الجامعة الاسلامية والغلاة وسائر الأحزاب الوطنية على أتم وثام . فلا خلاف بينهم فى هذا الميدان يفضى بهم الى الانقسام لعدة اتباع احدى السياسات ، كسياسة الثورة أو الجهاد ، انقساماً يحملهم على تهديد أوروبا المسلحة ، أو يؤدى بهم الى المجازفة بالنفوس والدماء والأموال ، بل هم جميعاً فى نطاق الجامعة الاقتصادية سواء ، متحدو

الكلمة ، يجدّون في سبيل الحياة الاقتصادية الإسلامية ، متوخين في ذلك الطرق والأساليب التجارية التي لا يجرّؤ الغرب أن يحول دونهم ودونها ولا يقف في وجهها .

فأهي غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية ترى ؟ إنما هي : ثروة المسلمين للمسلمين ، وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي هي لهم يتنعمون بها وليست لنصارى الغرب يستنزفونها . وهي نفص اليد من رؤوس المال الغربية والاستعاضة عنها برؤوس مال إسلامية . وفوق جميع هذا ، هي تحطيم نواجد أوروبا تلك النواجد العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجارك ، العقود التي مادامت خارجة من أيدي العالم الإسلامي فهو يظل عالة على الغرب .

هذه هي أغراض الجامعة الإسلامية الاقتصادية ، وجيئها حديث المنشأ ، وسببه السيطرة الغربية الشديدة في العالم الإسلامي - السيطرة التي تتكلم عليها في الفصل التالي من هذا الكتاب .

الدول المستعمرة والاسلام

للأمير شكيب

من الغريب أن فارس عرضت على انكلترة المحالفة ، والدخول الى جانب الحلفاء في الحرب العامة ، فأبت انكلترة مساعدة فارس هذه . وهذا أمر صرحت به جريدة الطان ، لسان حال فرنسا أثناء مؤتمر الصلح بباريز . وأن مصر عرضت نفسها أثناء الحرب العامة أن تقا تل في جانب الحلفاء بشرط الجلاء الانكليزي عن مصر بعد الحرب ، فأبت انكلترة أيضاً ذلك . وان الشريف حسيناً بن علي ، ملك الحجاز اليوم ، كان عرض نفسه لمحالفة انكلترة منذ بدأت الحرب العامة ، فأبت انكلترة محالفته يومئذ كما أبت محالفة مصر والعجم . وأغرب منه أن تركية نفسها ينما هي في أول الحرب العامة تردد في الميل الى أي الفريقين المتصارعين ، ويتجاذبها عاملان أحدهما الى الحلفاء ، والآخر الى الألمان ، صرحت لسفراء الحلفاء في الاستانة انها تخشى اذا اعتزلت الحرب من أن يتفق الفريقان عليها ، ويعقدوا الصلح على ظهرها . فقالت لهم لا بد لنا من محالفة . وعرضت على الحلفاء أن تكون معهم ، بشرط أن تأمن شرورهم في المستقبل . فأبى الحلفاء قبول محالفة تركيا لهم ، وكل ما طلبوه منها كان التزام الحياد التام ، وبمقابلة ذلك تتعهد الروسية بأن لا تهاجم تركية مدة ثلاثين سنة (تأمل) وتنال تركية بعض مساعدات أخرى ليس لها كبير طائل . وبدهي أن رفض الحلفاء هذه المساعدات من دول العالم الاسلامي مبنى على أساس واحد ، وهو أن الحلفاء لو قبلوا مساعدات الحكومات الاسلامية أثناء الحرب العامة ، لما كان لائقاً أن يقسموا فيما بعد الحرب بلاد الاسلام الباقية الاققسام الأخير ، كما كانوا ينوون أثناء الحرب ، وكما فعلوا بعد الحرب . فلورضوا بدخول تركية معهم في الحلف وقبلوا عضدها لهم في ذلك الموقف ، لما كان يجوز بعد الحرب انفاذ برنامج التقسيم الذي كان مقررأ بين انكلترة وفرنسا منذ ١٩١٢ . ومن جلته قسمة سورية وفلسطين . ولورضوا بدخول العجم في الحلف وقبلوا معاوتها ، لما كان يحل أن يجهزوا عليها الاجهاز الأخير بعد الحرب كما

كانت النية ، بل كان ديناً عليهم اخلاء العجم ، وهذا ما لا يريدونه . ولو قبلوا اقتراح مصر في الدخول في الحرب الى جانبهم ، لتعين عليهم الجلاء عن مصر بعد الحرب على وجه المكافأة ، مع أن المراد بعد الظفر الأخير هو استلحاق مصر تماماً لا اعطاؤها حريتها . وكانوا يرون أنهم قادرون أن يستخدموا رجال مصر ويرتفقوا بأموال مصر بالغوة والفسر ، بدون أدنى منة لأهل مصر ، وبدون تعهد بالجلاء عن مصر على حد ما قال أبو الطيب :

من أطاق اغتنام شيء غلاباً واغتصاباً لم يفتنمه سؤالا

ولقائل أن يقول : لكن ينقض نظريتك هذه ، أن الحلفاء حالفوا سنة ١٩١٥ الشريف حسيناً ، وهذا ملك من ملوك الاسلام . والجواب أنهم ما قبلوا التحالف معه باديء ذي بدء لظنهم أنهم يستغنون عنه ، ولا يتقيدون معه بعهد يمنعهم بعد الظفر من أخذ بلاد العرب . فلما طالت الحرب ، وظهر من تركية ما ظهر من القوة التي لم تخطر لهم على بال ، ورأوا الحرب ستدوم أعواماً ، وتأتي على الحرث والنسل وان العالم الاسلامي كله في هيجان عليهم ، عادوا الى قبول محادثة الشريف حسين أملاً بفصل العرب عن الترك ، وباستئالة جانب من المسلمين ، وبتخفيف حملة كان الحلفاء بدأوا يشعرون بنقلها ، ومع هذا كله فقد ملأوا عهودهم للشريف ابهاماً وغموضاً ، حتى يتفصوا منها في المستقبل ، فما وضعت الحرب أوزارها حتى ظهر للشريف ولسائر العرب ، أنه مع كونه قسم من العرب حالت الحلفاء مخالفة فتت في عضد الأتراك ، وكانت من جملة أسباب انكسارهم لأسباب عديدة ، فقد عومل العرب بعد الحرب معاملة الأعداء ، وتقسمت بلادهم غنائم ، والذي هو باق منها بدون احتلال فعلاً ، فانية وضع اليد عليه عند أول فرصة . وربما كابر بعض الناس في كون الشريف عرض التحالف من أول الحرب ولم يقبلوا ذلك منه ولا مجال هنا للكبرة فاصحح أنهم لم يقبلوا التحالف معه حتى احتاجوا عضد العرب وطالت الحرب فأرسلوا اليه بعض معتمدين لمفاوضته فيه من جلتهم الجنرال حداد باشا ، وان حداد باشا صرح لنا بهذه الحقيقة التاريخية أمام جماعة كثيرين من أعيان السوريين والفلسطينيين وربما كابر آخرون في كونه الحلفاء أبوا محادثة تركية وطلبوا منها الحياد لا غير في الحرب العامة ، والجواب هذا شيء يشهد به المستر مورغانتو سفير اميركا في تركية لأول

نشوب الحرب . ذكره في خاطراته وقال ان أقصى ما طالب الحلفاء به تركية هو لزوم الحياد
خسب والحاصل أن الحلفاء طلبوا اثناء الحرب العامة العون من كل دولة ، وعرضوا
التحالف مع كل حكومة ، حتى أصغر حكومات أميركا ، ولم يكونوا يقبلوا التحالف مع دولة
من الدول الاسلامية علما بما ينوونه للاسلام وجميع حكوماته في المستقبل وفراراً من مكافاة
دولة اسلامية بالابقاء عليها ، فهذا من الحقائق الكلية التي ينبغي أن يتفطن لها المسلمون ولا
يفيئوها عن نظرهم ، وليعلموا ان الدول المستعمرة لا تقبل من الاسلام حتى ولا الصداقة ،
وانها لا ترضى من المسلمين في جانبهم بذل الأرواح والأموال الا مجانا .

أثر روسيا في الشرق قديماً وحديثاً

للامير شكيب

حرر مؤخراً العالم الاجتماعى الكبير ، غويغليامو فريرو (Guglielmo Ferrero) مقالة
في جريدة «الايلوستراسيون» عنوانها «أوربة وآسية» بين فيها ان الحرب العامة أحدثت
انقلابات متناقضة ، فباعدت وقربت بين القارات وانه من العادة اذا خرجت سلطنة عظيمة
ظافرة من حرب من الحروب ازدادت هيبتها وانبسط سلطانها ، عن ذى قبل . والحال انه
بعد ان خرجت انكلترة ظافرة من أكبر حرب في الدنيا ، ثارت في وجهها افغانستان ، والهند ،
ثم مصر وبعدها ان كانت تركية اضمحلت سنة ١٩١٨ ، عادت فنهضت وردت انكلترة وحليفاتها
على أعقابهن . وكذلك الصين بالرغم من الثورة التي تمزق احشاءها ، تطلب استرداد البلاد
التي احتلت منها وعدم مس شيء من استقلالها . فآسية تقوم على أوربة على حين هي آخذة
بمبادئ أوروبة ، وليست تأخذ من أوربا وأميركة أسلحة خسب ، بل مبائى وافكاراً تقاثلها
بها . قال : « ومسبب ذلك هو انهيار الدولة الروسية ، فان أوربا كانت عام ١٩١٤ كتلة
متحدة ، متينة ، متماسكة ، بالرغم من جميع المناظرات والمناهضات التي كانت فيما بين أجزائها .
فقد كانت السلطنة الروسية والسلطنة الانكليزية متناظرين في آسية ، ولكن من جهة أخرى ،
كنت ترى كل واحدة منهما شادة أزر الاخرى . وكانت أوربة بأجمعها تستفيد من الرعب

الذى تلقىه الروسية في قلب آسية، فسقوط السلطنة الروسية كان مبدأ خلاص آسية» وقد أشارت جريدة الطان بتاريخ ٨ حزيران سنة ١٩٢٣ الى مقالة فريرو هذه وأيدت رأيه من جهة كون انهيار الروسية هو الذى كان مبدأ تحرير آسية، وهذا عين ماورد في مقالة روجرلابون التى ترجمناها عن «مجلة باريز». وكان أحدالروس اقترح علينا سنة ١٩١٩ نشر مقالة في جريدة روسية تصدر في برلين فخررنا في ذلك الوقت له مقالة نبين بها الأسباب الداعية الى الاتحاد بين الروس والشرقيين، ونلوم سياسة الروسية الماضية التى كانت عبارة عن قهرالشرق وملاشاة الدولة العثمانية، لفائدة الدول الغربية، فكان جل الخسائر بالمال والرجال على الروسية، ومعظم الفوائد لانكلترة وفرنسا، لأنه من المحقق لولا نقل جل الروسية على ظهر العثمانيين وكونهم أصبحوا من عداوة الروس بحالة لا يملكون معها قبضاً ولا بسطاً، لما كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر، ولا على تونس، ولا ايطالية دخول طرابلس، ولا انكلترة احتلال مصر والسودان بل كانت الدولة العثمانية بأمنها ناحية الروسية تقدر على حاية هذه البلدان، لاسيما في بداية الأمر فالروسية هى التى كانت سبب سقوط الشرق واسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية، وتحول الحكومة القيصرية الى البلشفة هو الذى مكن اليوم الشرق من أن يتنفس. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض. فهذا المعنى كنت أوضحت قبل أن ابدأ الكتاب الأوربيون ينهبون اليه.

ثم ان هناك جملة وردت في كلام العلامة فريرو فيها معنى كبير ينبغى أن ينعم النظر فيه جميع الشرقيين ألاهى قوله: «ان الروسية وانكلترة مع تناظرهما وتنافسهما في الشرق كانت كل منهما شادة أزر الأخرى». ومعنى ذلك أن الروسية كانت تقلم أظفار الأتراك، والفرس، والصينيين، فبملاشاة قوتهم أصبحوا لايقدرّون على اغائة الهنود، والافغان، والمصريين والعرب الذين مدت يدها اليهم انكلترة بالبطش والغصب. وكذلك انكلترة باستيلائها على هؤلاء قدعطلت منهم كل قوة حربية، فأصبحوا لايقدرّون أن يؤيدوا الدولة العثمانية، ولا الدولة الفارسية، ولا تركستان، ولا الصين بشئ، فكانت كل من الروسية وانكلترة قدشدت احدهما أزرالأخرى بطبيعة الحال، وكان بينهما تضامن، وان لم يكن جرى عليه تواطؤ من قبل فهو جار بالفعل. ومن الأمور التى تؤيد هذاوقوع هذا التضامن بدون تواطؤ. ليس بينأوربا والروسية القيصرية فحسب، بل بين أورباوالروسيا البولشفيكية

نفسها ، مع شدة العداوة التي بين الفريقين .
فان الدول الغربية أثارت على البولشفيك الاميرال كولتساق ، والجنرال دينيكن ،
والجنرال يودينيش ، والجنرال فرانجل ، والمملكة البولونية ، وحاولت اثاره الأرمن ، والكرج
وكل قوم ترجو فيهم النهضة ، لقتال الحكومة البولشفية ، التي ترى فيها الخطر الأعظم على
كيان الهيئة الاجتماعية الاوربية . وقد بذت انكلترة وفرنسا في تسليح هذه الأقوام ،
وسوقهم على الروسية مئات الملايين ، ولا تزالان الى هذه الساعة تترصدان الفرص وتربصان
بالبولشفيك الدوائر .

لكن قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر ، من أن تحرك على البولشفيك قوة
اسلامية . فعرض بعضهم الرأي بالاتفاق مع تركية وتسليحها وسوقها على الروسية من جهة
القوقاس ، حيث ينضم الى الترك هناك الكرج والطاغستانيون والترك فلم يقبل الحلفاء هذا
الرأي أصلا . ولا راق لهم تسليح العجم ، ولا الافغان ، ولا بخارى ، ولا خيوه ، ولا فرغانه ،
ولا غيرها من تركستان . ولا رمى البولشفيك بهذه القوات كلها وماذاك الا لانهم يرون الخطر
الاسلامى أعظم من الخطر البولشفي . مهما كان الخطر البولشفي عظيما . ومن الادلة البارزة على
ذلك انه لما نفر المرحوم أنور من البولشفيكين ورح موسكو سنة ١٩٢١ الى باطوم ، ومنها
انسل الى بخارى وأثار ثورة تركستان الهائلة التي حشد البولشفيكين فيالق جرارة لقمعها
لم يفكر أحد باوربا في امداد أنور على البولشفيك ، بل عند ماسقط أنور شهيداً في أوائل
أغسطس سنة ١٩٢٢ فرح بمقتله الحلفاء ، ولم تخف الجرائد الانكليزية سرورها . وفي هذا
مقنع لمن يبقى عنده شيء من الريب في شدة تضامن أوربا بازاء الشرق .

الفتوحات الاسلامية في الهند

التقسيمات الجغرافية وعدد مسلمي كل ايلة

لنيل كيش

افتتح العرب المسلمون السند وجانباً من الهند في صدر الاسلام ، ثم أكمل الفتح محمود بن سبكتكين الغازي الشهير ، ورسخت قدم الاسلام في الهند من بعده . ثم استولى الاسلام على كل الهند بدون استثناء ، ودانت له جميع ملوك الهندوس ، يقال لم يبق خارجاً عن طاعة الاسلام في الهند سوى مملكة يقال لها (اودبور) لها ملك يقال له (مهرا نا) وهو لقب أكبر من مهراجا . وسبب تفرده بهذا اللقب أنه هو الوحيد من ملوك الهند قاطبة الذي لم يخضع لسلطة الاسلام ، ولذلك هو الى يومنا هذا يتقدم في الاحتفالات الرسمية جميع نظرائه .

وقد بلغ عدد المسلمين في الهند في تاريخ تجديد الطبع لهذا الكتاب ٧٨ مليوناً وعددهم الى الأمام لا الى الوراء

وبمناسبة الهند هذه نذكر ملخص تقسيمات تلك البلاد العظيمة ليكون للقارئ تصور

عام بها :

فهى ثلاثة أقسام : القسم الأول هو المستقل تماماً ، وهو عبارة عن مملكتين في الشمال (نيبال) و (بوتان) ، وأهل نيبال خمسة ملايين كلهم هندوس ، وأهل بوتان مليون واحد هندوس أيضاً فيهم قليل من المسلمين ، وكلهم أمة محاربة مشهورة بالشجاعة ، وأشهر عساكر الهند الانكليزية هم من أبناء هاتين المملكتين ، يتطوعون في الجندية نظراً لفقر بلادهم ، ووعورة أراضيهم . وللانكليز هناك وكيل مقيم لا يكاد يكون له نفوذ

ثم القسم الثانى وهو الذى تحت جاية انكلترة ، وهو يدفع خراجاً سنوياً لها ، وملوكه وأمراؤه مضطرون أن يحضروا حفلة تتويج ملك انكلترة امبراطوراً على الهند ،

وعدد هذا القسم ٧٠ مليوناً ، أى سكانه مع سكان القسم المستقل لا يزيدون على ربع الامبراطورية الهندية

وبقية الهند تديرها الحكومة الانكليزية مباشرة كسائر أملاكها فالامارات التى هى تحت الحماية هى ما يأتى : (حيدر آباد الدكن) ، أهلها ١٣ مليوناً أكثرهم من الهندوس ولكن عاصمة البلاد أكثرها مسلمون وسلطانها مسلم يقال له (النظام) ، وفيها وزير مقيم من قبل الانكليز لكن نفوذه على المملكة محدود . وهناك جيش عدده ٣٠ ألفاً أكثره عرب من (حضرموت) . ولحيدر آباد نوعان من الجند : الأول يستقل به سلطان البلاد ، والثانى مرصد للاشتراك فى حاية المملكة الهندية كلها وهذا قواده من الانكليز . والخراج الذى تدفعه حيدر آباد لانكلترا زهيد ، واستقلالها الداخلى يكاد يكون تاماً

وقد حدث بين نظام حيدر آباد وانكلترا خلاف فى السنين الأخيرة من أجل ولاية كبيرة يدعى النظام أنها تابعة لمملكته ، ويزعم الانكليز أنها مما ينبغى أن يلوه هم رأساً . ولا نعلم كيف انتهى الأمر بينهما ولكننا نعلم أن انكلترا لاتزال مصرة على الاستئثار بتلك الولاية

ونظام حيدر آباد أوسع ملوك الاسلام ثروةً ومن أغنى ملوك العالم ، وقد كانت له اليد البيضاء على آل عثمان والخليفة عبد المجيد بن السلطان الخليفة عبد العزيز الذى طرده الأتراك السكاليون وأجأوه الى أوربة لا يملك شروى نقير تقريباً فأقام أولاً بمونترو من سويسرة ثم انتقل الى نيس من ساحل فرنسة على البحر المتوسط (والعرب تقول نيقة) وبلغ نظام حيدر آباد أن الخليفة قد يصل من الاحتياج الى حد يمس بكرامة الاسلام ورأى أنه لا يليق بالمسلمين أن يصير السلطان الذى كان خليفتهم بالأمس الى حالة كهذه من البؤس والهوان فرتب له ثلاثمائة جنيه فى الشهر وحفظ شرفه من أن يذل وكان له بذلك اليد المحمودة عند الجميع لا سيما أن الخليفة عبد المجيد هو من يستحقون كل خير وانه من خيار الملوك فى طهارة أخلاقه واستقامة مبادئه وسعه عقله ومعارفه واخلاصه للاسلام والمسلمين

ثم انه فى أوائل هذه السنة ١٩٣٢ افرنجية ازدادت العلاقة بين الخليفة عبد المجيد ونظام حيدر آباد بزفاف كريمة الخليفة على نجل النظام ، ولم يحسن وقع هذه المصاهرة فى

انقرة لأن الكهاليين خافوا من أن يتوكل الخليفة على ثروة النظام في بث الدعاية في تركيا لا عادة الحكم الملكي اليها ، وكذلك لم يحسن وقع هذه المصاهرة في انكلترا لأن الانكليز خشوا ، ان يجعل عبد المجيد مركزه في حيدر آباد فتجتمع مسلمو الهند من حوله وتخلق هذه المسئلة لهم مشكلاً جديداً ، والحقيقة ان خوف الفريقين بغير محله فلا نظام حيدر آباد مستعد للبذل في سبيل الدعاية الملكية في تركيا ولا الخليفة سيكون مركزه في الهند . ولن يقع انقلاب في تركيا الا بحوادث غير عادية تحصل في داخل تركيا . وما يرجح في العقل أن انقلاباً كهذا لا يقع الا بعد وفاة مصطفى كمال

ثم (ميسور) وهي أرقى مملكة في الهند وأهلها مختلطون مسلمون وهندوس ، والملك - ويقال له مهرابا - هندوسى وفيها مجلس ندوة

ثم (كشمير) وعدد أهلها بحسب الاحصاء الأخير أربعة ملايين منهم ثلاثة ملايين ونصف مسلمون ونصف مليون هنداك . ولكن المهرابا هندكى . وهي في شمالى الهند كما أن ميسور في الجنوب . وقد حصلت في كشمير فتنة شديدة بين المسلمين والهنداك في العام الفائت سببها أن الحكومة التي هي في يد الهنداك أهانت بعض المسلمين وجرحت شعورهم الدينى وذلك بما قيل انه بعض الشرطة أجبرت أناساً من المسلمين بالسجود للاصنام قهراً لهم فهاج المسلمون في شمالى الهند وزحفت منهم عصائب على كشمير وأقامتها وقعدتها ولم تسكن الفتنة الا بدخول جيش انكليزى تمكن من اعادة الراحة بينا الحكومة أخذت تفحص عن شكاوى المسلمين . ولا يزال هؤلاء يطالبون بعزل المهرابا الهندكى وأن يتولى كشمير أمير مسلم بناء على كون أ كثرية كشمير من المسلمين . ولكن ان لزم العمل بهذه القاعدة كان لا بد من فقد المسلمين لعرش حيدر آباد التي فيها المسلمون نحو من مليونين والهنداك ١١ مليوناً

ثم (ترافنكور) وأهلها أربعة ملايين أ كثرهم هندوس ومعهم مسلمون ، ولهم مجلس ندوة ، وعليهم مهرابا هندوسى

ثم (بروده) عدد أهلها مليونان هندوس ، ولها مهرابا هندوسى وهي مملكة راقية غنية وفيها مسلمون

ثم (غواليار) وأهلها مسلمون وهندوس ولكن المهرابا هندوسى ، وعدد أهلها مليونان ونصف مليون ، ومكانها في وسط الهند ، وهي معدودة من البلاد الراقية ، وعندها جيش منظم

ثم (ايندور) وهى فى قلب الهند أيضاً ، وأهلها مليونان هندوس ، وملكهم منهم
ثم (أودبور) التى مر ذكر سلطانها أنه يتقدم جميع ملوك الهندوس وهى فى وسط
الهند أيضاً .

ثم (رامبور) وهى امارة اسلامية ، عدد أهلها نصف مليون أو يزيدون ، عليهم
ملك مسلم يقال له النواب

ثم (جهور) وهى نصف مليون أيضاً ، وأهلها مسلمون لهم نواب
ثم بهوبال وأكثر أهلها هنالك ، ولكن الأمير مسلم ، وكان لهم ملكة يقال لها
(بيكم) ويقال لها الرئيسة كانت متزوجة بالعلامة المجتهد الشهير ذى التصانيف العديدة الممتعة
باللغة العربية السيد صديق حسن خان بهادر ، وقد كان فى مبدأ أمره كاتباً عندها ، وقيل
إن الانكليز كانوا نعموا على السيد صديق خان كتابات له تثير الهند عليهم فأرادوا قتله
فخارت هذه الملكة بهم وذكرت لهم موافقها فى ثورة الهند الكبرى وانقاذها عدداً كبيراً
من الانكليز كان الهنود على وشك الفتك بهم وما زالت بهم حتى أفكتهم عن قتل صديق
حسن خان ، وأثبتت ما كان عندها من قوة ارادة

وقد خلفت « البيكم » المذكورة (بيكم) أخرى ، ثم ماتت هذه من سنتين وتولى
الحكم ابنها الأمير الحالى وهو رجل عاقل محمود السيرة وطنى الأزعة ، ولقد كان فى العام
الماضى بلندن فى المؤتمر الهندى المسمى بالمائدة المستديرة وقد عرفنا من رجاله الأمير أحمد
خان ناظر حرية بهوبال وهو من أمائل من عرفنا من رجال الهند

ثم (بها وليور) فى شمالى الهند ، عدد أهلها مليون وهم مسلمون ولهم نواب مسلم
أيضاً ثم (جبور وجود بور وآلور وبيكانير وجسملار وكوتا) ، وكلها امارات هندوسية ،
وتونك وأهلها مسلمون ، وريفا وبانيالا وناها وجبن وكولابور وسكانها مختلطون
مسلمون وهندوس

وأما القسم الثالث الذى تليه انكلترة مباشرة فعدد سكانه ٢٣٠ مليوناً وأهم بلاده
(البنغال) و (البنجاب) و (اغرا) وولايات (مدراس) و (بمباى)

ولقد آثرنا ذكر تقاسيم الهند هذه - ولو بصورة مجملة - لأن القارئ قلما يجدها فى
الكتب العربية . ثم لأننا أحييناً نذكر نسبة عدد مسلمى الهند الى عدد الهندوس .
وأن نبين أما كنهم من الهند

الاسلام في جاوى وماجاورها

للمؤلف

١ — المستشرق هورغرونيه وسياسته نحو الاسلام

٢ — مسألة الحضارة في جاوى

ولما كان المؤلف أشار في حاشية كتابه الى تسرب الاسلام من الهند الى جزائر الأوقيانوس واستيلائه على جزيرتي جاوى وسومطره العظيمتين رأينا من الضروري أن نقول كلمة في هذا الموضوع وهي :

ان الاسلام بدأ ينتشر في هاتيك الجزائر في أواسط القرن الثامن للهجرة أو القرن الرابع عشر للميلاد وفي بلدة (غريزيك) من بلاد سورابايا من الجاوى قبر مولانا ملك ابراهيم أحد كبار المجاهدين الذين سبقوا الى نشر الدعوة الاسلامية في تلك الجزر القاصية ، ووفاته وقعت في ١٢ ربيع الأول سنة ٨٢٢ الموافق ٩ ابريل سنة ١٤١٩ ، وكذلك في بلدة « بازه » قبر (الأمير محمد بن عبد القادر) من ذرية (الخليفة المستنصر العباسي) توفي في ٢٣ رجب سنة ٨٢٢ الموافق ١٥ أغسطس سنة ١٤١٩ . وما زال الاسلام يتغلب في هاتيك الأقطار حتى بلغ عدد المسلمين فيها ٣٥ مليوناً أى نحو نصف عدد مسلمي الهند وهم في الفقه على مذهب الامام الشافعي رضى الله عنه

وهذا الاحصاء هو الاحصاء الرسمي الهولاندى منذ نحو ١٥ سنة ، فلا بد أن يكون عدد المسلمين ازداد اليوم على ما كان في ذلك التاريخ ، ولقد نشرت (مجلة العالم الاسلامي) الفرنسية في سنة ١٩١١ أربع محاضرات على سياسة هولاندة الاسلامية للعلامة المستشرق الهولاندى (سنوك هورغرونيه) مستشار نظارة المستعمرات الهولاندية في المسائل الاسلامية والعربية وهو من الافذاذ الذين وقفوا على أحوال الاسلام عموماً وبلاد الجاوى خصوصاً وأقام بتلك الديار ١٧ سنة قتل فيها أمورها علماً ، ويقال انه دخل مكة والمدينة

في موسم الحج متكرراً فهو الذي يحقق في تلك المحاضرات أن عدد المسلمين الخاضعين في جزائر الاوقيانوس ، لسلطة هولانده هو ٣٥ مليون نسمة وقد ازداد هذا العدد كثيراً حتى بلغ الاحصاء الاخير خمسين مليوناً أى في سنة ١٩٣٢ بلغ مسلمو المستعمرات الهولندية هذا العدد ، وكانوا من ١٢ سنة ٤٥ مليوناً ، فتسكون زيادتهم في هذه الاثنتي عشرة سنة خمسة ملايين نسمة ، فأنت ترى أن عدد ٣٥ مليوناً هو قديم العهد قد يكون بموجب احصاء مضى عليه ثلاثون سنة بالاقل

وفي السنة الماضية نشر « جورنال دوجنيف » رسالة لمكاتب له كان في بلاد الجاوى واطلع على أحوالها اسمه المسيو « بول بوردارى » Paul Bourdarye زعم فيها أن الاحصاء الذي أجرته الحكومة الهولندية سنة ١٩٣٠ أثبت أن عدد المسلمين في مستعمراتها تزايد جداً وأنه بلغ الآن ٦٤ مليون نفس وعليه خطأ محض احصاء بعضهم مسلمي تلك الجزائر بعشرين مليوناً كما رأيت مرة في إحدى المجلات العربية المطبوعة بمصر وكان هؤلاء المسلمين هناك سلاطين وأمراء مستقلون فما زالت هولاندة تتغلب على واحد بعد واحد منهم حتى أخضعتهم لسلطانها تماماً ، وكان استصفاؤها بقية استقلالهم في اخضاع توانغ كو محمد دافوت سلطان آتشه الذي دخل تحت حاية هولاندة سنة ١٩٠٣

ولقد كان انتشار الاسلام في تلك الديار - بحسب تحقيقات العلامة هورغرونيه - بواسطة تجار مسلمين طرأوا عليها من الهند مقتفين آثار تجار الهندوس الذين كانوا يترددون الى تلك البلاد ويطبعون أهلها بطابع مدينتهم البرهمية ، فجاء الاسلام واستألم اليه وما زال يتقدم فيهم حتى غلب على جميعهم تقريباً ، كل ذلك بطرق سلمية ، وبدون أدنى قهر ولا عنف منها الا ما حصل من أهالى شرق جاوى الذين غلبوا بعض مجاورهم بالقوة فن جاوى امتد الاسلام الى سومطره والى قسم من بورنيو وسيليب والجزر التي الى الشرق . وابن بطوطة الرحالة الشهير امتدح ملك سومطره في القرن الرابع عشر بأنه جاهد في الكفار .

ولم يزل الاسلام ينتشر في البقايا الباقية على الوثنية حتى احتج كثير من الهولانديين على تساهل الحكومة الهولندية في ذلك وكيف انها تسمح للاسلام باكتساب هذه البقايا . وأكثر من صخب لذلك هي جمعيات التبشير المعهودة ، ولكن المستشرق هورغرونيه يفصل هذه المسئلة بالكلام الآتى مترجماً عن محاضراته السابق ذكرها :

« يجب على الحكومة أن تحذر من وضع كثير من المأمورين الوطنيين الذين يدينون بالاسلام في البلدان التي أهلها وثنيون لئلا تكون قد ساعدت على نشر الاسلام بدون قصد منها . وهذا المحذور قد وقع فيه الألمان أنفسهم في المستعمرات الألمانية بشرقي افريقية . ولكن الخطر عندنا أعظم لأن المأمورين الوطنيين من أهل الجاوى هم في الغالب من المتعلمين والمطلعين على أصولنا الادارية ، وليس عندهم تعصب مفرط في الدين ، فلا يسهل الاستغناء عنهم ، وقد تميل الحكومة الى استخدامهم ، فلا ينكر أنه مع تمدد الزمن يؤثر وجود هؤلاء المأمورين المسلمين في مسألة نشر عقيدتهم بين الوثنيين كما يؤثر جولان التجار المسلمين فيما بينهم . ولعمري لا يمكن منع هؤلاء التجار أن يجولوا في تلك الديار بحجة أنهم يدعون الى الاسلام اذ يكون ذلك عملاً مخالفاً للعدل ، ولكن يجب تدبر الأمر واستعمال الحكمة فيه بحيث لا نكون نحن قد ساعدنا بأنفسنا على اسلام غير المسلمين »

فأنت ترى أيها القارئ أن العلامة هورغرونيه - الذي هو معدود في الأقلين تعصبا، والذي من أول محاضراته الى آخرها ينبه حكومته الى خطر الانقياد الى طلب جماعات التبشير المسيحية من جهة الضغط على حرية الاسلام الدينية - هو نفسه يحذر نفس تلك الحكومة من استكفاء المأمورين المسلمين مدة طويلة في بلاد الوثنيين ، ولولم يكن عندهم تعصب مفرط ، لئلا يؤثر ذلك في عقائد الوثنيين فيشرح الله صدورهم للاسلام . وبعبارة أخرى ان مصلحة هولانده - وأوربا كلها - تقضى بترجيح بقاء الأهالي وثنيين على أن يصيروا مسلمين . هذا ظاهر لا يقبل أدنى جدال . فهل ياترى يجهل الأوروبي أن نقل الانسان من عبادة الضم الى عبادة الواحد الأحد هو أولى بالانسانية وأجدر بأن يكون هدف مساعي الأمم المتقدمة ؟ كلا . لا يجهل الأوروبي ذلك ولكنه يعلم جيداً لاسيما المستشرق العظيم الذي هو مثل هورغرونيه أن الاسلام لا يجتمع مع الذل في قلب واحد ، كما جاء في العروة الوثقى بقلم جال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وأن الشريعة القرآنية قد ضمنت لمتبعها كل شروط الحرية وانتظمت له جميع أسباب الاستقلال ، بحيث لا يقدر أن يحكم في رقبته أجنبياً الا اذا مرق من أحكام تلك الشريعة . فلذلك لا يجتمع حب الاستعمار الأوروبي والميل الى الاسلام في قلب واحد لأن المستعمرين يعلمون ما وراء الأكمة ولذلك أهم شيء

تناصبه الدول المستعمرة الحرب هو نشر الدعوة الدينية وحفظ الشريعة الاسلامية والأخذ بعزائم الاسلام . وان كان بعض عقلائهم مثل هورغرونييه ينصح باعطاء الحرية الدينية وينهى عن التعرض للمسلمين في عقائدهم فذلك انما هو من خوفهم الثورة والانتفاض . ووقوع الدول المستعمرة في المقيم المقعد من جراء هذا الأمر ، فترى مثل هذا النفر ينصحون بالاعتدال وعدم مصادمة المسلمين في عقائدهم من باب اختيار أخف الضررين لا غير ومع ذلك فلا يطلقون هذه الحرية على أرسلها بل يجعلون الحذر لها رقيباً والاحتياط رائداً ، وبالجملة فيجتهدون بأن تكون مقاومتهم للاسلام في الأمور السياسية علنية لاضراء فيها ، وأما في الأمور الدينية فيجعلونها خفية لا مجاهرة فيها بحيث لا تدعوا الى الاضطراب ولا تبعث على الانتفاض

هذه هي سياسة العقلاء من المستعمرين ، فأما سياسة المتهورين فهي معلومة لا حاجة الى الكلام عليها لا تعرف لمسلم حقاً ولا حرية وقد اعترف العلامة هورغرونييه بأن حزباً في هولانده مائلاً لجمعية التبشير بحث الحكومة أن تحصل مسلمي الجاوى على النصرانية فيبين الخطر العظيم من مملأة جمعيات التبشير على مساعيها هذه في تنصير المسلمين وطعن في مزاعم بعض النواب في الندوة الهولاندية كون اسلام أكثر أهل الجاوى والجزائر النيرلاندية لا يزال اسماً فلا بأس بمعاملتهم بغير ما يعامل به المسلمون وقال : ان هذا القول هو في منتهى الحماقة وانه يجب على كل وطني هولاندى يهيمه مستقبل وطنه أن يرده بتاتا ويحذر الحكومة من سوء عواقبه . وهو ينبه الى كون الضغط يورث الانفجار . وأن حكومة هولانده كما أنها متهمه عند جمعيات التنصير بالتسامح مع المسلمين فهي متهمه لدى المسلمين باضطهاد الاسلام فلا يجوز أن تؤيد بعملها حجة من يرمونها بذلك .

ومن رأى هذا العلامة أن الحكومة الهولاندية تخطيء اذا أقامت عقبات في طريق الحج لاسيما أن مسلمي الجاوى وسومطره هم أشد المسلمين محافظة على هذا الركن من أركان الدين وأن تعصيب الحج عليهم لا يأتى هولانده بغير اثاره الخواطر وقلق الأفكار وهو يرد على بعض النواب الهولانديين الذين يسترسلون الى الخيالات من أمر الحج ويطنون أنفسهم قد أحسنوا صنعا في حل الحكومة على منع الحج أو تعصيب سبيله . ويقول : ان على الحكومة الهولاندية أن تسلك سبيلا وسطا فلا تحت على فريضة اسلامية

ولا تنهى عنها . وأنها قد أحسنت صنعا في الطريقة التي اتبعتها في فريضة الزكاة فقد أعلنت أنها تعتبرها من قبيل الصدقة الاختيارية فلا تحمل عليها أحداً بالقوة ولا تمنعها بالقوة .

وأما من جهة القضاء فهو يذهب الى عدم سن قوانين مأخوذة من الشريعة الاسلامية كما خطر ببال بعضهم بل ينبغي حل المسلمين على القانون الهولاندى الا ما تعلق بالأحوال الشخصية كالنكاح والطلاق والميراث فهذه يجوز أن تفصل بحسب شريعتهم . وغرضه من ذلك عدم تقوية هذه الشريعة التي يحول تطبيقها بأسرها دون الصبغة الأوربية التي ينبغي أن تكون مجاهد هولانده مصروفة الى نشرها تدريجاً . فان هورغونيه يقول : ان سلامة المستعمرات الهولاندية متوقفة على نشر المدنية الغربية والثقافة الهولاندية في مسلمي تلك الجزائر الى أن يصيروا في هذا الباب كالهولانديين أنفسهم فيكون هولانديون في الشرق كما يكون هولانديون في الغرب ولا يرى ذلك مستحيلا ولا يجد الاتحاد في الدين شرطاً في اتحاد الوطنية بل يقول : انه كما لم يمنع اختلاف الهولانديين البروتستانت مع الهولانديين الكاثوليك والهولانديين اليهود ثم مع الملاحدة والمعتلة من الهولانديين أن يكونوا جميعاً أمة هولاندية فلا يمنع اختلافهم في الدين مع مسلمي الجاوى وسومطره أن يكون هؤلاء في يوم من الأيام وطنيين هولانديين وذلك بحمل هؤلاء المسلمين على الثقافة الهولاندية التي تتغلب في نفوسهم على أثر الدين . وهو يتمشى في جميع آرائه على هذه النظرية ، وكأنه يعلم أن مهاجرة المسلمين من جهة العقيدة رأساً أمر عقيم لا يأتي بأدنى فائدة ، ولا يعود على هولانده الا بالضرر ، فلا يألو جهداً في تحذير قومه من سلوك ذلك المسلك الصعب ، ويشير الى صبغ الأمة الجاوية بالصبغة الهولاندية من طريق العلم والتربية .

أما حيث تجد هورغونيه متشدداً الى الدرجة القصوى فهو في السياسة الدولية فانه ينه جهاراً بدون أدنى محاباة الى قطع كل علاقة سياسية بين الجاويين وسائر الحكومات الاسلامية ، لأنه يقول ان الخلافة ليست عبارة عن بابوية لا شأن لها في السياسة بل هي رئاسة سياسية من أراد الاعتصام بها من المسلمين لم تمكنه طاعة حكومة مسيحية .

وهو يتأسف من كون مسلمي تلك الجزائر مقلدين في ديانتهم وعاداتهم وآدابهم مسلمي مصر وحضر موت وجزيرة العرب ، عاكفين على مطالعة التأليف التي تحرر في البلاد العربية ،

وأنة الى اليوم لم يوجد عاطفة جاوية قومية تناهض هذه النزعة الدينية العربية يظهر من هنا اتفاق الاوربيين على بث روح القومية بين أمم الاسلام أملا بتشظية عصا الجامعة الاسلامية . فانا قد رأينا أثر هذه السياسة في مواضع كثيرة من بلاد الاسلام فكأن الاوربيين يرون خطر القومية أخف جدا من خطر تلك الجامعة — ولذلك هو يرى أن لاهوادة مع المسلمين الجاويين فيما لو أرادوا أن يتضامنوا في السياسة مع سائر مسلمي المعمور وأنه يجب منع قنصل تركيا الذين يمثلون هناك بصفة وكلاء دولة الخلافة من أية مداخلة كانت مع الاهالى . وأغرب من هذا أنه ينصح بمنع الاشتراك في الاعانات لسكة حديد الحجاز وعدم اباحة أية اعانة كانت لجرحى العساكر العثمانية أو لأرامل جنود الاتراك وأيتامهم — يقيم التكبير على ذلك بكل تصريح وينسى ما في ذلك من مخالفة مبادئ الانسانية — ويحث حكومته على منع ذكر السلطان العثماني في خطبة الجمعة وعلى مراقبة التعليم الديني حتى لا يقع فيه شيء من الدعوة الى اتحاد الاسلام — وكأنه يريد أن ينحصر في المواعظ وأحكام الصلاة وذكر نواقض الوضوء مثلا — ويطلب حذف باب الجهاد من الشريعة وبالاختصار فهو مع ما انصف به من الاعتدال يريد أن يمحو أثر كل تضامن اسلامي مع المسلمين التابعين لهولانده، وأن ينسخ من التعليم الاسلامي كل ما فيه رائحة الدفاع عن الامة ، وفي هاتين النقطتين لايرعى في المنام خليلا ...

ثم ان هناك مشكلة مهمة يقال لها مشكلة الحضارة ، وهذه تكرث الحكومة الهولاندية اكثر من كل مشكلة سواها في الجاوى لأنه معلوم كون اهل حضر موت من أقدم اهل الارض على الاسفار ، وان فقر بلادهم مع مضاعف عظيمتهم يحملانهم على جوب الآفاق ، واكثر ما ينتشرون في جزائر الجاوى والبحر المحيط ، فكانت الحكومة الهولاندية تحسب لهم حساباً كبيراً واثم ما يضيّق صدرها بهجرتهم الى تلك البلاد خشية أن ينشروا الدعوة الاسلامية أو ينهبوا الاهالى السذج الى الامور التي لولا الحضارة ربما لا ينتبهون اليها ، فازالت تضع الحواجز امام نزولهم في تلك الديار وتراقب حركاتهم وسكناتهم ، وهي تحتج لذلك بكونهم في الاكثر أفاقيين لا يأتون الى الجاوى بشيء من رؤوس الاموال وانهم هم بمنعون غير المسلمين من دخول بلادهم حضر موت فلا يحق لهم اذاً ان يطالبوا بدخول بلاد هولانده — لأن جزائر الجاوى وسومطره وبورنيو وملحقاتها هي ملك هولانده وهي أولى من الاهالى ببلادهم ...

— وبناء على ذلك فقد ضيق الحضارمة وغيرهم من العرب في قضية المهاجرة الى المستعمرات الهولندية أو النيرلاندية كما يقولون ولكن لم تخل الحال من كون كثيرين من الحضارمة تمكنوا من الدخول وأوطنوا تلك الديار وصاروا من اهلها ، فترتب على ذلك ان الحكومة الهولندية التي هي من الاصل غير مرتاحة الى وجودهم بين مسلمي الجاوى لكيلا تسطو حصافتهم على سداجة هؤلاء ويوقظوهم من غفلتهم التي هي درة الحلب الاستعماري قد جعلت تضيق عليهم في غدواتهم وروحاتهم وتنغص عليهم عيشهم وتفعل ما شاءت انحملهم على ترك تلك الديار

فلاستاذ هور غرونيه يتكلم على هذه المسئلة بما يلي ترجمته :

« ان عدم قبولنا للحضارمة من الاصل لم يكن مخالفاً للعدل وكانت له اسباب يمكن أن يبني عليها ، فلم تنتبه له الحكومة ، وسمحت هؤلاء بالدخول على شروط يسهل عليهم القيام بها . لكنها بعد ان سمحت لهم بالاقامة جعلت تراقب حركاتهم بصورة لا تطاق ، وربما كان لسياسة المأمورين الذين تختلف انظار بعضهم عن بعض في الشدة وعدمها مدخل في تشديد هذا الخناق على الحضارمة بحيث أصبح العربي هناك لا يملك شيئاً من الأمان على حاله واستقباله . فاضطر بعض ذوى الشأن من هؤلاء العرب الى رفع امرهم الى الخلافة (تركيا) وملاًوا الجرائد الاسلامية بشكاويهم حتى يتمكنوا من تنفيس الخناق الذي هم فيه ويتعاطوا تجارتهم ومرفقهم بدون تلك القيود الثقيلة التي هي حجر عثرة في سبيلها ، ولكن بما لا ريب فيه ان تلك الشكايات فيها مبالغة كبيرة »

ومن شاء التوسع في هذا الموضوع ومعرفة ماهي عليه حالة اسلام الجاوى وماهي سياسة هولانده هناك وكيفية نظرها الى مستقبل تلك المستعمرات ، اذ كانت كل دولة مستعمرة لايهمها شيء مثل الاستيثاق من مستعمراتها والأمان الأبدى عليها ، فعليه بمطالعة مجموع المحاضرات التي القاها هذا الاستاذ والتي تجد في آخرها جملة لأبأس بنقلها وهي :

« ان الاسلام والنصرانية يمكنهما الاجتماع واحتمال احدهما الاخرى في ممارسة الحياة الوطنية على شرط أن يمكن رفع فكرة الاتحاد الاسلامي . ولقد رأينا مقدار مساعدة الأحوال لنا في تحقيق مشروع ادخال المسلمين الجاويين في الامة الهولندية بدون اثاره المسئلة الدينية .

ولعمري ان كثيرين منا يمكنهم أن يأخذوا دروساً من التساهل الديني عن اولئك الاهالى «
وكفى بهذا شهادة

وقد اعتنى علماء هولاندة جد الاعتناء بتمحيص تاريخ الجاوى وجغرافيتها نظراً
لكونها من أبداع وأغنى بلاد الله ولكونها من هولاندة بمكان الهند من انكثرة فألفت
على تلك الجزر مئات من الكتب والرسائل ونحن لا ننقل هنا سوى ما تعلق بدخول
الاسلام فيها وأحوال المسلمين على وجه الاجال .

قالوا ان الذين أدخلوا الاسلام الى تلك الجزر هم العرب وذلك بواسطة التجارة
والملاحة فانهم نزلوا أولاً بالثغور البحرية وبالمراسى الشهيرة وأخذوا ينتشرون منها شيئاً
فشيئاً الى الداخل وكانوا لا يلبون على شئ سوى الأخذ والعطاء ولم يظهر أصلاً انهم قصدوا
بأدى ذى بدء تأسيس ملك ولا فتح بلدان ولكن عندما صارت الأمة الماليزية تناظرهم
وتسدد عليهم طريقهم التجأ هؤلاء العرب الملاحون المرباحون الى القوة المسلحة حفظاً
لحريتهم ووقاية لرفقهم فكانت مملكة دماك Demak وهى أول فتح عربى فى الجاوى .

وكان جغرافيو العرب قد عرفوا من زمن قديم بلاد ماليزيه وثبت انه فى القرن
العاشر والحادى عشر والثانى عشر طاف كثير من سياح العرب فى سواحل الهند والصين
والجزر الماليزية . قال المسيو بيارغونو Pierre Gonnaud صاحب كتاب « الاستعمار
الهولاندى للجاوى » ان المدينة الاسلامية فى القرن العاشر كانت تلمع بأسطع أشعتها
وكان الخليفة يتولى سلطنة قوية سعيدة وكانت من جميع الجوانب تمتد طرق التجارة
فيتلاقى فى وسط مملكة الخليفة الشرق والغرب وقد أحصيت تلك الطرق بين الغرب والشرق
فكانت خسا الاولى من البحر الاحمر الى الحجاز وجدة الى السند والهند الى الصين والثانية
من انطاكية الى بغداد الى الابله الى الهند والثالثة من جهة بحر الخزر الى الشرق والرابعة
كانت تبدأ من طنجة فى الغرب فتخترق أفريقية الشمالية الى مصر الى الشام الى بغداد
فالبصرة فالاهواز ففارس فكرمان الى السند فالهند فالصين والخامسة كانت شمالية تبدأ من
ألمانية فتمر بالروسية الى بلاد ماوراء النهر الى الصين . وكان انتشار قوة الاسلام اقتضى
توسع المعلومات الجغرافية فوجه زعماء الاسلام عنايتهم الى جوب جميع البلدان التى

دخلت في حوزتهم وانعد أصاب الميسورينو Reynaud في قوله : « ان فتوحات الاسلام الأولى تأتت بدون برنامج معين وعلى طريق الاتفاق ولكن كان المسلمون كلما فتحوا قطراً حددوا حدوده وخططوا مسالكه واجتهدوا في معرفة موارد حياته .

ثم قال ان المسعودى قد عرف الجاوى وذكر استيلاء الهند على الجانب الغربى منها وأشار الى وفرة الجبال النارية فيها . ومما قاله : انه لا يمكن معرفة حدود سلطنة مهراج الزيج أو الجاوى وجيوشه لا تحصى وينبغى للانسان مسير سنتين حتى يأتى على جميع ممالكه . وفي بلاده جميع أنواع الأفاويه والعطور مما لا يوجد عند ملك غيره ويصدر منها الكافور والطيب والقرنفل والصندل الخ وممالك المهراج يحدها بحر لا آخره يتصل ببلاد الصين . انتهى فكانت الجاوى يومئذ معدودة في ممالك الهند وفي القرن الحادى عشر والثانى عشر

ازدادت الفتوحات وازدادت معارف المسلمين الجغرافية وأصبح الارخبيل الماليزى معروفاً ومنذ أوائل القرن الحادى عشر ظهرت روح الدعاية الدينية بشدة عظيمة في الحروب الصليبية واشتدت المصارعة بين جنود الخليفة والبارونية الافرنج . الى أن قال : انه في القرنين التالين صارت الدولة ملوك طوائف وانفصلت بعضها عن بعض وتغيرت الطرق التى كانت بين المشرق والمغرب وسافت هذه الأحوال مهاجرى العرب الى بحر الهند . وفي القرن الحادى عشر زار أبو الريحان محمد الهند وكتب عنها . وفي العصر الذى يتلوه كان الادريسي في بلاط روجر صاحب صقلية وكان يأخذ عن تجار العرب الذين يترددون على بلرم وهو أول من سمى باسم الماليز أحد الشعوب الساكنة في الجاوى . وذكر ما بين هذه الجزيرة وجزيرة ماداغسكار من العلاقات ووحدة الجنس . ولكن اسوء الطالع كانت معلوماته في الاطلس الجغرافى لا تزال على ما كانت عليه معلومات بطليموس فكان يجعل قارة افريقية ممتدة جداً الى الشرق . على أن هذا الأطلس نفسه الذى أنبأنا عنه الميسورينو يدل على التبسط العظيم الذى تبسطه العرب في جميع أصقاع الاقيانوس الهندى ونقل ابن سعيد (أبو الحسن نور الدين على) المولود سنة ١٢٧٤ أخباراً كثيرة عن رجل اسمه ابن فاطمة ساح في سواحل افريقية الغربية حتى بلغ الرأس الأبيض وطاف في السواحل الشرقية حتى بلغ سوفاله . ونحن نعلم أن السواحل الشرقية هذه كانت دائماً محط رحال العرب وانه كان في أواخر القرن الخامس عشر في ساحل موزامبيق جالية اسلامية جليلة عا كفة عن أشغال البحر

بصيرة جيداً بمهاب الرياح ومجارى الأبحر المجاورة وبين أيديها خرط بحرية وآلات متنوعة متعلقة بصنعة الملاحة . وأحسن من وصف بلاد الجاوى من هؤلاء الجغرافيين أبو الفدا فمع كون معلوماته ليست فى نهاية التمهيص فلم يكن أحد ليقدر على ما يقدر عليه فى وقته من الاطلاع والتنقيب فقد حج الى مكة ثلاث مرات وعرف الشام والعراق وكان كثير الاختلاط بصاحب الديار المصرية فاطلع على أحوال الجاوى والجزر المجاورة لها ونشر كل ما عنده من العلم فى عصره عن هذه الجزر العجيبة فقال ان الجاوى لها عدة أسماء . وذكر ابن سعيد ان جزائر الرانج اشتهرت بما روى عنها التجار والسياح . وأكبرها جزيرة السريرة التى طولها أربع مائة ميل من الشمال الى الجنوب وعرضها مائة وستون ميلاً الخ . ثم يقول أبو الفدا : فى جنوبى الاقليم الأول جزيرة كبيرة فى البحر الأخضر ذكر ابن سعيد أن سلطانها لا يوجد له نظير فى ملوك الهند فى كثرة السكنوز والذهب والأفيال وقاعدة ملكه فى الجزيرة الكبرى وقال المهلبى ان جزيرة السريرة معدودة من الصين الخ .

وبالاختصار فالى عهد استيلاء الأورو بين على هذه الديار كان العرب لهم معرفة تامة بها وبخيراتنا وبمسالكها وبالبراكين التى فيها وكانوا يعلمون أن فيها ممالك عظيمة مثل مملكة المهراج يصفها ابن خرداذبة وأبو الفدا بسعة الملك والحوال والطول . ولما وصل العرب الى تلك الجزائر لم يفكروا فى فتحها بالسيف كما فتحو آسية الصغرى وأفريقية وأسبانية لأنه لم تكن بأيديهم قوة كافية بإزاء هانيك الممالك وانما كانوا تجاراً ومرزقين منتشرين هنا وهناك ولكن كما قال فان در برغ van der Berg صاحب كتاب «حضرموت والمستعمرات العربية فى الارخبيل الهندى» : لما كانوا أعلى درجة فى المدنية من أهل تلك الأقطار جعلوا لأنفسهم مقاماً ممتازاً حفظوه الى يومنا هذا فى وسط الشعوب الآسيوية التى انتجعوا بلادها . وهذا المقام العالى الخاص بهم الذى له أسباب خلقية وطبيعة انضمت اليها عوامل أخرى تجارية ومزايا كسبتهم اياها الاغتراب وطول السفار هى التى كانت الأصل الاصيل فى نجاح العرب وفلاحهم وتبسطهم من السواحل الى الداخل ونشر عاداتهم وعقائدهم حيث نشروا تجارتهم . اه .

قال المؤرخون الأوربيون : لم تكن العلاقات التجارية مهما كثرت وانتشرت لتكفى فى نيل العرب هذه السيادة الاجتماعية والأدبية على جزائر عظيمة كهذه فياضة الخيرات

زاخرة العمران بل كانت معهم قوة أعظم من هذه وهي قوة العقيدة المحمدية التي هي من الجلاء والبساطة بحيث يفهمها الخاص والعام وما لا يشك فيه أنها متضمنة فضائل لم تكن في دين من الأديان المعروفة في الجاوى فقد كانت البراهمية والبوذية هما الديانتين السائدتين هنالك وهما عبارة عن تمجيد متصل لقوى الكون ومجادلة دائمة بين مصدرى الخير والشر فكان في ذلك من التعقيد وصعوبة التفهيم ما فيه لأن هذه العقائد تسلم بوجود الهين متساويين في القوة بأيديهما ادارة المخلوقات أحدهما للنفع والآخر للضرر فكانت تضل الافكار وتقسم قوى النفس البشرية وتساعد على تعدد النحل وتدفع بعضهم الى ناحية براهما والآخرين الى ناحية سيفا أو فشنو وتحمل المعتقدين على اختيار الآلام وحب العذاب وعدا ذلك فإن في هذه الديانات من تفاوت الطبقات ووضع بعض الناس في أعلى عليين وبعضهم في أسفل سافلين ما يحرم المعتقدين من كل مساواة حتى في الحضرة الالهية . فالدين الاسلامي أتى أهالى الجاوى بما كانوا يشعرون بالحاجة اليه من المساواة التامة فضلا عن كون عقيدته صافية واضحة مختصرة سهلة الشعائر تنحصر في الإيمان بالله واحد أوحى شريعته الى الخلق بواسطة واحد من رسله . فخلص الناس بذلك من هذه الثنائية التي تجعل قوتين خالقتين في صراع دائم وتحير الأفكار وتقلق الخواطر . فالاله الاسلامي واحد لا شريك له مهيم على الخلق وجميع الناس أمامه سواء ولديه صلاة الصلوة الصلوة كصلة الملك فلا درجات ولا طبقات ولا فواصل غير قابلة للوصل بين العباد . وهو أكثر ملاءمة لوجود حكومات متحدة قوية ذات مركز واحد مما كان يحن اليه أهالى الجاوى من زمن طويل وحسبك أن الاسلام كله ينحصر في كتاب واحد هو القرآن فإذا كان البراهمي يعيش بين الأمم الغريبة منفرداً لاهم له في التأثير فيهم ولا في جملهم على مشاطرته تلك السعادة التي يرى نفسه متمتعاً بها وكان البوذي لا يرى تحقيق نعيمه الا في التأمل والتبتل والرهابية فإن السائح المسلم في أى بلد وجد وقرأ أنه يمينه يمكنه أن يعلم من اختلط بهم ديانة سهلة الفهم سهلة الدخول في العقل من شأنها بث الدعوة ومن فضائلها النشاط والعمل والاختلاط مع سائر البشر وزد على ذلك أن المدينة الاسلامية كانت أرقى جدا من مدينة أهل الجاوى وان العرب لما وطئوا هاتيك الشواطىء جاءوا بمعلومات قيمة كانت مجهولة عند الجاويين وأهل الشرق الأقصى مثل علم الهيئة والتقويم والجغرافية والعروض والأطوال

لتحديد الأقاليم وكان فن الملاحة بالغاً عند العرب الدرجة العليا من الاتقان وكانوا قوامين على الاسفار خيرين بأحوال الأمم ويقال انهم كانوا عرفوا ابرة المغنطيس وكانوا ينشئون الجوارى كالأعلام ويقطعون البحار بمزيد الجرأة والاقدام وكانت لهم خبرة زائدة بالطرق البحرية والمراسى ونقاط الخط والاقلاع حتى كان السياح الاوربيون لأول عهد دخولهم الى آسية مفتقرين اليهم^(١) وقد خلق العربي تاجراً بفطرته خبيراً بالعمليات المالية والحساية وبأساليب الأخذ والعطاء فتعلم الماليزيون من العرب أصول التجارة وطرق البيع والمساومة وطريقة تحديد أثمن الحبوب والبضائع وتأسيس المستودعات التي هي الواسطة بين الزارع والصانع وبين التاجر والمشتري وطريقة السفنجة أو الحوالة التي كانت عند العرب كما هي عند الاوربيين اليوم .

فلهذه الأسباب انتشرت في الجاوى عقيدة الاسلام وحضارته ومع شدة تأثيرها كان سيرها بطيئاً في البداية وما عمت الجزيرة كلها حتى وحتى . كذلك لم يكن نجاحها متساوياً في جميع آفاق الجزيرة فيوجد فرق بين غربي الجاوى وشرقيها كما قال الدكتور شريبر Schreiber لأن الاسلام كان أسرع تقدماً في الجهة الغربية بين الجنس المسمى بالسونداني منه بين الجنس الجاواني والى هذا اليوم تجد السوندانيين أشد تمسكاً بدينهم وأعرف به من الجاوانيين الذين في الغالب لا يعرفون القرآن وكذلك ترى النصرانية لم تجد من سهولة الانتشار بين السوندانيين ماوجدته بين الجاوانيين الا أن هذا الفرق نفسه قد بدأ يضمحل اليوم برسوخ الاسلام في شرق الجاوى كما هو في غربيها .

ولم تتوفر عناية العرب في الجاوى على تشييد المباني الدينية الضخمة كما كان شأن البراهمة والبوذيين بل كان معظم همهم في الفتوحات الروحية فليس في الجاوى ما في سائر البلاد الاسلامية من المساجد التي تبهر الأنظار ببديع الصنعة وغامة البناء ولكن الجوامع كثيرة العدد ولا يخلو منها بلد وعدد الذين يحجون بيت الله الحرام كل سنة كثير جداً ولقب « حاجي » هو في نهاية الاعتبار .

يقدر المؤرخون تاريخ دخول الاسلام في الجاوى بخمسة قرون تبتدىء من القرن الثاني عشر الى أن تنتهى باحتلال الهولانديين لبتافيا في القرن السابع عشر . وقد حقق

(١) مثل ابن ماجد الذي كان دليلاً للبرتغال

المؤرخ فت Vet ان المسلمين لم يقتصروا على فتح الجاوى الأدنى بل نشروا المدنية الجاوانية الى أقصى جزر الارخبيل .

وكانت أعظم سلطنة هناك مملكة « ماجاباهيت » كانت تنضوى تحتها امارات عديدة فلما جاءت الدعوة الاسلامية أخذ أولئك الامراء والمهراجات يولون وجوههم شطر الاسلام فكان كلما كسب بلداً انتقل الى الذى بجانبه فاستصفي مملكة ماجاباهيت ودخل الى المالانغ ثم الى بلاد السوند وأخذ يزداد عدد المسلمين يوماً فيوماً وكانت ثروتهم تنمو بنمو عددهم وهم دائماً فى علاقات مع تجار العرب الذين كانوا أول ما ينزلون فى سواحل الجاوى الشمالية وما زالوا يتكاثرون هناك حتى أسسوا سلطنة دماك .

وكانت ماجاباهيت هذه أول سلطنة هندية سقطت بعلو الاسلام فى تلك الديار وكانت واسعة الأطراف تشتمل على الأقسام الجنوبية والشرقية من الجاوى يحدها من الغرب بلاد جانقاله وغريس ومن الشرق بلاد تنغرو ولكن نفوذها كان يمتد الى بلاد « ماتارام » وإلى حدود مملكة « باجاجاران » وكانت فيها حواضر عظام مثل مدينة ماجاباهيت ومدينتا « برانبانان » و « مندويت » ولكن الاسلام تمكن منها بسهولة واشتهر فى نشره هناك حسين الدين حليف سلطان دماك فى سنة ١٤١٨ من التاريخ الجاوانى الموافق ١٤٨٨ من التاريخ المسيحى دخلت سلطنة ماجاباهيت فى خبر كان . وأعظم سلطنة تأسست للإسلام فى الجاوى كانت فى قطر ماتارام وقد بقيت فى شوكتها الى القرن الثامن عشر فبدأت تتساقط تحت هجمات الهولانديين .

فالعرب لم يؤسسوا فى الحقيقة سلطنة اسلامية جامعة فى بلاد الجاوى لأنه كان يحول دون اتحاد السلطنة هناك حوائل كثيرة وانما أسسوا هيئة اجتماعية اسلامية مانعة يمكنها أن تبقى ثابتة من فوق الممالك المتداعية الى السقوط فالآن يوجد امة ماليزية محمدية قد وحد الاسلام بين اجزائها واورثها قوة جعلتها تقف فى وجه الغرباء الذين حاولوا فك أوصالها ومكنتها تمكيناً فى تلك الأرض فليس فى الجاوى قوة سواها (عن ييار غونو ملخصاً) .

أما جزيرة الجاوى فهى معدودة من ارخبيل السوند تنفصل شمالاً عن جزيرة بورنيو ببحر الجاوى وغرباً عن سومطرة ببوغاز السوند وشرقاً عن بالى ببوغاز بالى وامامها من الجنوب الاوقيانوس الهندى وموقعها بين ٥٢ ر ٥ و ٤٦ ر ٨ من العرض الجنوبي و ١٢٠ ر ٤٠

١١٢ من الطول الشرقى طولها الف كيلومتر من الغرب الى الشرق وعرضها من ١٠٠ الى ١٥٠ كيلو متراً من الشمال الى الجنوب ومساحتها مع « مادوره » مئة وواحد وثلاثون الفا وخمسة كيلومتر . وفيها جبال كثيرة وبراكين متأججة وجبالها مغطاة بالأشجار وفيها معادن غير مستخرجة وسهولها خصيبة تروىها المياه السائلة من الجبال وهواؤها حار رطب وأهلها خمسة وعشرون مليوناً و ٦٧ الف نسمة منهم ٢٤ مليوناً و ٧٥ الف نسمة جاويون و ٥٠ الفا اوريون و ٢٥ الفا صينيون و ١٥ الفاعرب وجميع الأهالى الجاويين مسلمون ، وتجارة الجاوى تقدر بأكثر من ٥٠٠ مليون وفيها ١٨٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية وهى مركز المستعمرات النييرلاندية وعاصمتها باتافيا وبها يقيم الحاكم العام من قبل هولاندة ومن مدنها بويتنورغ وهى كرسى الحكومة الصيغى ثم سامارانغ وسرايه وسراكارته .

ومن جزر الارخبيل المالىزى بورنيو وهى اكبر جزائره لابل اكبر جزيرة فى الارض بعد غينية الجديدة . مساحتها سبعمائة وستة وأربعون الف كيلومتر مربع وهى من بلاد خط الاستواء والاشجار تغطى جبالها الى أعلى القطن ومن رؤوس جبالها ما ارتفاعه ٤١٧٥ مترأ وهو فى المحل المسمى « كينابالو » فى شمالى الجزيرة ومنها فى وسط الجزيرة « غونونغ ريا » علوه ٢٢٧٨ مترأ . وتكثر الامطار فى هذه الجزيرة فتسيل فيها أنهار كبيرة منها نهر الكابواس والسامباس مما عرضه ١٥٠٠ متر فى بعض الأماكن ومنها أنهر أخرى مثل الكاهاجان والبارتيو فى الجنوب والمهاكام والكاجان فى الشرق والبارام والباتانغ رجانغ والباتانغ لوبار فى الشمال وجداول وأنهار صغار لاتحصى . وفى هذه الجزيرة معادن كثيرة وجواهر كريمة ويستخرج منها زيت البترول بكثرة .

والجزيرة منقسمة بين انكلترا وهولاندة فمنها مساحة ٥٥٣٣٠٠ كيلومتر مربع فى الشرق والجنوب والغرب هولاندة . ومنها ١٩٧٥٠٠ كيلومتر مربع فى الشمال لانكلترة . فأما القسم الهولاندى فينقسم الى قسمين : جهة غربى البورنيو وقاعدته « بونتيانك » وجهة الجنوب الشرقى من البورنيو وقاعدته « بانجر ماسين » وأما القسم الانكليزى فهو عبارة عن اماره « سرافاك » وأراضى الشركة الانكليزية فى شمالى بورنيو وجزيرة لابوان ومدينة بروناى .

فأما البلاد التى تحت سلطة هولانده ففيها ممالك « سنامباس » و « مانباوه »

و « بونتيانك » و « كوبو » و « سيمبانغ » و « ماتان » و « لاندك » و « تاجان مليو » و « سانغو » و « سيكادو » و « سنيانغ » و « سيلات » و « سوهيد » و « سالينبو » و « بياسه » و « جونغ كونغ » و « بونوت » وكل مملكة من هذه عليها رئيس يسمى سلطانا أو بانمباهان أو بانجران وهم باجمعهم تابعون لهولاندة وعند كل منهم مجلس مؤلف من امراء الاسرة المالكة وأشراف البلاد .

وكان لبورنيو علاقات بالصين من جهة الشمال وبالهند وكثير من ملوك بورنيو هم من أصل هندي وفيها هياكل كثيرة للعبادات الهندية . ولم يدخل الاسلام الى بورنيو الا في أواسط القرن السادس عشر انتشر من البانباغ الى السوكادانه والماتان . وفي سنة ١٥٩٠ صعد أول سلطان مسلم وهو « غيرى كوزوما » على عرش سوكادانه وفي أيامه بدأ الأوربيون يتطالون الى هاتيك الاقطار .

وحفظت ممالك بورنيو استقلالها مدة طويلة فتأخر استيلاء الاجانب عليها عن جميع جزائر الارخبيل الماليزي فلبث الاوربيون ثلاثة قرون من برتغاليين واسبانيول وهولانديين وانكليز يجوبون في تلك الديار متجربين ومعاضين ولا يتعرضون للسياسة . وأول مملكة فقدت استقلالها هي بانجارماسين فان الهولانديين اعتدوا عليها في أواسط القرن الثامن عشر . أما سوكادانه فبقيت مدة تابعة لمملكة بانتام من الجاوى ثم انفصلت عنها سنة ١٧٢٥ بمعاونة اهالى جزيرة « سيلاب » وهم جنس يقال لهم البوغينيزيون انتشروا في السواحل الغربية من بورنيو وملك منهم عدة امراء في هذه الجزيرة . وبقيت سوكادانه مستقلة تمام الاستقلال الى سنة ١٧٨٦ اذ أسقطها الهولانديون بالاشتراك مع سلطان بونيتانك ولم يبق لها سوى بلاد الماتان . أما سلطنة بونتيانك فاصلها اماره رجل عربى اسمه الشريف عبدالرحمن بن الشريف حسين بن احمد القادري الذى فبره يزار في بلدة منبواه فيقال انه بدأ حياته بالغارات وغصب السفن الى أن غضب عليه أبوه الذى كان صالحا ورعاً فرحل من منبواه وجاء بعصا به الى جهة لاندك وكابواس ولباقته ونشاطه أسس مركزاً تجارياً لم يزل ينمو ويتقدم حتى صار مدينته هي مدينة بونتيانك الحاضرة . وسنة ١٧٧٩ نودي به سلطانا واعترفت بسلطنته الشركة الهولاندية للهند الشرقية وعاهدته ولم يزل الملك في أعقابه الى هذا اليوم ولكن هولاندة أخنت على أيديهم ولم تبقى لهم من الملك سوى الاسم .

وأما سلطنة سانباس التي قاعدتها سانباس فقد أسسها ماليزيو جوهور . وسنة ١٦٠٩ عقدت معاهدة مع الشركة الهولندية للهند الشرقية . وفي النصف الأول من القرن السابع عشر غلب رادين سليمان بن الراجا تنغا أمير « برونای » على ملك سانباس وطرده وكانت امه من بيت ملك سوکادانه مقيمة بسانباس . وملك رادين سليمان تحت اسم السلطان محمد صني الدين وهو أول ملوك الاسرة المالكة الى زمننا هذا .

وأما إمارة سرافاك التي قاعدتها كوتنينغ فأصلها أن بحريا انكليزيا اسمه جيمس بروك وصل بسفينة تحميه الى بلدة برونای فوجد الحالة فيها لاتطاق من الظلم والعسف وفقد الامن وتبليص الناس من أموالهم . وكان هناك أمير يقال له مودا حسن فاعتمد على الربان جيمس الانكليزي وفوض اليه الأمور فأصلح الأحوال ووطد الأمن وفي سنة اعترف سلطان برونای هذا للضابط الانكليزي جيمس بالامارة على سرافاك فصار جيمس أميراً واستخدم الوثنيين في مقاومة المسلمين (١٨٤٢) وأمدته الحكومة الانكليزية ببعض النجديات في وقائعه مع العرب والماليزيين ولم يدخل في حكومته الا عدداً قليلا من الاوربيين وسوى في المعاملة بين الاوربيين والوطنيين ^(١) فسعدت أهالى تلك الامارة واتسعت حدودها وعظم شأنها . وسنة ١٨٦٣ مات جيمس خلفه ابن أخيه كارلس بروك وقد ورث ملكا عريضا يمتد الى حدود نهر لينبانغ ودخلت هذه المملكة تحت حاية بريطانية العظمى .

وأما سلطنة « كوتاي » على الساحل الشرقى من بورنيو فقاعدتها « تنغارون » وميناؤها « سامارينده » فقد كانت تابعة سلطنة موجوبا هيت الجاوية ثم صارت الى تبعية مملكة بنجارماسين . وفي أثناء القرن التاسع عشر اضطر سلاطين كوتاي الى الاتفاق مع هولاندة على شروط تخل باستقلالهم وتجعل لها هي السيطرة .

أما احصاء نفوس بورنيو فيبلغ مليوناً وسبعائة ألف نسمة من هذا العدد نحو ستين ألف صيني وبضعة آلاف عربى ونحو ألفى أوربى فهى قليلة الساكن بالقياس الى مساحتها اذ لا يصيب الكيلو متر المربع فيها أكثر من واحد الى ثلاثة من السكان . وهم من جنس يقال له الداياك يسكنون فى الداخل ومن الماليزيين المسلمين الذين يسكنون فى الساحل .

(١) ياليت حكومته وسائر الحكومات الأوربية تقتدى به فى هذه الحطة

والدايك هم من أصل ماليزى ولكنهم منحطون في المدنية منقطعون في البرارى والجبال والسيادة دائماً للمسلمين عليهم . ومتى أسلم واحد من الدايك صار معدوداً من الماليزيين . وأما السواحل فهي مأهولة بالمسلمين الماليزيين بعضهم من السلالة الماليزية الخالصة وبعضهم مختلطون بالامة البوغنيزية . ومن جهة أرض كابواس يوجد ماليزيون كثيرون ممتدون الى الداخل وهم هناك يتزوجون من الدايك والغالب على هؤلاء الماليزيين حب التجارة وصيد البحر وقصص الوحوش وليس عندهم ميل الى الزراعة والصناعة ولكن تشكيلاتهم السياسية بسبب وحدة العقيدة الاسلامية هي أمتن وأقوى من غيرها فقد سادوا بها على سائر سكان بورنيو فتجدهم هم الماسكين بافواه الانهر التي هي طرق المواصلات قابضين على زمام التجارة من كل جهة . ومنهم من يتغلغلون في أحشاء الجزيرة في طلب محصولات الأراضي الحرجية مثل الكاوتشوك وغيره فيصلون الى أقصى مساكن الدايك السابق الذكر ويطبعونهم بطابع الاسلام . وأما السواحل الجنوبية من بورنيو فيسكنها جيل يقال لهم البانجاريزيون وهم ماليزيون مختلطون بدم جافانى لهم في بلاد بنجارماسين هيئة اجتماعية جديرة بالذكر وهم أهل ذكاء واقدام . كذلك على السواحل الشرقية يكثر الجبل المسمى بالبوغنيزى وهم من أقوم الأقوام على التجارة والسعى وفيهم نشاط وهمة فائقة ولهم مكانة عظيمة سياسية واقتصادية في هاتيك الأرجاء

وفي الأرخبيل الماليزى جزيرة يقال لها سيلاب Célèbes هي الجزيرة الثالثة في العظمة والبسطة مساحتها ٣٢٢٨ كيلومتر مربع وفيها جبال عالية جداً ارتفاع قممها يبلغ ٣٤٥٠ متراً وأرضها كلها جبلية تقل فيها السهول وتكثر فيها البراكين وفيها بحيرات متعددة . وسيلاب تابعة لدولة هولاندة باجمعها وانما ادارتها مقسومة الى قسمين أحدهما ولاية « منادو » ويتبعها النصف الشمالى من الجزيرة مع شبه الجزيرة الشرقى والثانى مابقى من الجزيرة . ولا يزال فى أشباه الجزر الشمالية والجنوبية امارات وطنية مثل « غوفا » و « بونه » و « لوفو » طرد أمراؤها سنة ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ولم ينتصر لهم أحد من الأهالى . و امارات أخرى مثل « تانيت » و « سوبنغ » و « سيد نغرنغ » لاتزال مستقلة فى داخلها الى اليوم

وكانت جزيرة سيلاب مجهولة أكثر من سائر جزر هذا الأرخبيل نزل بها الماليزيون سنة

١٥١٢ والبرتقاليون سنة ١٥٣٢ وفي القرن السادس عشر تغلب ملوك الما كاسار أصحاب دولتي « غوفا » و « تلو » على جنوبي سيلاب وقسم من أوساطها وعلى الجزر الصغيرة من أرخبيل الصوند . وفي زمان الملك « تونيجالو » الذي تولى الأمر من سنة ١٥٦٥ الى سنة ١٥٩٠ تقرب « باب الله » ملك « ترنات » وكان مسلماً الى مملكة غوفا وعقد معاهدة مع تونيجالو وأراد أن يحمله على الاسلام ولكن لم يوفق حينئذ الى ما أراد . فلما آل الأمر الى ابن تونيجالو شرح الله صدره للاسلام على يد رجل ماليزي اسمه « داتوري باندانغ » من بلدة يقال لها « منانغ كابو » من جزيرة سومطرة فاسلم (سنة ١٦٠٣) وتلقب بالسلطان علاء الدين وأسلم معه وزيره « كارانغ ماتوفيا » وتبعهما سائر الأهالي وانتشر الاسلام بين جميع الشعوب العديدة المسماة بالما كاسار والبوغينز لا سيما أن مملكة غوفا في ذلك الوقت كانت قد وسعت حدودها وزادت بسطة عزها .

وكان الهولنديون والانكليز والدانمركيون منذ سنة ١٦٠٥ بدأوا يناظرون البرتغاليين في التجارة ويزاحونهم على محاصيل البهارات والفلفل في عاصمة الما كاسار . وقد عقد الهولنديون معاهدات تجارية مع أمراء تلك النواحي تضمن لهم امتيازات خاصة بهم ثم لم ينحل الأمر من وقوع بعض الخلل بهذه المعاهدات فاتخذت هولاندة هذا الخلل ذريعة لمناجزة تلك الحكومات الوطنية القتال وبالاتفاق مع مملكتي بون وترنات زحفت العساكر الهولندية في سنة ١٦٦٧ ثم في سنة ١٦٦٩ وفتحت أوساط مملكة الما كاسار وأجبرت أمراءها على امضاء معاهدة « بانغابا » التي حلت على امضائها فيما بعد جميع ملوك القطر الجنوبي من جزيرة سيلاب وبموجبها أطاعوا دولة هولاندة . وكانت بلاد « ميناهازه » من هذه الجزيرة ذات علاقات كثيرة مع الاسبانيول وكان لهؤلاء عندهم مرا كز أسسوها منذ القرن السادس عشر فاستعان الميناهازيون بالشركة الهولندية على الاسبانيول وأخرجوهم .

أما عدد أهالي سيلاب فيبلغ مليونين وهم من العائلة الماليزية البولينيزية وذهب بعضهم الى وجود جنس آخر في داخل الجزيرة اسمه « توالا » وأصفي جنس من هؤلاء السكان هم « التوراجا » وهم جيل وثنيون في داخل الجزيرة ومنهم أقوام في شبه الجزيرة الغربي اختلطوا بالماليزيين فتكون منهم الما كاسار والبوغينز . أما جنس الميناهازه

فيستدل من أشكاهم ولغتهم على كونهم ذوى قرى مع الماليزيين أهل الفيليبين وفورموز واليابان . وأشهر المدن التجارية الماكاسار فيها ١٠٥٩ أوريباً و ١٤١ عربياً و ٤٦٧٢ صينياً و ٢٠١٧٨ من الأهالى أكثرهم بوغينيزيون . ثم منادو وفيها ٥٠٠ عربى و ٥٧٦ أوريباً و ٢٧٨٤ صينياً و ٦٦٩٩ من الأهالى . ثم غوروتتالو وفيها ٣٢٧ عربياً و ١٤٥ أوريباً و ٦٠٦ صينيون و ٥٢٤٧ من الأهالى . ثم سينجه وأهلها ٣٥٧٨ وفيها ٥١ أوريباً و ٢٣ عربياً و ١٠٨ صينيون . ثم بوتتان وفيها ١٥٥ أوريباً و ١٩٧ صينياً و ٦٥٤٤ من الأهالى و ٣ عرب وهلم جرا . وجنس التوراجازراع ومنهم قناصون ويسكنون في قرى محصنة لكثرة ما يقع بينهم من الحروب .

وفي البلاد التى تصاقب البلاد الساحلية حيث يكثر البوغينيزيون دخل التوراجاهؤلاء في الاسلام اما النصرانية فتنمو في الجهة الشمالية .

والشعبان التوأمان المسلمان في جزيرة سيلاب هما الماكاسار والبوغينيز . كانا يسكنان في الأرجاء الجنوبية ولكنهما انتشرا أخيراً في جميع سواحل سيلاب وفي أكثر جزر الارخبيل من الشرق الى الغرب وذلك بكون أبناء هذين الشعبين هم من أجراً الناس على البحر ومن أقدروهم على التجارة والماكاسار هم أصحاب الناحية الغربية من شبه الجزيرة الجنوبية داخله في ذلك مملكة غوفا Gouva واما البوغينيز فانهم أصحاب الجانب الشرقى من شبه الجزيرة . ولما كاسار عداغوفا مملكة تانيت Tanette وارخبيل ساليار Saleyer الجنوبي . وللبوغينيزين Buginais ممالك بون Bone وفاجو Vadjo ولوفو Louvu وسو بنغ Sopeng وماعدا هذه الممالك فيوجد حكومات صغار تابعة للحكومات التى هي أكبر منها . وعلى رأس كل من هذه الممالك ملك أو أمير أو ملكة أو أميرة يتقلد أو تتقلد الملك بالارث ولكل من الملك أو الملكة وزير ثم مجلس مؤلف من أعضاء بيت الملك . وامراء البلاد والأهالى قسمان منهم الاحرار ومنهم الأرقاء . وللاهلالي عادات ومنازع لايزالون متمسكين بها بالرغم من انتشار الاسلام بينهم فالتوارت بحسب الشريعة الاسلامية غير جار الا في المدن . والزواج يجرى وفقاً للشرع المسمى لكن حفلات الأفراح وثنية تقريباً . وأما المرأة المتزوجة فلها مقام ممتاز . وقد امتاز الماكاسار والبوغينيز بالنشاط والعمل وحب الكسب فتراهم ارقى امم تلك الجزر في الأمور الاقتصادية وهم يتقنون التجارة والزراعة وتربية المواشى وعندهم صناعات

يدوية من النساجة والحدادة وبناء السفن يبلغون بها حد المهارة وكذلك لا يباريهم أحد في حرفة الملاحة وصيد السمك . ومعدل كثافة السكان من هذين الجبلين بالنسبة الى مساحة الأرض هو ٢٧ شخصا في كل كيلو متر مربع كما في غوفا وفي تانت و ٢٠ شخصا في بون . وأما في الاماكن التي تديرها هولاندة رأسا فهو ٥١ شخصا في كل كيلو متر مربع . ولهذين الشعبين كتابة وحروف هجائية من أصل هندي . وعندهم كتب وتآليف وآداب لغوية غزيرة ونظم ونثر . ومن جملة الكتب المعروفة عندهم مجموع أحكام حقوقية اسمه «رابانغ» بلغة الماكاسار و «لاتوفا» بلغة البوغينيز . ويوجد مراكز تجارية عظيمة للبوغينيز في جميع الارخبيل كالسواحل الشرقية والغربية من بورنيو وفي ارخبيل ريوف Riouy والجزر الصغار من أرخبيل الصوند وفي شرق جزيرة لوبوك وشمالى سومطرة .

أما الميناهازيون فانهم اليوم نصارى وقد انتشر العلم والتمدن بينهم بواسطة المبشرين ونمت ثروتهم وصارت كثافة السكان منهم بالنسبة الى مساحة الارض بمعدل ٣٨ شخصا في الكيلومتر المربع ويوجد ناحية حول بحيرة توندانو كثافتهم فيها بمعدل ٨٣ في الكيلومتر . وأما جزيرة سومطرة فانها من الجزر الماليزية أيضاً وتعد من أعظمها بل من أعظم جزر العالم يفصلها عن بلاد الهند الصينية بوغاز ملقا وعن الجاوى بوغاز الصوند وهي بين ٩٢ ر ٥٢ و ١٠٣ ر ٤٣ من الطول الشرقى و ٥ ر ٣٨ من العرض الشمالى و ٥ ر ٥٨ من العرض الجنوبى وطولها ١٧٦٠ كيلو متراً . يختلف من ١٦٠ الى ٤٠٠ كيلو متر ومساحتها ٤٣٠٠٠٠ كيلو متر مربع وفيها سلسلة جبال عالية ارتفاع قممها ٣٧٠٠ متر و ٣٤٠٠ متر . وفيها أنهار كبيرة تسير فيها السفن وهوؤها حار رطب وفيها معادن الذهب والحديد والنحاس مثل جزيرة بورنيو . وفيها زراعة الارز والحبوب وتكثر فيها الحيوانات كالخيل والبقر والجواميس وعدد أهلها ثلاثة ملايين وخمسمائة وسبعون ألفاً منهم من اجناس هندية كالبناء والآلا والكوبو ومنهم ماليزيون ومنهم ماليزيون مختلطون يقال لهم آتشينيون والماليزيون والآتشينيون هم مسلمون وهم أكثر أهالى الجزيرة . وسومطرة تابعة هولاندة منها مايليه الهولانديون رأساً ومنها امارات تحت الحماية ومنها امارات مستقلة . وأعظم مدنها بالانباغ وآتشين وبادانغ ومدان الخ .

والمسلمون في الجاوى وسومطرة وبورنيو وسيلاب وسائر المستعمرات الهولاندية هم ٣٥ مليوناً وبعضهم يقول ٤٠ مليوناً .

مسلمو الفيلبين

المقدمة

وتنتهى القول بجزائر الفيلبين وهى أرخبيل من الاوقيانوس المالىزى بين ٢١٤ و ٣٠ من العرض الشمالى و ١١٤ ر ٣٠ و ١٢٤ ر ١٥ من الطول الشرقى بين بحر الصين غربا والاقيانوس الباسيفيكي شرقا وبحر سيلاب وبحر جولو جنوبا . وهذا الارخبيل يحتوى ١٢٠٠ جزيرة أشهرها لوسون Luçon فى الشمال وجزر بابوان Babuyanes وجزر بيسايا Bissayas فى الوسط وجزر كالاميان Calamianes وبالاوان Palaouanes فى الغرب وجزيرة مينداناو Mindanaw فى الجنوب . وهذه الجزائر جبلية بركانية كثيرة الزلازل وهواؤها رطب حار وزراعتها الأرز وقصب السكر والبن والقنب وفيها مواش كثيرة كالخيل والبقرة والجاموس ومعادنها غير قليلة كالذهب والنحاس والقصدير وصادراتها تعدل بنحو ١٥٠ مليوناً والداخل اليها بنحو ١٢٠ مليوناً وفيها نحو ٢٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية ومساحتها ١٨٢ ر ٢٩٦ كيلو متر مربع . وعدد سكانها سبعة ملايين منهم المالىزيون الكاثولائيكيون ويقال لهم التاغال والمالىزيون المسلمون ويقال لهم المورو والباوينزيون وهم وثنيون وفيها زنوج وفيها نصف مليون من الصينيين ومثنا الف اوربى . وأعظم حواضرها مانيلا ثم ليبا ثم بانانغ ثم باتانغا الخ وقد سميت هذه الجزر بالفيلبين نسبة الى فيليب الثانى ملك اسبانية الذى فى أيامه جرى اكتشافها ودان أكثر أهلها بالانصرانية وذلك سنة ١٥٦٨ وبعد ان بقيت هذه الجزر ماثت من السنين تحت حكم اسبانية ثارت عليها فعضدت الجمهورية الاميركية الكبرى حركتهم فتملصوا من حكم اسبانية ولكنهم وقعوا تحت سلطة الولايات المتحدة فعادوا يشورون على هذه وأحوالهم لاتزال غير مستقرة .

ويظهر أن الأمريكين أرادوا استمالة المسلمين من أهل الفيلبين ليتقوا بهم على الكاثوليك فجاء منهم وال سابق للفيلبين الى الاستانة منذ ٢٠ سنة والتمس من الحكومة العثمانية ارسال مرشدين يهذبون مسلمي الفيلبين وينورون أفكارهم نظرا لما هم عليه من

الجهل والغباء ولما كانت الدولة العثمانية وقتئذ تعنى بأمور المسلمين بقدر إمكانها أرسلت المشيخة الإسلامية أحد مأموريها وهو الفاضل المرحوم وجيه أفندي زيد الكيلاني النابلسي وجعلته أشبه بشيخ إسلام في الفيليين فذهب إلى هناك واستقبله المسلمون بفرح يفوق الوصف وبدأ بمهمته وعاونه الأمير كيون عليها إلا أنه مرض مرضاً قضي عليه بالعودة إلى الأستانة فلما جاء قطعت المشيخة راتبه وأبت أن تعنى بهذا الأمر بعد ذلك فاضطر إلى السفر ثانية على نفقته الخاصة وكان يتأوه كثيراً على حالة الإسلام في الفيليين ويذكر ما هم عليه من التحمس في محبة أبناء ملتهم لو أتيح لهم حظ من التعليم وأخيراً جاءنا نعيه بسبب العلة التي كانت تمكنت منه مع تغير الهواء عليه فذهب في شرح شبابه شهيد حيته وعلو همته وكان صديقاً حياً إلى فسأته رحمه الله عن أحوال المسلمين في تلك الجزائر النائية فأخبرني بأن عددهم هو من مليون إلى مليونين وأن السواد الأعظم منهم في جهالة عمياء لا يعرفون من الإسلام سوى كونهم مسلمين ولا يكاد يعرف الصلاة منهم إلا أفذاذ قلائل ممن حجوا بيت الله الحرام فعسى أن يقيض الله من المسلمين جعية تحنو حنو الأفرنج في التهذيب والارشاد فترسل إلى تلك الديار من يكمل مهمة وجيه أفندي الكيلاني التي لم تكند تبدأ حتى انتهت . لا نقطع الأمل بذلك ومن يقنط من رحمة ربه الأضالون

والفيليين هي أرخبيل أو مجموع جزائر في الأوقيانوس الكبير تتألف من نحو ألف ومائتي جزيرة صغرى وكبرى . وهذه الجزر هي القسم الشمالي من ماليزيا اكتشفها ما جلالان الملاح البرتغالي ودعيت باسم فيليب الثاني ملك إسبانيا وهي ممتدة على ١٥٠٠ كيلو متر من الشمال الشرقي من بورنيو بين بحر الصين والمحيط الباسيفيكي وتبلغ مساحتها السطحية ٢٩٦٠٠٠ كيلو متر مربع وأهم محاصيلها البن والأبازير « البهارات » وقصب السكر والأرز والتبغ والقنب ومن بحرهما وأنهارها يستخرج عرق اللؤلؤ والدر بكثرة ومناخها شديد ولذلك كان أهلها وعددهم زهاء سبعة ملايين نسمة أشداء أقوياء . وقد اضمحل سكانها الأصليون الأقبليلا بما داهمهم من بأس الفاتحين من الماليزيين وأكثر سكانها تمدناً اليوم هم التاغال وعددهم مليون ونصف والفيزيا وعددهم مليونان ونصف والفيكول وعددهم أربع مائة ألف والمورو أي المغاربة وهم المسلمون وعددهم كثير في الجزائر الجنوبية وهم اخلاط من الماليزيين والصينيين والهنديين والعرب والجاحين من

الأوربيين ويعد في جلة المسلمين قوم من الجوراماتادو يقدمون أرواحهم فدية لله ويتقربون اليه بقتل الكافرين وهم متعصبون على الجملة على ما وصفهم أكثر من كتبوا عنهم

ولقد استولت اسبانيا على هذه الجزر زمناً ولكنها لم تعمرها وغاية ما صرفت وكدها اليه تنصير السكان ليدنوا بالكنيسة فأصبح المتظاهرون بها والمنتحلون لها تسعين في المئة من السكان ولما لقي التاغال والميتيون مائقوا من سيطرة رجال الدين وسوء الادارة قاموا يريدون تخفيف ماناهم وأن يعاملوا بالمساواة مع البيض فشبت ثورة سنة ١٨٩٦ ولم تنطفيء شعلتها الا بوعد زعيم الثائرين أن تقوم اسبانيا بالاصلاح المنشود ولما لم تقم هذه الحكومة بوعدا عاد ذاك الزعيم يبدى نواجد الشر في السنة التالية بمعاونة الولايات المتحدة وبعد ان حاربت الحكومة الاميركية اسبانيا من أجل هذه الجزائر استولت على الفيلبين وكوبا وبورتوريكو ونكست اعلام اسبانيا وراح الأمير كان يستعمرونها فيحسنون استعمارها

ولما مد السلام رواقه على هذا الارخبيل وانتهى دور الكتاب والحسام جاء الدور للكتب والأقلام وأخذت المجامع العلمية تبث برسلها للبحث والتنقيب لتنظر في تاريخ الفيلبين واجتماعها وعمرانها فانتشر منذ سنة نحو عشرين مصنفاً في الكلام على هذه الجزائر ومن جلتها كتاب تاريخ المورو أي مسلمي الفيلبين لوطينا الفاضل الدكتور نجيب صليبي

ولقد اطلعنا على مبحث في مجلة العالم الاسلامي الفرنسية اقتطفته من مصادر كثيرة ومنها كتاب جزائر الفيلبين الذي ظهر مؤخراً بالانكليزية من قلم جون فورمان فآثرنا تحصيله للقراء ليقفوا على أحوال أولئك القوم ويعرفوا مبلغ عناية الغربيين بكل فرع من فروع العلم والاجتماع قالت المجلة الباريزية :

شغل المؤلف جزءاً عظيماً من كتابه بالكلام على المسلمين بعد أن اطلال عشرتهم وخالط زعماء الثورة ورجال الحكومة منهم خفاء من ذلك يبيان رأده الانصاف وسداه ولجته التحقيق وقد أبان في كتابه علاقة مسلمي الفيلبين مع الاسبانين سابقا ومع الأميركيين لاحقاً الى أواسط سنة ١٩٠٥

المسلمون اليوم هم عبارة عن ثمانية أو تسعة أعشار جزيرة مينداناو الكبرى وجميع

ارخبيل سولو مع جنوبى بالوان وكانوا منتشرين فى الشمال من تلك البلاد على عهد الفتح الأسبانى ولما نزلت الحملة الاسبانية الأولى فى جزيرة لوسون سنة ١٥٠٧ اختلطت لأول أمرها مع الراجا (حاكم توندو) وابن أخته الراجا سليمان فى مانىلا حاضرة الفيلبين اليوم وكان قائد الجيش الاسبانى العام اذ ذاك يرى سكان توندو ومانىلا مسلمين ويطلق عليهم فى مكاتباته الرسمية لفظ المورو (اى المغاربة) ولم يكن لأحد من الاسبانيين شك فى ذلك لأن المغاربة لم يطردوا الطرد الأخير من اسبانيا الا سنة ١٤٩٢

ولقد اختلفت الاقوال فى دخول الاسلام الى تلك الجزر والمرجح أن الجزر الجنوبية مثل ميداناو وسولو انتشر فيها الاسلام لقربها من مسامى شمالى بورنيو فاستولى المسلمون على سلطنة بورنيو عقيب أن خربوا مملكة الماجاباهيت من بلاد جاوى سنة ١٤٧٣ ولم يتحارب الاسبانيون مع سلاطين المسلمين الا فى سنة ١٥٧٧ وقد تقدم السلطان عبد القهار عدة ملوك مسلمين ومنه بدأ تاريخ الفتن بين المسلمين والاسبانيين . وبالجملة فان الاسلام انتشر فى ميداناو وبورنيو بمساعى دعاة من العرب على أنه لم ينتشر حقيقة فى جنوبى الفيلبين إبان الفتح الاسبانى ولم تنتحل سولو الاسلام الا بعد أن جاءها دايكس من بورنيو وتزوج أحد زعمائهم المدعو اندازولان - وكان استولى أولاً على جزيرة بازيلان ثم على سولو - من ابنة زعيم من أعيان المسلمين فى ميداناو وانتحل الاسلام وأسس سلطنة سولو ثم قويت شوكرته باتحاده مع بورنيو وميداناو

وعادت الاحقاد القديمة فتجددت بين الاسبانيين والمسلمين وحمل الاسبانيون على هؤلاء مدفوعين بعامل السخط الشديد وفى سنة ١٥٧٦ ثار لا كاندولا والراجا سليمان فى جزيرة لوسون ولكن قوة الاسبانيين اذ ذاك حالت دون انتشار الكلمة الاسلامية وان بقيت اليوم بقية من ذرية لا كاندولا فى بعض القرى فقد انحط مقامهم وأصبحوا نكرة لا تعرف حتى ان أحدهم كان خادما فى مطعم فرنسوى فى مانىلا سنة ١٨٨٥

وقد بعثت اسبانيا سنة ١٥٩٦ حملة على ميداناو فقتل قائدها عند نزوله الى البر وأغار الى سولو بنفسه سنة ١٦٣٨ فاحتل بعض المراكز فى شاطىء ميداناو حيث لقب الراجا سيويجى سنة ١٦٤٠ بقلب السلطنة . ولم تكن هذه السلطنة وذاك الاحتلال الاسباني حقيقة لهما اذ بقيت الفتن قائمة قاعدة بين المسلمين الأصليين والمسيحيين الفاتحين ولا سيما فى القرصنة . فدامت الغزوات البحرية بين الفريقين بلا انقطاع مدة ثلاثة قرون

فريق يعتقد أنه يجاهد جهاداً مقدساً وهم المسلمون وفريق يدعى أنه يحارب باسم الصليب وهم المستعمرون الاسبانيون

وفي أواسط القرن الثامن عشر حدثت بين المسلمين والاسبانيين فترة غريبة ذلك بأن المفاوضات بينهم انتهت بأن يكاتب ملك اسبانيا سلطان سولو الذي قاوم أحد اخوته مكانه فجاء مانىلا يطلب مساعدة حاكمها . ورأى السلطان محمد عليم الدين أن يتنصر فتعمد ولحقت به أسرته وبدأت تتعلم في مانىلا التعليم الاسبانى المسيحى وبعد سنتين رُخص له بأن يذهب من مانىلا الى سولو وزامبوانكا في موكب له فاضطر أولاً أن يكتب الى السلطان محمد أمير الدين في ميندانا وينصح له بلسان شديد اللهجة أن ينضم الى الاسبانيين . وبعد سفره بقليل تبين للحاكم الاسبانى أن العبارة العربية كانت مخالفة للعبارة الاسبانية التى كتبها بنفسه ووقع عليها ولذلك أمر بسجنه في زامبوانكا ثم أعيد الى مانىلا ولم يسع الوالى الاسبانى الا أن يعود الى تنصير ذاك الحاكم المسلم ولو صورة

ولما احتل الانكليز مانىلا سنة ١٧٦٣ وجدوا السلطان مسجوناً فأطلقوا سراحه فراح الى سولو وأقام على استئصال شأفة الاسبانيين في ميندانا وأصاب الانكليز أيضاً شئاً من شره وان أحسنوا معاملته . وقد بعث الانكليز الى سولو بمئة وخمسين رجلاً لتوطيد قدمهم فيها فدعاهم أحد زعماء المسلمين الى مأدبة وذبح منهم ١٤٤

وبعد أن انجلت انكلترا عن قاعدة تلك البلاد عدل الاسبانيون من معاملتهم للمسلمين فاعترفوا سنة ١٨٣٦ باستقلال سلطانهم هناك حتى اذا كان عام ١٨٨٤ سيروا عليه حملة واستولوا على حاضرة بلاده فراح السلطان وخاصة رجاله يحتفظون بألقابهم فأدرت حكومة اسبانيا عليهم رواتب ومشاهرات الا أن المسلمين لم يبرحوا يلجأون الى الغارة والنهب فى السواحل حتى قيل ان غارات المسلمين قويت شوكتها سنة ١٨٧٦ فلم يعد حكم اسبانيا فى سولو الا اسمياً

وهكذا جرت حوادث بين الحكام الاسبانيين والسلطين المسلمين يخضع هؤلاء تارة وينتقضون أخرى مثل سلاطين باكات وبوهاين وكودارنكان المتحالفين مع داتواوتو ولما ضاقت اسبانيا ذرعاً ببعض القبائل المسلمة وانتقاضها الحين بعد الآخر عازمت غداة ثورة سنة ١٨٩٦ أن تطرد المسلمين من عقردارهم وتسكن فيها جماعة من المسيحيين الوطنيين ثم خضع بعض اولئك الأمراء للاسبانيين خضوع حب لان منهم من كان يقدر

المدينة الغربية قدرها ولذلك ظلوا على موالاة الأميركانين أيضاً بعد ان استولوا على هذه الجزائر .

ويؤخذ مما كتبه فورمان أن الاحقاد القديمة بين الاسبانيين والمسلمين دامت على أشدها مدة ثلاثة قرون وظل المسلمون هناك يذكرون مآقع لاخوانهم مسلمي اسبانيا . وما كانت تجرى الشروط عليه بين والي مانيلا الاسباني وحاكم سولو المسلم أن لا تمس شعائر المسلمين . وعلى ما حاولته اسبانيا من تنصير المسلمين فقد خرجت من الجزائر كيوم دخلتها ولم تفلح فيما قصدت اليه . ولا شك أن جمهورية الفيلبين تحسن معاملة المسلمين كالاسبانيين وكذلك المسلمون لم يكونوا أقل عداء لسكان البلاد المسيحيين من معاداتهم للبيض .

ولما استولى الاميركيون على الجزائر لم يمضوا المعتقدات الاسلامية ولا عملوا على نقض شرع أهل الاسلام وان كانوا ينكرون عليهم ترتيباتهم في حكومتهم وهي حكومة أعيان « ارستوقراطية » وقد انتقد أحدهم على حكومة الولايات المتحدة أن وطدت نفسها على انتظار ادخال تعديل في حال المسلمين هناك وتعليقها الأمل بأن نشر التعليم العام بينهم سيؤدي بعدئ الى نتيجة حسنة . على ان الاميركان كانوا يوجسون خيفة من نظام الاقطاعات الشائع بين المسلمين هناك . وقد نادى حكومة أميركياً بأن يظل أهل ولاية المسلمين يحكمون انفسهم بانفسهم ولم تتدخل الا بعض الشيء في حكومتهم وادارة بلادهم وتمتاز حكومة أميركياً عن اسبانيا بأن طريقتهما في حكم تلك الجزيرة والمسلمين من أهلها خاصة هو بتدريب الاهلين على المبادئ الديمقراطية اما اسبانيا فقد أرادت أن تحمل على الاسلام نفسه لتخلص من المسلمين . ولو اقترب بعض الزعماء المسلمين من الاميركان سياسياً مع احتفاظهم بأخلاقهم من الوجهة الاجتماعية لما طال على البلاد عهد السلام

وقد عنت الحكومة الاميركية بتنظيم شؤون المسلمين وتأسيس بلديات لهم في الجزر تقيم مع المجالس الوطنية وتعمل بالعادات الوطنية ما امكن وهي العادات التي لاتنافي عادات الشعوب المتمدنة ولا اخلاقها وقد بلغ عدد جيش الاحتلال الاميركي النازل في جزيرة سولو وحدها ٤٨٣٩ رجلاً ٢٩٤٠ ضابطاً على ان الحاربين من أهلها لا يتجاوزون العشرين الف رجل . وفي تلك الولاية ٤١ مدرسة فيها ٢١١٤ تلميذاً و ١٥ معلماً اميركياً و ٥٠ معلماً مسيحياً وطنياً و ٩ معلمين مسلمين والمدارس خاصة بالتلاميذ والمتعلمين حتى ان ٢٤٠ طفلاً من المسلمين حرموا من الدرس الآن فباتوا ينتظرون لان المدارس ملئت بالتلاميذ والطلاب من المسلمين

الجزائر الهندية الشرقية الهولندية

محاضرة السيد اسماعيل العطاس

قد أهدانا نسخة من هذه المحاضرة الادبية حضرة الفاضل السيد اسماعيل العطاس من السادة الحضارم المقيمين بجاوى وكان القاها في نادى الشبان المسلمين بالقاهرة في ٦ يناير سنة ١٩٢٩ فاحينا ضمها الى هذا الكتاب لأنها من افضل الخلاصات عن بلاد الجاوى وهذا نصها : —

قبل العهد التاريخى

ان اكتشاف بعض الأدوات الحديدية في الزمن الأخير في جاوى وبحت علماء الآثار فيها دلا على أن هذه الفؤوس ورؤوس الرماح هي من أدوات العهد الحديدي السابق للتاريخ خلاف ذلك اكتشف بعض أجزاء من هيكل المخلوق المسمى Pithecanthropus Erectus وهو من نوع الانسان القردى Human Monkey أو الانسان القوسيلى Fossil-man الذى يظن بعض العلماء انه من الحلقة المفقودة The missing link هذه البقايا من العظام هي من العهد الفليوسينى phiocine period وانه من المحتمل أن هؤلاء الاناس القوسيليين هم أصل السكان القدماء في تلك البلاد

ويظن بعض العلماء الدارسين في تاريخ جاوى أن من هؤلاء القوم توالد الشعب الذى سكن جزيرة جاوى قديما والمعروف باسم كالافريج Kalang والمسمى عند غزاة الهند بالرشاكا Rashaka وكانوا يتعيشون من صيد السمك والحيوانات ولا يعرفون الزراعة ولا تربية المواشى وينتقلون من مكان الى مكان ويعيشون في جماعات قليلة بين العشرة والأربعين وكانوا على أكثر الاحتمال من عباد الشمس مثل الشعوب الأقدمين في بابلونيا

العهد الهندو

لم يذكر في كتب الهندو المعروفة بالفيديا Veda's شئ عن أول قدوم الهندو الى جاوى أما الكتب الجاوية المسماة بالباباد Babad's فقد ذكرت أن — الهندو «أني كا كا» aji Caka

زار جاوى فى حاشية عظيمة ويقال انه كان أميراً هندياً أو وزيراً أول لأمير هندو وزيارته هذه تعد أول مبدأ عهد الهندو وأول سنتهم يوافق سنة ٧٥ أو سنة ٧٨ ميلادية وهو أول من أسس أول دولة هندية فى جاوى واليه ينسب ادخال أول حكومة منظمة وانشاء أول دولة هندوية فى جاوى الوسطى المسماة ماتارام Mataram ولا يعرف من تاريخ العهد الهندو الا القليل ولكن آثارهم ومعابدهم القديمة تدل على أنه وجدت دول هندوية قوية فى جاوى أشهرها ثلاث

١ — دولة Mataram (ماتارام) المذكورة فى جاوى الوسطى

٢ — Padjadjaran (باجاجاران) فى غرب جاوى

٣ — Madjapahit (ماجابهيت) فى شرق جاوى

وكانوا يستعملون اللغة السنسكريتية كاللغة الرسمية والى الآن نجد هنالك كثيراً من

كلمات الملايو المستعملة من أصل سنسكريتى

وقد بلغت دولة المتارام Mataram الذروة القصوى فى القرن التاسع الميلادى ومنها تخرج العمال الماهرون والبنائون الذين بهروا العالم ببناء المعابد الفخمة مثل بورو بودور Boro-Budur ومندوت Mendoet وشندى سيو Tjandi Sewoe والتي تعد الى الآن من عجائب الدنيا وفيها برع العمال فى الصناعة القصديرية وفى طريقة رى الحقول الأرزية التى لم تزل مستعملة الى الآن

وفى عهد دولة باجاجاران Padjadjaran أسلم أول أمير هندو واسمه حاجى بورا

Hadji Paera وذلك فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى

وفى عهد مملكة ماجافهيت Madjapahit نشر مولانا ابراهيم الديانة الاسلامية فى

قرية ليران Leran القريبة من بلدة جريس Gresik وبعده أتى مبشرون اسلاميون آخرون فأسلم على أيديهم بعض الامراء من دولة ماجافهيت Madajapahit وفى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى وجد ثمانية أمراء مسلمون من الأهالى بألقاب ال « سوسوهونان » Susuhunan (سلطان) . وقد دارت رحى الحرب بين دولة ماجافهيت Madjapahit وبين الثمانية الأمراء المسلمين تحت رئاسة رادين فلتاه (الذى كان أميراً من دولة ماجافهيت Madjapahit واعتنق الاسلام) وبعد حرب دارت أربع سنوات انكسرت جيوش المسلمين ولكنهم لموا شعنهم مرة أخرى وأخذوا ثأرهم فى موقعة

دارت خمسة أيام فيها انكسرت جيوش دولة ماجافاهيت Madjapahiti شر كسرة ولم تقم لهم بعدها قائمة فكانت الضربة القاضية وذلك فى سنة ١٤٧٥ ميلادية وبسقوط دولة الماجافاهيت الهندوية (البوذية) تدهورت الديانة البوذية رويداً رويداً وهكذا انتشر الاسلام بدخول الأهالى والأمراء فيه جماعات ووحداً

العهد الاسلامى

ان تاريخ الجزائر الهندية الشرقية فى مدة الستمائة سنة الأخيرة هو من أحسن الفصول فى تاريخ انتشار الاسلام بالدعوة والارشاد

اجتهد أنصار قليلون فى نشر الاسلام والتوحيد والدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة دون مساعدة فى ابتداء الأمر من أمراء البلاد وفى بعض الأحيان امام عداوة مسلحة وهم لا سلاح لهم الا القلوب المطمئنة بالايمان والاخلاص والمجادلة بالتي هي أحسن

أما تاريخ دخول الاسلام فى الجزائر الهندية الشرقية فغير معروف بالتمام ومن المحتمل أن الاسلام دخل بدخول تجار العرب الى هذه البلاد فى أوائل القرون الهجرية . وهذه النظرية تنقوى بما هو معروف من أن العرب كانوا حاملين لواء التجارة بالشرق فى الزمن القديم . فى ابتداء القرن السابع الميلادى زادت التجارة مع الصين على طريق سيلان Ceylon حتى انه وجد تجار عديدون من العرب فى Canton كنتون بالصين فى منتصف القرن الثامن الميلادى . وفيما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر الى حضور البرتغال Portugese لم يكن للعرب منازع فى الرأس - التجارية الشرقية . لذلك يتقوى الاحتمال أن العرب قد ذهبوا بتجارهم الى بعض الجزائر الهندية الشرقية فى ابتداء القرون الاولى من الهجرة كما فعلوا فى أما كن أقرب وأخرى أبعد منها بينا بعض هذه الجزائر مثل سومطرا Sumatra واقعة بينهما .

انه وان لم يذ كر جغرافيو العرب هذه الجزائر فى كتبهم - قبل القرن التاسع الميلادى الا انه فى كتب التقويم الصينية مذكور أن فى سنة ٦٧٤ ميلادية كانت جالية عربية فى الشاطئ الغربى - من سومطرا

ويستنتج بعض العلماء من اتخاذ الاهالى الشافعية مذهباً لهم ومن انتشار المذهب الشافعى فى شواطئ الكوروماندل Coromandel وشواطئ الملابار Malabar الآن كما كان سابقاً فى منتصف القرن الرابع عشر - حين زيارة ابن بطوطة لهذه الجهات أن الاسلام دخل الى هذه الجزائر الهندية الشرقية من جنوب الهند ومن شواطئ الملابار

وذلك لأن مذهب البلاد الاخرى المجاورة حنفى ولان موانى الملابار يؤمها التجار قديماً من جاوى ومن الصين ومن اليمن ومن بلاد فارس ومن بلاد الهند أو من فارس دخلت الشيعة الموجود بعض بقاياها الآن فى جاوى وسومترا

ومن ابن بطوطة نعلم أن سلطان سومطرا Sumatra المسلم قد حسن العلاقات مع ملك دهلى Delhi وان من العلماء الدينين المقربين الى السلطان السومطرى اثنين من بلاد فارس أحدهما من شيراز والآخر من أصفهان وقبل ذلك بمدة كان قد كثر تجار الدكّ كنّ Dacca الذين احتكروا التجارة بين الممالك الاسلامية الهندية وبين الجزائر الهندية الشرقية - فى موانى هذه الجزائر وفيها زرعوا حبوب هذه الديانة الاسلامية السمحاء

فالى هؤلاء التجار المبشرين النازحين من بلاد العرب والهند يرجع الفضل فى تأسيس أول الجاليات الاسلامية من الأهالى وفى تحويلهم من عبادة الأصنام الى عبادة الله الواحد الرحمن فهم لم يدخلوا محار بين ولم يعلقوا السيوف فوق الرقاب لا كراه الناس فى الدين بل استخدموا اللطف والفكر والمعرفة فى سبيل نشر الدين الاسلامى أكثر من استخدامهم اياها لطلب السعة فى الرزق والغنى فى المال

إذا كان دخول العرب الى هذه الجزائر غير معروف بالتمام فانه معروف أنهم دخلوها قبل البرتغاليين فقد قال ماركو فولو Marco Polo الذى صرف خمسة أشهر فى الشاطئ الشمالى من سومطرا سنة ١٢٩٢ م ان كل السكان كانوا مجوساً وعباد أصنام عدا سكان البلدان فى مملكة بارلك Parlak الصغيرة الموجودة فى الشمال الشرقى من سومطرا لأنهم اعتنقوا الاسلام بواسطة تجار العرب

ولما دخل ابن بطوطة سومطرا سنة ١٣٤٥ وجد هنالك ملكا مسلما اسمه الملك الزاهر وتمتد سلطنته على الشاطئ مسافة ايام سفراً وقد كان محبا للباحثة مع علماء الدين وكان في حاشيته شعراء وعلماء

وقد تحصل العرب عموماً على احترام عظيم من الاهالى ونفوذ كبير فيهم سيما السادة والأشراف سلالة الحسن والحسين سبطي المصطفى ﷺ فقد تباهى أمراء الأهالى وملوكهم المسلمون بالنقرب اليهم بمصاهرتهم وتزويج بناتهم منهم ويتفاخرون اذا ولدن منهم سادة وأشرافاً . وقد صار البعض منهم سلاطين ولم يزل منهم أحياء يرزقون مثل سلطان وأمراء فونتياناك Pontianak من جزيرة بورنيو Borneo

منذ القرن السابع عشر كان أكثر مهاجري العرب الى هذه الجزائر حضارم وكانوا يتعيشون من التجارة وبعده أضافوا حرفة أخرى هي الملاحة فكانت مراكبهم الشراعية تنخر البحار كالأعلام وكان قبطانهم ونائب القبطان والادارى من العرب أما التجار فكانوا من الاهالى ومما لانزع فيه ان هذه المراكب كانت سببا في ازدياد عدد المهاجرين الحضرميين الى هذه البلاد وفي زيادة ثروتهم . وقد بلغوا ذروة المجد في الملاحة بين سنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٥٥ حين احتكرت مراكب الحضارم ملاحة الموانى ومنذ ذلك الحين ابتدأت مراكبهم الشراعية فى الانحطاط بسبب منافسة المراكب البخارية الاوروبية والآن لم يبق عندهم من المراكب شئ

عدد العرب

كان عدد العرب قبل ادخال الاحصاء غير معروف أما بعد الاحصاء فكان عددهم

كما يأتى : —

سنة	فى جاوى (ومدورا)	فى خلافا	المجموع
١٨٥٩	٤٩٩٢	—	—
١٨٧٠	٧٤٩٥	—	—
١٨٨٥	١٠٨٨٨	—	—
١٩٠٥	١٩١٤٨	١٠٤٤٥	٢٩٥٠٠
١٩٢٠	٢٧٨٠٦	١٧١١٥	٤٤٩٢١

عدد المسلمين الآن

في الجزائر الهندية الشرقية الهولندية فقط خمسون مليون مسلم وكثيرون من الاهالى الذين يعرفون الكتابة يتكاتبون بلغة الملايو بخروف عربية وفي لغة الملايو نفسها ما يزيد على ٢٥٪ من كلماتها مأخوذة من العربية

دخول الاوروبيين

للحصول على البهارات والذهب والاحجار الكريمة وخلافها رأسا من منابعها الشرقية بحث البرتغاليون في أواخر القرن الخامس عشر عن الاراضى والبلاد التى تخرج منها هذه الأشياء الثمينة وفي سنة ١٤٩٦ سافر فسكوداجاما Vascoda Gama ووصل الى مكان كلكتا Calcutta الحالية على طريق رأس الرجاء الصالح . ونجاحهم هذا وما يليه شجعهم على زيادة البحث والاسفار فى سنة ١٥١١ وصل البرتغالى انتونيو دى ابرو Antonio de Abreu الى جاوى وامبون و بندا Java. Amboun & Banda . وفي سنة ١٥٢٢ ارسل البرتغالى de Lerne الى Bantan (من جزيرة جاوى) التى كانت لم تزل حينذاك هندوية بوذية . وحيث ان حاكم Bantan البوذى كان محاربا لأمير شربون المسلم Cherihon استجار الامير البوذى لما أحس بضغفه بالبرتغاليين ووعدهم بمكان لبناء معمل Factory وبحريّة التجارة وبهدية سنوية قدرها الف كيس من الفلفل مقابل قلعة يبنها البرتغاليون للدفاع عن الميناء ومساعدتهم اياه فى حربه ضد أمير شربون المسلم . وبالرغم من اتفاقهم على ذلك فقد سافر البرتغاليون واعدين بالرجوع بقوة أكثر . ولكنهم لما رجعوا وجدوا أن سلطان شربون Cherihon قد انتصر واستولى على Bantan باتان

وهذه البعثة كانت سببا فى تأسيس التجارة بين البرتغال والجزائر الهندية الشرقية التى احتكروها لأنفسهم فيما بعد وقد بلغت تجارتهم اقصاها بين سنة ١٥٩٠ وسنة ١٦١٠ وبلغ عدد مراكبهم ١٥٠ الى ٢٥٠ فى الارسالية الواحدة . وفى أواخر القرن السادس عشر كانت Lissabon لشبونة أغنى ميناء فى اوروبا . وبينما كانت لشبونة مركز التجارة كانت الموانئ الهولندية اما كن التوزيع لشمال اوروبا وفى سنة ١٥٧٧ مر «دريك» Drake الانجليزى فى طوافه حول الأرض بجزائر الملوك Bantan & Moluccas

وفي سنة ١٥٩٤ منع البرتغاليون دخول المراكب الهولندية ميناء لشبونه فسد باب التجارة امام الهولنديين الذين كانوا وسطاء بين البرتغال وشمال اوروبا . لذلك اجتهد الهولنديون في الحصول على المعلومات اللازمة لمعرفة الطريق التجارى الذى يوصل الى الجزائر الهندية الشرقية . وقد تمكنوا من ذلك بواسطة Cornelis Houtman هولتمان الهولندى الذى سكن البرتغال وعرف السر . وقد أسس تجار امستردام شركة للتجارة مع الهند الشرقية وسافرت اربعة مراكب هولندية ، وموريس Maurits ، Holandia محمول الواحد ٤٠٠ طن وامستردام Amsterdam ٢٠٠ طن و Duyfje ٥٠ طناً تحت قيادة هوتمان المذكور فى ٣ ابريل سنة ١٥٩٥ ووصلوا باتم Bantam بجاوى فى ٢٣ يونيو سنة ١٥٩٦ ثم أرسل الهولنديون سنة ١٥٩٨ ارسالية أخرى تحت قيادة فان نك Jan Cornelis van Neck واخرى بعدها. ولما رأى البرتغاليون نجاح الهولنديين أرسلوا ٣٠ مركباً حربيّاً لمحاربة المراكب الهولندية الذاهبة الى الشرق الأقصى ولكن الهولنديين كسروا البرتغاليين وبذلك ماتت تجارتهم وأخيراً أخرجهم الهولنديون من الجزائر الهندية الشرقية وفى سنة ١٦١٧ عين جان بيترس كون Jan Pietersz Coen حاكماً عاماً هولندياً وفى ١٢ مارس سنة ١٦١٩ سميت القلعة بتافيا وفى ٣٠ مارس سنة ١٦١٩ تكونت البلدة بتافيا التى لم تزل الى الآن عاصمة للجزائر الهندية الهولندية

الجزائر الهندية الشرقية الهولندية فى الوقت الحاضر

الموقع الجغرافى والسكان

تمتد الجزائر الهندية الشرقية الهولندية من آسيا الى استراليا بين درجة ٩٥ ودرجة ١٤١ من خط الطول شرقاً وبين الدرجة ٦ شمالاً من خط الاستواء و ١١ جنوباً منه وأطول خط من الغرب الى الشرق خمسة آلاف كيلو متر حيث تمر فيها السفينة البخارية فى ١٤ يوماً فى وقتنا هذا ومسافة الخمسة آلاف كيلو متر هذه تعادل تقريباً المسافة بين الشاطئ الغربى لأرلندا فى الاطلانطيق وبين الشاطئ الشرقى للبحر الاسود فى آسيا وأبعد مسافة من الشمال الى الجنوب ٢٠٠٠ كيلو متر وتعادل المسافة بين البحر الأبيض الشمالى وروما

ليمكننا أن نتصور مساحة بعض هذه الجزائر يجب أن نعرف الحقائق من المقارنة الآتية:
جاوى و (مدورا) مساحتها ١٣١٥٠٨ كيلو مترات أو ٥٠٧٦٢ ميلا مربعا وتعادل
مساحة إنجلترا بدون اسكتلندا وويلز واراندا
سومطرا ٤٢٠٠٠٠ كيلو متر أو ١٦٢٠٠٠ ميل مربع أى أكبر من مساحة بريطانيا
العظمى.

بورنيو الهولندية فقط ٥٥٣٠٠٠ كيلو متر أو ٢١٣٠٠٠ ميل مربع تعادل فرنسا
سيليس ١٨٥٠٠٠ كيلو متر أو ٧١٠٠٠ ميل مربع أكبر من ولاية واشنطن
وتعادل مساحة نيوزيلند وسيلان معاً
نيوجينيا الهولندية فقط ٣٩٧٠٠٠ كيلو متر أو ١٥٣٠٠٠ ميل مربع مثل اليابان
(دون ملحقاتها)

ومجموع مساحة الجزائر المذكورة وغيرها من الجزائر الهندية الشرقية الهولندية
مليون وتسعمائة ألف كيلو متر مربع أو ٧٣٣٠٠٠ ميل مربع ويعادل مجموع مساحة
الدول الآتية — بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا وسويسرا
والدينمارك والسويد أو نصف مساحة أوروبا تقريباً بدون روسيا

ومجموع طول شواطئ هذه الجزائر يعادل طول دائرة الأرض circumference of earth

عدد السكان حسب احصاء سنة ١٩٢٠

جاوى (ومدورا) ٣٦٦٤٠٠٠٠٠٠

سومطرا ٦٢٢١٨٦٠٠٠

بورنيو الهولندية ١٦٧٥٧٠٠٠

سيليس ٣٦٣١٤٦٠٠٠

الباقى ٣٦٣١٩٠٠٠٠

فالمجموع هو ٥١٠٠٠٠٠٠٠٠

الطقس

تبلغ درجة الحرارة على الشواطئ فى النهار عادة ٢٦ ر ٥ سنتجراد (يساوى ٨٠

فهرنيت) وبالليل ٢١ س (٧٠ ف) ويختلف الجو اختلافا عظيما بسبب الجبال الكثيرة العالية المكسوة بالخضر وبسبب الاودية فكلا زاد العلو قلت الحرارة وزادت البرودة عادة بنسبة نصف درجة س في كل ٣٠٠ قدم أو درجة واحدة ف كل ٣٣٠ قدما . فينما نشعر بالحر على الشواطىء نحس باعتدال الربيع في الاماكن المتوسطة العلو وبالشئاء في الاماكن الجبلية العالية وتارة لا فارق بين الصيف والربيع والشئاء الا ساعات قليلة

الحكومة

ان الجزائر الهندية الشرقية الهولندية تكون جزءاً من المملكة الهولندية سياسيا والقوانين الهولندية هي أعلى القوانين ولكنها عادة لا تتدخل الا في القوانين التي تؤثر في الأحوال الاقتصادية وخلاف ذلك فان الجزائر الهندية الشرقية مستقلة استقلالاً اداريا في التشريع والنفوذ الأعلى للملكة التي تحكم بموجب قوانين الحكومة . وناظر المستعمرات ينوب عن الملكة فهو الذى يشرف على الحكومة الهندية الشرقية الهولندية ويحكم الحاكم العام كذلك باسم الملكة ويساعده في التشريع والادارة مجلس الهند الادارات وهي ادارة العدلية والمالية والداخلية والمعارف والزراعة والصناعة والتجارة والأشغال العمومية والأشغال الحكومية Gouvernment bedryven Industries والحرية والبحرية ثم السكرتارية العمومية

ومنذ سنة ١٩١٨ أنشئ مجلس الأمة Volksraad ونصف أعضائه منتخبون والنصف يعينه الحاكم العام وهذا المجلس استشارى ويمكن للحاكم العام أن يستشير في كل الامور ولكنه مضطر الى استشارته في الميزانية Budget وسلف المستعمرة

الزراعة

لا توجد أرض في البلاد الحارة تزرع فيها مختلف المزروعات مثل الجزائر الهندية الشرقية الهولندية ولا سيما جاوى والزراعة هي أهم أسباب التقدم الاقتصادى فيها وأكثر الاراضى في جاوى مرتفعة الى علو ١٥٠٠ متر أو ما يزيد على ٤٥٠٠ قدم مزروعة في هذه الاماكن العالية يزرع الدخان والشاى والقهوة . وفي الأماكن

المتوسطة والتلوية يزرع الارز والذرة والبقول والتمباك والدخان والبطاطس والكاوتشوك
بينما في الاراضي الواطية يزرع قصب السكر والجوز الهندى والكافور Kapok ويمكن تقسيم
الزراعة الى قسمين :—

(١) الزراعة التى فى أيدى الاوروبيين

(٢) الزراعة التى فى أيدى الاهالى

والاولى للصادرات والثانية أكثرها للاستعمال فى البلاد وكذلك للصادرات وأهم
زراعة الاهالى الارز ثم ال Cassava البطاطس والجدول الآتى يبين مساحة الارض المزروعة
باليكتار والهيكتار يساوى ٢٤٧١ و٢ فدان انجليزى وحاصلها بالطن ton الميترىكى

الارز المائى	٢٥٩١٠٠٠٠	هيكتار حاصلها	٦٥٠٥٧٥٠٠٠	طن ton
الارز غير المائى	٣٨٥٦٠٠٠	»	٤٣٥٦٠٠	»
الذرة	١٦٥٩٨٦٠٠٠	»	١٦٥٦٤٦٢٠٠	»
البطاطس	١٤٨٦٠٠٠	»	١٧٠٦٥٠٠	»

اما أراضي الزراعة التابعة للاوروبيين فتبلغ مساحتها ٩٧٥٠ ر ٢٦١٠ هكتار منها
٩٠٧٦٥٦ هكتارا مزروعة ومن الأخيرة هذه ٢٢٦ ر ٥٧٥ هكتاراً فى جاوى أى ٦٣ ٪
ومن الجدول الآتى نعرف اهميتها

قصب السكر يزرع شرقى جاوى وبموجب احصاء ١٩٢٥ كانت فى تلك السنة ١٧٩
فابريقه اخرجت ٢٥٣٠٠٠ متر ك تن Metric ton سكر من ٢٦٧ ر ١٧٦ هكتار أرض
مزروعة بالقصب وكان متوسط محصول الهكتار الواحد ١٢٧٨٠ كيلوجرام المطاط أو الكاوتشوك
أو Rubber فى اوائل سنة ١٩٢٦ بلغ عدد العزب Estates ٨٧٥ منها ٤٨٤ فى جاوى ومجموع
المساحة المزروعة ٥٠٤٨٠٧ هكتاراً منها ٤١٤٩٤٨ هكتاراً مزروعة بال Hevea ومن المساحة
الأخيرة ١٨٠٤٧٨ هكتاراً فى جاوى

القهوة

بلغ مجموع العزب estates فى سنة ١٩٢٦ — ٣٦٠ منها ٢٧٠ فى جاوى ومجموع المساحة
١١٦٥٣٠ هكتاراً منها ٩٥٢٨٦٠ هكتاراً ذات محصول من ذلك ٩٥٣٥٧ هكتاراً فى جاوى
منها ٨٠٧٤٦ هكتاراً ذات محصول والمحصول فى سنة ١٩٢٥ — ٦١١٥٣ طناً منها ٥٧٦٩٣ أو
٩٤ ٪ من النوع المسمى روبستا Robusta Coffee

الشاي

أكثر الشاي مزروع في غرب جاوى من ٢٨٥ estates ٢٦٠ في جاوى و ٢٥ في سومطرا ومجموع المساحة المزروعة في سنة ١٩٢٦ هي ٩٧٠٦٣١ هكتاراً

التبأك

المساحة المزروعة في سنة ١٩٢٦ - ٤٥٠١١٥ هكتاراً منها ١٨٠٦٨٨ في سومطرا والباقي في جاوى cinchona ٩٠ ٪ من محصول الدنيا تخرج من جاوى ومجموع مساحة الأرض المزروعة ١٩٠١٥٧ هكتار

بعض صادرات المحصولات الزراعية سنة ١٩٢٥ وأثمانها

٥٦٦ مليون روبية	١٩٠٠٠٠ طن ثمنه	الكاوتشوك
» ٣٦٧	» » ٢٠٠٠٠٠٠٠٠	السكر
» ١١٠	» » ٩٢٠٠٠٠	تبأك
» ١٠٢	» » ٣٥٠٠٠٠٠	الزجيل الناشف
» ٦٨	» » ٦٩٠٧٣٥	القهوة
» ٧٤	» » ٥٠٠٠٠٠	الشاي
» ١٩	» » ٢٦٠٥٠٠	الفلفل

أما مجموع أثمان الصادرات كلها فهو :

١٦٧٨٤٠٧٩٨٠٠٠ روبية أى ما يزيد على ١٤٨٠٠٠٠٠٠٠ جنيه انكليزى

المواصلات

نصف السفن التجارية التى تأتى وتخرج من هذه الجزائر هولندية وتليها السفن البريطانية واليابانية ثم الأمريكية أما السكك الحديدية فتوجد في جاوى ٥٣٩٤ كيلومترا وفي سومطرا ١٦٧٣ وأكثر هذه السكك الحديدية تابعة للحكومة ومجموع ايراد السكك الحديدية في سنة ١٩٢٥ — ١١٩٠٩٢٢٠٠٠ روبية منها ٦٤٠٥٢٥٠٠٠ روبية للحكومة

نسبة بعض الحاصلات الى حاصلات العالم

تنباك	٩٠٪ من حاصل الدنيا	القصدير	٢٢٪ من حاصل الدنيا
كافور	٨٤٪ »	النشأ	١١٪ »
الفلفل	٨٠٪ »	السكر	٩٪ »
الكاوتشوك	٤٦٪ »	البن	٧٪ »

واذا نسبنا مجموع الصادرات الذي هو ١٥٧٨٤٥٧٩٨٥٠٠٠ الى مائة فتكون نسبة
أثمان الصادرات هكذا :

الكاوتشوك ٣٢٨٦٪ والسكر ٢٠٧٠٪ وزيت البترول ٩٦٩٪ والتمباك
٦١٩٪ والزجيل الناشف ٥٧٤٪ والقصدير ٤٣٦٪ والنشأ ٤١٧٪ والقهوة
٣٨٢٪ والفلفل ١٣٥٪ والكافور ١٢١٪
فيكون المجموع هو ٨٧٪ وباقي الصادرات ٩٠٤٪ فالمجموع ١٠٠٪

يساوى ١٥٧٨٤٥٧٩٨٥٠٠٠ روبية

ونسبة توزيع الصادرات هكذا :

سنغافور	٢٦٦٨٪	هولندا	١٥٤٦٪
الولايات المتحدة	١٤٠٩٪	الهند الانجليزية	٠٨٠٤٪
بريطانيا العظمى	٦٨٤٪	هونج كونج والصين	٥٦٦٪
اليابان كوريا ومورموزا	٥٥٠٪	فرنسا	٣١٢٪
ألمانيا	٢١٢٪	استراليا	١٩٤٪
باقي الدنيا	١٠٥٤٪		

الصادرات	الواردات	زيادة الصادرات
في سنة ١٩٢٢	٨٠٠	٤٠٠ مليون روبية
في سنة ١٩٢٣	٧٠٠	» » ٧٠٠
في سنة ١٩٢٤	٧٥٠	» » ٧٥٠
في سنة ١٩٢٥	٨٨٠	» » ٩٠٠

جَاهِزُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ

تأليف لوثروب ستودارد الامريكى

Lothrop Stoddard

نقله الى العربية

الأستاذ عجاج نويهض

وفيه فصول وتعليقات وخواشٍ مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الأمير شكيب أرسلان

المجلد الأول

الجزء الأول

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

فهرست

المجلد الاول

من كتاب حاضر العالم الاسلامى

مقدمة المؤلف فى نشوء الاسلام وارتقائه وانحطاطه من صفحة ١ — ٢٣

الفتح العربى للامير شكيب ارسلان من صفحة ٢٤ — ٣٠

البعثة المحمدية وأقوال جبهة من العلماء والفلاسفة والمؤرخين الاوربيين فى النبى ﷺ

المنصف منهم والمغرض للامير شكيب ارسلان من صفحة ٣١ — ٤٢

السيرة النبوية وكتاب « حياة محمد » لأميل درمنغهم وتعليقات للامير شكيب ارسلان

من صفحة ٤٣ — ١٠٤

تعليق المؤرخين الاوربيين لسقوط مملكة فارس والمملكة الرومانية بيد العرب صفحة ١٠٥

الحضارة الاسلامية ورقى العرب الفكرى فى القرون الوسطى للامير شكيب ارسلان

من صفحة ١٠٦ — ١١٧

لماذا الاسلام راق بذاته والشعوب الاسلامية غير راقية وأقوال البرنس جوفانى الايطالى

والفيلسوف كوندوسه الفرنسى فى المقارنة بين نظام الاسلام والكثلكة من صفحة

١١٧ — ١٢٧

مدنية الاسلام من صفحة ١١٨ — ١١٩

الرد على حساد المدنية الاسلامية المكابرين من صفحة ١٢٠ — ١٢١ للامير شكيب

اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها من » ١٢٢ — ١٢٤ »

سبب تأخر أوربة الماضى ونهضتها الحاضرة من » ١٢٥ — ١٢٧ »

المدنية العربية وخدمة العرب لعلم الطب للامير شكيب ارسلان من صفحة ١٢٨ — ١٣٦

الحركة العلمية فى الحضارة العربية كما يصفها الفيلسوفان ولز الانكليزى ودابر الأميركى

من صفحة ١٣٧ — ١٥٥ للامير شكيب

العصبة الفارسية والاسلام - مهيار الديلمي و بديع الزمان الهمداني - للامير شكيب ارسلان
صفحة ١٥٦

نظرية « القومية العثمانية الاسلامية » و « القومية التركية الطورانية » للامير شكيب
ارسلان من صفحة ١٥٧ — ١٦٠

اسلام الفرس ومبدأ التشيع للامير شكيب ارسلان من صفحة ١٦١ — ١٩٣
المتاوله والشيعه للامير شكيب من صفحة ١٩٣ — ١٩٨

التشيع أيهما فيه أقدم الشام أم العجم للامير شكيب من صفحة ١٩٩ — ٢٠٤
ترجمة القرآن الى غير العربية للامير شكيب من صفحة ٢٠٥ — ٢١٣

محاضرات العرب للقسطنطينية للامير شكيب من صفحة ٢١٤ — ٢١٨

فتح الترك للقسطنطينية وخلاصة خططها للامير شكيب من صفحة ٢١٨ — ٢٣٧

التسامح والتعصب بين الاسلام وأوربة للامير شكيب من صفحة ٢٣٨ — ٢٣٩

الفرق بين الخلافة والمملك - هدى الخلفاء الراشدين - سيرة عمر بن الخطاب للامير شكيب
من صفحة ٢٤٠ — ٢٥٨

الفصل الأول من الكتاب في اليقظة الاسلامية من صفحة ٢٥٩ — ٢٧٧

المبشر زويمر ومفترياته للامير شكيب من صفحة ٢٧٨ — ٢٨٢

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده للامير شكيب من صفحة ٢٨٣

الاستاذ الأكبر السيد محمد رشيد رضا للامير شكيب من صفحة ٢٨٤ — ٢٨٦

الفصل الثاني من الكتاب في الجامعة الاسلامية من صفحة ٢٨٧ — ٣٢٨

الدول المستعمرة والاسلام للامير شكيب من صفحة ٣٢٩ — ٣٣١

أثر روسيا في الشرق قديماً وحديثاً للامير شكيب من صفحة ٣٣١ — ٣٣٣

الفتوحات الاسلامية في الهند والتقسيمات الجغرافية وعدد مسلمي كل ايلة للامير شكيب
من صفحة ٣٣٤ — ٣٣٧

الاسلام في جاوى - المستشرق هورغرونيه وسياسته نحو الاسلام - مسألة الحضارة

للامير شكيب من صفحة ٣٣٨ — ٣٥٧

مسلمو الفيلبين للامير شكيب من صفحة ٣٥٨ — ٣٦٣

الجزائر الهندية الشرقية الهولندية - محاضرة السيد اسماعيل العطاس من صفحة ٣٦٤ — ٣٧٥